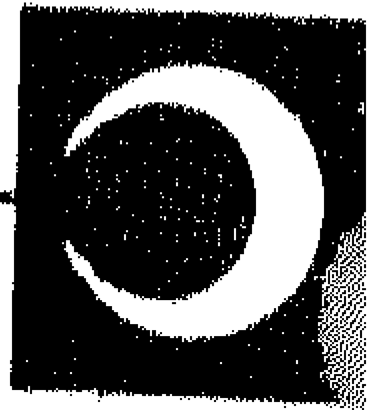



كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

سحر الغناء العربي

كمال النجمي

٢٦١

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦١ – رجب ١٣٩٢ – سبتمبر ١٩٧٢

No. 261 — September 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي : (١٢ عددا) في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي ١٠٠ قرش صاغ – وفي سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • في الخارج بشيك مصرفي قابل للصرف في جمهورية مصر العربية – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي – وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال

سلسلة شهرية للنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

كمال النجمي

سحر الغناء العربي

دار الهلال

تقديم

فى السنوات الاخيرة شهدت الاقطار العربية ـ بين المحيط والخليج ـ حفلات كبرى غنت فيها أم كلثوم ، بعدما لبثت حفلاتها زمنا غير قصير داخل حدود مصر ، بل داخل نطاق القاهرة وبعض المدن المصرية فقط .. الا رحلات قليلة خاطفة الى بعض الاقطار الشقيقة قامت بها أم كلثوم فى أوقات متباعدة قبل أن تغمر بحفلاتها الاخيرة كل الوطن العربى تقريبا فى الزمن الاخير ..

وقد دخلت زيارات أم كلثوم الاخيرة للبلاد العربية تاريخ الغناء العربى كظاهرة تكاد تكون فريدة فى نوعها طوال هذا التاريخ ، ولكنها ليست غريبة الدلالة ، لان الغناء العربى يمثل فى وجدان الانسان العربى من قديم ، قيمة حضارية وقومية خاصة ، تتجدد على الدوام فى كل الاصوات والالحان التى تنتسب الى الغناء العربى انتسابا لا شائبة فيه . وهذا هو ـ فى الحقيقة ـ سحر هذا الفن العربى العريق الذى ما زال عالقا بالنفس العربية ولن يزال ..

ان لهجات كلامنا المحلية تختلف بطبيعة الحال ، وحتى لغتنا الفصحى يتباين رنينها فى لسان كل شعب .. فكيف اجتمعت الشعوب العربية كلها على

تذوق الغناء العربى بدرجة واحدة من الحماسة والحب والولاء .. ولا أقصد – هنا – غناء أم كلثوم وحدها – وهو القمة – بل أقصد كذلك غناء فيروز ووديع الصافى وصباح ومطربين آخرين فى لبنان ، كما أقصد – على سبيل المثال – غناء المطرب صباح فخرى فى سوريا ، وغناء علية التونسية ، وبقية الاسماء التى تختلف البيانات المكتوبة فى جوازات سفرها ، ويتفق المواطنون العرب على الاستماع اليها بوجدان مشترك ولكن باسماع يختلف فيها وقع النغمات ؟ ! ..

لا نحتاج أن نذكر هنا عبد الوهاب وفريد الاطرش وعبد الحليم وفايزة وشادية ونجاة وقنديل وعبد المطلب ، فضلا عن فرقة الموسيقى العربية بمطربيها ومطرباتها المجهولى الاسماء المشهورى الاصوات .. وبقية المشتغلين بالغناء العربى الذى سماه بعض الاوربيين أو الامريكيين : « الفن العربى الاول » بسبب التفاف الشعوب العربية حوله ، واستقبالهم نفحاته بذوق صهرته البوتقة القومية فكأنه ذوق انسان واحد لا أذواق مائة مليون انسان تنوعت أساليب حياتهم المادية والوجدانية ..

أم كلثوم تجمع المائة مليون على غنائها ، ويجمعهم ايضا المطربون الآخرون بدرجات متفاوتة على الوان الغناء العربى المتنوعة ، وليس الاجتماع هنا أو الاجماع وليد عشر سنوات أو عشرين ، بل هو تاريخ واسع عاش الدهر الطويل الذى عاشته العروبة من المحيط الى الخليج .

فكيف حدث ذلك ؟ ! ..

الاجابة هنا تبدو متعلقة بسر يكمن فى هذا الغناء المنفرد بخصائصه .. فلا ينكر أحد ان فى هذا الغناء

سره او سحره الخاص الملاصق للنفس العربية منذ الزمان الاول ، ولكن ما هو هذا السحر أو هذا السر ؟ !

ان حلاوة الاصوات ، ولو كانت باهرة كصوت أم كلثوم ، وتنوع أساليب الغناء ولو كانت غزيرة كما عند الكثير من المطربين المسموعين ، لا تكفى لجمع شعوب تنتشر على مساحة شاسعة من الدنيا . واذا توافرت الاسباب لجمع هذه الحشود العظيمة مائة عام ، فهل يصح فى الاذهان أن تبقى هذه الاسباب متوافرة اربعمائة عام ، بل الفا وأربعمائة عام ، الا اذا كان وراءها سر أو سحر خاص له أحكام خاصة لا يمكن الاستهانة بأصالتها ؟ ! ..

السر كما لا يجهله عارفوه ، يكمن فى طقوس الغناء العربى ، أو طقوس الصوت العربى ، فان للصوت العربى والغناء العربى أسرارا فنية بالغة الدقة والرهافة ، لا يملكها كل من ارادها بمجرد قراءة ما كتبه عنها أصحابها أو قالوه أو بمجرد محاولة التدرب عليها كما يتدرب كل ذى صناعة على صناعته .

ومن لم يولد وفى فمه ملعقة هذه الطقوس الذهبية ، فانه يعيش دائما غريبا عن الغناء العربى ولو جلس على مقاعد معاهد الموسيقى العربية طول عمره .. أما اذا جلس على مقاعد المعاهد الموسيقية التى تحزم لوائحها ونظمها دراسة الموسيقى العربية ، فالله يحكم بينه وبين سامعيه اذا خطر له أن يغنى لهم ذات يوم أو ذات ليلة شيئا من غنائه المستهجن ..

هذا ما يجعل الصوت « الخوجاتى » عاجزا عن الغناء العربى الصحيح مهما انتسب ـ أو مهما نسبوه ـ بقوة الايهام أو قوة الدعاية الى الغناء العربى .. وقد تجد بعض الاغنيات من هذا اللون من يسمعها بعض الوقت ،

ولـكنها لن تجد من يسمعها كل الوقت . وقد تجد من يستطرفها ــ بالطاء لا بالظاء ــ ويجمع اسطواناتها كما يجمع الطرائف .. ولكن المستمع العربى الحقيقى يبقى غريبا عنها ..

وطقوس الموسيقى العربية أو الغنـاء العربى ، هى ــ بكل اختصار ــ ملامحه وتقاليـده وأوضـاعه التى صنعتها وأنضجتها عوامل التاريخ العميقة .. وربطتها بالانسان .. والتى تنطبع فى المغنى كجزء لا يتجزأ من موهبتـه الفنيـة ودربتـه وقدرته وتمرسه بالاسرار التكنيكية لصناعة وفن الغناء تمرسـا لا زيف فيه .. ولو تسرب اليه أقل قدر من الزيف لافتضح وسقط ، لان الغناء العربى فن طبـع وفطرة واسـتعداد خاص لاستيعاب التراث الغنائى ، وهو فن شديد الشفافية ، يكشف لابسيه ، كأنه ــ مع الفارق فى التشبيه ــ ثوب الرياء الذى قال الشاعر القديم انه يشف عما تحته !..

وهـذه الطقوس كلها ساعدت الانسان العربى على استقبال غنائه القومى بطرق متنوعة ، وتذوقه بأساليب كثيرة ، لانه غناء حى ذو مرونة تجعله يتسع لكل جديد وكل تطور وان اكتسب على مر الزمان ثباتا يستعصى على كارهيه الذين طال انتظارهم لنهايته وهو يتجدد عودا على بدء بلا انتهاء ! ..

ويقع الغناء فى البطلان ، ويصبح تجريدا ميتافيزيقيا ــ على حد تعبير الفلاسفة ــ اذا تعرى من ثيابه القومية واكتسى ثوب التقليد الذى لا يبالى من يلبسه أن يجلس كما ولدته أمه فى نادى العراة ! ..

والذين ينكرون هـــذه الحقائق البسيطة مصابون ــ مع الاسف ــ بالصمم الغنائى أو بعمى الالوان الغنائية. لا فرق عندهم بين صفير الناى وصفير القطـار ، ولا

بين الصوت الذهبى والصوت الترابى كصوت بعض من سمعناهم ونرجو ـ مخلصين ـ أن يسامحهم الله ! ..

وقد أردنا فى هذه الفصول المتنوعة التى يتضمنها كتابنا « سحر الغناء العربى » أن نعرض مواقف مختلفة للغناء العربى الحديث والقديم وآراء كثيرة يتجلى فيها سحره الخاص على الملحن والمغنى والمستمع جميعا ، وهو سحر لا علاقة له طبعا بأسطورة السحر القديمة ، وانما نتخذ هذه الكلمة هنا للتعبير عن التعلق العفوى المتوارث للنفس العربية بالغناء العربى فى ألوانه الشديدة الثراء ، وتطوراته التى تتزايد بلا انقطاع ، وتكشف فى كل مرحلة من مراحلها عن المرونة والسعة فى هذا الفن العربى السحرى ..

وليس كل ما فى هذا الكتاب كلاما مباشرا عن سحر الغناء العربى ، ولكن سحره مع ذلك لا يخفى فى كل جولة قمنا بها فى هذا الكتاب حول صرح هذا الفن العظيم ..

كمال النجمى

كيف نغنى للمعركة ؟

كيف تكون الاغانى خلال المعركة ؟ ! .. اقصد الاغانى الميكروفونية التى سارت فى الاثير الى كل شبر من البلاد . الاغانى المؤلفة والملحنة والمغناة على أسس فنية ، والمسجلة بالآلات « التكنولوجية » .. والمدفوعة الاجر ــ ضئيلا أو جزيلا ــ للمؤلف والملحن والمغنى ؟ !

المعركة بطبيعة الحال حديد ونار ، لكن التعبير عنها بالغناء أو المشاركة فيها بالغناء ، قد يأخذ شكلا هادئا يميل الى الخيال أو الرمز أو العاطفة ، أو يميلُ حيثما يميلُ هنا وهناك ..

هذا النوع من التعبير الغنائى تنافسه الاناشيد ذات الدوى المهيب ، وعندنا منها الكثير ، وعندنا القليلُ من الاغانى التى ليس لها دوى مهيب ..

وليس من الحصافة أن يميلَ الغناء براسه طربا أو يميلَ براسه غضبا من يوم الى يوم ، فالفن الحقيقى بطىء ، والفن الاستهلاكى سريع ، واذا كان الفن الاستهلاكى مطلوبا ، فالفن الحقيقى أيضا لابد من وجوده ..

فى سنة ١٩١٩ وما تلاها من سنوات الوطنية المصرية العارمة كان المسرح الغنائى فى القاهرة يرفع عقيرته بألحان لسيد درويش تقول : « دقت طبول الحرب

يا خيالة» .. و« احسن جيوش فى الامم جيوشنا ».. و « الجيش رجع م الحرب بالنصر المبين » ..

ولم يكن فى مصر الا جيش الاحتلال البريطانى ! ..
الآن.. تغيرت الصورة .. طبول الحرب تدق بصوت يبلغ المسامع بوضوح ، أو هى ـ الطبول ـ على وشك أن تدق ، ولكن يمنعها من الدق ما تتطلبه الاناة والحكمة ، وما يقتضيه الصبر الجميل على المصاعب والمكاره ..

كذلك ، أصبح لنا جيش وطنى أعيد بناؤه ، وارتبط به الامل فى استنقاذ شرف الوطن بل وجود الوطن ، من براثن عدو لم يسبق له مثيل فى تاريخنا ..
ولكن المبالغة فى التعبير بالغناء عن ذلك كله لن تاتى بالنتيجة المرجوة ، فلن يتحمس المستمع لاغنية او نشيد يقول له كلاما مباشرا مبالغا فيه ، مصوغا فى الحان زاعقة راعدة ، مؤداة باصوات تكاد تتقطع اوتارها من فرط الانفعال المفتعل ! ..

ان الغناء ـ والفن كله ـ اذ يشترك فى المعركة ويغنى لها ويدعو ويمجد ، يتناقض احيانا مع نفسه أو مع المعركة ، ويبدو كانه قد شرد أو تاه أو تبعثرت أدواته من يديه ، ومع ذلك يبقى الفن فى المعركة جزءا منها ما دام صادق التعبير عنها ، وليس مجرد تلفيق كلمات ، أو تلزيق الحان ، أو تزويق شعارات !

وهذا كله قد لا يتوافر فى الأغانى الميكروفونية ، اغانى الاذاعة والتليفزيون ، لانها تخضع لمواصفات خاصة تفرضها اللوائح والنظم الروتينية ، وتتدخل فيها اعتبارات لا أول لها ولا آخر . ومن الممكن ان تنفذ من خلال هذا الغربال الواسع اغان لبعض كبار المطربين والمطربات تفرض نفسها على الاثير كل يوم ..

هل يمكن اذن فتح باب الاذاعة لمن يريد ان يغنى للمعركة من أبناء الشعب ما داموا يحسنون الغناء بدرجة مقبولة ؟ ! ..

ان أولاد الارض ـ مثلا ـ أكثر تأثيرا بغنائهم من فلان وعلان من المطربين المحترفين وحولهم حشود من العازفين والمنشدين ذوى الاصوات الجهيرة ..

وعندما تحتدم المعركة ، يحب الشعب أن يسمع نفسه يغنى .. يحب الصدق فى الكلمات والالحان والاصوات ..

ولو قسمنا الوقت فى الاذاعة والتليفزيون بين ابناء الشعب وبين المطربين المحترفين ، لما أغلق أحد جهاز الراديو ! ..



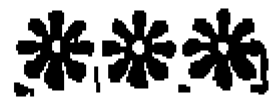
ان الغناء ديوان الشعب ومرآة حياته .. نستطيع أنا وأنت وجميع مواطنينا أن نجد فى كلمات أغانينا وفى ألحانها صورا من أفراحنا وأحزاننا .. انتصاراتنا وهزائمنا .. جدنا وهزلنا .. صمتنا وثرثرتنا ..

يكفى ان تسمع شيئا من الغناء المصرى فى الخمسين سنة الماضية لتتذكر ما جرى لوطنك ومدينتك وقريتك ، وما وقع لاخيك وأبيك وجدك ، ولك أنت شخصيا ولمن حولك من الاهل والاصدقاء وغير الاصدقاء طوال هذه الفترة الحافلة من عمر الوطن ..

والآن اتسعت الدائرة ، دائرة الغناء الذى يصور لك وطنك وما جرى له وما جرى لك ولغيرك فوق أرضه وتحت سمائه ، فالغناء المصرى لم يعد وحده يملأ أذنيك ويجعلك تحزن أو تفرح .. تيأس أو تتشجع .. ان الوطن العربى الكبير بأجمعه يغنى الآن ملء الاثير ، واللحن الذى نتلقاه من اذاعة قطر عربى

شقيق يتضمن من التعبير عن حالك مثلما يتضمنه لحن مصرى تسمعه من اذاعات القاهرة ..

بل ان المسرح الغنائى الذى كان معناه عندنا مسرح سلامة حجازى او منيره المهدية أو سيد درويش .. الى مسرح وزارة الثقافة فى هذه الايام ، لم يعد هذا معناه ، ففى البلاد العربية الآن مسارح غنائية ، تخاطبك وتحاور اذنيك وعينيك بلغة مشتركة بينك وبينها ، فكلنا عرب ، « ولكن كلنا فى الهم شرق » ، على حد تعبير شاعرنا الكبير أحمد شوقى ! ..



ولم انس مسرحية غنائيه شهدتها فى دمشق للأخوين الرحبانيين وفيروز .. تدور حول قضية فلسطين بالرمز الفنى لا بالصراحة الخطابية ، واسم المسرحية — على ما اذكر — جبل الصوان أو جبال الصوان ..
اعجبتنى الالحان وراقنى غناء فيروز والاصوات المدربة البارعة القوية التى غطت المسرحية أرضا وسماء ، كما اعجبنى التعبير بالرمز الفنى ، لانه كان أشد وضوحا من الزعيق المنبرى . فمن السهل أن اعظك وارفع صوتى فى سمعك واهرك هتافا ما دمنا فى معركة أو مشكلة أو مأزق ، ولكن من الصعب أن نصنع فنا للمعركة أو نتحسس بالفن أشواك المأزق ومخالب المشكلة ! ..

ومع ذلك خرجت من المسرحية الغنائية غير مقتنع بنهايتها ، لان الغزاة الغاصبين اقتنعوا فى نهاية المسرحية — أو فى النهاية المسرحية — بأنهم يجب أن يرحلوا من الارض التى غزوها واغتصبوها ومزقوها بالفتك والهتك أفظع تمزيق ! ..
فى ندم وتسليم بالحق جمع الغزاة السفاكون متاعهم

ثم رحلوا عائدين الى البلدان التى جاءوا منها ، تاركين الارض المروية بالدم والدمع لشعبها الذى غلبوه على أمره ..

والمدهش أن يقع على الغزاة هـذا الندم والتسليم بالحق ، دون أن تلحق بهم هزيمة فى ميدان القتال .. لقد ندموا وسلموا بالحق وردوا سيوفهم الى أغمادها وهم منتصرون وأعداؤهم منهزمون ! ..

عجبت وعجب المشاهدون لهذه النهاية الرومانتيكية المثالية التى لا تقع ولا فى الاحلام ، فالصهيونيون القتلة النهابون البرابرة لم يهجموا على فلسطين من كل أركان الدنيا ولم يرتكبوا فى حق العرب جرائم يفزع الشيطان نفسه من ارتكابها ، لـكى يثوبوا فى نهاية « المسرحية » الى الرشد ويعلنوا التوبة ويرحلوا كالملائكة الاطهـار دون أن تخدش وجوههم أظافر طفل عربى واحد !..

الحقيقة ان هذه المسرحية برغم جمال الحانها ودقة أصواتها ، من فيروز الى أصغر صوت .. تمثل النظرة الرومانتيكية الى معركة الحياة والموت التى تخوضـها الامة العربية الآن ضد الصهيونية والاستعمار الامريكى. ولـكنها ـ مع ذلك ـ مساهمة من الغناء العربى والفن العربى فى المعـركة . فليس الاهم فى المعركة أن تكون الاصوات صوتا واحدا فى اتجاه واحد ، فكل صيحة فى وجه العدو تصيبه بالذعر ، والـكلمة الفاصلة بعـد ذلك للسلاح ..

ان النهاية الرومانتيكية لهذه المسرحية لا تعيبها من الناحية الفنية ، ولا من النـاحية السـياسية ، عند التحليـل الشـامل للموقف الذى انتهت اليه ، لان الرومانتيكية هنا تعبير عن التعلق بشرف الانسـان وضميره ، ولـكن الانسان يفقد شرفه وضميره وفهمه

الانسانى للخير والشر عندما يصبح صـــهيونيا ، فكيف نتعلق بما لا وجود له !؟ ٠٠ ان تعلقنا هنا بغير الموجود هو تعلق بشىء نرجو له أن يوجد وقد استحالت أسباب وجوده ! ..



هكذا يشترك الفن فى المعركه ويغنى لها ، ويتناقض أحيانا مع بعض ملامحها ، ولكن الفن الصـــادق حين يشترك فى المعركة يصبح برغم كل شىء جزءا منها .. كان هذا رأيى وما زال فى المسرحيه الرحبانية الفيروزية وفى كل ما يجرى مجراها فوق المسرح او على الشاشة او على أمواج الاثير ، فالقوانين الطبيعية التى تتحكم فى سـير معركة او مصير حرب ليست هى بالضروره القوانين الفنيه التى تتحكم فى التعبير الفنى ، وان كان الفن بقوانينه الخاصة لا ينكص عن المعركه ولا يتخلف عن الحرب .. وفى جميـع الحالات يتلقى نصيبه من الويلات والثمرات ! ..

والمعركة قد تكون حديدا ونارا ولـكن التعبير عنهـا يأخذ شكل الرمز أو شـكل الخيال .. فنراها فوق المسرح الغنائى كما رأيناها فى مسرحية جبال الصوان..

وقد تكون المعركة معركة شعب أعزل واجه جيشـا غازيا كمعركة مصر ضد الاحتلال البريطانى سنة ١٩١٩ ومع ذلك يصرخ المسرح الغنائى بالتعبير المباشر والكلام المباشر ، كما فى الحان سـيد درويش التى تضمنتها مسرحياته ، وتصطف على الخشبة أصـوات رجالية ونسائية تصيح : « دقت طبول الحرب يا خيالة » .. « أحسن جيوش فى الامم جيوشنا » .. « الجيش رجع م الحرب بالنصر المبين » .. ولم تكن ثمة حرب ولا جيوش ولا نصر مبين ولا غير مبـين ٠٠ كان هناك شعب

أعزل وجيش أحتلال ، ولم يكن فى الصورة شيء آخر الا الحماسة المشبوبة فوق المسرح الفنائى ..

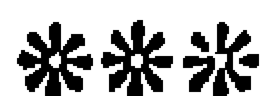
ولما لحن سيد درويش ضمن احدى المسرحيات نشيدا يقول : « احنا الجنود زى الاسود .. نموت ولا نبعشي الوطن » .. لم يكن فى بلادنا جنود تموت فى سبيل الوطن ، ولكن هذا اللحن جعل المصريين جميعا يتذكرون ان أيديهم عزلاء وان الوطن لا يطرد الفزاة الا بالجنود والسلاح ..

هذه الالحان كانت ضمن مسرحيات تتعلق بالتاريخ، لا بالواقع الذى عاشه عصر سيد درويش ، ولكنها كانت تحاول أن تصل الحاضر بالماضى أو الماضى بالحاضر ، وتثير الحماسة للعمل الجاد بصور من أحلام اليقظة المسرحية الغنائية . ولم يكن فى وسعها أن تفعل فى تلك الظروف غير ذلك ولا أكثر من ذلك ! ..

وفى الاناشيد الحماسية الجماهيرية وجد سيد درويش مجالا للتعبير المباشر عن معركة الشعب الاعزل ضد الاحتلال المسلح .. وكان نشيده المنظوم بخليط من العامية والفصحى وخليط من الاوزان الصحيحة وشبه الصحيحة ، نشيد « بلادى بلادى .. لك حبى وفؤادى » هو قنبلته الزمنية التى انفجرت فى زمانها وبعد زمانها ولبثت تنفجر وتزداد انفجارا بمرور الايام .. أما نشيده الآخر « بنى مصر مكانكم تهيا » فقد مات بعد ولادته بقليل مع ان الشاعر الذى نظم كلماته هو أحمد شوقى أمير الشعراء فى عصره .. وكانت هذه نهاية طبيعية للنشيد الذى نظمه أمير الشعراء ولحنه أمير الملحنين ، فليست المعركة جواز مرور لكل فن ، وقد يموت الفن فى المعركة كما يموت الجندى ، وتقتل المعركة النشيد أو الاغنية كما تقتل الانسان ! ..

وقد عاش نشـــــيد « بلادى بلادى .. لك حبى وفؤادى » ومات نشيد « بلادى بلادى .. فداك دمى .. وهبت حياتى فدا فاسلمى » .. مع ان الثانى نشيد رسمى فاز فى مسابقة للتأليف وفى مسابقه للتلحين اقامتهما الحكومة سنة ١٩٣٦ .. ومعنى ذلك ان هذا النشيد مات فى غير معركة ففى سنة ١٩٣٦ كانت معركتنا ضد الاحتلال قد صيغت على شكل معاهدة صداقة بين حكامنا وبين المحتلين ! ..

وبعد موت نشيد « بلادى بلادى فداك دمى » مات نشيد « حماة الحمى يا حماة الحمى » الذى كان النشيد الثانى فى مسابقة سنة ١٩٣٦ ونظمه اديب كبير ولحنه ملحن كبير .. المؤلف مصطفى صادق الرافعى والملحن زكريا احمد .. وبعده مات النشيد الفائز بالجائزة الثالثة فى المسابقه ، بل ان هذا النشيد الثالث ـ وهو من تاليف الشاعر المرحوم محمد فضل اسماعيل ـ لم يعش يوما واحدا مع انه نشيد رسمى كأخويه الاول والثانى .. وقبل دلك ماتت أناشيد كثيرة للرافعى والعقاد وشوقى وشعراء كثيرين تعب الملحنون فى تنغيم كلماتهم .. والسبب فى موتها لم يكن مجهولا .. فالمعركة خمدت ، والاناشيد ثقيلة على القلب الذى خمدت ناره ! ..



الآن عادت المعركة اشد ضراوة وهولا .. طردنا المحتلين البريطانيين ولا بد ان نطرد المحتلين الصهيونيين .. ومعركتنا ضدهم لم تتبلور بعد فى الغناء الا على شكل اناشيد واغنيات حماسية وطنية ..

كل من اراد من المطربين ان يسهم فى المعركة يذهب الى الاذاعة ويسجل نشيدا حماسيا او اغنية وطنية ،

ثم يذهب الى التليفزيون ليشرح بالصـــور معانى هذا النشيد الحماسى أو معـــانى هذه الاغنيـــة الوطنية فى تسجيل تليفزيونى مكتوب عليه اسماء المخرج ومساعده والمصور ومساعده وعشرات الاسماء الاخرى التى لا دخل لها فى المعركة ولا فى نشيد المعركة ..

***

ولا يوجـــد مطرب ولا مطربة ليس له أو ليس لهـــا نشيد وأغنية وطنيـــة ، بل عدة أناشـــيد وعدة أغان وطنية .. ولا ضرر من هذا وليس فيه عيب فنى ولا غير فنى .. ولـــكن أين المسرح الفنائى من المعركة ! ؟.

اذا كان مسرح الرحبانية وفيروز قد دخـــل المعركة منذ عامين أو أكثر فان المسرح الفنائى المصرى لم يدخلها بعد ، وربما كان السبب ان هـــــذا المسرح نفسه غير موجود فيما نعلم ، أو موجود فيما لا نعلم ! ..

لقـــد أسهمت أم كلثوم وعبـــد الوهاب وعبد الحليم وفايزة أحمد وفريد الاطرش وغيرهم فى الاناشيـــــــــد والاغانى الوطنيـــة ، لان هـــذا هو مجالهم الفنى الذى اعتاد الجمهور أن يلتقى بهم فيه .. ولـــكن ماذا صنع المسرح الفنائى ؟ ! .. وماذا عن الاقتراح الذى طرحناه فى أول الـــكلام .. هل يمكن فتح باب الاذاعة لمن يريد أن يغنى من أبناء الشعب ؟ ! ..

مجرد سؤال ...

مشكلة للأغنية الشعبية

هى مشكلة واحدة للأغنية الشعبية ولكنها متشعبة فى كثير من الاتجاهات بحيث يمكن أن يقال ان جميع مشكلات الاغنية الشعبية المصرية الحديثة تلتقى عندها ، ولكن كيف ؟ ! ..

لما غنى عبد الحليم حافظ منذ سنوات قلائل اغنيته الشعبية : « على حسب وداد قلبى » .. واغنيته الشعبية الاخرى : « وانا كل ما اقول التوبة يا بوى » .. لاقت الاغنية الاولى رواجا لم تلقه أختها الثانية . وقلنا وقتها أن « توزيع » ألحان « أنا كل ما أقول التوبة » على الطريقة الافرنجية كان سببا فى حشوها بمجموعات نغمية وايقاعية صاخبة ، باعدت بين هذه الاغنية ذات الاصل الفلكلورى الجميل وبين أذواق المستمعين فى مصر والبلاد العربية على اختلافهم فى تذوق الغناء الخفيف والغناء المتقن (١) فقد تمزق اللحن الفلكلورى بين المطرب والمجموعة المصاحبة له « الكورس » او « الكورال » او « البطانة » — بالتعبير المأثور — وانقلبت الاغنية الخفيفة الى مشاجرة

(١) الغناء المتقن هو التعبير الذى استعملته الكتب العربية القديمة — مثل كتاب الاغانى للاصبهانى — للتفريق بين مايسمى بالغناء العامى او الشعبى ، وماهو معروف عند أهل الفن من الغناء القائم على اسس فنية دقيقة ..

ثقيلة تشابكت فيهـا الاصوات الرجالية والنسائية ، وتناطحت الآلات الوترية والخشبية والنحاسية ! ..

وأمعن من هذا فى سوء الحظ ، أن «موزع» اللحن ــ وهو غير ملحنه ــ قد أفرغه من ايقاعه الموسيقى العربى الموافق تمام الموافقة لنغمته الشجية البديعة ، ونفخ فيه ايقاعا أوربيا اختلط بضجة الآلات الموسـيقية المفتعلة ، فأتم قطع الصلة بين اللحن وأصـله المصرى الريفى القريب الى النفوس ! ..

أما أغنية « على حسب وداد قلبى » التى خرجت فى العشرينات أو قبلها بقليل من مدينة « قفط » بصعيد مصر ، فلم يصـيبها ــ والحمد لله من « التوزيع » ما أصاب أختها ، بل نجت منه ، فأقبل عليها المستمعون مستمتعين بلهجتها الغنائية الاصيلة .. ونجحت هـذه الاغنية فى وقتها نجاحا كبيرا ..

ولعل أكثر المستمعين قد نسوا الآن هاتين الاغنيتين اللتين كانتا ملء الاسـماع فى وقتهما ، فان الاغانى الخفيفة تذوب ذوبان الثلوج فى شعاع الصيف !..

ولـكننى أتخذ من الاغنيتين المنسيتين مثلا لما يسمى بمشكلة « تطوير » أو « توزيع » الاغنية الشعبيـة المصرية فى هذه المرحلة الدقيقة من تطور الغناء العربى عامة ، والغناء المصرى بوجه خاص ..

وأصل المشكلة أو المسألة أو الحكاية ــ كما تشاء أن تسميها ــ هو ما نادى به فى الزمن الاخير بعض من تلقنوا دروسا فى الموسيقى الاوربية ، بدون أن يسبق هذه الدروس أو يلحق بها تمرس كاف بالموسـيقى العربية ، أو حتى مجرد تذوق لا يشوبه انحراف فى الذوق .. وأول ندائهم : أن هبوا أيها الموسـيقيون المصريون فخذوا الميلوديات الشعبية ــ الالحان المفردة ــ

واقيموا منها أشكالا او تشكيلات موسيقية وغنائية ذات تراكيب هارمونية وكونتربوينتية ، على غرار ما صنعه بعض الموسيقيين الاوربيين حين اقتبسوا الحان بلادهم الشعبية وصاغوها من جديد فى الحانهم المتراكبة ..

هكذا بدأت الدعوة ، ولا غبار عليها الا فى أنها بدأت تقليدا لا ابتكارا ، ونسجا على منوال مستعار بلا نظر الى طبيعة الخيوط المراد نسجها ، وهى طبيعة خاصة احكمت عوامل التاريخ العميقة خصوصيتها ، ولا بد لها من نسج خاص ! ..

وتمت فى هذا الاتجاه تجارب قليلة لم يكتب لها الذيوع ، حتى تقدم المهندس المرحوم ابو بكر خيرت ، وكان من هواة الموسيقى الاوربية المنكرين للموسيقى العربية — فأخذ — رحمه الله — جملة غنائية لسيد درويش وأقام على أساسها عملا غنائيا كوراليا جسيما ، اشتهر باسم « ايه العبارة » .. لاقتباسه النغمة الميلودية التى تجرى فيها هاتان الكلمتان . وقد سمع الناس قديما هذه الاغنية من سيد درويش ، وما زال فى أسماعهم لها أصداء ..

لم تولد « ايه العبارة » فى الصمت ، بل ولدت فى ضجة دعائية فخمة ، ولكن فخامة الضجة لم تجلب لها الحظ الحسن ، فأعرض عنها المستمع العربى اعراضا حاسما برغم بنائها الباذخ ، بل بسبب بنائها الباذخ الذى لم يلمح فيه المستمع لبنة موسيقية عربية صحيحة واحدة ، مع ان الاصل فيه غناء عربى الايقاع والمقام واللسان ! ..

***

ولكن فشل هذه التجربة لم يمنع عدواها أن تنتقل الى بعض الملحنين والموزعين والمطربين عند ارتفاع المد

الفلكلوري فى السنوات الاخيرة ..

وخيل لبعضهم ان مستقبل الغناء العربي يتعلق بما يسمى « الاغنيــة الشعبيــة » وان مســتقبل الاغنية الشعبية ذاتها يتعلق بالتوزيع والهرمنة وتعدد الاصوات والآلات ، وكل ما يجرى فى أسلوبه مجرى « ايه العبارة» فى جسامته وضجته وتعاليه على أذواق الناس ! ..

واندفع أصحاب هذا الاتجاه فى حماسة وتفاؤل حتى اصطدموا بالمستمع العربى فأوقع بهم الهزيمة ، وثنى عنــان اتجاههم ، فخفتت التجارب التى اتخذت من « ايه العبارة » ما يشبه المثل الاعلى .. وكف المطربون المعروفون عن الجرى بلا مبرر وراء سراب المصطلحات الموسيقية الغريبــة عن الغنــاء الشعبى المعبأ فى علب التوزيع الاوركسترالى ! ..

ولم تكن هزيمة هذا الاتجاه خيرا محضا ، فقد اعقبت ردود فعل من نوع خاص ، تمثلت فى موجة من الاغانى المسماة بالشعبية ، يمكن ان تندرج كلها تحت عنوان « الطشت قال لى » .. وهى الاغنيــة « الشعبيــة » الذائعة التى كانت وما زالت رمزا لهذه الموجة كلها ، ومن عجب ان ملحن هذه الاغنيــة هو احد المقتنعــين بفن « ايه العبــارة » بل وهــو بعينه « موزع » أغنيــة « وانا كل ما أقول التوبة » التى نقلها من غناء الصعيد الى غناء أوبرا برلين أو روما ..

وفى عرامة هذه الموجة انبرى من يندد بالغناء العربى المتقن وينادى باحالته الى المتاحف ليتخذ مكانه مع آثار الجدود الغابرين (١) ويؤكد بكل ثقة ان هــذا الغنــاء

---

(١) من الانصاف لهؤلاء نعترف بأنهم لم يكونوا اول من رفع لواء هذه الدعوة ، فقد سبقهم اليها منذ العشرينات غيرهم من اساتذتهم المثابرين على معاداة الموسيقى العربية حتى الان ! ..

السريع الخفيف المثير هو غناء العصر ولســـان حاله ، بل هو كذلك غنـــاء المستقبل ولســـان حال الاجيـــال القادمة ، ولا ينقصه الا الدخول فى « الفورمة » التى تخرجه من أصله العربى ! ..

ولـكن الغناء العربى المتقن الذى انهزمت فى مواجهته تجربة « ايه العبارة » واخواتها من التجارب والعبارات الاخرى الغريبة الوجه واليد واللســـان عن المستمعين العرب ، انهزمت فى مواجهته ايضا موجة « الطشت » وما حمله هـــــذا « الطشت » الهازل من شـــــعارات واتجاهات فى اللحن والـكلام .. وتم للغنـــاء العربى فى معركة « الطشـــت » ما تم له من النصر الحاسم فى معركة « ايه العبارة » ! ..

فهل تم ذلك كله مصادفة ؟ ! ..

كلا بطبيعة الحال ، ولنعد الى الثلاثينـــات ـ ومن الممكن طبعا أن نعود الى ما قبلهـــا بعشرات السنين ـ فنسمع أم كلثوم تغنى فى ســـنة ١٩٣٥ تقريبـــا لحنا شعبيا يقول : « على بلد المحبوب ودينى » .. (١) .. ونرى المستمعين مقبلين على هذا اللحن الشعبى الجميل كاقبالهم على أجمل ما تشدو به أم كلثوم من الغنـــاء المتقن ..

ونسمع محمد عبد الوهاب أيضا يغنى : « محلاها عيشـــة الفلاح » فتروق للمستمعين لهجتها الريفيـــة ونغماتها الشعبية برغم سوء حالة الفلاح فى ذلك الحين ويغنى فريد الاطرش واسمهان : « ليه تشتكى ارضنا والنيل ساقيها » فيتـــذوق المستمع حـــلاوة الاغنيـــة

(١) غناه قبلها المطرب عبده السروجي فى فيلم « وداد » الذى اضطلعت أم كلثوم ببطولته ، ولكن الاغنية اشتهرت فى اسطوانة بصوت ام كلثوم ..

الشعبية فى صورة من صورها الجميلة ..

ولا نسترسل وراء الاغانى الشعبية التى غناها كبار أهل الصناعة من أصحاب الغناء المتقن ، فضلا عن المتخصصين للغناء الشعبى كمحمد العربى ومحمد عبد المطلب ومحمد الكحلاوى ، والمطربين الآخرين الذين كانوا يملأون « ركن الريف » فى الاذاعة ..

ولكن الغناء الشعبى على انتشاره فى تلك الايام لم يكن تيارا خاصا يعارض به أصحابه أو ينافسون الغناء العربى المتقن لعلمهم انه أساس كل غناء يتذوقه الانسان العربى ..

فالاغنية الشعبية الخفيفة مثل أغنية « على بلد المحبوب وديني » تجىء فى مكانها وأوانها بلا افتعال ولا رفع شعارات فنية لا أساس لها . وكذلك أغانى العربى والكحلاوى والمطربين الريفيين .. تتخذ مكانها الفني بلا زيادة ولا نقصان .. فما الاغنية الشعبية فى نهاية المطاف وفى بدايته الا أغنية عربية قائمة على السلالم الموسيقية العربية ، ولا أثر فيها لغير هذه السلالم العربية .. وحتى السلالم الموسيقية التى كانت معروفة فى مصر قبل العرب كالسلالم الفرعونية – مثلا – لم يبق لها فى الموسيقى المصرية أدنى أثر ..



هذا كله ينفى كل تعارض أو تصادم أو مجرد تنافس بين الاغنية المتقنة والاغنية الشعبية أو الاغنية الدارجة. ولم يقع تعارض أو تنافر بين الاغنيتين الا فى أذهان الداعين الى الغاء الموسيقى العربية المتقنة فى السنوات الاخيرة . وقد انهزمت دعوتهم فى جميع الحالات ، وكانت هزيمتها طبيعية تماما ولا مناص منها ..

وهل يجهل أحد من المستمعين ، فضلا عن النقاد

والدارسين والمحترفين ، ان الموال وهو غناء شعبى ، كان وما يزال يدخل فى صميم الغناء المتقن ؟ ! ..

وكذلك الطقطوقة التى ابتكر شـكلها النغمى الملحن محمد على لعبة ومعاصروه قبل خمسين عاما ، فجمعت بين صفتها كغناء شعبى بسيط ، وصـفتها كلون من الغناء المتقن اشـتغل بتلحينه وغنـائه أعظم الملحنـين والمغنين منذ ظهوره حتى اليوم ..

فازدهار الغناء الشعبى المصرى والعربى متوقف دائما على تمسك أصحابه بالصلة الوثقى بين غنائهم هذا وبين الغناء المتقن الذى لا غنى عن ممارسته والتدرب عليه لمن أراد جادا غير هازل أن يغنى أى لون من ألوان الغناء العربى خفيفا كان او ثقيلا ..

وقد غنت منيرة المهدية التى كانت فى زمانها مطربة النخبة والسادة والباشوات ، مجموعة هائلة من الاغانى الشعبية ، والـكثير من هـذه الاغانى ترفيه ودغدغة عاطفية وتزجية امسيات أو ليال معطرة .. ولكن الكثير منها أيضا للمعانى الراقية والاهداف الوطنية والاجتماعية والنزعات النبيلة ..

ولو فتشنا ميراث منيرة المهـدية ـ مطربة الطبقـة العليا ـ لوجدنا فيه من الاغانى الشعبية ذات الصدق الانسانى العفوى المؤثر فى الوجـدان ، أكثر مما نجد لعشرين مطربة من المطربات الشعبيات فى أيامنا .. ولم يخطر على بال أحد فى عصر منيرة أن يسميها « مطربة شعبية » ولا « فلـكلورية » .. فلا حدود ولا سدود تفصـل بين ألوان الغنـاء العربى ، من أعلى ذروة فى الغناء المتقن الى أدنى مكان فى السـهل الذى ينبسط لـكل غناء قائم على الاصول العربية ..

وهـــذا فى الحقيقة علة كل ما منيت به تجارب

الموسـيقيين « المستخوجين » (١) .. من اخفـاق فى تسخير النغمات الشعبية أو الفلـكلورية لبنـاء أشكال موسيقية وغنائية تتنكر للموسيقى العربيـة وتستكبر على الغناء العربى ! ..

فاذا كان الغنـاء العربى المتقن قد استعصى على الانقراض والدخول فى الابنيـة الموسيقية المستعارة أو المقلدة بلا بصيرة ، فان الغناء الشعبى ــ وهو فرع أصيل من الغنـاء العربى ــ يستعصى بلا مراء على كل من يحاول ــ جهلا وتطاولا ــ أن ينتزعه من مجراه الطبيعى!

وليس فى تراث كبار الملحنين والمطربين المصريين خلال مائة سنة مدونة فى المكتبة الموسيقية العربية ، ادنى اثر للتفرقة بين ما انتجوه من الحان القصـائد والتواشيح والادوار ، وبين ما أنتجوه من غناء خفيف أو غنـاء شعبى ، فالينبوع الذى يستقى منه اللونان واحـد ، والمواهب التى جـادت بهـذا جادت بذاك ، والمستمع الذى يتلقى فيض هـذه المواهب لم يتغير طبعه ، ولا يتغير طبعه بكلمة يقولها هذا أو رأى يبديه ذاك ..

ومشكلات الاغنية الشعبية المصرية ــ بعد ذلك ــ ليست قليلة ، وليس ما عرضناه منها هنا الا ما تيسر لنا من تعليق على مشكلتها مع جماعة « ايه العبارة » !

(١) اشتققنا هذه الصفة لمن ليسوا « خواجات » ولـكنهم مصريون أو عرب يستخوجون ! ..

السيكا في المتحف

الظريف اللبنانى المعروف نجيب حنكش أراد يوما ان يزداد ظرفا فارسل برقية اعجاب الى كوكب الشرق ام كلثوم يقول فيها ما معناه : زيدينا طربا يا خاتمة المطربات ! ..

والظريف حنكش ذو معرفة بالغناء والموسيقى ، وله الحان غنتها فيروز ، وفكرته عن الموسيقى العربية لا يخفيها ظرفه ولا قوله لام كلثوم : يا خاتمة المطربات! .. وخلاصة هذه الفكرة ان كتاب الغناء العربى الضخم يختتم بأم كلثوم ، ثم لا يبقى للمستمع العربى فى المستقبل الا الغناء الاوربى ، ويصبح الغناء العربى غريبا فى بلاده حتى يشفق عليه المشفقون فيحال الى المتاحف ليرقد مستريحا بعد العناء ، الى جوار المخلفات الفاطمية والمملوكية ! ..

ولكن حنكش ـ فى الحقيقة ـ لا يكره الغناء العربى ، ولا يتمنى له ولا يتوقع هذه النهاية قريبا أو بعيدا ، وانما اراد أن يشير متفكها الى ما يتصوره كارهو الغناء العربى من ان مصيره الحتمى عاجلا او آجلا الى انقراض ، او الى نسيان فى الزوايا المتحفية الباردة .. وهؤلاء لا يتصورون هذه النهاية مجرد تصور ، ولا يكتفون بمعاقرتها مع الكأس او اللقاء بها فى الاحلام ،

بل يعملون ويمهدون ويتوسلون بما فى وسعهم لتقريب النهاية وبلوغ المرام ! ..

وهم يكتبون بصراحة ويتحدثون بلا قناع ، مبشرين بأنه قد آن للمستمع العربى أن يدير ظهره للغنـــاء العربى والموسيقى العربية ..

ولسنا مع المستهينين بشأن هؤلاء الدعاة ، ولا نقول ان دعوتهم ستذهب مع الريح ، مع ان بعضهم قد خفف من غلوائه فى الوقت الحاضر ، وركب موجة الموسيقى العربية طلبا للوجاهة والرياسة فى الوظائف والمؤتمرات واللجان والرحلات وبقية الفوائد والطيبات ..

وقد كان لهم أسلاف فى العشرينات من هذا القرن ، ولكنهم كانوا قلة صـــغيرة لا نفوذ لهـا فى المجالات الرسمية ، ولم يكن لهم شأن فى وزارة الاشغال العمومية التي كانت مسئوليتها تمتد من صيانة مبانى دار الاوبرا الى صيانة الفنون المسرحية والغناء العربى بوجه خاص .. ولعله لولا حزم وزارة الاشغال العمومية لكنا الآن نغنى بالطليانى ! ..

ولكننا الآن فى عهد وزارة الثقافة والارشاد القومى ومسئوليتها حيال الغناء العربى والموسيقى العربية نوع من الصيانة ، فضلا عن التنمية ، وقد كان للوزارة فى هذا المجال من العمل والتخطيط ما لا ينكره الآن أحد، ولم تكن تميل مع جماعة الكارهين للموسيقى العربية ، الا ان هذه الجماعة كان لها نفوذ رسمى أو شبه رسمى يمكن أن يؤثر فى مستقبل الموسيقى العربيـة ويجعلهـا تحت رحمة أعداء فى ثياب أصدقاء .. وقد نبهنا الى ذلك مرارا فى الماضى ، ولا بأس ان نعود الى الحديث عنه الآن ..

فلا يخفى على الكثيرين ان ثمة أقوالا وأعمالا ضـد

الفناء العربى والموسيقى العربية ، يرى إصـحابها ان موسيقانا وغناءنا قد فاتهما الزمن وحاصرهما التقـدم العالمى ولابد لهما من مبارحة الساحة ، فـان التعب فى سبيل الابقاء عليهما لاجدوى منه ولاداعى له مادامت هناك موسيقى عالمية متطورة يمكن استجلابها بلا قيـد ولا شرط .. وبلا عناء ..

ولا استطرد وراء ما يخطر على البال من الرد على هذه الدعوى ، فالموسيقى العالمية ينتجها الانسان فوق ارض وطنه ، ولا ينتجها وهو معلق فى الفضاء .. وليس فى كوكبنا شيء عالمى بالمعنى الذى يتراءى خلف هـذه الـكلمة بما يتضمنه من محو الفروق الوطنية والقومية والمحلية ، كأنما فرغ الناس على كوكبهم السـعيد من محو الفروق واندمجوا فى جنسية واحدة ، وصـارت لهم لغة « عالمية » كلغة الاسبرنتو ! ..

صحيح ان الموسيقى العربية والفناء العربى ما زالا يخطوان فى طريق الانضباط العلمى ، انهما ينتظران حل مشكلات علمية وفنية ، فضـلا عن مشكلات المعاهـد والممارسة العملية غناء وتلحينا وعزفا .. .

هكذا تتكاثر الاسئلة ، ولـكن كثرتها لا تبيح لنا أن نضيق بها ذرعا ونعفى انفسـنا من الارهاق فى محاولة البحث عن اجابات تكشف الظلام عنها .. متعللين بأن الحل السعيد الموفق موجود فى « النوتة » الموسيقيـة الاجنبية ، يستطيع من يشاء أن يأخذ منهـا حاجته بلا رقيب ولا حسيب ، قائلا فى ثقـة وثبات : هـذه موسيقاى ! ..

وهكذا لابد أن تكون هناك خطة لرعاية الموسيـقى العربية وتنميتها وحمايتها من الانقراض ، ولا اقول حمايتها من الذبول أو من الضـعف ليس الا .. لان

الانقراض هو الذى يتهددها فملا اذا تسلم أمورها جماعة الموسيقيين وهواة الموسيقى الكارهين الذين لا تنطوى صدورهم على شىء كثير ولا قليل من الولاء للموسيقى العربية . وحلمهم الذهبى الذى يضىء لياليهم هو ان يستيقظوا من نومهم العميق ذات صباح سعيد فلا يجدوا للموسيقى العربية أثرا ، ولا يسمعوا نغمة واحدة من السيكا أو الراست أو البياتى أو العراق أو الصبا أو الحجاز كاركرد .. فاذا خطر ببالهم — وقد أذهلتهم المفاجأة السعيدة — أن يسألوا عما جرى للموسيقى العربية فى ليلة واحدة هكذا ، قيل لهم وقد رقصت قلوبهم وأسماعهم نشوة وطربا : « أخذها الآخذون الى المتحف فوضعوها مع آثار برقوق ورقدت نغمة السيكا على سرير خوشقدم » ! ..

وأفضل من هذا وذاك عندهم ان يقال لهم : « انها الآن فى السجن المؤبد ، لا خلاص لها منه حتى آخر الدهر » .. فان جماعة الكارهين للموسيقى العربية يحلمون بأن يقذفوا بها الى الظلام مكبلة بالاغلال والاثقال ، ليخلو الجو — كما يتصورون — للموسيقى التى يصنعونها تلفيقا وخطفا ثم يدعون انها من الموسيقى العالمية أو على غرار الموسيقى العالمية .. ويا للعجب من هذا التصور الساذج الذى يطيف كالوسواس برءوس بعض وجهاء المثقفين ! ..

سيصيح القوم عند هذه النقطة وأكتافهم تهتز انفعالا :

— ها قد أطل أعداء الموسيقى العالمية برءوسهم ، ورفعوا أصواتهم فوق صوت الموسيقى الرفيعة ! ..

فعندئذ نبادر فنربت أكتافهم ونقسم بالله وملائكته اننا ما رفعنا أصواتنا فوق صوت الموسيقى الرفيعة ،

وانتا مع الموسيقى العالمية قلبا وقالبا ، نفهمها ونتذوقها ونعرف قدرها الفنى كما يعرفونه واكثر ، ولكنا مع الموسيقى العربية فى كل حال ! ..

فأى موقف يا ترى نقفه الآن ؟ وما عسى أن نؤمله بعد انقضاء زمان طويل على تنحى وزارة الاشغال العمومية عن رعاية الفن وحماية الموسيقى العربية ! !

اليوم نقول انالموسيقى العربيـة فى مصر تتعثر فى اذيالها . ولقد أوشك الرحبانية بمفردهم فى لبنان ان يسبقوا الجهود المجتمعة ــ المتفرقة ــ عندنا ، فليست لدينا خطة واضحة ولا منهاج صريح لانهاض الموسيقى العربية وتنميتها .. ولا يكفى أن تتحرك مؤسسة المسرح والموسيقى التابعة للوزارة كل موسم ، ولا طائل وراءبعض اللجان الموسيقية وبعض المعاهد الموسيقية ، وبخاصة المعاهد الاجنبية الطابع برغم جنسيتها المصرية

ولن تبلغ الموسيقى العربية هدفها من البقاء والتجدد والنماء بما هو معروف من وجوه النشاط هنا وهناك ، فلا بد لذلك من خطة شاملة ولكن بغير روتين الخطط السابقة وجيوش موظفيها ومديريها ووجهائها وعتاة اداريها ومناقصاتها ومزايداتها ..

هذه الخطة تكون ذات رسالة فنية وقومية ، ورسالتها هى الهيمنة على كل ما يتعلق بالموسيقى العربية فى كل مجال ، وحمايتها من أعدائها ومن أصدقائها . فلا يمكن للأمة العربية أن يكون لها وجدان عربى ولسان عربى وموسيقى غير عربية ! ..

تعريب الكلمة والحنجرة

عازف الناى المصرى عبد الحميد مشعل ، يروى لنا من الجزائر تجربة فريدة فى أهميتها الفنيـة وأهميتها القومية معا ..

بدأت تجربته بعد ان عين أستاذا للموسيقى العربيـة والغناء العربى فى معهد الموسيقى الوطنى فى الجزائر ..

المسئولون والشعب هنـاك يحاولون الآن ازالة آثار الاحتلال الاوربى وعدوانه على اللغة العربيـة ، لغتهم القومية التى استمر عدوانه عليها مائة وثلاثين عاما حتى أوشك أن يقتلعها من أرضها الجزائرية العربيـة ، بل اقتلعها فعلا من بعض أرضها الطيبة فنسيها بعض أهلها بالرغم من وطنيتهم ومعارضتهم للاستعمار ، وتحولت اللغة الفرنسية على امتداد عهد الاحتلال لغة للسـوق والشـارع والبيت ، فضـلا عن المـدارس ودواوين الحكومة ..

ولما طلب المختصـون بالموسـيقى فى الجزائر الى الموسـيقى المصرى تأليف فرقة جزائرية للغنـاء العربى والموسيقى العربية .. قال لهم :

ـ ولـكن تيـار الموسيقى هنا أجنبى مع الاسف ، وكذلك اللغة .. والمهمة التى تكلفوننى بها صعبة ! ..

وكان ردهم :

ــ لهــذا نطلب اليك تأليف فرقة للغنـــــاء العربى الصميم ، لان اعادة تعريب اللســـان الجزائرى تتطلب اعادة تعريب الغناء الذى يسمعه المواطن الجزائرى ، ويترنم به بينه وبين نفسه ، ويشعر فيه بروحه المحلية وروحه القومية بعد محاولات الطمس الاستعمارية ..

واتضح للموسيقى المصرى من مناقشة المختصين هناك ان معاناة الصواب والخطـأ فى تجربة التعريب ، قـد أثبتت ان تعريب اللسان لايتم بدون تعريب الحنجرة ، فالتعريب قضية أمة تعود الى ذاتها من غربة طويلة ، والانسان العربى لا يتكلم بالعربية فقط ، بل يغنى بها أيضا .. ويشبه ان يكون تعريب اللســـان وحده نوعا مبتكرا من الاستشراق يبقى اللغة على طرف اللسان ، ولا يدخل بها الى الضمير والوجدان ! ..

ولم يكد الفنان مشعل ــ وهو من الدارسين العرفاء بالموسيقى العربية والاوربية ــ يبدأ مهمته الـكبيرة حتى لمس خطورة الصلة وعمقها بين اللسان والحنجرة ..

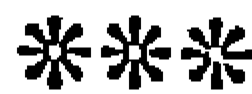
فالاحبال الصوتية التى تتكلم هى نفسها التى تغنى وان اتخذت عند الغناء اوضاعا خاصة .. ولهذا كانت تجربة الفنان مشعل محفوفة بالعثرات منذ البداية .. فاللغة العربية ذاتها ما زالت تنفض عن وجهها ويديها تراب مائة وثلاثين عاما من محــاولات الواد ، وقــد تفرنست خلال هذا العهد الطويل غالبية الالســنة فى بعض المدن الجزائرية ، وحمل الغناء العربى عصاه على كاهله ورحل عنها ! ..

وهكذا كان ابتعاث الاحســــــــاس هناك بمقامات الموسيقى العربية وايقاعاتها ، وايقاظ ما بقى من ذكراها فى حنايا الاسماع والقلوب ، اشبه ببنـــاء الدور الثانى من العمارة قبل بناء الدور الاول ..

ولكن الفنان العربى الغيور على رســـالته الفنية القومية ، وجد بين الشباب الجزائرى نواة جديدة من غرس التعريب ، فبدأ بها باذلا جهده فى ربط ذوقهـا ووجدانها بالثنائية التى لا انفصام لها بين الغناء العربى واللغة العربية .. محاذرا فى كل خطـوة أن يصطـدم بالتفرنس اللغوى والفنى الذى طال عليه الامد والشعب تحت نير الاحتلال ..

وبعد شهور أيقن بأن مهمته لن تفشل ، فان هـذه الطليعة من شباب فنانى الجزائر ـ طلبـة وطالبات ـ تغلبوا على أكبر العقبـات وتمكنوا من أداء الصـولفيج العربى بالتدوين الموسـيقى وتحديد ابعـاد المقـامات العربية علميا ، وكانت الحصيلة بضعة عشر موشحا من مختلف الانغام والايقاعات ، حفظها الطلبـة والطالبات باللغة الفصيحة واللهجة العاميـة ، وأدوها بشروطهـا الفنية الصحيحة ..

كانت هـذه مأثرة فنية وقومية ثمينة حقـا ، لان أصحابها كانوا فى أول أمرهم على عتبـة النطق العربى السليم ـ مجرد النطق السليم لا أكثر ـ ولكنهم بالرغبة والحماسة والجهد دخلوا لغـة آبائهم وأجدادهم ، ثم رفعوا أصواتهم بعد صمت طويل يترنمون بغنـاء الآباء والاجداد ، وقد تملـكتهم نشـــوة الانبعاث القومى والانتصار الفنى فى وقت معا ..



هـذه التجربة الناجحة التى تمضى الآن الى غايتها المرجوة حيث تعترض التعريب مشـكلات تجـد حلا ومشكلات تبحث عن حل ، تنبهنا نحن الى ما أوشكنا أن نغفل عنه من تأثير مصير الغناء العربى فى مصير اللغة الفصيحة وفى مصير لهجاتها كذلك ..

فالغناء بالعربية والعامية مرتبط بالكلمات التى اساسها الاشتقاق اللغوى ، بينما تقوم الكلمات الاوروبية على « النحت » كما يقول سادتنا اللغويون ..

هذا الفارق فى التكوين اللغوى ـ وقد وفاه الباحثون اللغويون حقه ولا مجال للافاضة فيه هنا ـ جعل لمفردات الكلام العربى مخارج صوتية وأوزانا خاصة ذات قوانين صوتية لا يمكن اخضاعها لحركات الالحان الاوروبية التى لا تتفق أصلا وأوزان الكلام العربى بفصحاه وعاميته ..

فلا يمكن ـ مثلا ـ تفريغ الحان الاوبرات الاوروبية من كلماتها الايطالية أو الالمانية وملء فراغها بكلمات عربية يخضع نطقها لما يخضع له نطق تلك الكلمات الاجنبية .. ولا أحد يجهل ما وراء الكلام العربى فى الغناء من أوزان عروضية يتألف منها وحدها كيان لغوى موسيقى مستقل قائم على الايقاعات الموسيقية العربية وكسور الصوت العربى ، بما فيها ثلاثة أرباع الصوت التى اعتدنا أن نسميها « ربع الصوت » ..

ولعل فى هذا وحده ما يقنعنا بسلوك طريق مستقل لتجديد الغناء العربى وتطويره فى الاغنية الفردية والاغنية الجماعية وفوق المسرح ، بحيث لا يصبح فننا الغنائى بألوانه التى نعرفها الان ، وألوانه التى نبتكرها فى المستقبل ، امتدادا سطحيا منقولا بسذاجة عن الغناء الاوربى الذى يتعصب له بعض كارهى الغناء العربى تعصبا يشبه الجنون ! .

وفى هذا ايضا ما لعله يفسر حكم الكونسيرفاتوار على طلبته وطالباته بعدم الغناء باللغة العربية والالحان العربية ، لان تدريب أصواتهم على الغناء الاوبرالى والاوربى بأنواعه الكلاسيكية والحديثة ـ مع رفض

الفناء العربى رفضا باتا ـ خلق لهم أصـواتا فحلة فى الاوبرا ، ولكنها عاجزة فى السيكا والبياتى وأمثالهمـا عجزا تاما ..

وأدى هذا التدريب الى تشكيل حناجرهم وصدورهم وسقوف حلوقهم ، تشكيلا فسيولوجيا يتنافر والفناء العربى بل يناقضه ويناهضه ! ..

وقد عجزت الاصوات المصرية والعربية التى نشأت هذه النشأة الفنية عن ممارسة الفنـاء العربى ـ لفة ولحنا ـ وقلنا لاصحاب هذه الاصوات غير مرة ان فك العقدة الفسيولوجية والفنية الجافة التى عقدهم بها « التدريب الكونسير فاتوارى » معناه انهيارهم كمطربى أوبرا وضياع الاحلام الذهبية التى توجهم بها مدربوهم .

ولم يتعد هؤلاء المدربون واجباتهم حين منعوا الطلبة والطالبات من الفناء العربى ، لانه يفضى اخر الامر الى « تصفية » ما صنعه هؤلاء المدربون المخلصون لقواعد فنهم وأصوله ، فى صدر كل طالب وقلبه وحلقه وبلعومه ورئتيه وحجابه الحاجز وضلوعه وقلبه ولسانه وشفتيه وأسنانه،وبقية الجهاز الضخم الذىينطلق منه الصاروخ الاوبرالى الى الاسماع ..

نرجو ألا يسارع بعض من يسيئون الظن الى اتهامنا بمعاداة الاوبرا والاوبريت والموسيقى العالمية ، والتهم الفنية الاخرى التى أصبحت ـ لكثرة ترديدها ـ أشبه بتهمة معاداة السامية ذات الشهرة العالمية .

فالموسيقى الاوربية ـ أو العالمية ـ كيان فنى ضخم متصل الحلقات منذ مئات السنين ، ولكن من المستحيل « تفصيل » قميص عثمان جـديد من هـذه الموسيقى واتخاذه راية وشعارا فى محاربة الموسيقى العربية ..

كما أنة من البلاهـة الا ننظر فى هـذا التراث الفنى

الانسانى الكبير نظر الدارس المستفيد

ولكن القاعدة الذهبية فى هذا المجال هى ان التقليد القرودى لا يثمر ، وان نقل الغناء العربى والموسيقى العربية الى متحف الآثار العربية لن يفتح الابواب للموسيقى العالمية والغناء الاوربى الا على قاعدة تقليد المغلوب للغالبين أو المنتصرين كما قال المؤرخ المشهور ابن خلدون ، ولكن بطريقة أشد ابتذالا من الطريقة التى انتقدها ابن خلدون ..

ولو دار الزمان بنا هذه الدورة لأمسينا بعد جيل او جيلين فى حاجة الى حملة للتعريب كالحملة التى نسمع عنها الآن فى الجزائر ... فان سقوط الغناء العربى هو نصف السقوط ، ثم يجىء دور النصف الثانى عندما يقول القائلون : لم يبق الا اللغة العربية !

واذا كان من المسلم به اجتناب التقليد والنقل فى بناء الكيان المادى للمجتمع ، فهل يصعب علينا أن نتجنب التقليد والنقل فى بناء الكيان العلوى لمجتمعنا ، واعنى بوجه خاص فنه وأدبه .. موسيقاه وغناءه وكلامه ؟ ! ..

من العجب ارتفاع هذا المد فى وجه الموسيقى العربية واواصرها اللغوية ، بينما القومية العربية تحاول النهوض ، والكيان الصهيوني يتواثب بتلفيقاته السياسية والادبية والفنية الكثيرة ، ومن بينها تلفيقاته التى يسميها الموسيقى اليهودية ! ..

ثم نقول : لسنا ننادى على بضاعة التراث والماضى ، ولكنا نطلب للوجدان العربى مكانا تحت الشمس

وليت شعرى كم نتكلف بعد جيل او جيلين لنعيد السنتنا وغناءنا الى وضعهما العربى .. وهل الحزم ان نبدد ثم نشقى لنجمع ؟ ! ..

عبدالوهاب وتفصيل الأغاني

محمدعبد الوهاب باعتراف غالبية النقاد والمستمعين والملحنين أيضا أقدر الجميع على وضع اللحن المناسب للصوت المناسب ..

وبفضل قدرته هذه لمعت ليلى مراد ونجاة على ورجاء عبده وبعض المطربين الذين تعهدهم زمنا ثم تركهم لمواهبهم فلم يصمدوا ولم يواصلوا البقاء ..

ولما لحن عبد الوهاب فى الزمن الاخير لعبد الحليم حافظ وفايزة احمد وفيروز ونجاة الصغيرة كانت الحانه على قدر أصواتهم بلا زيادة ولا نقصان ، وابرزت أجمل ما فيها ..

وكانت أكبر تجاربه فى الزمن الاخير مع صوت أم كلثوم ، فلم يغير عبد الوهاب فيما اعتاده من تفصيل الاغانى على « مقاس » الصوت بحيث يبدو الاثنان معا فى أجمل صورة ممكنة ..

صحيح ان الحان السنباطى لام كلثوم طوال خمسة وثلاثين عاما ، كانت أروع ما غنت ، ولكن السنباطى ملحن كلثومى فقط . يبلغ قمة باهرة فى التلحين لها ، وتضعف روحه المعنوية حين يلحن لغيرها ، فيرتج عليه كأنه خطيب مصقع خانه على المنبر لسانه الفصيح !..

بل ان السنباطى قد ارتج عليه خلال السنوات

القلائل الماضية فى التلحين لام كلثوم نفسها . السبب ـ فيما يبدو ـ هو ضعف روحه المعنوية أيضا ..

عبد الوهاب هو نقيض السنباطى . روحه المعنوية فى التلحين لا تضعف ، وهو يواجه كل صوت بهذه الروح القوية فيلحن له بابداع ما يناسبه ، حتى يقول المستمعون : يجب الا يغنى هذا الصوت الا الحان عبد الوهاب ! ..

والسر ان عبد الوهاب حين يفصل ألحانه على الصوت لا يصعد به درجة صوتية او موسيقية ولايهبط به درجة ولا يتركه معلقا بين درجتين الا بمقدار ما يناسبه ويظهر أحسن ما فى نبراته واقدر ما فى أدائه بلا ارهاق ولا افتعال ..

وهذا بالضبط ما صنعه عبد الوهاب حين لحن لنفسه فى مراحل صوته المتتالية ، وفى مراحل مذهبه فى التلحين منذ أكثر من اربعين عاما ..

ربما يقال ان الاغنية الممتازة تحتفظ بجمالها مهما كثرت فى أدائها الاصوات . هذا غير صحيح ، لابالنسبة للأغنية الفردية فقط ، بل بالنسبة للغناء المسرحى أيضا .. وغير صحيح حتى فى الغناء الاوربى الفردى والمسرحى برغم الاختلافات الكبيرة المعروفة بين الغناء العربى والغناء الاوربى ..

لنتصور ـ مثلا ـ صوتا عربى التربية والتكوين مساحته ثمانية مقامات فقط ، فانه يعجز بطبيعة الحال عن غناء لحن تم تفصيله على صوت مساحته ستة عشر مقاما ..

ومهما نزل الصوت ذو المقامات الثمانية بطبقة النغمات ـ ولو الى درجة الدندنة ـ ليستوعب هذا اللحن المفصل على ستة عشر مقاما ، فانه سيعجز عن

تصوير اللحن الا على نحو لا يرضى المستمعين ولا يرضى الملحن ولا يرضى صاحب الصوت نفسه ..

وفى الفناء الاوبرالى ـ برغم التشـابه فى الاصـوات الاوبرالية على نحو ما ـ لا يتقدم صوت نسائى من طبقة الالتو مثلا ليغنى لحنا مكتوبا لطبقـة السوبرانو ، ولا يتقدم صوت رجالى من طبقـة الباص ليغنى لحنا من طبقة التينور .. وهكذا ..

فى هذه الناحية الهامة ، نجد عبد الوهاب حريصـا ودقيقا وموسوسا كعادته . يحرص على تفصيل اللحن بحيث تظهر صورته الحقيقية فى مرآة الصـوت الذى يؤديه . وبقدر مساحة الصوت يمتد اللحن بدون زيادة لا تثمر الا الارهاق وكشف العيوب الفنية ..

الملحنون الآخرون ـ اقصد بعضهم ـ يضعون الحانا يحتاج تصويرها الى مساحات صـوتية معينة ، فاذا نقصت هذه المساحة بين أيديهم خلال التـدريب على اللحن ، عالجوا نقص المساحة بخفض طبقـة الآلات الموسيقية ، فضلا عن انخفاض طبقة الصوت ذاته من البداية أو من قبل البداية . عندئذ يبـدو اللحن فى صورة مهزوزة غير مقنعة ..

وقد أدهشنى عبد الوهاب حين وافق ان تغنى مطربة لبنان فيروز بعض الحانه الفـاخرة التى غنـاها قبـل أربعين عاما بصوته الذهبى العملاق . فان صوت فيروز ـ على جماله وأناقته وصفائه ـ لا يمـلك الدرجات الحنوتية التى تتضمنها هـذه الالحان ، وكان يتضمنها صوت عبد الوهاب حين غناها ، فضلا عما كان له من المقدرة الادائية ذات المزايا الجمالية التى لا نظير لهـا الآن ، والتى يبدو الاداء الجديد بالنسـبة اليها مجرد دندنة ملساء الملامح قاصرة عن تصوير اللحن برغم كل

اجتهاد ، وبرغم كل ما يزعمون انه تفسير جديد للحن القديم ..

الارجح ان عبد الوهاب كان مطمئنا الى بقاء اغانيه هذه بصوته الذهبى فى الاسطوانات القديمة وما يتجدد من طبعاتها ، فلم ير بأسا فى السماح بغنائها لمن أراد ، ما دام وراء هذا المجد القديم الذى دخل التاريخ ، حركة جديدة هنا وهناك ..

المهم ان عبد الوهاب الآن هو أكثر الملحنين فهما للأصوات وما يناسبها ، مهما كان الصوت جليل القدر كصوت أم كلثوم أو متواضعا كصوت هذه أو تلك من المطربات الناشئات ..

وهو بهذا الفهم الذكى يسهم فى حفظ كيان الغناء العربى وقد بدأت تهب عليه رياح « الغناء الرومى » الذى نسمعه الآن من المستشرقات صباحا ومساء كأنه مواء القطط في ساعات غذائها أو ساعات صفائها ..

ونتوقع من ذكاء فنه الكبير ، ومن فن ذكائه الخطير ، احسن أغانى المطربين والمطربات فى كل جديد يتاح لهم ان يظفروا به من فنه على تجدد السنين ..

فريد وجمهوره

لم اكن — فى الحقيقة — أعرف بالضبط مكانة فريد الاطرش عند المستمعين فى البلاد العربية حتى كتبت مرة مقالة عنه فى مجلة « الكواكب » رأى فيها بعض القراء ما لا يتفق وتفاصيل الصورة المرسومة له فى اذهانهم ، مطربا موصول النجاح منذ أربعين عاما .. فأمطرونى بالرسائل ، مع اننى لم أكن أتممت كلامى عنه ، وكنت وعدتهم باتمامه فى العدد التالى من مجلة « الكواكب » ..

ولما ظهرت تتمة كلامى ثبت لهم أننا نقف حيال فن فريد الاطرش على خط واحد وان اختلفت مواقعنا فيه ولا بد بطبيعة الحال أن تختلف ..

يرتبط فريد فى وجدانى بأسمهان المطربة الفذة ، صاحبة اجمل صوت فى عصرنا بعد صوت أم كلثوم ، ليس لانه شقيق اسمهان ، بل لانه صاحب احلى وأبرع الحان غنتها ، بالرغم من انها غنت لاكبر واشهر الملحنين ..

وفى صبانا وشبابنا الباكر أسكرتنا اسمهان بما غنته من الحان فريد فى فيلم « انتصار الشباب » ثم فى فيلم « غرام وانتقام » .. وما زالت لاغانيها التى لحنها فريد فى هذين الفيلمين نشوة تتجدد كلما سمعناها ،

فقد عرف فريد مكامن الروعة الاصيلة فى حنجرة اسمهان ، فلعب عليها بألحانه لعبا مطربا بارعا ، لم يتح مثله لاحد من الملحنين الكبار الذين لحنوا لها ..

أما الحان فريد نفسه فكانت دائما تحمل طابعه الذى انفرد به منذ كان يغنى فى الاذاعات الاهلية القديمة حتى اليوم ، وهو طابع ذو نكهة خاصة ، وله فى الاسماع رنين متميز ، وقد أثرت طريقة تلحينه فى الحان عصره تأثيرا لا شك فيه ...

واذا كان فريد قد اشتهر دائما بما يسميه البعض « الغناء الشرقى » فانه أيضا أسهم بنصيب وافر فى حركة التجديد والتطوير التى التفتت الى الموسيقى الاوربية واستفادت منها .. وله الحان كثيرة اقترب فيها من الغناء الاوربى والموسيقى الاوربية وان لم يبتعد عن الذوق الشرقى ، أو الذوق العربى على الاصح ..

وعندما يكتب تاريخ الغناء العربى المعاصر فان فريد الاطرش سيدخله مع الملحنين الذين تركوا فى غنائنا العربى اثرا واضحا ، بل ان طريقته الخاصة فى الغناء ونطق الكلمات ستدخل هذا التاريخ أيضا بكل ما أثير حولها وكل ما يثار حولها من مناقشات فنية وعلمية متباينة ..

ولو لم يكن فريد على هذا المستوى لما استطاع أن يلمع ثم يواصل اللمعان فى عصر عظماء الملحنين المجددين أمثال عبد الوهاب والقصبجى وزكريا أحمد والسنباطى

واما صوته فكان دائما صوتا خاصا ، يمتلك شروطا خاصة تكفل له جمهورا واسعا متجددا منتشرا فى مصر وخارج مصر ، على امتداد مراحل فنية متعددة بدأت فى الثلاثينات واثبتت قدرتها على البقاء والنماء حتى السبعينات ..

والمشـــكلة الدقيقة بين فريد الاطرش وبينى ، هى انني عندما أكتب عن جزئيات فى فنه ، يتصور هو انني أكتب عن فنه كله بلا تفرقة بين التفاصيل .. وهــذه المشكلة قائمة أيضا بيني وبين جمهوره الـكبير ..

والصـــــــورة الـكاملة لفن فريد الاطرش ، مطربا وملحنا ، هى من أشد الصور ثراء بالانفراد وخصوصية الشروط الفنية وما يتعلق بها من نجاح وقبــول لدى الجماهير التى من حقها دائما أن تمنح النجاح لمن تشاء وتمنعه عمن تشاء ! ..

وفريد الاطرش عازف العود ، ســـــيدخل تاريخ الموسيقى العربية مضافا الى فريد الملحن المغنى ، فان العود العربى الذى يضطهــده بعض الموســـــيقيين « المستخوجين » وينادون بالقائه فى المتاحف ، يلقى من فريد يدا حانية وصدرا حنونا .. وهذا وحده يجعل من فريد أحد الملحنين القريبين الى عشـــاق الالحان العربية ، فى عصر كادت تستعجم فيه الالحان والاصوات والآلات الموسيقية ...

ويستطيع فريد أن يتحدث عن شىء مؤكد فى حيـــاته الفنية التى امتدت عشرات السنين ، وهو انه كان دائما فنانا جماهيريا يعيش فنه وسط جماهير واسعة فى مصر وخارج مصر ، ولم ييأس منه جمهوره ولا يئس هو من جمهوره عنــدما ألمت به تلك الظروف الصحيـــة التى عرفها الجميع والتى ــ برغمها ــ يواصل فنه باصرار الفنان الذى لا يملك الا اللقاء مع جمهوره بالرغم من جميع الظروف ..

وأعود الى المشكلة التى قلت انها تقوم أحيـــانا بينى وبين فريد وجمهـــــوره ، فأكرر انها تتعلق بجزئيات تختلف حولها الآراء ، وقد تحدث فريد نفسه عن هذه

الجزئيات فى كلمـة له بمجلة « الـكواكب » فقـال : « ان صوتى الآن أقوى واجمل واصفى من السنوات الماضية حتى عندما كنت شابا ، وخير دليل على ذلك حفلتى التى أحييتها فى شم النسيم (١) وقال جميـع النقاد والجمهور بأننى غنيت فيها أغنية الربيع كأحلى وأقوى من أى وقت فى حيـاتى .. وهى أغنية تحتاج الى جهـد صوتى كبير ، من مقامات منخفضة وعالية تصل الى ديوان ونصف ديوان ، اى حوالى ١٢ مقاما . هذا عدا الاداء والنفس والجهـد المضنى الذى يحتاج اليه المطرب فى غناء هذه الاغنية الجبارة الخالدة ، وأقول ذلك بكل تواضع وفخر » ..

والحقيقة أن فريد الاطرش لم يتزيد فى حديثه عما بذله فى هـذه الاغنية من جهد ، ورأيى هنا كرأيه .. وليست أغنية « الربيع » هى وحدها التى ينطبق عليها هذا الرأى ...

ولـكن المشكلة اننا نحن النقـاد صناعتنا ان نتكلم كثيرا ، ولا يمكن أن يمر كلامنا كله مرور النسيم !..

(١) سنة ١٩٧١

عبدالحليم والصوت "الخوجاتى"

فى لقاء لعبد الحليم حافظ مع مجلة « الـكواكب » خطر له أن يدافع عن لون من الاصـــوات ظهر أخيرا ، وقيل عنه انه لون غريب عن الغنـــاء العربى ، لان الاصل فى تعليمه وتدريبـــه هو الغنـــاء الاوبرالى الذى يختلف فى أصوله عن الغناء العربى اختلافا عميقا (١)

وفى معرض دفاعه عن هذا اللون من الاصوات يروى عبد الحليم ما حــدث له ــ شخصيــا ــ فى امتحانه بالاذاعة قبل عشرين عاما ، اذ وصفت لجنة الامتحان صوته الفض وقتئذ بأنه « خوجاتى » لا يصلح للغنــاء العربى . ولـكن الجمهور لم يأخذ برأى لجنة الاذاعة ــ وكانت من مشاهير الموسيقيين ــ ووصل عبد الحليم سريعا الى الناس ..

هذه القصة التى يرويها عبد الحليم عن صوته لايمكن فى رأيى اسقاطها على بعض الاصـــوات التى يشملها بدفاعه ، فالقياس مع الفارق ــ كما يقولون ــ والحقيقة أن صوته فى ذلك الحين لم يكن « خوجاتى » لابتدريبه ولا بمخارج ألفاظه ولا بروحه .. بل كان جـــديد التصوير ، جديد التعامل مع المقامات الغنائية والقفلات والزخارف اللحنية ، ولـكن مساحته لم تكن ممهـدة

(١) كان حديث عبد الحليم مع « الكواكب » فى نوفمبر ١٩٧١

على الطريقة المتعارف عليها ، ولهذا كان – فى جملته وبعض تفاصيله – يشبه لهجة غير مألوفة للأذن العربية، وان كانت هذه اللهجة عند تأملها واختبارها ليست لهجة أجنبية ..

وماذا حدث بعد ذلك ؟ ! ..

تدارك عبد الحليم ما كان فى حاجة الى تداركه من الدربة والاستيعاب والصقل ، وامتلك ناصية «قرار» محكم غنى بالتعبير ، يتفق وأصول الغناء اتفاقا لاجدال فيه ، وان بقيت على حواشى صوته آثار لهجته الخاصة التى هى فى الحقيقة ميزة له وليست مجرد خروج عن القواعد الفنية سببه العجز عن الدخول الصحيح فيها.

وشيئا بعد شيء تجسمت فى نبراته وأدائه زوايا الطرافة والجمال ، وانضبطت انفاسه المدربة على النفخ فى آلة « الأبوا » انضباط المغنى الحريص على متانة ادائه فى جميع حالاته .. وتغير المطرب « الخوجاتى » الذى بدت نبراته متميعة فى اسماع أعضاء لجنة الاذاعة فلم تمنحه الرضا والقبول ! ..

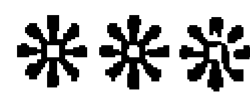
ثم اشتهر عبد الحليم كمطرب جديد التفسير للغناء العربى فى ألوان خاصة ، متين الاداء الى حد التشدد فى كل نبرة ترتفع أو تنخفض او تستقيم ، حتى قال بعض مستمعيه انه اكتسب دقة الاداء من الشيخ محمد رفعت والموسيقار عبد الوهاب ، وكلاهما أستاذ مجاله الخاص فى دقة الاداء ..

وبعد أن تخطى عبد الحليم اغنياته الطفولية فى أواخر الاربعينات – وهى التى كانت تنطبق عليها بصورة من الصور اعتراضات لجنة الاذاعة – انطلق فى لهجته الغنائية الجديدة التى لا يجادل أحد فى صحة نسبها الى الغناء للعربى ، فكانت اضافة الى الاساليب الغنائية

سرعان ما تذوقها المستمع العربي – وهو دقيق الذوق مهما قيل عن ذوقه – وأعطاها حقها من الاستحسان..

ولم تكن أغانيه الاولى مثل « صافيني مرة » التى لحنها الموجي الا من صميم الغنـاء والاداء العربى ، وكذلك ما غناه من ألحان كمال الطويل برغم مط بعض الالفـاظ فيها بطريقـة غير معهودة ، ثم ألحان عبـد الوهاب التى انطلق فيها هـذا الملحن البصير مقـامات الغناء العربى نطقا تلغرافيا مبتكرا ، وكان هـذا النطق التلغرافى عربى اللسان وان داخلته بطبيعة الحال لمسات الاقتباس ..

والقيمة الحقيقية لعبد الحليم حافظ تتمثل فى انه اضافة للغناء العربى – بغض النظر عن الاختـلاف فى تقدير حجمها – وان كان يقف خارج نطـاق الغنـاء العربى بصورته الـكلاسيكية المتراكبة ، وهـذا هو السبب فى انه لا يغنى للسنباطى مثلا .. ولا ينكر عبد الحليم انه يقف بصـوته وطريقتـه وامكاناته خارج التواشـيح والادوار والبشـارف والمواويل ، وحتى القصائد .. ولتقـل ما شئت عنه بعد ذلك – اعجابا وتقديرا – داخل نطاق فنه الخاص ..



أما الاصوات الجديدة التى يدافع عنها عبد الحليم ، فهى تختلف تماما عن صوته ، لانها تنتسب الى اللون « الخوجاتى » انتسابا لا انفصام له ، وهى – بعكس صوته – لا تصور الغناء العربى تصـويرا جـديدا ولا قديما ، لان مشكلتها هى عدم الالمام بالغناء العربى ، ولا اقصد مجرد الالمام الدراسى ، بل أقصـد الاستيعـاب الفطرى الذى يداخل النفس العربية منـذ نشأتها كما

تداخلها اللغة وكما تداخلهـــــا علاقات البنوة والابوة والامومة مثلا ..

وكل الفنون ذات الاصول القومية تنشــأ فى فطرة الانسان وتتكون فى وجدانه . واذا لم يكن الغناء العربى فطرة مفروزة فى صاحبها استحال عليه أن يبرع فى الغناء مهما اجتهد في دراسته .. فاذا اضيف الى انتفاء الفطرة الفنية العربية تدريب أجنبى على الغناء الاجنبى يلتوى به اللسان والوجـدان ، وتتيبس به أحبـــال الحنجرة ، وتتخذ اجهزة الغناء فى الصدر والحلق شكلا خاصا ، رسخت فى الدماغ أصول التـدريب الاجنبى كالصخر ، وأصبح الغناء العربى فى هذه الحالة محنة على من يحاول أن يتدرب عليه ، ومحنة أشد على من يحاول الاستماع اليه ! ..

وهــذا فى الحقيقة هو الفرق بين عبد الحليم الذى قيل عنه فى بداية أمره بغير حق أنه « خواجة » وبين من يقال عنهم ــ بحق ــ انهم خواجات .. وهذا هو السبب فى بقاء عبد الحليم منذ الخمسينات الى اليوم وبعد اليوم .. ولا نريد أن نسبق الاحداث أو نرجم بالغيب فنقول ان خواجات اليوم لن يبقوا الا يوما أو بعض يوم ! ..

السنباطي وألحانه ومخاوفه

رياض السنباطي هو صانع أجمل غناء في عصرنا ، ولا يمكن ان نسمع أم كلثوم بدون أن نذكر الملحن المتفنن الذي انبثقت من موهبته المدهشة تلك الفيوض من الروائع والشوامخ اللحنية التي لم يسبق لغزارتها وسحرها مثيل في الغناء العربي المسموع والمسجل ، والتي أنطق بها السنباطي مقامات الموسيقى العربية نطقا جديدا لم يخطر على قلوب الملحنين القدماء ، وكشف عن امكانيات فيها بلا حدود ..

لقد استوعب السنباطي القدير طرائق الغناء العربي استيعابا جديدا خلاقا ، فصنع غناء عربيا تخطى به الحدود التي كان البعض يتصورون ان الغناء العربي يتوقف عندها تطريبا وتعبيرا ، وأتى في ذلك بما يحير العقول ..

وصحيح ان الغناء العربي قد خلع اهابه القديم منذ جدده عبده الحامولي ومحمد عثمان ومحمد المسلوب وأبو العلا محمد ، ثم سيد درويش ومعاصروه ، ثم عبد الوهاب والقصبجي ، ولكن عمل السنباطي ارتبط بصوت أم كلثوم ــ وهو ظاهرة تاريخية نادرة ــ فكان من نصيب السنباطي أن يحقق انجازا نادرا في تاريخ الغناء العربي ، وقد فعل ذلك على خير الوجوه ..

قد يقال : وماذا عن عمل السنباطى خارج نطاق أم كلثوم ؟ !

ولا محل لهذا السؤال فى الحقيقة ، لأن ما أنجزه السنباطى فعلا - واكثره فى نطاق صوت أم كلثوم - هو ما سيحاسبه عليه تاريخ الغناء العربى ، وسيحتل به من هذا التاريخ صفحات بارزة ..

ولكن هل يحاسب التاريخ رياض السنباطى على ظروفه النفسية الخاصة ؟! .. لقد اشتهر بالانقباض عن الناس كانما طبعه الجفاء ، ولكن للنفس - وبخاصة نفس الفنان - أحوالا تبدو عجيبة عند من يأخذها على علاتها ويكتفى بظاهر أمرها ، دون تعمق فيما وراءها ..

من ذلك ما رواه لنا مستمع من عدن عاصمة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، فان له مع السنباطى وتقلباته البوهيمية قصة ذات دلالات تختلف باختلاف الناس حيالها ..

يقول السيد « عمر جبلى - ٣١٤ - ١٥ شارع الازهر - قسم ألف - الشيخ عثمان بعدن » ما يلى بالحرف الواحد :

« عشت أحلم بلقاء رياض السنباطى فى القاهرة ، لكى أسمع صوته وأرى صورته وأسأله كيف صنع الحانه العظيمة . ثم شاءت الظروف أن تبعثنى الشركة التى أعمل بها فى عدن الى لندن للتدريب ، فمررت بالقاهرة وتخلفت بها بضعة عشر يوما لغرض واحد ، هو أن ألتقى بالسنباطى قبل مواصلة السفر الى لندن ..

« ووجدت من اللائق قبل أن أطرق باب بيته الذى سألت عنه حتى عرفت مكانه فى مصر الجديدة ، أن

اكتب اليه رسالة أستأذنه فى مقابلته ، قائلا له : أرجو أن تسمح لى بزيارتك فى منزلك .. فى متحف الموسيقى، لارى عودك الذى تستخرج منه أروع الالحان .. فى صومعتك لاشعر بجلال الالهام الموسيقى فى مهبطه على صاحبه ..

« وقلت فى رسالتى للسنباطى : أرجو الا تحرمنى من لقائك فقد حضرت من عدن الى القاهرة «خصيصا» لكى أراك ثم أواصل سفرى الى لندن . وانى فى انتظار تكرمك بالرد ..

« ولما انتظرت سبعة أيام ولم أتلق ردا .. اتصلت بمنزله تليفونيا ..

وتكررت المكالمات التليفونية أملا فى أن أظفر بموعد من السنباطى الا ان الردود التى تلقيتها من المتكلم كانت متوحدة القصد وهو استحالة مكالمة الاستاذ .. وهنا ثارت عزة نفسى ، ولا أقول انها ثارت لان ألحان السنباطى تشفع له فى كل ما يصدر عنه من مثل هذه التصرفات .. واستثقلت نفسى لمثابرتى على محاولة فرض مقابلتى « بالعافية » — كما تقولون فى القاهرة — على من لا يريد هذه المقابلة ؟ ..

« ولكن .. هل الاعجاب بألحان السنباطى يعتبر لديه جناية أستحق عليها حرمانى من لقياه ؟ ! .. الا يشفع لى عنده انى قدمت من عدن واضعا لقاءه نصب عينى ، وانى لم أسافر رأسا من عدن الى لندن وتخلفت فى القاهرة بأمل هذا اللقاء دون سواه ..

« لقد حز فى نفسى ان الاقدار سعت حتى دبرت حضورى الى القاهرة ومهدت لتحقيق حلمى بلقاء السنباطى ، ولكن السنباطى نفسه حال دون تحقيق الحلم ..

« لا اكتمك اننى بعد انتهاء فترة تدريبى فى بريطانيا فكرت وانا أحمل حقائبى عائدا الى عدن أن أتخلف بالقاهرة مرة أخرى وأكرر المحاولة مع السنباطى .. ولكن الفكرة تبخرت عندما تذكرت « الذل » الذى شعرت به فى محاولتى السابقة التى صدمتنى وأرقتنى طويلا .. وهكذا عدت الى عدن وأمنيتى التى تصورت انها سهلة التحقيق قد أصبحت فى نظرى « كالغول والعنقاء والخل الوفى » كما يقول الشاعر ..

« ومع ذلك لا اكتمك اننى لجأت اليك لكى تنقل عتابى الى السنباطى ..

هذه هى رسالة الاخ العدنى كلها تقريبا ، وهى تدل على انه نموذج فذ للمعجبين الرومانتيكيين بالفن والفنانين .. وقد تجردت رومانتيكيته من كل زخارف الدنيا فلم يعجب بسعاد حسنى ولا بنجلاء فتحى ، بل أعجب برياض السنباطى ! ..

وانه لمؤسف حقا ان السنباطى لم يقابل هذه الروح الجميلة ولو بقليل من المجاملة التليفونية التى لم تكن لتعرضه لاى خطر من أى نوع. ولكن من يعرفون عزلة السنباطى وراء جدران بيته وما أنبتته فى نفسه من مخاوف يدركون انه لا يستطيع أن يتصرف الا فى هذه الحدود ..

وقد ألقت عزلة السنباطى ظلالها على الحانه فى السنوات الاخيرة ، حتى طلع علينا بلحنه الجديد « القلب يعشق كل جميل » فاذا بطلاقة السنباطى تعود من جديد . فهل يكون هذا اللحن ثمرة انعطاف نفسى جديد للسنباطى يعيده الى فنه والى الناس ، بقدر ما تسمح به تقلبات أحواله العجيبة ؟ ! ..

بليغ والمولود المنتظر

بليغ حمدى تغنى له ام كلثوم لحنا بعد لحن فيصبح رصيده فى بنك الصـــوت الذهبى ثروة من حق الاداء العلنى وثروة من الدربة على التلحين لم ينقطع مددها منذ عشر سنوات عندما أتاحت له « مبادرة » خاصة من ام كلثوم أن يدخل فى قائمة ملحنيها التى دخلهـــا أبرع الملحنين ..

لهذا يبدو بليغ حمدى كشاب سعيد الحظ ، آل اليه تراث الآباء والاجداد ، فانطلق يحدث نفســـــه كأبى العلاء المعرى بأنه وان كان الاخير زمانه ، سيأتى بما لم يستطعه الاوائل الـــكرام ! ..

وبليغ حمدى يكاد يكون الآن اكثر الملحنـــين الحانا واعمالا ، وترحالا فى سبيل الالحان والاعمال بين المشرق والمغرب على امتداد الفصول الاربعة ! ..

وخلال السنوات العشر الاخيرة تلقفته مراحل فنية متعددة ، كان فيها يناقض نفسه أحيانا وهو يظن انه يعود الى نفسه ، حتى استقر أخيرا على حالة من القلق الفنى والفكرى يختلط فيهـــا التناقض والوئام بين ما يعمله فى الغناء والموسيقى وبين ما يريد أن يعمـــله أو يحاول أن يعمله ! ..

وقبل لقائه بأم كلثوم فى بداية الستينات ، كان قد

بلغ بداية طريقه كملحن ناجح بعد أن بلغ نهاية طريقه كمطرب لم يحالفه النجاح ، ونسى أغانى الملحنين التى جربوها فى صــوته أو جربوا فيهــا صــوته ، وقال لنفسه : لابد مما ليس منه بد .. ان فاتنــا احتراف الغناء فلن يفوتنا احتراف التلحين ! ..

وفى البداية لم يسعده أن ينقلب ملحنا مغمورا بعد ان كانت أمنيته أن يصبح مطربا مشهورا .. وقد فارق هذه الامنية العزيزة وودعها موجع القلب يائســا من العثور على مكان فى زحام الملحنين الـكبار والصغار ..

ولما غنت له فايزة احمد فى نهاية الخمسينات لحنه الذى تقول كلماته : « ما تحبنيش بالشكل ده » اهتز بليغ حمدى هزة السرور والامل ، فقد نجح اللحن مع انه كان مجرد مطلع سنباطى الروح ، تتلوه «خربشة» لحنية لا تنم عن ملحن موهوب ! ..

ولـكن هــذه الخطوة الصغيرة كان لها ما بعدها ، فجاءت الحانه لعبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة أكثر تطورا ونجاحا ، ولفتت بعض الاسماع والانظار الى ان هناك ملحنا اسمه بليغ حمدى ، يجرى فى آثار كمال الطويل وعبــد الوهاب ولــكنه يصــنع نفســه ويبنى شخصيته وهو يجرى فى آثارهما وآثار الآخرين ، لانه ذو موهبة وليس مجرد هاو يعيش على التقليد الساذج .

ولم يكن الـكثيرون قد اقتنعوا بموهبة بليغ حمدى عندما اقتنعت بها أم كلثوم فاستدعته ليلحن لها ، وهو وقتئــذ يحاول ان يلحن لابن شــقيقها الذى عدل عن الغناء بعد تجربته الاولى ، وكانت امنية بليغ حمدى أن ينجح فى التلحين له ، أما التلحين لام كلثوم فلم يخطر على باله .. ولــكن هكذا كان ..

ولاسباب خاصة نجح لحنه الاول لام كلثوم « حب

ايه اللى انت جاى تقول عليــه ؟ » .. ولــكن هــذا النجاح الذى كان حجمه اضعاف حجم اللحن المتواضع، رشح بليغ حمدى للتلحين مرة أخرى لام كلثوم ، ويبدو انه بعد صدمة النجاح الاولى أخــذ يتمالك نفســه ، ويستجمع شتات موهبته الفنية ، فنجح فى عدة الحان كلثومية امتازت بالحلاوة والطلاوة والطرافة ..

شجعه النجاح وفتح له أبواب المطربين والمطربات ، فارتفعت روحه المعنوية ، وامتلأ ثقة بالنفس ، وأصبح التلحين لام كلثوم عملا موسميــا له ، اما عمله اليومى فيشمل غالبية المشتغلين بالغناء ، من عبد الحليم الى شــادية الى نجاة الى محمــد رشــدى ومحرم فؤاد وغيرهم ..

وصــعدت الحانه الى المسرح ، فكانت مقبــولة من الناحية الفنية ، قليلة القبول من الناحية الجماهيرية ، بسبب التوزيع الموسيقى المبالغ فيه الذى اصيبت بــه هذه الالحان .. وما زال التوزيع المبالغ فيه سببا لنفور عصبى دائم يقابل به الجمهور الاعمال المسرحية الغنائية المصرية فى أيامنا ، بعد أن كانت المسرحيــات الغنائية مثار اهتمامه وبهجته قبل اربعين عاما ..

ووراء هذا التوزيع الموسيقى الصاخب انساق بليغ حمدى بعض الوقت فى بعض الحانه ، ومن بينها الحان شعبية الطابع يكمن سرها الحقيقى فى شكلها الميلودى البسيط ، كأغنية « انا كل ما اقول التوبة » التى غناها عبد الحليم حافظ بتوزيع مقتبس من الموسيقى الاوربية وكان بليغ يتصور ان هذا التوزيع سيجعل منها اغنية « عالمية » .. ولكن التوزيع أفقــــدها طابعها المحلى ، ولم يجعلها عالمية ! ..

والفشل فى اقناع الجمهور بالصخب التوزيعى، جعل

بليغ حمدى يستغنى عن خدمات زميله الموسيقار على اسماعيل صاحب « التوازيع » ـ على وزن التواشيح ـ ويعتمد على نفسه ..

وبعد مداولة مع النفس ومراجعة للأفكار والاحلام ، خرج بليغ على الناس مناديا بما يسميه « الاغنية المصرية الصميمة » .. وانهمك فى التلحين على أساس الالحان الشعبية الريفية ، وألحان الغوازى والزمارين ومنشدى الحلقات كما سمعهم وكما سمع عنهم ..

وهكذا سمعنا فى مرحلته الجديدة ألحانه وكأننا نسمع توافقات صوتية مؤلفة من خليط لحنى شعبى ، لا يجرؤ على « خلطه » الا ملحن لا يهاب المغامرات الفنية ولو جاءت نتيجتها بما لا يشتهيه ويطمع فيه ! ..

وافتتن بليغ باللازمات أو « اللزم » الموسيقية ، وهى القناطر النغمية التى يعبر فوقها المطرب من جملة الى جملة ، وأوشك فى هذا المجال أن يكاثر عبد الوهاب وينافسه بدون أن تكون له حنكة عبد الوهاب واتساع خطوته ونضج موهبته ..

وأوشكت « اللزم » الموسيقية أن تتحول على يد بليغ حمدى الى سماعيات وبشارف ، بدون أن تحكمها صيغ السماعيات وقوالب البشارف .. وكاد الحوار الطويل بين الآلات الموسيقية قبل بدء الاغنية وبعد بدئها ان يتحول الى نوع من « التحميلة » الموسيقية التى كانت لعبة العازفين فى الماضى ، فكانوا يفتحون حيثما اجتمعوا باب الحوار بين القانون والناى والكمان والعود والبزق ، ولكن حوار هذه الآلات الجميلة كان يجرى فى « التحميلة » على شكل متواضع ، أما الشكل الذى تجرى عليه تحميلات بليغ فيهولنا بكثرة الآلات التى ترسمه ، وكثرة الاصوات التى تتعلق به كما تتعلق بقع

الالوان الصغيرة بلوحة كبيرة ..

ولاول وهلة تبدو لنا هذه الصورة فاخرة أنيقة ، ولكنها في الحقيقة لا تتعدى اللحن الميلودى المفرد مرتديا ثيابا فضفاضة تكاد تقنع السامعين ، أو تخدع السامعين، وكأنهم يستمعون الى الاوركسترا السيمفونى بجيش آلاته الوترية والخشبية والنحاسية والايقاعية وفى هذا كله لا يتجاوز بليغ مرحلة عبد الوهاب ، فان عبد الوهاب هو رائد هذه الطريقة التي يمكن أن توصف بأنها نوع جديد من خداع السمع يشبه خداع البصر ، ولكنه خداع أبيض حسن النية ، يثبت به عبد الوهاب انه يمد عينيه الى ما وراء الميلوديات الصغيرة العذبة من أنغام متراكبة متطورة .. وكذلك بليغ حمدى، فانه يتطلع الى الاعمال المتطورة .. ولكن كيف ؟ !..

لقد سار بليغ شوطا فى دراسة الموسيقى الأوربية ومازال يواصل المسيرة ، وأسرف فى التوزيع الموسيقى ثم عدل عنه الى الاسراف فى المزمار والارغول .. ولحن الاوبريت ثم انهمك فى الاغنية الفردية وتطلع الى الالحان « العالمية » ثم نفض يديه منها وبشر بالالحان المصرية المحلية ولحن لام كلثوم ما يناسب صوتها العربى ولحن لتلميذات الكونسرفتوار ما لايناسب أصواتهن

وحاول ـ باختصار ـ أن يصنع فى الغناء والموسيقى المصاحبة له كل شيء ، ولولا طواعية الموهبة له ومواتاة الحظ ، لخسر كل شيء ، ولكنه ـ فى الحقيقة ـ استطاع بكل هذه المتناقضات والمتوافقات أن يصنع شيئا يذكره له الذاكرون الآن وقد لا تذهب ثمرته المرجوة فى النهاية ..

وتوسع بلا حساب فى استعمال أصوات الآلات الموسيقية المصرية الشعبية معزوفة بآلات الاوركسترا ،

مع عدم استعمال الآلات الشعبية نفسها .. وقد سبقه كمال الطويل فاستخدم ـ على نطاق ضيق ـ هذه الآلات الشعبية نفسها فى موضعها الصحيح من الاغانى والاناشيد الوطنية والشعبية التى غناها عبد الحليم ، مع غض النظر عن التوافق أو عدم التوافق بين آلات الاوركسترا والآلات الشعبية ..

ولكن موهبة بليغ تتجلى فى عملية التجميع والتنسيق والخلط والنسج على منوال من هنا ومنوال من هناك .. وهو بهذه الموهبة التى تستند الى نشاط فى العمل وحيوية فى التنفيذ ، يتقدم الآن بين الملحنين ! ..

وتبدو لك أغانى بليغ حمدى فى النهاية كأنها ورشة تضج بأصوات العمال وطرقات آلاتهم على الحديد .. وتضطرك أن تغلق الراديو اذا اعوزك الصمود لما ينبعث من هذه الورشة الموسيقية ..

وبعض أغانيه هى من عمل هذه الورشة الموسيقية الكاملة الاوصاف والمعانى ، بل هى معركة غنائية قائمة بذاتها ، اصطدمت فيها الآلات الشرقية والآلات الغربية وتعاركت الالحان العربية والالحان الاوربية ، ومع ذلك لا أعتقد ان ما يعمله بليغ حمدى سوف يفضى آخر الامر الى لا شىء .. فان ما يعمله يشبه التكوينات الطبيعية الاولى التى لا تبدو نتائجها واضحة . ولاشك فى انه هو نفسه لا يعرف شيئا عما قد يترتب مستقبلا على أعماله الحالية ، فهو الآن مجرد مغامر يضرب فى الصحراء ، قد يصل الى الماء ، وقد يصل الى البترول ، وقد يرضى من الغنيمة بالاياب ! ..

ان الغناء العربى والموسيقى العربية يجتازان فترة من التخبط والبحث عن اتجاه ، وبليغ بايجابياته وسلبياته هو رمز التخبط فى دنيا الغناء العربى

والموسيقى العربية ، ولكنه التخبط النـــاتج من تغير الزمن وتبدل الاحوال ، والذى يرجى له الاســـــتقرار

لقـد تحولت الاغنية الفردية منذ اربعين عاما الى مستودع للتعبير بالجملة اللحنية • ثم تحولت ـ وبخاصة فى الزمن الاخير ـ الى مستودع للازمات الموسيقية ومصدر لها وحقل تجارب دائم الانتاج ، وقد اعطانا هـــذا الحقل محصولا ضخما من المقدمات الموسـيقية واللزم الموسيقية التى تقوم عند المســتمع العربى حتى اليوم مقام الموسيقى البحتة ..

والموسيقى البحتة الناضجة المستقلة عن الغناء هى مطلب الموسيقى العربية للمستقبل .. ومن عجب ان كل الدلائل تدل على ان هذه الموسيقى المنشودة سوف تنبثق من الاغنية الفـردية التى غرقت فى المقـدمات واللازمات الموسيقيـــة ، والتى يتطرف بعض أعزائنـــا النقاد ضدها ، الى حد المطالبة بمنعها أو ابعادها عن الاسماع ! ..

ان أصوات الآلات الموسيقية كانت الى عهد غير بعيد تابعا قليل الاهمية لاصوات المطربين .. فلم يكن صوت الآلة الموسيقية الا هامشـــا صـغيرا على الطقطوقة أو القصيدة أو الدور .. وكانت اللازمة الموسيقية أشبه باستراحة قصيرة للمطرب أو المطربة ، أو حيلة لتكملة جملة لم يتسع لها صوته ، أو تمهيدا للانتقال الى نغمة فوق أو نغمة تحت .. باختصـــار كانت اللازمة قنطرة بسيطة يعبر عليها المطرب أو يثب فوقها من بر الى بر ، ومن بحر الى بحر ! ..

فى ذلك العهد الذى كانت فيه الموسيقى البحتة ـ اى المستقلة عن الغناء ـ واقفة عند البشـــارف وأخواتها ، كانت البشارف وأخواتها أيضـــا تخدم المطـربين ولا

تنفصل عن أوامرهم الاستبدادية ، فلا بد للمطـــرب قبل أن يسخن ويتنحنح ويبدأ فى مناجاة الليـل ، من بشرف او سماعي ترتاح اليه اذنه حتى ينطلق فى الشوط ثم يبلغ غايته وقد تسلطن وتملكته حميا الوجد والطرب ..

وفي الثلاثينات بدأ الموسيقيون يؤلفون مقطـــوعات موسيقية مستقلة ، لاينسجونها على منوال البشارف والسماعيات ، وليس هذا انتقاصا من حق السماعيات والبشارف فانها ــ على بساطتها الميلودية وتواضــعها الفنى ــ حافلة بالعذوبة والشــجن وحــلاوة فى النغم والايقاع لا يجحدها مستمع خبير بالسماع ! ..

ثم احتلت المقدمات الموسيقية الطويلة نسبيا صــدر الاغنية ، ودخلت اللازمات فى هيــكل الجمل اللحنيــة فأصبحت شديدة الالتصاق بها وان لم تكن جزءا منها. ولم ينفر المستمع العربى من التطور الجديد بل اقبـل عليه وأحبه ، فتوسع الملحنون فى هــذا البــاب حتى تحولت المقدمات الى قطع موسيقية ، وكثرت اللازمات وتنوعت حتى صار بعض الموسيقيين يجمعها من الاغانى ويعزفها للمستمعين كقطع متماسكة مستقلة عن الاغنية

هكذا انبعث من الاغنية الجديدة التى اثقلتهـــــا المقدمات واللازمات صورة من صــور الموسيقى البحتة لم تكن فى حسبان الموسيقيين انفسهم . واثارت الصورة الجديدة سؤالا هاما : هل تفرق الاغنية فى الموسيقى أو تتمخض فى النهاية عن لون من الموسيقى البحتة لا عهد للموسيقى العربية به ؟ ! ..

ولم تغرق الاغنية فى الموسيقى حتى الآن ، وانمـــا بدأت تتمخض عن موسيقى بحتة تشترك مع البشارف والسماعيات فى تكوينها الميلودى ولـكنها لا تشترك معها فى القالب الفنى ..

معنى هذا ـ بلا جدال طويل ـ ان الاغنية الفردية كانت مهضومة الحق حين اتهمها الكثيرون بأنها تعوق انبعاث الموسيقى العربية البحتة بسبب ميل المستمعين الى الغناء أكثر من ميلهم الى الموسيقى البحتة .. فها هي بعض الاشكال الاولية للموسيقى العربية البحتة تنبعث من قلب الاغنية الفردية انبعاثا عفويا لا قصد فيه ولا اعتمال ، وان بدا لبعضنا ان وراءه قصدا واعتمالا ..

وليس هذا الا أول الغيث . وقد تعيش الموسيقى العربية البحتة حينا فى حضن الاغنية ، لان الاغنية ما زالت هى مورد الرزق للملحن والمطرب والعازف . ولكن الموسيقى العربية البحتة لابد لها ذات يوم من التفرد والإستقلال وبناء كيانها الفنى الخاص كما حدث للموسيقى الاوربية ، على اختلاف الاسس الفنية بينهما .. عندئذ لا تكون الموسيقى المأخوذة من مقدمات ولازمات الاغانى هى السائدة ، ولا تتوقف مهمة القطع الموسيقية عند ترقيص سهير زكى وناهد صبرى مثلا ، بل تتطور الى آفاق جديدة فسيحة تعبر فيها عن كل هموم وأفراح الانسان ، وتصبح الموسيقى العربية كيانا فنيا ضخما بجوار الموسيقى الاوربية .

بقى أن نقول ان كلامنا عن المولود المنتظر الذى سيخرج عاجلا أو آجلا من بطن الموسيقى المصاحبة للأغانى .. هذا الكلام قد ورد فى عرضنا لاعمال بليغ حمدى ، وما هو بالاب الشرعى للوليد المنتظر ، فان موسيقى لعبد الوهاب والسنباطى وغيرهما قد بشرت سامعيها منذ زمان بعيد بأن وليدها المنتظر يتخلق وراء سجاف الغيب ! ..

الباب الخلفى للدور والتوشيح

فى بعض ما تغنيه فرقة الموسيقى العربية نسمع « الطقطوقة » وهى تتحول أحيانا الى ما يشبه « الدور » مضافا اليه بعض ملامح التوشيح ! ..

ونسمع « المونولوج » أيضا وقد تحول الى خليط أو مزيج جميل من الدوز والتوشيح برغم جميع الحواجز التى وضعها الموسيقيون القدماء بين أنواع الغناء ..

وفى مثل هذه التجارب نرى ونسمع ذوبان الفروق بين كلمات الطقطوقة وكلمات المونولوج ، كما نرى ذوبان الفروق بين الحان الطقطوقة والحان الدور والحان التوشيح ..

هذه التجارب تؤكد بطريقة علمية بسيطة وجهة نظر متواضعة كنت ابديتها مرارا والححت فى البرهنة عليها مرة بعد مرة ، وملخصها ان تقسيم الاغانى العربية فى الزمن الحديث الى طقطوقة ومونولوج ودور وتوشيح لم يعد الا تقسيما تاريخيا مسجلا فى الكتب باعتبار ما كان ، أما فى أيامنا فلم يعد هذا التقسيم واقعيا الا من حيث الاسم مجردا تقريبا عن محتواه القديم ..

هذا التقسيم استنفد أغراضه فى عصرنا او كاد الا من الناحية التاريخية التى يتحتم النظر اليها باعتبار خاص من خلال هذا التقسيم الذى كان فى زمانه حقيقة

فنية لا جدال فيها ثم تحول بالتدريج الى مجرد أسماء تاريخية ترقد على هامش الغناء العربى فى ثوبه الجديد

لهذا أصغيت باهتمام واستمتاع الى فرقة الموسيقى العربية وهى تغنى ـ جماعيا ـ أغنية « الورد جميل » التى لحنها زكريا أحمد وغنتها أم كلثوم قبل ربع قرن. كما أصغيت باعجاب الى أغنيــة « هو صحيح الهوى غلاب ؟ » .. آخر ما لحنه زكريا أحمد لام كلثوم منذ عشر سنوات ..

أغنيــة « الورد جميــل » يمكن أن تسمى طقطوقة بمقاييس الاغانى القديمة ، ويمكن أن تسمى مونولوجا. وكذلك أغنيــة « هو صحيح الهوى غلاب ؟ » فان مواصفات النظم الشعرى أوالزجلى فيهما هى مواصفات الطقطوقة بلا زيادة ولا نقصان ، وهى أيضا مواصفات المونولوج ..

أما التــلحين فانه خفيف سريع راقص فى « الورد جميل » ولهذا يمكن تسمية هذه الاغنية «طقطوقة» .. ولــكنها ليست طقطوقة بالمواصفات القديمة .. فماذا تكون اذن ؟ ! ..

والتلحين فى « هو صحيح الهوى غلاب ؟ » غارق فى نغمة الصبا الحزينة ، ولــكنه محفــوف ومصــحوب بايقاعات وألحان راقصــة من أعجب وأطرب ما يمكن سماعه من الايقاعات والالحان الراقصــة تحت جنــاح نغمة الصبا الحزينة ، وهذه مقدرة فى التلحين لا تتاح الا لملحن عظيم كزكريا أحمد رحمه الله ..

والحزن هنا مع بعض العنـــاصر النظمية والفنية الاخرى يرشح الاغنية لان تسمى مونولوجا ، ولــكنها ليست مونولوجا .. فماذا تكون ؟ ! ..

هذا السؤال ومثله السؤال الخاص بأغنية « الورد

جميل» يمكن طرحهما عند سماع الاغنيتين من أم كلثوم . أما عند سماعهما من فرقة الموسيقى العربية ، فان طريقة المجموعات الصوتية النسائية والرجالية فى الاداء المشترك وغير المشترك ، تجعلنا فى غير حاجة الى اى سؤال .. فهنا هنا تتحول الطقطوقة ويتحول المونولوج الى شكل جديد من أشكال الغناء هو خليط أو مزيج جميل من الدور والتوشيح بما فيهما من حوار وترديد جماعى وملامح فنية أخرى لا وجود لها فى الطقطوقة ولا فى المونولوج وكلاهما منظوم وملحن لصوت واحد لا لمجموعة الاصوات التى سمعناها فى فرقة الموسيقى العربية ..

هكذا نرى تداخل الاشكال الغنائية بعضها فى بعض ، ونرى ان الطقطوقة والمونولوج يمكن ان يدخلا من الباب الخلفى للتوشيح والدور .. وكلمتى هذه مهداة الى الملحن الكبير المخضرم عبد الحميد توفيق زكى الذى يصر — حتى الان — على تقسيم الاغانى الى طقاطيق ومونولوجات وأدوار وتواشيح .. الى آخر قائمة الاسماء العريقة التى لم تفقد عراقتها وحقيقتها التاريخية ، ولكنها أصبحت فى الغناء الجديد غير ذات موضوع ! ..

الغناء وجمهور المنوعات

ظهور المطربة المشهورة أو المطرب المشهور على المسرح في حفلات المنوعات ، معنـاه سريان الحيوية والتطلع واهتزاز جسـد المتفرج وجسـد المتفرجة أيضـا .. فالغناء هو لغة الـكلام التي يجيد « وكلاء الفنانين » مخاطبة الجمهور بها في هـذه الحفلات التي يقيمونها لحسابهم أو لحساب الهيئات والجمعيات الخيرية وغير الخيرية .. وبدون مطرب مشهور أو مطربة مشهورة لا يتم رونق حفـلة المنوعات بل لا تتم الحفلة على الاطلاق ..

وكلما أتاحت لي المصادفات أن أحضر حفلة منوعات تبينت ان جمهورها لا يكتفي بالرقص ولا الفكاهة ولا الالاعيب الاخرى التي يقدمونها تحت لافتـات فنيـة براقة .. وهذا هو السبب في ان المطرب يحتل أهم ساعات الحفلة ، وتحيط به فقرات الحفلة كأنها اطـار حول صورته او حول صـوته امام عيون وأسماع الجماهير ..

واذا استثنينا جمهور أم كلثوم الذي تتجدد أجياله ، لم نر لاحـد من مشهوري المطربين والمطربات جمهـورا خاصا يمكن أن يملأ مقاعد حفلة لا يشترك فيها أصحاب الفقرات السريعة المنوعة . ولهذا يغني جميع المطربات

والمطربين المشهورين فى حفلات المنوعات التى يغنى فيها ايضا مطربو ومطربات الصالات والملاهى الليلية ..

ولا يجرؤ مطرب ـ مهما كانت شهرته ـ على اقامة حفلة ممنقة عليه وحده . وقد توهمت بعض المطربات منذ سنوات قلائل ان لها جمهورا يملأ حفلة تحييها بمفردها ، ويلعلع فيها صوتها الخافت وحده ، فأقامت الحفلة وخسرت فيها ، ولم تعد الى مثلها مرة أخرى..

مع ذلك ، لا تقوم حفلة المنوعات بدون صوت مطرب او مطربة من الدرجه الاولى . فالجمهور المصرى الذى يسمع مطربيه الآن من خلال الميكروفون هو وريث الجمهور الذى كان فيما مضى يستمتع بسماع الحامولى والمنيلاوى وسالم العجوز ومحمد المسلوب وعبد الحى حلمى وسلامة حجازى ومنيرة المهدية ، ويسهر فى سماعهم حتى الصباح وقد تملكته نشوة تشبه السحر او الجنون ! ..

غير ان الزمن تغير ، والغناء نفسه تغير ، ولم يبق شىء لم يمسسه التغير . وقد حكم الزمان على « السميعة » أن يكتفوا بسماع مشاهير المطربين فى حفلات المنوعات، بعد أن كان سماع مشاهير المطربين تقام له السرادقات فى أوسع الساحات ! ..

وتغيرت مواصفات المطربين ، ومواصفات المستمعين، وانعقد بين الطرفين اتفاق غير مكتوب ينص على ان حفلات المنوعات هى الشكل المناسب للغناء والسماع فى هذا الزمان ، مع الاعتراف بوجود أشكال أخرى بطبيعة الحال ..

***

ولما كنت مقتنعا بهذا كله ، فقد حضرت فى احدى الليالى حفلة منوعات كانت مطربتها هى فايزة أحمد ..

ذكرتني فايزة احمد بمطربات الثلاثينات فى وقفتها ساعة ونصف ساعة تغنى بلا انقطاع ، ولم تكتف بكلام الاغنيات والحانها فانطلقت تقول : يا ليل .. ياعين !..

***

ولو شهدت فايزة أحمد جمهور الثلاثينات لكان فى مقدورها اقامة حفلات تغنى فيها وحدها ، بدون منوعات تحيط بها . ولكنها جاءت فى عصر المنوعات ولا بد لها من الخضوع لاحكامه ، وليس الخضوع لاحكامه شرا كله ، فان جمهور المنوعات يميز بين الاصوات الجيدة والاصوات الرديئة ، وقد رأيته يندمج مع فايزة أحمد طوال ساعة ونصف ساعة فى أربع اغنيات من الحان سلطان ، بعضها جديد كأغنية « صعبان علينا » التى يمتاز لحنها بنعومة خاصة ..

وقبل أن تنتهى آخر « نمرة » فى الحفلة بحثت عن فايزة أحمد فى الكواليس فلم أجدها ، كنت أود أن اقول لها انها المطربة الوحيدة - بعد أم كلثوم - التى تستطيع الان ان تغنى ساعة ، فلا تحتبس نبرات صوتها فى حنجرتها .. وقد لا تجيء بعد عصرنا مطربة أخرى من هذا الطراز ، وبخاصة اذا ما أصبح كل الغناء منوعات فى منوعات ! ..

تقاسيم البيانو.. وتقاسيم العود

فى « قعدة » شائقة مع مدحت عاصم الموسيقار العجوز الذى لولا صلعته اللامعة التى تشمل راسه كله لكان فى مظهره أكثر شبابا من نجوم السينما الشبان .. قال لى العجوز الشاب فى لباقته وسخريته المشوبتين دائما بالحياء والاعتذار :

ــ منذ مدة التقيت بموسيقار مصرى دارس للموسيقى العالمية « الاوروبية » دراسة طويلة .. وبعد حوار معه اسمعنى عملا موسيقيا من أعماله فسألته :

ــ على اى الآلات الموسيقية تجيد العزف ؟ .

فأجاب :

ــ البيانو ..

فعدت اسأله ــ وانا اعلم مقدما انه سيسخر فى قرارة نفسه من سذاجة سؤالى :

ــ هل تجيد « التقسيم » على البيانو بما يلائم الذوق العربى ؟ ! ..

ولم يكن هذا الموسيقار المصرى الدارس للموسيقى الاوربية حتى النخاع ، يجيد « التقاسيم » طبعا ، لانه يعتبرها مجرد زخرفة « أورينتال » يترفع عنها من يتصورون انفسهم مبعوثى العناية الإلهية لإقامة صرح

الموسيقى فى مصر .. ولا يهتم ـ فى رأيهم ـ بهذه الزخرفة الا عازفو العود والقانون والناى والبزق والكمان ، وكل آلة موسيقية مشدودة النغمات على ثلاثة أرباع الصوت المتخلف عن ركب الحضارة الموسيقية ! ..

وتعليق مدحت عاصم على ما سمعه من صاحبنا الموسيقار ، تعليق واضح موجز يخطر على بال كل منا فى هذا الموقف ، ويتضمنه هذا السؤال البسيط :

ـ أليس طبيعيا الا يستطيع موسيقار غريب الذوق عن وطنه أن يخاطب مواطنيه بلغة موسيقية يفهمونها ويتذوقونها ما دام هو نفسه لا يفهم ولا يتذوق لغة مواطنيه الموسيقية ؟ ! ..

لقد درس العجوز الشاب مدحت عاصم موسيقى العالم ، والموسيقى الاوربية على الاخص ، دراسة حقيقية ، ولكنه ـ حين يريد ـ يلحن بالعربى ، ويعزف على البيانو تقسيمات مصرية الروح ، تجعل « ابن البلد » البسيط الذى لم ير البيانو فى حياته يرقص طربا لهذه التقسيمات ! ..

مع ذلك ، أرجوك الا تتفاءل كثيرا جدا بكلامى مع مدحت عاصم ، فالخلافات « الذوقية » بينه وبيننا ـ أنت وانا ومحبى الموسيقى العربية ـ ليست هينة ، لانه « ملتزم » بعلوم الموسيقى « العالمية » تمام الالتزام ولكنه يعايش موسيقى بلاده بل يعيش فيها وكأنه أحد مستمعى الاذاعة العاديين .. وهذا ما يجعلنى دائما اتذكر هذا الشيخ الشاب كلما ازعجتنى تلك القضية المزمنة التى تتعلق بهؤلاء المستمعين العاديين الذين هم ملايين الشعب كلها تقريبا .. فكيف يمكن تعديل أذواقهم بحيث لا تنصرف بكل تلقائيتها وبراءتها الى ايقاعات

« الطبلجى » الذى يصاحب راقصات شارع الهرم فى تاودهن كل ليلة .. مع الاعتراف الكامل بأن الطبلجى وطبلته هنا مجرد رمز ، لان هؤلاء المستمعين لا صلة لهم بشارع الهرم ..

طبعا ، لا تستطيع أن تفاجىء المستمع العربى بما اعتاد المثقفون الراسخون أن يسموه « الموسيقى الرفيعة » كالسيمفونيات وما اليها من شوامخ الاعمال الموسيقية ..

لانالاصل فى ذوقالمستمع العربى هو الغناء .. ومنذ اول الزمان يميل شعبنا الى الغناء أكثر مما يميل الى عزف الآلات ، بل ان صوت المطرب أو المطربة كان دائما ــ وما زال كذلك تقريبا ــ هو الاساس ، والآلات من حوله حاشية وحرس شرف لا أكثر ! ..

وليس هذا بعيب ولا نقص فى طبيعة الشعب العربى، ولا خلل فى وجدانه ، فلكل شعب وجدانه وطبعه ، لا يسعه أن يتخلى عنهما ويستعير منخارج ذاته وجدانا وطبعا ، لان عوامل التاريخ العميقة الجبارة هى التى تصنع هذه الاشياء الدقيقة فى البشر ، وهى التى تتولى تعديلها أو تغييرها ..

فلننح اذن ــ بكل سماحة وتواضع ــ تلك الفكرة ذات الياقة البيضاء التى تنادى أحيانا بحشد الناس فى قاعات للموسيقى الرفيعة .. يسمعونها ان شاءوا ، أو يتأففون من سماعها غير مبالين . المهم ان يحتشدوا فى هذه القاعات ويجلسوا فوق مقاعدها حتى لا يبقى فيها كرسى واحد بغير حمولته المقررة .. ثم يرفع المايسترو عصاه المهيبة ايذانا ببدء الصعود الى سماء الموسيقى العالية ! ..

ماذا اذن ؟ ! .. أنترك الموسيقى الرفيعة للزمن ،

لعل وعى ، ثم نصرف اهتمامنا الى الشيء الذى يحبه شعبنا وهو الغناء ؟ ! ..

فى رأيى : نعم ! .. ولكن كيف ؟ ! ..

يقول الذين يضيقون ذرعا بالغناء « الاورينتال » ومعناه هنا « الغناء العربى » بخاصة لا « الشرقى » بوجه عام : من الممكن احداث انقلاب فى أذواق المستمعين اذا حشدناهم لرؤية وسماع المسرحيات الغنائية أو الاوبرات العالمية ، فانهم عندئذ لا بد أن يستصغروا « الاغنية » العربية الفردية ، ويتحولوا فورا أو بالتدريج الى حب الاوبرا ، ليجعلوها هى متعتهم الغنائية التى ترسخ فى نفوسهم بدلا من هذه المتعة الزائلة التى يطلبونها الآن فى الأغنية العربية ..

ولكن الواقع يصدم هؤلاء السادة فلا يسمح لهم بحركة جدية تحقق أحلام يقظتهم هذه ، فان المستمع العربى لم يتخلص من الرطانة العثمانية والفارسية والغجرية التى كانت شائعة فى غناء مطربيه ومطرباته الا منذ أقل من مائة عام ، أى منذ بدأ عبده الحامولى تمصير وتعريب الغناء فى مصر ، والاستقلال عن ذيول الغناء العثمانى وبقايا الصراخ الغجرى الذى سمعته بلادنا طوال عصور الانحطاط القومى والاجتماعى ...

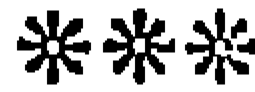
فهل يمكن أن يقال اليوم لهذا المستمع الذى ما زال يشعر بالغبطة لتعريب السنة مطربيه وتعريب حناجرهم .. اليك أيها المستمع الكريم رطانة غنائية من نوع جديد مدهش ، فدع ما تسمعه من غنائك هذا البدائى ، واستمع الى ما نقدمه اليك ؟ ! ..

لقد كانت اعادة الغناء العربى الى لهجته الموسيقية العربية بعد استعجامه الطويل فى الماضى ، ثورة فنية عظيمة انقذته من اثياب الغناء العثمانى والغجرى

والفارسى التى اكلت حناجر المطربين واذواق المستمعين مئات السنين ! ..

وكانت ثورة الغناء العربى على العجمة التى فرضتها عليه عصور التدهور ، أشبه بثورة الشعر العربى على يد محمود سامى البارودى الذى طوى صفحة الشعر العثمانى والمملوكى وأعاد فتح كتاب الشعر العربى الصميم ..

فكيف يصح الآن ان يقال : هلموا أيها المستمعون الى الغناء الاوبرالى ولا تستمعوا الى الاغنية العربية ، بل ولا الى المسرحيات الغنائية القائمة على المقامات العربية لانها فى الحقيقة مجموعة اغنيات فردية ملفقة فى « حدوتة » فوق الخشبة ! ..



ان المستمع المعاصر الذى امتلأت اذناه بغناء أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد ووديع الصافى وعبد الحليم وفايزة وفيروز وصباح وبقية القائمة الطويلة المحبوبة من المطربين والمطربات ، لا يجرؤ أحد أن يقول له الآن فجأة -وبلا مقدمات : تعال فاسمع ماريا كالاس ، أو الى مقلداتها العربيات الرديئات ! ..

فليست كل أنواع الغناء تسمى غناء عند كل مستمع ، وبخاصة المستمع العربى .. ولو سألنا طبيبا للأنف والاذن والحنجرة ، لقال لنا : ان الفك والأسنان واللسان والحلق والبلعوم والرئتين والحجاب الحاجز والضلوع ، تتخذ عند الغناء الاوبرالى وضعا يختلف عن وضعها فى الغناء العربى الذى هو ــ كما يقول سادتنا الموسيقيون ــ غناء الصوت الطبيعى ، لا غناء «الراس» كما يقال عن الغناء الآخر ..

والمغنى الذى يتدرب على الغناء الاوبرالى يأمره

مدربوه ــ ولا لوم عليهم لان هذا واجبهم فى تدريبــــه على هذا الغناء ــ أن يمتنع عن الغنــاء العربى تماما ، لــكى يتيح لجهازه الصوتى بتفاصيله المختلفة أن يتشكل فسيولوجيا على أداء الاوبرا .. فاذا تم تشكيله هكذا ، صار محكوما عليه بالعجز عن اداء أرباع الاصـــوات العربية ، وانقطع احساســه الفطرى بالغناء العربى ، وخفيت عليه دقائقه المتنوعة الكثيرة التى لا غنى عنهــا لمن يريد أن يكون مطربا عربيا حقا ، لا مجرد «خواجة» مغامر ، يتخبط فى السيكا والبياتى والراست ..

ليس هــذا بحال طعنــا فى الغناء الاوبرالى ، لــكنه توضيح للفروق الطبيعية بينه وبين الغنــاء العربى .. كلاهما فن عظيم قائم بذاته منفرد بأصـــوله وفروعه وأسراره وتقاليده وجمالياته ، ولا بد اذا أردنا أن نمضى بغنائنا ــ وموسيقانا طبعــا ــ فى أقوم السبل وأكثرها أمنا وسلاما ، من الوقوف بثبات ضــد المناداة بالغــاء الموسيقى العربية والغناء العربى .. ثم الوقوف بحزم ضد التقليــد القرودى الاعمى الذى يستسهل النقــل والاغتراف من النوتة الموسيقيــة الاوربية ، ويرى انها مفتوحــة له بلا رقيب ولا حسيب فلا داعى للتعب فى تطوير الموسيقى العربية والسير بها فى طريق البنــاء الفنى المستقل ، وقــد حاول بعضهم فعلا أن يســير بها فى طريق التقليد الحرفى فاصطدم بمقاومة المستمعين

فاذا كنا نحرص على تجنب التقليــد والنقل الحرفى فى بناء الــكيان المادى لمجتمعنا ، فكيف نســيغ النقــل والتقليد فى بناء كيانه الوجدانى الذى تدخل الموسيــقى فى صميمه ؟ ! ..

***

رايى الذى ارجو التوفيــق فى ابدائه انه لا بد من

التمهــل فى « التقريب » ولا أقول « الخلــط » ولا « الدمج » بين الاصول الــكلاسيكية للموسيقى العربية والموسيقى الاوربية ، لان أحد الطرفين سيضيع تماما ، فحتى الغناء الخفيف عندنا وعندهم لايتقاربان بسهولة ، فكيف بالاصول الــكلاسيكية المعقدة ؟ ! ..

***

ومن حسن الطالع ان الذوق الفنــائى المورث الذى ننفرد به لا يمكن أن ينقرض لانه ذو ثبات هائل ، وان كان مرنا الى الحد الذى أتاح لجمهوره قبول كل تعديل فيه وكل تطوير وتحوير .. بل وكل « تزوير » ! ..

وفرق كبير بين التطوير والتحوير ، وحتى التــزوير وبين الزوال والراحة الابدية ! ..

والمشكلة فى كلمتين هى : تطوير موسيقانا وليس بناء متحف خاص لمخلفاتها العزيزة المتبقية من سالف العصر والاوان ! ..

وفى هذا الطريق يستطيع الموسيقى العربى أن يعمل ، ولا طريق سواه الا ذلك الطريق المقفر الذى لا يمر به المستمع العربى ..

وشكرا للعجوز الاصلع الشــاب ، عازف التقاسيم الخفيفة الرشيقة على البيانو الثقيل الصعب المراس .. وان كان ـ العجوز الشاب لا البيــانو ـ سيقابل بعض كلماتى وآرائى هنا بسخريته التقليدية التى يشوبها مع الحياء والخفر ، ما يناسب المقام من الاعتذار ! ..

رحلة أم كلثوم
مع ملحنى القصائد

ماذا كان يقول المطرب الملحن الشيخ أبو العلا محمد لو امتد به العمر حتى سمع أم كلثوم تغنى القصائد من تلحين عبد الوهاب ؟ ! ..

اول قصائد غنتها أم كلثوم فى العشرينات كانت من تلحين هذا الشيخ النابغة فى التلحين والغناء ، الذى التقى بأم كلثوم فى بدايتها الفنية بالقاهرة ، ونبرات صوتها ما زالت بعد تتأرجح بين نضارة الطفولة وحدة الشباب ..

وقد ملأت أم كلثوم الاسماع غناء منذ لحن لها الشيخ أبو العلا قصائدها الاولى ، الى أن لحن لها عبد الوهاب « أغدا ألقاك » قصيدة الشاعر السوداني آدم

والشيخ أبو العلا أول من أدرك من ملحنينا القدماء أهمية التوافق بين الكلام والالحان ، مع احتفاله فى الوقت نفسه باستعراض حلاوة الصوت وقوته وانضباطه فى الاداء .. فلم يسبقه الى المطابقة بين اللحن والكلام احد من ملحنى الربع الاول من القرن العشرين. وتلاه فى هذا المجال سيد درويش وسائر الملحنين ، فتوسعوا فى تصوير معنى الكلام بالتلحين .

والالحان التى وضعها أبو العلا لام كلثوم ، تقوم كلها على خدمة اللحن للكلمة أو لمعنى الكلمة ، وتفجير

الطرب الغامر من اجتماع اللحن والكلمة ، كأن أحدهما نابع من الآخر ..

وهل ينسى قدامى المستمعين لحنه لقصيدة أحمد رامي : « الصب تفضحه عيونه » .. ولحنه لقصيدة الشيخ عبدالله الشبراوى ـ أحد مشايخ الازهرالاقدمين ـ : « وحقك انت المنى والطلب » .. ولقصيدة الشاعر على الجارم : «مالى فتنت بلحظك الفتاك» . ولقصيدة ابن النبيه شاعر العصر الايوبى : « أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا » ؟ ! ..

لقد درس الشيخ ابو العلا ـ فيما درس من اصول الموسيقى العربية ـ كتاب الشيخ محمد شهاب الذى يعرفه الموسيقيون باسم « سفينه شهاب » وحفظ منه الاوزان والمقامات التى كانت مجهولة فى مصر حتى مطلع القرن العشرين . واطلع فيه ، على أكثر من ثلاثمائة موشح من الموشحات الأندلسية الثمينة ، فأدرك عندئذ ان المطربين المصريين لا يغنون بالعربى ، بل يغنون بالعثمانى والفجرى والفارسى ؛ فعزم أن يرد الغناء المصرى الى أصوله العربية ، وكان صوت أم كلثوم هو الفرصة التاريخية التى سنحت له فعلق به هذه الرسالة الفنية والقومية العظيمة .. وكان دور «الشيخ ابو العلا » من خلال صوت أم كلثوم أشبه بدور محمود سامى البارودى فى رد الشعر العربى الى سليقته العربية بعد ان افسده العثمانيون وغيرهم فى عصور التدهور القومى والاجتماعى (١) ..

واستطاع الشيخ أبو العلا وأم كلثوم بجدارة ان يردا الغناء العربى الى طريقته الحضارية التى كانت له فى

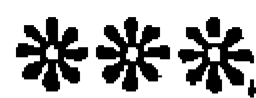
---

(١) تحدثنا عن هذا الرأى بافاضة فى كتبنا الثلاثة « الغناء المصرى » و « أصوات والحان عربية » و « مطربون ومستمعون » .

عصور ازدهاره قبل سقوط بغداد فى يد هولاكو ، وسقوط غرناطة فى يد ايزابيلا وفرناندو ..

كان الغناء العربى فى تلك العصور صوتا ولحنا موضوعين فى نظام واحد أو فى وعاء واحد . اللحن يفسر الكلام .. والصوت يهز الافئدة باللحن والكلام .. معا ، منطلقا على امتداد مساحته الواسعة ودرجاته العالية ، مؤكدا قدرته الفائقة على بناء اللحن أو الصوت نبرة فوق نبرة ، فكان الغناء فى هذه الناحية أشبه بالشعر الفصيح فى قوة الاسر ودقة الايقاع ، وكانت الفصاحة هدفا مشتركا بين الشعر والغناء ، ولكنها لم تكن فصاحة غنائيه جوفاء لانها كانت تقع على هدفها بلا زيادة ولا نقصان ..

كان ظهور هذا اللون من الغناء فى العشرينات ثورة فنية قائمة على بعث الطريقة العربيه فى الغناء لا على الاستمداد أو الاقتباس من الغناء الاوربى ، ولو أتيح لهذه الطريقة أن تستمر وتتطور فى نهج مستقل لكان لها أطيب الأثر فى الغناء العربى ، ولكنها لم تستمر ، فقد مات الشيخ أبو العلا فى أواخر العشرينات ، وبدأ فن غناء القصائد الكلثومي يأخذ شكلا جديدا على يد محمد القصبجي الذى كان ملحنا كبير الامل ولكنه لم يوفق فى تلحين القصائد ..



كانت فكرة القصبجى عن التجديد فى الغناء مضطربة غير واضحة فى ذهنه وليس لها أساس من علمه بالموسيقى ، وقد ظن ان التجديد يكون بالامتدادات الصوتية شبه الاوبرالية ، فلحن أغنية : « ان كنت أسامح وانسى الاسية » التى ما زالت بعض الاراء الفنية الى اليوم تعتبرها علامة بارزة على طريق التجديد .

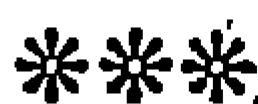
والحقيقة انها تمثل قبل كل شيء اضطراب أفكار القصبجي حول التجديد أو التطوير ، فليس في هذه الاغنية « التاريخية » الا مطلع شبه أوبرالى يحاول اثارة انتباه المستمع ، فاذا انتبه المستمع وارهف السمع لم تتلق أذناه بعد هذا المطلع الا تقطيعات غنائية عاديه تكاد تكبت الصوت ولا تعبر بعد ذلك حتى عن معانى بعض الكلمات ، ولا تصور ولو قليلا من جوها ، فاللحن في واد والكلام في واد ..

وقد امتدت عدوى « ان كنت أسامح » الى ما لحنه القصبجي لام كلثوم من قصائد الثلاثينات ، فان قصائد رامى « يا غائبا عن عيونى » .. و « يا نسيم الفجر ريان الندى » .. و « أيها الفلك على وشك الرحيل » وغيرها .. لم تظفر من القصبجي الا بتقطيعات لحنية متواضعة التعبير ، أو بعيدة عن التعبير ، مصحوبة بطرقات على العود تأكل أصوات الآلات الموسيقية القليلة التى تصحبه في التخت ..

كانت القصائد التى لحنها القصبجي لام كلثوم من الشعر الرومانتيكى الذى نظمه رامى متأثرا بالرومانتيكيين الفرنسيين الذين قرأ لهم وهو طالب علم فى باريس ، وكانت قصائده مقطعة الى أوزان وقواف مختلفة ، رمزا للتجديد الرومانتيكى فى شعره . ولكن كل هذه « التسهيلات » فى الكلام لم تسهل للقصبجي محاولاته فى التلحين الرومانتيكى التجديدى الذى عاصر التجديد الرومانتيكى فى الشعر العربى خلال الثلاثينات ..

ومن حسن الحظ ان القصبجي لم يستسلم طويلا لهذه العقدة التجديدية ، ولو استسلم لها بدون قيد ولا شرط لما اتفقت له تلك الالحان الرائعة التى غنتها أم كلثوم ..

وفى وسط عاصفة التجديد التى أثارها القصبجى فى تلحين القصائد بعد إن أثارها فى تلحين الطقاطيق ، كان زكريا أحمد يلحن لام كلثوم ، فكان مما لحنه لها قصائد أخرى جاءت بعد خمود جذوة تجديد القصبجى ، ومن أجملها قصيدة « قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى» التى صنع لها ثلاثة ألحان من ثلاثة مقامات متنوعة ، وقصيدة « زهر الربيع يرى أم سادة نجب » وهى من تأليف الشاعر محمد الاسمر فى تحية العرب والعروبة ، وكانت ألحان زكريا لهذه القصائد خطوة الى الامام بعد خطوة الشيخ أبى العلاء ..



ولكن الخطوة الكبرى فى تلحين القصائد الكلثومية كانت من نصيب رياض السنباطى ، فصنع من الشوامخ والمدهشات فى هذا الباب ما لم يحلم به الشيخ أبو العلا فى زمانه ، ولا خطر على بال اسحاق الموصلى قبل ألف عام ..

وفتح صوت أم كلثوم للسنباطى أبوابا للتلحين الجديد المتطور ، فأشعل مواهبه كملحن موهوب مطبوع نادر المثال ، وحرص السنباطى دائما على أن يلبى متطلبات صوت أم كلثوم ويرتفع الى جو الامكانات الفنية الرفيعة لهذا الصوت السحرى ..

ومن يستمع الى ألحان السنباطى للقصائد الكلثومية تدهشه أن مقامات الغناء العربى كانت منذ بداية أمرها قبل ألفى عام تتضمن كل هذا القدر من الغطاء المحبوس فى قمقم ، حتى جاء السنباطى فأطلق من القمقم مارده الحبيس ، فأتى بكل هذه البدائع والعجائب ..

تخطى السنباطى أسلافه ومعاصريه فى تلحين القصائد بصياغة الكلام واللحن معا فى صوت واحد ،

والاستعاضة من الطرب الفصيح بطرب أكثر تعبيرا ، ولـكنه ليس أقل فصاحة ، واحاطة الجملة الفنائيـة باطار من المقـدمات واللازمات الموسيقية يزيد الجملة الفنائية بكلامها ولحنها معا وضوحا ورهافة في الاسماع، ويعقد آصرة شديدة القوة بين الصوت واللحن وعزف الآلات الموسيقية ..

كان هـذا اسـلوب السنبـاطى فى تلحين القصـائد لام كلثوم منذ البداية . وقد اغتنى أسلوبه بالتجارب وكثرت فيه المقدمات واللازمات الموسيقية التى تزايدت قدراتها على التعبير من مرحـلة الى مرحـلة ، ولـكن أسلوب السنبـاطى بقى دائما يدل عليه كما يدل ثمر الشجرة المعطاءة على ازدهارها .. وحسبك بعض ما لحنه من تلك القصـائد منـذ الثلاثينات الى اليوم : « كيف مرت على هواك القلوب » .. « اذكرينى كلما الفجر بدا » .. « سلوا كئوس الطلا » .. وألحانه لقصائد أم كلثوم فى أفلامهـا السينمائية ، ثم ألحانه للشوقيات النبوية : « سلوا قلبى » .. « ريم على القـاع » .. « ولد الهدى » .. وألحانه للشوقيـات الوطنية ومنها « وقى الارض شر مقاديره » .. « من أى عهد فى القرى تتدفق » .. ولحنه لقصيدة حافظ ابراهيـم « وقف الخلق ينظرون جميعـا » .. الى رباعيات الخيام والاطلال ..

***

ثم تبلغ رحلة أم كلثوم مع ملحنى القصائد غايتهـا بدخول عبد الوهاب هذا المعترك الهائل ..

ان عبد الوهاب هو أشـهر مطربى وملحنى عصرنا جميعا برغم اختلاف الآراء فيه مطربا وملحنا منذ ظهوره فى العشرينات الى اليوم ..

وهو ملحن متمرس بتلحين القصائد منذ شوقياته الاولى وأشهرها رائعته الكلاسيكية «ياجارة الوادى» الى « سجا الليل » .. الى « جبل التوباد » .. الى « جئت لا اعلم من أين » .. حتى لحن لام كلثوم قصيدة « هذه ليلتى » ثم « أغدا القاك » .

ومهما قيل عن عبد الوهاب فانه ينفرد بموهبة فذة فى تذوق الالحان وتوليفها واستيلادها واختراع ما تستطيبه الاذن منها وتستجده ، مزجا وتفريقا وتفريعا وتنسيقا .. وجميع تلاميذ مدرسته عيال على فنه ، وقد اكتملت له عليهم اسباب التفوق الساحق الذى لا حيلة لهم فيه ..

وعبد الوهاب المجدد الذى يكاد فى بعض ألحانه يكون مستشرقا أو مستعربا هو عبد الوهاب الذى تعيش الالحان العربية فى وجدانه ، فهو ــ على عكس ما يتصور بعض ناقديه ــ محيط بالغناء القديم كاحاطة غلاة المحافظين به ، ولكن عبد الوهاب لم يقع فى اسار القديم ، بل ثار عليه نوعا من الثورة وحاول التوفيق بينه وبين ما يسمعه من موسيقى العالم ، على نحو عجز عنه معاصروه ، بل عجز الكثيرون منهم حتى عن مجرد فهمه وتذوقه ، وما زال معاصروه الجدد من الباحثين عن البترول فى صحراء التجديد الموسيقى ، يعجزون عن فهمه أو النسج على منواله ! ..

وعبد الوهاب هو الذى نقل الموسيقى العربية من السماعيات والبشارف والتقاسيم الحرة على القانون والناى والعود الى المقطوعات الموسيقية المعبرة الغنية بالانغام ، والى اللازمات الموسيقية التى تتغلغل فى الاغنية فتكاد تحيلها الى قطعة موسيقية بحتة ، مما يحملنا على الظن بأن الاغنية العربية أوشكت أن تلد

الموسيقى البحتة ، أي تكون سببا فى قيام كيان مستقل للموسيقى العربية البحتة ، أكثر تقدما وتطورا من البشارف وأخواتها ..

واللحنان اللذان كتبهما للقصيدتين الكلثوميتين السالفتى الذكر ، يعبران بوضوح عن هذا الاتجاه .. فهما فيض من المقدمات واللازمات الموسيقية يسبح فيه الكلام المنغوم .. واستخدام جرىء للمقامات والايقاعات يكاد لا يخطر على البال .. وشكل فخم ضخم للأغنية وما يتراقص حولها من موسيقى المقدمة واللازمات تظن معه ان ثمة هارمونى أو كونتربوينت ، وليس هناك شىء منها ، ولكنه خداع السمع الذى يشبه خداع البصر وان لم يكن وراء هذا الخداع السمعى خدعة فنية ، بل ان وراءه تطلعا حقيقيا دائما من عبد الوهاب الى تخطى الميلوديات المفردة الى الاعمال المركبة المتطورة ، على أسس الموسيقى العربية لا على أسس الموسيقى الاوربية أو غيرها ..

فى هذا الاتجاه يعمل عبد الوهاب ـ كما يعمل السنباطى وغيره ـ واضعين نصب أعينهم حماية الموسيقى العربية من الاتجاهات البلهاء التى تحلم بقتل كل لحن عربى أو ايداعه متحف الآثار العربية الى جوار سيوف قدماء السلاطين والاتابكية والطبلخانات !

والمدهش ان الذين تراودهم هذه الاحلام الشريرة ـ وهم من غلاة المستخوجين ـ يتطفلون بشراهة على الموسيقى الاوربية ، طلبا للتقليد الحرفى الاعمى

والاغانى التى لحنها عبد الوهاب لام كلثوم ـ ومن بينها القصائد ـ هى عمل من أعماله فى هذا الاتجاه الفنى والقومى ، وهو الاتجاه الذى سارت فيه أم كلثوم ، من عهد الشيخ أبو العلا محمد الى اليوم ..

المونولوج الرومانتيكى والطقاطيق

يتـذكر المسـتمعون أحمـد رامى كلمدا وردت على اسماعهم كلمات جديدة ينظمها لام كلثوم شاعر مشهور أو مغمور ، فان رامى هو شاعر أغانى أم كلثوم فى عصر بأكمله ، ويكاد بعض الشعراء لا يؤلفون لها شـعرا الا من شعره ، ولا يأتون اليها الا بما يرددونه من معانيه وقوافيه ! ..

وقصيدة « أغدا ألقاك » للشـاعر السودانى آدم ، من الشعر الذى لا يبتعد خطوة عن طريق رامى . ولو لم يعرف المستمعون ان هذه القصيـدة من نظم آدم ، لقالوا بحكم العادة انها من نظم رامى ، وأضافوها اليه باحسانها واساءتها ! ..

ومن خير ما نظم رامى لام كلثوم ، مقطعاته العامية الذائعة الصيت . واكثر هذا الشعر العامى يسـميه رامى « المونـولوج » ، ويسـتطيع أيضا أن يسـميه « الطقطوقة » .. لان « المونولوج » اسم مستعار ، أو هو اسم « الدلع » الافرنجى للطقطوقة المصرية التى كان اسمها فى بدايته نوعا من « دلع » الاغانى المصرية تاليفا وتلحينا منذ خمسين عاما .. وليس مصادفة أن تقول احدى الطقاطيق الاولى فى ذلك العصر :

اللى بحبه دا دلعه يجنن
يضرب بيـانو وأنا أدندن

وقبـل أن يصبح رامى مؤلفا للأغانى بزمن طويل ، كانت أقسام الغناء المعروفة هى : القصيدة والتوشيح والدور والموال ، ثم أضيفت اليها الطقطوقة ، ولعـل رامى لم يغب عن باله بعـــد كيف اختـــرع المؤلفون والملحنون الطقطوقة وهو بعد صبى أو شاب صغير فى بدايات القرن العشرين ..

ولما نظم رامى الطقـاطيق ، سماها « طقـاطيق » بصراحة .. ولم يتبرأ من هذا الاسم ، ولـكنه بعـد قليل نظم الطقاطيق وسـماها « المونولوج » .. وقال رامى ومعاصروه الرومانتيكيون ان المونولوج هو الاغنية العاطفية الخيالية الرزينـة ، اما الطقطوقة فلا تبـالى الخيال ولا العاطفة ولا الرزانة ..

ولم يكن اسم « المونولوج » من ابتـكارهم بطبيعـة الحال ، فهو اسم أوربى آثر الرومانتيكيون المصريون أن يضعوه على راس اغنيـاتهم ، تمييزا لها من الطقطوقة التى كانت ــ كما قالوا ــ لا تبـارى المونولوج خيـالا وعاطفة ورزانة ..

ولو شـاءوا لابقوا هـذا الاسم المصرى فى مكانه ، فالاسم وحده لا يخلق فنا جديدا ، ولامكنهم بعـد ذلك أن يجعلوا للحب الرفيع ــ كما يتصورونه ــ طقطوقة .. وللخفة والشخلعة طقطوقة أخرى .. فلا فرق فى النظم ولا فى التلحين بين المونولوج والطقطوقة اذا احتكمنا الى المقاييس الادبية والموسيقية ..

ومن عجائب الاقدار الموسيقية والادبيـة ان اسـم « المونولوج » الذى جعلوه تاجا ذهبيا لاغانيهم الرفيعة قد انقرض فلم يعـد له وجود الآن حتى على السـنة الملحنين وشعراء الاغانى ، وانحصرت دلالة الاسم الذهبى على ما نسمعه أحيانا من فن « المونولوج » الشـعبي

الفكاهي الذى يحاول شكوكو وزملاؤه أن يمسكوا ببقاياه ! ..

والواقع ان الانقراض قد شمل تسمية الاغنية المصرية بالمونولوج وبالطقطوقة معا ، فقد اتخذت الاغنية المصرية الحديثة موقعا فنيا بين الدور والطقطوقة والموال والتوشيح ، وأصبح اسمها « أغنية » لا أكثر ولا أقل. ولا يخطر على بال مؤلف ولا ملحن أن يسمى أغنية له الآن مونولوجا أو طقطوقة أو دورا أو توشيحا .. ولم يبق الا اسم الموال واسم القصيدة ، ولكن بلا وجود فعال لهذين الاسمين الجميلين فى أعمال المؤلفين والملحنين والمغنين الجدد ..

لهذا ادهشتنى برقية طويلة تلقيتها من الموسيقى المخضرم المعروف عبد الحميد توفيق زكى تعقيبا على كلمة كتبتها عن أغنية « ان كنت أسامح » التى ألفها رامى ولحنها القصبجى لام كلثوم منذ أربعين عاما ..

الاستاذ عبد الحميد زكى يعترض فى برقيته على تسميتى هذه الاغنية بالطقطوقة ، قائلا لى : هذه الاغنية يا بنى مونولوج لا طقطوقة ...

ولا جدال فى انها — تاريخيا — مسماة بالمونولوج ولكنى آثرت الا اسميها كذلك ، لان اسم «المونولوج» يقترن الآن باسم شكوكو وأسماء زملائه . ولم يكن فى السطور متسع لشرح الفرق بين مونولوج شكوكو ومونولوج « ان كنت اسامح » . فضلا عن خفاء الفروق الحقيقية — وانعدامها أحيانا — فى التأليف والتلحين بين المونولوج والطقطوقة ، فكلاهما غناء احادى ، أو فردى ، واذا كان اسم الطقطوقة فى لهجتنا المصرية يتضمن معنى الخفة والنزق ، فان اسم المونولوج عند الأوربيين يتضمن معنى الضحك والتمثيل باليد والرجل

والوجه ، ولهذا يسمى فن شكوكو وزملائه ، فن المونولوج ! ..

وقد اعتاد المستمعون من زمان أن يتجنبوا هذه التسمية غير الموضوعية التى كانت قبل انقراضها فى الغناء المصرى مجرد شعار يرفرف فوق رءوس جيل الرومانتيكيين ..

والطقطوقة نفسها لم تكن اسما معروفا فى فن الشعر العامى المصرى طوال القرون الثمانية التى عاشها هذا الفن منذ نشأته حتى الآن . وقد لبث هذا الاسم فى عالم الغيب منذ أيام ابن نمارة وابن قزمان قبل ثمانمائة سنة ، الى أيام ابن عروس ومن جاء بعده من فحول الزجل أو الشعر العامى ، الى ظهور عثمان جلال وعبد الله النديم ، حتى جاء شعراء وملحنو بدايات القرن العشرين فولد المونولوج ثم الطقطوقة على أيديهم

ولكن التفرقة بين اسم الطقطوقة واسم المونولوج لم تعد واردة فى المضمون الحقيقى لكلا الاسمين ، لأن المونولوج حديث يلقيه الشاعر بمفرده ، أو يلقيه الممثل عندما يتعلق الامر بالدراما ، أو المسرح لا بالاغانى والاسطوانات والميكروفون .. والقائل هنا اسمه المونولوجست .. ولا اظن ان رامى ومعاصريه كانوا يريدون من الاسم الذى أطلقوه على اغانيهم ان يدور بها هذه الدورة الطويلة من المعانى المجلوبة كلها من خارج الغناء المصرى ..

والطقطوقة لم ترفض قط أن تكون حديثا فرديا خياليا مفرقا فى العاطفة ، أو تكون كلاما مضحكا أو منعشا ، أو مؤثرا ملتصقا بسويداء القلب . فلماذا نستبدل باسمها الجميل اسما أجنبيا لا يستقر فى غنائنا على معنى واضح ؟ ! ..

مهما يكن جواب السؤال، فان الناس الآن لايقولون : هذا مونولوج ، وهذه طقطوقة ، بل يفضلون دائماً أن يقولوا هذه أغنية . وكل كلام وقع عليه التلحين والغناء فهو عند مستمعيه « أغنية » بغض النظر عن تقسيمات ما قبل خمسين عاما ، وان كانت هـــذه التقسيمات موجودة فى الجهود المبذولة لحفظ التراث واحيائه .

***

وقد عدل رامى نفســه عن تسمية شــعره العامى بالمصطلحات التى نسيها الناس ، ففى ديوانه الذى جمع فيه شعره العامى بجوار شعره العربى ، لايسمى أغانيه مونولوجات ولا طقاطيق ولا أدوارا ، بل يسميها كلهـــا « مقطعات » .. وهذه التسميـــة هى الحل السعيـــد الموفق لمشكلة المصطلحات وبخاصـــة ما كانوا يســـمونه « المونولوج » ..

وقد كان الشعر العامى نظما اخباريا أو تقريريا حتى فى أبدع صوره واقواها واشدها حلاوة وطلاوة كما نرى عند بيرم ونظيم ، فلما دخل اسماعيل صبرى « باشا » من باب الشـــعر العامى ـ وكان شـــاعرا فصيحا قوى الروح ـ انتقل الشعر العامى على يديه خطوة نحو التعبير المجنح المكثف والصور ..

وبعد صبرى نهض الى هذا المجال شوقى ورامى فى وقت واحد تقريبا ، فأصبح الشعر العامى على لســـان شوقى فتنة شعرية تقصر عنها بعض فتن الشعر الفصيح

ومن يطالع الآن « مقطعات » رامى أو أشعاره العامية الغنائية ، يدهشـــه أن رامى لم يسبق بمقطعاته هـــذه شعراء عصره فقط ، بل سبق بها شعراء عصرنا كذلك ، وسجل له تاريخ الشعر العامى هذا السبق تحت اسم « المقطعات » .. بعد ان عدل رامى عن اسم الطقـــاطيق والمونولوجات ! ..

فى الليالى الملاح

فى كل ليلة ترغمنى الميكروفونات التى تحاصر مسكنى من جميع الجهات ، على ان أستمع الى مجموعة صاخبة متضاربة من أغانى الافراح والليالى الملاح. ففى الصيف ينشط الناس للزواج ، وبخاصة فى جزيرة الروضة التى اسكن منزلا فيها . والحقيقة اننى ما رأيت ولا سمعت فى أى مكان من بلادنا المصرية ما يبلغ سمعى من اغانى حفلات جزيرة الروضة التى يقيمها المتزوجون الجدد فيها بمناسبة دخولهم عالم الزواج السعيد !..

وانا لا أحضر هذه الحفلات ، وانما هى التى تحضر الى مسكنى ، محمولة على أجنحة الميكروفونات الجبارة التى تهز الليل وترغم الرجال والنساء والاطفال والعجائز والمرضى والاصحاء على الاستماع الى عدد هائل من الاغانى سبق أن سمعناه من الاذاعات العربية المتناثرة بين المحيط والخليج ، وما زلنا نسمعه منها بلا انقطاع ! ..

خطر لى ان أهجر هذه الجزيرة المسكونة بالميكروفونات أو بالعفاريت التى يسمونها ميكروفونات . وفكرت أن أسكن الصحراء أو مشارف الصحراء ، ولكن قيل لى ان الميكروفونات قد سبقتنى الى هناك من زمان طويل، وان الصحراء التى كانت فيما مضى هادئة صامتة ، قد

تغير حالها وباتت مسكونة بالميكروفونات مثـل جزيرة الروضة ! ..

وهكذا اضطررت الى ترويض نفسي على الاستماع كل ليلة الى ثلاثة أفراح أو أربعة تزعق ميكروفوناتها معا فى وقت واحد ، وأحيانا ينفرد فرح واحد بالزعيق وتصمت الافراح الثلاثة الاخرى المجاورة له ، فتكون هذه فرصتى النادرة لمعرفة ما يذيعه ميكروفون هـذا الفرح المنفرد بعد سكوت الميكروفونات الاخرى التى يندلق منها ذلك التخليط العجيب ! ..

لا اكتمك اننى لم اجد هذا الصخب المؤلم خاليـا من كل فائدة .. حاولت ــ مثلا ــ أن أجد جوابا فى هذا الصخب عن هذا السؤال : هل انتهى عصر التأليف الفلكلورى الذى يقيد فيه تأليف الاغنية وتلحينها لحساب مؤلف مجهول وملحن مجهول ؟ ! .. وهو سؤال يجر وراءه مجموعة من الاسئلة الباحثة عن جواب ..

ان هؤلاء المطربين والمطربات الذين يحيون الافراح فى وقتنا الحاضر هم جيل جديد من « العوالم » يختلف عن الجيل الماضى الذى كان مطربوه ومطرباته يعتمدون على أغانيهم الخاصة ومحفوظاتهم الشعبية القديمة غير المسجلة على اسطوانات ، وكان لهم قاموسهم الفنـائى الخاص ، وتقاليدهم الفنية المتوارثة ..

واختفى مطـربو الافراح الرواة ، أعنى الذين كانوا يحفظون عن ظهر قلب أغانى أجيـال متعاقبة يروونها للمستمعين فى الافراح وغير الافراح . ولم يعد أحـد من ورثتهم فى زماننا يحفظ اغنيات مجهـولة المؤلف والملحن ، فقد أصبحت أغانى عبد الحليم وفايزة وشادية هى المطلوبة فى الافراح ، ولا بد أن يحفظها

مطربو الافراح ومطرباتها لانها مورد رزقهم بعد أن كان مورده هو مأثوراتهم المحفوظة ..

ولم يعد المغنون الافراحيون يرتجلون كلاما ولا الحانا ، ولا لهم كلمات وألحان خاصة بهم ، ولا يكلفون حناجرهم الكادحة ان تحفظ شيئا من أغانى الافراح التقليدية التى كانت تعرفها ستات وبنات البيوت المصرية فى الماضى ، ويعرفها المغنون والمغنيات ويتوارثونها جيلا بعد جيل مع ما يلحق بها من اضافات وتعديلات ..

اختفت تقريبا أغانى ليلة الحنة وأغانى ليلة الفرح واغانى الليالى الملاح التى تسبق هاتين الليلتين . وانتهى الفلكلور الافراحى ، ولم يبق على حناجر مطربى ومطربات افراح ايامنا الا الاغانى التى حفظوها من الاذاعة ، يغنونها تقليدا رديئا مزعجا منهكا للمستمع المغلوب على أمره ، ويبرهنون بهذا التقليد الردىء المزعج على ان الفلكلور الافراحى لم يمت وحده ، بل مات معه أيضا ما كان للمغنين الافراحيين القدماء المحنكين من ذوق ومقدرة فنية مبدعة اصيلة هزت القلوب فى زمانها ! ..

ان انتاج الاغانى بالجملة فى الراديو وشركات الاسطوانات وأفلام السينما والتليفزيون قد أكل الاغانى الشعبية التى كانت تثمرها جهود فردية مجهولة مشمولة بنكران الذات العجيب الذى لا يعرفه الفنانون المحترفون الجدد ولا يخطر على بالهم ولو فى المنام ! ..

بل ان انتاج الاغانى بالجملة قد امتد تأثيره الساحق الى ما تبقى من الاغانى الفلكلورية ، فدخلت الاغانى الفلاحية والعمالية والحضرية والبدوية القديمة فى مصانع الإنتاج الغنائى بالجملة ، ثم خرجت من هذه المصانع

فى صورتها المستحدثة ، فكانت من بعض وجوهها خطوة الى الامام ، ومن بعضها الآخر - وهو الاهم - خطوتين الى الخلف ! ..

وفقد مطربوالافراح تخصصهم واقتدارهم واستقلالهم الفنى ، ومحا الزمن شخصيتهم المتفردة المتميزة ، وتحولوا فى آخر الامر الى « ميكروفونات » صاخبة لا صلة لها بالفن ، تطارد ضحاياها من المدعوين الى الافراح ، ومن غير المدعوين الذين لا ذنب لهم الا وجود مساكنهم قرب مساكن السعداء الذين يدخلون الدنيا على ضجيج الميكروفون ، ويبدأون اللمسات الاولى فى حياتهم الزوجية على زعيق مطربى الافراح والليالى الملاح ! ..

يوسف وهبي
يلحن للملحنين

اذا كان الملحن الكبير محمد عبد الوهاب يستطيع بكل سهولة تكذيب تلميذه رءوف ذهنى الذى يقول ان عبد الوهاب قد أخذ منه اربعين لحنا ، فان الملحن الكبير محمد القصبجى ـ رحمه الله ـ لا يستطيع الآن مناقشة الفنان المشهور يوسف وهبى الذى أعلن انه هو ـ وليس القصبجى ـ قد لحن أغنية اسمهان الشهيرة : « أنا اللى أستاهل كل اللى يجرا لى » ..

يوسف وهبى ـ كما نعرفه جميعا ـ مجدث بارع ، خفيف الظل ، وقد أتاحت له براعته هذه أن يلفت انتباه الناس بالتصريحات الخطيرة التالية :

ـ أنا يوسف وهبى ملحن أغنية « أنا اللى أستاهل » التى غنتها اسمهان فى فيلم « غرام وانتقام » .. وليس القصبجى هو ملحن هذه الاغنية كما شاع بين الناس خلال السبعة والعشرين عاما الماضية ..

ـ أنا يوسف وهبى ملحن أغنية « يانا يا وعدى » التى غنتها نور الهدى فى فيلم « جوهرة » منذ ثمانية وعشرين عاما ، وهذه الاغنية منسوبة الى فريد غصن ولكنى اشتركت معه فى تلحينها ..

ـ أنا يوسف وهبى صاحب الحان عمرها أكثر من خمسين عاما وقد نسبها الناس خطأ الى سيد درويش

بالطبع لا شيء مستبعد فى عالم الفن وغير عالم الفن، ولكن من يقرأ تصريحات يوسف وهبى هذه لابد أن يلاحظ انه لم يعلن ملكيته للحن « أنا اللى استاهل » الا بعد موت القصبجي واسمهان أيضا . وقد كتب يوسف وهبى بنفسه على شاشة فيلم « غرام وانتقام » أن هذا اللحن لمحمد القصبجي . وقبض القصبجي طبعا أجر اللحن ، ثم قبض حق ادائه العلني زمنا طويلا ..

وهذا اللحن لا يخرج عن طريقة القصبجي المعروفة فى تلحين الطقاطيق أو المونولوجات ـ سمها كما تشاء ـ والتى أخذت طابعا معينا منذ تلحينه لام كلثوم « مادام تحب بتنكر ليه ؟ » .. و « ليه تلاوعينى » وغيرهما من الحان أواخر الثلاثينات ..

مذهبه الفنى فى « انا اللى استاهل » واضح ، وقاموسه النغمى والايقاعى هو قاموسه الذى تجمد منذ أواخر الثلاثينات واوائل الاربعينات حتى أصبحت الحانه كثيرة التشابه ، وضمرت لازماته الموسيقية وجمله اللحنية وأوشكت أن تعجز عن الحركة لولا وثبته بعد ذلك فى أغنية « رق الحبيب » التى كانت آخر روائعه ، وفلتة وسط انتاجه السيىء الحظ في أواخر الثلاثينات وأوائل الاربعينات وما بعدها

وطريقة فريد غصن أيضا كانت معروفة فى الثلاثينات والاربعينات . وقد لحن « يانا يا وعدى » فكان من أحسن الحانه وغنته نور الهدى بابداع واقتدار منذ ثمانية وعشرين عاما . وفى هذا اللحن صناعة فى الجمل والايقاعات لم تتح ليوسف وهبى ، ولو أتيحت له لكان فى وسعه أن يصبح ملحنا محترفا ممتازا ..

اما الالحان الخفيفة التى يشير الى انه لحنها ونسبها الناس الى سيد درويش فالقضية فيها مبهمة . ولكن

المؤكد ان سيد درويش قد مات مثل القصبجي وانـه لا يستطيع ان يقول كلمته الآن ! ..

مع ذلك ينبغي الا ننفي هـذه الالحان عن يوسف وهبي ثم نسكت ، فهناك هامش في هذا المقام ينطبق على الاغاني التي قال يوسف وهبي انه لحنها لهـؤلاء الملحنين الـكبار ، كما ينطبـق على الاغاني التي أعلن رءوف ذهني انه لحنها لعبد الوهاب ..

وظني ان يوسف وهبي ربما يكون قد دندن مرة أو مرتين أمام القصبجي أو غصن فأخذ القصبجي أو غصن شيئا من دندنته كمادة «خام» ، ثم وجد يوسف وهبي ان هذه المـادة « الخام » قد دخلت بعد صـقلها في تركيب هـذه الاغنية او تلك ، فخيـل اليه من فرط اعتزازه بما حدث انه شريك في اللحن أو انه صاحبه

قد يكون هذا أيضا ما حدث لرءوف ذهني في ألحانه التي يقول ان عبد الوهاب اشتراها منه.. مجرد دندنة يأخذها عبـد الوهاب من بائع الطريق أو من المغنـين الشعبيين ثم يصقلها ويدخلها في مادة ألحانه فتصـبح ملـكا له دون نزاع ..

هذا ما نرجحه في هذه المسألة . ولكن يوسف وهبي لا يسكت علينا ، فان له قلما لاذعا يلجأ اليه في الملمات ، وبه كتب الينا رسالة قال فيها :

« انا في الحقيقة لا أدعي ، ولن أدعي ، انني من طبقة كبار الملحنين ، فما كنت في المـاضي سوى مجرد هاو لحن بعض مونولوجات ما زال المخضرمون يذكرونها . وقد انتشرت هذه الالحان وسـمعها كبار الموسـيقيين كالمرحوم مصطفى رضا عازف القانون المشهور والمرحوم سامي الشوا عازف الـكمان الاشهر . وسمعها كذلك الصحفي الـكبير فكري أباظة ، ولو سـألتموه لشهـد

بذلك كما يشهد به من عاصرونى من أعضاء النادى الاهلى .

« وما قصدت فى حديثى أن أدعى موهبة هى فى الواقع لم تكتمل ولم ترتفع الى مستوى مشاهير الملحنين ، غير ان الكثيرين يعرفون اننى صاحب لحن « الكوكايين » المنسوب لسيد درويش ، وبعض ألحان أخرى وضعتها لمسرحيات الكاتب المسرحى المرحوم أمين صدقى . وقد سجلت لى شركة أوديون اسطوانات من تلحينى ..

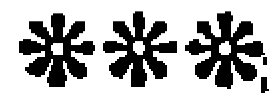
« أما أغنية « يانا يا وعدى » التى غنتها نور الهدى فى فيلم « جوهرة » سنة ١٩٤٣ ، فقد قرر الملحن القدير فريد غصن المقيم ببيروت منذ مدة طويلة اننى شريكه فى تلحين هذه الاغنية ، وسجل اعترافه بذلك فى جمعية المؤلفين والملحنين بباريس ، وما زلنا معا نتقاسم حقوق تلحين هذه الاغنية من الجمعية .. وقد أكبرت هذه الامانة من فريد غصن الذى لم ينكر مشاركتى اياه فى التلحين ، وتقبل راضيا أن أشاركه حقوق الاداء العلنى ..

« أما أغنية « انا اللى أستاهل كل اللى يجرا لى » فأنت محق فى صعوبة تصديق اننى ملحنها ، ولكنى لم أذكر فى حديثى اننى ملحنها لمجرد الادعاء والتفاخر. فقد حدث فعلا ان اللحن الذى وضعه الملحن الكبير محمد القصبجى لهذه الاغنية لم يعجبنى ، فتطاولت على هذا اللحن وتناولته بالتغيير والتحوير ، دون أن أفكر فى ان عملى هذا سيجعل لى فيه حق الاداء العلنى

« أما الالحان الاخرى فربما تقتنع اننى لا أدعيها اذا ما اتصلت بالزميلة الكبيرة السيدة دولت أبيض ، فهى تعلم مشاركتى فى ألحان مسرحية ــ حنجل بوبو ــ

ولك ان تتحرى الحقيقة من الموسيقار محمد عبد الوهاب الذى سمع الحانى للكورال فى مسرحية « قمبيز » لامير الشعراء أحمد شوقى ..

« والحقيقة اننى لم استغرب دهشتك لما جاء فى حديثى من اننى ملحن هذه الاغانى المشهورة وغيرها .. ولكننى اقول اننى لست ملحنا بالمعنى الصحيح ، ولا اجرؤ على التطاول على الحان من هم فى مستوى لا استطيع أن أصل اليه . وقد تسمع فى الغد عن ألحان ما زالت فى جعبتى ، وهى الحان هاو بسيط .. وما اكثر أمثالى من الهواة الذين قاموا باعمال نسبت الى غيرهم .. وعند لقائنا ان شاء الله ، قد يسرك ان أبوح لك باسرار لذيذة فى هذا المجال » ..



هذه هى رسالة الفنان يوسف وهبى . وكل شىء يمكن أن يحدث فى عالم الفن ، وبخاصة فى الموسيقى ، فهناك خفايا وأسرار لذيذة على حد تعبير يوسف وهبى . ولكن لى ملاحظتين على الحجج التى ساقها فناننا فى رسالته . احداهما ، ان أسلوب القصبجى واضح فى اغنية « انا اللى أستاهل » وقاموسه النغمى يعلن عن نفسه فيها ، والملاحظة الاخرى ، هى ان يوسف وهبى لم يتحدث عن مشاركته فى صياغة هذه الاغنية الا متأخرا جدا ..

ومن الثابت تاريخيا ان يوسف وهبى كان — كما وصف نفسه فى العشرينات او كما وصفه نقاد تلك الايام — مبعوث العناية لانقاذ فن التمثيل فى مصر .

فهل كان ايضا — دون أن يعلم الناس — مبعوث العناية لانقاذ فن التلحين ؟ ! ..

العقاد والموسيقى

ستبادر فتقول ان العقاد هنا هو المرحوم محمد العقاد عازف القانون الكبير ، أو المرحوم مصطفى العقاد ضابط الايقاع الشهير أو أى عقاد آخر من عقادى الموسيقى العربية الكثيرين فى الماضى والحاضر ، وكلهم جدير بالاعجاب والثناء . ولكنا نقصد العقاد الكاتب الكبير وقد أطل علينا بوجهه الغضوب فى ذكراه بعد غياب بضع سنوات ! ..

كان العقاد يحب الموسيقى وان ظن بعض الناس انه كأبى الطيب المتنبى – فى قوله المشهور – صخرة لا يحركها الاغاريد . وكان حب العقاد للموسيقى يكمل حبه للفنون فى أشكالها المتنوعة من الدراما الى الرسم والعمارة والنحت والتصوير ..

وفى مطلع حياته الادبية ، وفى ابان شهرته قبل ان يتفرغ للتأليف الدينى ، كان غزير الكتابة عن هذه الفنون . وقد حفظت لنا كتبه كثيرا من مقالاته عن الرسم والنحت والموسيقى وجوقات التمثيل . وتجمع هذه المقالات بين خواطره الفنية وبين شذرات من مطالعاته حول الفنون فى الكتب الاوربية . لم يثنه عن المضى فى هذا اللون من الكتابة استخفاف غالبية أدباء عصره بالفنون وبمن يتصدى للكتابة الجادة عنها

يقول العقاد فى بعض يومياته : « كنا نكتب المقالات الافتتاحية عن الفنون الجميلة فيعجب الكثيرون من القراء بل يدهشون لهذه المكانة التى نزج فيها الفن وخدامه بين كبار الاقطاب فى ابان النهضة القومية ، لانهم كانوا يحسبون الفنون الجميلة جميعا من قبيل اللعب الذى يقبل فى ساعات اللهو ولا يجوز أن يقتحم مكان الصدارة فى نهضات الامم » ..

فى ذلك العصر كان الكاتب الحريص على مكانته لا يبتذل قلمه بالكتابة عن الفن . وهل فرغت دنيا العشرينات والثلاثينات من الموضوعات الصالحة لتدبيج المقالات حتى يكتب الادباء عن الفن وأهل الفن من رسامين ونحاتين وممثلين ومغنين وملحنين وطبالين وزمارين ؟!

وكيف يرضى ذلك الهوان اديب جليل القدر قرأ ودرس أمهات كتب العلم والادب ككتاب أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ والنوادر للقالى ، وخزانة الادب ونفح الطيب وكليلة ودمنة والمقامات ومقدمة ابن خلدون ودواوين فحول الجاهلية والاسلام ؟ ! ..

ولكن العقاد ـ معاندا أدباء عصره ـ رضى لنفسه ذلك الهوان ، فمضى يكتب عن الفنون جملة وتفصيلا . وامعن فى عناده فطلع عليهم سنة ١٩٢٥ بمقالة طويلة عن ملحن ومغن كان قد مات منذ سنتين ، اسمه سيد درويش ! ..

جاءت مقالة العقاد عن سيد درويش فى حينها أول كلمة يكتبها أديب ذو مكانة عن هذا الملحن والمغنى الذى لم يحفل بموته أحد من كتاب المقالات والافتتاحيات .. وقد عجزت الامة عن قضاء حق هذا الفنان الفقيد .. « فمات بينها وهى لا تعلم انها أصيبت من فقده

بمصيبة قومية . ولم تبال حكومتها أن تشترك فى تشييع جنازته واحياء ذكراه .. بلى وا أسفاه ! .. ان دفائن الاستبداد ما برحت عالقة فينا بدخيلة السرائر ننفضها فلا تنتفض الا ذرة بعد ذرة » .. «فالاستبداد الطويل هو الذى علمنا ان مقياس العظمة هو القدرة على اذلال الناس وتنغيصهم ، وان مقياس الهوان هو العمل على ارضائهم واسعادهم » .. هكذا قال العقاد فى مقالته سنة ١٩٢٥ ، وفى تعليق له عليها سنة ١٩٥٦

وبين مقالته وتعليقه عليها انقضت ثلاثون عاما لم ينقطع خلالها عن الكتابة حول الفن والفنانين ، وتكاثرت مقالاته وشذراته عن الغناء والمغنين حتى بلغت مائة صفحة تقريبا فى الجزء الثالث من يومياته التى نشرت بعد وفاته ..

فى هذا الجزء من يوميات العقاد خلاصة مركزة وافية خفيفة الظل لآرائه فى الغناء والموسيقى تغنى عن سائر ما كتبه ونشره قبلها ، لانها آخر ما كتب ، ونهاية ما استقر عليه رأيه قبل ختام صفحاته الاخيرة ..

ولا يدهشنا انه كتب هذه اليوميات الغنائية الموسيقية وهو مشغول الوقت والفكر بالبحوث الدينية فى الطور الاخير من حياته الفكرية والادبية ، فان العقاد برغم كل شىء ثبت على ولائه لاصول اتجاهاته الفكرية التى أعلنها فى شبابه . وتشبث الفن بفكره وقلمه حتى النهاية فلم ينفضه عن فكره ولا قلمه ، وعبر عن حبه الدائم له بهذه الشذور اليومية والسطور السريعة التى تصلح كتابا قائما بذاته يدل على العقاد كما تدل عليه كبريات مؤلفاته

فى هذه اليوميات اجاب العقاد عن سؤال هام : لماذا يوالى الكتابة عن الغناء والموسيقى وما هو بملحن ولا

مطرب ولا مشتغل بعلوم الموسيقى والغناء ؟ !

واجابته عن هذا السؤال ، خاطفة غير وافية ولكنها تصلح بيانا لاساس مذهبه كله في الفن كله بفلسفته وجمالياته وما يتفرع عن فلسفة الفن أو علم الجمال من فروع يشترك في النظر اليها الخاص والعام ، ويلتقى عندها خالق الفن وهاوى الفن والمتفرج على الفن ..

فالعقاد الذى نشأ فى عصر أدباء أمهات الكتب التراثية كان أبصر من كثير منهم بهذه الكتب العظيمة التى يشرف أرقى الامم أن تكون من تراثها ، وأدرك أهمية الفن الذى يشغل مكانا بارزا من هذه الكتب ، بل ان بعضها يقوم على الفن وحده ، وبخاصة الغناء والموسيقى ..

ووجد العقاد فى كتب التراث أو أمهات الكتب عكس ما وجده غالبية أدباء ذلك العصر . وجد فيها ترخيصا من السلف الاقدمين بالكتابة عن الفن ، وعشق الفن . أما الموسيقى والغناء فلا يحتاجان الى ترخيص بالكتابة ولا الى ترخيص بالعشق ، فان الكتابة عنهما ملأت الكتب جيلا بعد جيل ..

لم يغفل عن هذه الحقيقة بعض الادباء والشعراء من مشايخ الازهر ودار العلوم فى عصر شباب العقاد ، فكان الشاعر البدوى الشديد الحفاظ على اللغة والدين الشيخ محمد عبد المطلب عضوا بمجلس ادارة نادى الموسيقى الشرقية منذ انشائه سنة ١٩١٤ ولم يكن يرى بأسا فى التردد على النادى فى شارع محمد على وقد ماج بأهل الفن ومعلميه ومعلماته واسطواته . وليس الشيخ عبد المطلب الا مثلا من امثال كثيرة ، وان كانت كثرتها لا تؤلف جمعا كبيرا من اهل الادب والفكر فى ذلك الزمان ..

واستكمل العقاد فى كتب الاوربيين ـ وبخاصة كتب الانجليز ـ جوانب نظرته للفن . قرأ عن الموسيقى الاوربية بعد أن عرف الموسيقى العربية وأدخلها فى وجدانه . سمع بيتهوفن وموزار بعد أن سمع مطربى القاهرة وشهد جوق الشيخ سلامة حجازى وأنصت الى البشارف والسماعيات ، فلم يفتنه السماع الاوربى بالآلات منظوما فى ضروبه الباذخة ، ولم يصرفه عما استقر فى وجدانه من السماع القومى الجميل ..

هنا يختلف العقاد عن الادباء المجددين الذين أعانتهم ظروفهم على السفر الى أوربا والاقامة فيها بين المدارس والمتاحف وقاعات الموسيقى ، فقد عاد بعضهم بآذان أوربية تقف الالحان العربية عليها كما تقف الطيور المفردة على فروع شجرة جرداء ، وانهمك بعضهم فى موازنات « سياحية » بين الموسيقى الاوربية والموسيقى العربية أو « الاورينتال » على حد تعبيرهم المأثور ..

كان العقاد يكتب عن الغناء والموسيقى على غير تخصص ولا علم واسع بالتكنيك فيهما ، مهتديا فى كتابته بما صح لديه من قواعد الفن الجميل أو قواعد علم الجمال ، وكان يرى ان عمل الادباء فى تأسيس قواعد علم الجمال اكبر وأسبق من كل ما اشترك فيه المصورون والنحاتون والموسيقيون والممثلون والمخرجون مجتمعين » ..

وفى مناقشة له مع الدكتور صبرى السربونى كتب العقاد : « ينبغى أن يعلم الدكتور السربونى ان الاديب الانجليزى الكبير رسكن كان حجة فى نقد التماثيل والصور ولم يكن من أصحاب الصناعة ، وان برنارد شو قد ترك بعده مجلدات فى النقد الموسيقى على أسس علم الجمال بغير اكتراث للأسس الموسيقية التى طال عليها الخلاف بعد عهد فاجنر وحملات نيتشه عليه . ولم

يكن لنيشته استقلال بالفن الموسيقى عن سائر فنون الادب والثقافة كما يعلم الدكتور » ..

ظن العقاد انه قد استوفى شروط الناقد الفنى بهذه الكلمات ، وأن من حقه كتابة ما يشاء فى الفنون المختلفة وعلى رأسها الغناء والموسيقى ، لكن من يطالع كتابة العقاد عن الغناء والموسيقى بوجه خاص يدرك أنـــه كان يتجنب فى الكتابة عنهما ما لا علم له به من الصناعة التى لا يعلمها الا أهلها ، فجاءت كتابته فى هذا المجال مقطعة الى سطور وشذور ، لا تتضمن عند من يطالعها بفهم وعلم الا ما يتضمنه كلام المعجبين والمتفرجين ذوى الذكاء والافق الواسع والثقافة الغزيرة .

وفى كل ما كتب كان يحتمى برايه هذا الذى أعلنه ودافع عنه ، وهو ان عمل الاديب فى تأسيس قواعد علم الجمال للفن أسبق واكبر من عمل الفنان . وهو قول يوافقه عليه القليلون من الادباء انفسهم ، ولـكنه كان لا يتزحزح عنه ، فلبث ــ لهذا السبب ــ اديبا فى كل ما كتب عن الفن ، ولم تتعد كتابته عن الغنـاء والموسـيقى هـذه الحدود ، وحسبه من المؤيدين فى هذا المجال برنارد شو ورسكن ونيتشـه وكل من بسط من أهل الادب وصاية ادبه على أهل الفن ! ..

ولـكن يبـدو من بعض كتاباته انه كان يتطلـع الى مزيد من العلم بالالحان وأسرارها . واشتد تطلعه الى ذلك فى الوقت الذى تفرغ فيه للتأليف عن الدين ، ولا غرابة فى الامر ، فقد كان بعض السلف « يجمع بين العلم بالشريعة وبين العلم بالانغام على الغاية مما وصل اليه هذا العلم عند الاقدمين » .. كما يقول العقاد فى بعض كتاباته التى سبقت وفاته بأقل من سنتين ..

ولـكن العقـاد لم يتح له طوال حيـاته أن يتجاوز

مذهبه فى تذوق الغناء ونقده . فكان دائما أديبا عظيم المقدرة على الفهم والتذوق ، يحاول أن يكون اسبق الى المشاركة فى اثراء علم الجمال فى الفن من الفنانين انفسهم ..

وفى هذا المجال يتجاوز الشذور والسطور ، ولكن كلماته كانت حاسمة التأثير فى تغيير الجو الادبى كله ، فأصبحت الموسيقى جزءا من ثقافة الاديب .. وانها ليد بيضاء قدمها العقاد للأدب والموسيقى وللأدباء والموسيقيين فى البلاد العربية كلها ! ..

الوجه الآخر لأسمهان

فى كتابه « من أسرار الساسة والسياسة » يستفيض الصحفى المعروف الاستاذ محمد التابعى فى حديثه عن المطربة الكبيرة المرحومة اسمهان ، كنجمة فى سماء السياسة لا فى سماء الطرب فقط ..

والتابعى كثير الكتابة عن اسمهان ، لانه أحب صوتها وعرفها عن قرب ، وشهد طريقتها فى الحياة ، وله عنها كتاب مشهور ، طبع عدة مرات ومازال مطلوبا مقروءا ، لشغف القراء بمعرفة ما كان وراء هذا الصوت الذى لمع ثم انطفأ كالشهاب الخاطف ..

ومن الناحية الفنية ، كانت اسمهان — بلا جدال — اجمل واكمل الاصوات فى عصرها بعد أم كلثوم ، وكان المعجبون بصوتها ملايين .. والحقيقة ان صوتها كان نسيج وحده حلاوة ورنينا وتعبيرا وتأثيرا ..

وفى كتابه يفرد التابعى فصلا خاصا لاسمهان السياسية التى لا يعرفها الناس الا مطربة ، ويتابع حركتها فى سراديب السياسة المصرية منذ ثلاثين عاما بصحبة داهية من دهاة ذلك العهد هو المرحوم احمد حسنين باشا الذى لم يعد معروفا للجيل المصرى الجديد ، ولكنه كان من ألمع الوجوه فى الثلاثينات والاربعينات

ويبدو ان التابعى قد تحرى فى كتابه — بقدر

الامكان ــ الا يقف مع اسمهان ، أو مع حسنين ، مع انه كان صديقا لكل منهما ، لانه كان معنيا بمعرفة الحقيقة التى كان يعرف بالفعل جانبا منها ، وكان يهمه أن يعرف الجانب الآخر ..

وفى عام ١٩٤٠ ، بعد ثمانية اشهر أو تسعة من لقاء التابعى واسمهان ، تم التعارف بين اسمهان واحمد حسنين ..

كانت اسمهان عندما عرفت حسنين باشا سيدة ناضجة فى الثامنة والعشرين من عمرها ، لمعت فى الغناء وبهرت الاسماع بحلاوة صوتها واناقته ونفاسة معدنه وتكوينه ، فضلا عن براعتها فى الاداء وعمق احساسها بما تغنيه .. وزيادة على ذلك كانت اسمهان قد غدت ايضا نجمة سينمائية ساطعة ..

والكتاب الذى اصدره التابعى وجعل عنوانه أو اسمه « اسمهان » يكفى لرسم صورة كاملة التفاصيل لاسمهان المطربة واسمهان المراة واسمهان التى لا هى مطربة ولا امراة ، بل مجرد مخلوق تائه مغلوب على ارادته ذاهل عن الوجود ! ..

ولكن هذا الكتاب الخاص عن اسمهان لا يغنى عن الفصل الذى خصصه التابعى فى كتاب « الساسة والسياسة » للعلاقة بين اسمهان وحسنين . ففى سياق كتاب الساسة والسياسة تاتى اسمهان لتضيف السطر الناقص الى تاريخ السياسة المصرية منذ ثلاثين عاما ..

وطبعا لم يكن هو السطر الناقص الوحيد فى تلك الايام ، ولم تكن اسمهان هى الفنانة الوحيدة ولا المراة الوحيدة التى امسكت قلما وكتبت به فى سجل السياسة المصرية سطرا ..

ومن وجهة نظر تاريخية موضوعية جدا ، لا اهمية

لدور اسمهان السياسى . فكثيرات هن النساء الجميلات والدميمات اللاتى لعبن أدوارا سياسية على مدار التاريخ فلم تتغير القوانين المتحكمة فى سير التاريخ الحافل بالمدهشات ! ..

ولكن المهتمين بصوت اسمهان وغنائها وفنها يشوقهم أن يطالعوا هذه الصفحة من حياتها ليروا آثارها فى فنها بل فى صميم نبرات حنجرتها الذهبية ! ..

امتدت الصلة بين اسمهان والداهية أحمد حسنين باشا طوال السنوات الاربع الاخيرة من عمرها ، وكان صوتها قد نضج وتخلص من نبرات الطفولة الفجة التى لم يشرق جوهره الفريد الا بعد خلاصه منها ..

وكان حسنين باشا يزعم دائما انه معجب بصوت اسمهان ، واذا تذمر زوجها الذى اكلته الغيرة عليها من الباشا ذى النفوذ الساحق ، رسم الباشا الراسبوتينى هالة القداسة فوق راسه ومضى يحدث الزوج الغيور عن صوت زوجته وطبقاته والالحان المناسبة له ! ..

وفى هذه السنوات التى عرف فيها حسنين اسمهان اخذ صوتها ينحدر من قمة النضارة .. فصوتها فى سنة ١٩٤٠ - فى بداية تعارفهما - كان قمة القمة ... وصوتها فى سنة ١٩٤٤ - عند وفاتها - كان قمة المنحدر وبداية السفح ! ..

فمن كان الجانى على صوتها ؟ ! ..

اذا قلنا احمد حسنين باشا كان الجانى ، قيل : فهل كان حسنين باشا وحده فى الجناية ؟ ..

أظن الجناة كانوا كثيرين ، وعلى رأسهم اسمهان نفسها ، فانها لم تكرم حنجرتها بل أرهقتها بالادمان على

الكاس والسيجارة ، والسهر المذبل للعيون والقلوب والحناجر ..

والكثيرون من محبى صوت اسمهان ما زالوا يقولون : لو عاشت لملأ صوتها الدنيا وشغل الناس !..

ومع انى أقول مثلهم ـ بأسف بالغ ـ ليتها عاشت ، الا اننى أقول : لو عاشت اسمهان سنوات أخرى لفقدت صوتها وعاشت على ذكراه ..

فقد كان مذهبها فى الحياة يؤدى الى هذه النتيجة الفاجعة .. واقرأ ما كتبه التابعي عن مذهبها هذا فى كتابه الجديد ، وتوجع معى على صوتها الذى لا يجود بمثله الزمان .

لقد كان صوتها العظيم هو الوجه المضىء الذى عرفته جمهورها الضخم ، ولكن وجهها الآخر لم تعرفه الا سراديب السياسة . ولم تكن أسمهان ـ كما قلنا ـ بالسيدة الوحيدة التى أمسكت قلما وكتبت سطرا أو سطورا فى سجل السياسة المصرية القديمة ! ..

الشوا وأكمنجة العربية

كأنه فى الثلاثين من عمره .. رشيق أنيق نشيط احمر الوجه مستقيم العود ، ليس فى فمه « طقم » مستعار .. يعزف الكمان بلهجة موسيقية عربية لم نسمعها منذمات سامى الشوا أمير الكمان ..

قلت له :

ـ أظنك الآن فى الاربعين من عمرك المديد السعيد يا أستاذ فاضل ؟ !

أجاب فاضل الشوا فى فخر كطفل يحاول تكبير سنه:

ـ اكبر من اربعين سنة بكثير ..

ـ فى الخامسة والاربعين ؟ ! ..

ـ أكبر .. أكبر ! ..

ـ فى الخمسين اذن ؟! ..

ـ بل فى الخامسة والستين ! ..

تصورت نفسى بعد عشرين عاما ـ لو عشت ـ كيف أكون وأنا الآن أبدو أكبر سنا من « فاضل الشوا » ذى الخمسة والستين ربيعا ! ..

قلت له محاولا الا أحسده :

ـ أظنك لن تتقاعد قبل عشرين عاما أخرى ؟ !..

قال فى شىء من الاسى :

ـ بل أنا متقاعد الآن فعلا بحكم الظروف ! ..

ــ الا تعزف الكمان ؟ .. أليست لك فرقة موسيقية ؟ ! ..

ــ ليس لى أى شيء تقريبا ! ..

ــ وفرقة الموسيقى العربية التى تحيى التراث ، كيف لم تتنبه الى وجودك وأنت قطعة حية من التراث؟!

ــ الحقيقة انها تنبهت الى وجودى ولم تغفل عنى، ولكن الظروف لم تتهيأ بعد ..

فاضل الشوا هو آخر عنقود عازفى الكمان من آل الشوا فى مصر ..

وآل الشوا عرب من حلب .. وعندما زرت حلب سألونى عن فاضل الشوا وقالوا لى : لماذا لا نسمع عزفه فى الاذاعة المصرية ، ولا نسمع عزفه مع فرقة الموسيقى العربية التى نتتبع أعمالها وأخبارها نحن الحلبيين لان مدينتنا هى مهد من مهود الموسيقى العربية الاصيلة ؟ ! ..

ولم أعرف ماذا أقول لاهل حلب الظرفاء المتلئين فنا وحبا للفن . ولكن قلت لنفسى : حقا .. ماذا يفعل فاضل الشوا الآن ؟ .. أتراه ينام ليلا ونهارا فى بيته بحى الظاهر مستعرضا شريط الماضى الطويل منذ كان والده الفنان انطون الياس اعظم عازف للكمنجة العربية فى الشرق كله ، بل فى الامبراطورية العثمانية كلها منذ مائة عام ؟! ..

ان تاريخ الآلة الموسيقية الساحرة التى نسميها « الكمنجة » يبدأ فى مصر بأنطون الياس الشوا والد سامى الشوا وفاضل الشوا ..

وقبل أن يغادر انطون الشوا حلب قادما الى مصر لم يكن الموسيقيون والمطربون المصريون يعرفون « الكمنجة » العربية .. كانوا يسمونها « الكمنجة

الرومية » لان جميع عازفيها فى مصر كانوا من الطليان واليونان والاجانب الآخرين ، وهؤلاء كانوا يعزفون الالحان الاوربية فقط ، لان « الكمنجة الرومية » لم تكن مهيأة بعد لعزف ارباع الاصوات و « العرب » ـ بضم العين وفتح الراء ـ وهى الزخارف والحليات النغمية فى الموسيقى العربية ، فضلا عن اقتصارها بطبيعة الحال على العزف فى مجال المقامين الكبير والصغير المعروفين فى الموسيقى الاوربية ، وهناك فى الموسيقى العربية عشرات المقامات بل مئات .. اذا شئت ..

فى حلب ولدت الكمنجة العربية على أيدى آل الشوا ، بعد ولادة الكمنجة التركية . واستطاع انطون الشوا بعبقريته الخلاقة أن يجعل للكمنجة العربية مذاقها العربى الصميم ، ويضع خطا فاصلا بين لهجتها الموسيقية العربية وبين لهجة الكمنجة التركية ..

فبالرغم من ان المقامات والنغمات الموسيقية التركية والعربية ذات أسماء واوزان وضروب واحدة تقريبا ، فان التفاصيل الفنية الدقيقة تجعل للموسيقى العربية كيانا مستقلا عن الموسيقى التركية ، الى حد التباين وافتراق السبل ، واختلاف الاداء اختلافا لا تخطئه الاسماع العربية ولا الاسماع التركية ! ..

وحين دخلت الكمنجة العربية أو « المعربة » مصر مع انطون الشوا سنة ١٨٦٧ كانت مصر خالية تماما من عازف يحاول ولو مجرد محاولة أن يعزف ألحانا عربية على الكمنجة .. كان فى مصر عازف ربابة واسع الشهرة بارع الصنعة أسمه الشيخ حسن الجاهل اشترك مع انطون الشوا ومطربى ذلك العصر فى احياء الافراح الكبيرة التى اقامها اسماعيل باشا لزواج انجاله

واستمرت اربعين ليلة ، كما يقول مؤرخو تلك الفترة من تاريخ مصر ..

ولشد ما دهش المدعوون فى الافراح الخديوية حين رأوا الشيخ حسن الجاهل يعزف على ربابته الشهيرة ثم يفسح مكانا لشاب يعزف على الكمنجة الرومية . وضجوا استحسانا وفرحا لما سمعوا الكمنجة الرومية الاعجمية تنطق الموسيقى العربية بلسان فصيح ، كأنهم سمعوا عندئذ رجلا روميا يقرأ قصيدة « البردة » أو ينشد « دلائل الخيرات » .. او يخطب فى الناس بكلام عربى مبين ! ..

قلت لفاضل الشوا :

– فى دمشق سمعت المطرب السورى صباح فخرى يغنى تواشيح لا نعرفها فى مصر وسألته : من أين جاء بها ؟ .. فقال : انها مما توارثه آل الشوا ثم خلعوه لاهل حلب ..

اختلجت عينا فاضل الشوا للذكرى :

– نعم .. منذ مائتى سنة تقريبا بدأ جدنا الاكبر يوسف الشوا يجمع الموشحات الاندلسية ويلقنها لاولاده ومريديه . وكانت له فرقة موسيقية صغيرة « قانون . ناى . كمنجة . دف » يعمل بها ومعه أولاده واشقاؤه ..

وفاضل الشوا هو ابن حفيد يوسف الشوا .. واسمه كاملا : «فاضل انطون الياس يوسف الشوا» ..

المهم الآن أن نلتفت الى التراث الفنى المرتبط بهذا الاسم ، بل بهذه الأسماء الكثيرة التى يعتبر فاضل الشوا آخر عنقودها لان آل الشوا أعطوا كل ما عند أجيالهم المتلاحقة للموسيقى العربية ، وما بقى من تراثهم فهو الآن فى يد فاضل الشوا ..

وغير معقول ان تقوم فى مصر هـذه الحركة الطيبة لاحياء تراث الموسيقى العربية ، ثم لا يذكر القائمون بها آخر عنقود آل الشوا صناع الكمنجة العربية وأصحابها الاوائل ! ..

فى مصر الآن عازفو كمنجة عربية من مستوى جيـد حقا ، وبعضهم بلغ القمة مثـل العازف البارع أحمـد الحفناوى ..

ولـكن فاضل الشوا ــ بين هؤلاء العازفين ــ لون قائم بذاته ، وخمر موسيقية معتقـة تنفـرد بمذاقها الخاص .. حسبه انه تتلمذ على أخيه نابغة الـكمان المشهود له من الجميع : سامى الشوا ، وعرف أسرار صناعته الموسيقية الـكلاسيكية الدقيقة التى لا يمكن تعليمها فى معاهد الموسيقى .. فكيف يصح فى الاذهان أن يكون هذا الرجل موجودا بيننا ثم لا نمسك بتلابيبه ونمتصر كل ما عنده ؟ ! ..

هل لى ان أقول :

ــ بادروا الى هذا الرجل فخذوا عنه كل فنـه وعلمه حتى لا تبقوا عنده شيئا يحتفظ به ، واعطوا كل ما تأخذونه للعازفين الناشئين ليتمرسـوا بروح الموسيقى العربية فى عزف الـكمان ! ..

الملحن الذى أضعناه

يرتبط زكريا أحمد فى ذاكرتى بأول منظر شاهدته فيه ، ولم يكن منظرا سينمائيا ، بل كان من مناظر الحياة اليومية العادية .. رأيته مع صديقه الزجال الشاعر الفنان الغريب فى عصره عبد السلام شهاب ، وهو صحفى داخل الصحافة ، اى انه يعمل فى الصحف ولكن اسمه لا يظهر على صفحاتها ..

رأيتهما منذ عشرين عاما وجلست اليهما لحظة أسمع وأرى ، فعرفت ان هذا الكهل الوسيم الظريف الذى يجالس عبد السلام شهاب هو الملحن الكبير ذو الصيت الطائر والفن الباهر .. ملحن الروائع الكلثومية فى الثلاثينات والاربعينات ..

وكان الانطباع السريع الذى قمت به عن مجلسه انه غريب فى عصره كصديقه عبد السلام شهاب (١) وان كانت شهرته كملحن قدجعلت اسمه مكتوبا فىالصحف ، بالرغم منه ، وبدون سعى أو جهد بذله أو فكر فى بذله لجعل اسمه مادة صحفية كأسماء غيره من الملحنين والفنانين وأشباه الفنانين والملحنين ..

ثم رأيت زكريا بعد ذلك فى أوقات متفرقة قصيرة ، امتد أكثرها طولا نصف ساعة وربما أقل .. فى الخمسينات والستينات ، وكنت قد سمعت الحانه كلها تقريبا فازددت معرفة بجوهر هذا الفنان الذى ربما ظن من رآه ولم يكن يعرفه انه مجرد راوية للنكت،

(١) شاعر وزجال من الفحول فى عصرنا .

خفيف الظل ، باسم العينين ، لا يحمل هموم الدنيا..

وكانت رؤيتى للشيخ زكريا تقع مرة كل سنتين أو ثلاث ، فلا أراه فى كل مرة الا على حاله التى تركته عليها فى المرة السالفة : ضاحكا ممازحا حاضر النكتة ، مسدد البديهة ، حفظا وارتجالا ..

ولكن تصاريف الزمن لم تكن تخفى ولو على النظرة العابرة الى ملامحه ، فالتجاعيد تتكاثر حول الجفنين والشفتين وتنتشر فى صفحة الوجه طاغية على آثار الصباحة والملاحة القديمة ..

ومن وراء التجاعيد كانت تطل حكاياتها ، فالشيخوخة وحدها لم تكن السبب . هناك أعباء الاعصاب المكدودة وهناك أحزان النفس وهموم القلب وقروح الكبد ..

كنا نسمع عما يلاقيه الملحن الكبير فى حياته . وكان وجهه الضاحك المتودد الى من يلقاه لا يسعه أن يكتم الضحك كما لا يسعه أن يكتم الاسى . ولكن من يلقاهم كانوا لا يتصورونه الا مبتسما أو ضاحكا ، وربما راقصا .. كيف لا يكون كذلك ملحن تقطر ألحانه ابتساما وسرورا وتضج رقصا وابتهاجا ؟ ! ..

ولكن عارفيه كانوا يذكرون دائما ان ملحن البهجة والرقص والحبور كان أيضا ملحن الحزن وصاحب أوجع ألحان من مقام الصبا ، وهو المقام الذى أودع فيه الغناء العربى كثيرا من الاحزان والدموع ! ..

كان زكريا أحمد عميق الشعور بقهر الايام ، فكيف يصح فى الاذهان أن يكون فى عصر من عصور التقدم والازدهار ، أو حتى عصور التقهقر والتدهور ، مثل هذا الملحن العظيم ثم يضيعه أهل عصره ، كأنه الشاعر الذى قال : « أضاعونى وأى فتى أضاعوا » ؟ ! ..

ولكن زكريا لم يواجه قهر الايام بالاستسلام ، بل

تحدى وقاوم ، على حساب صحته .. ولما هاجمته الذبحة الصدرية كان معناها أنه يدفع من أيام عمره ثمن صراعه الطويل مع الايام ..

وقبل وفاة زكريا أحمد - رحمه الله - بأسابيع قلائل رأيته فى « قعدة » ضاحكة على سطح نقابة الصحفيين مع الرسام المشهور رخا وعبد السلام شهاب وجماعة من الصحفيين ..

فى هذه المرة كان صامتا .. تتألق تجاعيده بآثار الصباحة والملاحة الباقية من أيام الصبا والشباب ، وتبتسم عيناه ، ولكنه كان صامتا ..

قلت لبعض الجالسين :

- لماذا لا يتكلم زكريا أحمد وهو أفصح المتكلمين؟ !

قال :

- يبدو انه بعد أن تحدث قليلا آثر أن يستمع ، فالكلام يرهقه ! ..

ماذا يفعل المرء حين تتقلب به الدنيا حتى يرهقه منها ما كان يمتعه ، ولو كان متاعه منها مجرد الكلام ؟! ..

كان زكريا أحمد من جيل الملحنين الكبار ، سيد درويش وداود حسنى وكامل الخلعى .. وقد كانوا فى عصرهم « مجددين » بالقياس الى من سبقهم ، والى كثير من معاصريهم ايضا . وما زال أحد هؤلاء المجددين الذين طال عليهم الامد ، وهو سيد درويش ، رمزا للتجديد فى الغناء العربى حتى اليوم ، وان كانت لزملائه تجارب فى التجديد لم تنل شهرة تجاربه ..

بدأ زكريا أحمد يلحن قبل انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وغنى باكورة ألحانه أكبر المطربين والمطربات برغم صغر سنه .. حتى الست زكية حسن الشهيرة بمنيرة المهدية سلطانة الطرب لم تمنعها الابهة والفخامة

من غناء الحان هـذا الملحن الشيخ الشـاب الذى طلع فجأة من بطانة الشيخين اسماعيل سكر وعلى محمود ..
واعتبر زكريا أحد مجددى التلحين بين العشرينات والثلاثينات .. ولم تسقط عنه صـفة التجديد بعـد ظهور أساليب أخرى فى التجديد على أيدى القصبجى وعبد الوهاب والسنباطى والاطرش وغيرهم ..

ومع ذلك قال زكريا فى اخريات أيامه بمرارة شديدة : « انهم يعتبروننى متخلفا أو رجعيا فى التلحين.. ولست كذلك » .. كانت كلمته هـذه قبيل بزوغ الستينات وقد لمع فى مدرسة عبد الوهاب الملحنون الشبان أمثال كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى .. فما هو الفرق بين زكريا المحافظ أو المتخلف ، وبين هؤلاء المجددين

كان زكريا يستعمـل المقامات والايقاعات بشروطهـا القديمة بينما يستعملونها هم بلا تحرج فى التصرف .. وهذه اختلافات غير جوهرية . اختلافات فى الشـكل فقط ، أو فى جانب من الشكل .. وفيما عداها كان زكريا اكثر تطورا من كثيرين غيره ، وقد تحرر فى الحانه المسرحية من المواصفات الفنية التى استحق بها أن يسمى محافظا أو رجعيا عند من لا يحبون التقيد بهذه المواصفات .. وحتى فى الأغانى الفردية لم يتحرج زكريا من استعمال « الفالس » مثلا فى نغمات عربية .. وله غير ذلك من الخطوات الفنية التى كان يتحرى أن تكون تحسينا حقيقيا فى اللحن ..

وبعد سنوات من وفاة زكريا احمـد نجد الملحنـين يعيدون النظر فى موقفهم من طريقتـه فى التلحين .. فعندما أراد الموجى مثلا أن يهز الاسماع ، سار على طريقة الشيخ زكريا فى اغنية « اسأل روحك » .. ولـكن الاسماع لم تهتز ! ..

وبليغ حمدى الذى يحلم بتهاويل غنائية متضاربة ، عاد الى بعض الينابيع التى كان زكريا يقف عندها ، ولكن بليغ حمدى لم يغترف منها ما كان يغترفه زكريا من الحلاوة والطلاوة والسحر ..

وقد لحن زكريا لام كلثوم قبل خمسة وعشرين عاما اغنية « الاوله فى الغرام والحب شبكونى » .مستخدما موسيقى الارغول أو المزمار البلدى الطويل الذى يغنى عليه المطربون البلديون .. فاين يوضع هذا العمل الفنى « الرجعى » بالقياس الى الاغانى التجديدية التى تنوء الآن بالزمر والطبل والجمل المنتزعة انتزاعا من أغانينا البدائية أو الفلكلورية ! ؟ ..

أنا لا أعارض تركيب هذه الاغانى من جديد فى الالحان « الميكروفونية » المكتوبة بالنوتة والمعزوفة بخمسين او ستين آلة موسيقية ، وان كنت أنعي على أصحاب هذه الاعمال سوء الخلط فيها ورداءة التركيب .. واتساءل : اذا كانت هذه خطوة الى الامام فى الغناء العربى والموسيقى العربية ، فكيف تكون ألحان زكريا أحمد خطوة الى الوراء ؟

أظن ان الخطوة التالية للملحنين الجدد بعد استيلائهم على الالحان البدائية ، هى استيلاؤهم على الالحان المتقنة القائمة على أصول الموسيقى العربية ، وللشيخ زكريا فيض من هذه الالحان يغرى من لا يقاوم الاغراء . ولا عائق يحول دون ذلك الا وجود ورثة زكريا أحمد وورثة سيد درويش وورثة الملحنين الكبار . وحسبك محمد البحر نجل المرحوم سيد درويش ، فانه وحده قادر على الردع والقتال فى ساحات المحاكم وخارج ساحتها ! ..

عندما ينطفئ الملحن اللامع

حيـاة فنية متناقضة عاشـها الملحن الـكبير محمد القصـبجى الذى لحن لام كلثـوم بين العشرينـات والاربعينات مجموعة من أجمل أغانيها .. تعاقبت على موهبته من شبابه الى شيخوخته مرحلتان عجيبتان ، احداهما شديدة الخصب والنضارة ، والاخرى عنيفـة الجدب والجفاف ، فتحول من ملحن موهوب لامع غزير الانتاج الى متقاعد هجرته موهبته وانطفأ اسمه ! ..

كيف واجه الفنان الموهوب انطفاء موهبته ، وكيف عاش بعد انطفائها عشرين عاما يحاول العودة الى التلحين بلا جدوى ؟ ! ..

ان صديقه الحميم ، والوحيـد تقريبا ، الموسيقى والصحفى القديم محمود كامل يروى القصـة كلها فى كتاب عنه نشرته المـكتبة العربية التابعة للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بعنوان « محمـد القصبجى ـ حياته وأعماله » ..

واليك هذا التلخيص والتعليق والعرض الوافى لهذا الكتاب

ولد محمد القصبجى سنة ١٨٩٢ ، نفس السـنة التى ولد فيها سيد درويش ، والده كان منشدا فى بطانات اشهر مطربى زمانه ، ومن أبرع عازفى العود ، وكان ايضا ملحنا قديرا غنى الحانه عبده الحامولى وهو أعظم وأشهر المطربين ، كما غناها يوسف المنيـلاوى

والمطربة ودودة المنيلاوية وزكي مراد ـ والد ليلى مراد ـ ومحمد السنبـاطى ـ والد رياض السنبـاطى ـ وغيرهم من كبار المغنين والمغنيات ..

لم يكن غريبا فى هذا الجو الفنى الساخن أن يتعلق القصبجى الصغير بالفن ويتجه الى الموسيقى والغناء ، مع انه كان تلميذا مجتهدا فى المدرسة ، ولـكن اجتهاده كان استرضاء لوالده ولولاه لتفرغ للفن وهو بعد على عتبة الحياة الفنية ! ..

واسترضاء لوالده استمر فى الاجتهاد حتى حصـل على شـهادة مدرسـة المعلمين الاولية ، وارسلت اليه « وزارة المعارف » خطاب الترشيح للتعيين ، فخاف أن يشغله التدريس عن الفن ، فتعمد الرسوب عندما طلبوا اليه فى القومسيون الطبى أن يميز علامات النظر المفتوحة الى اليمين أو الشمال ، والى فوق أو تحت .. وكان قوى البصر ولـكنه خـرج من الـكشف الطـبى وهو « غير لائق طبيا لضعف بصره » ..

وكان والده يرقب لعبته فأعيد الـكشف عليه ونجح رغم أنفه و « عينه » أيضا ، وعينته الحكومة عريفا بمكتب زينب بنت خليل فى بولاق ..

ولم تمنعه وظيفة عريف المـكتب من الاشتغال بالفن، ففى النهار كان يمارس الوظيفـة معمما ، وفى الليـل يمارس الفن مطربشا وبالبدلة « الافرنكى » كأى افندى عريق فى لبس البدلة والطربوش ..

وبعد عامين انفكت عقدته فاستقال من مكتب زينب بنت خليل وتفرغ للفن ، وسكن فى حارة قلعة الكلاب ، احدى الحارات الفقيرة جدا فى شارع محمد على .. وبلغ ايراده الشهرى عشرين جنيهـا من عمله كعازف للعود ضمن التخت فى الافراح والحفلات الشعبية ..

ثم بدأ القصبجى يتململ من عمله كعواد فى الافراح ، فهو ملحن موهوب لا مجرد عازف عود فلماذا لا يتطلع الى التلحين كما فعل غيره ممن تقل مواهبهم عن موهبته ؟

وفشل فى البداية أن يصل بالحانه الى مطربات صالات الغناء فى ضوضاء شارع عماد الدين أمثال السويسية وسيدة الاسكندرانية وعزيزة الفار . ولكن الحظ ساقه بلا تدبير الى مطربة اشهر منهن ، هى « توحيدة » نجمة صالة « الف ليلة وليلة » فى العتبة الخضراء ، ففنت له دور « الحب له فى الناس احكام » وطارت شهرته الى المغنيات وشركات الاسطوانات ، واتسع رزقه فانتقل من مسكنه بقلعة الكلاب الى مسكن بباب الخلق

وكان القصبجى قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره ـ سنة ١٩٢٠ ـ عندما لحن الاغنية الشهيرة : « بعد العشا يحلا الهزار والفرفشة » .. وتخاطفت أعظم المطربات هذه الاغنية ، حتى غنينها جميعا ، من منيرة المهدية الى اللاوندية ، ومن فاطمة قدرى الى عزيزة فخرى !

وفى هذا العام ذاته ـ وقد بدأت شهرته فيه كملحن موهوب ـ تعرف القصبجى بمحمد عبد الوهاب وكامل الخلعى ، وكان عبد الوهاب شابا صغيرا يلتقط الحان

سيد درويش .. وفى العام ذاته أيضا تعرف القصبجى على المطربتين الكبيرتين منيرة المهدية وفتحية احمد ، وكانت منيرة قد غنت له « بعد العشا » قبل أن تراه !

اما ام كلثوم فالتقى بها لاول مرة سنة ١٩٢٤ بعد أن غادرت قريتها واستقرت نهائيا فى القاهرة .. ذهب القصبجى مع الخواجة البير ليفى مدير شركة اسطوانات أوديون يزورانها فى منزلها بميدان عابدين ويتفقان معها ان تسجل على اسطوانات الشركة طقطوقة « آل ايه

حلف ما يكلمنيش دا بس كلام والفعل ما فيش » من تلحين القصبجي ..

ثم تتابعت الحانه لام كلثوم :

ـ انا عندى أمل تنسى اللى حصل

ـ م السنة للسنة يا حلو لما انظرك

ـ ان حالى فى هواها عجب

ـ صحيح خصامك والا هزار ؟

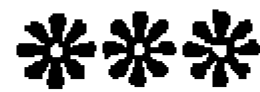
ـ باحبك وانت مش دارى !

وارتفع أجر القصبجى ، فبعد أن كان يتقاضى ثمانية جنيهات عن اللحن الواحد ، أصبح يتقاضى خمسة عشر جنيها ..

وكما هجر القصبجى قلعة الكلاب الى باب الخلق عندما اتسع رزقه فيما مضى ، عاد فهجر باب الخلق الى شارع الخليج المصرى عندما وجد نفسه معدودا بين الملحنين المشار اليهم بالبنان ، واستطاع بتدبيره واقتصاده أن يدخر أكثر من ألف جنيه اشترى بها منزله الذى انتقل اليه فى شارع الخليج ..

وحرص القصبجى على توثيق صلته بأم كلثوم فقد أدرك أن مستقبل الغناء يتعلق بصوتها فى عشرات السنين القادمة . ولكنه لم يقطع تعاونه مع غيرها من المطربات والمطربين .. فقدم لمنيرة المهدية ـ بعد ظهور ام كلثوم ـ عددا كبيرا من الاغانى المسرحية وغير المسرحية ، بل حاول أن يكتشف مطربة جديدة اسمها « رين فيتانيم كروب » .. أعجبه معدن صوتها فظن انه يستطيع تدريبها على الغناء العربى المتقن بعد أن كانت تؤدى غناءها فى الصالات بقدر ما تستطيع .. ولكن القصبجى يئس من هذه « الخوجاية » بعد جولة أو جولتين من التدريب لان روحها فى الغناء كانت

روح « خوجاتية » لا روح مغنية عربية ذات استعداد فطرى للغناء العربى ..



وفى عام ١٩٢٨ حاول القصبجى تطوير القالب الغنائى الذى كان معروفا بين الملحنين باسم « المونولوج » ولم يكن متداولا على نطاق واسع لانه كان قالبا جديدا لم يمض على ظهور ملامحه الاولى اكثر من بضعة عشر عاما

وقد تأمل القصبجى بتمعن ملامح هذا القالب الفنى الجديد غير المتداول فرأى انه يستطيع تطويره وخلقه من جديد ..

وتفرغ لهذه المحاولة فى لحنه الذى يعد حتى الآن اشهر الحانه : « ان كنت اسامح وانسى الاسية » ..

ولما قدم القصبجى هذا اللحن الجديد لام كلثوم لم تتردد فى غنائه ، ونجح نجاحا هائلا واعتبره الموسيقيون والنقاد عملا بارزا فى الغناء العربى ، وتطويرا لا جدال فيه لقالب المونولوج الذى لبث متجمدا منكمشا فى زاوية باردة مظلمة منذ بداية ظهوره حوالى سنة ١٩١٥ الى أن مسه القصبجى بأنامله القديرة .. وبيعت من الاسطوانة المسجلة لهذا اللحن بصوت أم كلثوم مليون نسخة ، وهو رقم قياسى ـ بل اسطورى ـ بالنسبة لسنة ١٩٢٨ ، وبالنسبة لسنة ١٩٧٢ وما بعدها ايضا.

وكسبت شركة الاسطوانات من بيع هذه الاسطوانة مائة الف جنيه ، اما القصبجى فكان أجره عنها خمسة عشر جنيها .. وكان حظ أم كلثوم افضل قليلا فقد قبضت ثمانين جنيها ! ..

ومن الاغانى المسرحية والاغانى الفردية فى العشرينات ، قفز القصبجى الى الاغانى السينمائية فى الثلاثينات وما بعدها ، فلحن لعقيلة راتب وصباح وشادية وليلى

مراد واسمهان ونور الهدى وسعاد محمد وهدى سلطان وغنى على الشاشة فى فيلم اســـمه « الاتهام » وظهر فى فيلم « ليلى فى الظلام » وغنى فيه كلمات قصيرة ..

أما أفلام أم كلثوم الستة فاشترك فى تلحين خمسة منها ، وكانت ألحانه لافلام أم كلثوم من أبدع ما أنتجه الملحنون فى عصر القصبجى كله ، اي من أواخر القرن التاسع عشر الى أوائل الستينات .. والى اليوم والغد وقد رفعت هذه الالحان اســـم القصبجى الى السحاب وفتحت له أبواب شركات السينما التى كانت منهمكة فى انتاج الافلام الغنائية التى تدر الارباح الطائلة ..

وكانت ألحانه تحمل دائما محاولة الابتكار والتجديد وتنم عن علم وتمرس بالموسيقى العربية وأسرارها .. واذا كانت ألحانه لام كلثوم هى معرض تجـديده ، فان ألحانه لاسمهان مثـــل « ياطيور » وألحانه لليلى مراد مثـل « أنا قلبى دليلى » كانت محـاولة من نوع آخـــر للتجديد عند القصبجى ..

وتدعيما لتجديده كان لايفوته موسم واحد من مواسم الاوبرا الاجنبية والباليه التى تجىء الى القاهرة كل عام. وكان كثير الاستماع الى الاوركسترا السيمفونى فى حفلاته

فاذا أنتهى من سماع هـــذه الانغام الاوربية عاد الى بيته فأمسك بالعود وانطلق يعزف الانغام العربية ..

كان القصبجى شـــــديد الحب للعود ، ولـكنه كان يسعى الى تطويره وتصميم مقاييس وأحجام جـديدة منه ذات أصوات أكثر ضـــخامة وقوة . واجتمعت لديه مجموعة هائلة من الاعواد يستخدم كلا منهـــا فى مجال معين .. منها ما كان يستعين به فى تلحين الطقاطيق ، ومنها ما يستخدمه فى تلحين المونولوجات ، وغيرها فى عزف التقاسيم والقطوعات الموسيقية . وقد رفض ان

يبيع أى عـــود منها بأغلى الاثمـــان ، بل كان من عادته دائما الا يسمح لاحد بلمســـها ، فكان زواره ينظرون اليها دائما من بعيد ! ..

وكان القصبجى شديد الحرص على اخلاصـــه ووفائه لام كلثوم .. فى الاعيـــاد يزورها أول الزائرين ، واذا سافرت الى الخارج يكون أول المودعين ، وعند عودتها أول المستقبلين ..

ولبث اسم القصبجى يذكر مع اسم أم كلثوم نحو اربعين عاما ، كان خلالها يغار على مجدها ويتفـــانى فى غيرته ، فاذا وقفت على المسرح تمتم ببعض الدعـــوات الطيبات لها حتى تنال التوفيق العظيم . وكانت حفلاتها عزيزة لديه ، لا يعـــوقه عن الاشـــتراك فيها شىء مهما بلغت أهميته . حدث أن اجريت له عملية جراحية فى احدى عينيه صبيحة اليوم المحدد لحفلتها . وفى الساعة العاشرة ليـــلا كان القصـــبجى متخذا مكانه على المسرح وراء أم كلثوم ولما تمض على العملية الجراحية فى عينه عشر ساعات ! ..

واشترك القصبجى بعوده فى جميع أغانى أم كلثوم ، وآخر لحن لم يشترك فيه عود القصبجى كان قصيدة « الاطلال » التى قدمتها أم كلثوم بعد أن استأثرت به رحمة الله ..

وكان كثير من محبى القصبجى ومقدرى فنه يسألون :

ـ هل تغيرت أحاسيســـه نحو أم كلثوم بعد أن بدأت تغنى للملحنين الشبان أمثال الطويل والموجى وبليغ ، فضلا عن عبد الوهاب ؟ ! .. وهل كان يرى ـ وهو الملحن ذو التاريخ ـ ان فى عزفه لالحانهم امتهانا لكرامته الفنية ؟

يجيب محمود كامل مؤلف كتاب «محمد القصبجى» عن هذا السؤال أو هذين السؤالين قائلا : « لم تتغير

أحاسيسه نحو أم كلثوم عندما غنت للملحنين الشبان ، فقد كان همه أن يكون الى جوار أم كلثوم يسعد بسماع صوتها»

والحقيقة ان أم كلثوم لم تفن اهؤلاء الملحنين الا بعد ان أصيب القصبجى بما يمكن أن يسمى « مرض الصمت » الذى يصيب أحيانا بعض الفنانين فيحملهم على السكوت والكف عن الانتاج كأنما ضمرت مواهبهم أو تجمدت أو انتهت ! ..

وبعد صمت القصبجى ، لم يبق الا السنباطى وزكريا أحمد .. وطوال بضعة عشر عاما انفرد السنباطى بالتلحين لها ، ولم يكن معقولا أن تقتصر أم كلثوم على انتاج ملحن واحد مهما كان متفوقا عظيم النبوغ كالسنباطى

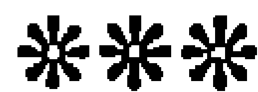
يقول محمود كامل : « اذا كان التعامل الفنى بمعناه الواسع بين أم كلثوم والقصبجى قد وقف عند أغنية « رق الحبيب » فى عام ١٩٤٦ فان أم كلثوم لم تتخل عنه كملحن ، بل كانت تحاول أن تشجعه على محاولة التلحين ومعاودته لعل وعسى .. فعهدت اليه بتلحين بعض أغانيها ولكنها لم تغنها ولعلها رأت ان القصبجى الذى عرفه جمهورها لم يعد يصنع من الالحان ما كان يصنعه فى ماضيه الفنى الواسع ..

وقررت أم كلثوم أن تجربه فى تلحين أغنية « سهران لوحدى أناجى طيفك السارى » فبدأ يلحنها من نغمة جديدة سماها « ماوراء النهرين » ولكن أم كلثوم لم تقتنع باللحن وعهدت بكلماته الى السنباطى الذى صنع منها التحفة الرائعة التى مازلنا نسمعها منذ عشرين عاما

ثم حاولت أم كلثوم مرة أخرى فعهدت اليه بكلمات أغنية « للصبر حدود » .. ولكن تلحينها كان فى آخر الامر من نصيب محمد الموجى ..

وهكذا دب اليأس الى القصبجى من معاودة التلحين

بعد انقطاعه عنه ، وانطوت صفحته كملحن بعد أن بدات في أوائل القرن العشرين مع غنائه لالحان عبده الحامولي ومحمـد عثمان وتقليده لطريقتهمـا في التـلحين ، ثم انفصاله الفنى عنهما وانفراده بفن لا يقلـد به غيره ، وتميزت مدرسته في التلحين بهندسـة البناء والجمل الموسيقية على أسس خاصة ، وتميزت ألحانه بالمسـافات الصوتية المتبـاعدة التى وجدت مجالها الرحب في المساحة الواسعة لصوت أم كلثوم ..



وبعـد المحاولات الطويلة غير المجدية في العودة الى التلحين استسلم القصبجى لليأس كما استسلم للمرض وهاجمته الامراض في السنوات الاخيرة من حيـاته واجتمعت عليه كأنها كانت معه على ميعاد ، فيماني من قرحة الاثنى عشر وتصلب الشرايين والصداع الدائم ، والآلام الحادة في أمعائه ، وكان يصفها بأنها « تشـبه السكاكين » ! ..

وضاعف من هـذه المحنة طفح المجارى القذرة أمام منزله شهورا متوالية مما جعل وصـول الاطبـاء اليه مستحيلا ، وكان يسـتنجد دائما بالبـلدية والمحافظـة لانقاذه من طفح المجارى أو البحث له عن مسكن آخر .. ولـكن بلا جدوى ..

وفى يوم من أيام السنة الاخيرة له في الدنيا استطاع صديقه محمود كامل أن يجتاز اليه مستنقع المجـارى بمشقة ويلتقى به وقد أقعـده المرض الاليم في بيته ..

يقول محمود كامل : « .. كان في حالة شديدة من الحزن ، سألته عن سر حزنه فقال وهو يبكى : اسمع يا سيدى .. أم كلثوم قالت لى استريح في البيت وأنا أبعت لك أجرك عن كل حفلة .. وأنا مش ممكن اقعد

فى البيت .. أنا ح افضل أشتغل معاها لغاية ما أموت على المسرح .. والواقع ان أم كلثوم كانت على حق فيما عرضتـه عليه لان صـحته لم تكن تسـاعده على العمل ، وكانت الازمة القلبية تنتابه أحيانا وهو سـائر فى الطريق » ..

وأشار عليه الاطباء باجراء عملية جراحية فى الامعاء فرفض حتى إشتد عليه المرض وفقد النطق ، فلمـا أسعف وافاق وافق على العملية ، وتمت بما يشـبه المعجزة.. وكان يتصور ان هذه العملية قد أنهت قدرته على العمل وانه خرج من العمل الفنى لام كلثوم نهائيا ، بل كان يتصور ان ام كلثوم لن تزوره لتطمئن عليه بعد العملية .. كانت وساوسه كثيرة فقد ثقل عليه المرض وبلبل خواطره ..

ولما قال له صديقه محمود كامل ان أم كلثوم لابد ستزوره ، لان العلاقة الفنية ــ اذا انقطعت ــ فهنـاك العلاقة الانسانية التى لا تنقطع ..

قال القصبجى يائسا : « ادى احنا حانشوف » ..

ولما زارته أم كلثوم وجلست الى جوار فراشه وقتا غير قصير تحسنت حالته المعنوية وخيل اليه انه قد استرد صحته ، بل استرد شبابه .. ولكن القصبجى كان قد أشرف فعلا على النهاية ..

وأشرق فى عينيه وهو مشرف على النهـاية ، أمل الحصول على جائزة الدولة التقديرية ، الا ان الصحف طلعت تعلن ترشيح عبد الوهاب للجائزة ، فأخـــذ القصبجى يندب حظه العاثر ، وحمله اليأس على التفكير فى الاتصال بعبد الوهاب لعله يتنـازل له عن الترشيح للجائزة ، بدعوى ان القصبجى قد بلغ النهاية ، وانه اذا قدر له أن يعيش عاما فلن يعيش عاما آخر ، أما

عبد الوهاب فالمجال أمامه فسيح لانه أصغر سنا ..
وظل القصبجى أياما يحاول ان يتصل بعبد الوهاب فيمنعه حياؤه ويأسه من الاتصال به ، حتى مات وهذه الامنية مدفونة فى قلبه ! ..

وما أكثر الامنيات التى مات القصبجى وهى دفينة فى قلبه ، فقد عاش رغم شهرته المدوية فى النصف الاول من حياته الفنية منعزلا منطويا على نفسه حتى اضطر أن يملأ فراغه بهوايات غريبة كاقتناء الساعات والادوات الكهربائية وآلات التليفون وسماعات الاطباء والنظارات «المعظمة» وأجهزة الراديو والادوية والروائح العطرية ، فكان بيته أشبه بدكاكين ٥٠٠ ألف صنف أو مليون صنف . وكان زائر بيته يفاجأ عندما يدق جرس الباب بدوى أجراس كثيرة جدا ينطلق فى كل البيت كأنما وقعت غارة جوية ، ولاتنقطع الاجراس الا اذا أغلق الباب

كانت هذه « الالعاب » العجيبة تسليته الوحيدة فى وقت فراغه من الاشتغال بالموسيقى ومشاكل العمل فيها

وفى أخريات أيامه ــ بعد أن فشل فى العودة الى التلحين ــ شغلت هذه الهوايات جانبا كبيرا من وقته وأوشك أن ينقطع لها .. فقد كانت هذه الهوايات هى العمل الوحيد الذى يستطيع أن يرد به على ما جرت به الايام على موهبته وفنه وأحلام حياته ..

وكان ردا ساخرا ، على قدر ما يستطيع القصبجى الوديع المتسامح أن يسخر من الايام ! ..

سيد درويش وحجمه الحقيقي

خير ما يمكن أن يصنعه الآن محبو سيد درويش وعارفو فضله ومكانته الحقيقية فى التلحين والغناء ـ وهى مكانة عالية بلا جدال ـ أن يحاولوا اعادة النظر اليه بأكبر قدر من الموضوعية ، بعد تخليص سيرته وأعماله الفنية من مبالغات الثناء التى أضافت الى شكله وحجمه الطبيعى اضافات ولمسات أقرب الى التشويهات ! ..

وسيد درويش ليس الا مثالا واحدا فى الحياة الفنية والتاريخ الفنى فى مصر والعالم ، فهناك كثيرون من أهل الفن الراحلين والمخضرمين والجدد ، عاشوا ويعيشون تحت عبء الحجم المبالغ فيه ، بينما عاش غيرهم ويعيشون تحت الحجم المنتقص من جميع جوانبه أو من بعض جوانبه ..

مثلا .. معاصرو سيد درويش ومن جاءوا بعدهم ، وأبرزهم كامل الخلعى وداود حسنى وزكريا أحمد ورياض السنباطى ومحمد عبد الوهاب .. كلهم ـ ما عدا عبد الوهاب ـ ظهروا لعيون الناس من بعيد ، فى أحجام أقل وأصغر من الحقيقة ..

والواقع انه لا توجد قاعدة ذهبية تحكم حجم الفنان ، سواء أكان موهوبا أم مجردا من الموهبة ..

وربما يكون الفنان صغير الموهبة وهو كبير الحجم فى عيون الناس . والعكس أيضا ممكن ، فان التزييف غير عسير فى هذا المجال ، وترويج العملة الزائفة يمارسه الكثيرون من قديم الزمان ..

وكلما مرت ذكرى ميلاد سيد درويش أو ذكرى وفاته ، فتحت لى بابا للتأمل فى هذا الاتجاه .. لا أقصد أن تزييفا وقع فى صورة سيد درويش فغيرت جميع ملامحه .. أقصد فقط ان هناك أغلاطا وقعت فى التعليقات التى كتبوها تحت صورة سيد درويش ، وفى بعض « الرتوش » التى أضافوها الى الصورة ..

ومن حسن الحظ ان أمثال هذه الاغلاط تقع فى جميع أنحاء العالم . ولو جمعنا الكلام الذى قيل ويقال عن فنانى أوربا وأمريكا ، لوجدنا تزييفا وخلطا كثيرا فى تحديد الاحجام الحقيقية ..

ومن حسن الحظ أيضا ان الفنان عندما يخرج من ساحة الفن يخرج معه حجمه الحقيقى وحجمه الزائف، ولا يبقى فى الخالدين الا الفنان الخالد فعلا .. مع ملاحظة اننى لا أعنى بالخلود بقاء الفنان فى ذاكرة الناس الى الابد ..

وقد بقى سيد درويش الى اليوم ، وسيبقى بعد اليوم .. واذن فهو فنان حقيقى برغم الصور المرسومة له فى غير حجمه الحقيقى ! ..

وكثيرا ما يتساءل بعض محبى سيد درويش أو بعض ناقديه : ماذا كان عساه يصنع فى التلحين والموسيقى البحتة لو أمهله الموت الى اليوم ؟ ! ..

ان عددا غير قليل ممن ولدوا سنة ١٨٩٢ مع الشيخ سيد درويش ما زالوا أحياء ، بينما رحل الشيخ سيد فى خريف سنة ١٩٢٣ ، ولم يكن وقتئذ قد بلغ الثانية

والثلاثين من عمره .. ولو عاش حتى اليوم لبلغ الثمانين وهى مدة يعيشها الكثيرون وبخاصة بعد تقدم الطب وارتفاع متوسط العمر فى العالم كله ..

ولا جدال فى ان سيد درويش لو عاش ثلاثين أو أربعين عاما فوق عمره القصير لتغيرت صورته فى عيون محبيه وعارفيه وناقديه ، ولكن كيف كانت تتغير صورته فى جميع هذه العيون ؟ ! ..

يقول محبوه الكثيرون انه لو عاش لصنع الالحان الخارقة ، ولنقل الموسيقى العربية نقلة هائلة ، بحيث يعتبر تقدمها الذى أحرزته حتى اليوم تخلفا بالنسبة لما كان سيقع لها من التقدم على يد سيد درويش ! ..

وهم يقيسون ما كان سيقع له بما وقع فعلا ، وهو قياس غير صحيح ، لانه يفترض اطراد النجاح والتقدم مرحلة بعد مرحلة ، ومن سن الثلاثين وما قبلها الى سن السبعين وما بعدها ..

الحقيقة إنه لا يمكن الحكم على فنان أو أديب أو عامل فى أى مجال بما كان منتظرا أن يفعله لو عاش كذا من السنين بعد العمر الذى عاشه .. ولهذا يمكن القول بلا انتقاص لسيد درويش انه يساوى بالضبط ما أتيح له أن يساويه فعلا خلال عمره القصير الحافل ..

أما افتراض الفروض فيصطدم بتحفظات واعتراضات كثيرة ..

مثلا .. لو عاش سيد درويش بعد سنة ١٩٢٣ لكان ممكنا أن تستهلك طريقته فى الحياة موهبته استهلاكا ذريعا ، فقد عاش فى عصر الكيوف القاتلة ، ومن سوء الحظ انه لم ينج من براثنها . وقد استهلكته فمات شابا ، فماذا كانت تصنع به لو عاش الى الكهولة والشيخوخة ؟ ! .. ألم يكن ممكنا أن يغرق فى طريقة

حياته ويفقد موهبته ويصبح عاجزا عن الاستمرار فى التلحين والابتكار فى التلحين ؟ ! ..

واذا قيـل : انه كان ممكنا أن يتخلص من كارثة الـكيوف ، قيل ايضا : نعم ، ولـكن الا يصح بعدها أن يكون قد بلغ آخر جهده فيـدور فى حلقـة مفرغة ويسبقه الزمن ويتفوق عليه ملحنون جـدد ، ويغـدو سيد درويش عندئذ ممثلا للقديم ، بعد أن كان ممثلا للجديد ؟ ! ..

بقى أن نتنبه الى أمر هام فان سيد درويش لم يظهر فى التـلحين المصرى بجرة قلم ، ولم يكن مائدة انزلت علينـا فجأة من سـماء الفن ، بل كان ثمرة العوامل التاريخية العميقة التى هيأت له أسباب الظهور والنماء

وقد عوجل سـيد درويش عن استكمال أسباب التقدم والتبحر ، لـكنه سـار خطوة على الطريق الصحيح لابد أن تتلوها خطوات ملحنـين آخرين .. وهذا لا يمس مكانته الفنية بل يزيد هيبتها ..

وخير ما يصنعه محبو سيد درويش وعارفو مكانته الفنية أن ينظروا اليه فى حجمه الطبيعى أو الحقيقى ، ويقدموه الى الاجيال الجديدة فى هذا الحجم ، بعيـدا عن تهاويل عبادة الفنان الفرد الذى عقمت النساء أن يلدن مثله ! ..

هذا هو الاتجاه الوحيد الذى يفيد الموسيقى العربية ، ويثبت لسيد درويش دوره الـكبير فى العمل من أجل تطورها وتقدمها ..

"الصييت" والفلكلور

بعض مواطنينا فى الريف ـ وفى المدن ايضا ـ يقولون « الصييت » أو « الصييتة » اذا أرادوا أن يقولوا « المطرب » أو «المطربة» .. وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يفخمون الحروف فيقولون « الصيبيط » و «الصيبيطة» .. فالتاء عندهم ، طاء ، بعكس ما نسمعه من بعض أبناء الجيل وبناته ، فالطاء عندهم تاء ، والصاد سين .. و « الصيبيط » فى لغتهم يفقد الصاد والطاء فيصبح اسمه « السييت » .. هذا لو أمكن أن تجرى هذه الكلمة المجهولة على السنتهم التى تشبه ألسنة أولاد الخواجات ! ..

أما اللغة الفصيحة فلا تعترف بالصييت ولا الصييتة، ولا تعترف طبعا بالسييت .. فالمطرب فى اللغة الفصيحة اسمه « الصيت » بياء واحدة مشددة ، والمطربة اسمها « الصيتة » .. وهو اسم من أسماء كثيرة جدا تطلقها اللغة على المغنى والمغنية ، وشهرتهما فى وقتنا الحاضر : المطرب والمطربة ..

هذه السطور اللغوية مجرد تمهيد للحديث عن ليال سهرتها فى صباى واستمعت فيها الى « صيت » بياء واحدة أو « صييت » بيائين اثنتين اسمه الشيخ جلال ..

كان النـاس قبـل حضـوره الى بلدتنا يقولون : « الصييت سيحضر غدا أو بعد غد » .. وبلدتنا كما ينبغي أن تعلم قرية في محافظة قنا بالصعيد ..

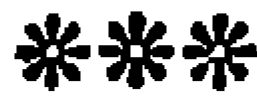
ولم يكن أحد منهم يقول : المغنى أو المطرب .. او اى اسم آخر من الاسماء الدالة على المغنى أو المطرب .

فالصييت أعظم من المغنى ، ولا يظفر بهذا اللقب الا ذو صوت عظيم وفن عظيم .. وعندما يقول الريفيون ــ وبخاصة فى الصعيد ــ : هذا صييت ، فالمعنى الذى يريدونه : هذا مطرب كبير .. وقد كان هذا كله بالطبع قبل أن يتحول « الصييتة » فى عصرنا الى فولـكلوريين فى القاهرة ..

ولا يمكن لمطرب ناشىء او ضعيف الصوت ان يفوز بهذا اللقب الذى يضاف اليه دائما لقب «الشيخ» .. لان كل صييت كان شيخا ولم يكن لاهلنا فى الصعيـد علم بأنه يجوز ان يكون الصـييت مطربا مرتديا بدلة « افرنكية » .. كموظفى الحكومة ..

والشيخ الصييت ــ كما عرفه أهل الصعيد فى تلك الايام ــ كان فى أغلب الاحوال يتلو القرآن وينشـد قصائد المولد النبوى ويغنى القصائد الوجدانية والتواشيح والمواويل والطقاطيق .. وكانت أقلية من الصييتة ــ جمع صييت ــ تكتفى عندنا بتلاوة القرآن الـكريم ، على رأسهم الشـيخ صـديق المنشـاوى والد المقرىء المرحوم الشيخ محمد صديق المنشاوى . وكان الشيخ صديق الكبير آية من الآيات فى روعة التلاوة وجمـال الفن وحلاوته ، ولم أسمع فى القاهرة من يتفـوق عليه الا الشيخ محمـد رفعت رحمه الله .. ولم يرث عنه نجله المرحوم الشيخ محمد صديق الا القليل من جمال الصوت والفن ، وبهذا القليل وحده كان المرحوم الشيخ

محمد صديق المنشاوى يعتبر اكبر مقرىء فى وقتنا بعد الشيخ مصطفى اسماعيل ، كبير المقرئين الآن بلا منازع ..



استيقظنا ذات صباح فاذا الشيخ جلال قد حضر يصحبه شيخان آخران هما كل بطانته أو فرقته او « الكورس » الذى يردد وراءه وينشد ، وكأنهما عشرة منشدين ! ..

واجتمع الناس وقالوا : « حضر الصييت » .. وفرحوا فرحا شديدا ، واخذوا يستعدون للسهر الطويل والارتفاع فوق هموم الحياة ليلتين أو ثلاث ليال أو اكثر ..

كان الشيخ جلال كهلا ضريرا منفر الطلعة ، جيد الفناء ، مشهودا له من الجميع بالتفوق فى فنه ، أما صوته فكانت فيه جهارة وضخامة وصلصلة ، ولكن مع اعتدال وترجيع وقدرة على ضبط المقام وتصويره على وجوه متنوعة حافلة بالمفاجآت النغمية العجيبة المطربة ..

وكان هذا الشيخ الفنان يخيفنا ـ نحن أطفال وصبيان ذلك الزمان ـ بضخامة جثته وعصاه الغليظة ووجهه المجدور ، فكنا نتجنب الاقتراب منه ولا نجرؤ على ذلك الا عندما يجتمع الناس حوله ليلا وقد اعتلى المنصة بعصاه الحديدية وسبحته ـ وهما كل أدواته الموسيقية ـ فعندئذ تختفى دمامته ورهبته ، ولا يبدو لنا منه الا أحسن ما فيه : صوته وفنه.. وكانا يسبغان عليه بهاء وجمالا يسقطان عنه اذا طلع الصباح وسكت عن الغناء المباح ! ..

والبرنامج الفنى للشيخ جلال يتألف كل ليلة من عدة

فقرات ، تبدأ بالقرآن الكريم ، ثم يقف فينشد مدائح نبوية ، وبعد أن يستريح قليلا ويشرب الشاى والقهوة ويقطع شوطا فى هضم العشاء الهائل ، يعود الى المنصة ومعه تابعاه فيأخذ فى غناء القصائد والتواشيح والمواويل والطقاطيق حتى مطلع الفجر ..

ولم يكن ثمة ميكروفون ، ولا كان أحد يسمع بأن فى الدنيا شيئا اسمه الميكروفون .. وما الحاجة اليه وصوت الشيخ جلال يخرج من ميكروفون حنجرته كالرعد ويهز الألف مستمع كأنه زلزال ؟ ! ..

والصييت المتمكن ـ كالشيخ جلال ـ يحفظ عادة اغانى مشاهير المطربين والمطربات المسجلة على اسطوانات .. ومعنى ذلك ان مطربى القاهرة ومطرباتها كانوا فى ذلك الزمن سادة الموقف كما هم اليوم بالضبط ، وكان المطرب ـ أوالصييت ـ الريفى يتمسح بأغانيهم ليتحبب الى المستمعين ، مهما كان هذا الصييت متفوقا بصوته وفنه ! ..

وفى كل ليلة كان الشيخ جلال يسأل المستمعين بعد ان يسمعهم أغانيه وقصائده الخاصة :

ـ ان شاء الله نغنى ايه ؟ ! ..

ويصيحون فى صوت واحد :

ـ يا نسيم الصـــــــبا ..

ونسيم الصبا ، قصيدة يغنيها الشيخ على محمود ، مسجلة على اسطوانة رائجة فى سوق الاسطوانات حينذاك .. ومطلع هذه القصيدة :

يا نسيم الصبا تحمل سلامى
لظباء الحمى ووادى سلامى

والشيخ جلال كان يؤدى هذه القصيدة ذات الالحان الصعبة وكأنه الشيخ على محمود نفسه بجمال صوته

واقتداره وطول نفسه وحلاوة أدائه .

بل كان الشيخ جلال يتصرف فى اللحن حتى يخرج الناس من وقارهم طربا ، وينسوا الشيخ على محمود ، ويعلنوا ان الشيخ جلال أحسن منه ولكنه سيىء الحظ فقط ! ..

ومن أحسن ما سمعته من الشيخ جلال أداؤه لقصيدة « الصب تفضحه عيونه » التى لحنها الشيخ أبو العلا وغنتها أم كلثوم .

سمعت هذه القصيدة بصوت الشيخ « أبو العلا » فى اسطوانة ، وبصوت أم كلثوم طبعا ، وبصوت الشيخ جلال ، فأشهد أنى طربت للشيخ جلال مع اننى لا أطرب أبدا لاى صوت يؤدى أغانى أم كلثوم مهما كان جمال هذا الصوت ومتانة أدائه .

كان الشيخ جلال نموذجا للصييت الريفى المبدع قبل ثلاثين عاما ، يعيش عمره يغنى ويبدع بدون أن يشعر به أحد خارج مجموعة القرى والمدن الصغيرة التى يتجول فيها وكأنها مجموعته الشمسية الخاصة فى الفضاء اللانهائى ..

وأتفه « صييت » الآن يركب القطار من محطة قريته ويذهب الى الاذاعة أو التليفزيون فى القاهرة ، وبعد أسابيع قليلة يصبح من مطربى الفولكلور المشاهير !

الصدحات الأخيرة

كان لنا قبل ربع قرن صديق كثير التجـوال ليلا فى الاحياء الشعبية القاهرية بحثا عن الغناء أيا كان ، فى اى مكان ، لا يدعوه أحد بل يدعو نفســه ويجد لذلك أحيانا بعض الحرج أو كثيرا من الحرج ، ولـكنه قلما كان يبــالى ، فان المبــالاة لا تثقل القلب وهو فيــاض بالشبـاب ، متعلق بفسحة الامل ! ..

وكان يقول لى : أصــحبك مرة الى مسرح الازبكية فأسمع معك أم كلثوم ، وأدفع خمسين قرشا فى الكرسى الاخير من الصالة ، بشرط أن تصحبنى بعــدها « الى حيث ألقت أم قشعم رحلها » ..

يعنى بهذا الشطر من الشعر القديم أن نسير على غير هدى حيثما نادانا الليــل ، لعــل وراء الظــلام سرادقا مضيئا يغنى فيه مغن مجهول ، أو سطحا من السـطوح أقيم فوقه فرح فنصعد اليه بلا دعوة ولا استئذان ، ونسمع هنالك مطربا شعبيا أو عالمة من شــارع محمد على ! ..

وصاحبنا فى هـــذه الجولات البوهيمية لا يهتم الا بسماع الغنــاء القديم الذى كلما أوغل فى القــدم كان أفضل . وله فى ذلك وجهة نظر ثابتة لا يمل ترديدها : « ذهب الطرب القديم الا هـــذه الصــدحات الاخيرة

يتجاوب بها ليل القاهرة فى حزن المودعين المفارقين أحبابهم الى غير لقاء ، فينبغى الا تفوتنا الفرصة ... ولنسمع قبل الا نسمع » ! ! ..

ـ والغناء الجديد ؟ ! ..

ـ نسمعه يا أخى فى اى وقت ، فهو مسجل تسجيلا سخيا قويا لم يترك منه شاردة ولا واردة كما يقال .. وعلى مرأى ومسمع منك ومنى أصحابه وصاحباته جميعا يغنون فى الراديو وغير الراديو ، ويقطعون علينا الطريق فى الليل والنهار ..

ـ سيأتى يوم يصبح فيه هذا الغناء الجديد قديما !

ـ ذلك يوم لن أراه ، ولا شأن لى به ..

ـ واذا رأيته ؟ !

ـ سوف يبقى عندى قديم الغناء على حاله ، ولن ابكى على الجديد حين يصبح قديما ، بل وربما شعرت عندئذ بحلاوة التشفى من العدو المهزوم ! ..

ـ وتسمى الغناء الجديد عدوا لك ؟ ! ..

ـ لا .. ولكن الى هذا المعنى استطردنا فى الكلام !

***

كان صاحبنا ظريفا يجيد الكلام ، ويدافع عن أية قضية بمنطق شكلى خلاب يبلغ حد السفسطة كما عرفها قدماء السوفسطائيين الاغريق ، ولكنه كان صادقا فى موقفه من الغناء القديم . كان مولعا به ولعا حقيقيا ، ولم يكن ـ كما يدعى ـ يكره الغناء الحديث بل كان يهيم بغناء ام كلثوم ، وسمعته مرة يقول لنفسه وقد استبد به الطرب لغنائها : « هكذا فليغن من أراد غناء والا فليصمت » ! ..

وصحبته ليلة للتفكه والتسرية عن النفس ، فطال المشى والبحث عن صوت .. حتى اذا يئسنا وقلنا :

نعود .. سمعنا صدى صوت فتبعناه الى مصدره ، فاذا سرادق كبير ، واناس محتشدون ، وحال جميلة تنبيء بفرح وأنس وطرب ! ..

كان المغنى ـ حين بلغنا السرادق ـ قد نزل عن منصته للراحة ، فانتظرناه .. واذا هو أفندى كهل ذو لحية كبيرة وطربوش ضخم . وعلى كرسى بجانبه وضع « منشة » غزيرة الشعر سوداء . ومن حوله التف العازفون والبطانة ..

بعد قليل علمنا حكمة « المنشة » التى يضعها المطرب الى جانبه ، فقد تكاثر البعوض واغارت أسراب كثيفة منه على المطرب وبطانته ، فدافعها بمنشته مدافعة شديدة ، واستبسل فى القتال حتى تقهقر البعوض منهزما ، ففرك المطرب يديه سرورا وألقى نظرة زهو وخيلاء على بطانته ، ومثلها على المستمعين فى السرادق ، ثم تنحنح ثلاث مرات وشرع يغنى فى انبساط تنم عنه حركاته وسكناته ..

لم يكن مطربا معروفا .. لم أره قبل هذه الليلة ولا رأيته بعدها .. اما صاحبى فحين رآه تهلل واستبشر وقال لى : هذا مطرب من أولاد البلد سمعته مرتين أو ثلاثا قبل الليلة ، ومحصوله من الغناء القديم طيب ، وأداؤه لا غبار عليه ، وصوته أحسن مما تظن .

وغنى المطرب :

لى قلب يا سادتى مشغول بواديكم
والروح عند المنام بتشت وتجيكم
عدد نجوم السما عينى تراعيكم
والقلب يفرح قوى ساعة يلاقيكم
والعين تلاقى الدموع متعشمه فيكم

أطربنى صوته وقد لبست نبراته الكلمات والمعانى

الوجدانية الدقيقة فى هـذا الموال العامى الذى حوى من رقة الوجـدان ما لايحويه بعض الشعر الفصـيح .

ونظرت الى صـاحبى فاذا الطرب قد هزه من رأسـه الى قدمه . وقال : لقد أحيا هـذا المطرب المتواضع هـذا الموال الجميل بعد أن أماته مغنيه الاول درويش الطنطاوى .. فهل سمعته ؟ ! ..

قلت : سمعت منه هـذا الموال فى اسطوانة ولم يكن رديئا كما تحـاول أن تفهمنى الآن ، فهل كان رديئـا حقا ؟ ! ..

لم يجب عن سؤالى فقد عاد مطرب الليلة يغنى بعد أن فرغ من كسب الجولة الثانية أو الثالثة ضد البعوض وأراح « منشته » الى جانبه :

بدع الحبيب كله يطرب
ان كان دلع والا غيه
وكل أحواله تعجب

قال صاحبى وقد أتم المطرب غناء الدور : أتعرف ان هذا الدور لحنه وغناه عبده الحامولى ، ثم غنـاه عبد الحى حلمى وسـمعته من صالح عبد الحى عدة مرات ، فأشـهد ان مطرب ليلتنـا هـذه كان موفقـا فى أداء هذا الدور بالقياس الى صالح عبد الحى

لا أذكر كيف انتهت هذه الليلة ، فنهايتها مختلطة فى ذاكرتى بنهايات ليال أخرى حضرتها مع صاحبى هذا..

ولـكنى أذكر من مفارقاته انه بالرغم من ولعه بالغناء القـديم لم يكن يدندن بينـه وبين نفسـه الا أغانى المونولوجست .. وكثيرا ما كنت أنصت الى دندنته فاذا هو منهمك فى غناء مونولوج ثريا حلمى : انت تهمنى ؟ ! فشر ! .. انت تزقنى ؟ ! .. فشر ! ..

ولعله كان يقول « فشر » للغناء الجديد ! ..

معانى أغنية ساذجة

لما غنت منيرة المهديه قبل خمسين عاما أغنية « الزبدة » التى تقول : « صابحة الزبدة .. بلدى الزبدة » .. غضب عشاق صوت منيرة وعشاق فنها وجمالها من الباشوات والبكوات وأبناء بيوتات الترك والجركس . وذهبوا اليها فى بيتها أو فى كواليس مسرحها يقولون :

ـ انت ياست الستات مطربتنا نحن ، لا مطربة الزبد البلدى ! ..

وصانعو الزبد البلدى هم الفلاحون الفقراء ، أشباه المعدمين ، أصحاب الجلابيب الزرقاء ، العاملون فى حقولهم الصغيرة بأيديهم فى خوف دائم من سطو جيرانهم الاقوياء اصحاب الاراضى الزراعية الخصبة الشاسعة .. وأكثرهم من أصل تركى وجركسى أو أجنبى مجهول ..

كانت حقول هؤلاء الفلاحين الفقراء صانعى الزبد البلدى تشبه مجموعة من الجزر الضئيلة تائهة متناثرة فى بحر من أملاك الباشوات لا ساحل له ..

وفى حياة فلاحنا الصغير المذعور من جيرانه الاقوياء السعداء ، لعبت الزبدة ومشتقاتها مع اللبن ومشتقاته دورا حيويا خاصا لاينساه التاريخ المصرى ..

فلولا القليل من الزبدة واللبن والجبن والبيض مع

القليـــل من الدجاج والحمام والبط والوز والمــاشــية الصغيرة ، لمات الفلاح المصرى واولاده وأرضه جوعا منذ ألوف السنين ..

وفى الزمن الذى غنت فيه منيرة المهدية أغنية الزبدة لم يكن الفلاح ليواصل الحياة لولا هذه الثروة الحيوانية المتواضــمة التى يربيها بحرص بالغ عليهــا واشــفاق شديد .. فى بيته وفى حواشى حقــله ، ثم يحملها ــ كأغلى ما يحمل من ذخائر الدنيــا ــ الى الســـوق ، فيرجع منهــا بكسوة لاولاده ورطلين من اللحم وبعض الشاى والسكر ، مدخرا محصول أرضه ــ وما أقله ــ للوفاء بأموال « المــيرى » وديون المرابين الخوجات ، والمتمصرين الذين يقتحمون القرية من حــين الى حــين كالغزاة الفاتحين ، فلا يبقون له شيئا من ثمرة عمله فى أرضه ، وكأنه لم يزرع طوال العام ولم يقلع ! ..

وفى عصر منيرة المهــدية ، كانت الثروة الحيوانيــة الصغيرة تشبه خطا دفاعيا للاقتصــاد الريفى والوطنى بصفة عامة ، يتحصن فيه الفلاح المصرى الفقير ليحمى قطعة أرضه ويدفع عنها المتربصين لانتهابها وفاء لديونه التى تراكمت عليه ظلما وعدوانا ..

وكان غناء سلطانة الطرب للزبدة أو بالزبدة ، معناه الاشــارة وسط جوها الفــاخر الفواح بالعطــر ، الى الفلاح الغارق فى الاوحال .. والاشــادة بكفاحه حفاظا على أرضــه من الطامعين فيهــا والمتآمرين عليهــا من المرابين اليهود والاوربيين والبنوك الــكبيرة والدكاكين العقارية الصغيرة المفتوحة ليلا ونهارا لسرقة الفلاحين المصريين وخطف اراضيهم ! ..

زبدة بلدى .. أحسن يا ظريف
دى صنع ايدى .. قرب يا خفيف

صابحه الزبدة ..
بلدى الزبدة ! ..

ونجحت أغنية منيرة برغم احتجاج ابناء « الذوات » عليها ، ومعارضة « العثمانلية » والمتفرنجين ونجوم البلد لالفاظها ومعانيها ..

واقبل مدير شركة اسطوانات بيضافون الى سلطانة الطرب يرفع الى أسماعها نبأ نجاح الاسطوانة ورجاءه الحار أن تسمح له بطبعها مرة ثانية وثالثة بناء على طلب الجمهور ، فسمحت السلطانة ، ثم قالت :

ــ لا تنس ان ترسل الى الارياف عددا كبيرا من الاسطوانات ..

ــ الفلاحون لا يشترون الاسطوانات يا ست ! ..

ــ اذن من الذى اشترى الطبعة الاولى ؟ !

ــ الاعيان والذوات والموظفون والتجار ..

ــ ولكن الذوات عارضوا الاغنية ؟ ..

ــ ولكنهم اشتروها ! ..

وابتسمت منيرة .. فالاعيان قد لا يستطيبون كلاما تغنيه ، ولكنهم يشترونغناءها دائما .. يشترون صوتها وبحته الفذة ونبراته المدهشة ! ..

لم يكن فى مقدور الفلاحين شراء الاسطوانة برغم رخص ثمنها ، ولكن بعض العمد وصغار أعيان القرى حصلوا عليها وأداروها على الفونوغراف ، فأبدى الفلاحون الفقراء اهتماما خاصا بها ، لا طربا لصوت منيرة الفضى وما يتضمنه من بحات وذبذبات وحشية ، وانما اعجبهم من الاغنية كلامها الذى يصدر بلا افتعال من لسان حالهم :

فاطمه التيمى .. أم الشيمى
جوزها بلبده .. ويبيع زبده

مش عيب ياصباح.. عيشة الفلاح
دا بمحراته .. ومعه مراته
ماشيه تساعده ..

لم تكن الزبدة فى هذه الاغنية الشعبية البسيطة مجرد زبدة مشتقة من لبن البقرة أو لبن الجاموسة ، بل كانت فى الحقيقة زبدة الارض المصرية المغتصبة .. كانت كلمة « الزبدة » فى الاغنية رمزا وطنيا وصيحة شعبية .. فالزبدة « بلدى » .. وبلدى هى الزبدة..

وقد كانت منيرة تجلس على كرسى الطرب فى عاصمة الترك والجركس والباشوات وقناصل الدول ، وكان الثراء يثقل منيرة من قدميها الى فرعها . ولكن ذلك لم يمنعها من التعاطف مع الفلاحين الفقراء باعة الزبدة ، فان من الحسنات الكبرى لانتفاضة ١٩١٩ انها وجهت الفن المصرى كله الى التعاطف مع الفلاح والعامل ، فتم هذا التعاطف على أحسن ما يتم بين الاخوة الاشقاء ، وكان فيه حافز لسلطانة الطرب على التغنى بزبدة الفلاحين الفقراء ، ومصر يومئذ طعمة للناهبين على اختلاف أجناسهم ، يرتعون فى أرضها طولا وعرضا تحت ظل الامتيازات الاجنبية والحماية البريطانية ..

صابحه الزبدة ، بلدى الزبدة
خدوا أموالى ، حبسوا رجالى
واللى نفعنى .. ربى جمعنى
ع المصريين .. ناس وطنيين
ياخدوا بيدى ، ويصونوا عهدى
بلدى الزبدة ..

لم تكن منيرة مطربة الفلاحين والعمال ، ولا كان للعمال والفلاحين فى عصرها مطربة ولا مطرب ، ولا لهم

فى عصرنا .. ولكن منيرة والكثيرات والكثيرين من مطربى عصرها ومطرباته كانوا مكتملى الولاء للوطن ، برغم ارتزاقهم ممن لا يبالون بالوطن فى جملة أمرهم وتفصيله ! ..

وحين كانت منيرة تتغنى بالزبدة ـ مثلا ـ استجابة لشعورها الوطنى العفوى ، كان أكثر أغانيها الاخرى استجابة لعواطف « السميعة » المتخمين بالمال ، المختالين بالاوسمة الرفيعة والالقاب الفخيمة . وكان جمهور منيرة القادر على سماعها فى مسرحها وشراء اسطواناتها ودعوتها الى الافراح والليالى الملاح ، يتألف من أولئك السادة ومن تجار القطن ووجهاء وأثرياء الحرب العالمية الاولى وكبار الموظفين وظرفاء القاهريين وأسخيائهم ، والشبان الحالمين بالمغامرات العاطفية الغامضة أو المغامرات الفنية المدهشة .. ثم أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة المتطلعين الى فوق ..

ومع ذلك كانت منيرة تتغنى بالزبدة والفلاحين ، وتطبع هذا التغنى على اسطوانة تلاقى من الرواج أكثر مما تلاقى اسطوانات كثيرة لها ذائعة الصيت ، كالاسطوانة التى تقول :

يا منعنشه يا بتاعة اللوز
بدى الاعبك فرد وجوز
أن كنت حلوه وغندوره
قومى هاتيلى عصفوره
مدردحه وما لهاش جوز

وليست هذه الاغنية الا « عينة » من بضاعة غنائية هائلة باعتها منيرة لاهل عصرها فى الوقت الذى كانت تغنى فيه ضد الانجليز وضد الاحزاب الصغيرة المتلاعبة بالقضية الوطنية ، ولكن الامر كان ـ كما أسلفنا ـ

حربا بين الولاء للوطن وبين كسب النقود ! ..

زبده من العال ، وبنص ريال
اشترى واوزن ، عندك واخزن
اوعى تبيعهـا ، ولا تودعهـا
عند اللى يخون ! ..

اشتر الزبدة ولا تبعها ، واخزنها فى مأمن ولا تودعها عند من يخون امانتك .. أليست هذه رموزا واضحة ، وهتافات وطنية تصلح للحناجر الصارخة فى المظاهرات الشعبية فى تلك الايام ؟ ! ..

كثيرا ما يزعم بعض أهل زماننا ان « أغانى زمان » لم تكن تنبض باحساس الشعب ومشكلاته وأحزانه !..

وكثيرا ما يتصورون ان الطقاطيق الآخذة بمذهب « الخلاعة والدلاعة » كانت وحدها فى ميدان الغناء المصرى ..

ولو بحثوا فى الميراث الفنى لمنيرة المهدية وحدها ـ ونترك مطربى عصرها الآن جانبا ـ لوجدوا فيه من الاغانى الشعبية ذات الصدق العفوى الجميل أكثر مما يجدون الآن لعشر مطربات شعبيات مجتمعات .. ولم تكن منيرة مطربة شعبية بالمعنى الدارج ، بل كانت سلطانة المطربات ! ..

ومعذرة لجميع المطربين الشعبيين اللامعين من محمد رشدى ومحمد عبد المطلب ، الى ليلى نظمى وعايدة الشاعر وبقية أسرة الاغانى الشعبية ! ..

ليالى العجوز والمسلوب

كان الشيخ محمد المسلوب قد تسلطن وتفتحت شهيته للغناء فى تلك السهرة الحافلة ، فلما طلب منه السامعون أن يغنى التوشيح الذى يقول مطلعه : « جل منشى حسنك الفضاح » .. غمرته البشاشة وفاض اريحية وطربا ، وانطلق يغنى فى طبقة عالية بهرت المستمعين :

جل منشى حسنك الفضاح
يا نحيل الخصر .. ..
روض خدك نزهة الارواح
مخجل للدهر .. ..

وتمهل الشيخ عند بعض الكلمات يعرض من خلالها على المستمعين مفاتن صنعته الغنائية وفنونه الصوتية..

وكانت بطانته ــ وفيها المشايخ البارعون فى الاداء ــ قد تسلطنت أيضا طربا وأريحية ، فكان أداء الشيخ المسلوب وبطانته للتوشيح يزلزل القلوب ! ..

ولم يكد الشيخ يختم هذا التوشيح حتى دخل فى فنون من الغناء بلا ترتيب .. وقال لبطانته :

ــ هذه ليلة ما رأيت مثلها من قبل ولا رأيتم .. فلا يفكرن أحد منا فى الراحة قبل طلوع الشمس ، ومهما طلب المستمعون من توشيح أو دور أو قصيدة

او موال فلا بد من تلبية الطلب ! ..

وعندما أخذ الشيخ فى غناء الدور : « جميل زمانك لك صفا » .. ماج المستمعون بهجة ومرحا ، وخلع الباشوات والبكوات والوجهاء شارات الهيبة والوقار وهتف الحضور فى ضوضاء أسكرها الطرب :

ـ وحياتك كمان يا شيخ المطربين ! ..

مضى الشيخ المسلوب يغنى وبطانته تسنده وتردد :

جميل زمانك لك صفا
اشرب باه فى صحته
والدهر عن حالك عفا
والقلب واصل بغيته

ولما انتهى الى الدور المشهور الذى يقول : « أسيل خدك بيتعاجب بخاله » .. فاء المستمعون من حرارة الوجد والسماع الى هدوء التصنت والتأمل ، وأقبلوا يترشفون نغماته فى استرخاء من أتخمه الصفو واعتدال المزاج :

أسيل خدك بيتعاجب بخاله
ولك الحاظ عيون دبل كحيله
وقلبى فى هواك خليه بحاله
صبح ولهان وما باليد حيله

قال لى صديقى الراوية القديم :

ـ ما اجمل والطف واعجب الشيخ المسلوب وقد تسلطن وأخذه الوجد فغاب عن الوجود الا صوتا يغنى : « الحب مين يقدر يخفيه .. والحب هتاك الاسرار » ..

او كنت معنا ـ يا بنى ـ فى تلك الليلة لخيل اليك ان المسلوب عفريت من الجن يرج الارض رجا بفخامة صوته وحلاوة أدائه ! ..

قلت :

ـ فاني لم أسمعه مع الاسف ، ولكنى سمعت هذا الدور بالذات من بعض مطربى عصرنا فلم يعجبنى !

قال وجبينه يزداد تغضنا :

ـ هؤلاء يا بنى رماد خامد من نار الطرب القديم .. أين ما تسمعه منهم مما سمعناه نحن من مطربى زماننا حين كانوا وكنا ؟ ! ..

وبعد لحظة صمت .. همس يحدثنى وكأنه يحدث نفسه :

ـ لو أتيح لك أيضا أن تسمع محمد سالم العجوز لسمعت منه غناء تسميه غناء حقا ..

قلت :

ـ واى الرجلين ـ المسلوب والعجوز ـ كان أندى صوتا واقدر على الاداء ، وما الفرق بينهما فى الشكل والروح ؟ !

قال :

ـ كان المسلوب مغنيا حاذقا شيخا ملتحيا ظريفا . وكان محمد سالم العجوز وجيها حليقا ، رداؤه قفطان وجبة ، وفوق رأسه طربوش من طرابيش الافندية كبعض أعيان ذلك العصر .. أما الشيخ المسلوب فجاوز السبعين وقيل جاوز الثمانين ، وأما العجوز أفندى فلا أدرى ، والله أعلم بما بلغ من السن ! ..

قلت :

ـ يؤكد بعض الرواة ان العجوز قد مات فى العاشرة بعد المائة من عمره المديد ! ..

ـ لا انفى هذا ولا اثبته .. جائز .. لا أدرى والله تعالى أعلم كم عاش العجوز والمسلوب ! ..

قلت :

ـ فهل تذكر شيئا من ليالى العجوز ؟ ! ..

انهالت عليه الذكريات من وراء السنين الطوال ، ولكنه كان قد تعب من الكلام ، فاكتفى من ذكرياته عن العجوز بالبداية الاولى منها ، قال :

ـ سمعته أول مرة مصادفة .. كنت أسمع عنه كثيرا ولا يتاح لى سماعه حتى انقضى زمان طويل ، وانى لسائر ذات ليلة الى بيتى اذا أنا بسرادق يعترض الطريق وقد ارتفع فيه صوت عذب قوى يغنى ، فلم اتمالك أن رميت بنفسى فى السرادق أسمع واشاهد . وكان فيه محمد سالم العجوز وقد فتن الحاضرين وأذهلهم بحلاوة غنائه .. ماذا سمعت منه فى تلك الليلة الرائعة ؟ ! .. سمعت الكثير .. فقد غنى حتى مطلع الفجر .. نسيت هذا كله مع الايام ولكنى لم انس بعد أول كلمات صافحت أذنى بصوته الذى كان من أجمل الاصوات : « قدك المياس .. فتنة للناس .. املالى الكاس .. من رحيق مختوم » ..

فى تلك الليلة كان محمد أفندى سالم العجوز فتنة للناس فعلا لا قولا .. ملأ لهم كأس الطرب من ذلك الرحيق فثملوا وثملت معهم . وبعدها تتبعت العجوز فى كل لياليه وسافرت وراءها شمالا وجنوبا ..

وانقطع شريط الذكريات ! ..

العذول والقمر

في البعد ياما كنت انوح
والقلب دا ياما اتكلم

كان عبد الحي حلمي ما زال في بداية تسلطنه وهو يغني هذا « المذهب » في تلك الليلة الصيفية القمرية بالقاهرة ، وقد أقام أصحاب الفرح سرادقا مكشوفا اجتمع فيه ثلاثة آلاف من الوجهاء وغير الوجهاء ، أكثرهم يحبون السماع ويعرفون أصوله وآدابه نوعا من المعرفة ..

ولأمر لم يتبينه المستمعون ، كانت حرارة التسلطن تدب في بطء الى المطرب الكبير ، وقد عهدوه في الليالي الملاح لا يكاد يهتف : « يا ليل يا عين » حتى تلعب به نشوة التسلطن ، وتلعب بهم وتلعب بالليل من حولهم !

وتوسلت اليه أصواتهم :

ـ وحياتك كمان ياسي عبده ! ..

وتحمس سامي الشوا ـ وكان يعزف الكمنجة في تخت عبد الحي ليلتئذ ـ فمال على الكمنجة فانتفضت أوتارها بلمساته البارعة ، وزعق الناس طربا ..

كان عبد الحي قد عاودته في تلك الليلة ذكرى مطربة تركية فاتنة الجمال ، سمعها وعرفها في الآستانة عندما سافر الى هناك ليغني للسلطان عبد الحميد ..

فى ركن من قلب عبد الحى كانت المطربة الجميلة الفاتنة تعيش .. اذا عاودته ذكراها اكتأب حنينا اليها ثم ينقلب اكتئابه وجدا مشتعلا اذا غنى به أطرب فتسلطن فأتى بخوارق فن الغناء ..

توسلت اليه الاصوات مرة ثانية :

ـ كمان ياسى حلمى .. كمان وحياتك ! ..

كانت توسلاتهم تكفى لاشعال النار فى قلبه .. آه يا جميلة الآستانة التى تشبهين هذا القمر فى ليلته الرابعة عشرة .. لو رأيتك فى ليلتى هذه لاشتريتها من الزمان بعمرى كله ! ..

وهمس سامى الشوا فى اذنه :

ـ فى الصيف القادم نسافر الى استامبول وتراها !

اندفع عبد الحى يغنى وقد اكتمل له من الصفو والتسلطن ما يرفعه الى سماء الطرب ، وراق صوته كوجه القمر الساطع ، وخالط المهج والارواح :

آنست يا نور العين

شرفت يا روح المهجه

ضج الليل بالمرح الصاخب والطرب الزاعق .. قال المستمعون : قد بلغ عبد الحى فى ليلتنا قمة حلاوته وجمع التسلطن من اطرافه ..

ـ كمان ياسى عبد الحى ! ..

ـ آنست وشرفت ياسى حلمى ..

بعد الغياب قلبى عليك ..

كله شجون ! ..

لكن بأنسك والبهجه ..

فرح وطاب ! ..

يا ليلة الطرب والوجد ماذا صنعت بالساهرين ، ومن اى أفق عال يتنزل هذا الغناء ؟ ..

انتهت الاغنية فى جو من الطرب الحارق ، ومضت ساعة قبل أن يفيق المستمعون ويتبادلوا كلمات من هنا وهناك :

ـ آه من نغمة السيكا .. انها روح الغناء المصرى وبدونها لا غناء ولا طرب ! ..

ـ محمد أفندى عثمان كان على حق عندما لحن هذه الاغنية من مقام السيكا ..

ـ انا سمعتها من محمد عثمان شخصيا .. لم يكن صوته جميلا كصوت عبد الحى ، ولكن أداءه كان جبارا .. انت لا تعرف محمد عثمان الا اذا سمعته يغنى ألحانه ..

ـ ولكن عبد الحى أدى الاغنية أروع أداء ! ..

ـ لا أجادلك فى هذا . ولكنى احدثك عن محمد عثمان .. الحلاوة هنا غير الحلاوة هناك ! ..

ـ لا يعنينى أن أسمعه فعبد الحى أجمل الاصوات

ثم عاد عبد الحى يغنى ..

وصاح «سميع» قديم يعرف عبد الحى حلمى معرفة شخصية :

ـ فى مجلس الانس الهنى ياسى حلمى وحياتك !..

ابتهج الحاضرون ، فهذه أغنية محبوبة مناسبة لهذه الليلة القمرية .. الا يكفى انها تشبه الحبيب بالقمر ؟ ! ..

ومد عبد الحى صوته ، كأنه يصل بينه وبين القمر فى فضائه :

فى مجلس الانس الهنى
طاب الصبوح وقد وفا
والغصن فى الروض انثنى
طربا لاوقات الصفا

لو كان عــذولى له نظـر
ما قــام لقــلبى يعـذله
الا عـــذولى فى القمـــر .
مالوش نظــــر يحـق له

لم يكن « السميعة » يحسون مرور الوقت .. آلليل ساج فى السماء والارض . والقمر كأس وضاءة مفعمة بخمر الصوت الجميل . ومجلس الانس يزداد طيبـا وبشـاشة من سـاعة الى سـاعة . والطرب يستخفهم فيفنون وراء عبد الحى كأنهم بطانته ! ..

وخيلت اليهم نشـواتهم أن ليـلتهم قد انفصلت عن الزمان فلن تنتهى الى صباح ! ..

وضحك القمر فى وجوههم فمبست قلوبهم للعذول لو كان للعذول نظر ماعذلهم فى حب القمر . وماذا بعـد ياسى عبد الحى ؟ .. ماذا بعد ؟ ! ..

بالامتثـــــال حكم الهوى
انى أحبــــه لو ظـــــلم
وازاى أدارى صـــــبوتى
والحب أشـــهر من علم ؟

آه .. ثم آه يا نغمة الحجازكار ! .. ان الذى وضعك هكذا فى هذا الغناء قد وضع جمرة فى كل قلب يسمعها وحرك فى كل عين دمعة جمدت اثر هجران تقادمت عليه الليالى والايام ! ..

آه يا نغمة الحجـازكار : اسهرى معنـــا حتى مطلع الفجر ، وابكى معنا وجدا وطربا ! ..

يهون الله .. يعوض الله

قال سيد درويش محتدا :

ـ انا لا أسجل هذا اللحن الا مع حياة صبرى !..

ورد عليه الخواجة ليفى مدير شركة اسطوانات اوديون :

ـ ولماذا حياة صبرى بالذات يا شيخ سيد ؟ !

وصمت الاثنان ، حتى همس مدير شركة الاسطوانات فى لهجة استرضاء واغراء :

ـ فى البلد مغنيات كثيرات ، كل واحدة أحسن من أختها .. لو قلت لى : هات منيرة المهدية لجئتك بها لتغنى معك هذا اللحن الجميل . فاذا كنت لا تهتم كثيرا بمنيرة فهناك فتحية أحمد ونعيمة المصرية وسمحة المصرية وهانم المصرية وأمينة القبانية والست توحيدة والست منتهى و .. و ..

قطع عليه سيد درويش قائمة الاسماء اللامعة معلنا ضجره ونفاد صبره :

ـ ياعزيزى .. قلت لك : لا أسجل هذا اللحن الا مع حياة صبرى ! ! ..

انهزم مدير شركة الاسطوانات فاستسلم :

ـ طيب .. كما تشاء .. حياة صبرى ، حياة صبرى ! ..

وجاءت حياة فى عربتها « الحنطور » الى مقر الشركة

فى الموعد المحدد ، وبعدها أقبل سيد درويش متسلطنا فى عز النهار .. وسبقتهما بطانتهما الغنائية ، أو مجموعة « الكورس » كما نسميها اليوم .. وقد تكون أكثر تطورا وتجددا فنسميها « الكورال » ! ..

وكأنما تذكر مدير شركة أوديون شيئا هاما ، فمال على أذن سيد درويش فى ود ظاهر :

ــ كله تمام يا شيخ سيد ؟ ! ..

ــ كله تمام يا خواجة ! ..

ــ هل استأذنت صديقك نجيب الريحانى صاحب الحق القانونى فى هذا اللحن ؟ ! ..

ــ نعم .. يعلم الريحانى اننى سأسجله على اسطوانات شركتكم ..

كان اللحن الذى يدور حوله الكلام بين الشيخ سيد درويش وتاجر الاسطوانات هو لحن « السفايين » الذى كتبه بديع خيرى ولحنه الشيخ سيد فى مسرحية « ولو » الفنائية الاستعراضية التى قدمها نجيب الريحانى فى أوائل العشرينات ، وكانت أول عمل موسيقى لسيد درويش على مسرح الريحانى ..

وكان سيد درويش منذ بداية اقامته فى القاهرة معجبا بحياة صبرى ، لقد تفننت بألحان خلال حياته وبعد حياته مطربات كثيرات .. منيرة المهدية ــ وهى اشهر مطربات العشرينات ــ سجلت عشر أسطوانات من ألحانه ، من بينها الدور المشهور « أنا عشقت ».. وفتحية احمد ــ أشهر مطربات العشرينات بعد منيرة ، وأشهر المطربات بعد أم كلثوم من الثلاثينات الى الخمسينات ــ غنت له « زورونى كل سنة مرة » احسن غناء أتيح لهذه الاغنية الجميلة حتى اليوم ، وغنت له أيضا «طلعت يا محلا نورها» ومجموعة أخرى من الاغنيات ..

ونعيمة المصرية والست تودد والست منتهى وبقية الستات المطربات ، غنين الكثير من ألحان سيد درويش وسجلنه على اسطوانات ما زالت باقية حتى اليوم وأن كانت مشروخة مختنقة بتراب الزمن الطويل ! ..

ولكن حياة صبرى كانت المطربة الاثيرة لدى سيد درويش ..

هل كان صوتها أجمل من أصوات مطربات عصرها ؟ !

اسطواناتها الباقية بين أيدينا تقول : لا ! ..

ولكن سيد درويش كان يقول : نعم ..

وبين لا ونعم قصة من قصص حب سيد درويش.. ومن الممكن أن يقال انها كانت احدى القصص الهامة فى حياته وقد صحبته حتى وفاته ..

وهكذا قدر للحن « السقايين » الشعبى الرائع أن يسجل بصوت سيد درويش وحياة صبرى والبطانة البارعة التى صحبتهما :

يهون الله ..
يعوض الله ...
ع السقايين دول شقيانين ...
متعفرتين م الكوبانيه ..
دى شركة غلسه ..
ميتها نجسه ..
تلقاها حادقه ، وخضره وزرقه ..
ويقولوا رايقه .. ياخى ها أو ..
اخيه عليها ... بيحطوا فيها ...
كربونات ونبيت ... وسلفات كبريت ...
وبودرة عفريت ... ها أو ...

ولكن « ها أو » التى ينفسون بها عن كربهم وبلائهم ، لا تخفى عنهم حقيقة الاحتكار الاجنبى الجشع

لمرفق المياه . فالمحتكرون يأكلون الاطايب و«ابن البلد» لا يجد ولو طبقا من الطرشي ! ..

مع ذلك يجد السقاء المسكين المغلوب على أمره لحظات للغزل مع بنات البلد اللاتى لم تمتد الى بيوتهن أنابيب شركة المياه .. وتغنى حياة صبرى على لسان احدى بنات البلد :

يادلعدى يا معلم طلبه
والنبى تملا لى القربه

ويغنى لها السقاء أو الشيخ سيد :

يا صباح القشطه .. اسم الله
على عقلى يعوض الله
آه يانى من سحر عنيكى
يا أرض احفظى ما عليكى
على عقلى يعوض الله ! ..

لقد جف مورد رزق الرجل وذهبت أيام هناءته وسعادته ، وذهب عقله أيضا .. ويعوض الله على الرجل المسكين .. يعوض الله .. يهون الله ! ..

وما أبدع الكلام واللحن والغناء فى هذه الاسطوانة التى تعانق فيها صوت سيد درويش وصوت المطربة التى كانت عنده قبل كل المطربات ، وأن كانت عند غيره بعد كثير من المطربات ! ..

سلطان جمالك

قال عبد اللطيف أفندى البنا احد كبار مطربى مصر منذ خمسين عاما : لابد من تجديد كلمات الاغانى !..

وقال مؤلفو الأغانى الحاضرون فى مجلسه : نعم .. لابد ! ..

وأشار سى عبد اللطيف البنا بأصبع من يده اليسرى فى حركة من حركات دلاله واعجابه بنفسه ، قائلا فى نفاد صبر وخيلاء :

ـ أنا تعبت خلاص ! .. تعبت من الغناء كل ليلة وكل يوم لقاضى الغرام ولا شىء غير « قاضى الغرام » .. لقد نال هذا القاضى المسكين ما يكفيه من العذاب .. انتم عذبتموه بأزجالكم ، وعذبته أنا بغنائى هذه الازجال ! ..

ساد الصمت قليلا .. تأملوا لحظة وتفكروا .. فجأة قال أحد المؤلفين :

ـ ما رايك ياسى لطيف ـ اى ياسى عبد اللطيف ـ فى موال اعرج أخضر لا يبدأ بمخاطبة « قاضى الغرام » بل يبدأ بالتمسيح فى اعتاب المحبوب وحسنه ورشاقته وحلاوته ؟! ..

فكر المطرب المشهور ، ثم ابدى ارتياحه مختصرا فى اربع كلمات :

ــ طيب يا أستاذ .. قل شيئا ..
اعتدل المؤلف وتدفقت كلماته :

سلطان جمالك علي أهل الغرام حاكم
وحارس الخال فوق ورد الخدود حاكم
شفتك عشقتك فراقب ربك الحاكم
يا باهر الحسن اسمح لى بوصلك يوم
دا الصبر فى القلب يا قاضى الغرام حاكم

أصغى عبد اللطيف البنا ، وهزة طرب خفيفة تلعب برأسه يمينا وشمالا مع كل شطر من الموال ، حتى فاجأه الشطر الخامس والاخير فقفز كمن لدغتــه عقرب ، وصاح غاضبا :

ــ أهذا ما اتفقنا عليه ؟ ! .. الموال من أوله لآخره حلو خالص ، ولــكن ياخســارة ! .. قبــل النهــاية بكلمتين تقول لى : « قاضى الغرام » .. يا أستــاذ عيب .. يا أستاذ لا تنس اننى لا أريد «قاضى الغرام» .. امسحه من الموال مسحا واكتب اى كلام فى مكانه !

يمتثل المؤلف لاوامر المطرب الـكبير ، معتذرا اليه بأنه نسى فقط ، ولولا النسيان ما ورد قاضى الغرام على لسانه بأى حال ..

ويصبح الشطر الاخير بعد تعديله هكذا :

ــ دا الصبر عنى رحل والشوق اهو حاكم

يصفق البنا طربا ، وينطلق بكلمات الموال الى شركة بيضــافون فيسجله فورا على اســـطوانة ، ولا يمضى أسبوع حتى تملأ الاسطوانة مقاهى مصر ، وتدوى فى بيوت العمد والاعيان والافنــدية ، فضــلا عن البكوات والباشوات ! ..

القعدة الثانية بعد شهر او شهرين من القعدة الاولى .. فى صدر المجلس بلبل مصر عبد اللطيف البنا وحوله

المؤلفون ، وزمام الكلام فى يد البلبل الفريد :

ــ الم أقل لكم ؟؟ ! .. ارايتم كيف ضرب الموال السوق ضربا ؟ ! كل الناس الآن من الموسكى الى عماد الدين الى وجه البركة الى روض الفرج يغنون «سلطان جمالك » ! ..

ترتفع دعوات المؤلفين لمطربهم الكبير بالعز والنجاح ، ويهمس أحدهم ولسانه يتعثر بالتردد والحياء :

ــ ياسلام ياسى لطيف لو غنيت « سلطان الجمال » مرة تانية بكلام جديد ..

يقفز سى عبد اللطيف طربا للفكرة .. فكرة نيرة حقا ، سينفذها ويبهر بها البر المصرى من الاسكندرية الى اسوان :

ــ مضبوط كلامك ياسى محمد .. السوق يلزم له موال جديد عن سلطان الجمال .. عندك حاجه نسمعها حالا ؟ ! ..

يتنحنح سى محمد توطئة لالقاء مواله الجديد ، وقبل أن يبدأ الالقاء يستدرك قائلا :

ــ بس الموال الجديد ياسى لطيف موال نعمانى مش موال أعرج ! ..

ويسأله المطرب الكبير :

ــ ولماذا هو موال نعمانى لا موال أعرج ؟ ! ..

قال المؤلف مستجمعا كل فصاحته لاقناع المطرب الكبير :

ــ المهم أن يكون موالا اخضر ، موال حب وغرام ، فهذا هو نوع المواويل المطلوب الآن ، والمحافظة تمنع الموال الاحمر كما تعلمون لإنه يثير نخوة الناس ! .. والانجليز يريدون أن يأكل الناس ويشربوا ويناموا فى هدوء تام ..

كان المؤلف من هواة « الرغى » فأسكته عبد اللطيف البنا عند حده قائلا :

ــ جاوبنى .. لماذا جعلته موالا نعمانيا لا موالا اعرج كالموال السابق ؟ ! ..

قال المؤلف :

ــ أنا قلت نجعله فى هذه المرة سبعة أسطر لا خمسة فقط .. ولا فرق بين النعمانى والاعرج ــ تقريبا ــ الا فى عدد الشطرات ، ولكن اذا لم يعجبك هذا فانى أختصر الموال وأحوله من موال نعمانى الى موال أعرج !

ضحك البلبل الغريد وقال :

ــ لا .. معلهشى .. سمعنا ..

تنحنح المؤلف ورفع عقيرته :

سلطان جمالك أسرنى يا بديع الحسن
والخال على ورد خدك والقوام كالغصن
والقلب من بعد بعدك هام بطبع الحسن
يا مالك الروح بوصلك للفؤاد اشفيه
وان كنت تنعم بقربك للشجى ايش فيه
ارسلت سلسال دموعى حمر أشكال فيه
لكن در المباسم فاق بطبع الحسن

هز الموال بحلاوته المطرب الذى اعتاد تذوق الكلام الحلو ، وهز أيضا كل مؤلفى الاغانى الحاضرين ، وانطلق المطرب الى شركة بيضافون ليسجل مرة أخرى «سلطان جمالك» ويكتسح به سوق الاغانى من جديد ! ..

بعد أسابيع لزم عبد اللطيف أفندى البنا الفراش مريضا ، ولما زاره مؤلفو الاغانى وزملاؤه فى صناعة الطرب ، قال لهم انه مريض بالانفلونزا ..

كانت الانفلونزا بريئة من التهمة .. المتهم الحقيقى هو المطرب محمد أفندى انور .. هذا المطرب هو

الانفلونزا امتى ارقدت عبد اللطيف البنا مقهورا محسورا

فكر محمد أفندى انور بسرعة وبراعة حين رأى نجاح زميله عبد اللطيف أفندى البنا فى « سلطان جمالك » وقرر الاستاذ أنور ان يكون له هو ايضـا سلطان من سلاطين الجمال ! ..

وهكذا .. ذات صباح فوجىء البنا بشركة بيضافون - وهو أكبر مطربيهـا - توزع فى الســوق اسطوانة للمطرب محمد أنور يتغنى فيها بسلطان الجمال صائحا بملء صوته :

سلطان جمالك أقام الخال فى الجنات
حارس وجرد لحاظك حاجب الجنات
وطيف خيالك حياة الروح فى الجنات
فؤاد محبك غـــدا ملكك وتك طـــايع
وهدب لحظك جعل لك قوس فى الطالع
ورمح قدك جـرح قلبى وانا طـالع
فى سلم العشق أطلع ارفع الدرجات !

لم تجامل شركة بيضافون او « بيضافون كومبانى » كما كانوا يسمونها ، مطربها الاشهر عبد اللطيف البنا ، فتقصر عليه مواويل « سلطان الجمال » باعتباره صاحب فكرة هذه المواويل ، فقد كانت « بيضافون كومبانى » تبحث عن الربح من وراء سلطان الجمال بأى صوت ، وبأى لحن ، وبأى كلام ..

وغلطة سى لطيف انه تصور - وقد اخذته جـلالة الطرب - ان « الـكومبانى » التى يتعامل معها تبحث عن صوته لا عن الفلوس !

حبك يا سيدى

فى شارع محمد على كان الملحن داود حسنى يمشى مترنحا يدندن بصوت يعلو ثم يعلو حتى يصبح زعيقا منغوما ، ومن فمه ومن خلال شواربه تندلق هذه الكلمات الخفيفة :

هاتيلى يا امه عصفورى
العب واوريكى امورى ..
لا اجيب له قرطم يتسلى
واحط له فى بقه الفله
وادى له يشرب م القله
وانتى حوالينا دورى

كان ذلك منذ عشرات السنين .. اربعين سنة .. خمسين سنة .. اكثر من ذلك او اقل .. المهم ان داود حسنى كان فى شارع محمد على فى ذلك اليوم ، ليلا وربما نهارا ، وكان يمشى جائعا أو شبه جائع ، ومن كان فى مثل حالته هذه لا يستطيع ان يلحن ولا يستطيع أن يغنى ، ولكن داود حسنى كان يلحن ويغنى وكان يمشى فى شارع محمد على وقد تملكه الوجد الفنى الغلاب الذى ينهزم له الفنانون الحقيقيون بلا مقاومة وبلا غضاضة ! ..

كانت منيرة المهدية تريد هذه الكلمات بالذات ،

ونريد من داود حسني شخصيا أن يصنع لحنا لهذه الكلمات .. فهو الملحن الذى يبنى الشوامخ ويصوغ التحف الصغيرة .. التواشيح الضخمة سهلة عليه ، وكذلك الطقاطيق الرشيقة ! ..

ويمضي داود حسني يلحن ويغني فى وقت واحد :

أعلمه شرب الدخان
واعلقه فى قلب الفستان
وجنب منه غصن البان
وانتي تتوهى فى بحورى
لا اقول له سمعها حكايه
وتكون جرت من حدايه
واقعده جنب مرايه
واقيد له شمع ف بنورى

ومن يمين الشارع وشماله ، ومن بيوت «العوالم» على الصفين ترتفع الآهات والصرخات والسخريات :

ـ آه ياسلام .. كمان ياسى حسنى ! ..
ـ يا سلام ياسى داود .. كمان ! ..
ـ يا خسارتك ياسى داود فى الفقر ! ..

ويواصل سى داود حسنى مسيرته الفنية الصاخبة بشارع محمد على وكأنه لا يسمع صرخات الناس وآهاتهم ! .. ويرتفع صوته الاجش بكلمات أخرى من الطقطوقة :

وافرجوا لعبي وضحكي
واهز طولي وطرطوري
عصفوري حلو ومدردح
وفي الكلام يعرف يردح
لو رحت به أعظم مطرح
لبقى عيونه عيون نوري

وفجأة يعترض طريقه افندى وجيه المنظر ويستوقفه صائحا : ياسى داود ·· ياسى داود ·· لحظة واحدة ·· انت مش سامعنى ؟! ··

وعندما يفيق داود حسنى من نوبة الحمى الفنية يتبين ان الذى اعترض طريقه هو الملحن والمطرب زكى مراد ، كان من الملحنين والمطربين المعروفين فى تلك الايام ..

قال زكى مراد لداود حسنى :

ــ ادينى اللحن ده ياسى داود وحياتك ! ..

اجابه داود حسنى :

ــ لكن منيرة عاوزاه يازكى، وأنا باعمله علشانها..

قال زكى مراد فى ضراعة ودهاء :

ــ لكن أنا حادفع لك الفلوس دلوقت واحنا واقفين هنا ، وقبل ما تكمل اللحن كمان ... ما تكسفنيش بأه ! ..

كان داود حسنى فى ذلك النهار او فى تلك الليلة يريد اى نقود يأكل بها كبابا وكفتة او دجاجة مشوية فى محل حسنين الفرارجى ! ..

ولم يفكر داود حسنى طويلا .. قال بعد نصف دقيقة من الصمت :

ــ حاضر يا زكى .. حاضر .. تحت أمرك ! ..

وقال زكى فى سرور وانتصار :

ــ وهذه خمسة جنيهات ! ..

وانصرف زكى مراد مسرعا حتى لا يرجع داود حسنى فى كلامه ، قائلا له وهو يلوح بيديه فى محبة ظاهرة وامتنان تفيض به نبراته ..

ــ بكره ان شاء الله افوت عليك ياسى حسنى ! ..

ووضع داود حسنى الجنيهات الخمسة بين اصابعه

وعاد الى وجده الفنى ، ومضى يلحن ويغنى وهو يترنح جوعا فى الطريق وقد استبد به الوجد الفنى الذى يذهل الفنان عن نفسه :

ما تسمعيـــــه لمـا يدندن
ويقـول كلام خفـه يجنن
لا اعمل له بيته من المعدن
واجيب له تلى من الفورى
عصفورى يا امه مافيش مثله
بين الطيور اعرف اسـمه
واللى يشـوفه يرقص له
ووجوده يا نينه ضرورى

ووصل داود حسنى الى دكان حسنين الفرارجى ، وفتح قبضة يده لينفحه بالنقود ، ولـكنها كانت قـد اختفت كأنها فص ملح ذاب فى حوض من الماء .. لقد وقعت الفلوس من يده فى أثناء مسيرته الفنية الذاهلة ، وعاد مفلسا كما كان ! ..

ووقف داود حسنى لحظـات أمام دكان الفراخ ، حـائرا لايدرى ماذا يقول ، حتى صرخ فيه صـاحب الدكان :

ــ نعم ياسى حسنى .. طلباتك ؟ ! ..

وغمغم سى حسنى فى يأس :

ــ لا ... ما فيش ! ..

ومضى يدندن توشيحا قديما من مقام « السيكا » وايقاعه من « المصمودى » .. وكان هـذا التوشيح ذائع الصيت لأن عبد الحى حلمى ــ اشهر مطربى مصر قبل خمسين عاما ــ كان يغنيه فى الافراح والليـالى الملاح .. مضى داود حسنى جائعـا يغنى التوشـيح ويصرخ :

ســاقيها غزال ...
يفوق الهلال ...
الحاظه كحال ...
ترمى بالنبــال ...
خد عقلى ومالى ...

وفى سخرية ومرارة واستهانة بما جرى من قبـل وما سيجرى من بعد، همس داود حسنى لنفسه :

ـ يعنى يا واد يا حسنى ، مش كانت منيرة ذات الصوت الذهبى اولى باللحن من زكى مراد ؟! ..

وتلمظ داود حسنى وهو يتــذكر الفرخة ، ويشم رائحة الفــراخ ، أو رائحة الدجــاج وقد غطت على المكان . ثم مضى وهو يدندن بالدور المشهور : « حبك يا سيدى غطى ع الـكل » ! ..

الرقص على العود

العود هو الآلة الموسيقية العربية المغضوب عليها والمستبعدة من « أوركسترات » هذه الايام ، ولا أقصد الاوركسترات الاوربية البحتة ، وانما أقصد الفرق الموسيقية المصرية التي تعزف ألحاناً عربية فقط ، وتصحب مطربينا ومطرباتنا في لياليهم الملاح ! ..

والعود هو الاول بين الآلات الموسيقية العربية ، يحف به الناي والقانون والبزق . ولما نطقت الكمنجة « الرومية » — كما كانوا يسمونها — بالالحان العربية في القرن التاسع عشر أصبحت الآلة الخامسة في « التخت » .. ثم تكاثرت الآلات ، واتسعت رقعة « التخت » في أيامنا لاربعين عازفا وأكثر ، وضمت بضع عشرة آلة موسيقية — وأكثر — ولكن التخت وقف عند عزف الميلودى أو النغمة الواحدة التي تعزفها الآلات البراقة كلها مجتمعة ، أو تتحاور بها فيما بينها في بعض اللازمات « المودرن » التي تشبه أن تكون « تحميلة » من نوع جديد .. والتحميلة — كما هو معروف — محاورة ارتجالية كانت تؤديها آلات التخت القديم باقتدار فائق ..

والواقع ان كثرة آلات التخت الحديث تبهر من يراها ، وتهز من يسمع الانغام الصادرة منها . أما

الحوار بينها ، فان طرافته تبدو واضحة اذا رسمها ملحن متمرس كعبد الوهاب مثلا ..

ويكاد هذا التضخيم فى عدد آلات التخت وفى شكله يصبح نوعا من خداع السمع وخداع البصر للمستمع والمشاهد ، ولكنه خداع لا غبار عليه ، بل انه ـ اذا انصفناه ـ خداع أبيض لا ضرر منه . تكون له فى المستقبل فائدة لا ندرى الآن كيف تكون ، لان تضخم « الكمية » الى هذا الحد فى عدد آلات التخت ، معناه ان الموسيقيين المصريين يتطلعون الى تغيير او تعديل « كيفى » فى موسيقاهم ، لتكون أقرب الى التركيب من هذه الميلوديات الاحادية التى تعزفها الآلات الكثيرة مجتمعة ..

معنى هذا فى الوقت نفسه ان الموسيقيين العرب يحاولون استغلال الثراء النغمى الباذخ للموسيقى العربية ، فان كثرة النغمات التى تتوالى وتتنوع فى القطع الموسيقية ، أو فى « لازمات » الاغانى ، هى نوع من « التركيب » يأنس اليه المستمع العربى ويستلذه اكثر مما يأنس الى النغمات الاوربية القليلة الفقيرة التى تتفرع برغم قلة عددها وتتداخل وتتصارع وتتوافق بالهارمونى والكونتر بوينت وفنون التأليف المعقدة ..

ولا أدرى ما سوف يتمخض عنه هذا الاتجاه فى الموسيقى العربية الذى يراه بعض متأمليه اتجاها عشوائيا ، فقد ينبثق عنه فى النهاية أسلوب خاص بالموسيقى العربية فى الهارمونى والكونتر بوينت ، نابع من هذه الموسيقى ذاتها ، وليس منقولا بلا تصرف من الموسيقى الاوربية ..

شىء واحد ابحث عنه وسط هذه المجموعة المهيبة من آلات التخت الحديث ، او الاوركسترا العربى ـ

حسب التسمية المتداولة الآن — فأين « العود » الجميل الرخيم ذو الصداقة الحميمة للمستمع العربى ، بين هذه الآلات الاجنبية التى جلبوها من فرق الجاز ومن الاوركسترا السيمفونى ، ثم روضوها كترويض الوحوش حتى نطقت بالالحان العربية ؟ ! ..

اختفى العود من التخت الحديث أو الاوركسترا العربى المتخم بالآلات ، فلا وجود للعود المغلوب على أمره الا وراء كوكب الشرق أم كلثوم ، أو فى يد فريد الاطرش.. فهل يوشك العود أن يخرج من ساحة الموسيقى العربية ، مع ان أكثر الملحنين يؤلفون ألحانهم على أوتاره ؟ ! ..

ان الحكومات — فى جميع أنحاء العالم — تسن أحيانا قوانين لحماية بعض الوحوش والحيوانات والطيور من الانقراض ، فهل نحتاج الى قانون لحماية وحش الموسيقى العربية — العود — من الانقراض ؟ ! ..

يقولون ان صوت العود خافت ، لا يظهر فى الاوركسترا العربى الا اذا سكتت جميع الآلات وانفرد وحده بالعزف على يد عواد قدير ! ..

لكن بعض الموسيقيين فى البلاد العربية استطاعوا تقوية العود ، فأصبح قادرا على النفـــاذ بصوته حتى فى الاوركسترا الاوربى الصاخب المتراكب الالحان ، لا فى الاوركسترا العربى فقط.. فلماذا لا يحاول الموسيقيون المصريون تقوية العود واعادته الى مكانه ، بدلا من هذا الاسراف فى نقل الآلات الغريبة من موطنها البعيد الى مهجرها الجديد فى الموسيقى العربية ؟ ! ..

مع ذلك ، سيعود « العـود » قريبـا الى التخت الحديث ، ولـكن من باب الرقص الشرقى لا من باب الاغنية العربية .. واذا تحقق ما سمعته من الراقصة نجوى فؤاد فان العود لن ينقرض . فهى تفكر ، بل

تشرع فعلا ـ كما قالت لى ـ فى ادخال ما تسميه « العود الاليكترونى » الى التخت الذى ترقص عليه..

والعود الاليكترونى الذى يعمل بطريقة القيثار الكهربائى تقريبا ، سيكون قوى الصوت كهذا القيثار بحيث يسمعه المتفرجون على رقص نجوى فؤاد كما يسمعون القيثار ، ولكن طربهم للعود سيكون أشد وأقوى بطبيعة الحال ..

وتتوقع نجوى أن ينجح العود الجديد ، ونتوقع نحن أن يظهر هذا العود بعد ذلك وراء جميع الراقصات ، ثم تضطر الفرق الموسيقية كلها الى ادخاله بين آلاتها..

ومن يدرى .. فقد يصبح العود بعد وقت قصير « موضة » موسيقية ، أشد سحرا من موضة القيثار .. ويعود ـ بعد طول الغياب ـ الى التخت الفنائى ، ولكن من باب الرقص الشرقى ! ..

فهرس

صفحة

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ــ ص ، ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

« سحر الغناء العربى » هو الكتاب الرابع من مجموعة الكتب التى خصصتها سلسلة « كتاب الهـلال » لسد فراغ واضح فى المكتبة العربية ، يتعلق بالغناء العربى المعـاصر الذى يحتاج الى مؤلفات عديدة تتناول جوانبه المتعددة ، وتربطه بما انحدر اليه من تراث الغناء العربى القديم ، وتتسم بالجدية والشمول والطرافة التى نجدها فى مجموعة الكتب التى بدأها كمـال النجمى بكتابه « الغناء المصرى » الذى صدر عن « كتـاب الهلال » سنة ١٩٦٦ ، وواصلها بكتابه « أصوات وألحان عربية » - سنة ١٩٦٨ - وكتابه « مطربون ومستمعون » - سنة ١٩٧٠ - ثم كتابه « سحر الغنـاء العربى » الذى تجده بين يديك ..

وقد اختار كمال النجمى كلمة « السحر » مضافة الى الغناء العربى ليعبر بها - كما يقول فى مقـدمة الكتاب - « عن التعلق العفوى المتوارث لدى النفس العربية بالغناء العربى وملامحه وتقـاليده وأوضاعه الفنية التى صنعتها وانضجتها عوامل التاريخ العميقة وربطتها بالانسان العربى » .

ان كتاب « سحر الغناء العربى » يضيف به مؤلفه الى كتبه الثلاثة السابقة صفحات جديدة فى هذا المجال القريب الى كل نفس عربية ، ويلقى اضواء جديدة على هذا الفن العربى .. الساحر !..

١٠ قـروش

كتاب الهلال

البيت الإسلامي

مقداد يالجن



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعى

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفنى : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦٢ - شعبان ١٣٩٢ - أكتوبر ١٩٧٢

No. 262 — Octobre 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جنيه استرلينى - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ••

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

مقداد يالجن

البيت الإسلامي

كما ينبغي أن يكون

دار الهلال

اهداء

الى هؤلاء الذين يرغبون فى تكوين بيت اســــلامى سعيد .
وهؤلاء الذين يريدون انقـــــاذ البيت من التفكك والانهيار .
وهؤلاء الذين يرغبون فى أن يصـــنعوا من أولادهم رجال المستقبل .
الى هؤلاء جميعا أهدى هـــذا الـكتاب .

مقدمة

لقد مضت ستة أعوام من عمر هذا الكتاب وكان أول كتاب كتبته ، وقبل اعداده للطبع ترددت فى ذهنى موضوعات رأيتها أهم منه ، فانصرفت اليها ، وشاء الله أن يظهر بعضها .

ولكن بعد أن تخصصت فى الدراسات التربوية والاجتماعية ، ظهرت أهمية هذا الموضوع بصورة ما كنت أدركها بالدرجة التى أدركتها اليوم .

وبالرغم من انشغالى باعداد رسالة لنيل درجة جامعية فان أهمية هذا الموضوع قد ألحت على لاظهاره للوجود .

وبعد أن أضفت اليه ما تجدد فى ذهنى من أفكار ومعلومات متعلقة بهذا الموضوع ورأيت ضرورة اضافتها اليه جاء الكتاب بهذه الصورة التى أقدمها اليوم الى القراء .

واهمية هذا الموضوع تأتى من تعلقه بالمجتمع الاسلامى بأسره من جهة وبكل فرد فيه من جهة أخرى ، أى انه متعلق بمشكلة اجتماعية وفردية أيضا .

ولهذا فاننى لا أخرجه اليوم لطائفة ولا لافراد معينين ، بل أخرجه لكل فرد فى المجتمع الاسلامى : صغيرا كان أم كبيرا ، ذكرا كان أم أنثى .

لان كل فرد من هؤلاء لابد أن يكون له بيت ولا بد من أن ينتسب الى بيت سواء كان أبا أم أما ، ابنا أم بنتا ، وكل له حقوق وعليه واجبات ، فلا بد من أن يعرف ما له وما عليه .

***

ولعل أحوج الناس الى هذا الكتاب هؤلاء الذين يريدون تكوين بيت اسلامى يقوم على دعائم الاسلام وأسسه وهديه ، أو يرغبون تحويله الى بيت اسلامى.

وبعبارة أوضح فانه يخص كل من يرغب فى تكوين بيت سعيد : يسوده الهدوء والاستقرار ، والاطمئنان ويملأه الشعور بالبهجة والسرور والرضى ، وتغمره المحبة والرحمة والوئام ، وتفوح منه رائحة العلم والدين والادب ، ويزينه أنجال كالنجوم يحولون البيت الى رياض لا يسمع فيه الا تغريد هم بلابله ولا يشم فيه الا أريج هم وروده وأزاهره ، ويصبحون كواكب البيت يشع منهم نور الايمان ، ويرشدهم هدى الرحمن ، يخرجون على المجتمع وهم على خلق ودين يعملون باخلاص لهم ولغيرهم ولا يصدر منهم الا الخير ، ولا يعرفون رقيبا على أفعالهم وحركاتهم وسكناتهم الا الله لان رضاءه ، والفوز بالسعادة الدائمة فى الحياة الآخرة هو مجمع همهم فى هذه الحياة الدنيا.

***

وبعد فمن رغب من ذكر أو انثى فى أن يبنى بيتا هذا شانه فعليه ان يسير على ما يرسمه هذا الكتاب من طريق ، وما يوضحه من منهج قد استمد فلسفته وأصوله الفكرية العامة من فلسفة الاسلام فى تكوين الاسرة بوجه خاص ، وتكوين المجتمع بوجه عام .

ولتحقيق هذه الغاية جاء تخطيط الكتاب كالآتى :

ففى الفصل الاول عرضت أهم الاسس التى لابد من اخذها فى الاعتبار الاول فى تكوين البيت .

وفى الفصل الثانى بينت كيفية تنظيم البيت ونظـام الحياة فيه .

وفى الفصل الثالث ذكرت أهم أسس حل مشكلات البيت ، وطرق حمايته من الداخل والخارج .

وأرجو من الله أن يحقق ما رجونا تحقيقه من كتابته وأن يسدد خطانا وأن يجعله خالصا لوجهه .

الفصل الأول

أسس تكوين البيت الإسلامي

تحقيق المطالب الفردية والاجتماعية

يجب أن يضع من يرغب فى تكوين بيت اسلامى — فى اعتباره الاول — ان تكوينه يقام على أســـــاس تحقيق المصالح والمطالب الفردية والاجتماعية معا .

وهــذه النقطة تحمل اهمية كبرى لا يصح اغفالها بأى حـــال من الاحـــوال ، لان البيت كما هو ضرورة فردية فهو كذلك ضرورة اجتماعية أيضا .

أما ضرورته الاجتماعية ، فهى تظهر بوضوح عندما ننظر اليه من الزاوية الاجتماعية باعتبار انه مؤسســـة اجتـــــماعية ، والعش الاول لتكوين أفراد المجتمع والمدرسة الاولى لتربيتهم واعدادهم للحياة الاجتماعية فى أخطر مرحلة من مراحـــل التربية ، واكثر مراحـــل النمو النفسى والعقلى والاجتماعى والجسمى حساسية ، وقد اتفق التربويون على انه لا يمكن الاستغناء عن هذه المدرسة اذا أريد نمو الطفل من جميـــع النواحى نموا سليما ، وذلك بعد أبحاث عديدة أجروها لمعرفة مدى

الفروق فى النمو السليم بين أطفال عاشوا فى ملاجىء الاطفال وفى المؤسسات التربوية وبين أطفال عاشوا فى أحضان الامهات ورعايتهن وشفقة الآباء وعطفهم ، فوجدوا ان معظم الأطفال من النوع الاول قد أصيبوا بالامراض النفسية والاضطرابات العصبية والنقص فى النمو الطبيعى فى ناحية من نواحى النمو أو كلها . كما وجدوا أن أغلب المجرمين والمنحرفين والشواذ من هؤلاء ، وانتهوا الى أنه لكى يكون النمو سليما يجب أن يعيش الطفل بين عاطفة الام الرؤوم ورعايتها وبين اشفاق الوالد الرحيم .

الى جانب هذا فان البيت فى هذه المرحلة يقوم بوظيفة التنشئة الاجتماعية اذ يتشرب الاطفال فيه ايديولوجية المجتمع من العقائد والقيم الاخلاقية والاجتماعية والاتجاهات والافكار السائدة فيه .

والتنشئة على هذا النحو فى هذه المرحلة أسهل من المراحل الاخرى لان الاطفال يتقبلون فيها التلقينات والمعلومات والسلوك من الآباء أكثر وأسرع من المدرسين وغيرهم . كما ان هذه التنشئة فى هذه المرحلة أكثر ثباتا ودواما من غيرها لانها تؤدى الى التنظيم الانفعالى والمعرفى اللذين يتكونان عند الاطفال فى أول مرحلة من حياتهم التى يتفتحون فيها على الحياة وعلى الكون ، فعلى أساس هذا التنظيم يستقبلون الحياة وينظرون اليها والى من حولهم من الناس .

ومن هنا نجد ان الاجتماعيين والتربويين أقروا بضرورة البيت للحياة الاجتماعية وبضرورة التربية فيه بصرف النظر عن اختلافهم فى أصل نشأة البيت فى المجتمعات : هل كان نتيجة التنظيم الدينى كما تخبرنا الاديان السماوية بأنه بدأ من زواج آدم بحواء ، أم انه

جاء نتيجة الخبرة الانسانية فى الحياة بأنه أسلم نظـام لها ، أم انه نظام فطرى فى المجتمع الانسانى أم نظـام تطورى ؟

ولهذا عندما حاولت روسيا التخلص من نظام البيت لتنشئة الاطفال فى المؤسسـات التربوية بأيديولوجيـة معينة اصطدمت بهذه الحقيقة . فتخلت عن خطتهـا وبدأت تهتم بنظام البيت وقالوا نحن ننتظر اليوم الذى تتحسن فيه اقتصـاديات البـلاد وتستغنى المرأة عن العمل فى الخارج وتتفرغ لتربية أولادها ورعايتهم ولا سيما فى المرحلة الاولى من حياتهم (١) .

***

ولعل السبب الذى دعا روسيا الى الموقف السابق المضـــاد للبيت والاسرة هو نفس السبب الذى دعا افلاطون الى القول : « ان الحياة العائلية تهدد وحدة الدولة » (٢) .

وهذا يمكن اذا كانت هناك عقائد تربوية مختلفة من منطقة الى أخرى .

والذى دعا ارسطو الى القول أيضا بأن الشر يبـدأ من المنزل ، حقـا ان الشر يبـدأ من المنزل اذا كانت التربية خاطئة ، ولـكن الخير أيضا يبدأ من المنزل اذا كانت التربية سليمة ، ولـكن لايمكن أن يأتى الخير من وراء هدم البيت .

وخير طريقة هى أن تربى الاطفال فى المرحلة الاولى فى البيوت عن طريق تربية البيوت أى عن طريق تربية الآباء والامهـات والاهتمـام بتنظيـم الاسرة ورعايتهـا

---

(١) التربية المقارنة للدكتور وهيب سمعان ص ٢١١ الطبعة الاولى مكتبة النهضة المصرية .

(٢) التربية المقارنة للدكتور وهيب سمعان ص ٤١ ــ ٤٢ الطبعة الاولى مكتبة النهضة المصرية .

وانقاذها من المشكلات التى تعانى منها .

أما ضرورته الفردية فلها جانبـان :

الاول : انه يحقق مطالب أفراد الاسرة من حيث انه نظام ضرورى لينمو هؤلاء نموا سليما كأفراد انسانيين يشعرون بالروابط الاجتماعية والعلاقات الانسانية .

والثـانى : انه يحقق المطـالب الوالدية والحاجات الاولية لان الوالدية من الدوافع الـكامنة فى نفسيـة الانسان تدفعه الى اشباعها ، ولان الدوافع النفسيـة والحاجات الاولية الاخرى ، لابد من اشباعها .

***

وينبغى الا ننسى ان الوظيفتين الفردية والاجتمـاعية للبيت مرتبطتان أشد الارتباط ، ذلك أن البيت فى أى مجتمع هو أساس هـــذا المجتمع فكما يكون ، يكون المجتمع . وبنـاء المجتمع السليم يبدأ من بنـاء البيت السليم ، فهو بهذه النظرة الخلية الاولى لنشأة المجتمع فلا بد من أن تكون الخليـة الاولى سـليمة لسـلامة ما ينشأ عنها ، أما اذا كانت فاســدة فلا بد من أن يكون ما ينشأ عنها فاسدا .

ثم ان ســعادة الفرد والمجتمع وشــقاءهما مرتبطان كذلك بسعادة الفرد وشقائه ، ذلك ان البيت السعيد يجعل أفراده سعداء فى داخل البيت وخارجه . وهذه الظـاهرة تؤثر فى أعمـــال هؤلاء الافراد وفى علاقاتهم بغيرهم ، فهم يحسنون معاملة غيرهم ويستطيعون اتقان أعمالهم فى ميادين الحياة كلها .

زد على هــذا ان السعادة تضفى على حياة الافراد البهجة وعلى وجوههم البشاشة ، وعلى أنفسهم مزيدا من الطاقة والنشاط ، وكل هذا ضرورة للأفراد والمجتمع

وشرط من شروط انتظام الجماعة وتقدمها من الناحية الاجتماعية والمادية والمعنوية .

وهناك جانب هام فى هـذه الناحيـة وهو ان البيت يمكن أن يكون مصـدر صراع فى داخل الفرد والمجتمع اذا كانت تربية البيت تخالف التربية العامة والتربيـة فى المدارس تخالف التربية فى البيت لانه بذلك يحصل التنـاقض بين حيـاة البيت والحيـاة خارج البيت ، هذا اذا ما أسيىء تنظيم البيت ، والتربية فيه . أما اذا أحسن هذا وذاك فيصبح البيت من الوسائل الهامة للتكيف الاجتماعى .. والتـكيف الاجتمـاعى شرط من شروط السعادة الاجتماعية .

من هذا كله يتبين لنا ان البيت يمكن أن يكون مصدر خير كما يمكن أن يكون مصدر شر ، وعلينا أن نبحث دائما كيف يمكن أن نجعله مصدر خير ومنبع سعادة ومدرسة الجيل المثالى .

وليست عملية بناء البيت بالهدف الاجتماعى المشار اليه عملية غريبة على الاسلام ، بل هى روح الاسلام ، فالاسلام يعتبر المجتمع كشخص واحد وكجسد واحد ، يقول الرسـول صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . فلا بد من ملاحظة الـكيان الاجتماعى عند القيام بأعمال شخصية ولا سيما اذا كانت لها صلة بالمجتمع ، وتكوين البيت له صفة اجتماعية اكثر من صفته الفردية ويؤثر تأثيرا كبيرا ان عاجلا أو آجلا فى الحياة الاجتماعية .

من أجل هـذا كله يجب أن يضع كل من يرغب فى تكوين بيت اسلامى هذا الاساس فى الاعتبـار الاول .

الزواج وأهدافه

لاشك ان الزواج أساس لتكوين البيت فلا يمكن تكوين بيت بدون زواج ولعل هذا من أهم الاسس من هذه الجهة .

واذا كان الاسلام يريد بناء بيت محكم لا يتصدع ولا يتهدم بل يستمر ويقف ثابتا أمام كل العوامل الهدامة ، فلكى يكون الزواج أساسا لمثل هذا البناء ولكى يكون هذا البيت بيتا اسلاميا فلا بد من مراعاة الامور الآتية :

أولا : ان الزواج رباط اجتماعى ، فعن طريق الزواج تتكون الاسرة ، وعن طريقه أيضا تتكون الروابط بين الاسر وبين الاجناس والشعوب ، ولعل الحكمة من زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من قبائل مختلفة هى الربط بين هذه القبائل والتآلف بينها ، وقد أمر الاسلام المسلمين بالتعارف على اختلاف قبائلهم وأجناسهم ، فقال تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

والزواج وسيلة من وسائل التعارف والتآلف والترابط ، ولعل من أهداف الرسول صلى الله عليه

(١) سورة الحجرات ١٣ .

وسلم في أمره بالزواج من غير الاقارب هو هذا الترابط وأخذ هذا في الاعتبار له أهمية اذ انه من عوامــل دوام الرباط الزوجي لان قطع هذا الرباط لبعض الدواعي يؤدي الى قطع الرباط بين الاسرتين أو أكثر .

هــذه الفكرة تجعلهما يتحملان ما يقع بينهما من مشاحنات أو أذى ولا يقدمان على الافتراق مراعاة لما بين الاسرتين من الترابط والتآلف .

وهناك جانب آخر من الرباط وهو ربط الفرد بغيره بزوجه وأولاده ، وهــذا مهم جدا في حيــاة الفرد اذ انه يقضي على شــعور الفرد بالوحدة ويجعله يتحمــل المسئوليات أصــعب وأثقــل ويواجه الحيــاة بشجاعة وبسالة ويزيد احساسه بالسرور ويزيد نشاطه في العمل لانه يشعر في قرارة نفسه بأنه يعمــل لنفسه ولأحب الناس اليه وهم أولاده الذين انفصلوا عن نفسه وعن فلذات قلبه .

والشعور بالوحدة في داخــل المجتمع يقلل نشــاطه وفاعليته وحبه للناس ، وهذا يؤدي بدوره الى الانتحار عند مواجهة الصعوبات والازمات الشديدة في الحياة .

ولهذا كانت نسبة المنتحرين من العزاب أكثر من المتزوجين ، وأرجع العلماء السبب الى ما بيناه .

ولا شــك ان الفرد عنــدما يشعر بالروابط المتينــة والوشائج العظيمة وتراوده فكرة الانتحار عند مواجهة الازمات يشعر انه بذلك لا يقضي على حياته فقط ، بل يقضي على حياة أولاده وزوجته ، وهذا يجعله يتحمل المسئوليات والصعاب ولا يقدم على الإنتحار .

ثانيا : انه يحقق المطالب البيولوجية والسيكولوجية في الفرد .

ان الله خلق هذا الانسان وأودع فيه حاجات أولية ،

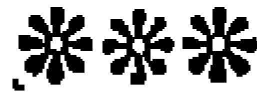
سواء كانت عضوية أو نفسية ، وهى الحاجات التى لابد من اشباعها ، وعدم اشباعها يؤدى الى أضرار تقاس بدرجة ضرورتها . من هذه الحاجات ، الحاجة الى الجنس أو الدافع الجنسي وقوة هذا الدافع كما ذكرها العلماء تأتى فى الدرجة الثالثة بعد الدافع الى الطعام ودافع الامومة ، ويختلف الافراد فى درجة قوة هذا الدافع سواء كان سبب هذا الاختلاف الوراثة أو العوامل البيئية ، وقد يفقد الفرد هذا الدافع كلية أو جزئية ، نتيجة بعض العوامل المرضية .

غير انه من الممكن معالجة هذه الامراض وتلك الحالات . وهناك أمر يتعلق بهذا الموضوع وهو ان بعض الافراد من الجنسين قد يشعر فى نفسه بضعف الدافع الجنسى ويدفعه هذا الى الاعراض عن الزواج ، هذا الاعراض عن الزواج خطأ فى نظر الاسلام لان رسالة الزواج ليست أمرا فرديا فقط كما قلنا ، بل هى أمر اجتماعى أيضا لان الله عندما خلقه خلق مقابلا له من الجنس الآخر فاذا هو استطاع الحياة بدون الزواج فقد لا يستطيع الآخر ، وبالتالى فان عدم زواجه يسبب حرمان الآخر أو وقوعه فى الحرام ، ولهذا شجع الاسلام الزواج واعتبر المعرض عنه معرضا عن سنة الاسلام .

فليس للأفراد حرية فى أن يتصرفوا فى أنفسهم كما يشاءون ...

هذا هو الجانب البيولوجى من الحاجة ، وهناك الجانب السيكولوجى النفسى من الحاجة الى الزواج أيضا ، والجانبان مرتبطان ، فكما ان عدم اشباع هذا الدافع يؤدى من الناحية البيولوجية الى تقليل نشاط الغدد الجنسية التى تؤدى بدورها الى تقليل نشاط

الجسم ، كذلك تؤدي من الناحية السيكولوجية الى بعض الاضطرابات النفسية ، والقلق ، والانحراف عن السواء فى بعض المظاهر السلوكية ، وهذا مرتبط أيضا بالعوامل البيولوجية والبيئية والسيكولوجية .



ويمكن تقليل حدة الشهوة وأثرها عن طريق الابتعاد من الاجواء المثيرة وعدم تناول الاطعمة المقوية لها ، وعن طريق الصوم وتربية النفس الا أنه ليس هناك طريق أسلم من طريق الزواج ، ولهذا قال تعالى وهو يعلم من خلق : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (١) فالسكن النفسى والمودة والرحمة التى يشعر بها الانسان ازاء زوجه تعتبر من الحاجات السيكولوجية التى لا يستغنى الانسان عنها ولا يجدها فى غير الزواج ، هذا السكن ليس هو السكن العقلى ، أى الخلو من المشكلات والمشاغل الذهنية وليس هو السكن المادى أي الاستقرار على شيء مريح ، بل هو سكن روحى وقلبى .. سكن روح الى روح من جنسه وسكن قلب الى قلب من جنسه ، فتصبح الروحان روحا واحدا ، ويصبح القلبان قلبا واحدا .

والمودة هنا ليست من نوع المودة بين الآباء والابناء ، ولا من نوع المودة التى توجد بين الاصدقاء ، وكذلك الرحمة .. هذه الرحمة الخاصة بين الزوجين غيرها بين الناس الآخرين ، انها سر من أسرار الله ، ولهذا كانت آية من آياته يجدها من يفكر فيها ويتدبر ، ومن يتزوج ليجمع الروح بالروح ، لا الجسد بالجسد ، ومن يتزوج ممن يكون قلبها من نوع قلبه وروحها من نوع روحه ،

(١) سورة الروم آية ٢١

يتزوجها باسم الله وغايته اتمام أمر الله وتحقيق حكمته وآياته ، ومن هنا قال بعض علماء النفس ان الاتصال غير الشرعى بين الرجل والمرأة يتم فيه اتصال الجسد بالجسد ولا يتم فيه اتصال الروح بالروح ، لان الزانية تعطى جسدها ، ولا تعطى قلبها وروحها ، ولتتم السعادة لابد من الاتصال الجسمى والروحى معا ولهذا فالاتصال غير الشرعى اتصال ناقص ، بالاضافة الى ما يعتوره من الخوف من العار ومن عدوى الامراض والشعور بالذنب وتأنيب الضمير .

وهكذا نجد ان الزواج أمر فطرى فى الانسان وسنة الاسلام الموافقة لسنة الحياة والكون ، قال تعالى : « الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أحب فطرتى فليستن بسنتى وان من سنتى النكاح » .

وهكذا جاء الاسلام موافقا للفطرة ولسنة الكون ، وهكذا تلتحم سنة الاسلام مع سنة الكون .

ثالثا : ضرورة الزواج للوقاية من الامراض

لقد أقر جميع الإطباء ان هناك أمراضا كثيرة تنتقل وتنتشر عن طريق الاتصال غير الشرعى ، أو بتعبير آخر عن طريق الزنا ، ويخصون انتقال بعض الامراض بالزنا ويسمونها بالامراض الزهرية أو السرية . وبالرغم من تقدم الطب ، ولا سيما فى أكثر الدول تقدما فى الابحاث الطبية فلم يستطع وقاية المجتمع من انتشار مثل هذه الامراض ، فالولايات المتحدة الامريكية مثلا بالرغم من تشديدها الرقابة الطبية على بيوت الدعارة وعلى الموسات ، فهذه الامراض تنتشر فيها ويعانى الاطباء منها ويجدون الصعوبات فى الوقوف أمام انتشارها فى

ضوء القوانين المدنية الخلقية ، لان هذه القوانين تبيح الزنا بوجه من الوجوه أولا ، ثم انها تفرض على المومسات عرض أنفسهن للكشف الطبى مرة فى الاسبوع فقط ، وهناك كشف طبى مفروض على بيوت الدعارة ، ولكن الكشف الطبى لا يتم على أى حال فى كل يوم ، ولو انه تم فى كل يوم مرة فرضا ، فانه لا يتم بعد كل اتصال ..

وهكذا تعجز هذه القوانين ، ويعجز الاطباء عن وقاية الافراد بوجه خاص ، والمجتمع بوجه عام من هذه الامراض القاتلة ، ولكن الاسلام بقوانينه الخلقية الصارمة يمنع أى اتصال غير شرعى ويجعله محرما ، كما يحرم على العفيف الطاهر الزواج من الزانية ، وعلى العفيفة الطاهرة الزواج من الزانى ، فقال تعالى : « الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لاينكحها الا زان أومشرك وحرم ذلك على المؤمنين» (١)

وربما أخالف فى ذلك أكثر العلماء ، الا ان ما لدى من الادلة تدفعنى الى تأييد القول بعدم صحة هذا النكاح ، لان الآية صريحة محكمة وغير منسوخة ، كما يدعى البعض ولأن الزواج من الزانى يؤدى الى انتشار الامراض وانتقال بعضها الى الذرية .. فهذا ليس جريمة فردية فحسب ، بل هو جريمة فردية واجتماعية معا ..

وهكذا ، فالاسلام لا يفتح من البداية طريق انتشار هذه الإمراض الخبيثة ، أما تلك القوانين فتفتح هذا الطريق أولا ، ثم تحاول العلاج بعد ذلك ، فمثلها كمثل من يعرض نفسه للجروح ، ثم يحاول معالجتها ، أما الاسلام فلا يعرض للجروح ، وبالتالي لا يحتاج

(١) سورة النور آية ٣

للعلاج ، وأين حكمة هـذا من ذاك ؟.. فالاول لا يعرض الناس لضربات الطبيعة الغاضبة .. أما الثاني فيعرضهم للأخطار ، ثم يحاول علاج ما قد نجم عن هذه الاخطار أو لا يستطيع .

وهكذا نجد ان رسالة الاسلام تتلاءم مع فطرة الطبيعة لان واضع هذه القوانين الاسلامية يعلم من البداية القوانين الطبيعية : « ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » (١) . وكانت سنة الله أن بدأت الحياة الاجتماعية بالزواج بين آدم وحواء ، قال تعالى : «والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا» (٢)

فالزواج هو القانون الاجتماعي السليم ، ولن يجد الناس بديلا لهذا القانون ، ولهذا قد اتفقت الرسالات السماوية في هذا المبدأ وفي تحريم الاتصال غير الشرعي.

وقد ينظر الشبان والفتيات الى عدم الزواج نظرة الحرية وقد يحبذونه ويجذبهم مبدأ قضاء شهواتهم مع من شاءوا وكيفما أرادوا وفي أي وقت رغبوا ، هذه النظرة قد تبدو لهؤلاء – وهم في عنفوان شبابهم – نظرة سليمة ، وفكرة لامعة ، الا ان الامر عندما يئول الى واقع عملي ، وبعد زوال طيش الشباب ، فانهم يدركون العاقبة الوخيمة ويدركون جيدا أنه ليس هناك فكرة أكثر فتكا بكيان الفرد والمجتمع من هذه الفكرة .

ذلك انهم عندما ينساقون وراء هذه الفكرة ، وهذا المبدأ ، فانهم عند ذلك لن يجدوا حدودا لقضاء شهواتهم من ناحية ، ولن يجدوا الاطمئنان النفسي من ناحية أخرى ، ولن يستطيعوا أن يحتفظوا بصحتهم من ناحية ثالثة ، لان الشهوة طاقة للانسان ، فاذا زالت الحواجز والضوابط لها تتبدد هذه الطاقة وتتلاشى .

(١) سورة الملك (٢) سورة فاطر ١١

والانسان اذا تجرد من الضوابط والقيم المحافظة لن يستطيع أن يقف أمام شهوته الدافعة ، فكل امرأة يراها ويعجب بها يحاول قضاء وطره فيها ، واذا هي لم ترغب فيه يجد الكآبة في نفسه لانه لم يستطع تحقيق غرضه واشباع دافعه ، واذا تحقق مطلبه في كل مرة فانه يبدد قواه ويفقد صحته ثم يفقد ارادته والسيطرة أمام رغباته وشهواته الطاغية ، وبالاضافة الى هذا يصبح همه وهم أمثاله السعي وراء النساء ، يلهثون وراءهن في الشوارع كالكلاب ، وقد تفعل النساء مثل ذلك ، وهكذا سيبحث كل واحد عن ليلاه . والتي يعتبرها ليلاه قد لاتقبل أن تكون ليلاه والعكس صحيح وهكذا دواليك .

وبذلك يضيع السمو الروحي والاهتمامات اللائقة بالانسانية فيضيع العمل الجاد المخلص من اجل المجتمع ومن أجل الوطن ، ومن أجل الانسانية جمعاء ، فتختفي الجوانب الرفيعة من الحياة وتتحول الحياة الى حياة فتنة والى وباء مستفحل والى ظلام دامس يقعون فيه ثم يحاولون الخروج فلا يستطيعون .

وقد يظن البعض انني بذلك مبالغ في الوصف ، غير انني أقول ان ما كتبته هنا لايساوي معشار ما كتبه كبار الاطباء والاجتماعيون في الغرب عن مضار الزنا وآثاره وتحول الناس عن الزواج الطاهر وحياة البيت السليمة .

واني ما اختبرت من هؤلاء الدين سلكوا هذا الطريق الخاطىء الا ورأيتهم نادمين على فعلتهم وغير راضين عن سلوكهم ، يحسب الرائي من بعيد أنهم في سعادة ولكن في الحقيقة ظاهرهم سعيد وباطنهم جحيم .

ولهذا فلا نكون متعصبين للاسلام اذا قلنا انه خير

دين جاء بقوانين ناجعة فى هذا المجـــال ، اذ جاء بنظام يحتفظ الناس فيه بصحتهم البيولوجية والسيكولوجية ، فلا يبـددون طـاقتهم لانه منع من الافتتان وحرم الزنا وأباح الزواج ، والزواج لا يبدد الطاقة لانه ليس هناك مثيرات فاتنة ، يلقاها الانسان كل يوم .. ثم انه وجـه الانسانية الى الحياة الرفيعة والسمو والعمـــل من اجل الناس ومن أجل الدين ومن أجل الآخرة .

ولهذا كان الاســلام نورا أمام الناس ونهجا سليما للحياة الفردية والاجتماعية وصدق الله العظيم اذ يقول : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (١) .

رابعا : الاستمتاع

والزواج فى نظر الاسلام ليس كله تكاليف وانما الى جانب التكاليف فيه متعــة ، فالغنم بالغرم مبدأ من مبادىء الاسلام والامل فى التمتع يدفع الانســان دائما الى النشاط والاستمرار فى العمل وتحمل المسئوليات

والانسان بحاجة الى التمتع فى الحياة ، أحيانا تكون الحاجة اليه جسمية ، وأخرى نفسية ، وثالثة روحية ولانه يرفه عن الانسان ويسرى عنه .

ولهذا أباح الاسلام التمتع فى جميع مناحى الحيــاة ولكن فى حدود الحـــلال أو التمتع الطيب لا الخبيث منه ، فقال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبــاده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٢) وقال الرســـول صلى الله عليه وسلم : « الدنيا متاع ، وخير متاعهــا المرأة الصالحة » (٣) .

---

(١) الانعام ١٢٢ (٢) الاعراف ٣٢

(٣) رواه النسائى ومسلم

خامسا : انجاب الاولاد

هناك غرضان هامان من الانجاب ، الاول تحقيق حاجة فى نفس الفرد ، فالانسان يحب أن يرى صورة نفسه فى ولده ويرغب أن يخلفه فى الارض يرثه ويأكل ثمار أتعابه ، فمن هنا كانت الاولاد زينة ، كما ان المال والجاه زينة ، قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا (١) • والتمتع بزينة الدنيا مباح كما قلنا طالما كنا نؤدى حق الله وحق العباد •

والفرض الثانى ، هو الحفاظ على النوع الانسانى ، ولتعمير الارض واستمرار الامة ودوامها ، فان الله خلق هذه الدنيا وخلق الناس وأمر بالزواج لتدوم هذه الحياة على نحو ما ويعيش الناس على نمط من الحياة الاجتماعية فلم يرد أن يعيش الناس كالحيوانات مثلا.

ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا فانى اباهى بكم الامم يوم القيامة » .

فالتناسل أمر دينى ومبدأ اسلامى لتدوم أمة محمد عليه الصلاة والسلام وتستمر الى قيام الساعة .

سادسا : تطبيق مبدأ دينى

من أجل كل ما سبق جعل الاسلام الزواج مبدأ من مبادئه وجزءا من شريعته . فمن عدل عن الزواج وتركه فقد ترك جزءا من الدين ، ولهذا دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الشباب الى الزواج ، فقال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » (٢) •

---

(١) الكهف ٤٦

(٢) رواه مسلم فى صحيحه الجزء التاسع ص ١٧٣ المطبعة المصرية ومكتبتها .

ولقد حدد الرسول فى هــذا الحديث الغاية الدينية من الزواج فى هدفين .. الاول : انه يجعل الناس يغضون أبصارهم عن النظر الى المحرمات .

والثانى : انه وســـيلة لحفظ الناس من الوقوع فى الزنا .

غير ان الاسلام اذا كان قد شجع على الزواج فليس ذلك على الاطلاق بل انه مقيد بشرط توفر الامكانيــات للقيام بأعباء الزواج وقد عبر الرســـول صلى الله عليه وسلم ، عن هذه الامكانية بالباءة ، وهي الكفاية للقيام بالمسئوليات الزوجيــة ، ومن لم تتوفر عنــده هـــذه الـكفاية فليس مطالبا دينيا بالزواج ولا يكون مسئولا عن عدوله عنه ، ولهذا قال الرســـول صلى الله عليه وسلم ما معناه : من كان مستطيعا لان يتزوج ثم لم يتزوج فليس منى . بل ان الاقدام على الزواج بدون توفر الشرط لا يجوز ، وقد نتج عن زواج هؤلاء الذين لا يملــكون هـــــذه الـكفاءة مشكلات اجتماعية فلم يضروا انفسهم فقط ، بل أضروا أولادهم ومجتمعهم ، وزوجاتهم أيضا . فكم نرى من أولاد هؤلاء هائمين على وجوههم فى الشـــوارع لا يجدون مأكلا ولا ملجأ ، ثم يخرجون عالة على المجتمع أو مجرمين .

ولهذا فقد أمر الله هؤلاء بالاستعفاف وعدم الزواج ، فقال تعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » (١)

وهنا تحدث مشكلة عند عدم وجود المال وهى ماذا يفعل الشاب فى عنفوان شـــبابه ؟ وقد قلنا أن عدم اشـــباع هذا الدافع يضره فاذا منعناه من اشباعه يحصل عنده كبت وهذا ضار واذا أبيح من غير زواج فهذا ممنوع

(١) سورة النور آية ٣٣

فى الاسلام ٠لننظر الى الاسلام ، كيف حل هذه المشكلة؟ وسنجد انه قد حلها بثلاثة طرق :

الطريق الاول : الصوم ، فالصوم يقلل وطأة الشهوة ويضعف دافعها ، وقد يزول هذا الدافع مدة الصوم وبذلك لا تبقى هناك مشكلة لان المشكلة تحدث عندما يرغب الانسان فى الوصول الى هدف ويحول بينه عائق يعجز عن ازالته ، وبذلك لا يحدث عنده أى صراع نفسى

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فالصوم له ايحاء ذاتى لان الصائم يشعر بأنه يتعبد الله ويرضى خالقه وانه سيدبر له ما يحقق رغبته وانه ان لم يتزوج فى هذه الحياة فانه سيتمتع فى الآخرة بما هو خير وأبقى، وما دام الانسان يشعر بأن مشكلته ستحل عاجلا أو آجلا فانها لا تسبب امراضا نفسية ، وبذلك فالصوم يحل المشكلة من الناحية العضوية والنفسية معا .

والطريق الثانى : هو الاستعفاف ، وهو كف النَفس عن ارتكاب جريمة الزنا .. ويقول علماء النفس ، ان ترك اشباع الدافع الجنسى خوفا من السلطة يؤدى الى الكبت ، اما اذا كان بسبب الاستعلاء ، أى عن طريق النظرة اليه على انه امر قبيح لا يليق به وانه ضار بالصحة ، فهذا لا يضر لانه فى هذه الحالة لم تبق مشكلة نفسية ، ولهذا ربط الاسلام الاستعفاف بالعقيدة من جهة ، وبالاستعلاء من جهة أخرى ، فقد وصف الزنا بالفاحشة . قال تعالى : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » (١) وهذا الحل من الناحية النفسية لا من الناحية العملية ، وقد يعترض هنا ان العفاف يقلل النشاط الجنسي وتقول

(١) سورة النساء ٢٢

ليس فى ذلك ضرر ، اذ انه سيعود الى وضعه الطبيعى بعد الزواج .

الطريق الثالث : أمر أوليـــاء الامور بتيسير تزويج بناتهم وابنائهم ان كانوا فقراء لايستطيعون الانفاق .. قال تعالى : « وأنكحوا الايامى (١) منكم والصالحين من عبادكم وامائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضــله والله واسع عليم» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذا خطب اليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه » وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الاداء ، والناكح الذى يريد العفاف » .

وقال الفقهـــاء ان لم يعن أولياء الامور على تزويج هؤلاء العاجزين عن المال فعلى بيت المال أن ينفق عليهم ويزوجهم ، لان الزواج كما قلنا ضرورة فردية واجتماعية فلا ينبغى اهماله .

وعلى المجتمع أن يساعد الفقراء حتى لا يبقوا بدون الزواج حتى لا يكون ذلك سببا لانتشار الزنا وبالتالى لانتشار الامراض .

فالزواج كما هو ضرورة اجتماعيــة فهو كذلك من واجبات المجتمع نحو أفراده .

---

(١) الايم من طالت عزوبته من الجنسين

اختيار الزوجة الصالحة

هذا الاساس يعتبر من اهم الاسس فى بناء البيت ، لان أغلب مشكلات البيت ناتجة عن سوء الاختيار ، ولا يقتصر أثر هـذه المشكلات على الجو العائلى فى البيت فقط ، بل يتعداه الى المجتمع أيضا .

ولان سعادة البيت تتوقف كذلك على حسن اختيار الزوجة ، فاذا كان المرء موفقا فى الاختيار كان موفقـا أيضا فى بناء البيت ، فاننا نستطيع قياس مدى نجاح البيت بمدى التوفيق فى الاختيار .

ولهذا كله فان الاختيـــار يستحق كل العنـاية والاهتمام ، وكيف لا ، وهى التى ستكون قرينتـه مدى الحياة ، وجليسته فى الليـل والنهار ، وخازنة أسراره ، والامينة على شئون داره وصانعة أولاده ، ومربيـــة أنجاله ، فاذا نجحت فى تربيتهم نجحوا فى حياتهم ، ولذلك اثر كبير فى حياة البيت بوجه خاص وحياة المجتمع بوجه عام وليس نجاح الاولاد وحـدهم متوقفا على الزوجة ، بل نجاح الرجل فى الحياة متوقف عليها أيضا ، ومن هنا قيل المثل المشهور : « وراء كل عظيم أمرأة » واذا صح هذا التعبير فانه يصح أيضـا أن نقول : « ووراء كل فاشل امرأة » لانها قد تكون طاقة للرجل وقوة موجهة له ، وقد تكون عائقا كئودا أو منبع مشاكل تبدد قواه .

والمرأة يمكن أن تحـــول البيت الى جنة ، كما يمكن أن تحوله الى جحيم لا يطــاق ، فالــكلمة الطيبـــة والابتسامة الساحرة منها فى وجه الرجــل عند عودته من العمل وهو مرهق تزيلان عن وجهه عبوس التعب وعن نفسه كآبة الارهاق ، كما تضيف الكلمة الخبيثة والنظرة العابسة منها التعب على التعب والــكآبة على الــكآبة ، وعند المشكلات فانها يمكن أن تجعله يشعر وكأنه ليس هناك مشكلات أمامه وتحلها معه ويمكن أن تخلق مشكلة على مشكلة أو تعقدها وتزيد من ضراوتها .

ولهذا فان اختيار الزوجة يعتبر مشكلة أمام الشبان ولان هناك عوامل متشابكة ومعقدة تدخــل فى عمليــة الاختيار فهناك عوامل نفسية وثقافية ودينية واجتماعية تتحكم فى أهداف الانسان فى الحياة ورغباته واتجاهاته وميوله واهتماماته فيها وبالتالى تتحكم وتتــدخل فى عملية الاختيار .

ثم ان هناك مشكلات من نوع آخر ، وهى مشــكلة طريقة الاختيار وطريقة فهم كل من الطرفين للآخر ، وأخيرا هناك المعايير العامة والخاصة والصــــــفات الاساسية والثانوية ، وهـــذه الامور تختلف من فرد الى آخر وهكذا .

وفيما يلى نذكر أهم المعايير العــامة التى ينبغى أن يختار المرء زوجه على ضوئها :

الانسجام الروحى :

الانسجام الروحى عملية سيكولوجيــة صرفة ، ذلك ان الانسان عندما يرى فتاة فى أول مرة اما أن يتقبلهــا فى قلبه أو يرفضها ، وذلك قبــل أن يختبرها ويعرف اخبارها .

ولعل هذا هو ما قصده الرسول صلى الله عليه وسلم من قوله : « الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » (١)

فالارواح الطيبة تنسجم مع الارواح الطيبة والارواح الخبيثة تنسجم مع الارواح الخبيثة .. قال تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » (٢) .

وليس هذا مقصورا على ما بين الرجل والمرأة ، بل يكون أيضا بين الرجل والرجل ، والمرأة والمرأة ، وكل منا يدرك هذه الحقيقة فى معاشرته للناس ، فنحن لا نجالس ولا نصاحب الناس عادة الا الذين نستريح اليهم روحيا ولا نختار الاصدقاء الا منهم .

وهذا الشرط وان لم يكن كل شيء فى الحياة الزوجية الا انه لا يمكن أن تكون هذه الحياة مليئة بالبهجة والسرور والسعادة ما لم يتحقق هذا الشرط ، وكما أن الحياة لا تكتمل بدون الزواج ، كذلك لا تكتمل الحياة الزوجية بدون الانسجام الروحى بين الطرفين واتحاد القلوب بينهما .

وينبغى أن يعلم الناس ان الزواج الروحي أكثر بهجة من الزواج الحسى لان الاول لذته مستمرة وسعادته دائمة ، والثانى سعادته وقتية تزول بزوال الاتصال الحسى ، ولهذا فالمظهر ليس هو الاساس ، بل المخبر هو الاساس ، والافضل هو اجتماع الامرين معا ان أمكن ذلك .

---

(١) رياض الصالحين ـ باب زيارة أهل الخير ومجالستهم
وصحيح المسلم ج ١٦ ص ١٥٨
(٢) سورة النور آية ٢٦

الاتفاق فى الايديولوجية :

ويشمل الاتفاق فى العقيدة والقيم والاتجاهات والميول والافكار الاساسية والنظرة الى الحياة بوجه عام .

وينبغى أن يعرف من البداية ان الاتفاق فى جميع الجزئيات والتفاصيل والاذواق والاحساسات ليس من الضرورى ، بل انه لايمكن أن يوجد لأنه من المستحيل أن يوجد شخصان من صورة واحدة فلا يتفق التوأمان من خلية واحدة فى كل الامور ، فكيف يتفق الجنسان من خلايا مختلفة وعاشا فى بيئات وفى أجواء عائلية مختلفة .

وانما كل ما أريده هنا انه لابد من الاتفاق فى الأمور الاساسية السابقة بوجه عام ، أى الاتفاق فى الجوانب الهامة التى تلعب الدور الرئيسى فى توجيه الحياة وجهة معينة ، وفى تربية الابناء تربية خاصة ، اذ لابد من الاتفاق فى التدين مثلا ، لانه يؤثر فى حياة البيت ، والاختلاف فيه يؤدى الى الاختلاف فى هذه الحياة ، والاختلاف فيها لابد من أن يؤدى يوما الى التفرقة وان لم يؤد الى التفرقة فلا يكون هناك توافق وانسجام على الاقل .

واذا لم يكن هناك توافق وتكيف وانسجام روحى ونفسى فى الحياة فلا يكون ثمة معنى للحياة بوجه عام ، وللحياة الزوجية بوجه خاص .

الاتفاق على نوع الحياة :

اذا كان الاتفاق فى الايدلوجية يشمل الاتفاق فى الجوانب العقلية والروحية والنفسية من الحياة ، فان الاتفاق على نوع الحياة يشمل الاتفاق على الجوانب المادية أو الحسية من الحياة أو مظاهر الحياة بوجه عام .

وهـــذه الجوانب مهمة أيضا كالجوانب الاولى لان الاتفـاق أو الاختـلاف هنـا يؤدى الى ما يؤدى اليه الاختلاف والاتفاق هناك .

وربما تكون الحاجة الى الاتفاق هنا أكثر ضرورة فيمـا اذا كان هناك اختـلاف كبير بين الاسرتين ، فلو كانت الفتاة مثلا من أسرة أرستقراطيــة ، والفتى من أسرة فقيرة فانتقال الفتاة فى هذه الحالة ، من حيـاة الرفاهية والنعمة الواسعة الى حياة ضنكة ضيقة ونعمة قليلة ، هذا الانتقال التنازلى من الاعلى الى الادنى يكون صعبا على النفس وربما لا تطيق هذه الحياة الضيقة المحـــرومة ولا تتحملها ، وان تحملتها يوما أو يومين ، فلا تستطيع تحملها أياما وسنين طويلة ، أما اذا وافقت مبدئيا على أن تعيش معه فى السراء والضراء ، ففى هذه الحالة تعد نفسها للتكيف معه حتى فى أسوأ الحالات ، وهذا الاعداد والاســـتعداد يخلقان قوة التحمـــل والمواجهـة لمصاعب الحياة ، ثم انه لا يكون لها حق الاعتراض على ما تجد من النفقة القليلة لانها وافقت على هذا وأبدت استعدادها من البداية .

ولــكن المــال أيضا ليس دائما وسيلة هامة لدوام الحياة الزوجية وسعادتها ، فكم من الفتيـات انتقلت من بيت غنى الى بيت فقير ، وسعدت فى حياتها وعاشت راضية مرضية ، وكم من فتـــــاة انتقلت من الحياة المعدومة الى حياة رفاهية ناعمة ولم تستطع ان تحيــا فيها ، فحياة الزوجة هى زوجها لا ماله ولا جاهه .

على اى حال فالاتفاق مهم لابد منه تجنبا لنزاع قد يحصل وحلا لمشكلات قد تنشأ .

هذا من جهــة ، ومن جهــة أخرى قد تكون الحالة الاقتصـــادية للطرفين فى مستوى واحد ، الا انهما

يختلفان فى نوع الحياة ، فقد يرغب أحدهما فى حياة اللهو واللعب ، ويرغب الآخر فى حياة هادئة وجادة ، وقد يرغب أحدهما فى حياة مقفلة ، والآخر فى حياة مفتوحة ، وقد يرغب أحدهما فى حياة علمية ، والآخر لا يؤمن بها . فلابد من أن يتفقا على نوع الحياة ايا كان هذا الاتفاق ، وهذا أفضل ، أو بالاستعداد للاتفاق ، ولو أدى ذلك الى تعديل بعض الرغبات أو كلها ، فالاستعداد للتفاهم والاتفاق يؤدى غالبا الى الاتفاق والتفاهم فى الحياة .

ويدخل فى نطاق هذا التوافق ، التوافق الزوجى أو التكيف الجنسى .

غير ان الاتفاق على هذه النقطة من أصعب النقط ذلك ان الحديث فيها صعب على الجانبين ، ولا سيما فى هذه المرحلة ، ثم انه لا يدرى أحد هل سيتم التكيف أم لا .. لان وراء هذه الحقيقة ستارا لا يستطيعون استكشافه فعلا الا بعد رفع هذا الستار ، فمن هنا تلعب الصدفة دورا كبيرا فى هذه الناحية .

غير انه لا ينبغى أن نترك الامر كله للصدفة ، اذ من الممكن أن نستكشف بعض ملامح هذه الحقيقة أو تتنبأ بها الى حد كبير ببعض الوسائل ونساعد فى عملية التكيف بها .

من هذه الوسائل استكشاف مدى قوة الدافع الجنسى عند الفتاة عن طريق مظاهرها التى تبينها لنا بعض الدراسات ، غير انه لا ينبغى الاعتماد عليها كلية أيضا .

ومن هذه الوسائل ، التقارب فى السن .

فالمتخصصون الذين يكتبون لنا فى هذه النقطة لايتفقون فى تحديد سن معينة وان كادوا أن يتفقوا فى

شيء واحد ، وهو أن تكون المرأة أصـغر من الرجـل لان الرجل يحتفظ بنشاطه حتى فى المراحل المتـأخرة من عمره ولا سيما اذا كان محتفظا بصحته كما تستمر قدرته على الانجاب حتى فى شيخوخته ، أما المرأة فلا تنجب عادة بعد الاربعينات ، كما يقل نشـاطها بسرعة بعد هذه المرحلة .

أما الفارق الـكبير اذا كان الرجل مثلا فى منزلة الاب أو اذا كانت المرأة فى منزلة الام ، فهذا مما لاشك فيه يؤدى الى عدم التكيف ، وعدم التكيف هنا ، لابد من أن يؤدى الى أحد الامرين .. اما الى التفرقة ، وهو الغالب والاكثر ، واما الى عدم الانسجام والسـعادة الزوجية ، وهو أمر محتم .

الوسيلة الثانية : الاتفاق فى قيمة موضوع الجنس وفى الاهتمام به أو عدمه .

فهناك من النـاس من يقول انه كل شيء فى الحيـاة الزوجية ، ومنهم من يقول انه لا شيء ، والثالث يقول انه ليس كل شيء ، فلا شك ان الاول مبالغ ، والثانى فاقد لهذا الدافع ، والثالث هو المعتدل ، على أى حـال لايهمنا قول هـذا وذاك بقدر ما يهمنا أن يتفق الطرفان فى مدى الاهتمام بهذا الموضوع مبدئيا لان الاهتمامات تدفع الى الافعال والتطبيقات ، فاذا اهتم أحدهما به بكثرة ، واهتم به الآخر بقلة ، فلا شك انه عندما يطلبه المهتم بكثرة لا يسـتجيب له المهتم بقلة ، عنـد ذلك يحصل الخلاف والنزاع والصراع النفسى .

وسواء كانت قلة الاهتمام ناتجة عن قلة الدافع أو عن كثرة الاهتمام بموضوعات الحياة الاخرى ، فانه على أى حال يؤدى الى عدم التكيف اذا لم يكن هناك اتفاق

وينـبغى ان يعلم هؤلاء الذين يجعلون الجنس كل

هدفهم من الحياة الزوجية ، أنه بالاضافة الى عدم اتفاق هذه النظرة مع نظرة الاسلام الى الزواج وأهدافه منه ، فسوف تؤدى الى الفشل فى الحياة الزوجية فى النهاية ولو اتفقوا مبدئيا فيها ، لانها مخالفة للحقيقة ، والمخالفة للحقيقة لا تدوم بدوام الحقيقة ، فقد روى احد الكتاب قصة امرأة كانت تعيش مع زوجها هادئة وكانت علاقتها معه عادية حتى اذا ما قرأت يوما كتابا من كتب هؤلاء الذين يبالغون فى هذا الموضوع ويرسمون الطرق للوصول الى قمة السعادة ، بدأت تهتم بهذا الموضوع اهتماما كبيرا ، وبدأت تحاول تطبيق طرقهم للوصول الى قمة السعادة ، حتى نشأ النزاع بينهما ، وأدى الى التفرقة والحرمان من كل السعادة ، وهكذا ينقل هؤلاء الناس من حياتهم المطمئنة باسم قمة السعادة الى قمة الشقاء .

الوسيلة الثالثة : عدم اختيار المريضة

ويمكن تقسيم الامراض المتعلقة بهذا الموضوع الى قسمين :

الاول : الامراض المستعصية والمخلة بالحياة الزوجية ، وهذه الامراض قد تكون وراثية فى أسرة الفتاة فيجب الابتعاد عن مثل هذه الفتاة ، وقد تكون غير وراثية ، الا أنها أصبحت مستعصية على العلاج ، هذه الامراض تخل بالحياة الزوجية وتؤدى الى عدم التكيف فيها ، ولهذا يجب الابتعاد عن فتاة مصابة بأحد هذه الامراض

القسم الثانى : من الامراض ما لايسمى بالامراض بمعنى الكلمة ، وانما هى عبارة عن حالات عرضية تكون سببا لعدم التكيف مثل بعض الامراض النفسية ، ومثل ضعف الصحة الناتج عن قلة الاغذية اللازمة ،

ومثل البرود الجنسى الذى ينشأ اما عن حالات نفسية أو عن حالات بيولوجية ، هذا القسم من الامراض يمكن معالجته ، وقد تمكن علمـاء النفس من علاج كثير من الامراض النفسية ، ولا سيما الامراض المتعلقة بهذا الموضوع ، كما تمكن الاطباء من معالجة الامراض الاخرى

والذى أريد أن أنبه اليه هنا انه يحصل هناك أحيانا بعد الزواج مباشرة عدم التكيف لسبب من هـذه الاسباب قد توجد عند أحد الطرفين أو كليهما ، فى هذه الحالة لا ينبغى أن يقدم الزوج على الافتراق لمجرد احساسه بعدم التكيف ، اذ ان هذه الحالات يمكن معالجتها كما قلنا ، فيجب أن يسرع الى الطبيب قبل أن يسرع الى الافتراق أو الطلاق .

وأخيرا ينبغى أن يعلم الزوجان شيئا هاما ، وهو انه كلما اتسعت مجالات الاتفاق زادت القدرة على التكيف ، وزادت رقعة السعادة الزوجية ، ولا سبيل الى هـذا الا اختيار شريكة للحياة تتفق معهـا فى أوسع مجالات الحياة المستقبلة لان الاستعداد للشىء كثيرا ما يخلق هذا الشىء اذا صحت النية والعزيمة وصدقهما العمل المخلص .

معرفة كل من الطرفين للآخر معرفة جيدة :

وهـذا مهم جـدا لانه عندما يعرفها معرفة جيـدة يستطيع أن يقرر مصير الحياة الزوجيـة الى حد ما ، فاذا قبلها مع ما فيهـا من صـفات ، فمعنى ذلك انه مستعد لتحملها وتقبل ما يقع منها من سلوك أو يتحمله على الاقل ، وينبغى ألا يخفى كل منهما طبيعته وما فيه من رغبات وميول وأهداف لان الذى يخفى ما عنـده فى هذه الحالة ويظن انه يخدع صـاحبه ، انما يخدع نفسه لانه قد يجد بعد الزواج صفة من هذه الصفات

التى أخفاها ، لا يمكن تحملها ،وبالتالى يؤدى الى التفرقة . وهنا لابد من التمييز بين الصفات الاساسية والصفات الثانوية أو الشروط الضرورية وغير الضرورية بالدرجة الاولى .

فالاولى هى عبارة عن صفات لابد منها لدوام الحياة الزوجية أو الصفات التى يجب ألا توجد أبدا والتى لايمكن استمرار الحياة معوجودها بأى حال من الاحوال.

والثانية هى الصفات التى يستحسن أن توجد أو الا توجد ، وتمكن الحياة بوجودها أو عدم وجودها مع الضيق أو مع شىء من التحمل والصبر .

وهذه الصفات تختلف من شخص الى آخر ، وليس هذا بمهم ، ولكن المهم أن يعرف كل صفاتها ، وأن يعرف ماهو أساسى منها وما هو ثانوى فى عملية الاختيار

ولكن ليس معنى ذلك انه لا توجد صفات مرغوبة وأساسية مشتركة بين الناس جميعا ، فهناك قيم مشتركة بين الناس ولا يمكن أن تستقيم الحياة لا فى البيت ولا فى المجتمع بدونها ، مثل الصدق واحترام الامانة والعهود ، واحترام الحقوق والمشاعر الانسانية ، فكيف يعيش الانسان طول الحياة مع الكذابة الخادعة الفاحشة التى لا تراعى ذمة ولا عهدا ولا شعورا للانسان الى آخر هذه الصفات ، وكيف يحيا الانسان اذا كان شريكه مصابا بالامراض الخبيثة والمستعصية مثلا ؟..

اذن ، فمن مفاتيح كشف حقيقة الآخر ، المفتاح الخلقى ، فاذا عرفنا معاملة الشخص الآخر ومدى ما يتصف به من أخلاق حميدة أو رديئة نستطيع أن نتنبأ بما تكون عليه أخلاقه معنا فى المستقبل ، فاذا رأيت انسانا يكذب فى مجالات حياته المختلفة فلا تقترب منه ، لان الذى يكذب هناك يكذب هنا أيضا ، والذى

يخدع الناس يخدعك أيضا ، والذى يسيء الى الناس يسيء اليك يوما ما ، فمهما ربطت بينكما الروابط ، فسيىء الاخلاق هنا سيىء الاخلاق فى كل مكان وفى كل زمان ، فالاخلاق السيئة كالرائحة الكريهة تفوح منه أينما ذهب وحيثما حل ، والاخلاق الحسنة كالمسك ، تفوح منه الرائحة العطرة أينما كان ، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما دعى الى مصاحبة الصالحين : « انما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء ، كحامل المسك ، ونافخ الكير (١) فحامل المسك اما أن يحزيك ، واما أن تبتاع منه ، واما ان تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك واما أن تجد منه ريحا خبيثة » (٢) .

وأخيرا ينبغى أن يلاحظ انه قلما يجد الانسان الشخص الذى يتحلى بجميع الصفات التى يرغب فيها لان الانسان المثالى يكاد أن يكون وجوده مستحيلا ، فالكمال المطلق صفة الخالق لا صفة المخلوق . .

كما ان كلّ شاب يبحث عن الفتاة المثالية التى يتخيلها ، ولكن قلما يجدها ، ولهذا فينبغى ألا نبحث عن الفتاة المثالية من الدرجة الاولى ، وانما ينبغى أن نبحث عن الفتاة التى تتمتع باستعدادها للتكامل ، والاتصاف بالصفات المثالية التى ترغب فيها والاستعداد لتغيير صفاتها غير المرغوبة ، وعاداتها غير السليمة ، فالاستعداد للتكامل والتفاهم يؤدى الى التكامل والتفاهم وينبغى أن يبحث كل من الشريكين عن الطريقة التى يستطيع بها تحقيق رغبات صاحبه بالصورة التى

(١) الكير جهاز النفخ للنار يستعمله الحدادون
(٢) التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — عيسى الباب الحلبى جـ ٥ ص ٨٣

يريدها صاحبه لا كما يريدها هو ، وهـــذا يقتضى التضحية ببعض المصالح الشخصية ، وهذا ما لابد منه فى الحياة الزوجية لان التضحية من عوامـــل نيل رضى الطرف الآخر .

وكل من الطرفين ينبغي أن يحاول أن ينــال رضى صاحبه وادخال السرور فى نفسه وأن ينسى تضحياته وجهوده فى سبيل الحياة الزوجيــة السعيدة ، ولان كلا منهما عندما يرى الآخر يضحى من أجله يزيد حبه له ، وكلما زاد حب كل منهما للآخر زادت بهجة حياتهما وسعادتهما ، اذ ان أساس السعادة هو المحبة وأساس المحبة هو الشعور بالرضى والتقبــل لكل شيىء وأن يهنأ المرء بالعطاء كما يهنأ بالاخذ ، فالمحبة تسهل الصعاب والعمل النابع من القلب لا يترك أثرا للتعب فى النفس .

هذا ولقد بين الاسلام صفات الزوجة الصالحة التى ينبغى أن تختار لبناء البيت الاسلامى .

فأول هذه الصفات أن تكون مسلمة :

وان كان الزواج جائزا بالـكتابيــــة ، الا انه غير مستحسن ، وقد كرهه العلماء ما دام هناك مسلمة ، لان الـكتابية خطر على عقيدة الطفل وتربيته فى المستقبل اذ لا يؤمن جانبها فى تغيير وتبديل دين ولدها اذا اتيحت لها الفرصة يوما ما ، ولا أمل فى سعادة البيت ما دام فيه أب مسلم وأم غير مسلمة ، وكيف تجتمع عقيـــدتان متغايرتان فى فراش واحــــد ، ولا يؤدى الى النزاع والخلاف ، وأما غير الـكتابية التى لا تؤمن بأى رسالة من الرسالات السماوية أو لا تدين بها فلا يجوز نكاحها بالاجماع لقوله تعــالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خــير من مشركة ولو أعجبتكم ولا

تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » (١) ، وفى آية أخرى : « لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن » (٢) لانها تود أن تنتشر عقيدتها وعاداتها فى البيت وهى تخالف عقيدة الاسلام وتعاليمه كليا وجزئيا ، والزوج يريد تربية أبنـــائه بالتربية الاسلامية عند ذلك يحصل الخلاف وتتضـارب الآراء والاتجاهات وهذا بدوره يؤدى الى فساد حياة البيت.

الثانية : ألا تكون من القريبات المحرمات من ذوى الارحام

وقد ذكرت الآية اللاتى لا يجوز نكاحهن ، قال تعالى : « حرمت عليكم أمهـاتكم وبنـاتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنـات الاخ وبنـات الاخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضـاعة وأمهـات نسائـكم وربائبـكم اللاتى فى حجوركم من نسـائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما » (٣) .

الثالثة : الا تكون مخطوبة للغير :

فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم ــ الرجل عن ان يخطب على خطبة أخيه ، فقال ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ ونهى النبى أن يبيع بعضكم على بيع بعض ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يتركها الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب ، وهذا مما تجب مراعاته لانه يثير الفتن والاحقاد بين المسلمين .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢١ (٣) سورة النساء آية ٢٣

(٢) سورة الممتحنة اية ١٠

الرابعة : أن تكون ذات دين :

وجاء وصف ذات الدين فى الآية كالآتى ، قال تعالى : « عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن : مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً » (١) .

ولقد بين الله تعالى صفات المتدينين والمتدينات فى آية أخرى بقوله تعالى : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » (٢) .

وكل هذه الصفات السابقة تدور حول ثلاث صفات رئيسية ، الاولى : الايمان الكامل الشامل بجميع ما جاء به الاسلام من العقائد ، والثانية : الخضوع للاسلام وأداء العبادات المفروضة ، والثالثة : التخلق بالاخلاق الحميدة .

وقد جعل الاسلام التدين المعيار الاول فى اختيار الزوجة والصفة الاساسية فى هذا الاختيار لانه بذلك يشجع الناس على التدين ولان الدين الاسلامى قد جاء بجميع المبادىء الانسانية الفاضلة والقيم الخلقية والاجتماعية السليمة ، ولا يمكن أن تستمر الحياة الزوجية وسعادتها وأن يكون البيت بيتا اسلاميا حقا بدون أن تتصف المرأة بتلك الصفات وتتحلى بتلك القيم الاخلاقية النبيلة ، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه

---

(١) سورة التحريم اية ٥
(٢) سورة الاحزاب آية ٣٥

وسلم : « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لاموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات الدين أفضل » .

وقال أيضا : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » ولا ينبغى أن يفهم من هذا الحديث ان الاسلام لايعترف بطبيعة الاحساس الانسانى وميله نحو الجمال والجاه والمال ، فهذه من الامور المرغوبة أيضا لان المرأة اذا لم تكن جميلة تقل رغبة الزوج فيها ولا يرتدع بصره عن غيرها ، ولهذا فان الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين سئل : أى النساء خير ؟.. قال : « من اذا نظرتها سرتك ، واذا أمرتها أطاعتك ولا تخالفك فى نفسها ومالك فيما يكره » . وكذا المال له أهمية فى اقتصاد البيت والانسان يحب ان يكون أولاده أغنياء كما يحب أن تساعده زوجه فى نفقة البيت وقد يقصد الانسان الحسب والنسب ليرفع من مكانة البيت ، كما ان الاحساس بالشرف وبالحسب يدفع الى التزام الشرف

وانما كل ما أراده الاسلام أن تكون صفة التدين الصفة الاساسية وأن تكون الصفات الاخرى الصفات الثانوية ولا مانع من الجمع بينهما بعد توفر الصفة الاولى ، بل هذا أفضل .

الخامسة : ان تكون ولودا أى غير عقيم :

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » وليس معنى ذلك ان الزواج بالعقيم لا يجوز شرعا ، وانما ذلك غير مرغوب ، لان كل انسان يرغب فى أن يكون له ولد ، عاجلا أو آجلا ،

وربما يطلبه بعد فوات الفرصة فيندم على فعلته ويقدم على زواج آخر ، ولان الانجاب ــ كما قلنا ــ من أهداف الزواج فى الاسلام .

السادسة : أن تكون الفتاة من أسرة غير أسرته ..

ولقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالابتعاد عن الاقارب فى اختيار الزوجة فقال : « اغتربوا لا تضووا ، أى لا تهزلوا ولتصبحوا أقوياء » .

ولقد ذكرنا سابقا هدفا من أهداف الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وهو اقامة صلات بين المسلمين وتأليف الروابط الجديدة بين الاسرة والقبائل، زد على هذا ان الرغبة تقل فى الزوجة ان كانت من القربى ، والهدف الثانى الاساسى هو تقوية النسل أو تحسينه . ولقد قرر كثير من علماء تحسين النسل ان ضعف الذرية وانحطاط قدرتها العقلية يرجع فى كثير من الاحيان الى عامل الوراثة ، وكلما كانت الزوجة ذات قرابة أوثق ظهر أثر الوراثة أكثر ، والسبب فى ذلك أن جميع الصفات والاستعدادات السيئة فى الاصول القريبة تنتقل الى الذرية والاعقاب .

وهذه الظاهرة قد تشاهد بشكل ملحوظ فى أبناء الاسر والقبائل المتعصبة الذين لا يتزوجون من غيرهم ولا يزوجون .

ويجب أن يلاحظ أيضا ان الابتعاد ليس قاعدة مطلقة اذ قد تكون الاسرة الاخرى أكثر ضعفا فى القدرات العقلية والجسمية منها ، وفى هذه الحالة فلا شك ان الذرية تأتى أضعف من ذرية الاسرة نفسها ، ولهذا عند الابتعاد عن الاسرة ينبغى أن تختار الاسرة الاقوى منها فى هذه القدرات حتى تكون الذرية الجديدة

احسن من ذرية الاسرة نفسها ، وكلما كان الطرفان اكثر قدرة واصح جسما ادى ذلك الى ذرية اكثر قدرة واصح جسما . ولا تنس هنا شيئا وهو ان الزواج من ذات القربى قد يكون برا اذا لم يكن هناك من ينفق عليها .

السابعة : أن تكون بكرا :

روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لجابر بن عبد الله « أتزوجت بكرا أم ثيبا ؟ » فقال : « ثيبا » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « مالك والعذارى ولعابها » (١) وفى رواية « أين أنت من العذارى ولعابها » .

ولعل الهدف من تشجيع زواج البكر هو تشجيع الفتيات على الطهارة والعفاف وحفظ الاعراض . ولا شك ان زواج البكر ينقذ الانسان من الشكوك فى وجود الامراض الزهرية واختلاط الانساب وعفاف الفتاة ، وهذا له دور كبير فى الاستقرار النفسى .

هذا ولقد لخص الرسول صلى الله عليه وسلم أهم صفات الزوجة الصالحة حين قال : « ان خير نسائكم الولود الودود الستيرة والعفيفة العزيزة فى فعلها الذليلة مع بعلها المتبرجة مع زوجها الحصان عن غيره التى تسمع قوله وتطيع أمره واذا خلا بها بذلت له ما أراد منها ولم تتبذل له تبذل الرجل » (٢) .

---

(١) البخارى باب نكاح الثيبات ، رواية ادم شعبة من محارب .
(٢) مكارم الاخلاق للطبرسى ، ص ١٥٥ . ومعنى الستيرة متحفظة حيية محتشمة والذليلة طيعة . والتبذل خشونة الطبع .

اختيار الزوج الصالح

وعلى الآباء والامهات أن يختاروا لبناتهن أزواجا صالحين متدينين ومتخلقين بخلق الاسلام وآدابه ، وينبغى أن تكون هذه الصفة هى الصفة الاساسية فى الاختيار قبل المال والجاه ، فالفقير صاحب الاخلاق غنى ، والفاسد الغنى فقير .. ذلك ان الفاسد قد يضيع ماله بين يوم وليلة فى القمار والشراب والنساء .. وكما يضيع ماله ، تضيع صحته فى السهرات ، ويضيع عقله بشرب الخمور ، ويضيع حق الزوجة أيضا ، وأثر هذا لا يقتصر على حياتهما بل يؤثر على حياة أولادهم وصحتهم

بل أكثر من هذا طلب الاسلام من الآباء أن يعرضوا بناتهم لمن يرون فيه الصلاح والتقوى ، فقد عرض الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته على على ، وعرض عمر ابنته على عثمان وأبى بكر ، وليس فى ذلك عيب ، بل هو أمر شرعى ، فنحن ينبغى أن نستحى مما يستحى منه ، لا مما ينبغى أن نفعله ، ولا حياء فى تطبيق الامور الدينية ، بل الحياء فى المحرمات ، وليس على الآباء أن يعرضوا بناتهم على من يرون فيهم الخير فقط ، بل على النساء أن يعرضن أنفسهن على من يرون فيهم الخير بطريق مباشر أو غير مباشر .

فقد جاءت امرأة يوما تعرض نفسها على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم : ما أقل حياءها وا سوأتاه وا سوأتاه ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : هى خير منك ، رغبت فى النهى فعرضت عليه نفسها (١) .

---

(١) البخارى باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ـ رواية ثابت البنانى عن أنس .

ان مسألة الزواج مسألة مهمة جدا لانها مسألة الحياة ، وانها تهم المرأة اكثر من الرجل ، لان الطلاق بيد الرجل اذا لم تعجبه الزوجة يطلقها ، والمرأة لا تستطيع ذلك ، كما ان الطلاق يؤثر على المرأة أكثر من الرجل من الناحية الاجتماعية ، اذ ان الناس عادة يسيئون الظن بالمرأة فى هذه الحالة أكثر من ظنهم بالرجل ، والعار يلحق بالمرأة أكثر منه ، حتى فى حالات الافتراق قبل الزواج وبعد الخطوبة .

ولهذا نبه الرسول صلى الله عليه وسلم الآباء الى حسن الاختيار ، فقال : « فلينظر احدكم أين يضع كريمته » وقال أيضا ما معناه : « فليلتزم الآباء جانب الاناة والحذر والحيطة ليبعدوا بناتهم عن الشرور والمشاكل » .

وكما أعطى الاسلام حق الاختيار للرجل ، فقد أعطى نفس هذا الحق للمرأة أيضا وهذا حق طبيعى باعتبار انها انسان ، وباعتبار انها ستصبح زوجة تتحمل مسئوليات كما يتحملها الزوج وكيف تقضى المرأة حياتها فى بيت اكرهت عليه مع رجل تنفر منه وتشمئز ، اجبرها أبوها وارغمها لغرض من اغراضه هو دون رعاية لشعورها واحساسها .

ولهذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن اكراههن على النكاح ، فقال : « لا تنكح الايم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » قالوا يا رسول الله كيف اذنها ؟ — اى البكر — قال : « أن تسكت » .

ومن أجبر امرأة على النكاح يفسخ هذا النكاح ويرد اكراما لشخصيتها وحفاظا على كرامتها واقرارا لمكانتها فقد روى ان خنساء بنت خدام وكانت ثيبا أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكت له ان اباها زوجها

لرجل تكرهه ولا تميل اليه ، فرد الرسول صلى الله عليه وسلم زوجها ، وجاءت فتاة يوما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ان أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ، فخيرها الرسول صلى الله عليه وسلم بين أن تجيز هذا الزواج أو تبطله ، فقالت : قد أجزت ما صنع أبى ، ولكن أردت أن أعلم النساء ان ليس للآباء من الامر شيء ...

وهنا وقع الخلاف بين العلماء فيما اذا زوجت الابنة البالغة بغير اذنها من قبل وليها ، فقد منع أبو حنيفة هذا الزواج واعتبر العقد باطلا ، وأجازه باقى أصحاب المذاهب كالشافعى ومالك وابن حنبل . وأما الثيب البالغة فمتفق فيها على عدم جواز نكاحها الا بأمرها .

وكذلك وقع الخلاف فيما اذا زوجت الثيب أو البكر البالغة نفسها بغير اذن وليها ، فأجازه أبو حنيفة وقد استدل بالاحاديث السابقة وغيرها ، أما باقى أصحاب المذاهب فلم يجيزوه استنادا الى حديث : « ايما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل فنكاحها باطل فنكاحها باطل » .

وقد أنكر أبو حنيفة صحة هذا الحديث واتهمه بالضعف ، ورأى أبو حنيفة ان المرأة البالغة اذا وضعت نفسها فى موضع سليم فى الزواج فنكاحها جائز طالما انها بصيرة عاقلة تدرك مصلحتها ، وطالما ان لها حرية التصرف فى مالها وفى التجارة فتبيع وتشترى ، فلماذا اذن نمنعها حرية التصرف فى نفسها فتتزوج من تراه أنسب وترى انها تستطيع الحياة معه .

أما اذا لم تحسن التدبير والاختيار والادراك وما يعود عليها من خير أو شر ففى هذه الحالة يمكن للولى الاعتراض فيفسخ القاضى الزواج .

وهنا قد تحدث مشكلة معقدة فيما اذا اختار ولى أمرها رجلا ، واختارت هى رجلا آخر ، وكل منهما يصر على اختياره ، ففى هذه الحالة يحتكم الى القاضى والى أهل الرأى ويحكم العقل الحصيف . فما دامت عند المرأة ملاحظة دقيقة وبصيرة وادراك تستطيع فهم شخصية الرجل ونفسيته ، واذا رأت انها ان تزوجت به يمكنها ان تدبر شئون البيت وتحيا معه فى السراء والضراء ، فلماذا نمنعها عن تنفيذ ارادتها ونجعلها رقيقا لا شخصيـــة لهـــا ، ولا ارادة ، بل ان تحمـل المرأة مسئوليتها بنفسها وتقرير مصيرها فى الحياة بارادتها وبصيرتها ربما يدفعها الى تحمل أعباء الحيـاة والصبر فيما اختارته أكثر مما لو اختار لها ولى أمرها حيـاة معينة وزوجا معينا . ولا ينبغى ان نفهم من هذا الغاء حق ولى الامر اطلاقا على المرأة البالغة العـــاقلة ، اذ وردت أحاديث كثيرة من جهات مختلفة كلها تثبت حق الولاية ولا خلاف يذكر بين العلماء فى هذا الحق وانما الخلاف فى الدرجة ومدى شرطية هذه الولاية فى صحة العقد هل هو شرط كمال ، أم شرط صحة ؟ ..

ويتضح من خلال عرضنا للآراء حول الحالة الاخيرة ان أبا حنيفة لا ينكر حق الولاية ، وانما يرى انها شرط كمال ، لا شرط صحة . وهـذا — كما يبدو — أكثر اعتدالا وتقديرا لشخصية المرأة ولروح الشريعة .

ضرورة رؤية كل من الطرفين للآخر :

ولكى يستطيع أن يفهم كل من الخـاطب والمخطوبة شريكه ويتفاهما على نوع الحياة التى يرغبانها ، أجاز الاسلام التحدث والنظر الى المرأة ، وللرجل أن ينظر منها الى ما هو ضرورى أن ينظر اليه ، فقال الرسول

صلى الله عليه وسلم : « اذا خطب أحدكم المرأة ، فان استطاع أن ينظر الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » (١)

وروى ان المغيرة بن شعبة خطب امرأة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » (٢) .

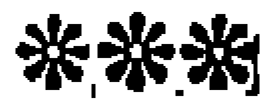
وهذا أمر ضرورى حتى لا يفاجأ أحدهما ، أو كلاهما بصفة فى صاحبه ما كان ينتظرها منه أو لايحب أن تكون فيه فتظلم عليه الدنيا وتتراكم فوقه سحبها السوداء قاتمة لا تتركه أينما حل وحيثما ذهب فيشعر بضيق كأنه وضع نفسه فى سجن ، كما حدث مثل ذلك لامرأة ثابت بن قيس ولم تكن قد رأته قبل ليلة الزفاف وتحدثت عن سبب نفورها منه وارادتها الافتراق عنه ، فقالت للرسول صلى الله عليه وسلم : « رفعت جانب الخباء فى ليلة الزفاف فأقبل فى عدة من الرجال فاذا هو أشدهم سوادا ، وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها ، وبى من الجمال ما ترى ، ولست أعتب عليه يا رسول الله فى خلق ودين ، ولكنى أكره الكفر فى الاسلام ، يعنى اذا لم يطلقها يخاف من الارتداد عن الاسلام حتى يفرق بينهما . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لثابت : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة .. وكان صداقها الحديقة . فما كان سبب افتراقهما الا عدم الرؤية ، فلو انها قد رأته قبل ذلك لما كانت قبلت الزواج منه ، ولما حدث ما حدث ، أو كانت قد قبلته على ما هو عليه فلم يكن لها عذر فى طلب الافتراق .

---

(١) التاج الجامع الاصول لاحاديث الرسول ـ باب ما ينبغى النظر الى المخطوبة ٢٨٤

(٢) التاج الجامع الاصول لاحاديث الرسول باب ما ينبغى النظر للمخطوبة ص ٢٨٤ .

لذا ، فعلى من يريد الزواج ويقصد من ورائه بناء بيت اسلامى أن ينظر ويدرس فلا يغفل سببا من الاسباب التى يمكن أن تؤدى فى المستقبل الى نزاع أو خلاف يهدد البيت ويزلزل كيانه ، وهذا كله ليكون بناء الاسرة على أساس متين يبقى مدى الحياة قويا مليئا بالسعادة والهناء .



وبعد ، قبل انهاء هذا الموضوع أرى ضرورة التعرض هنا لمسألتين لهما دور فى بناء البيت الاسلامى ، وهما مسألة زواج الصالح المعسر ، ومسألة المهر . أما فيما يتعلق بالاولى فقد علمنا فيما سبق ان الاسلام أمر الفتى باختيار الفتاة الصالحة ، كما أمر الفتاة وأولياءها باختيار الفتى الصالح ، أو بتعبير آخر ، أمر الرجال باختيار الصالحات ، كما أمر النساء باختيار الصالحين

وقد ذكرنا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى يأمر اولياء الامور بتزويج الصالحين ، اذ قال : « اذا خطب أحدكم من ترضون دينه ، وخلقه فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد » (١) لانهم اذا لم يعطوا بناتهم للصالحين فسيعطونهن للفاسدين ، والفاسدون ـ كما قلنا ـ يفسدون كل شيء ، وبذلك يكون الآباء بوجه خاص وأولياء الامور بوجه عام ، سببا لفساد الارض ، ولكن تزويج الصالح قد يتطلب أحيانا بعض التضحيات والتخلى عن بعض المصالح وذلك يمكن أن يظهر بصورة واضحة فى الامور الاتية :

الإمر الاول : اذا تقدم اثنان كلاهما من مستوى واحد فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية

---

(١) التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول جـ (٢) باب الزواج المحمود ص ٢٤٨

ولكن أحدهما صالح والآخر طالح ، فينبغي أن يختاروا الصالح على الطالح.

الامر الثاني : يكون عن طريق تخفيف المهور ، فقد يكون الطالح غنيا ، والصالح فقيرا ، ويعطي الاول من الصداق ما لايعطيه الثاني ، فعليهم أن يعطوا الثاني دون الاول ، بالرغم من قلة ماله .

الامر الثالث : يكون عن طريق تزويج المعسر ، في هذه الحالة قد لايملك الفقير الصالح شيئا من الصداق ، ولكن أولياء أمور المرأة يملكون كل شيء ، أو ميسرون على الاقل يستطيعون أن يدفعوا تكاليف الزواج ، فعليهم أن يتحملوا هذه التكاليف ، ويزوجوا هذا الانسان الفقير الصالح ، قال تعالى : « وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » (١) .

والفقير اليوم قد يكون غنيا غدا ، والغني اليوم قد يكون فقيرا غدا ، وقد روى ان امرأة جاءت الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تعرض نفسها للزواج فقال أحد الصحابة : « يا رسول الله ان لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها » ، فقال : «وهل عندك من شيء ؟ » قال : « لا » والله يا رسول الله ، فقال : «اذهب الى أهلك فانظر هل تجد شيئا»

---

(٢) سورة النور رقم ٣٢

فذهب ثم رجع ، فقال : « لا والله ما وجدت شيئا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظر ولو خاتما من حديد » فذهب ثم رجع ، فقال : « لا والله يا رسول الله ، ولا خاتما من حديد ولـكن هذا ازارى » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تصنع بازارك ان لبسته لم يكن عليها منه شيء ، وان لبسته لم يكن عليك شيء » فجلس الرجل حتى اذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم موليا ، فأمر به فلما جاء قال : « ماذا معك من القرآن» قال : « معى سورة كذا وسورة كذا عددها » فقال صلى الله عليه وسلم : « تقرؤهن عن ظهر قلبك » قال : « نعم » قال صلى الله عليه وسلم : « اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن » (١) .

وأما فيما يتعلق بالمسألة الثانية ، وهى مسألة المهر أو الصداق ، فان البيئات ، وبعض الاسر تستغل هذه المسألة استغلالا سيئا يعود ضرره عليهم وعلى غيرهم بطريق مباشر أو غير مباشر ، فينبغى أن نناقش معنى الصداق وما مقداره وما حكمه ، وهل ما يفعله المسلمون اليوم يتفق مع ما فى الاسلام أم لا ؟..

فالصداق هو مايعطيه الرجل للمرأة عند الزواج بناء على اتفاق الطرفين عند العقد أو الخطوبة ، ويسمى

---

(١) البخارى ـ باب تزويج المعسر ـ رواية قتية من سهل بن سعد الساعدى .

هذا المال مهرا أو صداقا وفريضة وصدقة ونحلة .

ان مسألة الصداق مسألة مشروعة فى الاسلام لا يختلف فيه أحد ، قال تعالى :« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » وقال أيضا : « لا جناح عليكم أن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة » وقد ذكرنا حديث الرسول السابق ، انه زوج رجلا بامرأة بسورة من القرآن ، لكن ما حكم هذه المشروعية ؟ ..

هناك رأيان : رأى يذهب الى ان الصداق واجب ، ولا يتم العقد بدونه ، أو بدون تسميته ، وهذا الرأى مفضل عندى ، والرأى الثانى : يذهب الى انه هبة من الزوج أو من الله على خلاف ، وبناء على هذا الرأى يصح العقد بدون تسميته أو بدونه .

ولكن ما مقدار الصداق لجواز العقد ؟ ..

يوجد هنا رأيان : رأى يذهب الى أنه غير مقدر ، لا أقله ولا أكثره ، ويؤيد هذا الرأى الآيات والاحاديث السابقة ، لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « التمس ولو خاتما من حديد » بل أقل من ذلك جعل الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة بعض السور من القرآن عن ظهر غيب صداقا ، وكذلك أكثره غير مقدر

الرأى الثانى : يذهب الى أن أقله مقدر ، وأن اكثره غير مقدر وقد اختلف القائلون بهذا الرأى فى أقل الواجب ، فحدده أبو حنيفة ومالك بعشرة دراهم ، وحدده ابن شبرمة بخمسة دراهم ، والنخعى بأربعين درهما ، وزاد بعضهم الى خمسين ، الا ان الرأى الذى استريح اليه ــ كما قلت ــ هو الرأى الاول .

واذا كان الاسلام قد ترك حرية تحديد مقدار الصداق قلة أو كثرة للآباء ، فهل معنى ذلك انه يترك

للاباء هذه الحرية يرفعون قيمة المهور ويثقلون كاهل طالب الزواج بالديون دون أن يشجعهم على الفضيلة بتقليل المهور حتى لا يعوقوا الطريق أمام المتزوجين ، والحقيقة ان الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بعدم المغالاة فى المهور ، فقال : « أعظم النساء بركة أيسرهن مئونة » أما اذا أراد الرجل إن يعطى أموالا كثيرة صداقا للمرأة فهذا جائز ، وكذلك يجوز للمرأة أن تطلب ما شاءت من الصداق وليس فى ذلك شىء ، ولا سيما اذا كان الرجل غنيا وأعطاها عن رضى من غير اكراه .

هذا وذاك جائز ومشروع ، غير ان المشروعية شىء ، والافضلية شىء آخر ، فأخذ الحق حق ، والتجاوز عنه فضيلة .

على أى حال ، فان هذا وذاك جائز ، الا ان هناك شيئا واحدا غير جائز والاسلام لايوافق عليه ، وهو أن يأخذ الآباء خلو الرجل من بناتهم ، أى أن يطلب الاب أو أولى أمرها ثمنا معينا ليس من الصداق ليوافق على الزواج فاننى أعتبر هذه المسألة أبشع من خلو الرجل ، لانه اذا كان خلو الرجل استغلالا ، فهذا استغلال واهدار لقيمة الانسان . اما من حيث الاستغلال فانه أولا يأخذ شيئا من غير مقابل ، والمعطى مكره فى العطاء لا بطل ، فكأنه يتاجر بشىء لا يجوز أن يتاجر به ، أو بعبارة أخرى انه عملية تجارية من غير مقابل ، والتجارة من غير مقابل عمل باطل فى الاسلام ، ثم ان هناك بعض الآباء عندما يرون المقدم على زواج بناتهم قد وقع فى حبالها او فى حبها او قد يوقعونه هم لأنفسهم بوسائل شيطانية ، عند ذلك يطالبونه بما لا يطيق أو بأثمان باهظة وهو لايستطيع الامتناع لانه وقع فى شباك الحب التى لا مخرج منها .. هذه العملية تعتبر استغلالا

من جهة ، واغتصابا من جهة أخرى ، وان كانوا يظهرون هذا الاستغلال وذلك الاغتصاب فى صورة مشروعة .

أما من حيث انه اهدار لقيمة الانســان ، فلأنهم فى هذه الحالة يبيعون بناتهم كبيع البقرة ، وقد لا ترضى البنت عن هذا ، ولا سيما اذا كانت ترغب فى خطيبها أو تحبه ، ولـكنها لا تملك شيئا وقد لا يحققون رغبتها اذا لم يحصلوا منه على مايطلبونه ويعطونها الى غيره الذى يحقق رغباتهم ، وقد تكون البنت كارهة اياه ، ولـكنها رغما عن أنفها تســاق الى بيت من غير رغبة ، كما يساق الحيوان

أليس هذا اهدارا لقيمة الانسانية ، قيمة المرأة ... قيمة الانســان ، وليس أى انســان ، بل هو أقرب انسان اليه يعتبر جزءا من لحمه ودمه .

ان كل ما يؤخذ من أجل المرأة عند الزواج ، يجب أن يعتبر من الصداق ، ويجب أن يصرف على المرأة ، لان الاسلام جعل الصداق تطييبا لشعور المرأة وتحقيقا لرغبتها فى الزينة والبهجة ، ان المرأة تميل الى الزينة والبهجة بطبيعتها ، فتحقيقا لهذه الرغبة أمر الاسلام الرجل أن يشترى لها من الزينة ما يسرها وتبتهج به وكهدية من الرجل اليها تطييبا لخاطرها وادخالا للسرور لنفسها ولتقوية الروابط بينهما .

ولهذا الغرض ينبغى ان تترك حرية تحديد مقـدار الصداق للفتاة ، أو بينها وبين فتاها ، لانهما صـاحبا الامر وطرفاه المعطى والآخذ والمهدى ، والمهدى اليه .

بقى شىء آخر فى هذا الموضوع ، وهو ان الاســلام اذا كان قد أوصى الاباء بتخفيف المهور ، حتى ولو كانت خاتما من حديد ، فان ذلك ليس على اطلاقه هذا الا اذا كان الخاطب يملك بيتا يأوى اليه ومصروفا يعيش به ، أو

كان والد الفتاة غنيا ينفق عليها ، أما اذا كان الفتى لا يملك مأوى ولا مصروفا ، وليس والد الفتاة موسرا يستطيع الانفاق عليهما ، ففى هذه الحالة ليس مطالبا بالتخفيف لانه بذلك يسوق بنتــه الى المهالك ، وكيف تعيش معه وأين تبيت ؟ .. أيبيتان فى الشـــوارع وفى الزوايا كما نرى بعض المتزوجين ؟.. وماذا يكون مصير حياتهم ومصير حياة أولادهم ، فان التساهل فى هــذه الحالة جريمة فى حق الفتاة فى نظرى ، ولو وافقت هى فرضا لإنها تعتبر فى هذه الحالة غير عاقلة ولا يصح ان تزوج غير العاقلة نفسها الا بموافقة ولى أمرها وموافقة ولى أمرها فى هذه الحالة تعتبر جريمة فى حقها .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته ؟ » فاذا كان الابناء مسئولين عن تصرفاتهم بعــد البلوغ بمقــدار ادراكهم واحاطتهم الامور الحاضرة والمســتقبلة ، فان مسئولية الآباء عن تصرفات أبنائهم الخاطئة أكبر ، لان خطــأهم ناتج عن عدم ارشادهم ومساعدتهم لرؤية الحقائق ولان جماح الشباب والحب الاعمى قد يجعلان الانسان أعمى عن رؤية الحقائق والاخطار المحدقة به .

والخلاصة ، ان الاباء وأولياء الامور مسئولون عن تزويج أبنائهم ، فأب الفتاة ينبغى أن يختار لابنته زوجا صالحا أو أن يساعدها فى هذا الاختيار ، ثم عليه ان يبــذل من المال اللازم ان اقتضى الامر وكان قادرا على تزويج بنته ممن يرى فيه الصلاح .

وعلى أب الفتى كذلك ان يختار لابنه الزوجة الصالحة أو يساعده فى هذا الاختيار وأن ينفق عليه اذا اقتضى الامر وكان قادرا على هذا الانفاق .

قداسة الروابط بين أفراد البيت

هـــذا هو الاســـاس الرابع والاخير فى تكوين البيت الاسلامى ، وهذا الاساس مهم أيضا ، ذلك ان الاسلام لايرى الزواج مجرد ارتباط لتحقيق مصلحة مادية أو مصلحة ضرورية للحياة المدنية فحسب ، بل انه ارتباط مقدس ، ارتباط روحي وتطبيق لمبدأ اسلامى .

ولهذا فقد وصف الله هــذا الارتباط وهــذه العلاقة بالميثاق الغليظ فقال تعالى : « وكيف تأخــذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » (١)

وكذلك ارتباط الابناء بالآباء ارتباط دينى أولا وقبل كل شيء ، وهو بذلك ليس كأى ارتباط بين الناس ، وواجب الابنـــاء نحو الآباء ليس كأى واجب يقوم به الافراد نحو الافراد فى العــلاقات العامة بين النــاس ، فهذا واجب انسانى ، وذاك فوق هذا واجب دينى ، لذا قال تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه احســانا حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » (٢) .

هذا الواجب وصية الهية ، وقد قرن سبحانه وتعالى شكر الوالدين بشكر الله نفسه ، وكأنه سيحاسبه يوم القيامة عن مقدار شكره له بمقدار شــكره لوالديه ،

(١) سورة النساء ٢١ (٢) سورة لقمان ١٤

وقد اعتبر الاسلام عقوق الوالدين من كبائر الذنوب ، روى ان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال : « ألا اخبركم بأكبر الكبائر ؟ » قالوا : « بلى يارسول الله » قال : « الاشراك بالله وعقوق الوالدين » (١) .

وتظهر اهمية هذا الاساس فى تماسك البيت وثباته ودوامه واستقراره وقد درس علماء الاجتماع فى تاريخ الاسرة فوجدوا انه لم يسد فيها الاستقرار والهدوء والثبات فى تاريخها كلها كما ساد ابان تأسيسها على الاديان السماوية وتطبيقها مبادئها ، وما ذلك الا لان هذه الاديان تبنى البيت على اساس الدين وتعطى للروابط بين الافراد القداسة التى تربط بينهم بروابط الرحمة والمحبة . اما فى العصر الحديث ، فقد ادى ابتعاد الناس عن الاديان واستخفافهم برسالات السماء وعدم تمسكهم بمبادئها الى تفكك نظام البيت وتدهور الحياة الاسرية ، فقد أصبحت الروابط مجرد عقود مدنية، الهدف منها مجرد مصالح شخصية وقتية .

وبعد ، فاننا ننتهى من دراستنا فى هذا الفصل كله الى ان بناء البيت الاسلامى ، يجب أن يكون قائما على هذه الأسس الاربعة التى ذكرناها ودرسناها بالتفصيل

وانه لا يمكن أن يكون هذا البناء كما أراده الاسلام اذا لم يعتمد على هذه الدعائم الاربعة معا والا سيكون ناقص البناء أو غير قائم على أسس يجب أن يقوم عليها.

وان سبب تفكك البيوت وتصدعها بعد عام أو عامين من بنائها هو عدم قيامها على هذه الدعائم وعدم اعتبارها عند البناء انها أسس لابد منها .

فهناك من لا يعتمد عليها اطلاقا عند البناء ومنهم من يبنى على واحد أو اثنين فقط ، فكيف تدوم حياة

---

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ٤

البيت اذا كان مكون البيت قد اتخذ هدفه منه تحقيق مصلحته الفردية الانانية دون مراعاة مصـلحة المجتمع وحتى مصلحة الزوجة • لاشك انه عندئذ يحاول تسخيرها لمصلحته دون أى اعتبار لمصلحتها واحترام شخصيتها .

واذا هى خضعت لهذا الوضع وتحملته يوما أو أياما فهل تطيق تحمله طوال حياتها ، كذلك اذا كان هـدف الزوج الاساسى من الزواج هو مجرد متعـة حسـية لاشباع دوافعه الشهوانية دون أى اهتمـام بالجوانب الاخرى من الحياة الزوجية بوجه خاص وحياة البيت بوجه عام فانه لاشك اذا ما أحس بعـد الزواج بمدة قليلة أو كثيرة بعدم اشباع هذا الدافع بالصورة التى كان يتخيلها فانه ولا شك يقدم على طلاقها أو هـدم هذا البيت دون أى اعتبار آخر .

وكذلك اذا لم يحسن اختيار شريكة فى الحياة تتفق معه فى الجوانب المـادية والمعنوية من الحياة فهل يمكن أن تدوم عشرتهما ، واذا دامت لأمرما ، فهل يستطيعان أن يشعرا بالسعادة فى الحياة الزوجية بوجه خاص ، وحياة البيت بوجه عام ، وما قيمة هذه الحياة اذا لم يسترح بعضهما الى بعض فى النواحى الفكرية والروحية والشعورية والنظرة الى الحياة بوجه عام .

وأخيرا اذا لم تقم العـلاقات فى البيت على أسس وروابط قوية ترتبط بالعقيدة وتلتحم بالايمان ، وبنيت على مجرد روابط مدنية ، ومصالح دنيوية وقتية الا تنقطع هذه الروابط اذا لم يجدوا ما كانوا يرجون من ورائها من المصالح ، او عند استنفاد أغراضهم هذه ؟

وهكذا نجد ان هـذه الاسس كلها ضرورية ولازمة لا يستغنى عنهـا لبنـاء بيت سليم وهى كلها ترتبط بعضها ببعض بحيث لا يمكن فصل احدها عن الآخـر •

الفصل الثانى

تنظيم حياة البيت وإدارته فى ضوء الإسلام

يعتبر البيت أصغر وحدة اجتماعية ، وهو فى نفس الوقت يعتبر أهم مؤسسة اجتماعية يتكون منها افراد المجتمع ، فمؤسسة البيت ليست كالمؤسسات الاخرى تؤسس من أجل أهداف اقتصادية او ادارية ، وانما تؤسس من أجل صناعة الرجال وتكوين مجتمع سليم البنية قوى الشخصية ، ولكن البيت كمؤسسة لابد أن يكون له نظام ليؤدى دوره كما ينبغى ، هذا النظام لابد أن يكون متكاملا من الناحية الادارية والاقتصادية والتنظيمية والاجتماعية والتربوية باعتبار ان هدفه الاساسى هو التربية وتكوين الشخصية الانسانية المتكاملة .

واذا كان الامر كذلك فكيف نظم الاسلام البيت من هذه النواحى ..

ولنأخذ تنظيمه من الناحية الادارية ، فمن هو مدير البيت أو رئيسه ؟ وما هى حدود سلطاته والهدف من اعطائه هذه السلطة وما هو المبدأ الذى ينبغى أن يسير عليه ؟

ان من مبادىء الاسلام فى التنظيم الاجتماعى ان يكون لكل جماعة مدير أو أمير مهما كانت كبيرة أو صغيرة ولو كانت تتألف من اثنين . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذا خرج ثلاثة فى السفر أمروا أحدهم ، حتى الاثنان اذا خرجا فى أمر أمرا أحدهما » واذا كان يأمر بجعل أمير فى أصغر مجتمع او أصغر جماعة مهما كان الهدف من الاجتماع ، ومهما كانت مدة الاجتماع سواء كان قصيرا أو طويلا واذا كان يأمر باختيار أمير أو رئيس فى مثل هذه الجماعة المسافرة ، فكيف لا يأمر باختيار مدير لادارة شئون مجتمع دائم كمجتمع البيت طالما قد قدسه وقدس الروابط بين أفراده وعظم الميثاق بينهم .

والرئاسة ضرورية لمجتمع البيت كى تدبر شئونه وتدبر كل ما يحتاج اليه وتدافع عن كيانه وتسوسه سياسة حكيمة عادلة وتقود أفراده قيادة رشيدة فيؤدى كل فرد واجبه كما ينبغى ، وتعطى كل ذى حق حقه وتعاقب المنحرف وتحل المشكلات لصيانة البيت من الزلل والتفكك وليحيا حياة هادئة مستقرة .

ولا شك انه لا يصلح كل انسان فى المجتمع لهذه الوظيفة اذ لابد أن يكون هذا الانسان قوى الشخصية نافذ البصيرة حكيما فى تقديره وتدبيره ، يضع الامور فى مواضعها ، لا تعميه عن رؤية الحقائق الظروف الشديدة وتعوقه عن استعمال الحكمة العواطف والمؤثرات النفسية والاعتبارات الشخصية ولا تزحزحه عن نياته القوى المضادة .

فنحن لا نسند القيادة عادة فى أى أمر من الامور الا لمن نرى فيه توفر هذه الصفات .

واذا نظرنا الى مجتمع البيت نرى الشخصين البارزين فيه هما : الاب ، والام ، باعتبارهما اساس هذا المجتمع .

ولا يمكن أن يكون فى مجتمع رئيسان أو مديران فى مستوى واحد من السلطة والمركز ، وليس هذا فى نظام المجتمع فقط ، بل فى نظام الكون أيضا ، وصدق الله العظيم : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » اى لو كان فى السموات والارض اله مع الله لفسدتا ، واختل نظام الكون العام

اذن لابد من أن يكون أحد الشخصين رئيسا ومديرا فى الدرجة الاولى من السلطة والمركز ، فأيهما احق بهذا المنصب ؟ .. ولماذا ؟ ..

اذا نظرنا الى رأى الاسلام فى تنظيم البيت واختيار رئيس له ، لتنفيذ هذا النظام وجدنا انه اختار الاب لهذا المنصب ، واختار الرجل بوجه عام فى الرئاسة على المجتمع الاسلامى الكبير .

قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم » (١) .

وقال أيضا : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » (٢) .

والتفضيل فى الآية الثانية وان كان مقيدا فى مجال الطلاق واعطاء حق الرجعة للرجل ، فقد اعطاه على كل حال حقا زائدا للرجل وهو حق الطلاق والرجعة وهذه درجة فى السلطة اعطاها للرجل ولم يعطها للمراة .

لا ينبغى أن نكون هنا من المتطرفين فى الميل الى جانب الرجل ولا فى الذهاب مع المراة ، وانما يجب أن ننظر

(١) سورة النساء اية ٣٤
(٢) سورة البقرة آية ٢٢٨ .

الى هـذه المسألة الاجتماعية الخطيرة نظرة موضـوعية لنعطى كل ذى حق حقه ولنضع كل انسان فى الموضع الذى يناسبه على حسب ما يوجهنـا العلم ، لا على حسب ما يوجهنـا التعصب لاحد الطرفين ، ولا على حسب ما توجهنا اهواؤنا ونزواتنا ، فهذا الموضـوع يتعلق بالتنظيم الاجتماعى ولم يزل يعتبر من المشكلات الاجتماعية الهامة فى عصرنا ، كما كان مشكلة اجتماعية فى العصور القديمة وان كانت هذه المشكلة تختلف من حيث الدرجة من مجتمع الى آخر فى الماضى والحاضر .

ولننظر أولا الى وجهة النظر الإسلامية فى تفضيـل الرجل على المرأة فى بعض نواحى الحياة الاجتماعية ، وكيف راعى الفروق فى بعض التنظيمـات ولم يجعـل الرجـل فى درجـة واحـدة مع المرأة فى بعض الأحكام والموضوعات ولنعرف الحكمة فى ذلك .

ثم بعد ذلك ننظر الى رأى العلم فى هـذا الموضـوع ونتائج الابحاث التى أجريت لمعرفة طبيـعة الفروق الفردية بين الافراد بوجه عام ، والفروق بين الجنسين بوجه خاص ، وسوف نقتصر فى عرضنا على هذا النوع الاخير من الفروق ، لنرى هل تفضيل الاسـلام الرجل على المرأة قائم على أمر دينى فقط لمصلحة تنظيم معين للمجتمع من زاوية دينية معينة ، أم هو قائم على أمر دنيوى ومصلحة اجتماعيةوقضية علمية مسلم بها أيضا .

فاذا بحثنا عن سبب تفضيل الاسلام الرجل فى هذا الموضوع بالذات لوجدنا انه يقوم على سببين رئيسيين :

الاول : تفضيله عليها فى أصل الخلقة إذ خلقت بعض صفات وقدرات فيه ، لم تخلق فيهـا .. مما يجعله أنسب للقيام بوظيفة الرئاسة والادارة ، كما فضـل المرأة على الرجل فى أصل الخلقة اذ خلقت بعض القدرات

والصفات التى تجعلها أنسب للقيام بوظيفة أخرى ..

ثانيا : سبب تفضيل الرجل فى هـذه الوظيفة هو الانفاق ، انفاق الرجل على المرأة ، فقد خلق فى الرجل بعض القدرات العقلية والبدنية ، كما أشرنا وهى تجعله أقدر على كسب المال وجلبه وتحمل الصراع فى سبيله افضل وانسب من المرأة ، ولذلك كلف الرجل بأعباء لم تكلف بها المرأة ، فكان فى هذا المبدأ ارهاق للرجـــل ، وراحة للمرأة ، ولا بد من أن يكون لهذا التعب ميزة وحق مقابل ، والا كان الرجل مظلوما ، لان التسوية فى جميع النواحى مع عدم التسوية فى التكاليف تسوية لا تقوم على أساس من العدل .

« ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١) ،

والتفضيل يتبعه عادة بعض تبعات على المتفضل عليه . فالله له علينا الفضل ولهذا فعلينا له الطاعة والشكر .

والرئيس عنـدما يدبر أمورنا ويحل مشاكلنا بحكمة وعدالة فعلينا أن نطيع أوامره .

فتفضيل من جهة يتبعه طاعة من جهة أخرى ، ولهذا قال تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » (٢) أى صاحب الامر والتدبير .

ثم انه من مصلحة النظام الاسرى أن يطيع أحدهما الاخر ، وأولى أن تطيع المرأة الرجل لما قلنا ولما سنقول فيما بعد وينبغى أن يلاحظ ان الافضلية هنا ليست أفضلية فى الانسانية ــ كما فهمها البعض وعمـــــل بمقتضى هذا الفهم بعض الشعوب وبعض الافـــراد ــ فاذا كان الاسلام قد أمرنا بالطاعة لرئيس الدولة العادلة فليس ذلك لافضليته علينا من الناحية الانسانية ، بل

(١) سورة المائدة ٥٠ (٢) سورة النساء ٥٩

للمصلحة الادارية والاجتماعية لا أكثر ولا أقل ، وكذلك طاعة المرأة للرجل لا تقلل من انسانيتها شيئا أو تغض من قيمتها الادبية أو كرامتها الشخصية .

ولننتقل الآن الى البحث العلمي فى طبيعة الفروق بين الجنسين من النواحى البيولوجية والفسيولوجية والسيكولوجية .

أما من الناحية البيولوجية ، فالابحاث العلمية كشفت لنا عن وجود الفروق بين الجنسين فى طبيعة التكوين المادى لجسم كل منهما من بداية الخلقة .

فالخلية التى يتكون منها الرجل تختلف عن طبيعة الخلية التى تتكون منها المرأة وذلك بسبب الاختلاف فى بعض المواد الخاصة بالذكورة فى الخلية الذكرية ، والمواد الخاصة بالانوثة فى الخلية الانثوية وهى الكروموزومات والجينات التى تحتويها خلية كل من الجنسين وهذا الاختلاف فى الخلية الاولى التى يتركب منها الجسم ينشأ عنه اختلاف فى المظاهر الجسمية والشخصية .

وأما الاختلاف من الناحية الفسيولوجية أى من ناحية الوظيفة العضوية للجسم ، فالبحث العلمى يثبت ذلك الاختلاف وهذا أمر طبيعى يترتب على الاختلاف البيولوجى منطقيا وعلميا ، لانه اذا كان هناك اختلاف فى التركيب الجسمى فلا بد أن يكون هناك اختلاف فى وظائف الاعضاء من حيث النوع أو الدرجة .

وأخيرا يوجد هناك أيضا اختلاف سيكولوجى وهذا يشمل الجانب النفسى وجانب القدرات العقلية وغيرها .

أما فى الجانب النفسى فهناك اختلاف فى الدرجة لا فى النوع .

وقد ذهب بعض العلماء الى وجود اختلاف فى النوع

حتى فى هذه الناحية أيضا مثل الشعور بالامومة الذى يعتبر فى الدرجة الثالثة من قوة تركيب الحاجات الاولية الحيوية ويقابله عند الرجل الشعور بالوالدية .

ولننتقل الآن الى أهم نقطة وهى الاختلاف بين الجنسين فى الذكاء أو القدرات العقلية

لقد دلت التجارب التى أجريت لمعرفة الفرق فى الذكاء والنمو العقلى بين الجنسين ، على أن :

الاناث يتفوقن على الذكور فى النمو العقلى ، فيما قبل المراهقة ، ويزداد النمو العقلى عند الذكور أكثر من الاناث خلال فترة المراهقة ثم يتقارب الجنسان فى المستوى العقلى العام وتبدو الفروق فى المدى ودرجة النمو فيزداد عند الذكور ويقل عند الاناث ولذا تزداد نسبة العباقرة عند الرجال ، وضعاف العقول عند الاناث (١) .

كما لاحظوا تفوق الرجال فى بعض القدرات المهنية ، وتفوق الإناث فى بعض القدرات الاخرى ، فالرجال يتفوقون على الاناث فى النواحى الجسمية واليدوية والميكانيكية وفى تحصيل العلوم الطبيعية والرياضية وفى نواحى الاختراع والابتكار والسياسة والاقتصاد .

وتتفوق الاناث على الذكور فى الادب والموسيقى والفن والاعمال الكتابية والخدمة الاجتماعية والتدريس فى المراحل التعليمية الاولى كمدارس الحضانة ورياض الاطفال ، والمدارس الابتدائية .

وقد عملت احصائية فى روسيا وأمريكا لمعرفة نسبة المدرسات فى المدارس فوجد ان نسبتهن وصلت الى حوالى ٧٠ ٪ من القائمين بالتدريس ، بينما تقل نسبتهم كلما ارتقى مستوى التعليم . فى الجامعة مثلا أقل

(١) انظر كتاب الذكاء للدكتور فؤاد البهى السيد ص ١٤٨

من المرحلة الثانوية ، وفى الثانوية أقل من الابتدائية وهكذا (١) .

ويرتبط بما سبق الفروق بين الجنسين فى الميول ، فقد أثبتت الابحاث التى أجراها بعض العلماء مثل ترمان ، ومايلز ، وسترونج ، وغيرهم لمعرفة الفروق بين الجنسين فى الميول ان الذكور أميل الى النشاط الجسمى والمسائل العلمية والميكانيكية والامور السياسية والتجارية والاقتصادية ، والميل الى المغامرة ، والاثارة والبطولات والجندية .

وان الاناث اميل الى الفن والادب والموسيقى والاعمال الكتابية والتدريس والخدمة الاجتماعية والى أوجه النشاط المتعلقة بالمنزل والحياة الاسرية والاهتمام بنواحى الجمال والزينة والالوان .

وقد تبين من بحث العلاقة بين الميل واتقان العمل ان معلومات الرجال كانت أدق فيما يميلون اليه ، كما ان معلومات الاناث كانت أدق فيما يملن اليه .

اما الفروق فى النواحى العاطفية والانفعالية :

فقد أثبتت الابحاث التى أجريت لمعرفة الفروق فى هذه الناحية ان الاناث أكثر تعرضا للخوف وأكثر اظهارا للعطف من الرجال فى حين ان الرجال يبدون أكثر قسوة من النساء فى الحالات العنيفة وأقل تعرضا للخوف منهن فى المواقف الخطيرة .

وفيما يتعلق بالانبساط والانطواء وجد ان الاناث اميل الى الانطواء من الرجال ، كما وجد ان بعض الرجال يميلون الى الانوثة ، وان بعض الاناث يملن الى

(١) التربية المقارنة للدكتور وهيب سمعان موضوع الوضع الاقتصادى والاجتماعى للمعلمين فى روسيا وامريكا .

الذكورة (١) .

وأهم النتائج التى نخرج بها من هـــذه الابحاث والتجارب والاختبارات ، نلخصها فى النقط الآتية :

أولا : ان الذكاء أو القدرة العقلية لها صفات هامة منها : الادراك بوجه عام ، واستيعاب المعلومات وحفظها والعمل بمقتضى هذا الادراك وتلك المعلومات ، وهـذه الناحية أميل الى الحكمة ، لان الحكمة هى العمل بالعلم كما تقتضى المواقف والاحوال .

ثانيا : ان الفروق بين الذكور والاناث فى القدرات العقلية فروق فى الدرجة لا فى النوع ، وتختلف درجــة هـــذه الفروق زيادة أو قلة بحسب مجالات الذكاء والتعقل .

ثالثا : ان الذكور يتفوقون على الاناث بوجه عام فى الاعمال المعتمدة على القوة الجسمية والاعمال العقليـة المعقدة والعلوم التى تتطلب قدرات عقلية من الدرجــة العالية .

رابعا : وجــود العــلاقة بين القــدرات والميــول من ناحية ، واتقان الاعمال من ناحية أخرى .

خامسا : تفوق الاناث فى النواحى العاطفيـــة والانفعالية على الرجال .

سادسا : ان هذه الاحكام تنطبق على المجموع ، لا على الجميع .

ولو نظرنا الى الحاضر والماضى ، بل الى تاريخ الإنسانية كله ، وتاريخ تقدمها العلمى لوجدنا ان أشهر العلمـاء فى جميع المجالات العلمية كانوا من الذكور ، وقد تقدم العلم ولا يزال يتقدم على أكتاف الذكور ، فأشـــهر

---

(١) التوجيه التربوى والمهنى للدكتور عطية محمود هنا ص ١٦١

الفلاسفة ، وأشهر الاطباء ، وأشهر الرياضيين كانوا من الذكور لا من الاناث حتى وقتنا الحاضر ، وذلك بالرغم من اتاحة الفرص التعليمية للاناث فى جميع المجالات منذ مائة عام أو يزيد ، وفى مجال الاختراع كذلك نجد أشهر المخترعين من الذكور ، وفيما يتعلق بالقوة البدنية واليدوية نجد الذكور أقوى من الاناث فى حمل الاثقال والقدرة على الاعمال اليدوية والقيام بأعمال كبيرة .

وفيما يتعلق بقوة الشخصية ، نجد أعظم القواد والسياسيين والعسكريين من الذكور أيضا ، ولا نذهب بعيدا ، فاننا لو نزلنا الى المستويات الادنى فى الحياة لوجدنا أشهر الطباخين ، والخياطين ، والصناع ، والعمال أيضا من الذكور ، وهذا دليل واقعى ملموس لا مجال للانكار فيه وهذه الظاهرة ليست ظاهرة اليوم وانما هى ظاهرة التاريخ الانسانى ، فلو ان الطبيعة زودت الاناث فى هذه الميادين بقدرات أكثر من الذكور لتفوقن فيها فى هذه المجالات ، قد يقولون ان الذكور لم يتيحوا للاناث فرصة ، والحقيقة لو كانت الاناث أقوى من الذكور لتفوقن على الذكور فى هذه الناحية أيضا لان الطبيعة تظهر مهما كانت الامور والظروف هذه المسألة ليست مسألة اليوم ، وانما هى مسألة التاريخ كله .

اما الاناث فانهن تفوقن على الذكور فى كل الاوقات ، ولا زلن يتفوقن فى صناعة الطفل وتربيته ورقة العاطفة وشدة الانفعال ، وفى الخدمات الاجتماعية والاهتمام بالنشاط المنزلى ، والاهتمام بالزينة والتزين ، وتعليم الطفل ، ولا سيما تعليمه لغته القومية ، وفى الميل الى الموسيقى والفن والادب وبذل الرحمة والعطف .

يتبين مما سبق انه لا يصح ان نقول ان الذكور اكثر قدرة على الاطلاق من الاناث ، كما ذهب الى ذلك بعض المتطرفين ولا يصح أن نقول أيضا ان الاناث يساوين الذكور فى كل شيء على الاطلاق ، كما ذهب الى ذلك بعض المتطرفين الذين لايسترشدون بنور العلم فى اطلاق أحكامهم ، وان كان يصح أن نقول ان مجالات نشاط قدرات الذكور أوسع من مجالات نشاط الاناث ، وان قدرات الذكور تؤهلهم لان يقوموا بالاعمال المعقدة الصعبة والشاقة فى نفس الوقت .

مناقشة بعض الآراء فى هذا الموضوع

يدعى البعض ان الاناث يساوين الذكور فى كل مجال ويستطعن أن يقمن بما يقوم به الرجال ويستدلون على ذلك ببعض السيدات اللامعات فى ميدان السياسة والاجتماع والادب والعلم .

ونفيد ان هذه الاحكام تصدق على المجموع لا على الجميع فمعنى ذلك انه توجد هناك حالات استثنائية والقاعدة عادة لا تبنى على الاستثناءات ، بل على الاغلبية .

اذ اننا نجد كذلك الحالات الشاذة والاستثناءات فى القوانين الاجتماعية ، والقوانين الطبيعية أيضا ومع ذلك فلا نبنى عليهما حكما عاما ، ثم لقد قلنا ان الفروق بين الجنسين فى القدرات العقلية بوجه خاص ، والسيكولوجية بوجه عام ، فروق فى الدرجة لا فى النوع

فلو ان الرجل قام بالعمل الذى يدخل فى مجال قدراته التى يتفوق فيها على الاناث لقام به أحسن وأفضل من المرأة بوجه عام .

بقى رأى آخر يدعى ان الفروق بين الجنسين لا ترجع الى طبيعة الخلقة ، بل ترجع الى الثقافة والتربية والبيئة ، والدليل على ذلك أن مرجريت ميد قد وجدت ثلاث قبائل يختلف فى أحدها مسلك الرجال عن مسلك الاناث ، وفى أخرى يتفقان ، وفى الثالثة وجدن القضية معكوسة .

ففى قبيلة « الارابيش » يسلك الرجال والنساء فيها السلوك الذى يتوقع من النساء ، أى فيهم رقة ويميلون الى الهدوء والدعة ، والقبيلة الثانية هى قبيلة « موندا جمور » يسلك فيها الرجال والنساء السلوك الذى يتوقع من الرجال أى فيهم الخشونة والصلابة والقبيلة الثالثة هى قبيلة « التشامبولى » يسلك فيها الرجال مسلك النساء ، أى عندهم خبث ودهاء وميل الى التحلى بالحلى وتصفيف الشعر ، بينما النساء أكثر نشاطا وهن يوجهن الرجال ولا يملن الى الزينة .

اذن ثقافة الفرد هى التى تحدد سلوكه بغض النظر عن جنسه أو سنه (١) .

والحقيقة ان فى هذه القضية مغالطة وتشويها .

ذلك أن تأثير الثقافة فى التعبير مقصور على الاداء وأساليب معاملة الناس والسلوك بينهم لا على الطبيعة الانسانية البيولوجية والفسيولوجية ، وهذا الذى يفيده المثال المذكور فى الاخلاق ، والاخلاق يكتسبها الانسان عن طريق التربية والتقليد ، فمن الممكن أن يتخلق الرجال بأخلاق الاناث ، كما يمكن أن يتخلق الاناث بأخلاق الرجال وفقا لثقافة البيئة وتربيتها ، كما نجد من النساء المسترجلات ، ومن الرجال المخنثين فى مجتمعاتنا العادية .

---

(١) مجالات علم النفس للدكتور مصطفى فهمى ص ٣٩ .

غير انه ينبغى الا ننسى شيئا هاما فى هذا الموضوع ، وهو ان هناك تربيــة سليمة ، وتربيــة غير سليمة ، فالتربية السليمة هى التى تقوم على تنمية الاستعدادات الموجودة عند الافراد الى أقصى حد تؤهلهم له

فالتجارب التى أجريت فى هذا الصدد أثبتت لنا وجود بعض الاستعدادات والقدرات الخاصة لكل من الجنسين فى بعض المجالات ، والاختلاف بين الجنسين فى هـــــذه الاستعدادات والقدرات ـ كما قلنا ـ اختلاف فى الدرجة فاذا نحن عكسنا القضـــية فأردنا أن ننسى استعدادات معينة لدى المراة لا توجد عندها بالدرجة التى توجـد عند الرجل ، واستعدادات فى الرجل لا توجد عنـــده بالدرجة التى توجـد فى المرأة اعتبرت هـذه العمليــة التربوية غير ســليمة ، لان هذه العملية التربوية عملية تسويق للنمو ، فمثلا توجد عند الرجل القدرة فى العــلوم الرياضية اكثر من قدرة المرأة فى هذه العلوم ، فاذا نحن علمنا الجنسين مما هذه العلوم بنفس المستوى فلا شك ان الذكور يتفوقون على الاناث ، ويصلون الى مرتبــة من التقدم لا يمكن أن يصل اليها الاناث ، واذا علمنــا هذه العلوم للاناث ولم نعلم الذكور ، فالاناث فى هــذه الحالة يتفوقن على الذكور فى هذه القدرة ، لاننا نمينا هذه القدرة فى جنس ولم ننمها فى الجنس الآخر . ولكن هذه التنمية لا يمكن أن تصل الى الدرجة المطلوبة ، ولا تؤدى الى النتيجة التى تنتظر من الرجال ،ولهذا فالتربية تعتبر هنا غير موجهة توجيها سليما .

وكذلك الاعمال العسكرية التى تتطلب القوة البدنية والشخصية ، فالمرأة تستطيع أن تقوم بالاعمال العسكرية ولـكنها لا تستطيع أن تقوم بها بالدرجة التى يقوم بها الرجال .

والعكس صحيح فى تربية الطفل ، فالرجل يوجد عنده استعداد لتربية الطفل ونستطيع أن ننمى عنده أسلوب تربية الطفل ، ولكنه لايستطيع أن يقوم بتربية الطفل بالدرجة التى تقوم بها المرأة ، ولا نستطيع أن ننمى عنده الاسلوب أو الكفاية فى هذا الجانب بالدرجة التى نستطيعها بالنسبة الى المرأة لان لديها استعدادات طبيعية : مبنية على التركيب البيولوجى والتنظيم السيكولوجى أكثر من الرجل .

فاذا كانت التربية غير سليمة فى هذه القبائل والتقاليد الشاذة قد عكست القضية فدربت الرجال للقيام بأعمال كان أولى أن تقوم بها الاناث ودربت الاناث للقيام بأعمال كان أولى أن يقوم بها الرجال بحسب الطبيعة والتكوين والقدرات والاستعدادات الموجودة عند كل من الجنسين فلا نستطيع من ذلك أن نستخلص قضية عامة ونقول ان كل الخصائص الخاصة بالذكور ، والخصائص الخاصة بالاناث نتاج التربية والثقافة والبيئة والعادات الاجتماعية .

ثم اننا لو قسنا الوضع فى هذه القبائل الثلاث بالوضع فى المجتمعات الاخرى وتاريخ الانسانية لوجدنا العكس هو الصحيح ، فنحن لا نحكم بالوضع السائد فى قبيلة أو ثلاث قبائل على الوضع السائد فى التاريخ وفى كل المجتمعات ، والا بنينا القضايا العلمية على الشواذ .

بل ينبغى أن نحكم بالاغلبية على الاقلية وعند ذلك يعتبر الوضع فى القبائل المذكورة شاذا عن القاعدة العامة ولكل قاعدة شواذ كما يقولون .

ونحن عندما نضع النظم والقوانين نأخذ دائما فى الاعتبار الاول الاغلبية وما يشذ عنها يعتبر استثناء .

والآن بعد عرض رأى الدين والعلم والعقل والواقع

نستخلص النتائج الآتية :

اولا : وجود اختلاف فى طبيعة الرجل والمراة سواء كان هذا الاختلاف فى النوع أو فى الدرجة .

ثانيا : انه لا يصح ان نسوى الرجل بالمراة ، ولا المراة بالرجل فى كل شيء .

ثالثا : هناك حالات شاذة فردية أو جماعية خارجة على القانون العام .

رابعا : هناك تربية خاطئة قد تقرب المسافة بين سلوك الرجل والمراة الا ان هذه التربية لا تؤدى الى النمو السليم ولا تعتبر تربية سليمة .

خامسا : التوجيه السليم فى مجالات الحياة المختلفة هو توجيه كل جنس الى المجالات المناسبة له .

فيجب توجيه الذكور الى الميادين التى تؤهلهم قدراتهم واستعدادهم وامكانياتهم لان يتقدموا فيها ويقوموا بالاعمال الخاصة بها أفضل قيام ، وأن توجه الاناث الى الميادين التى يؤهلهن استعدادهن وامكانياتهن للنمو والتقدم فيها والقيام بالاعمال الخاصة بها أفضل قيام . وبناء على ذلك يجب أن يوضع كل جنس فى الموضع المناسب .

سادسا : يجب أن تخضع عملية التربية والتعليم والتنظيم الاجتماعى لهذا الاساس العلمى والدينى لتكون عملية تنمية القدرات وتوجيهها سليمة وليكون التقدم فى الميادين المختلفة والاستقرار فى التنظيم الاجتماعى مكفولا والاتفاق فى الاعمال المطلوبة مضمونا .

بناء على كل هذه الحقائق كان تنظيم الاسلام لادارة البيت على أساس أن يقوم الرجل بالادارة والرئاسة ، والقيام بالاعمال الخارجية الصعبة مثل أعباء النفقة التى تتطلب العمل فى الخارج ، والاعمال البدنية والعمليات

العقلية المجهدة ، وأن تقوم المرأة بتربية الاطفال واعمال البيت الداخليـة والخدمات الاجتماعية اللازمة للبيت حينا والضرورية للمجتمع حينا آخر .

بقيت بعض الامور الهامة التى لابد من مناقشتها فى هذا الموضوع وهى :

أولا : انه اذا كان الاسلام جعل الرجل قواما على المرأة ورئيسا لادارة البيت ، فهل هذه سلطة مطلقة ؟

الحقيقة ان الاسلام قيد هـذه السـلطة بأمرين : اولهما ، انه لا يحق له أن يأمر بشىء يخالف الاسلام والا لم تجب طاعته ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وقال تعالى : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » (١)

ثانيا : ان تقديم الرجل على المرأة فى بعض النـواحى مثل ادارة البيت ونحوها لايدل على افضلية الرجل من الناحية الانسانية ، فمن الناحية الانسانية يتسـاوى الرجل بالمرأة كل له حقوق وعليه واجبات ، فالافضلية فى نظر الاسـلام لا تقاس بالجنس ولا بالنوع ، وانما تقاس بالتقوى والعمل الصالح ، قال تعالى : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن» (٢)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا فضـل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى والعمل الصالح » .

فقد فسر بعض الرجـال وبعض المجتمعات القوامة بالافضلية فى الانسانية وبناء على هـذه الفكرة الخاطئة استذلوا المرأة واستعبدوها .

(١) سورة لقمان ١٧٠
(٢) سورة النساء ٣٢

كما ان المرأة فهمت المبدأ الاسلامى خطأ ، اذ اعتبرت ان تخفيف الاعباء عنها يعتبر تنقيصا من شأنها وبالتالى بدأت تعتبر ــ ولا سيما المتعلمات والموظفات ــ أعمال البيت أعمالا حقيرة فلا يتنازلن للطبخ وللارضاع وتربية الاطفال وغيرها من أمور المنزل ، مع ان هذا يعتبر عدلا وتكريما لها ، ذلك ان العدالة هى تكليف كل فرد بما يطيق وما هو أنسب له ، وهذا هو ما فعله الاسلام ..

فلو فرضنا مثلا وجود شخصين وكلفت أحدهما باحضار الاشياء من الخارج ولم أكلف الآخر بشيء ، وأبقيته مستريحا ، فمن الذى أكرمته هنا ؟.. لاشك اننى أكرمت الذى أبقيته مستريحا فى البيت .

وكذلك لو كان هناك عملان : أحدهما اشق من الآخر فكلفت أحدهما بالقيام بالاشق ، وكلفت الآخر بالاخف ، فمن الذى أكرمته ؟ .. لاشك اننى أكرمت الذى كلفته بالعمل الاخف .

وهكذا نرى الاسلام عدل فى هذه القضية وأكرم فيها المرأة ، فيعتبر عمل الاسلام فيها عدلا اذا نظرنا اليه من زاوية تكليفه كل واحد بحسب قدراته واستعداده ويعتبر اكراما اذا نظرنا اليه من زاوية تخفيف بعض الاعباء عنها .

ثالثا : ليس معنى القوامة والرئاسة فى البيت السطوة والسيطرة والاستبداد ونشر الرعب فى أرجاء البيت كما يفهم بعض الرجال ، بل هو اقامة الاعوجاج وتأديب الخارج على الاسلام والمنحرف عن الجادة ، وارشاده الى الاستقامة والدفاع عن الضعفاء ، واقامة العدالة بين الافراد فى البيت وتوجيههم التوجيه السليم فى الحياة ، داخل البيت وخارجه ، والدفاع عن البيت والحفاظ على كيانه ضد العوامل الهدامة من الداخل

والخارج ، وحل المشكلات التى يتعرض لها البيت بحزم وحكمة وصبر .

رابعـــا : ان الطاعة التى فرضـــها الاســـلام على الزوجة ، وعلى أفـــراد البيت ، ليست من نوع طاعة الموظف لمديره ، فالطاعة هنا لمصلحة الادارة فقط ، أما الطاعة هناك فهى لمصلحة البيت ، ولأمر دينى ثانيا ؛ فالخروج على طاعة الزوج أو الاب يعتبر خروجا على امر دينى وترك جزء من الاسلام ، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

وقال أيضا : « اذا دعا الرجل امرأته الى فراشـــه فلم تأته فبات غضبـــان عليهـــا لعنتهـــا الملائكة حتى تصبح » (١) وقال ايضا : « لو جاز لاحد أن يسجد لأحد غير الله ، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها » .

وهكذا قدس الاسلام هذه الطاعة وهذه العلاقة بين الزوجين كما قدس الزواج من البداية .

كما ان هذه الطاعة هنا ليست استذلالا واستعبادا كما يفهم بعض السيدات فالاسلام منع الاســـتذلال والاستعباد للاشخاص ، فالاسلام امـــرنا بالطاعة لاولى الامر ولم يأمرنا بالاستذلال أمامهم ولا نعتبر نحن هذه الطاعة استعبادا منهن لنا .

اذ لا يصح الاستذلال والاستعباد فى نظر الاســـلام ، الا لله الخالق الرازق ، فمن تكبر واستعبد النـــاس واذلهم أذله الله وعذبه لانه بذلك قد نازع الله فى صفته كما يقول الرســـول صـــلى الله عليه وســـلم فى الحديث القدسى معبرا عن الله سبحانه وتعالى : « الـــكبرياء

(١) البخارى ـ باب اذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ، رواية ابى هريرة .

ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار » وفى رواية لمسلم عذبتـــه (١) وقال تعالى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق » (٢) .

تنظيم نفقة البيت

ان مسألة النفقـــة فى البيت مهمة جدا ، ذلك انها ضرورة من ضروراته وركن من اركان دوامه وبقـــائه ، ولهذا لابد من تنظيمها وتحديد لمن تجب ، وعلى من تجب ، وما مقدار الواجب ؟

ولنبدأ بتنظيمها أولا بين الزوجين باعتبـــارهما أول شخصين يتكون منهما البيت وتهمهمـــا أمور البيت ، وتعتمد عليهما ادارته ويرجع اليهما اصلاحه أو افساده .

ولا شك ان كسب النفقة وجلبها من الامور الشاقة التى تحتاج الى عمل مجهد وشاق وتتطلب مسئوليـــات ضخمـــة والقدرة على اعمال ادارية وفـــكرية وتحمل ما يصيب المرء فى ســـبيلها من نصب ووصب ، فعلى من ينبغى أن تفرض ؟ .. أعلى الزوج ؟ أم على الزوجة ؟ أو على الرجل ؟ أم على المرأة ؟ ..

وقد عرفنا فى الموضوع السابق قدرات كل من الرجل والمرأة والميادين المناسبة لكل منهما بحسب استعدادهما وميولهما ، فلو أوجبنـــاها على الزوجة لثقلت عليهـــا وأضنتها وأخرجتها عن طبيعتها وأزالت منها الصفات المرغوبة فيها من الجمال والرقة وأبدلتها منهـــا ذبول الوجه وخشونة الطبع والشعور بالارهاق وكآبة النفس

(١) صحيح مسلم جـ ١٦ صفحة ١٧٣ التاج الجامع الاصول جـ ٥ ص ٣٢ .
(٢) سورة الاعراف اية ١٤٦ .

وقد يعترض هنا بأن الوظائف الادارية اليوم لا تسبب هذه الاعراض ، ولكن الاعمال لا تقتصر على هذه الوظائف فهناك عمل الفلاحين وعمل العمال والاعمال التجارية والصناعية الى آخره ، فلو تجاوزنا عما يصيبها من الاعراض المذكورة وافترضنا قدرتها على تحملها ، وهنا على وهن فانها لا تستطيع بسبب ذلك أن تقوم بأهم عمل اجتماعى خطير لا يمكن أن يقوم به الرجل كما تقوم به هى وهو تربية الطفل فهذه العملية من أهم الاعمال التى تهم المجتمع ، كما تهم الافراد وتؤثر فى حياتهم الحاضرة والمستقبلة .

من أجل هذا كله أوجب الاسلام النفقة على الزوج فى هذه الحالة أو على الرجل بوجه عام فى الحالات الاخرى .

والنفقة التى أوجبها على الزوج للزوجة ثلاثة أنواع : نفقة المسكن والملبس والمأكل . قال تعالى : « اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم » (١) وقال تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » (٢) . وللزوجة أن تنفق على نفسها فى هذه الامور من مال زوجها باعتدال ولو لم يكن الزوج حاضرا ، فقد روى ابو حمزة الرقاشى عن عمه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « كنت آخذا بزمام ناقة رسول الله ، فقال : اتقوا الله فى النساء ، ثم قال : « ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وقال النبى صلى الله عليه وسلم لهند امرأة أبى سفيان : « خذى من مال زوجك ما يكفيك ولولدك بالمعروف » .

قد يقول قائل : كثيرا ما يكون هناك فرق بين الزوجين فى الفقر والغنى ولنفرض ان الزوجة كانت غنية والزوج كان فقيرا ، فلو انه انفق نظرا الى حالته فان

(١) سورة الطلاق ٦ (٢) سورة البقرة ٢٢٣

الزوجة الغنية التي عاشت في بحبوحة من الثراء والرغد لا ترضى بذلك ولا تقنع به واذا كان الامر عكس ذلك لم يخل الامر من اضطراب .

هنا يروى أبو حنيفة أن يكون الانفاق بحسب حالة الزوج ، لان الله قال : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما اتاه الله » (١) وهناك رأى آخر وهو رأى الخصاف يرى أن يكون الانفاق بحسب حالهما معا ولكن هذا الرأى يكلف الزوج فوق طاقته .

وهذه المسألة ليست مسألة هينة حتى يستطيع ان يستدين ومن أين يدفع دين الحياة وخير مخرج من هذه المشكلة أن يتفق الطرفان قبل الزواج على نوع الحياة ، فاذا رضيت الزوجة الحياة معه بحسب حاله في السراء والضراء انتهت المشكلة ، واذا لم يرض الزوج بنفقة معينة تفوق طاقته فيلتزم بما اتفق عليه ، ولهذا قلت في اختيار الزوجة لابد من الاتفاق على نوع الحياة وذلك حسما لهذه المشكلات المتوقعة .

وليست النفقة مفروضة عليه أثناء الحياة الزوجية فقط ، بل عليه أيضا أن ينفق عليها اذا طلقها وهى فى العدة « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » (٢) أما اذا طلقها قبل أن يمسها ولم يسم لها مهرا فيجب عليه حينئذ المتعة ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » .

ونرى مما سبق ان الاسلام أكرم المرأة بجعل نفقتها على زوجها غاية الاكرام وصانها من الابتذال وأراحها

---

(١) سورة الاحزاب ٤٩ .
(٢) البقرة ٢٤١

من الارهاق ، فهو بذلك جعلها ملكة البيت وسيدته كما ان الملوك والرؤساء والحكام لا يجعلون زوجاتهم يعملن اى عمل خارج البيت تكريما لانفسهم ولزوجاتهم، أما الاسلام فقد جعل كل الزوجات ملكات فى البيوت .

ومقابل هذا كله لم يكلفهن الاسلام الا بالطاعة لازواجهن والقرار فى بيوتهن ، قال تعالى : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » وبتربية أولادهن ، ولا عليها أن تعمل الا اذا دعت لذلك الضرورات الفردية والاجتماعية .

هذا ما فعله الاسلام بالمرأة ، ولننظر الى المجتمعات الاخرى ماذا فعلت بالمرأة حين رفعت عنها النفقة وكلفتها بالعمل كالرجل أو تركت لها الحرية لكسب رزقها كما تشاء .

فماذا كانت نتيجة ذلك ؟ لقد تزعزع بنيان البيوت وتفككت الاسرة وضعفت أو انعدمت تلك الروح العائلية وزالت العصمة والعفة والادب والاخلاق وأصبحت المرأة لا تؤمن بغير المادة والترف ، ولا تعرف غير الشهوة ، ولا تقيم وزنا لدين أو قيم أو عفة أو أدب ، بالاضافة الى النتائج السيئة الاخرى ، كانتشار الامراض المعدية التى تقتل الناس وتفتك بهم .

وقد أدرك عقلاء الناس هذه الحقيقة المؤلمة ، وهذا المصير السيىء للمرأة والمجتمع ، كما أدركت المرأة ذلك أيضا بعد أن دخلت معترك الحياة وخبرت المسالك ، وكم رأينا منهن من يتمنين أن يجدن بيتا هادئا ينفق عليهن ويرعاهن ويسترحن فيه مما يعانين فى الحياة الصاخبة ، وكم نرى من المصلحين فى الشرق والغرب من ينادون بانقاذ المرأة من هذه العواقب الوخيمة وانقاذ

المجتمع من الفساد الذى أصابه من جراء ذلك ! ؟ ..

ولكن كيف ذلك وهل الى ذلك من سبيل ؟ .. وهل من السهل انقاذ الانسان بعد أن دخل الجحيم ووقع فى حفرة حفرها بيده وألقى بنفسه فيها ؟ ..

هذا نظام النفقة بين الزوج والزوجة ، أما نظامها بين الابناء والآباء ، فالاب تجب عليه نفقة أولاده الصغار والكبار العاجزين عن الكسب لعرض أو لمرض .

اما اذا كانوا كبارا فلا تجب نفقتهم عليه بل تجب عليهم نفقة الاب والام ان كانا فقيرين وعاجزين عن العمل ، وكذلك تجب نفقة الصغار على الاخوة الكبار فى هذه الحالة الاخيرة .

ولا ينبغى أن يظن المنفق ان النفقة التى ينفقها على من تجب نفقته عليه لا ثواب له من ورائها ، فهو سينال من ذلك ثوابا من الله سبحانه ، كما ينال الثواب على الصدقة ، بل أكثر من ذلك لانها صدقة وصلة وبر بشرط أن ينوى عند القيام بها انه انما ينفقها لانها واجب عليه من قبل الشرع ، وانه بذلك يؤدى واجبا من واجبات الدين ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أنفق على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة » .

تنظيم العلاقة بين الزوج والزوجة

هناك واجبات فرضها الاسلام على الزوج نحو زوجته ، كما أن هناك واجبات أخرى على الزوجة نحو زوجها ، فلا بد من مراعاة هذه الواجبات وأدائها كما ينبغى ، وذلك لدوام الحياة الزوجية وبقاء الروابط بينهما ، وليتم التوافق على أحسن ما يرام .

أ ـ واجبات الزوج نحو زوجته

وأهم هذه الواجبات :

أولا : توفير نفقتها اللازمة من المأكل والملبس والمسكن بقدر استطاعته وقدرته .

ثانيا : حسن معاشرتها واحترام مشاعرها واحساساتها الادبية والانسانية . ان المرأة انسان لها مشاعر انسانية وأدبية مثل الرجل فينبغى أن تحترم مشاعرها وشخصيتها ولا سيما عند حضور الضيوف ووجود الغرباء لان عدم احترامها فى هذه الحالات يؤثر فى نفسيتها أشد التأثير ولهذا أمر الاسلام بحسن معاشرتهن ، قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ان أحسن الناس خلقا أحسنهم خلقا مع نسائهم ، فقال : « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » (١) بالاضافة الى هذا فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن شتم المرأة وعن ضرب وجهها وعن هجرها أمام الناس ولو استحقت الضرب والهجران ، فقال عندما سئل : « ما حق الزوجة على الزوج ؟ » قال : تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح (٢) ولا تهجر الا فى البيت » (٣) هذا وقد توجد عند الزوجة صفة من الصفات لا تعجب الزوج ، فلا ينبغى فى هذه الحالة أن ينظر اليها من زاوية هذه الصفة فقط .. فتبدو فى نظره كل صفاتها فى هذه الحالة سيئة ، بل ينبغى أن يوازن بين صفاتها كلها ، فاذا

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الوصية بالنساء . ص ١٣٧

(٢) ولا تقبح أى لا تشتم .

(٣) التاج الجامع للاصول فى احاديث الرسول ج صفحة ٣١٦ .

كانت هناك صفة سيئة فقد توجد مقابلها صفة أخرى حسنة ، وهذا ما أشار اليه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « لا يفرك (١) مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضي منها آخر » .

ثم انه يجب أن يعرف ان المرأة لا تكون مثالية في سلوكها وتصرفاتها كلها ، فالتكوين البيولوجي لها جعلها أكثر ضعفا في عزيمتها وارادتها وشخصيتها بوجه عام .

وهذا ما يجعلها تقصر في أعمالها ولا تتمها ، ولا تقوم بواجبها كما ينبغي ويجب ، فينبغي في هذه الحالة تحمل هذا النقص منها ما أمكن ، ولكن لا ينبغي في نفس الوقت أن تترك على حريتها في كل تصرفاتها فيتعوج أكثر وتهمل أعمالها ولا تؤديها بالدرجة التي تستطيع أداءها .. والى هذا المعنى أشار الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « ان المرأة خلقت من ضلع أعوج لن تستقيم لك على طريقة ، فان استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وان ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها » (٢) .

ويدخل في حسن المعاشرة المحافظة على حيائها ، اذ أن جمال المرأة في حيائها ، وكذلك المحافظة على آداب المعاشرة الزوجية .

ثالثا : المحافظة على حقوقها الزوجية من اعطاء حقها في الفراش وعدم خيانتها ، ان هضم حقها في فراشها ظلم على الزوج ، كما ان خيانتها أشد ظلما وتأثيرا عليها.

ان الاسلام امر باعطاء حق الزوجة كما أمر باعطاء حق

---

(١) لا يفرك : اى لاينفر .
(٢) التاج ج ٢ ص ٣١٥ ـ باب حقوق الزوجة على زوجها .

نفسه وحق الله فى العبادة فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعبد الله بن عمرو بن العاص «يا عبد الله الم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل قلت نعم قال فلا تفعل صم وافطر وقم ونم ، فأن لجسدك عليك حقا وأن لعينك عليك حقاوأن لزوجك عليك حقا » (١)

رابعا : عدم كشف سرها لاحد : لان ذلك ينذر بالقطيعة ويخلق الحقد والضغينة ولانه يعتبر من سوء الخلق ولهذا كله فقد منع الاسلام كشف سرها ، فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى الى أمرأته وتفضى اليه ثم ينتشر سرها » (٢) .

خامسا : السماح لها بزيارة أهلها اذا ارادت ذلك والسماح لاهلها بزيارتها فى بيتها فى أوقات معلومة ، لان ذلك من صلة الرحم وهى واجب فى الاسلام فاذا هى ارادت هذه الصلة فمعنى ذلك انها ارادت اداء جزء من الاسلام .

سادسا : مساعدتها ومعاونتها عند الحاجة ولا سيما فى الحالات المرضية .

سابعا : احترام ملكيتها الخاصة والا يتصرف فيها الا بأذنها .

ب ـ واجبات الزوجة نحو زوجها

أما واجبات الزوجة نحو زوجها فهى :

أولا : الطاعة ، وقد أوجب الله تعالى الطاعة على الزوجة لما يقوم به من تكاليف النفقة والرعاية لشئونها

(١) الصحيح البخارى باب لزوجك عليك حق . (٢) صحيح مسلم باب تحريم افشاء سر المراة .

ومصالحها ثم أن التنظيم والادارة يقتضيان خضوع الافراد لواحد واولى أن تكون هذه الطاعة للزوج لما خلق الله فيه من قدرة زائدة وامكانيات عليا للادارة وتقويم الامور وتسيير دفة الحياة بحكمة واناة وصبر وعزم ، واخيرا خضوعها لامر دينى .

فجعل الطاعة جزءا من تطبيق الاسلام فاذا خالفت هذا الامر خالفت أمرا دينيا تعاقب عليه يوم القيامة .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته الى فراشها فتأبى عليه الا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها » (١) وفى رواية للبخارى : « اذا باتت المرأة مهاجرة فى فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع (٢) .

وقال أيضا : « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد ، لأمرت النساء أن يسجدن لازواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق » (٣) .

وكما أنذرهن عن الخروج على الطاعة بالعقاب يوم القيامة ، وعد اللاتى يرضين أزواجهن فى حياتهن بدخول الجنة فى الآخرة فقال الرسول : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » (٤) .

غير ان هذه الطاعة مقيدة بألا يكون فى ذلك معصية ومخالفة لأمر دينى فلا يصح أن يأمر زوجته مثلا بالمنكرات مثل شرب الخمر أو ترك العبادات أو الرقص مع الرجال الى آخره ، كما يحدث من بعض الازواج ،

---

(١) صحيح المسلم ـ باب امتناع المرأة من فراش زوجها .
(٣) التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول ـ باب ما للزوج
(٢) صحيح البخارى ـ باب اذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها .
على امرأته .
(٤) التاج الجامع للاصول فى احاديث الرسول ـ باب ما للزوج
على امرأته .

فاذا امر بذلك لا يحق لها أن تطيعه ، واذا أطاعت تكون مسئولة أمام الله .

ثانيا : المحافظة على شرفه فى السر والعلن ، فى حاضره وغيابه .

ان عدم المحافظة على شرفه بالخيانة وغيرها من أشد الامور تأثيرا على نفس الزوج وان اكثر المشكلات والخصومات تأتى نتيجة الخيانة ، بل ان الخيانة أكبر سبب لهدم البيت من أساسه وتشريد الابناء ، فليست هناك جريمة من الزوجة على الزوج أكبر من جريمة الخيانة ، كل جريمة يمكن أن يعفو عنها الزوج وتعود العلاقات وتتناسى الاخطاء ، الا جريمة الخيانة حتى ولو عفى عنها لايمكن أن تصفو العلاقة وتعود المحبة .

انها لا تعكر العلاقة فقط ، بل تعكر الحياة الزوجية طوال الحياة ، وينبغى أن نعلم ان الخيانة تضع قنبلة ان عاجلا أو آجلا فى البيت لابد من أن تنفجر ، وليس واجبها تجنب الخيانة فحسب ، بل من واجبها أيضا أن تبتعد عن كل الامور التى تؤدى الى الشبهة ، وتثير الشك وتكون موضعا للقيل والقال حولها ، فبقدر ما تحافظ على شرفها وتبتعد عن اثارة الشبهات وعن مواضع الشك فبقدر ما تصفو العلاقات وتزيد المحبة .

ولهذا فان الله عندما ذكر صفات الزوجات الصالحات ذكر من ضمنها صفة الحفاظ على شرف الزوج فى غيابه فقال تعالى : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » (١) .

ثالثا : عدم ادخال احد الى بيته الا باذنه ، وهذه النقطة مهمة أيضا لان ادخال الناس الى البيت يثير الشبهة ، والشبهة تعكر الصفو وتقلق البال ، ولهذا

(١) سورة النساء اية ٣٤

ايثارا للسلام ومحافظة على صفاء الحياة الزوجية فقد أمر الاسلام المرأة بالمحافظة على هذا الحق ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يحل للمرأة ان تصوم وزوجها شاهد الا باذنه ، ولا تأذن فى بيته الا باذنه » (١) والمراد بالصوم هنا صوم النافلة ، لان الصوم لايحتاج الى الاذن ولو منعه فعليها أن تصوم ، من هنا تدرك مدى ما تطالب به المرأة من مراعاة شعور زوجها حتى العبادات النافلة تحتاج للقيام بها الى اذن زوجها ، لان صوم المرأة يمنعه من الوقاع ، والوقاع من حقوقه ، فصوم المرأة من غير اذنه يعتبر تعديا لحقه

رابعا : حسن المعاشرة والاحترام ومقابلة الاحسان بالاحسان .

يجب أن تراعى الزوجة مشاعر زوجها ، وتعرف الاساليب الادبية الرقيقة التى تستخدمها فى مقابلة احسانه بالاحسان وافضاله بالشكر الجميل ، وينبغى ان تعلم المرأة انه ليست لديها وسيلة تضيف بها حياة الى حياة زوجها ونشاطا الى نشاطه احسن وافضل من حسن معاشرتها ورقة أسلوبها وجمال مقابلتها ولا توجد هناك وسيلة لدى المرأة تقتل بها نشاط الرجل وتميت حياته فى قلبه كالفلظة فى التعبير والخشونة فى المعاملة والعبوس فى المواجهة والمقابلة .

فالمرأة هى الرقة واللطافة أولا واخيرا ، فاذا خرجت عن هذه خرجت عن طبيعتها ، ولا سيما اذا أصبحت لا تقدر الجميل ولا تعترف بالفضل ولا تعطى وزنا لآداب المعاشرة ، فان حياتها عندئذ لا تطاق اطلاقا ، وقد أنذر الرسول صلى الله عليه وسلم المرأة من كفران

---

(١) صحيح البخارى — باب لاتأذن المرأة فى بيت زوجها لاحد الا باذنه

العشير ونكران الاحسان وبين ان هذه الخصلة ستدخلها النار يوم القيامة ، فقال : « رأيت أكثر أهل النار النساء .. قالوا لم يا رسول الله ؟ » قال : بكفرهن ، قيل : يكفرن بالله ؟ .. قال : يكفرن العشير ويكفرن الاحسان ، لو أحسنت الى احداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئا قالت : « ما رأيت منك خيرا قط » (١) .

حقا كم يكون على النفس شديدا ومؤذيا اذا أحسن الانسان الى انسان مدة طويلة ثم ينكر هذا الاحسان كله لمجرد أن يرى منه شيئا تافها أو مؤذيا ولو حدث ذلك منه من غير قصد ، ويكاد يتفق الازواج فى وجود هذه الخصلة السيئة عند المراة بوجه عام ، وانى لأعلم بنتا كان يحسن أبوها معاملتها فى صغرها وكبرها ،وحدث أن أخطأ اليها مرة ، ثم مرض ، وكان يلازم الفراش فتعمدت ألا تسأل عنه ، ولا تواسيه ، ولا تخدمه ، لانه أساء اليها مرة ، ونسيت انه أحسن اليها عشرين عاما ، فانها قد نسيت كل حسناته طوال عمرها ، هذا الخطأ الوحيد قد أزال كل ما فى نفسها من بر واحسان حتى بدأت تنظر الى والدها كأنه انسان غريب عليها أو هو عدو لها ، ان الانسان يكرم عدوه فى حالة المرض فنحن نداوى جرح عدونا فى الحرب اذا ما أصبح أسيرا لدينا ، اما هذا الاب فقد أصبح أشد من العدو فى نظرها .

الا تستحق هذه البنت أن تنال غضب الله وتحرق فى ناره عقابا على قلبها القاسى فهو كالحجارة أو اشد قسوة • وليتصور أحدنا هذا الموقف وهذه الحالة وقد وقع فيها ، وكان موقف زوجته أو بنته منه مثل ذلك

(١) صحيح البخارى ـ باب كفران العشير ـ رواية ابى سعيد من النهى .

الموقف كم يتفجر ألما وينزف قلبه دما ؟ ..

وهل تستحق هـذه المراة رحمـة من الله ؟ وكيف يرحمها ؟ وكيف تنزل عليها الرحمة من السماء ؟ وهى لم ترحم والدها القريب منها فى الارض، لا اريد التشنيع هنا بالمراة من حيث عدم وجود الرحمة والعطف والحنان فى قلبها ، بل ان المراة بوجه عام أكثر رحمـة وعطفا وحنانا من الرجل كما قلنا .

ولـكنها اكثر نكرانا وكفرانا بالفضـل والنعمـة والاحسان من الرجل ، لان المراة شديدة التأثر لاتملك نفسها عند غضبها .

خامسا : الا تشتط عليه فى طلب ما لايقدر عليه من النفقة ، ولا تمن بالانفاق ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ايما امراة ادخلت على زوجها فى امر النفقة وكلفته ما لايطيق لا يقبل الله منها صرفا ولا عدلا الا أن تتوب وترجع وتطلع منه على طاقته » (١) . وقال أيضا : « لو أن جميع ما فى الارض من ذهب وفضـة حملته المراة الى بيت زوجهـا ، ثم ضربت على راس زوجها يوما من الايام تقول : من انت ، انما المال مالى حبط عملها ولو كانت من اعبد الناس ، الا ان تتوب وترجع وتعتذر الى زوجها » (٢) .

سادسا : أن تكون أمينة على ماله وداره ومخلصـة لتربية أولاده .

الامانة مهمة جدا فى البيت ، وليست الامانة فقط بل الثقة بالامانة أيضا فاذا لم يثق الزوج بامانة زوجته لايمكن أن يستريح لها ولا يمكن أن يستريح قلبه الى ما فى البيت ، بل لايمكن أن يطمئن قلبه ابدا وهو فى داخل البيت أو خارجه ، ولا خير فى حياة الانسان اذا

---

(١) ، (٢) مكارم الاخلاق للطبرسى ص ١٥٧

لم يشعر فيها باطمئنان قلبى على نفسه وشرفه وماله ، وكم نرى من هؤلاء الازواج يضعون أماناتهم عند أناس آخرين ولا يضعونها فى بيوتهم ، وما ذلك الا لانهم لايأمنون على زوجاتهم ، فلو انهم وثقوا بهن مثل ثقتهم بغيرهن لوضعوها عندهن ، وليس المفروض أن تكون ثقتهم بهن مثل ثقتهم بغيرهن فحسب ، بل المفروض الا يثقوا بأحد كثقتهم بزوجاتهم .

***

ولهذا أمر الاسلام الزوجة بالامانة على كل ما فى البيت وأن تكون مخلصة فى عملها وفى تربية أولادها وجعلها مسئولة عن كل هذا فى بيت الزوجية ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الامير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (١) .

وهكذا يربط الاسلام الزوج بالزوجة ، والزوجة بالزوج ، ثم يربطهما بالبيت وبحياة البيت ، واخيرا يربطهما بالدين وبالدنيا وبالآخرة معا ، لانهما أساس البيت وأساس الحياة فى البيت ومربيا الاولاد .

ولهذا فهما أساس الجيل وأساس المجتمع اذا نظرنا اليهما من هذه الزاوية ومن هذه الناحية .

---

(١) صحيح البخارى باب المرأة راعية فى بيت زوجها .

تنظيم علاقة الآباء بالأبناء

هـــذا التنظيم ياتى فى الاهميـــة الثانية بعد تنظيم العلاقات بين الزوجين ذلك انه اذا كان التنظيم الاول يعتبر تنظيم أساس البيت ، فان هـذا التنظيم يعتبر تنظيم بناء البيت .

ولهذا كما يجب الاعتنـــاء بالاول ، يجب الاعتنـــاء كذلك بالثانى ، ولربما كانت صلة هذا الاخـير بالمجتمع وبحياة المجتمع اكثر من صلة الاول به ، لان هنا أولادا ينمون ويكبرون ويخرجون الى الحياة العامة ، الحياة الاجتماعية فاذا لم يلقوا العنـاية التامة ولم يأخـذوا نصيبهم من التربية المتكاملة فهذا بلا شك سوف يؤثر فى خياتهم الخاصة وحياة المجتمع عامة .

والعــلاقة بين الآباء والابناء هى عبـارة عن تبـادل الواجبات ، فلـكل واجبات نحو الآخر، فهناك واجبات الآباء نحو الابناء ، وهناك واجبات الابناء نحو الآباء ، ولنبدأ الآن بالطرف الاول لاهميته الـكبرى .

واجب الآباء نحو الابناء

هناك واجبات هامة على الآباء نحو الابناء ، أهم هذه الواجبات هى النفقة ، وقد ذكرناها ، والتسوية بينهم

فى المعاملة ، واخيرا التربيــة والتعليم ، وفى الصفحات القليلة الآتيــة ســـنحاول شرح الموضـــوعين الاخيرين بشيء من التفصيل .

١ ـ التسوية بين الابنـــاء فى المعاملة

ان تسوية الابناء فى المعاملة من واجب الآباء ، وهذه نقطة مهمة ذلك ان التفرقة فى المعــاملة تولد الحقــد والحسد فى النفوس وتزيل المحبة والتعاطف فيما بينهم من جهة ، وفيما بينهم وبين الآباء من جهة أخرى الى جانب هذا وذاك تكون هذه التفرقة سببا لنشأة بعض الامراض السيكولوجية او النفسية فى حالات كثيرة ، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله وأعدلوا فى أولادكم » (١) .

ان ايثار بعض الابناء على البعض ولا ســيما ايثــار الإبناء على البنات كما يحدث عادة فى مجتمعاتنا ـ هذا الايثار من اقبح الافعال وأرذل الخلال ، وقد كان ذلك من عادات الجاهلية وعادات بعض الشعوب البدائية ، وقد تجاوز الجاهليون ايثار الابناء على البنات الى وأد البنات وهن أحياء ، فلما جاء الاســلام حارب هــذه العادة الشنيعة محاربة شديدة . قال تعــالى : « ولا تقتلوا أولاذكم خشــية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا » (٢) وقال : « واذا المــــوءودة سئلت بأى ذنب قتلت » (٣) .. وقال : « قد خسر الذين

---

(١) سورة الاسراء اية ٣١ (٢) سورة الكوثر ٨ ـ ٩

(٣) سورة الانعام اية ١٤٠

قتلوا أولادهم سفها بغير علم » (١) .

فعليهم أن يسووا بين الاولاد والبنات فى المأكل والملبس والعطف والحنان وسائر الحقوق . وترغيبا فى ذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كان له أنثى فلم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة » .

ان الحب أمر قلبى قد يتجه نحو أحد الابناء أكثر من الآخر بسبب أو بغير سبب فهذا عمل القلب ولا طاقة لنا به ، وهذا ليس مقصورا على الابناء بل يشمل الزوجات والاقارب الا ان عمل القلب شيء والمعاملة الخارجية شيء آخر فنحن أمرنا بالعدالة فى معاملاتنا لمن نحب ولمن نكره ولا جناح فى الحب ولكن الجناح فى المعاملة بمقتضى الحب .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب عائشة اكثر من غيرها من زوجاته ومع ذلك كان يعدل فى القسم والاطعام والنفقة وغيرها من الحقوق الزوجية وكان يقول : اللهم هذا قسمى فيما املك فلا تلمنى فيما تملك ولا املك (٢) وكان يقصد العمل القلبى فى حبه لعائشة .

فالايثار وعدم العدالة فى المعاملة بالاضافة الى ازالة المحبة من بين الافراد والسعادة من البيت فانه يخلق جوا مشحونا وظلما قاتما فى سماء البيت ، ونتيجة لذلك تتحول الحياة فيه الى جحيم لا يطاق .

وما أحسن ما قالته فاطمة الانمارية عندما سئلت : اى أولادك أحب اليك ؟ . . فأجابت : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

---

(١) رياض الصالحين ـ باب كراهة تفضيل الوالد بعض أولاده على بعض

(٢) التاج الجامع للاصول فى احاديث الرسول ـ باب القسم بين الزوجات .

هـذه هى الام التى تمثل الامومة المثالية العادلة بين ابنائها ، وهذه هى المعاملة التى يرضى عنهـا الصـغير والكبير والتى أمر بها الاسـلام ، وقد أمر بذلك لتزداد المحبة والترابط بين أفراد البيت جميعا وليعيشوا فى عشهم متحابين متكاتفين متعلقين بعضهم ببعض كتعلق المحب بالمحبوبة .

٢ ـ التربية والتعليم

ان تربية الاولاد وتعليمهم فى مرحلة مبـكرة تربية صحيحة من أهم واجبات الآباء ، أو واجبات البيت عموما نحو المجتمع .. باعتباره مدرسة الاطفـال الاولى فاذا لم يقم بوظيفته فلا تعوضها أية مدرسة أو مؤسسـة أخرى .

وقـد أدركت هـذه الحقيقة الدول المتقـدمة ، كما ادركها رجال التربية وعلماء النفس .. ان خطأ التربية فى هذه المرحلة يعتبر كارثة فى حياة الاطفال ولا تقتصر مضار التربية الخاطئة على حياة الاطفال بل تتعدى الى حياة الامة ، فليست المهارة فى انجاب الاطفـال ، بل المهارة حقا فى تربيتهم وتكوينهم رجالا للمستقبل وليس الفخر فى كثرة الاطفال وانما الفخر فى صناعة الرجال ، وهكذا ينبغى أن يفكر الآباء فى طريقة التربية قبـل أن يفكروا فى انجاب الاطفـال ، يجب أن يتعلموا طرق التربية السليمة أولا وقبل كل شىء ، ان انجاب الاطفال دون أن يتزود الوالد بالـكفاية المـالية ومعرفة طرق التربية المطلوبة يعتبر جريمة فى حق الاطفال ، ولهـذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من استطاع منكم البـاءة فليتزوج » والبـاءة كما فسرناها الواجبـات الزوجيـة ومن ضـمنها الـكفاية المـالية والتعليميـة

والتربوية وكم نرى من هؤلاء الذين لا يملكون هذه الكفاية لايأتون الا بالاطفال التعساء فيصابون بأمراض عضوية تعوق النمو الطبيعى ، نتيجة قلة التغذية .. وبالامراض النفسية نتيجة سوء التربية وسوء المعاملة فيخرجون الى الحياة معوقين نعانى منهم فى مجال التربية ويعانى منهم الاطفال الاصحاء وأخيرا المجتمع كله ويخرجون الى الحياة مجرمين منحرفين.

وأمثال هؤلاء الآباء يخطئون فى حق أنفسهم ، وفى حق أبنائهم وفى حق مجتمعهم ، يخطئون فى حق انفسهم لانهم يعانون من سوء سيرة أبنائهم ويشعرون بالكآبة عندما يرون أنفسهم عاجزين عن اعطاء أبنائهم مايحتاجون اليه من التغذية والملبس والتربية والتعليم وهذا يضرهم أكثر من ضرر العزوبة ، ويخطئون فى حق ابنائهم لانهم يعيشون تعساء فى الحياة لا ملجأ يأويهم ولا مال يعلمهم ولا اعداد للحياة يصلحون به للحياة السليمة .

ويخطئون فى حق المجتمع لانهم يخرجون افرادا للمجتمع لا ينفعون الناس ولا ينتجون ، بل يستهلكون فقط ، صحتهم بحاجة الى العلاج ، وهم بحاجة الى الغذاء مع انهم لا يستطيعون كسب ثمنه ، وكم نرى من هؤلاء الاطفال وأكبادنا تنزف دما حينما نجدهم فى الشوارع فى حالة يرثى لها ، فماذا يصنع هؤلاء الاطفال لابد من أن يتحولوا اما الى شحاذين فى الطرقات واما الى سارقين أو مجرمين قساة القلوب لم يروا عطفا يعطفون به على الناس ولم يروا رحمة يرحمون بها الناس ولم يروا خيرا ليعملوا الخير ولم يتلقوا التربية الانسانية ليصبحوا ناسا بين الناس ولا يستطيعون التكيف لا فى المجتمع ولا فى المؤسسات التى يعملون فيها ومع الناس الذين يعيشون معهم ، ومن كانت خصالهم هذه لا يمكن

أن يجدوا السعادة فى الحياة والبهجة والسرور فيهما ومن منا يرضى أن يكون أبناؤه هكذا ؟ ..

ومن أهم ميزات التربية فى المرحلة المبكرة انها تؤثر فى الاطفال تأثيرا كبيرا وتصبح خبراتهم هذه عادات لايتركونها ولهذا فاننا نرى الكفار لم يؤمنوا برسالة السماء بالرغم من الاقناع العقلى وقد برروا موقفهم بأنها تجعلهم يتركون عادات وتقاليد آبائهم ، فقالوا : « أصلواتك تأمر أن نترك ما يعبد آباؤنا » (١) وقالوا : « ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » (٢) وقالوا استنكارا للوحى لانهم لم يسمعوا من آبائهم : « ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين » (٣) . وقال التربويون : ان الطفل يتقبل من آبائه أكثر مما يتقبل من معلمه وان ما عوده وتربى عليه فى صغره من الصعب ازالته عنه فى كبره ، ولذلك يجب الاعتناء والحرص على تعليمه بحيث لا يلقن الا العقائد الصحيحة ، ولا يفعل والداه بمرأى منه مايخالف الدين والآداب والاخلاق القويمة وآداب المعاشرة السليمة .

وهناك خطأ تربوى يرتكبه الآباء فى حق أبنائهم لا نتيجة الضائقة الاقتصادية ولكن نتيجة الجهل الذى يدعوهم الى الغياب عن الاسرة وقضاء أوقاتهم خارج البيت فلا يحضرون للبيت الا للنوم وللراحة ، فالام تقضى أوقاتها مع صديقاتها واصدقائها فى مواطن اللهو واللعب وأماكن الترفيه ، والاب كذلك وبذلك يهملون تربية أبنائهم والاشراف عليهم ويحرمونهم من الجو العاطفى والروح العائلية الدافئة .

وقد يكون سبب هذا أحيانا ما تقوم به الام من أعمال

---

(١) سورة هود ٨٧ . (٢) سورة سبأ ٤٣ .
(٣) سورة المؤمنون ٢٤ .

خارج البيت ، فتعجز عن القيام بدورها التربوى الذى هو أهم وظيفة لها .

ولهذا وذاك قد تحولت البيوت الى فنادق كما يقول الدكتور زكريا ابراهيم ، يقول : « ونظرا لانشغال عدد كبير من النساء المتزوجات بأعمالهن اليومية فى المصنع أو المكتب أو فى مقر آخر فقد انصرفت الكثيرات منهن عن الاهتمام بشئون البيت مما جعل من البيت مجرد فنادق للنوم ولا شك انه اذا كان فى تقييد المرأة الحديثة بالمنزل حجر على حريتها فان فى انصرافها من الحياة المنزلية قضاء مبرما على الاسرة .

هذا الى ان فى انشغال النساء المتزوجات بالمصانع والمحلات عددا كبيرا من الساعات اهمالا مؤكدا لواجب الام نحو الطفل وهو ما أدى الى تزايد عدد الاحداث الهائمين على وجوههم فى الشوارع وارتفاع نسبة الجرائم بين الاحداث عموما وليس من شك فى ان الام التى تجد نفسها مضطرة الى أن تقضى عددا كبيرا من الساعات بعيدا من بيتها لا يمكن أن تجد متسعا من الوقت للاشراف على شئون بيتها واعطاء ابنائها الصغار القسط اللازم من العناية والرعاية وكيف يتسنى للآباء أن ينعموا بعطف أمهم وأن يتلقوا عنها تربية صحيحة اذا كان جل وقتها ضائعا بين المصنع والنادى ، أو بين المكتب وحلقات الميسر .. الخ .

وفضلا عن ذلك فان الملاحظ فى كثير من البلاد الاوربية والامريكية أن تزايد الفرص أمام النساء للعمل فى المصانع والمحلات قد فوت على الكثيرات منهن فرص تعلم الفنون المنزلية وتلقى علوم التدبير والحياكة والتربية وخلافه .

والواقع ان نساء كثيرات منهن أصبحن يتوهمن أنهن أسمى بكثير من أن ينزلن بأنفسهن الى هذا المستوى ، ولذلك فان الواحدة منهن حينما تصبح زوجة وأما لا تلبث أن تجد نفسها بازاء مهمة لم تعد لها أو بازاء تبعة لا طاقة لها على النهوض بها ونظرا لحاجة مثل هؤلاء النساء الى الالمام بشئون البيت فانهن يجعلن من الحياة المنزلية جحيما لا يطاق » (١) .

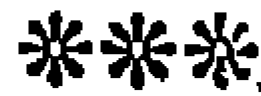
وقد أدرك هذه الحقيقة كبار رجال التربية فى روسيا بعد أن قاموا بفتح دور الحضانة ورياض الاطفال للاستغناء عن البيوت والامهات لانهم ظنوا فى البداية انهم يستطيعون الاستغناء عن حياة البيوت باستلام الاطفال من الامهات بعد الولادة وتنشئتهم فى هذه الدور

وبالرغم من انهم اضطروا أخيرا الى الاعتراف بالاسرة والحياة المنزلية وبدور الام فى التربية وخاصة فى المراحل الاولى ، وتقديرهم هذا الدور ، وتشجيع الامهات بالاهتمام بالامومة والآباء بالابوة ، فانه نظرا لانشغال المرأة فى المصانع والمكاتب اضطروا الى فتح دور حضانة فى كل مؤسسة للعاملات بها ، وقالوا أخيرا نحن نتمنى أن يأتى يوم تتحسن فيه اقتصاديات البلاد وتستغنى الامهات عن العمل ويتفرغن لتربية الاطفال والحياة المنزلية (٢) .

تلك حقيقة أدركوها بعد التجربة فى دور الحضانة لان المربيات فى هذه الدور لايمكن أن يعطين العطف والحنان لمجموعة من الاطفال ولا يمكن أن يقمن برعاية الام حتى ولو فرضنا اننا قد وجدنا لكل طفل فى هذه الدور مربية مستقلة فانها لا تستطيع أن تشبع الطفل

(١) ، (٢) الزواج والاستقرار النفسى للدكتور زكريا ابراهيم ص ١٠٨ ، ص ١١٢

من الحنان وعطف الامومة بالدرجة التى تستطيعها الام ذلك انها ليست أمه فلا بد من أن تكون باردة فى عواطفها ومشاعرها نحوه ، لان هذه العواطف والمشاعر لا تنبع من قلبها ونفسها ودوافعها الاساسية ، أما الام فلا تستطيع أن تمنع نفسها من العطف والحنان والرعاية لان هذه الامور نابعة من نفسها وقلبها وروحها لان ما فى حضنها جزء من قلبها وروحها ولحمها ودمها .



وهكذا كان الاسلام حكيما عندما دعا الى تكوين البيت والاسرة على أن تكون أساسا لتكوين المجتمع وأن تكون مدرسة الاطفال وأن يكون مدرسوها أمهات وآباء وعندما اعطى لحياة البيت وللروابط بين أفراد البيت القداسة الدينية .

والتربية ليست مجرد تهذيب الاخلاق فقط كما يفهمها كثير من الناس وانما هى بوجه عام اعداد الفرد للحياة وهذا لا يكون الا بتكوين شخصية متكاملة تستطيع التكيف مع الظروف المختلفة ومع المجتمع الذى يعيش فيه وتستطيع مواجهة مشكلات الحياة المختلفة وتتحمل صعوباتها ويكون راضيا عن أعماله ويكون المجتمع راضيا عنه ويثق فى نفسه ويثق فيه المجتمع .

الشخصية الكاملة التى تتكامل فيها جوانب النمو العقلى مع النمو الاجتماعى والعاطفى والروحى والخلقى والعلمى .

أسس التربية السليمة

ولكى تحقق التربية هذا الهدف الاساسى منها فلا بد من أن تقوم على أسس وفيما يلى سأشير الى أهمها :

الاساس الاول : أن تخضع التربية لقاعدة النمو ، فنحن لا نستطيع أن نلقن أى فكرة فى أى مرحلة من مراحل النمو وان ادعى ذلك البعض ولا نستطيع أن نطالب الطفل بالقيام بأى سلوك فى أى سن ، ولانستطيع كذلك أن نعلم كل شىء فى أى مرحلة وكذلك تهذيب الاخلاق وغيره فعملية التربية لابد من أن تساير عملية النمو الطبيعى وأن تساير نمو الميول عند الطفل ، والا فستؤدى التربية الى أضرار بالغة الخطورة لا يدركها الا التربويون وقد ذكر هؤلاء مراحل النمو وكيف يرتبط سلوك الطفل بهذه المرحلة أو تلك ، ولا أستطيع بيان كل ذلك بالتفصيل هنا لاننى لا أكتب كتابا فى التربية ،ولكن أحب اعطاء بعض المعالم الهامة ليسترشد بها الآباء والامهات ولأثير اهتمامهم بهذا المجال ليتوسعوا فى قراءة الكتب الخاصة بالتربية ان أرادوا أن يربوا أولادهم تربية سليمة .

وفيما يتعلق بمراحل نمو الطفل فقد ذكر التربويون ان الطفل فى المراحل الاولى من حياته الى حوالى السنة السادسة من عمره يقوم سلوكه وتربيته وتعليمه على

أساس اللذة والالم الحسيين فاذا ترتب على سلوكه لذة حاول فعله مرة أخرى واذا ترتب عليه ألم حاول تجنبه مرة ثانية .

، ومن هنا نجد الطفل عند تعرفه على العالم المحيط به يحاول أن يعرف كل شيء بلمسة بيده أو بفمه لانه لايملك وسيلة اخرى لمعرفة قيمة الشيء غير ذلك ، ونجده كذلك يقفز من الاماكن العالية لانه لا يقدر قيمة المسافة بالادراك والنظرة ، فليست عنده طريقة للتعرف على قيمة العالم المحيط به الا طريقة اللذة ، والالم أو بتعبير آخر طريق الحس والاختبار الحسى .

وفى المرحلة التى تليها توجه سلوكه المنفعة فاذا رأى فيه المنفعة فعله ، واذا لم ير فيه نفعاً تركه ، وهذه المرحلة تستمر الى حوالى السنة التاسعة .

وفى المرحلة التى بعدها يبدأ يبنى سلوكه على أساس ما تكون عنده من القيم فيقوم سلوكه على أساس ان هذا حسن وذاك قبيح وان هذا فعل انسانى وذاك فعل حيوانى .

هنا نجد صلة بين النمو وبين السلوك كما نجد مثل هذه الصلة بين النمو وبين عملية اختيار السن ونوع المدرسة ونوع العمل الى آخره .

ففى عملية الاختيار يمر الفتى بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : مرحلة التخيل وتستمر الى ما قبل البلوغ أو المراهقة . ففى هذه المرحلة يبنى الفتيان اختيارهم للأعمال على الخيال لانهم لا يقدرون الصعوبات المترتبة على هذا الاختيار أو ذاك ولا يستطيعون أيضا أن يوفقوا بين سلوكهم وقدراتهم لانهم لايستطيعون أن يقدروا مدى ما عندهم من استعدادات وقدرات ولان قدرات الانسان فى هذه المرحلة فى نمو مستمر اذ انها

لا تكتمل الا بعد مرحلة المراهقة .

المرحلة الثانية : مرحلة الاختيار المبدئي وتبدأ عند بدء مرحلة المراهقة ، وفي هذه المرحلة يشك المراهق في قدراته بالرغم من احساسه بنمو هذه القدرات نموا سريعا وبالرغم من بدء احساسه بالتأكد من ذاته الا ان تقديراته للأمور ونظرته الى الاوضاع تنبع من افكاره الذاتية وتخيلاته الداخلية

ولهذا يحس باخطائه عندما تحول احساساته وافكاره الى وقائع ويجد الفرق بين ما يحس وبين ما هو واقع ، بين ما يدور في داخل نفسه وبين الحقائق الخارجية . وهذا ما يجعله يختار مهنة اختيارا مؤقتا ومبدئيا الى ان يحس في قرارة نفسه باستقرار آرائه وقدراته وتصوراته عن ذاته والى أن يحس بالتلاؤم بين هذه التصورات ، والمدركات الذاتية من جهة ، وبين الحقائق الموضوعية الخارجية الواقعية من جهة اخرى .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاختيار الموضوعي الواقعي وهي تبدأ بعد مرحلة المراهقة . ففيها يبدأ اهتمامه بالاعتبارات الموضوعية الواقعية في اختياره لنوع الدراسة أو المهنة أو العمل وفي مواجهته للمشكلات ويستقر في آرائه واختياراته وفيها يحاول أيضا أن يلائم وان يوفق بين ما يحس في قرارة نفسه وبين ما يدرك من الحقائق الخارجية وبين ما يواجه من وقائع في حياته الراهنة .

اذن في هذه المرحلة تتدخل في سلوكه العوامل الذاتية والعوامل البيئية وما يدركه من الحقائق وما يؤمن به من القيم ، ونهاية المرحلة السابقة وبداية هذه المرحلة تعتبر من اهم مراحل القلق والاضطراب في حياة الفرد اذ التوفيق بين هذه العوامل واتخاذ اتجاه معين ثابت

واختيار طريقة للحياة الفكرية والعملية من أصعب الامور كما انها تعتبر أخطر مرحلة من حيث كونها ملتقى الطرق التى يحتار فيها المرء بين مسالك الحياة والاتجاهات المختلفة من جهة ، وبين الدوافع الذاتية والاهداف من جهة أخرى . ولهذا فمن السهل أن يتود الشاب ومن السهل أن ينحرف ومن أجل ذلك يجب على الآباء أن يتفهموا أولادهم ويقدروا مراحل نموهم ويساعدوهم فيها على الاتجاه السليم بالاقناع وحسن الارشاد ، وأن يبرروا ما يقع منهم أحيانا من بعض الاخطاء دون أن يوافقوا عليه وأن يتحملوه دون أن يتقبلوه .

واخيرا أود أن أنبه الى ان هذه المراحل السابقة سواء فيما يتعلق بالنمو أو فيما يتعلق بالاختيار هى مراحل لا توجد بينها حدود قاطعة وفواصل حاسمة ، بل فيها تداخل وفيها ارتباط ويختلف فيها الافراد

الاساس الثاني : وجود الفروق الفردية بين الذكور والاناث من جهة ، وبين أفراد الجنس الواحد من جهة أخرى ، ولهذا فعلى المربى أن يلاحظ هذه الفروق وأن تكون تربيته وتوجيهه مبنيين عليها ، هذه الفروق قد تكون فى الاحساس وقد تكون فى القدرات العقلية وقد تكون فى الميول وغيرها ، هذا وأهم وسيلة لنجاح التربية هى التوفيق بين القدرات ، والاستعدادات من جهة وبين الميول والاتجاهات من جهة أخرى .

الاساس الثالث : ان الطبيعة الانسانية طبيعة بيولوجية سيكولوجية معا ، أى هى مركبة من العنصر المادى والروحى أو النفسى والصلة بينهما وثيقة للغاية الا انها ليست شيئا واحدا فى الحقيقة ونفس الامر ، بل هما شيئان جوهريان مختلفان ولن اخالف فى هذا

القائلين بالوحدة البيولوجيـــة ولـكنهما بالرغم من اختلافهما يتبـــادلان التأثير والتأثر ، فالامراض البيولوجية مثلا تؤثر فى الحالة السيكولوجية والامراض السيكولوجية قد تكون سببا للأمراض البيولوجية وقـد تعالج هذه بتلك ، هـذه النقطة مهمة فى عملية تربيـة الاطفال ذلك أن بعض الآباء قد يكون اتجاههم روحيـا صرفا فلا يهتمون بجانب التربية الجسمية كعـدم الاهتمام بالتغذية والترويح والوقاية اللازمة ويكون ذلك سببا للاصـابة بالامراض والنقص فى النمو الجسمى ، وقـد يكون بعض الآباء عكس هؤلاء فيهتمون بالجانب المادى من التربية فقط ويهملون الجانب النفسى والروحى فتتكون عندهم الامراض النفسية والروحية وهـذا بالتالى يكون سببا للاصابة بالامراض العضـوية ويؤثر أيضا فى حياة الفرد الداخلية ونشاطه الخارجى .

الاساس الرابع : ان الطبيعة الانسانية ليست خيرا محضا كما يقول البعض وليست شرا محضا كما يقول البعض الآخر ، بل هى شىء خال من هذا وذاك وقابلة لان تكون شريرة ، وأن تكون خيرة ، ومصداق ذلك قوله تعالى وهو أعلم بمن خلق : « وهديناه النجدين » (١) اى خلقنا فيه استعداداً للخير والشر معا ، وقال تعـالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (٢) . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود الا يولـد على الفطـرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمحسانه » كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء (٣) .

(١) سورة البلد آية ١٠ (٢) سورة الشمس ٧

(٣) التاج جـ ٥ ص ١٩٦

اى ان الانسان يولد خاليا من اى اعتقاد ومن اى مسلك فأبواه هما اللذان يجعلانه يعتقد هذا أو ذاك ويسلك هذا المسلك الخير أو ذلك المسلك الشرير وأدل من كل هذا قوله تعالى : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (١) اذن الخير والشر يأتيان الى الانسان من التربية ، فالتربية الخيرة تطبع الانسان بالطبع الخير والتربية السيئة تطبعه بالطابع الشرير .

الاساس الخامس : مرونة الطبيعة الانسانية ، فالانسان قابل للتشكيل بأشكال مختلفة وتكوين عادات جديدة وازالة عادات قديمة ، وسهولة ذلك وصعوبته تختلف بحسب عمر الانسان ومدى قابليته للتشكيل من جهة وبين أساليب التغيير والتبديل من جهة أخرى .

الاساس السادس : تختلف أساليب التربية والتعليم ووسائلها بحسب مراحل النمو ، فمثلا الاساليب المناسبة والوسائل المستعملة لعملية التعليم فى مرحلة الطفولة غير الاساليب والوسائل التى ينبغى ان تستعمل فى مرحلة المراهقة اذ انها ينبغى أن تكون حسية بقدر الامكان فى المرحلة الاولى وأن تكون عقلية ادراكية فى المرحلة الثانية ، وقد يقتضى الامر الجمع بين الوسيلتين فى بعض الموضوعات التعليمية .

الاساس السابع : التربية الاجتماعية ينبغى أن تتم فى وسط اجتماعى وفى وسط بيئى ، فيجب تهيئة بيئة للطفل يطبق فيها المفاهيم الملقنة وأن يعيش فى بيئة لا يناقض ما فيها ما يلقن له من المفاهيم والآداب السلوكية ، فمثلا اذا أردنا أن نربى أولادنا تربية اخلاقية وآداب اجتماعية سليمة لا ينبغى أن نتركهم يصاحبون الرفقاء الاشرار الفاسدين الفاشلين وأن نجد لهم الرفقاء

---

(١) الشمس ١٠ .

الصالحين وأن نجعلهم يطبقون ما نلقن لهم من المبادىء والمفاهيم الصحيحة فى الاوساط الاجتماعية المختلفة .

الاساس الثامن : تحقيق مطالب النمو عند الاطفال ، يجب أن تحقق التربية مطالب النمو الانسانية فى طبيعة الانسان اذ ان هناك مطالب النمو الجسمى والنمو العقلى والنفسي والاجتماعى والخلقى فلا بد أن تكون التربية متكاملة ومتناسقة بحيث تتكامل فيها هذه الجوانب وان تتم كلها على مستوى واحد وان يكون هناك أيضا تناسق فيما بينها فلا يتعارض هذا الجانب مع الجانب الآخر ، وهكذا .. وفيما يلى سوف أحاول بقدر الامكان توضيح بعض المبادىء الهامة فى تربية كل جانب من الجوانب السابقة .

جوانب التربية المتكاملة

التربية الصحية :

وتشمل : الصحة الجسمية والصحة النفسية

أ ــ التربية الجسمية : للتربية الجسمية طريقتان لابد منهما اذ ان لها جانبين : جانب البناء ، وجانب الوقاية .

فالجانب الاول يتحقق عن طريق تطبيق عوامل البناء. من هذه العوامل : عامل التغذية الكاملة ، فيغذى الطفل بجميع الاغذية والفيتامينات التى يحتاج اليها ، اذ ان نقص التغذية اللازمة يعرض الجسم للاصابة بالامراض ويخلق استعدادات لها ، بالاضافة الى هذا يؤدى الى النقص فى النمو الجسمى والعقلى ، والنقص فى وظائف الاعضاء والنشاط العام فى الحياة .

وهناك عوامل أخرى تؤثر فى بناء الجسم مثل

الانشــطة الرياضيــة المختلفة ، والترويح والتنزه فى المتنزهات حيث الهواء النقى الطلق ، ومثل صـــــحة الوالدين والعوامل الوراثية الموجودة فيهما ، فاذا كانت صحتهما جيدة ، والعوامل الوراثية حسنة ، فلا شك ان كل ذلك يؤثر فى بناء جسم الطفل وعقله بناء سليما ويكون الامر خلاف ذلك اذا انعكست هذه الامور ..

الجانب الثانى من تربية الجسم هوالوقاية ، فالوقاية خير دواء ، فان الوقاية وبناء الجسم السليم يمنعـان الاستعدادات المرضية من أن تلعب دورها ، فمثلاً اذا كان عنـد الطفـل اسـتعداد لمرض السل ، فالامران السابقان يمنعانه من الاصابة بهذا المرض .

والوقاية تكون عن طريق تعويد الطفل على النظافة وعلى العادات الصحية السـليمة وابعـاده عن الاماكن الموبوءة وعن مصاحبة المرضى والذين يحتمل اصـــابتهم بالمرض ، ولا سيما الامراض المعدية ، واتباع النظام العلمى فى الملبس والمسكن .

ب ـ الصحة النفسية :

هدف الصحة النفسية هو خلق الشعور بالسـعادة والشعور بالسعادة لا يتم الا اذا اتخذ الانسان مسلـكا فى الحياة وحدد له هدفا أو أهدافا يسعى لتحقيقها .. وهذه بدورها تتلاءم مع اعتقاداته ومع ما يؤمن به من القيم الدينية والاجتماعية ، ويعمل فى مسلـكه باخلاص بحيث يشعر بالرضى عن نفسه وعن عمله ويرضى المجتمع عنه وبذلك يشعر انه انسان خير ويعمل للخير ، وان مصيره الى الخير ، وانه يعمـل ويسلك المسلك الذى يرضى ضميره ويرضى مجتمعه ويرضى ربه وهذا الرضى وهـــذا الشعور بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية

المصير هو عين السعادة فى نظرى وفى اعتقادى . ولكن هذا لايمكن أن يحدث الا بتوفير الشروط الآتية :

الشرط الاول : الشعور بالامن والطمأنينة النفسية .

الشرط الثانى : القناعة بما فى يد الانسان وعدم الطمع فيما فى أيدى الناس .

الشرط الثالث : التخلص من القلق والاضطراب والخوف والامراض النفسية الاخرى .

الشرط الرابع : اتخاذ مسلك فى الحياة يتفق مع قيم المرء الدينية والاجتماعية .

وكلما زاد مقدار تحقق هذه الشروط زاد مقدار شعور الفرد بالسعادة ، وهذا هو الطريق الوحيد الى الصحة النفسية .

غير انه لايمكن تحقيق السعادة بهذه الصورة لدى الاولاد فى كل مرحلة ، اذ انه توجد هناك أساليب مناسبة وخاصة لكل مرحلة وأساليب عامة للمراحل كلها ، ولهذا ينبغى تطبيق المبادىء العامة الآتية للصحة النفسية :

أولا : سلامة الجو العائلى من الخصومات المستمرة وتصدع الحياة العائلية ، اذ ان الخصومة المستمرة بين الوالدين تؤثر تأثيرا كبيرا فى نفسية الاطفال ، قد يكون السبب فى ذلك احساس احد الوالدين او كليهما أن الحياة الزوجية مسئولية لا تطاق أو انها قيود على حريته ، فهذا الشعور يؤدى الى الضيق من الحياة المنزلية ومن الاولاد وهذا بدوره يمنعه من اضفاء الجو العاطفى والحنان الابوى على حياة البيت ، بالاضافة الى هذا فانه يملأ البيت بجو مشحون بالانفعالات النفسية الساخطة ، عندئذ لا يشعر الابناء لا بالمحبة ولا بالعطف بل يشعرون بالنبذ والاهمال والسخط ، وهذا يؤدى

الى الشعور الباطنى بالحرمان التام من العاطفة الابوية وبهجتها ، وهو من أهم أسباب الاضطراب النفسى الذى يحدث عند الاطفال لا فى حياتهم الحاضرة ، بل فى حياتهم المقبلة أيضا .

وقد يكون السبب فى الخصومة المستمرة الزوجة المسترجلة ، أو الزوجة الهستيرية ، أو الزوج الطفل الذى ينتظر من الزوجة ما كان ينتظره من أمه حين كان طفلا . واخيرا قد يكون السبب فى هذه الحالة الادمان على المخدرات أو المجون فى السلوك

ثانيا : تحقيق الحاجات النفسية الاولية للأطفال .

من أهم هذه الحاجات الشعور بالامن والشعور بالامن مشروط بان يلقى الطفل المحبة والقبول من الابوين وأن يجد الاستقرار فى المعاملة فالتناقض الشديد فى المعاملة يؤدى الى الاضطراب الانفعالى الشديد لدى الاطفال .

ثالثا : تجنب استعمال الاساليب الخاطئة فى التربية وقد ذكر الدكتور مصطفى فهمى اهمها وهى الآتية :

ـ الحرمان من رعاية الام .

ـ شعور الطفل بأنه غير مرغوب فيه أو منبوذ ، وذلك نتيجة الاهمال وعدم تحقيق رغباته والتهديد المستمر بالطرد من المنزل أو عقابه للأمور التافهة ، وهذا هو السبب فى بعض الحالات المرضية التى تجدها عند بعض الاطفال مثل الثورة والعناد والعدوانية ومخالفة السلطة والنظام باستمرار وتعريض نفسه أحيانا للصدمات والجروح وذلك ليفرغ انفعالاته الحاقدة على الناس الناشئة من حقده على مجتمع البيت وليثير اهتمام الناس والعطف عليه بجروحه وآلامه لانه محروم من هذه الرعاية الضرورية .

- افراط الابوين فى التسامح والتساهل والصفح وهذا يؤدى الى عدم نضجهم الانفعالى وعدم أخذهم الامور بجدية وتحملهم نتائج الفشل فى الحياة لانهم عندئذ ينتظرون من الناس أن يكونوا كالابوين فى الصفح وعدم العقاب والحساب .

- الافراط فى رعاية الاطفال وحمايتهم .

- الصرامة والقسوة من جانب الوالدين فى معاملة اطفالهم اذ ان الافراط فى القسوة والرعاية كلاهما يؤديان الى نتائج سيئة .

- الطموح الزائد من الآباء .

فقد يرغب بعض الآباء فى أن يتخرج ابنه دكتورا كبيرا أو عالما فيلسوفا دون مراعاة استعدادات وامكانيات ابنه وميوله وقدراته ونتيجة لهذا يضغط عليه فى العمل والمذاكرة فيضجر الطفل من هذه العملية ويتكون عنده انفعال مضاد لهذا الاتجاه ، وبالتالى يتكون انفعال عدوانى على الوالد ثم أخيرا يسقط هذه الانفعالات المضادة العدوانية على غيره فى المجتمع (١) .

بعض المبادىء الهامة فى تربية المراهق وتوجيهه :

لعل اصعب مراحل التربية هى تربية المراهق ، كما ان أصعب المراحل التعليمية هى المرحلة الثانوية ، لان المتعلمين فيها كلهم مراهقون وقد تحير رجال التربية فى العالم فى أمر التربية فى هذه المرحلة ، وقد أشرت الى بعض أسباب ذلك عند ذكر مراحل النمو وأهمها ان المراهق يمر بمرحلة بين الطفولة والرجولة وان قدراته فى مرحلة نمو سريع ولهذا فهو يشعر بحالة تغير مفاجىء غير مستقرة فشعوره من ذاته يصبح

(١) الصحة النفسية ص ٦٧

مترددا بين الطفولة والرجولة ومعاملة الناس له يتردد كذلك بين الامرين .

ولهـذا اعتنى التربويون بتربيـة المراهق وذكـروا المبادىء والطرق والاساليب التربوية الصحيحة لذلك ، وفيما يلى أشير الى بعض هذه الاساليب الهامة وأحيل المستزيد منها الى قراءات متخصصة فى هذا الموضوع.

ولننتقل الآن الى ذكر هذه المبادىء وشرحها ..

أولا : يجب أن يفهم الآباء مشاعر أبنـائهم المراهقين واحساساتهم .

معروف ان المراهقـين يميلون الى تأكيـد ذاتيتهم ويحبون أن يظهروا شخصياتهم وأن يظهروا بالمظهـر المثالى ويميلون الى مقاومة السلطة والضغط ويرغبون فى أن تحترم شخصيتهم وآراؤهم ويضيقون من النقد الصارخ والسخرية منهم والتنقيص من شخصياتهم ، ولا شك ان هذه الصفات موجودة بدرجة من الدرجات فى أى انسان الا انها تكون ملحوظة وملحة عنـد المراهقين بدرجة زائدة عن المعتاد ، وهى توجـد بدرجة اقـل من المألوف فى مرحلة ما قبل المراهقة .

وكلما كانت الرغبات شديدة وملحة ، تركت أثرا أكبر عند تحقيقها أو عدم تحقيقها .

ولهذا فعلى الآباء أن يفهموا أبناءهم ويفهموا مشاعرهم في هـــذه المرحلة ، وعليهم ان يتعرفوا على الخبرات الماضية التى مر بها هؤلاء فى المراحل السابقة ، فهـذه الخبرات الناتجة عن معاملاتهم سـواء كانت مؤلمة أو سارة تؤثر فى سلوكهم الحاضر وفى معـاملاتهم لافراد البيت وتؤثر فى اتجاههم عن طريق اللاشعور .

ثانيا : أن يكون الآباء صرحاء وأمناء مع أبنائهم .

ثالثا : أن يحيوا مع أولادهم ويعيشوا مع مشاعرهم ورغباتهم وخبراتهم .

رابعا : ينبغى ان يروض الاباء والامهات انفسهم على مواجهة مشاعر الغضب عند المراهقين بحكمة ..

وان يتيحوا فرصا لهؤلاء الابناء ليفرغوا من شحنات انفعالاتهم ويسقطوا ما فى نفوسهم من مشاعر مكبوتة ، وعليهم أن يستقبلوا كل هذا منهم بصدر رحب وحكمة واناة ثم يشرحون لهم لماذا يغضبون هذا الغضب ويسقطون هذه الانفعالات .

خامسا : أن يعيشوا مع أبنائهم فى جو أبوى عاطفى تسود فيه المحبة والمودة والعطف والحنان . هذه الامور تجعل الابناء لا يستريحون الى مجالسة الناس كما يستريحون الى مجالسة الآباء ولايتمتعون بمصاحبة مثل مصاحبة آبائهم وأمهاتهم ، لانهم لا يجدون احدا يفهمهم ويوجههم ويخلص فى توجيههم كالوالدين وهذا يمنعهم من مصاحبة الرفقاء الاشرار والفاسدين وكل هذه الامور أهم فى هذه المرحلة من غيرها .

التربية العاطفية

العاطفة تكوين سيكولوجى وقوة دافعة تدفع الانسان الى القيام بسلوك ايجابى أو سلبى ازاء أشياء مادية أو معنوية ، وتختلف من شخص الى آخر من حيث موضوعها وعددها ونوعها ودرجة قوتها أو ضعفها ويمكن تغييرها وتبديلها وتكوين عاطفة جديدة بالطرق التربوية .

وللعاطفة مظهران : مظهر المحبة ، ومظهر الكراهية .

ان كل انسان يحب أشياء فى الحياة ويكره أشياء سواء كانت هذه الاشياء مادية أو معنوية ، غير أن هذه المحبة وتلك الكراهية لا تنشآن عبثا أو بدون سبب

ولا تنشآن كذلك بين يوم وليلة ، وانما تتكونان عند الفرد نتيجة خبرات متوالية سارة أو مؤلمة ، أو بدافع فطرى كامن فى طبيعة الانسان .

فلا تتكون عاطفة المحبة مثلا عند انسان ازاء آخر الا اذا رأى منه ما يسره مرات متوالية أو رأى منه منافع متعددة متوالية .. كما لا تتكون عاطفة القرابة أو عاطفة الاسرة الا بهذه الطريقة ، فالانسان يحب أقرباءه عادة لانه رأى منهم أشياء سارة من النفع والعطف والرعاية زمنا طويلا .

وقد تكون نتيجة واقع فطرى مثل عاطفة الابوة والامومة نحو الابناء . وقد تتكون نتيجة التربية والتلقين

هذا ويمكننا ان نلخص أهم أهداف نستطيع تحقيقها عن طريق التربية فى مجال العاطفة فى الاهداف الآتية :

الهدف الاول : تكوين العواطف الجديدة فى مختلف موضوعات الحياة القيمة .

الهدف الثانى : ازالة العواطف الضارة المتعلقة بالموضوعات التافهة غير اللائقة بالحياة الانسانية. وذلك عن طريق خلق عواطف مضادة لها وأقوى منها لان القوى يمحو الضعيف ، فالعاطفة تحارب بالعاطفة لا بشىء آخر ، كما ان الافكار تحارب بالافكار .

الهدف الثالث : التخفيف من حدة بعض العواطف القوية الشديدة التى تضر صاحبها وذلك بحذف بعض عناصرها ، أو اضافة عناصر أخرى مضادة لها .

وأهم الطرق لتحقيق هذا وذاك هى الطرق الآتية :

أولا : طريقة الخبرة ، أى نجعل الطفل يمر بخبرات سارة ازاء انسان أو موضوع أو فكرة أو عقيدة أو مذهب الى آخره اذا أردنا أن تكون عنده ازاءها عاطفة

المحبة ونجعله يمر بخبرات مؤلمة اذا أردنا أن نكون عنده ازاءها عاطفة الـكراهية .

ثانيا : طريقة التلقين والايحاء : أى أن يلقن الآباء أو التربويون عموما لابناء الامور التى ينبغى أن يفعلوها ، وذلك بالتحسين والتحبيـذ والايحاء بفائدتها وقيمتها وأن يلفتوا نظرهم الى قيم الامورالتى ينبغىأن يتجنبوها وأن يبتعدوا عنها .

ثالثا : طريقة الجمع بين الامرين معا ان أمكن ذلك ، أى أن نجعل الطفل يمر بخبرات ســارة أو مؤلمة ازاء أمور ويصحب الاولى الايحاء بالتحبيــــذ والتحسين ويصحب الثانية الايحاء بالتقبيح والتنفير .

وينبغى ان يبدأ فى ذلك كله من الصغر لان الخبرات كلما زادت والايحاءات كلما توالت أدى ذلك الى تكوين عاطفة قوية .. وعلى الاباء أن يحددوا الاتجــــاه الذى ينبغى أن يسير عليه أبنــاؤهم فى الحياة وأن يجددوا العقيدة الاسلامية الصحيحة التى ينبغى أن يعتنقوها والقيم الاسلامية الصافية التى ينبغى أن يسيروا عليهـا وأحسن مجالات الحياة التى ينبغى أن يعملوا فيها .

كما ينبغى أن يضعوا أمام أعينهم فى الاعتبار الاول خلق عاطفة الحب الاجتماعية والانسانية وعاطفـــة حب الجمال والعلم والحق والعدل وأن يخلقوا فيهم عاطفة كراهة الظلم والجهل والقبيح من السلوك وكل ما هو مكروه وبغيض فى الحياة وفى الطبيعة .

ان العاطفة مهمة للانسان فى حياته لانها تدفع الانسان الى فعل الاشياء التى يتعاطف معهـا وتدفعه الى ترك الاشياء التى يكرهها بدافع داخـلى ، بشرط أن تكون العاطفة وراء العقل وأن يكون العقل قائدها والا ستكون تصرفات الانسان غير معقولة قد تسوقه الى المهالك

وكم نرى من هؤلاء الذين تسيرهم عواطفهم لا عقولهم يقضون كل حياتهم فى الحزن والبكاء ، لا لشىء الا لان واحدا من الاقرباء قد توفى ، أو احدى محبوباتهم قد فارقتهم ، وكم نرى منهم من ينتحر أو يقبل على ذلك الامر من اجل حب أو كراهية ، وما ذلك الا لانهم قد جعلوا عاطفتهم قائدة لهم فى الحياة ، فلكى تكون حياة الانسان متزنة لابد من أن توضع العاطفة وراء العقل ، ثم ان العاطفة تعتبر روح الحياة لان الاعمال والسلوك بدون عاطفة تعتبر قوالب صورية روتينية بدون روح فهى لذلك تكون مملة ومتعبة ، أما العاطفة فانها روح الاعمال وروح النشاط .

كما ان القيام بأعمال بدون عاطفة يجعلها مملة ، بالاضافة الى ذلك لا يمكن أن تترك من ورائها الشعور باللذة ولا عند القيام بها ، وكذلك عند الابتعاد من الاعمال التى ينبغى أن يتجنبها فانه ان لم يكرهها بقلبه لا يجد فى تجنبها أى لذة أو سرور .

أما العمل مع العاطفة أو مع المحبة فانه يجعل الانسان يشعر بالارتياح واللذة ولو شعر أثناء العمل بالارهاق والتعب من جهة أخرى .

وهكذا يجب ان يهتم الآباء بتكوين العاطفة عند أبنائهم ، عاطفة المحبة نحو الاسرة ونحو المجتمع ونحو الانسانية ونحو الدين ونحو القيم الانسانية ، وأخيرا نحو جميع جوانب الحياة القيمة ، وأن يكونوا عندهم الى جانب ذلك عاطفة الكراهية للأفكار الهدامة ، والاتجاهات الخبيثة والنزعات العدوانية والسلوك البغيض وأن يكرهوا كل جانب من جوانب الحياة المنفرة والدنيئة ومناظرها القبيحة أيا كان لونها وشكلها وبذلك يحب الأبناء كل ما هو جميل وحسن

ونافع لهم وللناس ويفعلونه ويدعون الناس الى فعله ، كما يكرهون كل ما هو قبيح ومنفر وضار للغير والمجتمع ثم يتجنبونه ويدعون الناس الى تجنبه والابتعاد عنه .

وهذا من أهم الامور فى تربية الابناء واعدادهم اعدادا سليما للحياة السعيدة .

التربية الاجتماعية

ان أهمية التربية الاجتماعية للأطفال فى البيت ترجع الى أساسين هامين :

الاساس الاول : هو انه كلما كان الطفل صغيرا عند خضوعه لعملية التربية الاجتماعية كان أثر التربية أشد وقعا واكثر فائدة ، لانه يكون فى تلك الحالة أكثر قابلية للتطبع الاجتماعى وأكثر مطاوعة له .

الاساس الثانى : أثر أوان تفتح الطفل للحياة الاجتماعية له دور كبير فى تحديد وتنظيم الجانب السيكولوجى من شخصية الطفل الاجتماعية فى حاضره ومستقبله فاذا كان هذا الاتصال أو هذا التفتح الاول للحياة الاجتماعية سلبيا كان اتجاهه للجماعة سلبيا واذا كان ايجابيا كان اتجاهه ازاءها ايجابيا أيضا ، أى اذا كان هذا الاتصال محققا للحاجات السيكولوجية والبيولوجية للطفل كان تجاوبه مع المجتمع واتجاهه نحوه سليما ومقبولا .. ، أما اذا كان غير محقق لهاتين الحاجتين كان اتجاهه نحوه شاذا منحرفا عدوانيا .

واهم اهداف التربية الاجتماعية هو جعل الناس أسوياء اجتماعيا ، أسوياء فى المواقف الاجتماعية المختلفة اى أن يقف فيه كل فرد بحسب المعايير الاجتماعية العامة السائدة فى مجتمعه وهذا يظهر بوضوح فى احترامه للقيم الاجتماعية واحترامه لمشاعر الناس ،

واحساساتهم "الادبية والانسانية ، ثم مراعاته" مصلحة الجماعة بوجه عام ومصلحة الافراد الذين تجمعهم حياة مشتركة بوجه خاص .

فالخروج على هذه المعايير الاجتمـاعية وعدم مراعاة هذه الامور السابقة فى حياته يعتبر انحرافا عن السلوك الاجتماعى وشذوذا فيه .

هـــذا جانب هام من السلوك الاجتماعى بالنسبة للمجتمع وبالنسبة للفرد أيضا لان عدم استطاعة الفرد أن يقف فى المواقف الاجتماعية كما ينبغى أن يقف فيها كانسان من الناس ، أو كفرد من المجتمع مثـل عدم استطاعته مخاطبة الناس فى محفـل اجتماعى أو عدم قدرته على ابداء آرائه وافكاره للناس بالطريقة المرضية لنفسه ولغيره سواء كان ذلك لخجل منه أو لعدم اعداد أسرته له للوقوف فى هذه المواقف .. مثل هذه الحالات لاشك تؤدى الى الفشل فى نواحى الحياة الاجتماعية .

وأهم الشروط التى يجب مراعاتها فى عملية التربية الاجتماعية لتكوين انسان سوى هى الشروط الآتية :

أولا : أن يشعر الطفل منذ تفتحه للحياة الاجتماعية فى البيت بالامن والاطمئنان والاستقرار ، ولكى يتحقق هذا الشعور ينبغى توفير حاجاته الاولية وعـدم تهديده بالحرمان أو التشريد أو غير ذلك ، ثم اســتقرار معاملة الاسرة له ، فلا تتناقض معاملة الافراد له بين يوم وليلة مثلا .

واذا لم يشعر الطفل بالامن والاستقرار فى حيــاته الاجتماعية وفى علاقته بغيره سيطر على نفسه الشعور بالقلق والقلق عامل قاتل لنشاط الانسان وحيويته فى الحياة وهو من عوامل فشل الانسان فيها ، بالاضافة الى هذا فانه لا يترك الانسان يشعـر بالسـعادة فى حياته ،

ليس هذا فحسب ، بل أنه لا يشعر بالراحة ولايستريح اطلاقا لاحد ولا للحياة ، وقلقه هذا لا يقتصر على يقظته فقط ، بل فى نومه أيضا ، من هنا نجد بعض الاطفال لا ينامون نوما هادئا ، فنجدهم يبكون فى منامهم ويصرخون ، ويستيقظون فجأة وهم فى ذعر ورعب

ثانيا : تجنب القسوة فى معاملة الطفل ..

لان هذه المعاملة القاسية تخلق فى نفسه العدوانية ، لا على أفراد أسرته فحسب ، بل على المجتمع كله .

ولهذا يكون هذا الطفل فى كبره شاذا فى سلوكه منحرفا فى أخلاقه ، عدوانيا على المجتمع ، يتعدى على هذا وذاك ، بسبب وبغير سبب ، أو لامور تافهة لا تكون عادة سببا للتعدى ، بل انه يبحث عن وسائل يتذرع بها للتعدى على الناس وعلى المجتمع ، ويحاول أن يخرج باستمرار على القانون وعلى السلطة وعلى معايير المجتمع وعاداته .

ثالثا : عدم تدليله والافراط الزائد عن الحد فى رعايته ..

لان الطفل المدلل فى حياته الاسرية يخرج على المجتمع وهو ينتظر منه التدليل وتحقيق جميع متطلباته والصفح والعفو عن جميع زلاته ، ولا يستطيع مواجهة الصعاب والمشكلات لانه تعود أن تحل له جميع مشكلاته وألا يترك لمواجهة أى صعوبة فى الحياة ولذلك يفشل فى حياته العامة . اذن فان التدليل يؤدى الى انحراف معين ، كما ان التربية القاسية تؤدى الى انحراف آخر .

وان كان أحد الانحرافين أقل ضررا على المجتمع من الآخر ، الا انهما سيان بالنسبة للفرد المنحرف ، لانه لا يمكن أن ينجح المعتدى المنحرف فى حياته الاجتماعية كذلك لا يمكن أن ينجح المدلل المنحرف فى نفس الحياة ،

واخيرا لا يمكن كذلك أن ينجح الانسان القلق فى هذه الحياة .

اذن فالانسان الاجتماعى هو انسان سوى فى المجتمع وهو لا يكون قلقا فى حياته الاجتماعية ولا يكون قاسيا فى معاملة الناس ومعتديا عليهم ولا يكون كذلك مدللا كالطفل لا يستطيع مواجهة صعوبات الحياة ومشكلاتها الى جانب هذا وذاك يقف فى المواقف الاجتماعية كما ينبغى أن يقف فيها ويكون هادئا فى معاملته للناس ووازنا للأمور بموازين القسط والعدل ويعالج الامور بصبر واناة ، ولا يكون كذلك عاطفيا زائدا عن الحد فى حساسيته ولا يكون منفعلا يخرجه انفعاله عن رزانته وحكمته .

ثم لا يكون لواما يؤاخذ الناس حتى على هفواتهم البسيطة ويحاسبهم عليها حسابا عسيرا ، بل يكون متسامحا فى أمور لا ينتج عن التسامح فيها الضرر على المجتمع ولا يكون سببا لتمادى المخطىء فى اخطائه ، ويكون لينا مع الناس الذين ينفعهم اللين ، ويكون حازما مع الناس الذين لا ينفعهم الا الحزم والشدة ، يعرف الناس على سجيتهم ويضعهم فى منازلهم .

وهو فى ذلك كله يراعى المعايير الاجتماعية العامة ، ويراعى مصلحة الناس ويحترم مشاعرهم وحقوقهم .

لهذا ، فعلى الآباء والامهات أن يضعوا أمام اعينهم ان البيت أهم مدرسة لتطبيق المبادىء الاجتماعية وتطبيع الافراد تطبيعا اجتماعيا .

وينبغى ان يعلموا ان الشر يأتى الى المجتمع من البيت وكذلك الخير يأتى الى المجتمع من البيت وعليهم أن يجعلوا بيوتهم منبع خير لا منبع شر .

التربية الخلقية

اتفق التربويون على ان التربيــة الاخلاقيــة تعتبر اصعب جانب فى التربية عموما ولعل صعوبة الامر ترجع الى أن التربية هنا تعتمد على تربية النفس ، وتربية النفس أصعب من تربية الجسم ، لان العلم بشأن هذا الاخير قد تقدم واكتشف الـكثير من قوانينه ، بخلاف الاولى فان قوانين علم النفس لا تزال مجهولة ، وما اكتشف منها لا شيء بالنسبة لما لم يكتشف بعد ٠

كما اتفقوا على ان التربية الخلقية الزم تربية للحياة الانسانية ، فحياة الجماعة ومدى نجاحها وسـعادتها واستقرارها مرتبطة بحياتها الاخلاقية ، والاخلاق من أهم الصفات التى تميز الانسـان من الحيوان والحياة الإنسانية من الحياة الحيوانية .

والانسان الـكامل هو الانسان العالم صاحب الخلق وان كانت الصــفة الثـانية أهم من الاولى ، ذلك ان الأنسان الجاهل صاحب الخلق خير من العالم اللا أخلاقى، لان الثانى أضر بالناس وبالمجتمع من الاول ، والعالم الفاسد أكثر فتكا بالمجتمع من الجاهل الفاسد ، لان الثانى مهما كان فتاكا فضرره محدود لا يتجاوز حدود أفراد معينين ، أما العالم الفاســد فانه يستطيــع أن يفسد المجتمع باسره ، بل المجتمعات بأسرها .

وفى مجال التربية والتعليم ، اما أن نربى انســانا متعلمـــا فاضلا أو لا نربى ولا نعـلم ، لاننا اذا علمنــا انسانا ولم نعلمه أخلاقا ، فكأننا ربينا متعلما يستطيع أن يكون لصا ماهرا ، أو خائنا بارعا يبيع الوطن ! ٠٠

وبالرغم من ادراك التربويين لهــذه الحقيقـة ، فان التربية الاخلاقية لم تأخذ مكانها اللائق فى مجال التربية

والتعليم ، ليس فى مجتمعنا فقط ، بل فى المجتمعات كلها وان اختلفت فيما بينها بدرجة الاهتمام فى ناحية معينة من الاخلاق ، وليس المسئول عن هذا وزارات التربية والتعليم فى الدرجة الاولى فقط ، بل الآباء هم المسئولون عن التربية الاخلاقية بدرجة أكثر من مسئوليات وزارات التربية والتعليم ، أو بعبارة أعم ، ان مسئوليات البيت عن تربية الابناء بها ، أكثر من مسئولية المدرسة ، وربما تزيد مسئولية الثانية عن الاولى فى شىء واحد ، وهو التسوية بين التلميذ المتخلف والتلميذ الفاسق الفاجر المشاغب ، اذ انها تعطى شهادة حسن سير وسلوك للتلميذين بنفس الدرجة بالرغم من تفريقها بينهم فى الدرجة العلمية فى الشهادة ، وربما ينظر الناس الى هذه المسألة بشىء من التهاون ، الا انها فى نظرى خطأ كبير لا يغتفر للمدرسة ولها مغزى كبير قد لا يكون مقصودا ، الا انها تؤثر فى التربية الاخلاقية تأثيرا كبيرا بطريق غير مباشر .

والخطأ الثانى للمدرسة فى هذا المجال هو التناقض اذ انها تقرر فى المواد المقررة التربية الاخلاقية ، ثم تسوى بين الجميع فى اعطاء الشهادة الاخلاقية .. فاذا كانت لا تعطى أى أهمية للأخلاق فلماذا تقررها ، واذا كانت تعطى لها أهمية فلماذا لا تفرق بين التلاميذ فى اعطاء الشهادة ، كما تفرق بينهم فى التقديرات الاخرى فى المواد المقررة الاخرى .

هذا الخطأ وذاك لايمكن ان يغتفر للمدرسة لانه خطأ أخلاقى وخطأ علمى معا ، خطأ أخلاقى لأنها لا تعطى الاهمية للأخلاق التى هى ألزم وأهم مادة للحياة الاجتماعية بصفة عامة وحياة المتعلمين بصفة خاصة ، وخطأ علمى لانها تناقض نفسها وهى فى أحسن مركز علمى كمؤسسة علمية وتربوية وتعليمية معا .

ولا نقول ان الاخلاق أهم للحياة الاجتماعية فحسب بل نقول انه لا يمكن أن توجد الحياة الاجتماعية بدون الاخلاق ، اذ لو سادت فى الحياة الاجتماعية الخيانة ، والرشوة ، والفاحشة ، والغش ، والكذب ، والظلم ، وعدم الاخلاص والتعاون والمحبة والمودة والرحمة ، فكيف تستقيم حياة الجماعة والحالة هذه ؟ وكيف يشعر الافراد بالاطمئنان ؟ وكيف يستريح بعضهم الى بعض فى المعاملة والمصاحبة .. ؟ لاشك أنها لا تستقيم بأى حال من الاحوال .

ولو شرحنا هنا نقطتين هامتين فى هذا الصدد ، فلربما ظهرت أهمية الاخلاق والتربية الاخلاقية بشكل أوضح .

النقطة الاولى : مجال الاخلاق أو ميدانها .. ، وهذا الموضوع ربما يختلف باختلاف النظريات الاخلاقية ، ولا أستطيع بيان هذه النظريات المتعلقة به هنا ولذلك فاننى سوف أقتصر على النظرية الاخلاقية الاسلامية .. فمجال الاخلاق فى الاسلام هو هذا الكون كله ، هو علاقة الانسان بالكائنات الحية فى هذا الكون ، وهذه العلاقة المرسومة من قبل الاسلام فى ضوء فلسفة عقيدته هى بشمولها هذا ميدان الاخلاق الاسلامية ، ومن ثم يدخل فى نطاق الاخلاق الاسلامية علاقة الانسان بالله ، وتسمى العبادات ، وعلاقة الانسان بالانسان ، وهى الشريعة ، وبالكائنات الروحية وبالحيوانات الموجودة ، ويدخل هذا فى قسم الآداب العامة ، لان الاسلام يأمر بالادب مع الله ، ومع الناس ، ومع الحيوانات ، ومع الملائكة ، وربما كان أوضح دليل على هذه النظرة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « انما بعثت لاتمم مكارم

الاخلاق » (١)

نحن نعرف ان أداة « انما » في البلاغة العربية تعد أداة حصر ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يحصر هدف رسالته في الاخلاق ، ثم كلمة « لاتمم » كلمة مهمة أيضا لان الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر في حديث آخر ، انه جاء ليكمل الرسالات السماوية السابقة ، فقال : « مثلي ومثل الانبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها واكملها الا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة ، فختمت الانبياء » (٢) .

واذا كان هدف رسالته هدفا أخلاقيا وانه جاء لاتمام الرسالات السابقة ، فان هدف الرسالات السابقة هدف أخلاقي أيضا وان الاسلام جاء ليكمل البناء الاخلاقي الذي بدأ به آدم عليه السلام وأكمله محمد صلى الله عليه وسلم .

واذا كان هدف الاخلاق ـ كما قال معظم الاخلاقيين ـ هو سعادة الانسان ، اذن فهدف الرسالات السماوية هو سعادة الانسان ليس في الدنيا فقط ، بل في الآخرة أيضا ..

واذا كان هدف أخلاق الاسلام أو الاسلام بوجه عام هو السعادة وهدف الصحة النفسية في علم النفس هو السعادة أيضا فانهما يتفقان في الهدف والحق أني ما رأيت مبدأ من مبادىء الصحة النفسية سواء كانت هذه المبادىء متعلقة بتخليص الانسان من الامراض

---

(١) اخرجه احمد والحاكم والبيهقي من حديث ابي هريرة وذكره الغزالي في الاحياء ـ كتاب رياضة النفس ـ وتهذيب الاخلاق ج ٣

(٢) صحيح مسلم ـ باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ج ١٥ ص ٥٢

النفسية أو الوقاية منها ، أو كانت متعلقة بادخال السعادة في نفس الانسان .. ما رأيت مبدأ من هذه المبادىء الا وجدته فى الاسلام نفسه ، بل بالاضافة الى هذا وجدت من مبادىء الاسلام فى ميدان الصحة النفسية لم يصل اليها علماء النفس بعد .

النقطة الثانية : ان التربية الاخلاقية تهدف الى بناء شخصية خلقية أو بعبارة أخرى شخصية انسان كاملة . واذا كان الامر كذلك فان أهميتها تظهر بوضوح فى تربية الاطفال وهم صغار لان بناء الشخصية ينبغى أن يبدأ مع بناء التكوين البيولوجى للفرد وأن ينمو هذا البناء مع تطور ذلك التكوين ويكتمل مع اكتماله حتى تصبح الاخلاق طبيعة ثانية للطفل فى كبره .

ومن هنا يبدو بوضوح دور الآباء فى بناء هذه الشخصية ومسئولياتهم ازاءها ولا سيما فى مرحلة ما قبل المدرسة .

مبادىء التربية الاخلاقية

هناك مبادىء فى التربية الاخلاقية لابد من تطبيقها فى عملية التربية الخلقية ، أهم هذه المبادىء هى :

المبدأ الاول : خلق الثقة فى نفسية الطفل .

ويشمل الثقة بنفسه والثقة بغيره ، ولا سيما بالمربى ، والثقة بأن الانسان صانع سلوكه ويستطيع تغييره وتبديله اذا شاء .

المبدأ الثانى : خلق المحبة والتعاطف بين الطفل وبين أفراد البيت من جهة ، وبينه وبين الناس من جهة أخرى .

المبدأ الثالث : اشعار الاطفال ان المبادىء الخلقية نابعة من داخل الانسان وليست قوانين مفروضة عليهم من المجتمع لانها مبادىء انسانية تميز بها الانسان عن غيره من الحيوانات ، وانها ضرورة اجتماعية لا تقوم

للمجتمع قائمة بدونها .

المبدأ الرابع : ان التربية الخلقية لا تتم ولا تقوم لها قائمة بدون تربية قوة الارادة ، فتكوين قوة الارادة هو المبدأ الاساسى فى التربية الاخلاقية ولا يستطيع الانسان أن يطبق المبادىء الاخلاقية فى كل المواقف وفى كل الظروف بدون أن يملك قوة الارادة ، ومظاهر قوة الارادة هى الشجاعة فى مواجهة الحياة وألوانها المختلفة حلوها ومرها ، والثبات على المبادىء التى يؤمن بها والاستمرار فى تطبيقها مهما كلفته من العناء والمشقة .

المبدأ الخامس : خلق احساس خلقى عند الاطفال .

وهذا يتم عن طريق أشعار الطفل بانسانيته وعدم زجر الطفل وعقابه وتهديده بكثرة ، واذا كان لابد من زجر وعقاب ، فينبغى أن يكون ذلك بأخف ما يمكن .

المبدأ السادس : ان التربية الاخلاقية ينبغى أن تهدف الى بناء الشخصية الخلقية من الداخل ، اى من داخل الفرد ذاته .

وهذا يتم عن طريق تشرب الطفل المبادىء الخلقية وهذا لا يمكن أن يتم عن طريق التلقين الصورى المتبع عادة فى بلادنا فالآباء والمدرسون عادة يلقنون الاطفال المبادئ الخلقية بطريقة « افعل هذا واترك هذا ، وهذا حسن وذاك قبيح » وهذه الطريقة قد يقبلها الطفل أو لا يقبلها وقد يقبلها ظاهرا ولا يقبلها باطنا .

أما التربية الخلقية الداخلية فانها تتم عن طريق الخبرة التى يباشرها الاطفال ويصلون عن طريقها الى النتيجة الاخلاقية بأنفسهم ثم شرحها شرحا عقليا مقنعا ، واذا اتبعت عند ذلك طريقة التقلين بالتقبيح والتحسين فانها لاشك تؤثر فى نفسية الطفل تأثيرا أكثر وأعمق .

وبناء الشخصية من الداخل لا يتم بين يوم وليلة ، فانه يحتاج الى وقت طويل ، وهذا البناء أصعب من بناء العمارات وبناء المصانع ، وكما ان بناء الشخصية الخلقية صعب ويأخذ مدة طويلة كذلك هدمه صعب ويأخذ مدة طويلة .

المبدأ السابع : تطبيع الاطفال تطبيعا خلقيا .

أى جعل الاخلاق طبيعة ثانية وبذلك تصبح المبادىء الاخلاقية عادة يقوم بها الاطفال ، ولا يستطيعون مخالفتها لان النفس ليس من السهل عليها أن تخالف عاداتها .

المبدأ الثامن : وجود الفروق بين الافراد واختلافهم فى طريقة التربية الاخلاقيـة يوجب على المربى أن يقف من طفله موقف الطبيب يتعرف على طبيعته فيعمل بمقتضى علمه لان بعض الطبائع لرقة شعورها واحساساتها الرقيقة تكفيها النظرة العامة واللفتة الصغيرة لزجرها وتأديبها ، وبعضها الآخر لاينزجر الا بالشتيمة وبعضها الثالث لا ينزجر الا بالضرب ، لان طبائع هؤلاء قد فقدت رفاهة الاحساس الانسانى ولم يبق منها الا الاحساس الحيوانى الذى لا ينتبه الا بالالم الحسى ، ولهذا أجاز الاسلام الضرب لاصحاب هذه الطبائع اذا ما امتنعوا عن أداء واجبهم حين يبلغون من العمر عشر سنوات أو أكثر .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » أى اضربوهم فى هذه المرحلة اذا امتنعوا عن أداء الصلاة ولم تفدهم وسيلة أخرى ..

ان هذا الضرب مشروط بألا يكون مبرحا وألا يكون

فى الوجه ، كما ورد فى النصوص الاخرى .

وعلى اى حال فالضرب فى التربية الاسلامية مع الشروط السابقة وسيلة للتنبيه وليس وسيلة للتربية لان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر دائما بالرفق والرحمة بالصغار ،وقد ثبت نجاح التربية بوسائل المكافأة والتشجيع ، أما اثر التربية بالعقاب فلم يصل العلماء الى نتيجة قطعية بصدده وان قال أغلبهم ان العقاب كوسيلة تربوية غير ناجح بوجه عام .

طرق التربية الاخلاقية

أهم طرق التربية الاخلاقية :

أولا : القدوة الحسنة .

الطفل فى بداية حياته لايستطيع تقييم المبادىء الا على أساس ما يفعله الكبار ، فما يفعلونه فهو حسن ، وما يتركونه فهو قبيح . فالتحسين والتقبيح فى هذه المرحلة لايبنيان على التقييم العقلى ، وانما يبنيان على التقليد اذن فالاطفال يتعلمون السلوك من الكبار فى هذه المرحلة عن طريق المحاكاة والتقليد .

وقوة المحاكاة عند الاطفال قوة عجيبة يتفوقون بها على الكبار وأهم مظاهر المحاكاة فى هذه المرحلة السلوك واللغة ، اى اخراج أصوات اللغة كما هى ولهذا يقال اذا تعلم الأنسان لغة من اللغات فى صغره انها لغة الام ، أى تعلمها فى صباه من الام عن طريق المحاكاة .

وكذلك محاكاة الحركات فلا يستطيع احسن ممثل محاكاة سلوك الاشخاص كمحاكاة الاطفال الصغار ، ثم انهم فى هذه المرحلة يسجلون كل ما يرون من سلوك الوالدين ويلاحظون كل حركاتهم ويشاهدون كل أحداث تحدث حولهم ، قد يظن الكبار أنهم لا يدركون معانيها

ومغازيها .. حقا قد لا يدركون هذا ، ولكنهم يسجلونه وقد يحمل عندهم الكثير من المعانى وقد لا يحمل معنى قط ، الا انهم سيفسرونه فيما بعد ويتأثر سلوكهم به

الطريقة الثانية : تقديم الحقائق الموضوعية عن المبادىء الاخلاقية .

وهذه الطريقة تعتمد على الاقتناع النظرى للأطفال واستخدام النتائج العلمية فى مضار سوء الاخلاق .. كيف ان الزنا ينقل الامراض ، وكيف ان الخمر تضر النسل والعقل وتسبب الامراض ، وكيف ان الغش والكذب يفكك أوصال المجتمع ويخل بالنظام الانسانى ، وكيف ان عدم الاخلاص فى العمل وعدم اتقان الاعمال وعدم العمل من اجل الانسانية يؤخر المجتمع .

فالاقتناع بالسلوك والمبادىء يؤدى الى تطبيقها باستمرار غالبا الا ان هذا الاقناع لا يتم فى المرحلة المبكرة من حياة الاطفال ، ولهذا كان دور هذه الطريقة بالنسبة للأطفال الصغار يأتى فى المرتبة الثانية ، أما بالنسبة للكبار فيأتى فى المرتبة الاولى ، لان الكبار لايسلكون سلوكا معينا بناء على المحاكاة والتقليد غالبا انما يسلكون هذا السلوك ويطبقون المبادىء الخلقية بناء على الاقتناع النظرى والعقلى .

الطريقة الثالثة : طريقة الممارسة والتدريب العملى .
يجب اتاحة الفرص والمواقف الاخلاقية التى يختار فيها الاطفال تطبيق مبادىء أخلاقية معينة على غيرها ويكافأون على ذلك ويكون ذلك أحيانا بالتشجيع والتأييد وأحيانا بالوسائل الاخرى المناسبة لكل طفل .

مراتب التربية الاخلاقية

هناك مراتب للتربية الاخلاقية وهى المراتب الآتية :

المرتبة الاولى : تحديد الصورة الاخلاقية فى ذهن الاطفال .

المرتبة الثانية : هى خلق الوعى بالمبادىء والصورة الاخلاقية على أساس المعايير العقلية للسلوك الاخلاقى.

المرتبة الثالثة : خلق الشعور العاطفى والانسجام بين المبادىء الاخلاقية وبين الجانب النظرى من جهة ، وبينهما وبين التطبيق العملى من جهة أخرى .

التربية الروحية

الروح فى نظر الاسلام حقيقة كائنة فى الانسان أودعها الله فيه لمعرفته وللاتصال به أولا ، ولتدفع الانسان الى تحمل مسئولياته الانسانية فى الحياة ثانيا ، وهى وان كانت غامضة علينا ، من حيث كنهها وجوهرها ، فانها ظاهرة من حيث آثارها فى السلوك وفاعليتها فى الابدان. ولما كانت متأصلة فى الانسان فطرية فيه ، فلا بد من أن يكون لها مطالب تتغذى بها وتتقوى بتغذيتها ، كما انها تضعف وتذبل بالحرمان منها .

والتربية الروحية تقوم أولا على أساس الايمان بالله ورسالته الى البشر وبالحياة بعد الموت ومحاسبة الانسان على كل أعماله فى هذه الحياة ومجازاته عليها فى الآخرة .

وتقوم ثانيا على اداء العبادات المفروضة من صلاة ، وصوم ، وحج ، وزكاة ، وذكر الله ، على أنه هو الخالق والرازق والمطلع على الاعمال لا يغيب عنه مثقال ذرة فى السماوات والارض ، وان هذه الحياة الدنيا حياة مؤقتة ستتحول فى النهاية اذا احسن الانسان عمله وتصرفاته الى حياة أبدية ملؤها السعادة والهناء .

وتقوم ثالثا باشعار الاطفال بأن الحياة الروحية

وسيلة لاسعاد الانسان فى الحياة الدنيا والآخرة

هذا الشعور والايحاء فى نفسية الطفل وذاتيته يجعله يشعر بالاطمئنان والراحة والسعادة والثقة والمحبة ومنهج الاسلام فى التربية الروحيـة يبدأ أولا بتلقين العقيدة السليمة٠لان العقيدة هى التى تتركز عليهامبادىء الاسلام وتنبنى عليها قواعده وأحكامه ، ولهذا يجب ان ترسخ العقيدة اولا فى القلوب وتغرس فى الافئدة وتثبت فى الجنان وتندمج بدم المسلم ولحمه وتجرى فى عروقه مجرى الدم .

ثم يبدأ بتعليم أمور العبادات ، ثم آداب المعاشرة مع الناس وأسلوب معاملتهم وهذا واضح فى طريقة تعليم لقمان لابنه ، انه بدأ أولا بغرس عقيدة التوحيد فى نفس ابنه ، وذلك بنهيه عن الشرك بالله ، قال تعالى : « واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » ، ويتبع ذلك بذكر أوصاف يصور بها له عظمة الله وعلمه وقدرته وقوته الهائلة تصويرا يرتعش له الوجدان البشرى فقال : « يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير » .

وبعد انتهائه من العقيدة بدأ يعلمه العبادات وفعل الخير ، والامر به ، والنهى عن المنكر ، واتباع الآداب الاجتماعية ، والصبر على ما يصيبه فى سبيل ذلك من نصب ووصب وجهد وتعب ، فقال : « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك

ان أنكر الاصوات لصوت الحمير » .

ونجد هنا ميزة هامة فى التربية الاسلامية ، وهى انها تربط بين التربية الروحية وبين التربية الاخلاقية والاجتماعية أو بين العقيدة وبين سلوك الانسان بوجه عام

التربية العقلية :

ان التربية العقلية من الجوانب الهامة فى التربية ، لان التقدم العلمى والحضارى متوقفان عليها .

والتربية العقلية فى عمومها هى تنمية القدرات العقلية المختلفة بحسب ما تسمح به الاستعدادات الفطرية والوراثية الموجودة فى كل فرد . ولكى تحقق هذه التربية أهدافها يراعى ما يلى :

أولا : أن يخضع تقديم المعلومات لطبيعة النمو فنحن لا نستطيع أن نقدم أية معلومات فى أية مرحلة وبأى طريقة ، لان المعلومات أو طريقة تقديمها للطفل اذا كانت فوق مستواه أدى ذلك الى عدم فهمه لها من جهة واعاقة نموه من جهة أخرى والى عدم ثقته بنفسه من جهة ثالثة . فمثلا نحن نعرف ان الطفل فى المرحلة الاولى من حياته لا يستطيع ادراك المعانى المجردة ويبدأ فى ادراكها فيما قبل المراهقة وكذلك نحن نعرف ان الطفل يبدأ فى ادراك الاشياء من الكلى الى الجزئى فيدرك الاشياء أولا ادراكا كليا ، ثم ينتقل الى ادراك جزئياتها. اذن فلا يصح ان نقدم له فى المرحلة الأولى المعلومات المجردة ، ولا يصح كذلك أن نقدم له المعلومات المناسبة لهذه المرحلة بالطريقة الجزئية .

ثانيا : الا نتركه بعد تقديم المعلومات الا بعد أن نتيقن إنه قد احاطها بالادراك وأصبحت واضحة فى ذهنه ، لان عدم احاطته بالمعلومات ووضوحها فى ذهنه يجعل

المعلومات عنده مشوهة لا يستطيع تمييز بعضها عن بعض وبذلك لايستطيع استخدامها فى مواقعها ومواضعها عند اللزوم .

ثالثا : أن نقدم اليه المعلومات بطريقة نقدية ، أى ان نبين له جوانب النقص والكمال فيها وأن نشجعه على ابراز هذا الجانب وذاك

رابعا : ان تكون المعلومات التى نقدمها موثوقا بها وصحيحة ، ليكون بناء الثقافة فى ذهنه سليما فى أساسه ، فمن هنا يخطىء بعض الآباء اذ يقدمون لابنائهم معلومات خاطئة وهم يعرفون انها غير صحيحة ، وذلك اما لتخويفهم أو لصرفهم عن اجابة أسئلتهم واستفهاماتهم عن بعض الامور التى تثير أذهانهم وعقولهم

هنا تأتى اللباقة والمهارة فى التربية ، فينبغى أن يعرف الآباء كيف يجيبون على أسئلة ابنائهم بطريقة مقنعة ومناسبة لمستواهم وأن تكون اجابة صحيحة ، ليس فيها تلفيق وليس فيها تشويه للحقائق ، لان تشويه الحقائق فى هذه المرحلة معناه تشويه لعقولهم ، والى جانب اللباقة والمهارة فى طريقة الاجابة ينبغى أن يكونوا ماهرين فى تعليمهم طريقة الاسئلة أوطريقة تحويل أسئلتهم وتوجيهها الى حيث ينبغى أن تتجه اليه ، أو الى الموضوع المناسب الذى ينبغى أن يسألوا عنه ، وذلك اذا كانت أسئلتهم تتعلق بأمور لايستطيعون فهمها أو لاينتفعون بها .

خامسا : بيان وتقديم طرق التفكير للوصول الى الحقائق ..

يجب التمييز هنا بين التفكير العلمى والتفكير الخرافى : أما التفكير العلمى فله صور تختلف باختلاف الموضوعات العلمية ، فنحن نعلم ان هناك ثلاثة مجالات

للعلم ، الاول : مجال الطبيعة المحسوسة وهو مجال علم الطبيعة ، والثانى : مجال الطبيعة غير المحسوسة وهو مجال الفلسفة ، ومجال ما وراء الطبيعة ، وهو مجال الدين ، فمعيار الحق أو الحقيقة فى المجال الاول هو الاختبار والتجربة الحسية ، والمعيار فى الثانى هو العقل ، والمعيار فى الثالث هو الوحى الالهى

والتفكير الخرافى هو الذى لا سند له من العقل أو الدين أو التجربة العلمية المحسوسة مثل فكرة البخت والتنجيم ، فلا الدين يؤيده ، ولا العقل ، ولا العلم التجريبى .

لقد جاءنى احدهم يوما بعرضحال دمغة وطلب منى أن أكتب له طلبا الى الامام الحسين والسيدة زينب ، لتنفيذ بعض طلباته فى الحياة ويستشيرنى فى الوقت المناسب لتقديم هذا الطلب الى ضريحيهما ، والوقت المطلوب لانتظار التنفيذ ، وكان لى زميل لا يحضر الامتحان الا بعد زيارة ضريح الامام الحسين ، وكان يتعرض فى سبيل ذلك لاحتمال التأخر عن موعد الامتحان، لانه كان يخاف من السقوط والفشل اذا لم يزره قبل الدخول فى الامتحان كل يوم ، وكنت أعلم انه لا يؤدى فريضة الصلاة .. وهكذا كان يخاف من الامام الحسين المتوفى ، ولا يخاف من الله الذى لا اله الا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات والارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه (١) لا اريد هنا التشنيع بزيارة القبور ، اذ انه مشروع للاتعاظ والتذكر ولكن اتخاذها كآلهة من دون الله تضر وتنفع بهذه الصورة فانه بلا شك تفكير خرافى لا سند له من الدين ولا العقل ولا العلم .. وهكذا تظهر خطورة التربية

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥

العقلية فى الصغر وكيف تؤثر اذا كانت خاطئة تأثيرا سيئا فى حياة الابناء وتوجيهها فى المستقبل ، ولا يغيرها التثقيف والتعليم فى الكبر .

سادسا : تدريب الابناء على طرق استخدام المعلومات وحل المشكلات فى الحياة العملية

هذه النقطة ذات اهمية كبرى فى عملية التربية العقلية ذلك ان التعليم المجرد دون تعليم طريقة الاستفادة منه أمر لايساوى شيئا ، وان المجهود الذى نبذله فى عملية التعليم ، والمجهود الذى يبذله الابناء من أجل التعلم اذا لم يظهر آثره فى حياتهم يعتبر مجهودا ضائعا .. آن اثر التعليم ينبغى آن يظهر فى جميع جوانب شخصية المتعلم .. فى طريقة تفكيره ، وطريقة معالجته للأمور ، وطريقة سلوكه وتصرفه مع الناس ونظرته الى العالم والى الكون والى الحياة وفى جميع مواقفه فى الحياة ، ولابد من ان يتميز المتعلم فى هذه الجوانب من الحياة عن غير المتعلم ، والا لا يعتبر متعلما ومثقفا .

فالعقلية العلمية كمصباح يشع منه النور الذى يضىء ما حوله وينير طريق صاحبه فتسير تصرفاته فى ضوء نور علمه وعلى هدى القوانين العلمية .

سابعا : اثارة انتباه الأبناء الى الطبيعة وظواهرها المثيرة .. هذه الأثارة تدفع عقولنا الى البحث عن الحقيقة وعن اسباب تلك الظواهر المدهشة .. وهذا بدوره يحرك عقولنا ويوقظها من سباتها ونومها وغفلتها .

والذين يحيون حياة نشطة ويقظة ومندهشة ومثارة هم هؤلاء الذين اثارت الطبيعة عقولهم ومشاعرهم واحساساتهم وقلوبهم من الفلاسفة والادباء والعلماء .

ولهذا فقد اثار الاسلام انتباه العقول واثار المشاعر والاحساسات الى هذا الكون والى هذه الطبيعة الحية

ليكون المسلمون واعين متيقظين الى العالم المحيط بهم ليعرفوا الله فيه حق معرفته وليعرفوا حقائقه ونظمه فينتفعوا به ، قال تعالى : « وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » ــ « سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (١) وقال تعالى : « انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (٢) .

وقال ايضا : « يسبح له ما فى السماوات والارض وهو العزيز الحكيم » (٣) ــ « ان الله يمسك السماوات والارض أن تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده » (٤) ــ وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « والله لتموتون كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فاذا ماتوا استيقظوا » ، وقال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والارض » (٥) ــ « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف

(١) سورة يس آية ٣٣ وما بعدها
(٢) سورة الاحزاب آية ٧٢
(٣) سورة الحشر آية ٢٤
(٤) سورة الغاشية آية ١٩
(٥) سورة فاطر آية ٤١

سطحت » (١) .

هكذا نرى ان الاسلام يلفت انظارنا الى الامور المثيره فى الكون وفى الحياة ، بعضها مجال العقل وبعضها مجال القلب وبعضها الثالث مجال الشعور والاحساس فينبغى ان تعمل عقولنا وقلوبنا ومشاعرنا فى هذه المجالات وأن تبحث عن الحقائق فيها وأن نستفيد منها فى حياتنا المادية والمعنوية والادبية معا ، وأن نثير عقول ابنائنا وقلوبهم ومشاعرهم الى صفحات هذا الكون ليقرأوا فيها ويستفيدوا منها فى حياتهم ليحيوا حياة واعية يقظة نابضة بالحيوية والنشاط والفاعلية ، حتى لا يكونوا كهؤلاء الذين لا يفقهون ولا يعملون عقولهم وقلوبهم وابصارهم واسماعهم لادراك هذه الحقائق العجيبة فى هذا الكون وفى هذه الحياة ، قال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل وأولئك هم الغافلون » (٢) .

ان متعة الحياة ليست فى الحياة الحسية فقط كما يفهمها هؤلاء الانعام من البشر ، بل ان المتعة الاعمق ، والحياة الحقيقية هى ادراك حقيقة الكون وحقيقة الحياة واسرارها ومغزاها ومعرفة ظاهرها وباطنها .

وهكذا يجب ان نربى عقول الابناء تربية يستطيعون ان يحيوا بها حياة انسانية حقيقية كاملة تتوافر فيها المتعة العقلية والروحية والحسية والادبية معا .

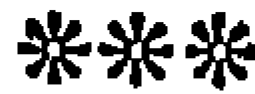
ثامنا : التشجيع على البحث عن الحق بطريقة موضوعية ثم الالتزام به أو اتباعه .

(١) سورة يونس آية ١٠١
(٢) سورة الاعراف آية ١٧٩

تاسعا : مما يساعد على نمو العقل الاغذية والفيتامينات المقوية للذكاء أو المقوية للغدة التى تساعد على نمو الذكاء . ان نقص الغذاء اللازم يؤدى الى نقص النمو العقلى .

عاشرا : توجيه نشاط الطفل العقلى وتركيزه الى اعمال عقلية باستمرار وأن يكون هذا التوجيه خاضعا للأسس التربوية .

ويتعلق بهذه النقطة عملية تخليص الطفل من القلق والصراع النفسى والتشتت الذهنى والمشكلات العائلية والنفسية الاخرى . هذه الامور من أهم العوائق امام فاعلية الذكاء ونشاطه وتركيزه كما انها من الاسباب التى تعوق نمو عقل الطفل نموا سليما . بالاضافة الى هذا فانها ترهق العقل وتبدد حيويته ونشاطه ، ان العمل العقلى باستمرار وبنظام وتوجيه وتركيز لايكون سببا للارهاق وانما يكون سببا للنشاط .



ويجب أن يعلم الآباء والامهات ان التربية والتعليم لا يقتصران على علم معين من العلوم ولا ناحية خاصة من نواحى الحياة ، بل يتصلان بكل علم وكل معلومات وكل خبرة متصلة بحياة الاولاد المختلفة . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم افراد اسرته كل شىء حتى آداب الاكل ، فقد روى عن عمر بن أبى مسلمة انه قال : كنت غلاما فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدى تطيش فى الصحفة ، فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : يا غلام سم باسم الله وكل بيمينك ، وكل مما يليك فما زالت تلك طعمتى بعد (١) .

وعليهم أن يرسلوا أولادهم لتعلم العلوم التى

(١) رياض الصالحين ــ باب الاكل مما يليه .

لايعرفونهـا أو لايستطيعون تعليمهم اياها لسـبب من الاسباب ، لان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولهذا طلب من الآباء ارسال أبنائهم الى طلب العلم ان كانوا جهلاء ليعودوا متعلمين فيعلمونهم ، قال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينـذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » (١) ولا أقول المطلوب هنا هو العلوم الدينية فقط ، بل أقول ان الدين هو المقصد الاول لانه طريق لهداية الانسان فى الحياة الدنيا ولانه خير موجه وخير مرشد لتوجيه الانسان الوجهة السليمة فى الحياة .

وبالاضافة الى تعليم العلوم الدينية وغير الدينية ، فعلى الآباء أن يقدموا لابنائهم خبرات حيـاتهم الطويلة التى تنفعهم فى حياتهم المقبلة ، فهذه أسماء بنت خارجة الفزارى تقدم لابنتها عند تزويجها خبراتها فى حيـاتها الزوجيـة ، فتقول : « انك خرجت من العش الذى درجت فيه فصرت الى فراش لم تعرفيـه وقرين لم تألفيه فكونى له أرضا يكن لك سماء ، وكونى له مهادا يكن لك عمادا ، وكونى له امة يكن لك عبدا ، لا تلحفى فيقلاك ، ولا تبـاعدى عنه فينسـاك ، ان دنى منـك فاقربى منه ، وان نأى عنك فابعـدى عنه ، واحفظى نفسه وسمعه وعينه فلا يشمن منك الا طيبا ولا يسمع الا حسنا ولا ينظر الا جميلا » .

فما أجمل ما تقدمه هذه المرأة لبنتها من الخبرة التى تعتبر دستورا لآداب المعاشرة الزوجية وطريقـا لدوام هذه المعاشرة ، وسعادة الحياة الزوجية .

(١) سورة التوبة آية ١٢٢

هذا ولا يحسبن الاب ان منفعة التربية والتعليم تعود عليه في الدنيا فقط ، بل من اللازم أن يعتقد ان للتعلم نفعا يعود عليه في الآخرة أيضا .. اذا عمل بعلمه الاعمال الصالحات واستغفر له ودعا له .. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله من الدنيا الا من ثلاث ، علم ينتفع به ، وصدقة جارية ، وولد صالح يدعو له » .

واجب الابنـاء نحو الآباء

ليت الابناء قدروا حق الآباء وعرفوا فضلهم عليهم حق معرفته وواجبهم نحوهم حتى يقابلوا الاحسـان بالاحسان ، والفضل بالفضل ، والواجب بالواجب ، ولـكن أنى لهم ذلك ، ان أقل الواجب عليهم تجاههم الطاعة والبر والاحسان مقـابل انعامهم عليهم وتعبهم من أجلهم وهم صغار ، وكيف لا يجب على الانسان أن يطيع والديه وقد حملته أمه وهنا على وهن ووضعته وهنا على وهن ، وحملته حين كان جنينا في بطنها ، وحملته بعد أن وضـعته في حضنهـا على مر السنين والايام ، وكم سهرت عليه لراحته واستيقظت من نومها لصياحه ، مرضت لمرضه ، وبكت لبكائه ، والاب كد وجـد وتعب من أجل ولده رعاية لنموه ومحافظة على صحته وحياته .

فاذا كان الامر كذلك ، اليس من الواجب معاونتهما ودفع الاذى عنهما والانفاق عليهما ، ولا سيما اذا كانا قد ضعفا وعجزا ، أو مرضا وشاخا ، واخذا ينظران اليه نظرة من يطلب رد الجميل ، فهل يقابل النعمـة بالنعمة والاحسان بالاحسان ، ام يسيء اليهما بعـد احسانهما اليه ؟ ! ..

اذن فلا غرو ، أن ذكر الله واجب احسانهما وبرهما بعد واجب توحيده وعبادته فى قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » وقال تعالى ايضا : « أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » .

واذن فالواجب الاول على الانسان توحيد الله وعبادته ، والواجب الثانى بر الوالدين واحسانهما ، ويجب عليه الاستمرار فى برهما والاحسان اليهما ولو كانا كافرين ، فقد روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق انها ذهبت الى الرسول صلى الله عليه وسلم تستشيره عن صلة أمها عندما قدمت وهى راغبة فى تجديد الصلة قالت : قدمت على امى وهى راغبة .. أفأصل امى ؟ قال : « نعم صلى أمك » لان هذا شىء ، والكفر والاشراك شىء آخر ، هذا واجبها نحوها وذلك واجب امها نحو ربها .

ولا ينبغى له أن يظهر اى سخط أو ضجر ولو بعبوس الوجه أو تحريك المنكبين أو بكلمة أف ، لان ذلك يؤذيهما مهما كان طلبهما ثقيلا ، فقال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (١)

وكيف لايؤذيهما ذلك وهما فى هذه المرحلة من الكبر والعجز ، وكيف لا يتأثران من ذلك وقد بذلا لابنائهم كل ما لديهم من صحة ومال ولم يبق لهما الا شىء واحد هو انتظار الاحسان والبر ، ومن هنا نجد اهتمام الأديان برحمتهما ولو كان فيها تذلل لهما ، واذا كانت هناك آية فى القرآن الكريم يمكن أن نفهم منها ايحاء

(١) سورة الاسراء آية ٢٤ .

لتذلل الانسان لانسان فى حالة من الحالات فهى هذه الآية التى توحى الى الابن بالتذلل بالرحمة لوالديه فى هذه الحالة من الكبر فى السن .

وقد ذهب الاسلام اكثر من ذلك ، حتى انه جعل طاعتهما والعمل من اجلهما جهادا فى سبيل الله . روى ان رجلا جاء يستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد ، فقال له : أحى والداك ؟ .. قال : نعم ، قال : ففيهما جاهد ..

ولقد تحدث القرآن الكريم عما نال الذى ابر بوالديه واحسن معاملتهما من الصفح والغفران من الله وقبول ما عمل من الاعمال الصالحة ، فقال تعالى : « حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربى اوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن اعمل صالحا ترضاه واصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين أولئك نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » (١) .

كما بين القرآن الكريم وبال العقوق والعصيان للوالدين ، فضرب المثل بابن عاق جاحد لا ينتصح بنصحهما ولا يذعن لرجائهما فكانت عاقبته الخسران والهلاك ، قال تعالى : « والذي قال لوالديه اف لكما اتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الاولين أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الانس والجن إنهم كانوا خاسرين » (٢) وكان هذا ممثلا فى ابن نوح حين عصى

(١) سورة لقمان آية ١٤
(٢) سورة الاحقاف آية ١٨

أباه ولم يركب معه فى سفينته فكان من المغرقين .

ولقد اعتبر الاسلام عقوق الوالدين وقطع صلاتهما وبرهما من كبائر الذنوب ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، قالوا ، بلى يا رسول الله ، قال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور والزنا . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الكبائر أن يشتم الرجل والديه ، قالوا وهل يسب الانسان أباه ؟ فقال : نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه .

ومن عجب تعجب الصحابة من شتم الانسان أباه فى ذلك الوقت ، وكم كانوا يعجبون لو رأوا ما يحدث فى زمننا من ضرب الابناء لآبائهم وشتمهم شتما مباشرا ، وتركهم مرضى على فراش المرض دون مساعدة وخدمة ، وقطع اعانتهما وهما عاجزان عن الكسب ، بل أشد من هذا وأمر ، نسمع هنا وهناك أحيانا أن يقتل الابن احد والديه او كليهما طعنا بالسكين ، أوضربا بالرصاص او حرقا بالنار ، ويا ترى كيف يكون مصير هؤلاء فى الدنيا وعاقبتهم فى الآخرة ؟ ..

غير انه ينبغى أن يلاحظ ان الاسلام بالرغم من تشدده فى عدم عصيان أمر الوالدين ، فان الامر ليس على اطلاقه ، اذ قيد هذا فى حدود الدين فلا يطاع مثلا اذا أمر بشيء يعتبر مخالفا المدين ، قال تعالى : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » (٢) .

ومثل المنع من التعليم لا لعدم قدرته المالية ، وانما لعقليته التافهة ، لان طلب العلم واجب المسلم ، ومثل الاكراه فى مسألة الزواج ، فلا يحق للوالد أن يكره بنته

(٢) سورة لقمان آية ١٥

على زواج شخص معين وهى لا تحبه أو لا ترغب فيه او اكراه ابنه على زواج بنت معينة وهو غير راض

هـذا ، وقد أشارت الآية السابقة الى نقطة دقيقة وملحوظة هامة ، وهى ان عدم الطاعة لا يستلزم قطع الصلة والخصومة ، ولهـذا قال تعالى : « فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » حتى ولو كانا كافرين ، فان عصيانهما لا يبطل الاحسان اليهما .

وهكذا نجد ان الاسـلام قد وطد العلاقة بين الآباء والابناء وجعلها صلة قوية ورابطة وثيقة وأضفى عليها القداسة الدينية وقربها من العلاقة والرابطة بين الانسان وربه .

أسس التعامل بين أفراد البيت

لابد أن يكون هناك أسس يقوم عليها التعامل بين أفراد البيت ، يؤمن بها كل واحد منهم ويسير عليها فى معاملاته مع غيره ، ولا بد أن يؤدى تطبيقها الى تقوية الروابط والعلاقات بين هؤلاء ويزيد مقدار التكيف الاجتماعى وسعادة البيت .. هذه الاسس هى :

اولا : ان يعامل كل فرد الاخرين بما يحب ان يعاملوه به

هذا المبدأ السلوكى والمعيار الخلقى ربما يعتبر اهم أساس ضرورى لتقوم الحياة الاجتماعية السليمة مهما كان لون هذا المجتمع وشكله ودينه ، ولقد أشاد به الحكماء والفلاسفة والاجتماعيون جميعا ، كما أشاد به الاسلام اكثر من هؤلاء جميعا حتى ربطه بالايمان فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » ، وليضع كل فرد المعاملة التى يريد أن يعامل بها غيره أمام عينه أولا وقبل أن يقوم بها وليطبقها على نفسه ، فاذا رضى ضميره ووجدانه وايمانه بالانسانية أن يعامله بها غيره فليعامل بها هو غيره ، ان هذا الميزان يمثل خير تمثيل ميزان خيرية السلوك وشريعته .

ثانيا : المحبة والرحمة

ان مجتمع البيت اشد احتياجا الى التراحم والتحاب والتواد من أى مجتمع آخر ، لانه أحوج الى الروابط الوشيجة بين أفراده .. وكيف لا وهم يعيشون فى مكان واحد ويحتاج كل واحد الى الآخر كل يوم وكل لحظة ، ويواجه بعضهم البعض بصورة مستمرة بالليل والنهار فاذا لم تقم معاملتهم على المحبة والرحمة فلا خير فى حياتهم ولا معنى لها .

ان قلة الارزاق والوسائل الترفيهية لا تكون من اسباب تعكير الحياة بقدر ما تكون الفلظة والقسوة فى المعاملة سببا لتعكير الحياة وتفكك أوصال المجتمع بوجه عام ومجتمع البيت بوجه خاص ، فالبيت الذى تسود فيه الرحمة والمحبة والمودة يغمره الحنان والعطف والشفقة وهذا هو البيت السعيد .

واذا اراد الآباء ان تكون بيوتهم من هذا النوع فعليهم ان يقابلوا أفراد الاسرة بطلاقة الوجه وابتسامة الثغر، وان يضفوا أبوتهم وحنوهم وعطفهم وشفقتهم على الجميع لايخصون واحدا دون الآخر وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء » وكان مع علو شأنه وعظمة رسالته وثقل حمله فى نشر دعوته ، لا يقصر فى اضفاء محبته على أهل بيته فروى ان الحسن كان يبكى مرة وكان أبواه لايسمعانه فأسرع الرسول الى شاة فى ساحة الدار فحلبها وسقى الحسن من لبنها ، وكان مرة يخطب والحسن والحسين يأتيان اليه فيمشيان مرة ويتعثران مرة أخرى ، فنزل من فوق منبره فحملهما بين يديه ثم قال : نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويتعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ، وكان مرة

يمشي في الطريق فوجد الحسن يلعب مع أترابه فحاول امساكه وكان يفر منه من هنا الى هناك وظل يسعى وراءه حتى أدركه وحمله الى صدره وقبله من وجنتيه عندما رأى هذا المشهد أحد الصحابة ، قال يا رسول الله : ان لي أولادا ما قبلت أحدا منهم قط ، فقال : له حينئذ : « من لا يرحم لا يرحم » ، وكان الرسول يوصي دائما الآباء بالرحمة بالابناء ، فقال : من كان له ولد فليتقارب له فيكون معه كما يكون الصبي مع الصبي ملاطفة له ، وهـذا هو أسلم طريق للصحة النفسية في هذه المرحلة من حياة الاطفال .

وليس التراحم والتحاب مقصورين في البيت على ما بين الآباء والابناء ، بل يجب أن تكون دعامة الحياة الزوجية قائمة على المحبة والرحمة أيضا فلا معنى للحياة الزوجية اذا لم يكن أساسها المحبة والرحمة .

ثالثا : احترام مشاعر الاخرين

ان لكل انسان مشاعر عامة وخاصة تختلف عن مشاعر الآخرين بدرجة قليلة أو كثيرة ، فعلى كل واحد أن يفهم مشاعر الغير في البيت ، ثم عليه أن يحترم مشاعره واحساساته عندما يعامله ولا سيما عندما يكون هناك غرباء أو ضيوف أو أصدقاء ، اذ ان عدم احترام المشاعر في هذه الحالة الاخيرة أشد على النفس من الحالات السابقة ، وكثير من أسباب الخلاف والمشكلات والنزاع والخصومات تنشأ نتيجة عدم احترام شعور الآخرين ، كأن يذكر أحدهم عيوب الآخر أمام أصدقائه أو معارفه ، أو أن يصرخ في وجهه أمام الناس لسبب من الاسباب ، أو عدم القيام بواجب الضيوف عندما يدعو أحد الافراد أصدقاءه ، أو عدم احترامه

مشاعر ضيوفه . من أجل هـذا كله ينبغى أن يعتبر هذا الاحترام من أسس التعامل فى مجتمع البيت .

رابعا : التعاون فى القيام بالواجبات

هذه النقطة مهمة أيضا فى البيت وأكثر أهميـة ان يلتزم بها الزوجان ، ذلك ان أحد الزوجين قد يعجز عن القيام بواجبه لحالات عرضية أو مرضية ، أو انه لايستطيع القيام به كما ينبغى لأمر من الامور ، فعلى الآخر فى هذه الحالة أن يساعده ويعاونه فى أداء واجبه ، فعلى كل واحد أن يعتبر ان كل الاعمال المتعلقة بالبيت عمله وواجبه . قال تعالى : « وتعـــاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

مظاهر الحياة فى البيت الاسلامى

سنتكلم تحت هذا العنوان عن ثلاثة مظاهر : مظهر النظافة ، ومظهر الادوات ، ومظهر الكسوة ، ونبرز فيها مدى اهتمام الاسلام بكل واحد من هذه المظاهر ، وكيف تمثل هذه الامور مجتمعة صورة ، أو شكل الحياة فى البيت الاسلامى وتعطيه طابعا اسلاميا خاصا.

أ ـ نظافة البيت :

اهتم الاسلام بالنظافة اهتماما كبيرا حتى جعلها مرة شطرا من الايمان ، وجعلها مرة أخرى شرطا له ، وهذا موافق لروح الاسلام ، ذلك انه أمر أول ما أمر بتطهير القلوب من أدران الشرك ، ثم من الغل والغش والحسد والحقد ، وأمر بنظافة الجسد والملبس ليكون المسلم نظيف المظهر ، ونظيف الباطن ، وليطابق طهارته فى ظاهره طهارة قلبه ، وأمر بنظافة المأكل والمشرب ، والادوات فى البيت لوقاية الافراد من الامراض .

بالاضافة الى هذا ، فان للنظافة أهمية اجتماعية ، ذلك ان القذارة نتنة تنفر الناس بعضهم من بعض

ومعلوم ان الاسلام يأمر بالتكتل ، والتجمع ، والمصاحبة والمصادقة ، ومن هنا نرى انه جعل فضل صلاة الجماعة على صلاة المنفرد خمسة وعشرين درجة ،

وكره للناس حضور المساجد اذا أكلوا الثوم والبصل ، واستحب التطيب والاغتسال والتزين قبل صلاة الجمعة قال تعالى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باستعمال السواك حتى لا تكون أفواه النـاس تفوح بالرائحة الكريهة . قال صلى الله عليه وسلم : تسوكوا ، فان السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب ، ما جاءنى جبريل الا واوصانى بالسواك حتى خشيت أن يفرض على وعلى أمتى . وقد أمر بالسواك لانه لم يكن فى ذلك الوقت فى تلك البيئة وسيلة لتطهير الفم أحسن منه ، ولهذا فالاستحباب ـ كما أفهمه ـ لا فى السواك نفسه وانما فى النظافة .

وقال أيضا : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فان بنى اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الى نقطة هامة ، وهى ان عدم النظافة يكون سببا للزنا ، ذلك ان أحد الزوجين اذا كان يهمل النظافة ، نظافة جسمه ، ونظافة ثيابه فيكون منظره بشعا ورائحته نتنة ، فينفر الآخر منه ، فلا يجب أن يقترب اليه ويرغب فيه ، وبذلك يتحول عنه الى غيره ، ولهذا ينبغى أن يتزين كل واحد لصاحبه بالصورة التى يجب أن يظهر فيها أو يرغب فيها .

ب ـ كسوة البيت وملابسه :

فيما يتعلق بالاقمشة اجاز الاسلام للمرأة لبس أنواع الاقمشة والتزين بها ، أما بالنسبة للرجل فلا يجوز له لبس الالبسة المصنوعة من حرير دود القز ، أما اللباس المصنوع من حرير الاعشاب أو من الحرير

الصناعى فلا مانع من ذلك .

وفيما يتعلق بالتزين لا يجوز للرجل أن يتزين بالذهب ولبس الحرير ويجوز له التزين بالفضة ، أما بالنسبة للمرأة فلها حق التزين بالذهب والحرير وجميع أنواع الزينة لان التزين من مطالب طبيعة المرأة . والاسلام لا يحرم الانسان من اشباع مطالبه الاولية وان كان قد وضع لهذا الاشباع بعض القيود التى ينبغى أن يتم فى اطارها فى بعض الحالات الخاصة .

غير انه ينبغى أن نلاحظ هنا نقطة مهمة ، وهى ان الاسلام اذا كان قد أباح للمرأة التزين من غير قيود وببعض القيود للرجل ، وشجع على التزين فى حالات التجمع ، الا انه الى جانب هذا فضل ألا يكون ذلك على حساب الدين أو على حساب الفقراء ، فمثلا لا يصح المبالغة فى الاهتمام بزينة الدنيا والتباهى بها يتسابق اليها الاغنياء ويتفرج عليهم الفقراء وهم لا يملكون الا الشعور بالحرمان والاحساس بالكآبة .

فهناك المشروعية ، وهناك الافضلية ، فالذى يتزين بزينة الدنيا المباحة لا يعتبر خارجا على الاسلام ، ولكن الذى لا يهتم بها ويتجه الى القناعة والاهتمام بالدين وبالخدمات الانسانية ، فلا شك ان هذا أفضل من ذلك ولكن شيئا واحدا أمر الاسلام المسلمين الالتزام به ، هو ألا يكون منظرهم من حيث النظافة واللباس منفرا يثير الاشمئزاز والتقزز فى النفوس . ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يظهر أمام الناس الا مصففا شعر الرأس ولابسا لباسا نظيفا ، وكان يتطيب . وقد لبس الرسول صلى الله عليه وسلم اللباس المرقع ، ولكنه لم يلبس لباسا غير نظيف ، فالفقر ليس عيبا ، وانما العيب هو القذارة والظهور بمنظر غير لائق .

واما فيما يتعلق بتستر الرجال والنساء ، فأقل واجب على الرجل أن يستر ما بين السرة والركبة وهناك رأى آخر يرى ان أقل واجب ستر السوأتين فقط .. هذا أو ذاك على كل حال من حيث الحرام والحلال ، أما من حيث الافضلية فالافضل أن يستر ما ينبغى أن يستر عادة وعرفا ولان اللباس زينة لابن آدم .

وأما بالنسبة للنساء فالحالة تختلف بين البيت وخارج البيت ، ففى خارج البيت لا يصح أن يرى منها الا الوجه والكفين والرجلين ، فقد روى أن أسماء بنت ابى بكر دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : يا اسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصح أن يرى منها الا هذا ، وأشار الى وجهه وكفيه . وينبغى أن يلاحظ هنا ان بعض الثياب الرقاق التى يلبسها بعض النساء لايرى منها الا الوجه والكفين ، الا انها لرقتها تظهر اجسادهن ..

فمن حيث اللباس يعتبرن كاسيات ، ومن حيث ما يظهر تحته يعتبرن عاريات ، فالحكمة من التستر هى منع الاثارة التى قد تكون بزى معين وقد تكون بالكلام وقد تكون بالاشارة ، وقد نهى الاسلام عن كل أنواع الاثارة .

وكما دعا الاسلام الى الاحتشام فى الزى ، دعا أيضا الى العفة ونهى عن أن تكون الفتيات سلعة فى البيوت يتاجر بأعراضهن . قال تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » وبما ان الاب كرئيس البيت يعتبر أكبر مسئول عن البيت الاسلامى فعليه أن يروض أهله وأبناءه وبناته على النظافة وعلى الهندام الجميل وعلى الزى الاسلامى.. ان تستر البيت واحتشامه والابتعاد

عن الفتنـــة كما يأمر الاســـلام يحمى البيت من الفتن والفساد ويحفظ شرفه ومكانته كما يحفظه من أن يكون موضع الانظار ومقصد الرجال .

ج ـ ادوات البيت

ان الاسلام بين كل شيء فيما يتعلق بالبيت الاسلامى حتى الادوات المنزلية التى ينبغى أن تستعمل فى البيوت لانه يريد أن تسود روحه فى كل مكان فى البيت وخارج البيت فى الظاهر والباطن . وقد قلنا ان الاسلام ينهى عن التسابق الى التفـــــاخر بالوان التزين والفخفخة والابهة والعظمة بالمال والجاه وزينة الدنيا ، ودعا الى التسابق فى الخيرات والاعمال الصالحة .

ومن هنا حرم الاســلام اسـتعمال الادوات المنزلية المصنوعة من الذهب والمذهبة ، والادوات المصنوعة من الفضة أو المفضضة الا اذا كسرت وأصلحت بالفضـــة القليلة ، أما الادوات اللازمة وغير المصنوعة من الذهب والفضة فيجوز استعمالها وهىغير مقيدة بقيود معينة ، ولان الذهب والفضة معادن غالية ونادرة فانها تعتبر بمنزلة عملة ، فاقتناء الاغنياء الاوانى والادوات المنزلية يعتبر احتكارا وكنزا للذهب والفضة وقد منع الاسلام الاحتكار واكتناز الذهب والفضة وانذر فاعلها بالعقاب الاليم يوم القيامة .

نظام الارث

اعترف الاسلام بنظام التوارث لانه يؤدى الى تقوية العلاقات ودوام الصلات بين أهل البيت ولان هذا المال حق طبيعى لهم لما بذلوه من عون للمــورث فى حياته ، وشاركوه فى عمله وناصروه عند ضعفه وعجزه .

وبالرغم من اهميــة نظام الارث فان بعض النــاس يدعون الى الغائه وجعل المال الذى تركه الميت ملـكا للجميع وحقا للمجتمع ، ولهذا ينبغى أن يوضع فى خزانة الـــدولة . وهم يبررون دعواهم بأن الذى يرث من اقربائه أموالا سواء كانت قليلة أو كثيرة فانه يأخـذها بدون مقابل . هذه الدعوة تنقض نفسها بنفسها ذلك أننا اذا قلنا انه حق لجميع أفراد المجتمع فبأى حق وبأى مقابل يأخذه هؤلاء الافراد وهل تعبوا فيه وساهموا فى جمعه كما فعل هؤلاء الاقربون ؟ اذن يأخذونه بدون اى مقابل وقد أرادوا أن يمنعوا ورثتــــه بحجة أنهم يأخذونه من غير مقابل وبذلك قد ابطلوا حجتهم بأنفسهم ووقعوا فى حفرة حفروها بأيديهم .

واذا كان المجتمع يأخذه بدون مقابل فأهله أولى به من هذا المجتمع فى أخذه بدون مقـابل ولو ألغينا نظام الارث لاستوى العامل لغده والذى لا يعمل الا ليومه ، وهذا يورث الكسل اذ ان الانسان لا يمكن أن يعمل لمن لا يمت اليه بصلة ، ولا يعمل ليدخر للناس الآخرين كما يعمل ليدخر لابنائه .

يتبين لنا من هذا كله ان نظام الارث حق طبيعى لاهل البيت وله دور فى تماسك مجتمع البيت .. كما ان له أثره فى تشجيع الآباء على العمـــل الجاد المثمر ، ولهذا ينبغى أن يبقى وأن يستمر .

علاقة البيت بالبيوت المجاورة

ربط الاسلام الفرد بالاسرة وربط الاسرة بالمجتمع لتكوين وحدة اجتماعية وقد بينا كيف ربط الفرد بالبيت ونذكر هنا كيف ربط البيت بالمجتمع عن طريق اقامة الترابط والعلاقات بين البيوت المتجاورة .

وقد ربط الاسلام بين البيوت كما ربط بين الافراد وكانت الاسس التى أقام عليها هذه العلاقة هى الاسس التى أقام عليها علاقة كل مسلم بأخيه المسلم ، وأهم هذه الاسس هى :

اولا : عدم التجسس على البيوت

هـذه النقطـة مهمة ، ذلك ان البعض يحاولون أن يعرفوا كل شىء عن جيرانهم .. ثم اذا كشـفوا شيئا أعلنوه بين الناس ، وكأنهم كشفوا شيئا هاما يكافأون عليه ، أو كأنهم اخترعوا شيئا يفتخرون به .

هـــذه الامور تثير البغضاء والفتن والخصومات بين الجيران .. ولهذا منع الله التجسس ، قال تعالى : « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيـه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (١) .

(١) سورة الحجرات آية ١٢

كذلك منع الاســـلام الاطـلاع على عورات الجيران والنظر الى البيوت ليطلعوا على ما حرم الله الاطلاع عليه وهذا من الخصال الخبيثة ، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من نظر الى بيت أحدكم من هوة فيه فأخذت حصاة فحدفته ففقـأت عينه فلا جنـاح عليك » .

ثانيا : عدم ايذاء الجيران بأى شيء ، كسد طرقهم او القاء القمامة أمام دورهم ، أو فتح المذياع بصـوت مرتفع . لقد منع الاســلام ايذاء الجيران حتى بريح القدر أو بالوان الاكلات الشـــــهية .. فعلى المرء أن يسترها عن أعينهم ، والا فالواجب أن يعطيهم منها .

ثالثا : مشاركة الجيران مشاعرهم فى السراء والضراء فعليهم أن يهنئوهم اذا أصـــابهم الخير ، ويعزوهم اذا الت بهم الملمات ، وأن يزوروهم اذا مرضوا .

رابعا : التهادى واستقبـال كل منهم بالبشـاشـة والترحيب .. فالتهادى مهم لانه يورث المحبة ، قال الرســول صلى الله عليه وســلم : « تهادوا تحابوا » وقال : « لو أهدى لى فرش شاة لقبلت » والتزاور واجب ، وكذلك البشـاشة لها تأثير فى الالفـة وتوثيق الروابط وادخال السرور فى نفوسهم .

خامسـا : التعاون والمسـاعدة ، يجب على الجار أن يعاون الجار فى الامور التى تحتاج الى المساعدة والمعاونة سواء كان بالمال أو بالخدمات الاخرى .

فقد قيل للرسول صلى الله عليه وسلم ، ما حق الجار على الجار ؟ فقال : « ان استقرضك أقرضته ، وان استعانك أعنته ، وان مرض عدته ، وان احتاج اعطيته وان افتقر عدت عليه ، وان أصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، واذا مات اتبعت جنازته ، ولا

تستطل عليه البناء فتحجب عنه الريح الا باذنه ، ولا ترده بريح قدرك الا أن تصرف له منها ، وان اشتريت فاكهة فاهد له ، وان لم تفعل فادخلها سرا ولا تخرج بها ولدك ليغيظ ولده » .

ان الاسلام قد اهتم بتنظيم العلاقة بين الجيران وتقويتها أيما اهتمام حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس مؤمنا من بات شبعان وجاره جائع » وقال : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه » أى يكاد ينزل الاسلام قرابة الجيران منزلة قرابة النسب ويعطى ما لذاك من الحقوق ما لهذا .

بل أكثر من هذا ، فالاسلام قد ربط اكرام الجار بالايمان بالله فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » .

نظام حماية البيت

اعتبر الاسلام البيت حرما خاصا لاهله .. ولهذا منع من لم يكن من أهل البيت ان يدخل فيه الا بالاذن ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (١) .

وحدد طريقة الاستئذان ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » .

---

(١) سورة النور آية ٢٧

فلا ينبغى للزائر أن يدق الباب أو الجرس أكثر من ثلاث مرات ، كما منع التحدث الى البيوت من وراء الجدران أو من الطرقات كما يفعل كثير من الناس ، ينادون سكان البيوت من الطرقات ومن بيوت الى بيوت أخرى ، فهذا لا يتناسب مع الادب الدينى ، فضلا عن انه قد يؤدى الى النظر الى ما حرم الله أن ينظر اليه وازعاج الجيران ، قال تعالى : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » (١) ٠

***

وقد ذكرنا حديثا حرم فيه الرسول صلى الله عليه وسلم النظر الى البيوت من الخارج حتى لا يطلع على حرماتها وأسرارها ، وذكر انه لو ضرب عين الناظر فى هذه الحالة وفقأها فلا جناح عليه .

وكما وضع الاسلام مبادىء وقوانين لحماية البيت من الخارج ولاحترام حرماته وضع كذلك قوانين لحمايته من الداخل فحرم على أهل البيت افشاء سره ٠ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى الى امرأته ، وتفضى اليه ثم ينشر سرها » (٢) ٠

ثم وضع قوانين وعقوبات صارمة على الذين يسعون لافساد البيت وتخريبه ، ولاثارة الفتن فيه ليمنع العابثين بأعراض الناس ٠

وأخيرا قد أعطى الاسلام السلطة وحرية الدفاع عن حرمة البيت وأمانته ٠ فلأهل البيت أن يدافعوا عن شرفهم ومالهم وعرضهم وأنفسهم ولو أدى هذا الدفاع الى قتل المعتدى ولا جناح فى ذلك على القاتل ٠٠ واذا مات المدافع

(١) سورة الحجرات آية ٣

(٢) صحيح المسلم ـ باب تحريم افشاء سر المرأة ٠

عن هذه الامور مات شهيدا كما يموت فى ميدان الحرب وفى الجهاد فى سبيل الله ·

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » (١) ·

---

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ـ باب بيان جماعة من الشهداء فى ثواب الاخرة .

الفصل الثالث

الأسس الإسلامية لحل مشكلات البيت

ان سلوك المرء لا يمكن أن يستمر بأسلوب واحد وفى اتجاه واحد دائما وباستمرار ، ولكنه يتغير فى بعض الاحايين وفى بعض المواقف نتيجة تأثره بعوامل داخلية ذاتية بيولوجية كانت أو سيكولوجية ، وبعوامل خارجية خاصة بالبيئة أو بالظرف أو بالموقف الذى هو فيه ، فتدخل هذه العوامل أو تلك قد يؤدى بالانسان الى أن يسلك سلوكا غير معتاد وغير منتظر منه .

هذا التغير الجزئى والوقتى فى نفس الوقت لا يدل على تغير الشخصية بوجه عام فالمرء غالبا ما يعود الى سيرته الاولى بعد اجتياز هذا الموقف ، وبعد زوال تلك العوامل الطارئة المؤثرة عليه .

وهنا يوجد أمران فى غاية الاهمية بالنسبة لافراد البيت ، بل بالنسبة لكل جماعة تجمعها حياة مشتركة

الامر الاول : أن يعرف كل واحد شخصية الآخر معرفة كاملة وينظم علاقته به وتعامله معه بناء على معرفته لتلك الشخصية .

الامر الثانى : انه اذا تصرف الشخص تصرفا غير مألوف منه ، أو أخطأ مرة أو مرتين ، فلا ينبغى أن يقال عندئذ انه تغير وتبدل ، وبالتالى يسارع رفيقه أيضا الى تغيير موقفه منه ، بل عليه أن يحاول فهم العوامل

الخارجية والداخلية التى أثرت عليه وجعلته يسلك هذا المسلك أو ذاك ، ثم بعد ذلك عليه أن يحاول ازالة تلك العوامل أو التقليل من تأثيرها عليه وأن يعرف الاسباب التى جعلته يتصرف هذا التصرف ان لم يكن يعرفها .

ان ظاهرة حدوث التناقض فى سلوك المرء ظاهرة ليست غريبة علينا فهى مألوفة نراها ونلمسها فى حياتنا اليومية وفى تصرفاتنا وتصرفات غيرنا حولنا ، فانسان يفرح ويحزن ويغضب ويهدأ ويضحك ويبكى ، قد يستقبل أصدقاءه بطلاقة الوجه ورحابة الصدر فى يوم ولعارض ما يستقبلهم فى يوم آخر بوجه عابس وصدر ضيق .

فالزوج مثلا قد يعرف شخصية زوجته منذ الايام الاولى من الزواج على انها شخصية مرحة باسمة الثغر رقيقة الشعور ، لطيفة المعاملة ، حسنة الخلق الى آخره ، فاذا ما رآها يوما عابسة الوجه لاذعة اللسان خارجة على طبيعتها الاولى بوجه عام لاينبغى له فى هذه الحالة أن يتسرع ويقول انها غيرت طبيعتها وأصبحت فى حالة لا تطاق اليوم ، وبالتالى يقدم على طلاقها أو فراقها ، فان هذه التغيرات الوقتية والوقفات الفردية لا تدل على تغير الشخصية وتبدل المشاعر . وقد توجد هنا فروق بين الناس ، فمن الناس من يظهر تناقضات كثيرة فى طريقة معاملته للناس وفى طريقة تفكيره وفى ميوله واتجاهاته ، ومنهم من لا تلمس منه هذه التناقضات الا فى القليل النادر ، ولا شك ان التعامل مع الاول أصعب بكثير من الثانى ، وان أثر الاول فى احداث الصراع النفسى والقلق فى نفسية أولاده الصغار أكثر وأشد من الثانى ، وهذه النقطة ليست مهمة فقط فى اختيار الازواج فحسب ، بل هى مهمة

ايضا فى اختيار الاصحاب والاصدقاء ، وعلى اى حال فانه ان حدث من احد افراد البيت تجاه الآخر حالة ما تغضبه او تزعجه او تصرف خاطىء فى حقه ، فماذا ينبغى أن يفعل فى هذه الحالة ؟ ..

هنا يأتى دور هذا الاساس الاول الذى نتحدث عنه ، وهو المعاملة الطيبة والموعظة الحسنة ، التى توجب عليه أن يقابل الاساءة أولا بالاحسان وبالصفح واللين والرفق واللطف فان الرفق والصفح يزيلان ما بين الشخصين من عداوة وضغينة ، قال تعالى : « ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (١) الى جانب هذا فالرفق يعتبر عتابا رقيقا للمسيىء .

فلرب بسمة فى وجه الغاضب الهائج المائج تضع الثلج فى نار قلبه وتكون بلسما لاوجاعه وآلامه ، فقد روى أن عائشة غضبت مرة على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قالت : أتزعم انك رسول الله يا محمد ؟.. فماذا كان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم ؟.. كان الصفح واللين ، فقال : نعم يا عائشة ، أنا رسول الله ، فما لبثت ان هدأت وسكنت وعادت الى طبيعتها الاولى

أما الغضب فى وجه الغاضب فيضع الحطب فى النار المشتعلة والعود فى موقد البارود .

ومن ناحية أخرى فان الانسان ينبغى الا يغضب لامور تافهة اذا ما حدث ازاءه من الآخر ما يضطره الى الغضب ، فينبغى الا يتكلم او يناقش حتى يسكن غضبه ، لان الغضب يذهب العقل فلا يدرى ماذا يتكلم وبماذا يحكم وكيف يتصرف وماذا تكون نتيجة هذا وذاك .. فالتصرف فى حالة الغضب ولو كان بسيطا قد يؤدى

---

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

الى أخطاء جسيمة لا تقدر بموازين العقل والحكمة .

ولهذا فقد أمر الاسلام بالتغلب على الغضب .. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة، وانما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وقال : « لا تغضب » فرددها مرارا .

ويعتبر التغلب على الغضب فضيلة ، لان الفضيلة هى مغالبة للنوازع النفسية بوجه عام ، فالكرم مغالبة لشح النفس بالمال ، والعفة مغالبة لدافع الشهوة والعفو مغالبة لرغبة النفس فى الانتقام ، وهكذا .. والغضب له أضرار نفسية وأضرار اجتماعية كثيرة تحدث عنها علماء النفس والاخلاق والدين .

واذا لم يفد اللين والموعظة الحسنة يأتى دور الاساس الثانى وهو :

الزجر :

هناك أفراد فقدوا الاحساس الانسانى الرفيع والمشاعر الرقيقة ، فلا تكفيها الاشارات اللطيفة والمعاملة الطيبة لتعدل عن خطأ مسلكها، وسوء سيرتها .. بل ربما تعتبر ذلك الاسلوب فى المعاملة ضعفا فى شخصية الرجل ، وبالتالى فلا تبالى بحسن توجيهه وارشاده ، هنا لابد من استخدام الزجر والتهديد والشدة فى اللهجة لانها قد تخاف ولا تستحى ، وهناك آخرون أقل حساسية من هؤلاء أيضا ، فلا ينفعهم الزجر .. وهنا يأتى دور :

الهجر :

وهو مقاطعة العاصى والمخطىء حتى يعدل عن مسلكه

الخاطىء وعصيانه ونشوزه ولا شك ان المقاطعة أصعب من الزجر لان الزجر يكون بالكلام فهو مؤقت وقد يؤثر أو لايؤثر ، ولكن الهجر صعب ، ولاسيما هجر الاصحاب والاصدقاء والاحباب ، وما بالك اذا هجر أفراد الاسرة العاصى حتى يعدل عن عصيانه ؟.. فانه يشعر عندئذ وكأنه فقد أهله وأسرته لانهم يعاملونه أشد من معاملة الغرباء الاباعد فيشعر عندئذ بالغربة والوحشة اذ لايكلمه أحد ، ولا يعطف عليه ، ولا يبدى اى اهتمام به وكأنه أصبح مهملا وكأن وجوده أصبح معدوما بين يوم وليلة أمام أصحابه واحبابه وأهله ..

ولعل هجر الزوجة عند نشوزها فى فراشها أشد عقابا مما سبق ، وكيف لا ؟ .. وقد كسدت بضاعتها فى سوق زوجها ، فتراودها فكرة العودة الى حالتها الاولى والحياة مع زوجها راضية مرضية ، وقد استخدم الرسول الهجر مع زوجاته واستخدمه ايضا كعقاب قضى به على الذين تخلفوا بغير عذر عن غزوة تبوك وأمر أصحابه بهجرهم حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، واذا لم يفد الهجر أيضا يأتى دور العقاب المادى

العقاب المادى :

العقاب المادى هو أى عقاب حسى مؤلم مثل الضرب وغيره وهذه الطريقة لا تليق الا بمن فقدت نفسه الحساسية الانسانية الرفيعة ، فلم يعد يفهم أو يعقل أو يتعظ الا بالضرب والتعذيب فهو كالحيوان فى هذه الطبيعة الغليظة ، وقد ذكرنا أن الاسلام أباح الضرب بقيود

معينة وذلك كوسيلة للتنبيه وليس كوسيلة للتربية ، بل العقاب كله ـ ماديا وأدبيا ـ يعتبر وسيلة للتنبيه لا أكثر ولا أقل .

وقد ذكر القرآن هذه الامور السابقة كلها فى معرض نشوز الزوجة ، فقال تعالى : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان طعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » (١) . واذا لم تحل المشكلة بالوسائل والطرق السابقة تأتى الوسيلة التالية وهى ..

الوساطة :

اذا لم يفد العقاب المادى دل ذلك على عدم وجود التفاهم فى نقطة هامة أو مشكلة معينة ، ودل على ان المشكلة اعمق وان هناك رغبات أساسية لم تتحقق مما دفع الناشز الى النشوز والعصيان وهو أمر يجعله غير مستعد للعودة الى الحالة الاولى ما دامت المشكلة قائمة

من هنا يحتاج الامر الى وساطة والى حكم يدرس الموضوع مع الطرفين مثنى وفرادى ليهتدى الى حله ، قال تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من أهلها . ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » (٢) يقول الامام الزمخشرى فى هذا الموضوع اذا كان قصد الحكمين اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلبهما ناصحا لوجه الله بورك فى وساطتهما

---

(١) سورة النساء آية ٣٤ .
(٢) سورة النساء آية ٣٥ .

وأوقع الله بطيب انفسهما المودة والرحمة .

وقـد يتوقف الصلح على تنـازل الزوجة عن بعض حقوقها والعدول عن زهوها وكبريائها فينبغى ان تفعل ذلك لبقاء صفوة الحياة الزوجية ودوام حسن المعاشرة كما فعلت سودة بنت زمعه زوجة الرسول حين عدلت عن حقها فى القسمة واعطتـه لعائشة لمـا رات اعراض الرسـول صلى الله عليه وسلم عنهـا فكان الرسـول مضطرا من ناحيـة العـداله أن يعطيها حقها ، ولـكن نفسه كانت لا تميـل اليها لكبر سـنها فكان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم كأنه مكره على فعل شيء لا ترضاه نفسـه ، فكان الحل ، اما الطلاق أو التنازل عن حقها ، فاختـارت التنـازل لتبقى مصونة ومشرفة فى عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم .

- وقد أثنى الله على الطـريقة التى عالجت بها أمـرها

وانزل قوله سـبحانه : « وان امراة خافت من بعلهـا نشوزا أو اعراضـا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » (١) وليس حكم الآية خاصا بسودة وحدها .. فان الله تعـالى يحث بهذه الآية النسـاء جميعهن على الاسراع الى الصلح عند النزاع ولو اسقطن فى ذلك بعض حقوقهن فى سبيل الاستقرار واطمئنـان البيت اذا كان حل المشكلة او تحقيق الصلح متوقفا على هذا التنـازل .. واذا كان سبب المشـكلة يرجع الى الزوج فعليه أن يتنازل ايضا عن بعض حقوقه ، اذا اقتضى الامر ، وينبغى أن يتسابق كل من المتنازعين الى الفضيلة والمسـارعة الى الصلح قبـل الآخر ويبـدى

---

(١) سورة النساء آية ١٢٨ .

الاستعداد للتفاهم والعفو والصفح والتنازل عن حقوقه فقد قيل : « ليس الواصل بالمكافيء ولكن الواصل الذى اذا قطعت رحمه وصلها » (١) .

وكما تنشب المشكلات بين الزوج والزوجة ، فقد تنشب أيضا بين الاخوة أو بين الابناء وتحتاج المشكلة الى وساطة وفى عملية الوساطة قد يتوقف حل المشكلة على التنازل والتضحية ببعض الحقوق أو كلها .. فالفاضل فى مثل هذه المشكلات هو الذى يسرع الى الصفح والعفو والتنازل عن حقوقه فى سبيل هناء البيت وسعادته ، قال تعالى : « وان تعفوا وتصفحوا فهو خير لكم » وكما دعا الاسلام الى الصلح ، كذلك دعا الى اصلاح ذات البين اذا ما حدث نزاع بين طائفتين أو بين اسرتين أو بين الزوج والزوجة أو بين اخوين شقيقين أو مسلمين ، قال تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٢) .

الطلاق :

واذا عجز الحكام عن حل مشكلة الزوجين واصلاح ذات البين ، وازداد التنافر بينهما ونشبت العداوة والبغضاء بحيث حولت حياة البيت الى أتون يتأجج

(١) صحيح البخارى ــ باب ليس الواصل بالمكافيء ج ٨
(٢) سورة الحجرات آية ٨ ــ ٩

بالبغض ويفور بالكراهية ولم تبق وسيلة لأزالة تلك الظلمات الحالكة القاتمة من سماء البيت واطفاء تلك النيران المشتعلة فيه .. ففى هذه الحالة يأتى مبدأ الطلاق كوسيلة لحل هذه المشكلة . وقد اجاز الاسلام الطلاق على كراهة منه لانه تفريق لا تأليف والاسلام ينزع دائما منزع التأليف لا التفريق ومن هنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الطلاق ابغض الحلال الى الله » وعلى أى حال فان الطلاق آخر وسيلة نهجتها الشريعة لانهاء مشاكل الحياة الزوجية .

ان الزواج رابطة مقدسة تقوم على المحبة والوئام فاذا انفصمت عراها وانقطعت حبالها وزالت كل امال الحياة فى ظلها فعسى الله أن يغنيهما ويجعل حياتهما بعد فراقهما خيرا مما كانا عليه من قبل ، قال تعالى : « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما » (١) .

وعلى الزوج اذا عزم على ابرام الطلاق والفراق ان يسرحها باحسان من غير ظلم وايذاء ، قال تعالى : « يا ايها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » (٢) وقال ايضا : « يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا »(٣) .

التفريق القاضى بين الزوجين من غير طلاق :

قد يتهم الزوج زوجته بارتكاب الفاحشة ، أو تتهم

(١) سورة النساء آية ١٣٠ (٢) سورة الاحزاب آية ٢٨ .
(٣) سورة الاحزاب آية ٤٩ .

الزوجة زوجها بذلك ولا يوجد لاحد منهما دليـل على دعواه ، رغم أنه قد يكون صادقا فى هـذه الدعوى .. فكيف نحل هذه المشكلة من وجهة النظر الاسلامية ؟ ..

حل الاسلام هذه المشكلة كالآتى : يطالب الزوج ان كان صاحب الدعوى ان يشـهد اربع مرات بالله انه من الصادقين ويشهد خامسا أن لعنة الله عليه ان كان من الـكاذبين ، ثم تحلف زوجته أربع مرات بالله انه لمن الـكاذبين وتقول فى الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصـادقين ، قال تعـالى : « والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الـكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين » (١) .

وبعد ذلك يفرق القاضى بينهما اجبـارا عقوبة لهما حتى يقر المذنب فيرجم أو يكذب المدعى نفسه فيجلد ثمانين جلدة ، هـذه حالة واحدة من حالات التفريق وهو قد يعتبر طلاقا وقد لا يعتبر ، وهـذا ما جعلنى أعتبره وسيلة مستقلة عنه لحل مشكلات البيت .

تعدد الزوجات :

هناك مشكلات من نوع خاص لايمكن حلهـا الا عن طريق تعدد الزوجات ، منها المشكلات الناجمة عن بعض الحالات المرضية مثل مرض الزوجة بأحـد الأمراض المعدية المستعصية أو المخلة بالحياة الزوجية .

---

(١) سورة التوبة آية ٨

فماذا يفعل الزوج فى هذه الحالة ؟ هل يبقى محروما طول حياته والحرمان بعد الزواج — كما يقولون — اشد على النفس من الحرمان قبل الزواج ؟ وهل يطلق زوجته المريضة ويفارقها ويطردها من البيت ليتزوج بأخرى ؟ وكيف يشردها وهى فى هذه الحالة واين تذهب واين تجد المأوى ؟ واى دين واى ضمير انسانى يرضى ان يقدم على هذه الفعلة الشنيعة واى ظلم يكون اشد من هذا الظلم ؟ تعذيب المريضة على فراشها وهى فى اضعف واعجز حالاتها ولكن ما ذنب الزوج ؟ وما ذنب الزوجة كذلك ؟ اليس من الافضل فى هذه الحالة أن نبيح للزوج تعدد الزوجات وتبقى الزوجة المريضة فى عصمته آمنة فى فراشها وفى عشها ؟ وهل هناك وسيلة اخرى غير التعدد فى هذه الحالة لانقاذ الطرفين من المشكلة ؟

ومنها المشكلة الناتجة عن عقم الزوجة ، فقد يتزوج الرجل بامرأة عقيم ، وهو يود أن يكون له ولد من فلذة كبده ليرى صورة نفسه فيه ويخلد اسمه به وليرثه من بعده وليتمتع بزينته وبهجته ؟ وصدق الله العظيم اذ يقول : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (١) فاذا منعناه فى هذه الحالة من الزواج بأخرى فانه سوف يشعر دائما بالحرمان من هذه المتعة ومن هذه النعمة

هذه مشكلة كيف نحلها ؟ هل نقول له طلق زوجتك وتزوج بأخرى ؟ وما ذنب الزوجة فى هذه الحالة .. حتى نشردها من عشها واين تذهب ؟ ولكن ما ذنب الزوج أيضا حتى نحرمه من نعمة الولد ؟ اليس من

(١) سورة الكهف آية ٤٦ .

الخير فى هذه الحالة ان تبقى الزوجة فى بيتهـا آمنة مطمئنة وأن نبيح للزوج التعدد لينال ما يتمنى ؟ وهل هناك مخرج آخر وطريق أعدل من هذا الطريق للتخلص من هذه المشكلة ؟ ..

ومنهـا مشكلة ناشـئة عن بعض الظروف والحالات الاجتماعية غير العادية ، مثل نقص عدد الرجال وزيادة عدد النسـاء وذلك نتيجة للحرب أو لامر آخر كما حدث مثل ذلك فى المانيا نتيجة الحرب العالمية .. ففى هذه الحالة لو تزوج كل رجل بواحدة فماذا تفعل الباقيات؟ فلا بد من أن يقدمن على الفاحشة ان عاجلا أو آجلا بارادتهن أو تحت سلطان الشهوة .

واذا كانت قلة منهن تستطيع ان تبقى عفيفة تحت سيطرة الروح الدينية وسلطان الحاسة الادبية والخلقية فأين هذه الروح ، وهل هى سائدة فى المجتمع كله ؟ ولو انا فرضنا أنهن استطعن أن يبقين عفيفـات فأى الامرين احسن لهن ؟ وأى الحياتين أفضل ؟ حياة العزوبة ، أم الحياة الزوجية ، مثنى أو ثلاث تحت عصـمة رجـل واحد ؟ لاشك ان العقـــل العـلمى والوعى الصـحى والاجتماعى يحكمان ان الحياة الزوجية فى صورة التعدد افضل من الحياة العانسة أو حياة العزوبة .

ومنها مشكلة تنشأ نتيجة زواج الرجل بامرأة باردة او ضعيفة لا تشفى غليل صدره ولا تسكن شهوة نفسه ونتيجة لذلك تدفعه شهوته الى قضاء وطره فى اخرى بأية وسيلة كانت وبأية طريقة تيسرت له . ونتيجة لذلك تستولى عليه الافكار السيئة ويقع فى صراع نفسى بين الاقدام على ارتكاب جريمة من أكبر الجرائم فى نظـر

الاسلام وبين العزوف ودافع العفة والاخلاق ، فما ذنب هذا الانسان أن يعيش تحت وطأة الصراع النفسى وما ذنب تلك المرأة المسكينة التى لم تكن سببا فى عيبها ، بل خلقته فيها الوراثة والتربية ، فهل نسمح له بطلاقها ؟ وأى جريرة ارتكبت حتى تستحق التشريد والحرمان من عشها ومسكنها الآمن ؟ ..

اذن خير طريق للتخلص من هذه المشكلة أن نسمح للرجل بتعدد الزوجات ، وأن تبقى زوجته القديمة فى عصمته ..

من أجل كل هذه المشكلات الواقعية وضع الاسلام مبدأ تعدد الزوجات ، فقال تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة (١) ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » (٢) .

الا ان جواز التعدد فى الاسلام ليس على اطلاقه ، بل انه مشروط بشرط قاس كما يفهم من هذه الآية ، وهو شرط العدالة اذ انه ليس من السهل تحقيقه ، بل يكاد لا يوجد هناك من يستطيع تحقيق هذا الشرط

وبالاضافة الى اشتراط العدالة ، فهناك شرط آخر ، وهو القدرة على القيام بأعباء الزواج المتنوعة ، اى أن يملك اداء كل ما تحتاج اليه الزوجات من النفقة والمعاشرة ..

اذن هناك شرطان لجواز التعدد : شرط العدالة ،

---

(١) سورة النساء آية ٣ .
(٢) سورة النساء آية ١٢٩ .

وشرط الكفاية . وقد عرفنا ان هناك أهدافا للزواج لابد من مراعاتها عند الزواج وبعده ..

فاذا تحققت جميع هذه الشروط والمطالب ، فلماذا نمنع التعدد طالما انه يتحقق فيه ما يتحقق فى الزواج بواحدة ؟ .. فاذا أبحنا هذا الاخير لأسباب ينبغى أن نبيح الاول أيضا لنفس الاسباب ، واذا منعنا الاول ينبغى أن نمنع الاخير أيضا لان الاحكام تبنى على الاسباب وجودا وعدما ، أو بعبارة الاصوليين الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما .

ثم ان تعدد الزوجات ليس من أجل الرجل دائما ، كما اتضح لنا من الاسباب التى جعلت الاسلام يبيح التعدد وان كانت المرأة قد فهمت الامر على هذا النحو الخاص ، كما فهمه كثير من رجال الفكر والقانون فى الغرب .

ثم لننظر الى هؤلاء الذين حاربوا التعدد ، كيف وقفوا أمام تلك المشكلات الفردية والاجتماعية ، وكيف وضعوا القوانين لحلها أو لمواجهتها ؟ ..

لقد قالوا ان التعدد جريمة فى حق المرأة ، وبناء على ذلك وضعوا القانون الذى بموجبه لا يصح للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة ، ولكنهم عندما واجهوا تلك المشكلات التى ذكرناها أباحوا أن يتخذ الرجل خليلة ، ولم يقيدوه بأى شرط من شروط العدالة أو النفقة أو القسمة أو غير ذلك من الحقوق الزوجية ، فللرجل أن يتخذ من الخليلات ما شاء من غير قيد أو شرط .

ان المرأة فى الاسلام ـ فى حالة التعدد ـ زوجة مع الحقوق الزوجية الكاملة .. أما فى الغرب فهى زوجة من

غير حقوق ، او بعبارة أخرى هنا الزيجات محدودة بحقوق زوجية كاملة ، وهناك الزيجات غير محدودة ومن غير حقوق زوجية اطلاقا .

فأيهما أكثر عدلا للمرأة ، وأيهما أشد ظلما لها ؟ ..

ولا يحزننا موقف اولئك وقوانينهم بقدر ما يؤلمنا موقف البعض من رجال القانون فى بعض الشعوب الاسلامية الذين الفوا قوانين الاحوال الشخصية الاسلامية فى بلادهم وجاءوا بقوانين اولئك بحذافيرها دون مراعاة لشعور شعوبهم ودون أى اعتبار لمبادىء دينهم ، فاذا كان أولئك لم يروا الحق لانهم بعيدون عن نور الاسلام ، أفعمى هؤلاء وذهبت أبصارهم وأسماعهم حتى لم يروا هذه الحقائق ولم يسمعوا بها وهى بين أيديهم وظهورهم وهم فى نور الاسلام وتحت ظلاله .

ان عيب هؤلاء أبشع واقبح من عيوب اولئك لانهم يفهمون دينهم عن طريق فهم أولئك وينخدعون بطنطنة دعاياتهم . اذا كان اولئك قد اخطأوا بعد الاجتهاد وبسبب بعدهم عن موطن الحق فان هؤلاء يأخذون ما يقوله غيرهم بدون اعمال فكر ولا روية وبدون أن ينظروا الى موطن الحق الذى هو بين أيديهم واعينهم .

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ــ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26.
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.





هذا الكتاب

نستقبل شهر رمضان المبارك بهـذا الكتاب المؤ ..

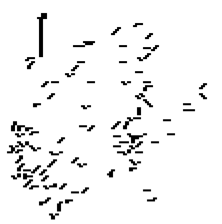
الباحث الإسلامي الاستاذ مقداد يالجن ، ليكون هديا للمسلمين ... هذا

الشهر الـذى يشرق فيه نور الهـــداية على قلوب المسلمين وبعمر

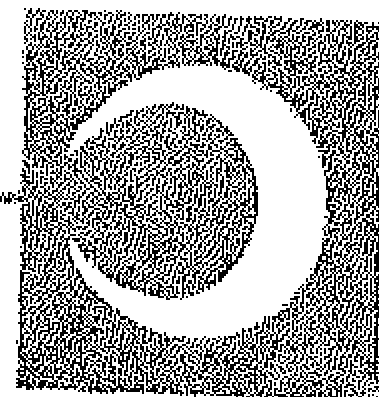
بيوتهم ...

وحول هذه البيوت وبنائها على لبنات الايمان الحق الذى نزلت به رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، يدور موضوع هذا الكتاب ، حيث يعرض لنا المؤلف ، مؤيدا عرضه بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة . الصورة التى يجب أن يقوم عليها البيت الإسلامى ، مستعرضا كثيرا من مواقف الرسول وأصحابه ، مستضيئا بها كاشعاعات تتسلل عبر الكلمة الطيبة الى القلوب المتفتحة .

كل هذا فى أسلوب مبسط مستساغ نسأل الله أن ينفع به الاسلام والمسلمين فى كل فج من فجاج أمتهم العريضة .



١٠ قروش



سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلا

أيامه الأخيرة

قصة ملك باع نفسه للشيط

حلمي سلا

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦٣ - رمضان ١٣٩٢ - نوفمبر ١٩٧٢

No. 263 — Novembre 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جنيه - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

قصة
ملك
باع
أيامه الأخيرة
نفسه
للشيطان

بقلم حلمي سلام

دار الهلال

إهداء ...

الى ابناء الجيل الذى يتقدم ، الآن ،، ليحمل العلم ...

« خ . س »

كلمة من الكاتب

صديقى القارىء ...

حين جلست الى القلم والورق ، لأكتب لك هـــذا الكتاب ــ بمناسبة اكتمال عشرين سنة على ثورة ٢٣ يوليو ــ كان فى نيتى أن اسميه : « **كلمات هزت مصر** »، وأن أجعله مقصورا على تلك الكلمات التى كانت ماضية كحد النسيف ، مدوية كطلقات البنادق ، والتى كان عدد من الكتاب الأحرار تنقصهم الكثرة ، ولا تنقصهم قوة الايمان ، ولا شجاعة القلب ، ولا مضاء القلم ، قد راحوا! ــ خلال السنتين العاصفتين السابقتين على الثــــورة ــ يوجهونها ، بكل الجرأة والعنف ، الى « الملك » .. والى اتباعه ، واشياعه الذين كانوا قد بلغوا من الفســـاد ، ومن الطغيان على الدستور ، وعلى حقوق الشعب وكرامته حدا تجاوز صبر الصابرين .

فلقد كانت تلك « الكلمات » التى كان فى نيتى ، أصلا ، أن أقصر هذا الكتاب عليها ــ كانت ، ومازال ، وسوف تظل ــ جزءا لا يتجزأ من تاريخ مصر فى تلك الحقبـــة الحالكة التى اشتد فيها الصراع بين الخير والشر ، بين الظلام والنور ، على نحو لم تعهده مصر من قبل .. فكانت معركة بالغة العنف بين قوى الطغيان ، وبين هذه القلة القليلة من الكتاب المؤمنين بوطنهم ، وبحقه فى أن يعيش عزيزا ، كريما ، مبرءا من تلك الوصـــمات التى راح

« الملك » ، ومن ورائه أشياعه وأتباعه ، يلطخون بها وجهه ، ويسودون بها سمعته ، ويضعون بها رأسه فى الوحل ، أو فيما هو أسوأ من الوحل بكثير !

غير اننى ما لبثت — بعد اذ أدرت بصرى فى الأمر قليلا — حتى تبينت أن تقديم تلك « الكلمات » — على الرغم من كونها جزءا لا يتجزأ من تاريخ مصر فى تلك الحقبة — مجردة من تفاصيل الأحداث المريرة التى فجرتها من قلوب أصحابها ..ومجردة من صور الرجال الذين صنعوا تلك الأحداث ، وكانوا سادتها أو خدامها ، سوف يكون عملا ناقصا .. سوف يجعلها تبدو وكأنها فروع على غير شجرة . خاصة وأنا أستهدف بكتابى هذا جيلا جديدا لم يعان تلك الأحداث ، ولم يعشها ، ولم يعش تلك الأيام القاسية التى كانت بالنسبة لنا ، نحن الذين عشناها .. وقاسيناها .. أياما ذات لون ، وطعم ، ورائحة . لانها، من ناحية ، كانت بالغة القسوة والمرارة .. ولاننا ،من ناحية أخرى ، كنا نحاول — بكل ما كان بين أيدينا من أسلحة — أن نقضى على هذه القسوة ، وعلى تلك المرارة .

وعلى ذلك ، وجدتنى مطالبا — أمام نفسى ، وأمام الجيل الذى استهدفته بهذا الكتاب — بأن أقدم لك ، جهد استطاعتى ، صورة متكاملة لذلك المسرح الكبير الذى كنا نعيش على خشبته ، منذ عشرين سنة ، مأساة حياتنا .. بكل الأحداث التى كانت تجرى فوقه ، وبكل العمالقة والأقزام الذين كانوا يتحركون عليه ، وبكل الكلمات النارية التى كانت تدوى فى جنباته .

واذ تراجعت « الكلمات التى هزت مصر » فى مرحلة حاسمة من تاريخها ، عن مكان الصدارة الذى كنت قد أعددته لها ، متخلية عنه لتلك الأحداث المريرة التى كنا نعيشها ، ولأولئك العمالقة والأقزام الذين كانوا

يصنعونها .. فقد وجدتني - مدفوعا بالمنطق الاقوى - أمضي فى رسم صورة « للملك » الذى تبلورت فى « أيامه الأخيرة » جميع الأسباب التى فرضت الثورة فرضا .. كما وجدتني - مدفوعا بنفس المنطق الاقوى - أمضى فى رسم صورة أخرى ، ضرورية ومكملة ، لأولئك الرجال الذين أحاطوا به ، ووقفوا حوله ، ومن ورائه .. يؤثرون فيه ، ويؤثرون عليه ، ويمهدون أمامه طريق الطغيان التى ظل يمشى عليها ، حتى ألتقى ، عند نهايتها ، بتلك الهوة السحيقة التى حفرها بنفسه لنفسه ، وحفرها له الآخرون .. ولم يكن أمامه مفر من السقوط فيها .

ولقد كان طبيعيا، بعد ذلك كله ،أن أتبين أن « **كلمات هزت مصر** » - وهى أول تسمية للكتاب وردت على خاطرى، مصاحبة لفكرته - لم تعد هى أنسب التسميات له ، بعد اذ تحول موضوعه فصار تصويرا لحقبة حاسمة من تاريخنا .. طغى فيها الشر على الخير ، وحجب فيها اليأس الأمل ، وأوشك فيها النور ان يولى مهزوما أمام جحافل الظلام .

ومن هنا ، أخترت للكتاب تسمية أخرى .. اخترت أن أسميه : « أيامه الأخيرة » . اذ وجدت هاتين الكلمتين أكثر شمولا ، وأكثر دقة فى التعبير عن موضوع الكتاب على الصورة التى تحول اليها ، والتى اشتملت - فى وحدة واحدة - على أحداث حياتنا فى مرحلة حاسمة من تاريخنا .. وعلى صورة أولئك العمالقة والأقزام الذين صنعوا تلك الاحداث .. وأيضا ، على تلك الكلمات التى كانت ماضية كحد السيف .. مدوية كطلقات البنادق ، والتى راح كتابها يوجهونها - بكل الجرأة والعنف - الى رأس الملك .. والى رؤوس أعوانه ، وأتباعه ، وعملائه .

على أننى أحب أن أصارحك بأن هذا العنوان الذى انتهيت اليه ، ليس من ابتكارى . وانما هو عنوان واحد

من تلك المقالات التي كان كتابها يوجهونها كطلقات البنادق الى راس الملك . وقد نشره كاتبه الاستاذ احمد شوقى المحامى .. فى صحيفة « اللواء الجديد » فى ٧ أغسطس سنة ١٩٥١ ـ أى فى قلب تلك الايام التى كان «فاروق» يسرع فيها الخطى نحو نهايته ـ وقدم فيه الكاتب صورة للايام الاخيرة .. لملك فرنسا : « لويس السادس عشر » الذى اعدمته الثورة الفرنسية . وترك لذكاء القارىء ان يدرك القصد من مقاله ، وهو ان ملكا آخر فى مصر ، يجتاز أيضا « أيامه الاخيرة » .. وأن ثمة ثورة تتقدم على الطريق وقد جعلت فى أول اهدافها .. أن تسقطه .

ولأن مقال : « ايامه الاخيرة » ، كان واحدا من مقالاتنا .. ولان كاتبه كان واحدا من رفاق الدرب الواحد .. نحو هدف واحد ، فاننى لم أشعر ـ اذ استعرت عنوانه عنوانا لكتابى ـ باننى استعرت شيئا لا أملكه . كل الذى شعرت به هو أننى نقلت شيئا من يدى اليمنى الى يدى اليسرى .. ولعلى لم أتجاوز .

وبعد ...

فلقد قصدت ـ « صديقى القارىء » ـ وبمناسبة اكتمال عشرين سنة على ثورة ٢٣ يوليو ـ ان أجعل جيلا بأكمله يعيش ، من خلال هذا الكتاب ، أياما وأحداثا .. لم يعاصرها ، ولم يعشها ، حتى يصبح حاضره موصولا بماضيه .. موصولا ، فى نفس الوقت ، بمستقبله الذى لن يكون ، فى نهاية الأمر ، سوى المحصلة الطبيعية ، والحتمية أيضا .. لماضيه ، وحاضره .

ولست أطمع فى شىء ، قدر طمعى فى أن يحقق الكتاب ما قصدت اليه .

والله ولى التوفيق .

مايو سنة ١٩٧٢ **حلمى سلام**

الفصل الأول

أيــامه الأخــــيرة

٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٢ :

عشرون سنة كاملة مرت بين هذين التاريخين . شب عن الطوق ، خلالها ، جيل جديد تماما .. جيل لعل يتأهب ، الان ، لاخلاء مواقعه فى ساحات العلم .. متقدم نحو الحياة بعزم ، ليدق أبوابها بقوة ، وليحمـل العل ببسالة .

وأحسب أن معظم أبناء هذا الجيل الجديد ـ ان ل أقل كلهم ـ كانوا فى الثانية ، أو فى الثالثة من أعمارهم حين جاءت الى وجودنا « ثورة ٢٣ يوليو » التى احتضن الشعب كله بملء جوانحه ، وأحاطها بكل حبه ، وعل عليها كل آماله وأحلامه . ولذا ، فانهم ـ أعنى أبن ذلك الجيل الذى شب عن الطوق خلال تلك الحقبة عمرنا ـ لم يتح لهم أن يعيشوا ، مثلما عشنا نحن ارهاصات الثورة التى بلغت ذروة الاكتمال ، والتحديد والعنف ، خلال السنتين العاصفتين السابقتين عليها .

وربما تكون كتب التربية القومية ، فى مرحلة دراست الثانوية ، قد قالت لهم شيئا ما عن هذه الارهاصات . وربما تكون هذه الكتب نفسها، قد حدثتهم قليلا أو كث عن لونها وطبيعتها . لكن اليقين أن ذلك كله، اذا كان حدث ، فانه حدث ضمن حدود ذلك الايجاز المطلق الذ

اعتاد الكتاب المدرسى أن يلتزمه ، ولا يتجاوزه الى الافاضة التى لعله يرى أن مجالهـا الطبيعى انمـــا هو كتاب عام للتاريخ المعاصر ..وليس كتابا مدرسيا للتربية القومية.

من هنا .. وانطلاقا من هذه الحقيقة الواقعة ، ينشأ لهذا الجيل الجديد حق علينا ـ نحن أبناء الجيل الذى عاش تلك الارهاصات ـ فى أن نجعله يعرف أكثر ، وفى أن نجعله يعيش ، من جديد ، وقائع حياة بلاده فى مرحلة من أدق مراحل تاريخها ..لم يكن من حظه ـ بحكم عمره ـ أن يعيشها .

ذلك حق له علينا ، وواجب عليه نحو نفسه . فليس الحاضر ، بكل ما يحتويه ، سوى موجات متدافعة من بحر الماضى . كذلك ليس المستقبل ، بكل ما سوف يحتويه سوى موجات متدافعة من بحر الحاضر . فهـــكذا كان التاريخ ، وسوف يظل : حلقات متداخلة تصنع سلسلة واحدة . فاذا سقطت واحدة من هذه الحلقــات ، ضاعت السلسلة كلها . أعنى ضاع التاريخ .

واذا كانت ارهاصات ثورة ٢٣ يوليو قد بلغت ذروة اكتمالها ، وعنفها ، خلال « سنتى ١٩٥٠ و ١٩٥١ » . فالصحيح أن هذه الارهاصات نفسها كانت قد اخذت تلوح فى أفق حياتنا مع بداية « حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ » . ولعل القول الأكثر صحة ، ودقة ، أن هذه الحرب ـ بما صاحبها من ملابسات ، وبما لازمها من أخطـــاء وخيانات ـ كانت هى الضوء الباهر الذى كشف للأمة ، شعبا وجيشا ، عن حقيقة ذلك الواقع الاليم الذى كانت تعيشه .. كما كشف لها ، فى نفس الوقت ، عن حقيقة ذلك المنحدر السحيق الذى هبط اليه ، أو سـقط فيه ، أكثر أولئك الرجال الذين كنا نعتبرهم قادتنا وزعماءنا .

ولقد كان أشد ما اعتصر قلب الأمة أسفا وألما ، أنها

تبينت ـ من خلال ذلك الضوء الباهر ـ أن الرجل الذى أحسنت به الظن ، ذات يوم ، فغمرته بفيض من حبها ‥ حين اختارته الاقدار ليتربع على عرشها ، كان يقف بنفسه ‥ وبسطوته ، وبقوته ، على رأس ذلك الفساد الذى أطبق عليها بذراعيه الرهيبتين خلال تلك الحقبة الأليمة من تاريخها .

ولم يكن « فاروق » ‥ الملك ـ بكل ما انطوى عليه من تنكر للشعب ، واستبداد به ، وجحود له ، استثناء من بقية افراد اسرته . بل لقد كان « فاروق » ، بكل ما جبل عليه وتميز به ‥ امتدادا طبيعيا لأسرته ، وفرعا اصيلا فى شجرتها ‥ تتوفر له جميع صفاتها وسماتها . فجميعهم كانوا يجحدون الشعب ، وجميعهم كانوا يستعلون عليه ، وجميعهم كانوا يستبدون به ، وينكرون عليه اكبر حقوقه ، واصغر حقوقه ، على السواء .

وليس صدفة ان يكون والد « فاروق » ـ الملك فؤاد الاول ـ هو اكثر ملوك هذه الاسرة افتياتا على حقوق الشعب ، واكثرهم كراهية للدستور واعتداء عليه . كذلك ليس صدفة ان يكون جده المباشر ـ الخديو اسماعيل ـ اشد اولئك الحكام اسرافا ، واكثرهم عبثا بالمال العام ، واعظمهم تجاوزا لكل حدوده وحقوقه !

واذا كان «فاروق» ‥ الملك ‥ قد بز آباءه وأجداده ، فى هذا المضمار بشىء ‥ فلقد بزهم جميعا بانه اراد ـ الى جانب فساده وطغيانه ـ أن يثرى ، فوق ثرائه الذى كان فاحشا ، من وراء مصائب الشعب ، وآلامه ، واحزانه . !

ولقد كانت حرب فلسطين التى حدثتك عنها ، هى الفرصة التى اصطنعها « فاروق » بنفسه ـ وان يكن قد نجح فى التخفى وراء الحكومة التى كانت قائمة حينئذ

ـ للاثراء من وراء مصـــائب الشعب ، ومن وراء الدماء الزكية لآلاف الشهداء من ابنائه !! ٠

فلقد القى الملك ، بكل ثقله ، فى تلك الحرب ٠ ولكن، لا لكى يضع خططها ٠٠ ولا لكى ينظم صـفوفها ٠٠ ولا لكى يبعث الحمية فى نفوس قادتها وجنودها ، وانما لكى يتجر فى اسلحتها التى كانت ـ فى معظمها ـ فاســدة ، تنفجر فى جنود مصر قبل ان تنفجر فى اعدائهم ، وترتد الى صدور هؤلاء الجنود قبل ان تمضى الى صدور اولئك الذين كانوا يقفون فى مواجهتهم !!

ولقد زين للملك هذا النوع البشع من التجارة ،وسهله له ، وعاونه عليه ـ فوق جشعه الخاص ، وتجرده من كل وازع يمكن أن يرده عن دنايا الامور ـ « حاشــية » من الافاقين الذين جمعهم حوله ٠٠ لا ليسألهم النصح ، ولا ليجد عندهم المشورة ، او العون على تبعات الحـكم ٠٠ وانما جمعهم حوله لكى يحللوا له الحرام ، ولكى يزينوا له الزلل ، ولكى يقدموا له ، مع كل يوم جديد ، آفاقا جديدة من الانزلاق الى آخر مدى ٠٠ ومن الاستهتار الى غير ما حدود بكل شيء ، وبكل شخص ، وبـكل قيمة : بالمال العام ، وبالناس ، وبالشرف .. وبكرامة مصر ، وسمعتها ، وشرفها ٠

ولم يكن فى هذه « الحاشية » الفاسدة التى جمعهـا « فاروق » حوله ، لتزين له الفساد ، وتسهله له ،وتعاونه عليه ، شخص واحد يمكن اعتباره ـ بأى مقياس ـ انسانا كان صالحا ، فأفسده « فاروق » ٠ بل لقد كانوا جميعا . وبغير استثناء ، حثالة من الناس جاء بهم من الحضيض ، ورفعهم عنده الى القمة ، حيث تمـكنوا من مواقعهم التى رفعهم اليها ، من ان يفسدوه على امته ٠٠ بعد اذ نجحوا فى افساده على نفسه ٠

لكن الأمة ، على اية حال ، لم تكن تقف موقف المتفرج من فساد « فاروق » وطغيانه .. كانت هناك جماعة من «الكتاب الاحرار» الذين مزق هذا الفساد ، وذلك الطغيان قلوبهم .. يقفون لهما بالمرصاد ، ويلاحقونهما ، ويعبئون مشاعر الجماهير ضدهما • ولم تكن هذه الجماعة من « الكتاب الاحرار » تزيد كثيرا على اصابع اليدين • لكن ما توفر لها من قوة الايمان ، وشجاعة القلب ، ومضاء القلم ، قد اغناها الى حد كبير - عن وفرة العدد. واحسب ان مقالا نشره « مصطفى مرعى » - احد الاعضاء البارزين فى تلك الجماعة - فى صحيفة « اللواء الجديد » بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥١ ، يمكن اعتباره « الدستور » الذى راحت جماعة « الكتاب الاحرار » ، على غير اتفاق بينها ، تعمل فى ظله ، وتتحرك تحت لوائه •

واليك هذا « الدستور » كما جاء فى مقال « مصطفى مرعى » :

« اننا لا نتجر فى السياسة ، ولا نساوم عليها ، ولا نبيع اقلامنا ، ولا نؤجرها • اننا لا نخشى فى الحق لومة لائم مهما يكن مقامه ، ولا غضبة غضوب مهما تكن سطوته •

« واننا لنعرف أن الشر راصد للاحرار فى مصر ، فاغر فاه ، يود لو استطاع ، أن يبتلعهم واحدا بعد الآخر • لكننا نعرف ، مع ذلك ، أن الكلمة الحرة ، الصريحة ، الجريئة ، هى الزم ما يلزم مصر اليوم •

« ولقد قال « اللواء » - ولا يزال يقول - كلمات لها هذه السمات ، وفيها هذه الخصائص ، ان لم تكن قد هزت ضمائر الطغاة •• فانها ، من غير شك ، قد قرعت منهم الاسماع ، ولفتت الانظار •

« ومن يدرى •• لعل الذى نقوله غدا ، أو بعد غد ، يكون أبعد غورا •• واشد وقعا من كل ما قلناه حتى الان ، فقد يلزم أن تتضاعف جرعة الدواء ، اذا لم تنحسر موجة الداء ، وان تزداد قوة المقاومة كلما ازدادت قوة الاعتداء • فادواؤنا تقوى مع

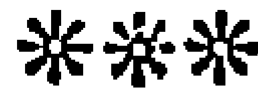
الزمن ولا تضعف ، وتتسع دائرتها ولا تضيق ، وتشتد قبضتها ولا تتراخى • وانها ـ على اختلاف أنواعها ـ لتتساند ، وتتآخى •• كما يتساند الاشرار فى ظل الشيطان ، حيث يتبادلون النفع ويتعاطون الحرام !!•

« وها هى ذى الديكتاتورية البغيضة ، الطاغية ، تمكن للحكم الفاسد وتعينه ، وتمده بأسباب البقاء • وها هو ذا الحكم الفاسد ، بدوره ، يهش للديكتاتورية الباغية ، ويبش ، ويتصاغر امامها ويتقاماً ، وانه ليذل لها ، ويخضع ، ويلين ، ثم ينحنى • !!

« ومن عل ينظر الانجليز •/• بل ينظر العالم كله الى شعبنا المسكين محصورا بين هذين الامرين ، نظرة استخفاف وازدراء •

« هذه هى مصر اليوم • ما أحوجها الى الكلام الحر الجرىء • عسى أن يهز ضمائر سادتها فيعودوا الى الرشـــد ويثوبوا الى الصواب • أو يهز شعور الامة المغلوبة على أمرها ، فتثور لتسترد حقوقها المغصوبة •• وسلطانها الضائع •

« وان يوما يتحقق فيه هذا الأمل ، أو ذاك •• ليكونن لمصر مطلع فجر جديد » •



وبقدر ماأسهمت « حاشية الملك » ـ على نحو مباشر ـ فى افساده على نفسه ، وعلى امته •• بقدر ما اسهم فى ذلك ، وان يكن بصورة مغايرة ، زعمـــاء الاحزاب التى كانت تتداول كراسى الحـكم فيما بينها ، منذ ان جلس « فاروق » على عرش مصر فى السادس من مايو ســنة ١٩٣٦ ، حتى ازاحته الثورة عن ذلك العرش فى السادس والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ •

فلقد كان تهالك هؤلاء الزعماء على الوصول الى كراسى الحكم ،من أى سبيل •• ومن كل سبيل، عنصرا اساسيا فى اغماض عيـونهم عن فســاد « فاروق » ، وطغيانه ، واعتداءاته الصارخة على الدستور والشعب معا • بل لقد ذهب اولئك الزعماء ـ بغية الوصـول الى كراسى الحكم ومغانمه ـ إلى ما هو ابعد ، واشد نكرا من مجرد اغماض

العين عن طغيان « فاروق » وفساده ، ومباذله . فتجاوزوا الامر الى تحسين ذلك كله . والى تضـــليل الشعب عن حقيقة وجهه القبيح . !!

واذا كان بعض اولئك الزعمـاء ، او كلهم ، قد حاولو – حينما لاحت على الافق علامات النهاية – ان يفتحو عيونهم على ما راح « فاروق » يرتكبه فى حق الدستور وفى حق الامة ، وان يشاركوا جماعة « الكتاب الاحرار هجومها الشجاع على الملك ، فلقد فعلـوا ذلك بعد ا ادركوا – بما يشبه اليقين – ان السفينة موشكة على الغرق وان العاصفة التى احسوا بها تقترب من ذلك الحصن الذي كان يبدو فى ظاهره حصينا ، موشـــكة أن تهب عليهم وانها قد لا تكتفى بان تعصف بذلك الحصن وحده . بل لعلها سوف تعصف بهم معه .

وآية ذلك ، ان فساد « فاروق » الخلقى والسياسى . وكذلك اعتداءاته الصارخة على الدستور ، وعلى مقدسات الشعب وحقوقه .. كانت قد ذاعت ، وشـاعت ، خلال السنوات الاربع او الخمس السابقة على سنتى ١٩٥٠ ١٩٥١ – وهما السـنتان اللتان وصل فيهما فســـاد « فاروق » الى ذروته .. واللتان بلغت فيهما ، بالتالى ارهاصات الثورة على فساد الملك وطغيانه ، ذروة اكتمال وعنفها – ومع ذلك ، فان احـدا من اولئك الزعمـــاء يحاول ان يشــير اليها ، ولا ان يتحـدث عنها ، ولا ا يتصدى لها بأية وسيلة من وسائل التصدى . بل الثابت انهم بدلا من أن يتصدوا لفساد الملك السياسى والخلقى . وبدلا من ان يقفوا فى وجه طغيانه ، واعتداءاته الصارخ على الدستور ، وعلى مقدسات الشعب وحقوقه ، راحو يتصدون – بكل وسائل التصدى – « للصحف الحرة .. ولجماعة « الكتاب الاحرار » ، التى كانت قد دخلت

المعركة ضد الملك ، وضد فساده ، وطغيانه ، وليس لها من سلاح غير « الكلمة » تزلزل بها مقاعد الطغـــاة من تحتهم .. وتهز بها مصر من ادناها الى اقصاها ، وتكشف بها للشعب عن كل ما يقع فى حقه من اعتداءات .. وما يجرى على ارضه من مفاسد .

وبينما كانت جماعة « الكتاب الاحرار » هذه ، تقـول للشعب ـ تلميحا وتصريحا ـ كلاما خطيرا فى حق الملك، وفى حق فساده وطغيانه .. كان اولئك الزعمـاء ، من ناحية اخرى ، يقولون للشعب .. وفى حق الملك ايضا ، كلاما آخر .. كلاما مناقضا تماما لكل ذلك الذى كانت تلك « الجماعة » تقوله ،وتكتبه . ولولا أن الشعب كان قادرا ـ بفطرته ـ على ان يفرق بين « اصحاب الايمـــان الحقيقى بالشعب وبحقوقه » ، وبين « اصحاب المصـلحة الحقيقية فى الحكم ومغانمه » ، لتأخر ـ ربما الى سنين طويلة ـ سقوط الملك .. وسقوط اولئك الذين كانــوا يداورونه ، ويدارون عليه، ويتقبلون منه فساده ، وطغيانه، واعتداءاته الصارخة على الدســـتور وعلى حقوق الشعب ومقدساته جميعا .

ولننظر الآن ماذا كان يقول هؤلاء .. وماذا كان يقول اولئك :

ففى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٥١، ينتهز « فتحى رضوان » فرصة مرور « جورج السادس » ، ملك انجلترا ، بأزمة صحية خطيرة ، فينشر فى « اللواء الجديد » تحت عنوان: « شعب يصلى من أجل ملكه » كلمة يقول فيها :

« يجتاز ملك بريطانيا ازمة صحية بالغة الخطر . ولقـــد بدا على الشعب البريطانى التاثر لما يعانيه الملك من آلام ، ولمــا يهدد حياته من مخاطر .

« ولقد كان من آيات هذا التاثر ان ذهبت فى الصباح المبكر

جموع من أبناء الشعب - رايناً فى الصور التى نشرت لهم ، اطفالا صغاراً - الى الكنائس لكى يصلوا لله لينقذ ملكهم .

والشعب الذى يرتبط بملكه هذا الارتباط ، والذى يتبادل واياه عواطف المحبة والمودة الصادقتين ، هو نفس الشعب الذى ثار على « الملك شارل الاول » واعدمه .

« ولقد كان الشعب ، في الحالين ، صادق العاطفة . فحين كان الملك ظالما ، مستبدا ، لا يهتم بمصالح الامة .. احس الشعب ان من واجبه ان يدفع عن نفسه اذاه ، وقد تطورت الامور بين الشعب والملك حتى انتهت الى ان شنق الشعب الملك .

« ولكن الصراع بين الامة والملك فى بريطانيا ، انتهى الى تفاهم عميق ثابت . رضي فيه الملك بالأمة مصدرا للسلطات ، ورضيت فيه الأمة بالملك رمزا لمجدها .. وتاجا لحكمها ، وتعاون الجميع على أن يسود الدولة حكم النفع فيه للمجموع . وانبثق عن هذا كله تقاليد ارتفع بها مقام الحرية الشخصية ، والفردية ، الى اعلى مكان ، ونفذ فى ظلها حكم القانون في الاقوياء قبل الضعفاء ، وفى الاغنياء قبل الفقراء ، وانتفضت بفضلها عيوب الحكومات من رشوة ، واثرة ، واتانية .

« ولقد درج ملوك بريطانيا على ان يجعلوا من ابنائهم خدما لأمتهم . فما ان يشب منهم شاب حتى يلقوه فى فرقة من فرق الجيش ، يخالط فيها ابناء الفرقة وجنودها . كما درج هؤلاء الامراء على الا يقع نظر الناس منهم على قبيح ، او مرذول ، او مستنكر من الاعمال أو الاحوال .. واحبهم الشعب حبا صادقا ، منبثقا من حبات القلب .

« نحن نكره الانجليز ، ونكره اخلاقهم السياسية ، وكفاحهم الاجتماعي ، ونعدهم بلاء انسانيا : ولكننا لا نكاد نرى ظاهرة صادقة فى حياتهم ، الا ونكبرها . شأن الانسان الذى يحب الجمال والخير ، حيثما كان الجمال والخير . »

***

انها ، كما ترى ، كلمات واضحة المدلول .. كلمات تشير الى شخص محدد ، والى معان محددة .. بل هى كلمات تصرخ فى وجه الملك بأعلى الصوت .. قائلة : « اياك اعنى .. واسمعى يا جاره » .

كان هذا نموذجا مما كان يقوله الاحرار ... فماذا كان يقول الآخرون ؟! .. ماذا كان يقول كبراؤنا ، وزعماؤنا ، قبل ان تلوح العاصفة على الافق .. ويلوح معها ان « السفينة الملكيه » موشكة أن يبتلعها الطوفان.

فلننظر ماذا كانوا يقولون ....

● ففى الحادى عشر من فبراير سنة ١٩٥٢ .. نفس السنة التى كان كل شيء فيها قد تبلور ، وتحدد ،وكشف عن ملامحه ، بحيث اصبح كل الناس .. فى كل مكان .. يعرفون اين يقف ملك مصر من شعبه ، واين يقف شعب مصر من ذلك الملك ـ ينتهز على ماهر (باشا) ، رئيس الوزراء فى ذلك الحين ، فرصة عيد ميلاد الملك لكى يحدث الشعب عنه ، قائلا :

« لا شك أن أبناء وادى النيل جميعا يحتفلون ، فى ثنايا قلوبهم وافئدتهم ، بعيد الميلاد الملكى .. ليذكروا ـ فى عزة وفخار ـ اليوم الثانى عشر من فبراير سنة ١٩٢٠ . يوم أعلن البشير مولد « الفاروق » المحبوب ، ففاضت قلوب المواطنين بشرا وسرورا .. فلقد كان طالع « الفاروق » الميمون أكبر دلائل التوفيق والسداد .!!!!

لقد كان « على ماهر » ، بالذات ، واحدا من اكبر رجالات مصر الذين اتاحت لهم الظروف ، فى مرحلة من تاريخهم ، ان يكونوا شديدى الالتصاق « بفاروق » .. ومن اكثرهم معرفة به ، وايضا من اكثرهم اكتواء بناره . ومع ذلك ،فانه عندما لاحت له فرصة التحدث الى الشعب عن الملك الذى عرفه كما لم يعرفه احد غيره .. لم ينتهز هذه الفرصة لكى يحدث الشعب عن فساد الملك ، ولا عن طغيانه ، ولا عن اعتداءاته الصارخة على حقوق الشعب كلها ، وعلى مقدساته جميعا .. وانما انتهز الرجل الفرصة لكى يحدث الشعب عن : « طالع التوفيق الذى يلازم خطوات «فاروق» السديدة فى الحياة ،حتى تجمعت

لمصر فى عصره الذهبى براهين الحضارة والتقدم » !!!

ان احدا لم يكن ليفكر ، بطبيعة الحال ، فى ان يطالب رئيس الوزراء بأن ينتهز فرصة عيد ميلاد الملك لكى يحدث الشعب عن فساده وطغيانه ٠٠ فذلك تكليف للرجل باكثر مما تطيقه طبيعة الاشياء ٠ ولكن ٠٠ اذا كان ذلك مطلبا لاتطيقه طبيعة الاشياء ٠٠ افلم يكن فى وســـع « على ماهر » ، وهو الرجل الذى اتاحت له الظروف ان يكون على بينة تامة من كل ما جـرى ويجـرى ، ان يصمت عن كل كلام ٠٠ فلا يتحدث عن فساد الملك ٠٠ وايضا لا يتحدث عن : « خطواته السديدة فى الحياة ٠٠ وبراهين الحضارة والتقدم التى تجمعت لمصر فى عصره الذهبى » ؟!

ثم يأتى بعد ذلك « عيد الجلوس الملكى » فى السادس من مايو سنة ١٩٥٢ ــ ولم يكن قد بقى على ازاحة الطاغية عن بلادنا ، وعن ارضنا ، غير شـــهرين اثنين ــ فينتهز « نجيب الهلالى » ، رئيس الوزراء الـذى كان قد خلف « على ماهر » فى مقعده ، فرصة مجيىء ذلك العيـد لكى يدلو هو الآخر بدلوه فى التغرير بالشعب ، وفى تضليله عن حقيقة ذلك المنحدر السحيق الذى كان الملك قد هوى اليه ــ فيقول :

« اللهم ما أعظم شأنك ، وأعز سلطانك ، وأوضح برهانك ٠ اتيت « فاروقا » الملك والسداد ، فاصبح عرشه فى وادى النيل قبلة آمال المواطنين ، ومعقد رجائهم واطماعهم ، وآية وحدتهم ، وكلمة اجماعهم ، وقد ملكت قلوبنا سجاياه ، وسقانا الطيب من رياه ٠ وآمال مصر بين يديه فى عزه الذى يرام ، وكنفه الذى لا يضام ٠ لا زال ظله على الوطن مديدا ضافيا ، ونوره للبلاد مضيئا هاديا » !!!

ثم ٠٠٠

ثم تأتى بعد ذلك « ثالثة الاثافي » ٠٠ ممثلة ، مع بالغ الاسف ، فى زعيم الاغلبية الشعبية ٠٠٠ مصطفى النحاس

(باشا) . فلقد انتهز الرجل فرصة « عيد جلوس ملكى » كان قد حل ، وهو رئيس للوزراء فى شهر « مايو سنة ١٩٥١ » ، وراح يتحدث الى الشعب عن « مآثر مليكه العظيم » !! — قائلا :

« ان ابناء الشعب جميعا يشعرون بان مليكهم قد اصبح جزءا لا يتجزأ من حياتهم ، له فى كل قلب من قلوبهم مكان الحب ، والاجلال .. وعاطر الذكر . وهل تنسى مصر انها من يدى أبى « الفاروق » تلقت دستورها (!!!) ثم اودعته بين يدى « فاروق » الحانيتين ؟ »

« والى « الفاروق » ملكنا المحبوب ، ترجع كل الفضائل (!!!) فلا عجب ، اذا رأى فيه الشعب سنده المتين الذى يفدى عرشه المكين بالمهج والارواح » !!

***

ومن الحق ان نقرر انه فى اول عهد « فاروق » بولاية الملك ، كان « للوفد » — حزب الاغلبية الشعبية حينذاك — محاولات لفرض ارادة الدستور عليه . لكن هذه المحاولات، من جانب « الوفد » ما لبثت حتى اصطدمت بصخرتين عاتيتين .. تحطمت عليهما .

● **الصخرة الاولى** : كانت ممثلة فى احزاب تتلهف جميعها على الحكم .. وتضعف له، وتضعف بسببه — ولا استثنى من ذلك حزب الاغلبية الذى كبر عليه ان يقرر مقاطعة الحكم . كما فعل زعماء آخرون فى الهند وايرلندا وكما كانت تقضى بذلك طبيعة الامور — ولو كان هناك حزب قوى واحد سليم من الضعف للحكم ، ومن الضعف بسببه .. وقادر ، فى نفس الوقت ، على تعبئة جماهير الشعب لحماية الدستور ، والذود عنه ، والتضحية فى سبيله ، لارتفع هذا الحزب فوق دسائس الانجليز والملك معا .. ولما استطاعوا ان يضربوه باحزاب الاقلية ، ولا ان يضربوا احزاب الاقلية به .. ولصار نداً للانجليز والملك معا ..

ولوجد « الدستور » فيه ، وفى تنظيمه القــوى ، وفى تجرده وزهده ، الحصن الذى يقيه عبث العــابثين به ، وعدوان المعتدين عليه ٠

● **الصخرة الثانية :** كانت ممثلة في تلك « الكراهية المرة » التى كان « فاروق » نفسه يحملها للدستور ،ولكل من يحاول ان يجعل منه قوة تفرض ارادتها عليه ، وتضع القيود على تصرفاته وقراراته٠ وهى كراهية انحدرت اليه، اصلا ، عن والده « الملك فؤاد » الذى كان ، بكل نوازعه وصفاته ، يكره الدســـتور الى حد المقت ٠ ثم قام رجال القصر الذين تلقوا « فاروقا » يافعا ــ وفى مقدمتهم « احمد حسنين » ، و « على ماهر » ــ باذكاء كراهيته للدستور ماستطاعوا الى ذلك سبيلا، استبقاء لنفوذهم ٠٠ وتحقيقا لمصالحهم ٠

وقبل ان نصل الى دور هذين الرجلين : « أحمــد حسنين » ٠٠ و « على ماهر » ٠٠ فى افساد « فاروق » ، وفى اذكاء كراهيته للدستور ٠٠ وهى الكراهية التى قلنا ان « فاروقا » قد ورثها عن ابيه « الملك فؤاد » ــ نتوقف قليلا عند هذا « الاب » ، لنعرف : لماذا كان يضيق بالدستور ٠٠ ولماذا كان يكرهه كل تلك الكراهية التى بلغت عنده حد المقت ٠

كان « الملك فؤاد » يضيق بالدستور ، ويكرهه الى حد المقت ، لاسباب متعددة ٠٠

● **منها اولا :** انه كان بطبيعة مزاجه وتكوينه ، لا يؤمن بالشعب ــ فلقد وصل الى السلطان بارادة الاحتلال الانجليزى ــ ولأنه كان لا يؤمن بالشعب ، فقد كره الدستور الذى اعطى للشعب حقوقا لا يستحقها ، ولا يقدر من وجهة نظر (جلالته) على النهوض بها !!

● **ومنها ثانيا :** انه كان قد اختط لنفسه ، عندما ولى

السلطان « بارادة الانجليز » ، ان يسير فى الشعب سيرة « الحاكم المطلق » الذى لا معقب على ارادته ، ولا قيد على سلطانه • فلما ان صدر الدستور ـ لأول مرة فى ابريل سنة ١٩٢٣ ـ رأى فيه « الملك فؤاد » انه سوف يصبح رقيبا محسوبا على تلك الارادة ، وقيدا ضاغطا على ذلك السلطان • فكرهه ، ونقم عليه •

● **ومنها ثالثا** : انه لقى ـ فى ظل هذا الدستور ، وبسببه ، وعلى أيدى اول حكومة شعبية ألفها « سعد زغلول » فى سنة ١٩٢٤ ، اول هزيمة سياسية أليمة لم تضع مرارتها ، على مر السنين ، من فوق لسانه •

حدث ذلك عندما تمسك « سعد زغلول » ـ استنادا الى نصوص الدستور ـ بحق الوزارة فى تعيين خمس اعضاء مجلس الشيوخ • ورأى « الملك فؤاد » ، من ناحيته ، ان تعيين هؤلاء الاعضاء انما هو حق له ، وليس حقا للوزارة • واحتدم الخلاف بين الرجلين ، ولم يحسم الا بقبول الملك الاحتكام الى المستشار « فان دن بوش » ، النائب العام امام المحاكم المختلطة ـ باعتباره بلجيكيا •• وباعتبار ان الدستور المصرى مستمد ، أصلا ، من الدستور البلجيكى • وجاءت فتوى الرجل فى الخلاف الذى نشأ بين « الملك فؤاد » و « سعد زغلول » ، مؤيدة لوجهة نظر « سعد » اذ جاء فيها بالنص :

« أن مبدأ عدم مسئولية الملك يعتبر أساس هذا النظام الذى يقضى بأن الملك لا يتولى سلطته الا بواسطة وزرائه • وهو مبدأ لا يحتمل أى استثناء من الوجهة القانونية ، بل يمتد الى جميع أعمال الملك ، فاذا استثنى عمل واحد ، فان هذا الاستثناء يصيب النظام الدستورى فى روحه واساسه •

« لذلك أرى أن تعيين أعضاء مجلس الشيوخ يجب أن يكون بناء على ما يعرضه مجلس الوزراء • » •

ونزل « الملك فؤاد » عند فتوى المستشار البلجيكى ••

ابتلع الهزيمة ، لكن مرارتها بقيت في حلقه ، تملأ أعماقه بالحقد على الدستور ، وتحركها بالتربص به ، والكراهية له • ومن ثم ، راح ينتقم منه ، ويعتدى عليه بالتعطيل المؤقت حينا ، وبالالغاء الكلى حينا آخر •

● **فعطله مرة في الاول من نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وظل معطلا حتى سنة ١٩٢٦ •**

● **وعطله مرة ثانية في سنة ١٩٢٨ ، وظل معطلا حتى أواخر سنة ١٩٢٩ •**

● **وفي المرة الثالثة ـ وكان ذلك في سنة ١٩٣٠ ـ الغى الملك فؤاد دستور سنة ١٩٢٣ ، الغاء كليا ، وأحل محله دستورا جديدا • يعطي « قيصر » كل شيء •• ويحرم « الشعب » من كل شيء • !!**

***

ورث « فاروق » عن ابيه كراهيته المقيتة هذه للدستور ، وللقيود التي وضعها على ارادته وسلطانه •• فلم يكن غريبا ، بعدئذ ، ان نجده يتابع منهج ابيه • فيعتدى في سنة ١٩٣٨ ، أى بعد ولايته العرش بعام واحد فقط ، على دستور سنة ١٩٢٣ الذى كانت الامة قد عادت ، في سنة ١٩٣٥ ، فاستردته بجهادها ، وبتضحيات ابنائها الى حد استشهاد عديد منهم ـ اعتدى « فاروق » على هذا الدستور بتعطيله أربع سنوات كاملة • ثم عاد ، في سنة ١٩٤٤ ، فعطله مرة ثانية •• واستمر معطلا خمس سنوات • !!

وهكذا تضافرت هذه العناصر الثلاثة ، وهي :

اولا ـ كراهية « فاروق » الموروثة عن ابيه للدستور ، ولارادته ، وسلطاته •

ثانيا ـ تلهف الاحزاب على الوصول الى كراسى الحكم ومغانمه ، متوسلة الى ذلك بكل الوسائل •

ثالثا ـ قيام رجال السراى الذين تلقوا « فاروقا » يافعا ،

باذكاء كراهية الدستور في صدره ، تحقيقا لمصالحهم ، واستبقاء لنفوذهم ..

تضافرت هذه العناصر الثلاثة فى تأصيل نزعة الاستبداد لدى « فاروق » .. وفى تشجيعه على العبث بكل حقوق الشعب ، وبكل مقدساته ، الى حد انتهى به اخيرا ، الى افساد الحياة السياسية كلها افسادا شاملا .. والى النيل من اولئك الذين كانوا قد اغروه ، فى اول الامر ، بحزب الاغلبية .. والى النيل من حزب الاغلبية نفسه ، فراح يضع « احمد ماهر » ضد « مصطفى النحاس » .. و « على ماهر » ضد الاثنين .. و « نجيب الهلالى » ضد الجميع .. !! مستفيدا فى ذلك كله من تمزق ارادتهم ، ومن تفرق كلمتهم ، ومن تعدد مصالحهم ، وتباين اطماعهم .

واذا كانت « احزاب الاقليات » تتحمل — تاريخيا — النصيب الاكبر من وزر تشجيع « فاروق » على العبث بالدستور ، وعلى افساد الحياة السياسية كلها .. فان نصيب « الوفد » — حزب الاغلبية الشعبية — من هذا الوزر لا يعتبر بالقليل . فلقد بدأ « الوفد » عهده مع « فاروق » ، كما ذكرنا ، متمسكا بالدستور ، مدافعا عنه ، على نحو ضاق به « فاروق » ذرعا .. وحمله ، فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ ، على ان يكشف عن مشاعره الحقيقية من الدستور ، فاطاح « بحكومة الوفد » .. وعطل الدستور نفسه أربع سنوات كاملة

غير ان الوفد — وقد نجح « فاروق » فى اقصائه عن مقاعد الحكم طويلا — ما لبث ان فقد ايمانه بجدوى الانتصار للدستور ، والتمسك به ، والدفاع عنه : ولعله اعتقد أن احزاب الاقليات لم تستطع ان تنال منه ، الا من خلال تمسكه بالدستور فى مواجهة الملك . وعلى ذلك

فانه حين عاد الى الحكم ، في سنة ١٩٥٠ ، انتهج سياسة جديدة تماما ٠٠ قائمة على أساس محدد : ان يصير اطوع للملك من بنانه ٠ !!

وفي حين ان تصرفات الملك الشخصية والسياسية ، في تلك الآونة بالذات ، كانت قد بدأت تأخذ طريقها الى ذروة الفساد على الصعيدين : السياسى والاجتماعى ، فان مواقف « الوفد » منه ـ وعلى العكس تماما من كل ما كان متوقعا ـ راحت تأخذ طابع الملاينة ، والمداراة ، والمسايرة٠

وليس اقطع فى الدلالة على ذلك التحول الجذرى الذى اصاب « الوفد » وزعيمه ٠٠ من ان النحاس (باشا) عند عودته الى الحكم فى سنة ١٩٥٠ ـ بعد فوزه باغلبيـــة انتخابية ساحقة ـ راح ينتهز فرصة أول مقابلة له مــع الملك ، بعد انتهائه من تأليف الوزارة ، ليقول له ـ على مرأى ومسمع من حسين سرى (باشا) الذى كان قــد صار رئيسا للديوان الملكى ـ ان له لدى « جلالته » مطلبا واحدا ٠٠ وتوجس الملك خيفة من مطلب « زعيم الاغلبية » ٠ ولعله تصور ان « النحاس » سوف ينتهز فرصة فوزه فى الانتخابات باغلبية شعبية ساحقة ، ليملى عليه شروطا يحترم بمقتضاها « الدستور » وارادة الشعب ٠٠ وسأل الملك ، وهو ما يزال متوجسا ـ سأل « زعيم الوفد » عن مطلبه الوحيد٠ وهنا كانت المفاجأة التى كان الملك يتوقع كل شيء ، ما عداها ٠ لقد تمنى « الزعيم » على الملك ان يسمح له بتقبيل يده !!

وتنفس الملك الصعداء ٠٠ ثم تفضل فحقق « لزعيم الشعب » امنيته ٠٠ اعطاه يده ليقبلها !!

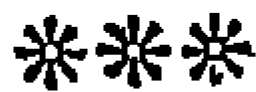
***

واذ هان « زعيم الوفد » كل هذا الهوان على نفسه ٠٠ فقد صار ، بطبيعة الحال ، اكثر هوانا على الملك ، فراح

يكيل له الضربات ضربة تلو أخرى .. طاويا كل ضربة جديدة على اعتداء جديد ، وعلى تحد جديد له ، وللدستور وللشعب كله . !!

لم يكن هناك ما يمكن ان يرد الملك عن الاستمرار في ضرباته . فلقد رأى « القلعة » تتهاوى .. فما يمنعه من الاجهاز عليها ؟!

وتلك ، على أية حال ، طبيعة الطغاة جميعا .. اذا رأوا الشعب يتراجع امامهم ، فانهم لا يترددون فى الوثوب عليه والفتك به ، وسلبه كل حقوقه ، وكل سلطاته . أما اذا تشبث الشعب بمواقعه ، وثبت فى وجوههم ، فانهم لا يملكون الا ان يتراجعوا .. بل لعلهم يذهبون الى ما هو ابعد بكثير من مجرد التراجع ، فنجدهم يجاملون الشعب بتحقيق مطالبه ، والنزول عند رغباته . وما تراجع « الملك فؤاد » امام « سعد زغلول » ، ونزوله عند ارادة الدستور ، ببعيد عن اذهاننا .



أخذ « الوفد » ، عند عودته الى الحكم فى سنة ١٩٥٠ ، يحرز كل يوم تقدما مهولا ، ومحزنا ، فى التراجع امام الملك . وامام ضرباته ، ورغباته ، ونزواته . ومن ثم ، راح يرضى بأوضاع وتصرفات لم يرض ، من قبل ، بما هو اقل بكثير منها . ففى سنة ١٩٣٧ ، على سبيل المثال ، فاجأ الملك الوزارة ـ وكان على رأسها مصطفى النحاس (باشا) ـ بتعيين على ماهر « باشا » رئيسا للديوان الملكى ، دون مشاورتها فى الامر كما يقضى الدستور بذلك . لكن « مصطفى النحاس » لم يكن قد فقد ، بعد ، الايمان بجدوى سياسة الانتصار للدستور ، والتمسك به ، والدفاع عنه .. وعلى هذا ، فانه لم يدع المسألة تمر . وانما سارع الى مقابلة الملك ليبلغه احتجاجه عليها .

وكانت مناقشة حادة بين الرجلين : بين الملك الذى كان قد تعلم ان « هواه » هو القانون ·· وبين رئيس الحكومة الذى كان مايزال يؤمن بان « الدستور » هو القـــانون الاكبر الذى لابد وان ينزل عند ارادته كل الناس ، واولهم الملك ·

هكذا كان « مصطفى النحاس » فى سنة ١٩٣٧ · ولكن ، لنمض معا خطوتين الى الامام لنرى كيف تغيرت الصورة ·· كيف تغيرت صورة « الوفد » ، وصـــورة زعيمه ·· خلال الفترة ما بين سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٥١·

ففى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ ، اصدر « فاروق » امرا ملكيا بتعيين حافظ عفيفى (باشا) رئيسا للديوان الملكى ، دون مشاورة الوزارة فى الامر ·· تماما كما حدث فى حالة تعيين « على ماهر » فى نفس المنصب سنة ١٩٣٧ ، بفارق واحد هو ان تعيين «حافظ عفيفى» فى هذا المنصب كانت له دلالات خطيرةومثيرة لمشاعر الشعب ·اذ كان الرجل معروفا بميوله الصارخة نحو الانجليز · والى جانب هذا ، فانه كان قد ادلى فى شهر سبتمبر من السنة نفسها بحديث الى جريدة « الاهرام » انتقد فيه ، بشدة ، تفكير حكومة الوفد فى الغاء « معاهدة سنة ١٩٣٦ » التى كانت قائمة بين مصر وبريطانيا !!

وعلى الرغم مما قاله المؤرخ : « عبد الرحمن الرافعى » فى كتابه : « مقدمات ثورة ٢٣ يوليو » من ان « ملابسات تعيين « حافظ عفيفى » فى منصب رئيس الـــديوان الملكى ، تدل على ان سببه الجوهرى هو رغبة « فاروق » فى اخلاء مركز « حافظ عفيفى » فى بنك مصر ليشغله « الياس اندراوس » ·· احد رجال الحاشية المقربين من « فاروق » وأداته فى اختلاساته وسرقاته ـ وقد شغل « أندراوس » فعلا مركز العضو المنتدب لمجـلس ادارة

البنك ، بعد تعيين «حافظ عفيفي» رئيسا للديوان الملكى. على الرغم من هذا الذى قال به المؤرخ الجليل فى شأن اسباب تعيين « حافظ عفيفى » رئيسا للديوان الملكى ، فان تعيين الرجل في هذا المنصب الخطير - فى ضوء الميول الصارخة التى كان معروفا بها ، وفى ضوء الظــــروف الوطنية التى كانت قائمة ، وفى ضوء حديثة الى «الاهرام» الذى انتقد فيه تفكير الحكومة فى الغاء المعاهدة المصرية ـ الانجليزية ، انتقادا قاسيا لم يكن ليقدم عليه الا لوثوقه من انه يفعل ذلك لحساب الانجليز ·· ولحساب الملك معا · - كل هذه الملابسات جعلت لتعيين « حافظ عفيفى » فى منصب رئيس الديوان ، دلالات خاصة ·· كان مستحيلا بالنسبة لحكومة الوفد ان تخطئها · ومع ذلك ، فقد لاذت حكومة الوفد ، ولاذ زعيمها ـ مصطفى النحاس ـ بالصمت العميق تجاه هذا التصرف الذى اشتط به الملك فى تجاوز حدوده الدستورية ·· والذى ذهب به فى تحــــدى الحكومة ، ومشاعر الشعب معا ، الى اقصى ما يستطيع ·

واذ سكت « زعيم الوفد » على تحــــدى الملك له ، وللدستور ، وللشعب نفسه ، بتعيينه « حافظ عفيفى » رئيسا لديوانه · فان « الاحرار » لم يسكتوا ، فصدرت صحيفة « اللواء الجديد » فى اول يناير سنة ١٩٥٢ ، تحمل فى صدرها مقالا عنـوانه : « تكلموا بصراحة ·· فالشعب شــبع مداورة » قال فيه كاتبــه ·· « فتحى رضوان » :

« منذ عين حافظ عفيفى (باشا) رئيسا للديوان الملكى ، واكثر الناس لا يعرف راسه من قدمه · وقد كان المظنون ان ملء هـذا المنصب الشاغر سيضع حدا للغموض الذى غرقت فيه المسائل الكبرى ، وان عهدا جديدا سوف يبدأ يعرف فيه الشعب الخيط الابيض من الخيط الاسود ·

« ولكن ، ما كاد نبأ هذا التعيين يذاع ·· حتى ملأت الجــو

اشاعات ليس لها الا معنى واحد ، هو أن الوزارة فوجئت بتعيين « حافظ عفيفى » ٠

« وللشعب الذى لا يملك الوصول الى « كواليس » السياسة والذى لا يعرف الطريق الى « دهاليزها » ، ان يعتقد ان تعيين « حافظ عفيفى » قد أغضب الوزارة ٠٠ اما من حيث الشكل ، واما من حيث الموضوع ٠ والمفهوم ان « الشكل » الذى يغضب الوزارة فى هذا التعيين هو عدم اخطارها مقدما به ، وموافقتها عليه ٠ اما من حيث « الموضوع » فهو عدم رضائها ، اصلا ، على أن يكون الرجل الذى يشغل هذا المنصب الخطير هو « حافظ عفيفى » بالذات ٠

« والشعب ، مرة أخرى ، لا يهمه ان يخوض فى ابحاث دستورية ٠٠ فقد شبع من هذه الابحاث طوال ثلاثين عاما ، لانه لم يجد لها ثمرة ٠٠ وأصبح يطلب الحقائق ، ويناقش على أساس الحقائق ، ويغضب من اجل الحقائق ، ويفرح بفضل الحقائق ٠

« ونحن ، باسم هذا الشعب ، نقول اننا لا نعرف الا الوزارة ٠ فهى المسئولة فى الواقع ، وهى المسئولة دستوريا عن كل ما يقع فى هذا البلد من أحداث ٠ فاذا كان تعيين « حافظ عفيفى » قد تم بغير اخطارها ، وترى هى أن ذلك يخالف الدستور ، فعليها ان تعلن ذلك ، وان تدافع عن حقوقها الدستورية ٠٠ فاذا سكتت ، فقد فرطت فى حماية الدستور ، واستحقت اللوم ، ووجب على النواب والشيوخ ان يسألوها وان يحملوها نتائج اعمالها ٠

« اما اذا كان التعيين بموافقتها ، فمن الخير أن تعلن ذلك اعلانا لا مواربة فيه ولا مواراة ٠ اذ ليس من المصلحة ان تبقى على الغموض الذى تتوالد فى جوه الاشاعات والاكاذيب ، والذى تختفى فيه الحقائق او تشوه ٠

« هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فاننا نريد ان نعرف : هل ما تزال الوزارة ملتزمة بالحدود الدستورية التى سبق أن حملتها مذكرتها الى الديوان الملكى فى سنة ١٩٣٧ ، أم أن رأيها قد تغير ؟

« فلقد كان رأى الوزارة فى ذلك الحين ـ وهو رأى بين وواضح فى تلك المذكرة ـ ان موظفى ديوان الملك ككل موظفى الدولة لا يعينون الا باوامر يوقع عليها الملك ، ويوقع عليها ايضا رئيس وزرائه

« ونحن لا نسأل هذا السؤال لاحراج الوزارة ، ولا لاحراج احد

•• بل لأن الاجابة عليه تنهى كل غموض : اذ لو كان الامر الملكى بتعيين « حافظ عفيفى » رئيسا للديوان قد صدر موقعا عليه من رئيس الوزراء ، فلا يجوز لهذا الرئيس بعد ذلك أن يقول ، او أن يشيع انه لم يكن يعرف أن « حافظ عفيفى » سيعين ، أو أنه عين بالفعل •

« فاذا كان الامر الملكى قد خلا من امضاء رئيس الوزراء ، فلنا أن نسأل : هل عدل رئيس الوزراء عنفهمه القديم للدستور •• أم أن الدستور قد تغير • أم أن رئيس الوزراء هو الذى تغير •• أم ان هذه الآراء الدستورية المتشـــددة التى كان النحاس (باشا) ينادى بها فى سنة ۱۹۳۷ ، لم تكن تعبر عن رأىدستورى صحيح سليم ؟

« هـــذه أمور لا تحتمـــل رأيين • فمتى يتحلى وزراؤنا بالصراحة •• ؟ ومتى يخاطبون الشعب نفسه ؟ • ومتى يهجرون أسلوب الهمس فى الكواليس • ؟

« ان الامة كلها تتحدث عن حقوق السلطات المختلفة الدستورية فى وضوح تام ، لأنها لا ترى فى هذا الحديث عيبا ، او خطأ ، أو خروجا عن حدود الادب •

« فمتى تتهيأ لنا هذه الاخلاق القوية ••• ؟

« ان الشعب يريد أن يسمع رد رئيس الوزراء ، ورده وحده • »

***

لكن النحاس (باشا) ، كما قلت لك ، كان قد تغير •• كان قد فقد ايمانه بجدوى سياسة الانتصـــار للدستور ، والتمسك به ، والدفاع عنه • ومن هنا ، طوى لسانه داخل فمه ، فلم يقل كلمة واحدة تعقيبا على قيام الملك بتعيين « حافظ عفيفى » رئيســا لديوانه ، دون مشاورة الوزارة • بل لقد حدث فى هذه القضية بالذات، ما يعطينا الدليل ، اعمق الدليل ، على مدى ذلك التحول الذى أصاب عقلية « النحاس » وافكاره • فلقد انتهز « عبد الفتاح حسن » ـ وزير الشئون الاجتماعية فى وزارة الوفد ـ فرصة اول اجتماع لمجلس الوزراء بعد تعيين

« حافظ عفيفى » ووجه الى النحاس (باشا) ، رئيس الوزراء ، هذا السؤال :

ـ هل كان لدى رفعة الرئيس علم سابق بأمر تعيين حافظ (باشا) عفيفي رئيسا للديوان الملكى ؟

وكأنما اصاب سؤال « عبد الفتاح حسن » عصبا حساسا فى نفس النحاس (باشا) فاذا به يثور على نحو لم يكن صاحب السؤال يتوقعه .. ولعله ، اعنى النحاس (باشا) ، تصور ان الوزير قصد ان يحرجه ، وراح يجيب على السؤال وهو فى قمة ثورته :

ـ اقول لك يا سيدى .. فى صباح اليوم الذى أصدر فيه الملك أمره بتعيين « حافظ عفيفى » ، اتصل بى حسن (باشا) يوسف وكيل الديوان ، وقال لى ان « جلالة الملك » أصدر أمرا ملكيا بتعيين حافظ (باشا) عفيفى رئيسا للديوان الملكى . فقلت له : « علم » .!!

وسكت النحاس (باشا) معتبراً ان الحكاية قد انتهت .

ولكن الوزير عاد يسأل :

ـ وبعدين ؟..

ونظر « زعيم الوفد » الى الوزير وعيناه تقدحان شرراً. وقال له ـ بطريقته الخاصة فى الكلام ـ :

ـ وبعدين خلاص .. يعنى كنت عايزنى أعمل ايه ياسى عبد الفتاح ؟ كنت عايزنى أحتج ؟ كنت عايزنى أستقيل ؟ أعمل معروف ياسى عبد الفتاح .. اعمل معروف .. أسكت ..أسكت.

غير أن « عبد الفتاح حسن » لم يسكت .. بل راح يتابع كلامه :

ـ ليس من المحتم يا رفعة الرئيس أن تستقيل . بل الذى أراه محتما هو أن يفهم الملك بصورة أو بأخرى ، أننا لسنا على استعداد لان نتقبل منه هذه التصرفات التى أرى أن من حقنا .

بل من واجبنا ، أن لا نسكت عليها ، حتى لا يمضى فيها ··ويفقدنا بذلك ثقة الشعب بنا ·

وهنا بلغت ثورة النحاس (باشا) على الوزير قمتها ، وراح يردد وهو فى حالة هياج عصبى شديد :

ـ وبعدين معاك ياسى عبد الفتاح ·· وبعدين معاك ·· وبعدين معاك ؟!

عندئذ تدخل الوزراء الاخرون محاولين تهدئة زعيمهم من ناحية ، واسكات زميلهم من ناحية أخرى ·

وسكت « عبد الفتاح حسن » ، ولكن ·· بعد ان اصابه ذهول شديد لذلك التغير الغريب الذى اصاب زعيم الوفد · ولعله راح يسائل نفسه : اليس هذا الرجل هو نفسه الذى لم يطق صبرا ، فى سنة ١٩٣٧ ،على انفراد الملك بتعيين « على ماهر » رئيسا لديوانه ؟ فكيف به اليوم يلوذ بصمت الموتى ، فى مواجهة انفراد الملك بتعيين رجل آخر ، ذى ميول خاصة ، فى ظروف خاصة ، تجعله اشد خطرا على الدستور ، وعلى الوفد نفسه ، من « على ماهر » فى نفس مكانه · ؟!

سكت « عبد الفتاح حسن » ·· ولم يحتج « النحاس » ولم يستقل ، ومضى الملك يتابع ضرباته ··

ففى اليوم التالى مباشرة ـ وليس ابعد ـ لاصداره الامر بتعيين « حافظ عفيفى » رئيسا لديوانه ، فاجأ الوزارة باصدار امر ملكى جديد بتعيين عبد الفتاح عمرو (باشا) ، سفير مصر فى لندن وقتئذ ، مستشارا للديوان الملكى فى الشئون الخارجية ،مع احتفاظه بمنصبه الاصلى! ولم يكن معروفا « لعبد الفتاح عمرو » هذا ، قبل تعيينه سفيرا فى لندن ، اى ماض فى العمل السياسى · وكل الذى كان معروفا عنه ، ومعروفا به ، انه كان احد ابطال

لعبة « الاسكواش راكت » ، وانه عاش كل عمره فى انجلترا ، فاصبح صديقا حميما للانجليز ، ومؤمنا بهم ، ومتشيعا لهم الى غير ما حد . حتى لقد وصفه « الدكتور طه حسين » بأنه : « يصلح سفيرا لبريطانيا فى مصر .. اكثر مما يصلح سفيرا لمصر فى بريطانيا » !

واذا كانت دلالة قيام الملك بتعيين « حافظ عفيفى » رئيسا لديوانه ، مع ما للرجل من ميول صارخة نحو الانجليز ، وتشيع لهم ، قد غابت ـ لاول وهلة ـ عن فطنة البعض ، فان تعيين « عبد الفتاح عمرو » فى منصب المستشار السياسى للملك ـ دون ان يكون له من المؤهلات السياسية الا تلك التى اوردناها ـ جرد هذه الدلالة من كل غطاء ، وبات واضحا ان الملك لم يقصد بتعيين « حافظ عفيفى » ثم بتعيين « عبد الفتاح عمرو » فى هذين المنصبين الخطيرين ، الا ان يقدم للانجليز دليلا قاطعا على انه لا يشارك « حكومة الوفد » موقفها منهم ، وتصرفاتها تجاههم . او ليس هؤلاء هم رجالهم يحيط بهم نفسه ، ويجعلهم اصحاب مشورته ؟

ومثلما لاذت « حكومة الوفد » تجاه تعيين « حافظ عفيفى » بصمت الموتى ، فقد لاذت بنفس الصمت تجاه تعيين « عبد الفتاح عمرو » . !

واذ بدا للملك ، كما قدمت ، ان « القلعة » تتهاوى .. فقد والى ـ فى غير ما تحسب ، ولا تردد ، ولا استحياء ـ هجومه عليها . فاتبع هاتين الصفعتين المريرتين بصفعة اخرى لا تقل عنهما مرارة ، بأن اصدر امرا ملكيا ثالثا بتعيين (الياس اندراوس باشا) ـ وهو رجل ثالث انجليزى المشاعر ، والميول ، والولاء ـ مستشارا اقتصاديا له . وكان هذا الرجل كما وصفه المؤرخ « عبد

الرحمن الرافعي » بحق : « اداة فاروق فى اختلاساته ، وسرقاته » .

كل ذلك ، و « حكومة الوفد » صامتة ، جامدة .. لا تغتنب ، ولا تحتج ، ولا تحرك ساكنا . كأن شيئا لا يحدث ، وكأن اعتداءات صارخة لا تقع على رأس الدستور .. وعلى رأسها معه .

وفى وسط هذا المد من اللامبالاة بالدستور ،وبمجلس الوزراء ، وبرئيسه .. صدرت مجلة « روز اليوسف » فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ - اى فى الاسبوع التـالى مباشرة لتعيين « حافظ عفيفى » رئيسا للديوان الملكى . وتعيين « عبد الفتاح عمرو » مستشارا للشئون الخارجية .. وبها هذه القصة السياسية التى لم يخف مغزاها على احد .. وقد نشرتها المجلة تحت عنـوان : « درس فى الدستور : وصيفة الملكة » ..

« كانت الملكة فيكتوريا تقف امام مرآتها ذات صباح عنـدما اخطروها بوجود مستر « جلادستون » رئيس وزرائها ، وبرغبته فى التشرف بمقابلتها .. ولم تكمل الملكة زينتها ، بل أسرعت الى حجـرة المكتب ، وهى تتمتم طوال الوقت : لابد انه جـائنى بتقليعة دستورية جديدة اكتشفها هذا الصباح .

« ودخلت الملكة حجرة المكتب ، وتقدم مستر « جلادستون » فقبل يدها .. وفى عصبية ظاهرة ، ردت على تحيته .. ثم قالت :

- هل من شىء خطير يا مستر جلادستون .. ؟

- ليس خطيرا يا مولاتى .. انما جئت بخصوص وصيفتكم .

- وصيفتى .. ولماذا ؟ .. هل سقطت هى الاخرى فى الانتخابات حتى تخرج من خدمتى ؟ !

« ولم يشأ « جلادستون » ان يعلق على تهكم الملكة حتى لا يفلت منه زمام الموقف ، وقال :

- لا .. ولكن أرجو ان تتنازل مولاتى عنها ، وتختار غيرها .

- لعلك وجدت فى الدستور تقليدا يؤيد ذلك ؟ !

- بل وجدت الدستور يحتم ذلك ، ويصر عليه . فان الوصيفة

ـ بحكم صلتها الوثيقة بجلالتكم ـ تطلع على ادق اسرار الامبراطورية ، ولذا فانها لابد أن تكون محل ثقة الوزارة ٠

ـ الا يكفي ان تكون محل ثقتي ؟ !

ـ كان يكفى جدا يا مولاتى لو لم تكن فى ظل حكم ديمقراطى ٠

ـ ولكنى مطمئنة اليها ، ومرتاحة لخدمتها ٠

ـ ستطمئن الامبراطورية اكثر ، وترتاح ، لو تغيرت هذه الوصيفة ٠ وليست هذه هي أول مرة تضحين فيها براحتك الشخصية من أجل الامبراطورية ٠

« وسكتت الملكة طويلا ، وكأنها تبحث فى ذاكرتها عن قنبلة تلقيها بلسانها ، لتنفجر فى رئيس الوزراء العنيد ٠ واخيرا قالت له ، وجسمها ينتفض من الغيظ :

ـ مستر جلادستون ٠٠ اتعرف انك نجحت أكثر مما يجب ٠ !

ـ فى اى ناحية يا مولاتى ٠٠ ؟

ـ فى ان تجعلنى افكر جديا فى التنازل عن العرش ٠٠ !!

ـ مولاتى ٠٠ ان الديمقراطية هي التى تظلل هذه البلاد ، وهى التى تحمى كل من يمارس حقا له ٠٠ اى حق ، وكل حق ٠

ـ ما اقبح الديمقراطية يا مستر جلادستون ، اذا كانت تحميك وانت تدس انفك فى كل حجرة من حجرات قصرى ٠٠ حتى حجرة الوصيفة ٠

ولم يرد « جلادستون » على هذه الملاحظة ٠ وسيطر على القاعة صمت عميق ، قطعه « جلادستون » بقوله :

ـ ارجو عندما تغادر الوصيفة القصر ان تخطرنا بمقرها الجديد ٠ كما ارجو يا مولاتى ان يكون عندنا اسم الوصيفة الجديدة قبل صدور رغبتكم السامية باختيارها ٠!

وقالت الملكة فجاة :

ـ اننى لا اقبل هذا ٠

ـ اذن ٠٠ أرجو يا مولاتى آن تقبلى شيئا آخر ٠٠ استقالتى من رئاسة الوزارة ٠

ـ وهل تستقيل لأن الملكة ترفض تغيير وصيفتها الخاصة ؟ !

ـ بل استقيل لأن الدستور الذى جعلنى رئيسا للوزراء ، عاجز عن ان يحمى استخدامى لحقى ٠٠ وغدا سارى جلالتكم لاسمع

رايكم النهائى : أما ابقائى فى الوزارة ·· واما ابقاء الوصيفة فى القصر · !

« وخرجت الملكة غاضبة ·· وخـــرج رئيس الوزراء مرفوع الرأس ·

***

« ولم تستطع الملكة أن تتحرر لحظة واحدة من الاثر القاسى الذى تركته هذه المقابلة فى نفسها · كانت تحس بكل كلمة من كلمات « جلادستون » وكأنها مطرقة تدق بعنف جوانب رأسها · لقد بدأت تشعر أن هذا الرجل يحمى « الدستور » ، أكثر مما يحميه « الدستور » ، وان كليهما لا يحسان بها ·· وهى الملكة !

« ولم يكد المساء يقبل عليها حتى كانت قد قررت شيئا ·· شيئا خطيرا · !

« قررت أن تترك هى « القصر » ··· فانها لم تعد تطيق هذا الرجل · قررت أن تهرب من تقاليد « الدستور » التى تلاحقها ، حتى فى حجرتها الخاصة ، وتنزع منها وصيفتها ·· قررت أن تفر من السجن الذى يسمونه : « العرش » !!

« ودخلت عليها وصيفتها لتجدها على هذه الحال من الغيظ ، والحيرة ، فقالت لها :

ـ اراك يا مولاتى على غير عادتك اليوم ·· فهل حدث شىء بينك وبين هذا العجوز ؟

« وردت الملكة ، وهى تبذل أقصى ما تستطيع لمنع دموعها :

ـ لا شىء ·· ولكن كونى على استعداد للرحيل ، فقد نرحل غدا ·

ـ الى أين يا مولاتى ·· ؟

ـ الى اى مكان أطمئن فيه الى أنى لن أرى وجه « جلادستون » هذا · !!

« ولم يطرق النوم عيون الملكة مبكرا فى تلك الليلة ، فقـد كانت عيونها على موعد مع دموعها ·

« وفى الصباح ، دعت الملكة وصيفتها وقالت لها :

ـ هل أعددت العدة للرحيل ·· ؟

ـ أجل يا مولاتى ··

ـ اذن ٠٠ ارحلى وحدك ، ولا تنسى ان تتركى عنـــوانك الجديد ٠

« وفى هذه اللحظة نفسها كان « جلادستون » قد وصـــل الى القصر ، وابلغت الملكة انه ينتظر التشرف بمقابلتها ٠

« وتوجهت الملكة الى مقابلة « جلادستون » الذى قرأ فى عينيها ارقها ، وقلقها ، وقرارها ٠ وتقدم رئيس الوزراء من الملكة ، وقبل يدها ، ثم قال :

ـ ألم يقع اختيار مولاتى على الوصيفة الجديدة بعد ؟

« تأملت الملكة وجه رئيس وزرائها لحظة ، قبل ان تسأله :

ـ ومن أعلمك اننى لم أقرر الاحتفاظ بوصيفتى ٠ ؟ !

« فأجاب ريس الوزراء :

ـ لأنى أعلم ان مولاتى تضع مصلحة بلادها فوق كل شىء ٠٠

« فقالت الملكة :

ـ لقد انتصرت فعلا يا مستر جلادستون ٠٠

« فأجابها رئيس الوزراء :

ـ بل « الدستور » هو الذى انتصر يا مولاتى ٠

« هذه قصة ملكة ٠٠ وقصة دستور ٠٠ وقصة رئيس وزراء كان الشعب يؤيده ، والبرلمان يسانده ، والملكة تحترمه ٠٠ وان لم تكن تحبه ٠ »

***

على ان ذلك العدوان الصارخ الذى وقع من « فاروق » على « الدستور » ٠٠ والذى استكتب « فتحى رضوان » ما كتب ٠٠ والذى استثار « روز اليوسف » لكى تفتش فى اعماق التاريخ عن قصة « وصيفة الملكة » لكى تقصها من جديد على مسامع الملك ، وعلى مسامع رئيس وزرائه ـ لم يكن هو كل ما فى « صحيفة سوابق » الملك من جرائم اقترفها ضد الدستور ٠٠ فلقد اعتـــدى « فاروق » على الدستور ، قبل هذه المرة ، مرات كثيرة ٠٠٠

● « اعتدى عليه ، مـرة سـنة ١٩٤٥ ، عندما عقـــد اجتماعا سياســيا مع الرئيس الامريكى « روزفلت » على ظهر الطراد الذى اقله اثناء عودته الى بلاده ، بعد حضور

مؤتمر « يالتا » المشهور • كان المفروض – دستوريا – ان يصطحب « فاروق » رئيس الوزراء، او وزير الخارجية معه ، اذ ان الاجتماع كانت له « صـفة سياسية » تحتم وجود احد هذين الرجلين • لكنه تحدى الجميع ، واكتفى « باحمد حسنين » رئيس ديوانه ، رفيقـا له فى ذلك الاجتماع • !!

● واعتدى عليه ، مرة ثانية ، فى نفس السنة – سنة ١٩٤٥ – عندما سافر الى المملكة العربية السـعودية ، واجتمع بملكها الراحل « عبد العزيز آل سـعود » فى « رضوى » ، وتحدثا فى الشئون العامة ، وفى العلاقات بين بلديهما ، دون ان يصطحب معه رئيس الوزراء ، او وزير الخارجية • بل لقد ذهب الملك فى تحديه لمقتضيات « الدستور » الى حد أنه لم يبلغ أيا من الرجـلين ، مجرد تبليغ ، باعتزامه القيام بهذه الرحلة •• ولم يعلما بمـا دار فيها الا بعد عودته منها • !!

● واعتدى عليه ، مرة ثالثة ، فى سنة ١٩٤٦ ، عندما أصر على الا يعقد مجلس الوزراء الا فى المدينة التى يكون هو مقيما بها • وحين علم ان رئيس الوزراء (محمـود فهمى النقراشى)دعا مجلس الوزراء للاجتماع بالاسكندرية – ولم يكن هو قد انتقل اليها بعد – دعا اليه مستشاره الصحفى (كريم ثابت) وكلفه بالذهاب الى مقابلة رئيس الوزراء ليقول له : « انه اذا كان مصمما على عقد اجتماع مجلس الوزراء في الاسكندرية ، فأمامه واحدة من اثنتين: فاما أن يستقيل •• واما ان يقيله الملك » !! •

● واعتدى عليه مرة رابعة ، في سنة ١٩٤٦ ايضـا ، عندما دعا ملوك ورؤساء الدول العربية الى مؤتمر عقده في قصره « بانشاص » ، دون وساطة رئيس الوزراء ، او وزير الخارجية ، بل ودون علمهما • وارسـل يدعو

الملوك والرؤساء بواسطة أحد افراد حاشيته • واجتمع المؤتمر بناء على هذه الدعوة ، وبحث مسائل سياسية هامة ، دون أن يشترك فيه ، او يحضره رئيس الوزراء (اسماعيل صدقى)،ولا وزير الخارجية (احمد لطفى السيد)

● واعتدى عليه ، مرة خامسة ، فى سنة ١٩٤٨ ، افظع اعتداء ، عندما قرر - بوصفة القائد الاعلى للجيش - اشتراك القوات المصرية فى حرب فلسطين ، دون انتظار لموافقة البرلمان إلذى كان رئيس الوزراء (محمود فهمى النقراشى) لايزال يحاول الحصول عليها !! •

● واعتدى عليه ، مرة سادسة ، فى سنة ١٩٤٩ ، عندما دعا « حسنى الزعيم » قائد اول انقلاب عسكرى فى سوريا ، الى الاجتماع به فى « أنشاص » فتحدث اليه ، وبارك انقلابه ، واعترف به ، دون ان يكون للوزارة القائمة فى الحكم (وزارة ابراهيم عبد الهادى) علم بشيء من ذلك كله !! •

وهكذا تعددت اعتداءات « فاروق » على الدستور ، وتنوعت • لان رجالنا ، جميعا ، لم يكن فيهم « جلادستون » واحد يستطيع ان يفعل مافعله ذلك الرجل عندما اعطى « الملكة فيكتوريا » درسا قاسيا فى كيفية التزام حدودها الدستورية ، وعلمها انها - وهى الملكة - لا تملك ان تختار « وصيفتها الخاصة » دون موافقة رئيس الوزراء • ولكن •• لان رجالنا جميعا لم يكن فيهم رجل واحد قادر ، بتجرده •• وبزهده الحقيقى فى الحكم وأسلابه ، ومغانمه ، على ان يقف من « فاروق » موقف « جلادستون » من « فيكتوريا » •• كان طبيعيا ان يطغى الملك ، وان يزداد طغيانا ، وأن يتضاءل الدستور على يديه ، حتى اضحى لا يساوى الحبر الذى كتب به ، ولا الورق الذى سجل عليه •

الفصل الثانى

رجلان .. وراء طغيانه !

اصل ، الآن ،الى الرجلين اللذين قلت لك ، فيما سبق، انهما تلقيا « فاروقا » يافعا ، فعملا ـ استبقاء لنفوذهما، وتحقيقا لمصالحهما ـ على افساده ، وعلى اذكاء كراهيته للدستور ، وعلى تفجير عوامـــل « الوراثة » التى كانت مستكنة فى اعماقه تحركه نحو الاستبداد بالشعب ، والى النزوع الى « الحكم المطلق » الذى يستطيع ، من خلاله ، ان يفعل ما يشاء ، كيفما يشاء ، وقتما يشاء .

ولقد كان لكل من الرجلين من التـأثير فى « فاروق » ـ ملكا .. وانسانا ـ امام التاريخ ، مسئولية مباشرة ، ومحـــددة ، عن كل ذلك الذى قد انتهى اليه « فاروق » كانسان .. وايضا كملك .

هذان الرجلان هما : احمد حسنين (باشا) .. وعلى ماهر (باشا) .

كان اولهما « رائدا » لفاروق عندما اوفـــده والده الى انجلترا فى اكتوبر سنة ١٩٣٥ ، ليتم تعليمه فى معاهدها ثم صار بعد ذلك كبيرا لامنائه حينما اصبح ملكا .. ثم رئيسا لديوانه الملكى فى سنة ١٩٤٠ .

وكان ثانيهما .. على ماهـــر (باشا) . اول رئيس لديوانه الملكى حينما ولى العرش فى سنة ١٩٣٧ . فكان بذلك اول سياسى مصرى محترف، عرفه « فاروق » وتعلم منه ، وعمل بنصائحه وتوجيهاته .

ولقد كان فى مقدور كل واحد من هــذين الرجلين ان يكون عاملا هاما ، ومؤثرا ، فى تنشئة « فاروق » نشأة صالحة . كذلك كان فى مقدور كل واحد منهما ،فى ناحية من النواحى ، ان يسيطر على عوامـــل « الوراثة » التى كانت مستكنة فى اعماق « فاروق » وان يحاصرها ، وان يتسامى بها .لكن الذى حدث انالرجلين ــ كلا فى ناحية من النواحى .. وكلا بأســلوبه الخاص ، وبطـــريقته الخاصة ــ راحا يساعدان عوامل«الوراثة» تلك علىالانطلاق من عقالها ، حتى ذهبت ــ فى آخر الامــر ــ الى ابعد ما تستطيع الذهاب اليه ! .

واذا كان « على ماهر » يعتبر مسئولا ، على نحو محدد، عما انتهى اليه فاروق « كملك » فحسب .. فان « احمد حسنين » يعتبر مسئولا ــ وعلى نحو محدد ايضا ــ عما انتهى اليه فاروق « كانسان .. وملك » ..

فلقد تلقى « احمد حسنين » « فاروقا » بين يديه وهو ما يزال مراهقا لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره .. اى انه كان لا يزال « عجينة » لينة يسهل عليه تشكيلها بحيث كان يستطيع ــ اذا اراد ــ أن يصنع منها أنموذجا صالحا .. كما كان يستطيع ــ اذا اراد ــ ان يصنع منها إنموذجا طالحا . ولقد اختار « احمد حسنين » ــ لحاجة فى نفسه ، سوف نتبينها ــ ان يصــــنع من « فاروق » الانموذج الاخير .

لم يكن « احمد حسنين » وحده فى المهمة التى ندبهلها الملك فؤاد « كرائد » لابنه « فاروق » فى لندن . بل كان يشـــاركه هذه المهمة « الفريق عزيز المصرى » . وكان الرجلان على طرفى نقيض . لا يربطهمـــا رباط ، ولا يجمعهما شبه . فبينما كان « عزيز المصرى » ضابطـــا جادا ، ومتمسكا بعاداتنا وتقاليدنا .. كان « احمـــد

حسنين » رجلا انجليزى الثقافة ، والعادات ، والسلوك• فلقد تلقى « احمد حسنين » تعليمه فى «جامعة اكسفورد» بانجلترا • فاكتسب عادات الانجليز ، واساليبهم ، وملأ نفسه اعجابا بهم • وبينما كان « عزيز المصرى » يؤمن بالنور ، ويحارب فوق السطح • كان « حسنين » يؤمن بالظلام ، ويحارب تحت السطح • وبينما كان « عزيز المصرى » يريد ان يعلم « فاروقا » كيف يسمو بنفسه ، وكيف يتسامى بغرائزه • كان « حسنين » ، على العكس من هذا ، يتملق غرائز « الامير اليافع » • ويشجعه على اطلاق جماحها • فتعلم « فاروق » على يدى «رائده الامين» — أول ما تعلم — كيف يتسلل من فراشه ليلا بعد أن يطمئن ، هو و « رائده » ، الى ان « عزيز المصرى » قد استغرق فى النوم — متوجها الى « علب الليل » فى لندن !! •

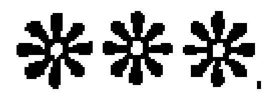
يقول « الدكتور محمد حسين هيكل » — فى الجزء الثانى من كتابه « مذكرات فى السياسة المصرية » :

« قص على عزيز المصرى (باشا) ، وكان قد سافر الى انجلترا قبيل وفاة الملك فؤاد مشرفا على تعليم « فاروق » ، ان المحيطين بولى العهد كانوا يسارعون الى ارضاء أهوائه ، ونزوات شبابه •• وان رائده « حسنين بك » الذى أصبح ، من بعد ، « حسنين باشا » رئيس الديوان الملكى ، كان لا يصده دون الاندفاع الى ما يطفىء نوازع هذا الشباب • فلما تولى الملك بعد أبيه ، بالغ المحيطون به فى تملق شبابه وفتوته • » • !!

ونستطيع القول ان « أحمد حسنين » لم يكن يفعل كل ذلك الذى راح يفعله ، بشكل عفوى ، او بلا هدف مرسوم • فذلك أبعد الاشياء عن طبيعة الرجل وتكوينه • وانما كان « حسنين » يهدف من وراء تشجيع « فاروق » على اطلاق العنان لغرائزه ومن وراء تملق فتوته وشبابه، الى التسلط عليه ، والى اخضاعه لنفوذه وسلطانه ••او

ليس هذا « الامير اليافع » هو ملك مصر القادم ؟ أو ليس التسلط عليهمن الآن ·· وعن طريق تملق فتوته وشبابه، هو الخطوة الاولى علىطريق التسلط عليهفى المستقبل ؟·

فلقد كان « احمد حسنين » ـ حينذاك ـ يرسم خطته للمستقبل لا على اساس ان يكون « الرجل الاول فى القصر » ، بل على أساس ان يكون « الرجل الاقوى فى مصر » · وليس يعينه على بلوغ هدفه هذا شىء ، قدر ان يعينه عليه تسلطه على الملك ، واخضاعه لارادته ، وطيه تحت جناحه ! ·



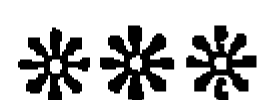
ولم يكن « عزيز المصرى » محتاجا لوقت طويل لـكى يتبين انه بدأ يخسر « الجولة » ضد « احمد حسنين » · فالاسلحة ليست متكافئة · فلقـد بدأ « الامـير اليافع » يبدى ضيقه « بعزيز المصرى » ، وبنصائحه ، وتوجيهاته· فى نفس الوقت الذى راح يلقى بنفسه ـ باندفاع صبى غرير ـ فى احضان الرجل الآخر ·· فى احضان الرجل الذى عرف بمكره ، وبنعومته ، واساليبه ، كيف يدغدغ غرائزه ، وكيف يتملق فتوته وشبابه ! ·

واذ قرر « عزيز المصرى » ان يترك لنـدن ، عائدا الى مصر ، ناجيا بنفسه من مسئولية المشاركة فى افساد ملكها المقبل · خلا الجو تماما امام « احمد حسنين » لكى يصنع « بفاروق » ما يشاء ، كيفما يشاء ·

ولقد توسل « احمد حسنين » ، فى محاولة السـيطرة على « فاروق » ، بكل الوسائل · الى حد أنه انشـأ مع أمه « الملكة نازلى » علاقة آثمة انتهت بزوآجه منها زواجا سريا !! ومع ذلك ، فقد وجد الرجل ـ باخلاقياته هذه ·· وبأساليبه هذه ـ وجد بين الكتاب فى مصر ، من راحوا يشيدون به ، ويروجون له ،ويصفونه بالرجولة ،

وبقوة الخلق ٠٠ وايضا بالتقوى ، ومخافة الله !!! ٠

والمؤسف ، حقا ، ان هذا التزييف البارع لحقيقة « احمد حسنين » ، انطلى على كثير من الناس ٠ فأخذ كثيرون ــ ولهم العذر ــ ينظرون اليه كبطل، وكأسطورة ٠٠ ولم تتضح للناس حقيقة الرجل حتى بعد ان مات ٠ فلقد كان ضروريا لكى تتكشف لهم الحقيقة كاملة ان يموت « فاروق » نفسه ٠٠٠ اعنى ان يسقط من فوق عرشه ٠ فلما ان سقط ، سقطت معه أقنعة التزييف كلها ٠٠ وظهرت الحقيقة عارية ، وأيضا رهيبة ٠٠ وقبيحة ٠٠ ومؤلمة ٠ !



قلنا ان « احمد حسين » تلقى تعليمه فى انجلترا ٠٠ فى جامعة « اكسفورد » ٠٠ وانه ــ كتلميذه ٠٠ « عبد الفتاح عمرو » ــ كان معجبا بالانجليز ، وصديقا حميما لهم ٠ ولعل اهم من هذا الذى قلناه ، ان نعرف كيف التحق « احمد حسنين » بجامعة « اكسفورد » ٠ فان خطوته الاولى الى هذه الجامعة ، كانت هى نفسها خطوته الاولى الى احضان الانجليز ٠٠ الى الأيمان بهم ، والدوران فى فلكهم ٠ !

فلقد ذهب « احمد حسنين » الى انجلترا بقصداستكمال تعليمه هناك ، حاملا معه خطاب توصية الى احد اساطين الانجليز ٠٠ الى « اللورد ملنر » ٠٠ ليساعده على الالتحاق بجامعة « اكسفورد » ٠ ولم يقل لنا الكاتب الصحفى الذى روى هذه الواقعة ــ وهو ليس من اعداء « حسنين » الشخصيين أو السياسيين ، بل هو واحد من اخلص اصدقائه ٠٠ ومن أشدهم اعجابا به ، وتشيعا له ــ لم يقل لنا ممن كان « خطاب التوصية » الذى حمله « حسنين » الى لورد ملنر » ولعله ــ أقصد الكاتب الصحفى ــ قد اغفل ذلك متعمداً لانه وجد فى الاشارة

الى « مصدر التوصية » تحديدا لنوعية خطى « حسنين » الاولى على الطريق • أو لعله قد اغفل ذلك لان ذهنه كان مشغولا بما كان سيرويه بعدها • وما رواه بعدها يقول :

« كان « لورد ملنر » جالسا فى غرفة مكتبه بداره ، وقد وضع منظاره على عينيه ، بينما نار المدفأة تحدث فى الاخشاب الملتهبة ازيزا يزيد فى رهبة الشاب الطويل •• « أحمد حسنين » الذى كان يحمل خطاب توصية الى السياسى الانجليزى الكبير ليتوسط له فى دخول جامعة « أكسفورد » •

« وانتهى السياسى الانجليزى من قراءة خطاب التوصية ، ثم التفت الى « حسنين » قائلا :

ـ لماذا اخترت انجلترا لتتعلم فيها •• ؟

فقال « حسنين » ببساطة :

ـ لاتعلم كيف أحاربها فى بلادى • (!!)

وهو ـ كما ترى ـ رد يرفض العقل احتمال صدوره عن « حسنين » لسببين :

اولهما : أنه لم يعرف « لاحمد حسنين »، فى المرحلة السابقة على ذهابه الى انجلترا ، اى اهتمام ، من اى نوع، بقضية بلاده • ولو كان « لحسنين » اى قدر من هـذا الاهتمام ، لما فات صديقة الكاتب الصحفى ان يسجله له ، وأن يجسده ، وان يضيف اليه من عنده الشىء الكثير ولما تردد فى ان يجعل من « الحبة » ، فى هذا المجال ، « قبة » •• ما دامت « الحبة » أصلا موجودة •

ثانيهما : أنه لم يكن معقولا ـ وقد ذهب «حسنين» الى « لورد ملنر » راجيا وساطته للالتحاق بالجامعة ـ ان يقول له انه قصد من وراء طلب العلم فى انجلترا ، ان يتعلم كيف يحاربها فى بلاده • !! فذلك قول لايصدر الا عن شخص ركبته حمى « الحماس الوطنى » الى الحد الذى ينسيه « مقتضيات الموقف » ولم يكن « احمد حسنين » ـ بالقطع ـ من هذا الصنف من الناس • !

ثم يمضي الكاتب الصحفي في وصف مشهد لقـــاء « حسنين » مع « لورد ملنر » فيقول :

« وقابل لورد ملنر ، وكتب الى عميد كلية « بليول » – وهي الكلية التي كان اللورد يرأس مجلس ادارتها – أغرب خطاب توصية : « أقدم لكم عدوا صغيرا لانجلترا ، فاجتهدوا أن تحولوه الى صديق كبير » ٠٠ !!

ونشك كثيرا في ان تكون توصية « لورد ملنر » قد صدرت عنه على هذا النحو الذي رواه الكاتب الصحفي ٠٠ ولكن ، أيا ما كان الامر ٠ فقد عرف الانجليز كيف يجعلون من احمـــد حسنين « صــــديقا كبيـــرا لهم » ٠ ولا يهم كثيرا هنا ان يكون ذلك قد تم اســــتجابة لتوصية « لورد ملنر » أو لان الانجليز يعـــرفون – بما لهم من باع طويل في هذا المضمار – كيف ينتقــــون الاشخاص المؤهلين ، سلفا ، لان يكونوا اصدقاء مخلصين لهم ٠ وعلى الرغم من هذا ، فان ذلك الكاتب الصحفي ٠٠ يعطينا تفصيلا أكثر للكيفية التي اصبح بها الرجل صديقا كبيرا للانجليز فيقول :

« وما لبث اسم « احمد حسنين » ان لمع بين طلبة جامعة « اكسفورد » ، فقد كان بينهم مثلا « للجنتلمان » ٠ ثم ما لبث ان دعي الى البيوت الارستقراطية ٠٠٠ لأن « لورد ملنر » كان ولي أمره » !!

ولان « لورد ملنر » كان قد اصبح « ولي أمر » احمد حسنين – كما يقرر صديقه – كان طبيعيا للغاية ان تكون اول وظيفة يتولاها عند عودته الى مصر ، في سنة ١٩١٤ ، هي وظيفة : « السكرتير الخاص للجنرال ماكسويل الذي كان حاكما عسكريا على مصر » !!

ولعل « احمد حسنين » ٠٠ كما حمل معه ، عند ذهابه الى انجلترا ، خطاب توصية من « مجهـول » الى « لورد ملنر » ٠ قد حمل معه ، عند عودته الى مصر ، خطـــاب

توصية مماثل ٠ ولكن ، ليس من « مجهول » هذه المرة٠ بل لعله كان من « لورد ملنر » ــ « ولى امر احمد حسنين فى انجلترا » ــ الى الجنرال ماكسويل « الحاكم العسكرى الانجليــــزى على مصر » ٠ والا ٠ بماذا نفسر اختيــار » « الجنرال ماكســـويل » لمصرى ، لم يعرفه من قبــل ، ليعينه « سكرتيرا خاصا له ؟ !!

ولقد ظل « احمد حسنين » يقوم بعمله بجوار «الجنرال ماكسويل » حتى انتهت الحرب العالمية الاولى ٠ فانتقــل الى العمل مفتشـــا بوزارة الداخلية التى كانت وقتئــذ ، مستعمرة بريطانية قائمة بذاتها فى قلب القاهرة ٠

ولم يغادر « احمد حسنين » مكانه فى وزارة الداخلية، الا الى « القصر الملكى » ليعمــل ، فى سنة ١٩٢٢ ، امينا للملك فؤاد ٠ !! وكأن العمل مع الانجليز ، وبجوارهم ، كان هو « الجسر الطبيعى » الذى يتحتم على كل من سوف يعمل فى القصر الملكى ان يعبره ٠٠ كما سنرى ذلك بعد قليل ٠ !!

كان ذلك هو كل ماعرف « لاحمد حسنين » من ماض فى الخدمة العامة ٠ وقد حمل حسنين « ماضيه المجيد » هذا ، وذهب به الى « القصر الملكى » ليعمل هناك كواحد من امناء الملك ٠ وقد ظل « حسنين » مستكنا فى مكمنه الخاص فى « القصر المــلكى » من سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٣٥ ، حين واتته فرصة اختيار الملك فؤاد له ليــكون « رائدا » لابنه « فاروق » عنـــدما اوفده الى « لنــدن » لاستكمال تعليمه ! ٠

ونحسب ان اختيار الملك فؤاد « لاحمد حسنين » ، دون غيره من امناء « القصر الملكى » ، ليكون « رائدا » لابنه ، كان يرتكز ــ اساسا ــ على ما عرف به « حســنين » من علاقات وطيدة بالانجليز ٠ خاصة وان الملك فؤاد نفسه

كان يدين باكثر ولائه ـ ان لم يكن بكل ولائه ـ لدولة الاحتلال التى كان لها عليه فضل تنصيبه « سلطانا » على مصر . ولعله ، أعنى الملك فؤاد ، رأى انه ليس هناك ادعى الى الاطمئنان الى مستقبل ابنه ، واقطع فى التدليل للانجليز على ان ولاءه القديم لهم لايزال حيا ، ومستقرا ، ومكينا ، من ان يوفد اليهم ذلك الابن ليكمل تعليمه فى بلادهم ، وتحت اشرافهم .. مصحوبا ، فى نفس الوقت ، بواحد من اخلص اصدقائهم ، واوفى تلاميذهم !! .

***

وحين عاد « فاروق » من لندن ، فى اعقاب وفاة ابيه ، مصحوبا برائده « احمد حسنين » ، وجد هذا ان فرصته قد سنحت لكى يحكم مصر من وراء ستار . وليمسك بين اصابعه بكل الخيوط التى سوف تحرك « الملك الصغير » فى أى اتجاه يريده « رائده ». الذى قلنا انه كان قد خطط لمستقبله ، لا على أساس ان يكون « الرجل الاول فى القصر » . بل على أساس ان يكون « الرجل الاقوى فى مصر » !! .

ولقد مشى « احمد حسنين » فى طريقه لتحقيق هذا الهدف ، على خطين متوازيين :

الاول : صرف « فاروق » صرفا كاملا عن متطلبات الحياة الجادة ، وتملق فتوته وشبابه ، بتشجيعه على مواصلة حياة العبث ، والمجون ، التى كان قد بدأها على يديه فى « لندن » !!

الثانى : تضليل الشعب عن حقيقة ملكه .. وتضليل الملك عن حقيقة نفسه ـ كشاب لا يزال فى أول الطريق .. لم يكمل تعليمه ، ولم يعط الحياة ، ولم يأخذ منها ـ ومن ثم ، مضى « حسنين » بمعاونة عدد من الصحفيين والكتاب اصطنعهم لنفسه ، ينشر حول « فاروق » ..

وعن « فاروق » .. كثيرا من القصص ، والروايات التى تظهره للشعب فى صورة « الانسان » الذى تتفجر ينابيع الخير من قلبه !! .. وفى صورة « المؤمن » الذى لا يفرط، تحت اقسى الظروف ، فى اى فرض من فروض ربه ! .. وفى صورة « البطل الوطنى » الذى يريد آن يبدل واقع الحياة الاليمة فى مصر، والذى يريد ان يخلصها من جميع الادواء التى تعيق تقدمها ، وتبدد قواها . !!

ومن الحق ان نعترف ، بان هذه الصـــور التي راح « احمد حسنين » يرسمها لفاروق ، بمعاونة اصفيائه من الصحفيين والكتاب ، قد انطلت على الشعب امدا طويلا . اذ كانت ، من ناحية ، مرسومة ببراعة شـــديدة .. وباقلام مجموعة من الكتاب كان لهم ، وقتئذ ، تأثيرهم الكبير على نفوس الجماهير . ومن ناحية اخرى ، فان « الالحاح » المستمر على الجماهير بهذه الصور المتكررة ، قد ولد لديها مايشبه اليقين بان كل مايقال لها عن «فاروق»، انما هو حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه . وفى غمرة الحماس المشبوب للملك ، ولشبابه ، ولطلعته التى كانت حينئذ ، لا تزال طيبة ، وجميلة ، وآسرة — فى غمرة هذا كله ، لم يكن الشعب مستعدا لان يتوقف لحظات يراجع فيها حماسه ويستعيد فيها لنفسه قول « شوقى » فى « مصرع كليوباترا » :

انظر الشعب ديون   كيف يوحـــون اليه
ملأ الجـــو هتافا   بحيـــــاتى قاتليه
أثر البهتـــان فيه   وانطلى الزور عليــه
يا له من ببغـــاء   عقله فى اذنيه . !!

واذ أحكم « احمد حسنين » ، بهذا الاسلوب الغريب ، قبضته حول « الملك الصغير » . واذ نجح الى حد بعيد فى ان يخدع الشعب عن حقيقة ملكه ، وفى ان يخدع

الملك نفسه عن حقيقة نفسه ، فقد مضى يحكم مصر - من تحت ذقن ذلك « الملك الصغير » - حكما مطلقا !! •

ولكنه ، أى « أحمد حسنين » ، لم يكن ليستطيع ان يحكم مصر على هذا النحو ، اذا ما ظل«فاروق» ملتزما حدوده الدستورية بوصفه ملكا دستوريا يملك ولا يحكم • ومن هنا ، رأى « حسنين » انه اصبح امرا محتوما ان يعلم الملك كيف يتجاوز حدوده •• وكيف يتحدى الدستور • وكيف يصبح ملكا مستبدا •• يملك ويحكم •• لكى يحكم هو باسمه ، ومن ورائه • !

كان « احمد حسنين » يشعر - وهو يلعب لعبة « الحاكم المطلق » لمصر من وراء ستار - ان « الوفد » - بوصفه حزب الاغلبية الشعبية - هو القوة الوحيدة التى تستطيع ، فيما لو خلصت من سلطان الحكم عليها ، ان تنتزع أنيابه ، وان تحطمه • فقرر ان يسبق ويحطمها • كان يعرف ان قوة « الوفد » الحقيقية كامنة فى ذلك التآخى الكبير الذى كان قائما بين « مصطفى النحاس » ، رئيس الوفد ، وبين « مكرم عبيد » ، سكرتيره العام ، وقوته الدافعة والمحركة • فقرر ان يمزق هذا التآخى • وكشف عن نيته هذه لواحد من اصفيائه الصحفيين بقوله : « ان النحاس بغير مكرم ، هو « شمشون » بغير شعره • وقد قررت ان أقص شعر شمشون » !!

ومضى « حسنين » - باسلوبه الخاص الذى لعله قد لقنه فى انجلترا - ينفذ قراره ، فاوقع ، اولا ، بين اقرب الناس الى النحاس (باشا) وبين مكرم عبيد ، بأن افهمهم - هكذا يقول ذلك الصحفى من اصفيائه - « انه ليس بين الملك و « النحاس » الا شخص « مكرم عبيد » ، وانه اذا استطاع « النحاس » ان يتخلص من « مكرم عبيد »، فسيبقى رئيس وزارة الى الابد » • !!

« وفى نفس الوقت ـ لا يزال ذلك الصحفى من أصـــفياء « أحمد حسنين » هو الذى يتكلم ـ شجع « مكرم عبيد » على الاعتقاد بأن الملك ، والشعب ، يعتمدان عليه فى حماية «النحاس» من اطماع أصهاره وأقاربه • وانه وحده الذى يستطيع المحافظة على نظافة « مصطفى النحاس » !!

« ثم رتب « أحمد حسنين » لقاء لمكرم عبيد مع الملك • وكتب « حسنين » ما يجب أن يقوله « فاروق » لمكرم عبيد حرفا بحرف ، وأوضح له : كيف يبدأ الحديث ، واين يتوقف ، ومتى يضحك ، ومتى يربت على كتف مكرم ، ثم كيف يضع الخنجر فى يده » !!

« واشهد ان هذا الحديث كان بارعا ، لأن سطوره كانت بريئة •• ولكن « الخنجر » كان ملفوفا ببراعة فيما بين السطور » !!

« وحرص « حسنين » على أن يدرب « فاروقا » على هذا الحديث، ثم وضعه له فى درج وراء مكتبه لكى يستنجد به •• اذا خانته ذاكرته » !!

ثم يضيف ذلك الصحفى من أصفياء « أحمد حسنين » ضوءا أكثر الى صورة صديقه الذى كان يحكم مصر من وراء ستار ، بقوله :

« كان « حسنين » حريصا على أن يصور نفسه فى صـــورة « الطرطور » • ومن تحت هذا « الطرطور » كان يحكم مصر • فمثلا ، بعد وفاة المرحوم حسن صبرى (باشا) بخمس دقائق • كان « حسنين » قد قرر أن يتولى « حسين سرى » رياسة الوزارة الجديدة !! •• وترك الملك يتباحث مع « على ماهر » و « عبد الوهاب طلعت » ٤٨ ساعة كاملة فى اسماء المرشحين لرياسة الوزارة ، وليس بينهم اسم « حسين سرى » •

« ولما قبض الجيش الفرنسى على « بشارة الخورى » رئيس جمهورية لبنان ، و « رياض الصلح » رئيس وزرائه ، أوقف « حسنين » مطابع جريدة الاهرام فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، وطلب نشر برقية بتوقيع «فاروق » يؤيد فيها زعماء لبنان •• ويحتج فيها على خرق استقلال لبنان » •

« وقرأ « فاروق » هذه البرقية فى « الاهرام » ، كما قرأها باقى القراء •• ومن الطريف ان هذه البرقية لم ترسل اطلاقا فى ذلك الوقت » •

وعندما نترك هذا الصحفى من اصـــفياء « احمد

حسنين » .. لكى نعود مرة اخرى الى – توأمه فى البراعة والذكاء – والذى حكى لنـــا ، فى بداية هذا الحديث ، حكاية التحاق « حسنين » بجامعة « اكسفورد » بتوصية خاصة من « لورد ملنر » ، نجده يســتكمل حكايته هذه بقوله :

« .... واستفاد « حسنين » من وجوده في « اكسفورد » . فان جميع رجال السياسة الانجليز الذين أصبحوا أصحاب رأى في مصـــير السياسة المصرية ، كانوا زملاء له في الدراسة ، وعرفوه ، واحبوه . وقد كسب « حسنين » عدة مواقع سياسية، لأن زملاءه في « اكسفورد » كانوا يعتبـــرونه المثل الاعلى للجنتلمان » ..!!

وهكذا تمضى روايات الرواة من أصدقاء « احمـــد حسنين » ، واصفيائه ، مؤكدة طبيعة الرجل ، وطبيعة غاياته واهدافه . وايضا طبيعة الوســائل التى كان يتوسل بها لتحقيق هذه الغايات ، والاهداف !!

ولست ارفض من هـــذه الروايات – وكلها تحدد ، ادق تحديد ، نوعية الرجل ، واسلوبه، ولحساب من كان يعمل – لست ارفض من هذه الروايات جميعها ، رواية واحدة . فرواتها جميعا من اخلص اصدقائه .. من الصقهم به ، ومن أقربهم اليه ، ومن ابعدهم عن التقول عليه . هذا فضلا على انهم لم يرووا شيئا من كل ذلك الذى رووه ،عن « حسنين » فى معرض النيل منه ، او التنديد به ، او تحميلة مسئولية أى شىء مما جرى فى مصر ، ولمصر ، وقت ان كان هذا الرجل يحكمها من وراء ستار ، ويقوم بمهمته في افساد « فاروق » .. « ملكا ، وانسانا » .. على احسن الوجوه . وانما روى الرواة من اصفياء « حسنين » هذه الحقائق كلها ، فى معرض ازجاء المديح له ، والاشادة به ، والاعجاب الشديد بما كان يتمتع به من عبقرية ، ومن مكر ، ودهاء .. !!

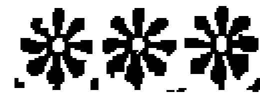
واذكر انني في الثامن من ديسمبر سنة ١٩٥٣ — وكانت « محكمة الثورة » قائمة بمحاكمة الذين اسهموا في افساد « فاروق » ، وفي افساد الحياة السياسية في مصر على عهده — نشرت في مجلة « التحرير » مقالا عنوانه : « حاكموا الاموات .. واحكموا عليهم » — ، طالبت فيه بمحاكمة « اسماء » الذين افسدوا الملك على امته ، بعد اذ افسدوه على نفسه . وكان في مقدمة اولئك « الاموات » الذين طالبت بمحاكمتهم : « احمد حسنين » .. و « الياس اندراوس » . وجاء في ذلك المقـــال عن « احمد حسنين » ما يلي :

« لقد وقف « عباس حليم » — وهو احد افراد الاسرة المالكة السابقة — امام « محكمة الثورة » ليقرر أن فســـاد « فاروق » بدأ حين كان « أحمد حسنين » رائده . ومن قبل « عباس حليم » كشف رجال آخرون عن ان رائد الملك هذا ، كان متزوجا من ام الملك الذي كان يوما ما يقوم بدور « رائده » . تزوجها في الظلام . لأن زواجا كهذا لم يكن ممكنا ان يتم تحت النور . فهو زواج يتمثل فيه ، وفيما سبقه ولحقه من تصرفات هـــذا الرجل ، أكثر من وجه من وجوه الخيانة .. خيانة « الامانة » التي وضعها والد « فاروق » في عنق رائده .

« ولقـــد وقعت في يدي « أجندة » ، « فاروق » الخاصة ، حينما كان طالبا في انجلترا .. أي في الوقت الذي كان « احمد حسنين » يقوم فيه بدور « الرائد » الذي كان عليه أن يربيه ، وان يحســـن توجيهه وتربيته . فماذا وجدت في « اجندة » فاروق الخاصة ؟!

« لم أجد فيها اسما واحدا لكتاب واحـــد اشتراه « فاروق » أو فكر في شرائه . ولم اجد فيها اشارة واحدة الى موضوع واحد قراه . أو فيلم واحد شاهده . وانما وجدت فيها ما يؤكد كل حرف قاله « عباس حليم » عن « رائد الملك » . وجدت فيهـــا عشرات الاســماء ، لعشرات من الفتيات مقرونة بعناوينهن ، وبتواريخ ميلادهن ، وأوصافهن : فهذه شقراء .. وهذه خمرية .. وهذه سمراء ..

« ولم اكن محتاجا ، بعد أن قلبت صفحات هذه « الاجنـــدة الملكية » ، ذات « التاريخ المجيد » لان أبحث كيف بدأ فســـاد « فاروق » ومتي ‥ وأين ‥ وعلى أيدى من !!‥ »



اما الرجل الثانى الذى كان له من التأثير فى «فاروق»، وفى افكاره ، وفى الوصول بنزعته « الموروثة » الى « الحكم المطلق » الى ذروتها ، وتحمـــل بذلك ــ امام التاريخ ــ مسئولية افساد « فاروق » ــ ملكا ــ فهو ‥ على ماهر (باشا) أول رئيس للديوان الملكى فى عهد فاروق ، واول سياسي مصري «محترف» عرفه ، وتعلم منه، وعمل بنصائحه ٠

ومن الانصاف للحق ان نقول ان وسائل الرجل الى السلطان ، والى الحكم والتحكم ، لم تكن هى نفس وسائل « احمد حسنين » ‥ وان بقيت له نفس اهدافه ٠ فلقد كان « على ماهر » اكرم بنفسه على نفسه ، واكرم بنفسه على ماضيه ، من ان يتخذ وسائل « احمد حسنين » طريقا الى السلطان ، والى الحكم والتحكم ٠ اذ كان ، على العكس تماما من « احمد حسنين » ، ذا ماض طويل فى الخدمة العامة ‥ كوكيل للنائب العام ، وقاض ، وناظر لمدرسة الحقوق فى سنة ١٩٢٣ ، ووكيل لوزارة المعارف ، ثم كوزير عدة مرات ، وكرئيس للوزراء فى آخر ايام « الملك فؤاد » ٠ كما كان له ، اضافة الى هذا كله ، شرف الاسهام فى ثورة سنة ١٩١٩ على نحو يشرفه ، وجدير بان يسجل له ٠ ولو كان للرجل ، الى جانب هذا كله ، ايمان حقيقى بالجماهير ، وبالعمل وسطها ‥ لما كان محتاجا لان يلقى بنفسه فى احضان « القصر » ليلتمس منه القـــوة ٠ ولكن « على ماهر » كان نفورا ، بطبعه ، من الجماهير ‥

ولم يكن يتوفر له القدر الكافي لا من الايمان بها ، ولا من القدرة على مخاطبتها .

وليس صحيحا ما يقال من ان نفور الرجل من الجماهير انما يرجع الى تربيته من ناحية ، والى المحيط الذى نشأ فيه من ناحية أخرى . ليس هذا صحيحا لسبب بسيط .. هو ان « على ماهر » كان شقيقا — كما هو معروف — « للدكتور احمد ماهر » . وقد نشأ الشقيقان فى بيت واحد ، وعاشا في محيط واحد ، وربيا تربية واحدة . فالصحيح ، اذن ، ان « المزاج الشخصى » لكل من الشقيقين — وليس المحيط ولا التربية — هو الذى مشى بكل واحد منهما في الاتجاه الذي رآه متفقا وطبيعتـــه .. فألقى « احمد ماهر » بنفسه فى قلب نضال الشعب ، ودنا عنقه — يوما ما — من حبل المشنقة ، وراح يأخذ من الجماهير ويعطيها ، ويثق بها وتثق به ، حتى غدا واحدا من أبرز زعمائها . اما الشقيق الآخر .. « على ماهر » .. فقد ظل ، بحكم « مزاجه الخاص » — وليس بحكم تربيته ، ولا بحكم محيطه — ينفر من الجماهير ، ولا يثق بها ، ويقف دائما على مسافة بعيدة منها . ولقد ظل « على ماهر » محتفظا لنفسه بهذه المسافة التي كانت تباعد بينه وبين الجماهير ، حتى آخر أيامه .

واحسب ان الشعب كان يقدر « لعلى ماهر » كفايته . ولكن المرجح انه لم يكن يحمل له حبا كثيرا او قليلا . فليست « الكفاءة » وحدها بكافية لان تحمل صاحبها الى قلب الشعب . ولو كان الامر كذلك ، لصـــار رجـــل كاسماعيل صدقى ، مثلا ، من احب الرجال الى الشعب . لكنه ، على العكس ، كان من ابغضهم اليه .

ولم يكن « على ماهر » ، ومن هم على طرازه من الرجال ، يعلنون — بطبيعة الحال — عن ترفعهم على الجماهير ،

او عن عدم ايمانهم بها • ولكن الشعب ، بفطرته ، كان قادرا - دائما - على تمييزهم ، وعلى تحديد مكانه منهم ، وعلى مبادلتهم ترفعا بترفع ، وابتعادا بابتعاد •

واذ تميز « على ماهر » بقدر غير قليل من الحصافة والذكاء • فقد هدته حصافته ، وهداه ذكاؤه ، الى ادراك حقيقة موقفه من الشعب ، وحقيقة موقف الشعب منه • ومن ثم ، اختار أن يربط نفسه « بالقصر » •• يدور فى فلكه ، ويعمل لحسابه ، ولحساب توسيع حقوقه وسلطاته ، على حساب ما للشعب من حقوق ولعل حكومة الاغلبية الشعبية لم تلق من العنت فى تعاملها مع « القصر » ، مثلما لقيت من ذلك حين كان « على ماهر » يشغل منصب المستشار الاول للملك ، بوصفه رئيسا للديوان الملكى فى سنة ١٩٣٧ •

ولم يكن « على ماهر » يوسع ، ما استطاع ، فى سلطات الملك عن غير عقيدة ، وانما كان يفعل ذلك عن عقيدة مستقرة فى عقله ، وفى نفسه ، مؤداها ان الشعب لم يبلغ من النضج الدرجة التى تجعله مؤهلا لممارسة ما كفله له الدستور من حقوق وسلطات • ولان عقيدة « على ماهر » هذه ، كانت تطابق عقيدة « القصر » كل المطابقة ، فقد لقيت منه ، ولقيت عنده ، كل الدعم والتشجيع •

وبقدر ما قربت عقيدة « على ماهر » هذه ما بينه وبين « القصر » - اذ لم يكن هناك ما هو احب الى « القصر » من ان يرى نفسه ، وليس الامة ، قد اضحى مصدر السلطات جميعا - بقدر ما راحت تباعد ، اكثر واكثر ، ما بينه وبين جماهير الشعب • وبقدر ما راح هو نفسه يمتلىء باليقين من انه لن يستطيع ان يحكم يوما ما - وكان الوصول الى الحكم حلما يتصدر جميع احلامه - الا معتمدا على « القصر » •• وعلى ماله من نفوذ وسلطان•

وتحقق الحلم الذى كان يؤرق جفون « على ماهر » • فوصل الى الحكم ، على مدى عمره الطويل ، عدة مرات •• وليس مرة واحدة • لكنه لم يلبث حتى طعن بنفس « السيف » الذى كان هو اول من وضعه فى يد الملك • !

فلم يكن « على ماهر » ، وهو بوسع ما استطاع في سلطات الملك على حساب سلطات الشعب ، يحاول ان يمد بصره الى ما وراء الحاضر •• ولم يكن يعنى بالمبادىء في ذاتها ، قدر عنايته بان يضع فى طريق حكومة الاغلبية الشعبية كل ما من شأنه ان يعجل بالصدام بينها وبين الملك • ناسيا ، او متناسيا ، انه وقد راح يأخذ من الشعب ليعطي الملك ، فان الملك لن يزداد – مع الايام – الا نهما ، والا رغبة فى طلب المزيد • ومع ان الرجل ، كما قدمنا ، كان يتميز بقدر غير قليل من الـذكاء •• وايضا من الثقافة السياسية يتيح له ان يعى طبيعة الملوك •• الا ان عقيدته الخاصة بالنسبة لجماهير الشعب ، وبالنسبة لما تقدر على ممارسته من سلطات وحقوق ،كان لها الغلبة على ذكائه ،وعلى ثقافته السياسية• ولذا ،فانه عندما وقع أول خلاف بين «فاروق» ،وبين أول وزارة وفدية وليت الحكم فى عهده ، حول حق الوزارة الدستورى فى اختيار الاعضاء المعينين فى مجلس الشيوخ – وكان هذا الخلاف ، بكل تفاصيله ، يكاد يكون تكرارا حرفيا لذلك الخلاف الدستورى الذى وقع فى سنة ١٩٢٤ بين « سعد زغلول » و « الملك فؤاد » – اخذ « على ماهر » جانب الملك فى هذا الخلاف • بل ربمايكون التعبير الاكثر دقة من هذا ، هو ان نقول ان « الملك » هو الذى اخذ جانب « على ماهر » • اذ لم يكن « الملك » ، فى ذلك الوقت ، قد جاوز السابعة عشرة من عمره •• فاذا اضفنا الى حداثة سنه انه لم يكن قد اكمل تعليما

من اى نوع ، كان لنا ان ندرك ، على الفور ، بلسان من كان « الملك » يتكلم •• عندما راح يتكلم مع رئيس الوزراء « مصطفى النحاس » •• عن الحقوق الدستورية لكل من الملك •• والوزارة ••

ولو ان الحقوق التى راح الملك يتحدث عنها كثيرا اثناء خلافاته مع حكومة الوفد ، كانت حقوقا مشروعة • لما كان لاحد ان يلوم « على ماهر » ، ولا ان يحمله ـ امام التاريخ ـ مسئولية افساد « فاروق » ـ ملكا ـ بتعويده على اهدار الدستور ، والافتيات على حقـــوق الشعب • ولكن الحقوق التى كان الملك يزعمها لنفسه ، كانت ـ فى جوهرها ـ حقوقا مغتصـــبة •• غصبها له مستشاره الاول ، ومدربه الاول على « لعبة » الحكم •

صحيح ان « على ماهر » ، وهو يغتصب للملك حقوقا دستورية ليست له ، كان يعمل لحساب حـــاجة فى نفسه ، ولحساب عقيدة يعتنقها • الا ان ذلك لن يرفع عنه ـ امام التاريخ ـ مسئولية تشجيع « فاروق » على الاستبداد ، والطغيان • ذلك ان ذكاء الرجل ، وتجربته ، ووعيه •• كل اولئك كان حريا ان يحمله على مد بصره الى ما وراء « الحاضر » ، ليرى « المستقبل » وما عسى ان يصنع به الملك الذى كان له من « طبيعته الموروثة » ، ما يجعل رجلا فى مثل ذكائه ، وتجربته ، وحصافته ، اشد حرصا من ان يضيف الى هذه « الطبيعة الموروثة » حقوقا مزعومة يستخدمها الملك اليوم ضد « النحاس » •• ويستخدمها غدا ضد « النقراشى » •• ويستخدمها بعد غد ضد « على ماهر » نفسه •• ثم يستخدمها بعد ذلك كله ، بل قبل ذلك كله ، ضد الشعب بأكمله •

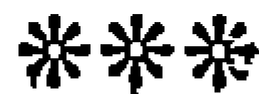
***

ولم يكن ذلك الخلاف الذى نشأ بين « فاروق »

علي اول عهده بالملك ، وبين حكومة الوفد ، حول حــق اختيار اعضاء مجلس الشيوخ المعينين ، هو آخر الخلافات الدستورية التي نشأت بين الحكومة ، وبين « فاروق » ـ ومن ورائه مستشاره الاول ٠٠ « علي ماهر » ـ بل لقد كان ذلك الخلاف هو اول حلقة في سلسلة الخلافات التي اخذت تتعدد ، وتتلاحق حتي انتهت أخيرا الى النتيجة المحتومة التي كان « رئيس الديوان الملكي » يخطط لها ٠

أقال الملك حكومة الوفد في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧٠ وكانت اسباب الإقالة التي تضمنها «الامر الملكي» الصادر باقالة الحــكومة : « آن الادلة قد اجتمعت لدينا على ان الشعب لم يعد يؤيد طريقة الوزارة في الحكم ،وانه يأخذ عليها مجافاتها لروح الدستور ٠ » !!

كلمات فوق ادراك الملك ـ ابن السابعة عشرة ـ وفوق وعيه ، وفوق ثقافته ٠ لكنها ، على أية حال ، ليست فوق ادراك « علي ماهر » ، ولا فوق وعيه ، ولا فوق ثقافته ٠



كان « علي ماهر » ، وهو يوسع ما استطاع في سلطات الملك ، يعمل ـ كما اوضحنا ـ لحساب « حاجة في نفسه » ٠ وكانت هذه « الحاجة » هي ان يكون هـــو « القادم الجديد » بعد ان يزيح الملك حكومة الوفد من الحكم ٠ اذ كان الوصول الى الحكم ، كما قلنا ، هو الحلم الذي يزحم جميع احلامه ٠

ووصل « علي ماهر » الى الحكم فعلا ٠ ولكن ، بعد ان عبر اليه على « جسر » اقامه في صورة وزارة من وزارات « الاقليات » ما لبث ، بوســائله الخاصة ، ان ازاحها ، وحل محلها في سنة ١٩٣٩ ٠ كما صار رئيسا للوزراء مرة أخرى بعد « حريق القاهرة » في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ٠ وفي وزارته الاخيرة هذه ، بدأ « علي ماهر »

يتلقى الطعنات .. اقسى الطعنات .. من نفس « السيف» الذى كان هو اول من وضعه في يد الملك .

فما كاد الرجل يستقر فى مقعـــده كرئيس للوزراء ، حتي اخذت الطلبات الملكية « غير الدستورية » ، و « غير المشروعة » تلاحقه ، وتحاصره . فاذا بالملك يطلب منه - اول ما يطلب - تعيين « كامل قاويش » نائبــا عاما . وكان « كامل قاويش » هذا مستشارا بغيضا الى الشعب بسبب موقفه - عندما كان وكيلا للنائب العـــام - من مجموعة الشبان الوطنيين الذين اتهموا باغتيال الوزير السابق « امين عثمان » - وهو عميل آخـر من عمـــلاء الانجليز - وجد فى نفسه الجرأة لكى يرفع عقيرته ذات يوم من ايام سنة ١٩٤٦ ، مطالبــا بان تتزوج مصر من بريطانيا « زواجا كاثوليكيا » !!! فدفع حياته - على ايدى اولئك الشبان - ثمنا لما رفع عقيرته مناديا به .

والى جانب المشاعر الخاصة التى كان الشعب يحملها لكامل قاويش .. فانه لم يكن اقدم المستشارين ، بل لعله كان احدثهم . وكيف يستطيع « على ماهر » ان يستجيب « لارادة » الملك ويعينه نائبا عاما ، متحديا بذلك مشاعر الشعب ..ومتجاوزا فىذات الوقت عنالقواعد والاصول.

لكن الرجل لم يستطع ان يقول: لا ..ولم يستطع،فى نفس الوقت ، ان يقول : نعم . ومن ثم اخذ يراوغ الملك، ويقدم له حججه المنطقية ، وحججه القانونية التى تضعه فى موقف العاجز عن الاستجابة لرغبته . ولكن الملك كان قد تعلم ، على يدي هذا الرجل نفســه ، الا يعتد بالحجج المنطقية ،ولا بالحجج القانونية التى تحول بينه وبين بلوغ ما يريد .. ولذا ، فانه لم يقتنع بما ابداه « على ماهر »من حجج .. وسجل له « مراوغته » هذه في صحيفة اخطائه، او في صحيفة خطاياه .. وراح يتربص ؟؟؟

اتبع طلبه الأول بطلب جديد ... انه يريد تعيين « اللواء احمد طلعت » حكمدارا للقاهرة . وعلى الرغم من ان « اللواء طلعت » كان يمت بصلة القرابة لرئيس الوزراء الا ان الرجل رأى — لاعتبارات تتعلق بالمصلحة العامة — انه ليس من المناسب تعيينه في المنصب الذى طلبه له الملك . هذا فضلا عن ان مجلس الوزراء كان قد اتخذ قرارا بتعيين « اللواء احمد عبد الهادى » فى نفس المنصب، ونشر القرار فى الصحف .

غير ان الملك الذى لم يعد — على يدى « على ماهر » — ملكا دستوريا .. يملك ولا يحكم ، لم يكن يهمه من ذلك كله شيء . وعلى ذلك ، فانه لم يرض هذه المرة بنقل عدم استجابة « على ماهر » لرغبته ، الى صحيفة اخطاء الرجل، او الى صحيفة خطاياه . وانما صمم على تعيين « اللواء طلعت » فى المنصب الذى طلبه له . عندئذ لم يجد رئيس الوزراء — ازاء هذا التصميم الملكى — مفرا من ان يمضغ قراره السابق بتعيين « اللواء احمد عبد الهادى » حكمدارا للقاهرة ، ويصدر قرارا جديدا بتعيين « اللواء طلعت » بدلا منه !! .

الم نقل لك ان « على ماهر » ، وهو يأخذ من الشعب ليعطى الملك ، كان قد نسى او تناسى ، ان ذلك لن يزيد الملك الا نهما .. والا رغبة فى طلب المزيد ؟

وبالفعل راح الملك يطلب المزيد ...

طلب الى « على ماهر » ان يصدر قرارا بعودة « عبد الفتاح عمرو » ، الرجل الذى وصفه «الدكتور طه حسين» ادق وصف ، حين قال عنه : « انه يصلح سفيرا لانجلترا فى مصر اكثر مما يصلح سفيرا لمصر فى انجلترا » ، الى لندن ليباشرعمله كسفير لمصر هناك . وكانت حكومة الوفد قد سحبته فى أعقاب قيامها بالغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ .

ورأى « على ماهر » أن اعادة « عبد الفتاح عمـرو » الى لندن ، سوف تكون صدمة لمشـــاعر الشعب • ولم يكن الرجل ، بسبب ظروف كثيرة ضاغطة ، مستعدا ، هـذه المرة ، للتجاوز عن مشاعر الشعب • الا ان « مشـــاعر الشعب » هذه ، كانت آخـر ما يدخـل « لفـاروق » فى حساب • ومن ثم ، صمم على عودة « عمرو » الى لندن • واعاده اليها عضوا فى بعثة التعزية الملكية فى وفاة ملك انجلترا ، ثم بقى بها مستأنفا عمله كسفير لمصر هناك !•

كل ذلك ، وغيره •• اسخط الملك غاية السـخط على الرجل الذى كان اول من اذكى فى نفسه نزعته «الموروثة» الى « الحكم المطلق » • فلما رأى الملك – اضافة الى ذلك كله – ان « على ماهر » يحاول ان يقيم ســـياسة وزارته الجديدة على أساس من « الود » مع الوفد ، لم يطق عليه صبرا • فحرك اتباعه من الوزراء العاملين مع «على ماهر» ليثيروا فى وجهه المتاعب • عندئذ، رغب الرجل فى مقابلته ليشكو اليه تصرفات أولئك الاتباع •• فاذا به يفاجأ بما لم يكن ليخطر له على بال • لقـد رفض الملك مقابلته • وكلف من رجاله من يتصل به ليقول له : « ان جلالته يرى انه اذا كان عندك شيء تريد ابلاغه اليه ، فلتبلغه لرئيس الديوان » !! •

كانت هذه اقسى طعنة تلقـــاها « على ماهر » من ذلك « السيف » الذى كان قد وضعه بنفسه فى يـد الملك • وعندها فهم الرجل الذى لم يكن الذكاء ينقصه ، ما هـو مطلوب منه • فتوجه فى اليوم التالى الى قصر الملك ، حاملا فى جيبه استقالة وزارته التى لم يكن قد مر عليها اكثر من خمسة اسابيع !!! •

ولان هذه الاستقالة كانت مطلوبة ، فقد سارع الملك الى قبولها •• ولعل « على ماهر » – وهو يغادر قصر الملك ،

لآخر مرة، عائدا الى بيته ـ كان يردد لنفسه قول الشاعر:

اعلمه الرمــــاية كل يــوم
فلما اشتد ساعده رماني !!

ففى هذا البيت الواحد من الشعر ،تتجسد ـ على ادق وجه ـ مأساة «على ماهر» مع «فاروق» ٠كما تتجسد ـوعلى ادق وجه ايضا ـ حقيقة ذلكالدور الخطير الذى لعبه «على ماهر » فى حياة « فاروق » ٠٠ وحقيقة ذلك التأثير الذى تركه على تصرفاته ، وفعـــاله ٠ فلقد علم « على ماهر » « فاروقا » كيف يكون « حاكما مطلقا » ٠٠٠ وكيفتكون له اوامر ، ورغبات ، وطلبات ٠٠ وكيف يهدر القانون ، والدستور ، وحقوق الشعب ، فى سبيل هذه الاوامر ، وهذه الرغبات والطلبات ٠ فلما ان ولى « على ماهــر » الحكم ، تصور ـ لتجاهله لطبيعة الملوك ٠٠ وليس لجهله بهذه الطبيعة ـ ان فاروقا » لن يعبث به مثلما عبث « بالنحاس » من قبله ٠ وكان للرجل كثير من العذر فى هذا التصور ٠ أو ليس هو معلم الملك ، وأستاذه ، ومدربه الاول على « لعبة الملك » ؟!

وكل ذلك كان صحيحا ٠ لكن الاكثر صحة منه ، هو ان « فاروقا » ـ وقد تعلم الطغيان ، واستمرأه ـ لم يكن ليستطيع ان يعفى منه احدا ٠٠ حتى ولا الرجل الذى زين له الطغيان ، وعلمه كيف يطغى ٠

الفصل الثالث

القائمة السوداء !

٠٠ واترك هذين الرجلين اللذين لعبا اخطر الادوار تأثيرا فى مصير « فاروق » ــ ملكا ٠٠ وانسانا ــ منتقلا الى « حاشيته » ٠٠ الى تلك المجموعة من الاتباع التي قلنا ، قبلا ، انها كانت حثالة من الناس جاء بهم « فاروق » من الحضيض ، ورفعهم عنده الى القمة ٠٠٠ فاستطاعوا من مواقعهم التى رفعهم اليها ، ان يفسدوه على امته ؛ بعد ان نجحوا فى افساده على نفسه ٠

كانت تلك المجموعة من الاتباع تتكون ، أساسا ، من هؤلاء :

١ ــ كريم ثابت (باشا) ، المستشار الصحفى ٠
٢ ــ الياس أندراوس (باشا) ، المستشار الاقتصادى ٠
٣ ــ محمد حلمي حسين (بك) ، السائق الخاص ٠
٤ ــ أنطوان بوللى (بك) ، مدير الشئون الخصوصية !
٥ ــ محمد حسن الشماشرجى (الخادم) الخاص ٠

ومن الطبيعي ــ وانا اقصد تعريفك بهذه المجموعة من الاتباع ، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من حياة « فاروق » ، ومن تاريخه ، وايضا من مصيره ــ ان ابدأ بالرجل الاول ، والاخطر ، فى هذه « القائمة السوداء » ٠

كان « كريم ثابت » صحفيا من أبناء جريدة كانت تسمى « المقطم » ٠ وقد عرفت هذه الجريدة ، منذ اليوم

الاول لتأسيسها ، بأنها « لسان حال » الاحتلال البريطاني فى مصر . ولم يكن « كريم ثابت » هذا صحفيا من ذوى القلم ، ولا من ذوى الرأى . بل كان صحفيا « تافها » من ذلك النوع الذى تدور اهتماماته كلها حول التعرف على « الامزجة الخاصة » للملوك ، والعظماء : ماذا يأكلون ، وماذا يشربون .. ماذا يحبون ، وماذا يكرهون .. ومتى ينامون ، ومتى يستيقظون .. الى آخر هذه القائمة من الاهتمامات التافهة التى لا يرتضيها لنفسه غير صحفى تافه لا قدرة له الا عليها .

ولقد تسلل « كريم ثابت » الى محيط « فاروق » والى الالتصاق به ، ثم الى التأثير فيه ، والسيطرة عليه ، من خلال هذه « التفاهة » نفسها . اذ وضع عنه كتابا ملأه بعديد من « الاكاذيب الصحفية الفاخرة » التى تضع « فاروقا » على قمة التفوق الانسانى فى جميع مجالات الحياة . فهو — كما رسم « كريم ثابت » صورته فى ذلك الكتاب — « الانسان الاول » .. و « العالم الاول » .. و « الديمقراطى الاول » .. و « الرياضى الاول » .. و « المحسن الاول » .. و « المؤمن الاول » .. و « الوطنى الاول » !!

وتحت تلك العناوين كلها ، كانت هناك عشرات من القصص الزائفة التى صاغها خيال « كريم ثابت » ببراعة فائقة لكى ترتفع « بفاروق » من مصاف العاديين من الناس ، لتضعه فى مصاف الملهمين والعباقرة .. بل لعلها — وهذا هو الاصح — قد ارتفعت به من مصاف « البشر » الذين يعيشون على الارض ، ووضعته فى مصاف « الملائكة » الذين لا وجود لهم الا فى السماء !

واذ راقت لعين « فاروق » تلك الصورة الزائفة التى رسمها له خيال « كريم ثابت » ، كان طبيعيا ان يقبض

« الرسام » الثمن • وكان الثمن فادحا • فقد اصدر الملك « أمرا ملكيا » بتعيين « الابن البكر » لجريدة « المقطم » ، مستشارا صحفيا لجلالته !! •

***

حدث ذلك فى سنة ١٩٤٦ • وكان رئيس الوزراء ، حينذاك ، هو « اسماعيل صدقى باشا » • وقد فوجىء الرجل ، كما هى العادة ، بتعيين « كريم ثابت » فى ذلك المنصب الخطير الذى ابتدعه الملك خصيصا له • واذ استشعر رئيس الوزراء عدم الارتياح لهذا الامر الملكى ، فقد راح يبحث عن وسيلة لبقة يبلغ بها الملك ان الرجل الذى اختاره مستشارا صحفيا له، لا يصلح لهذا المنصب• ومن ثم ، هداه فكره ان يبلغ « فاروقا » ان «كريم ثابت» كان يقبض مبلغا معلوما من « المصروفات السرية » ، (مائتا جنيه شهريا) !! وان كرامة منصبه الجديد تقتضى اعفاءه من الاستمرار فى قبض ذلك المبلغ •

ويبدو أن رئيس الوزراء قدر انه حينما يعرف الملك ان الرجل الذى اختاره مستشارا صحفيا له كان ممن يتعاملون مع « المصروفات السرية » ، فلابد وأن يعيد النظر فى اختياره •

ولقد كان معقولا ان يتحقق تقدير رئيس الوزراء ، لو ان الملك نفسه كان شخصية سوية • او لو انه كان على شىء من الاخلاق ينفره من مثل هذا النوع من الرجال الذين يحددون لانفسهم ثمنا يبيعونها به • اما وان الملك لم يكن كذلك على اى وجه من الوجوه ، فان ما حدث — كرد فعل لذلك التبليغ — كان على العكس تماما مما قدر رئيس الوزراء • فقد صدرت « الارادة الملكية » بمضاعفة المبلغ الذى كان « كريم ثابت » يتقاضاه من « المصروفات السرية » الى « اربعمائة جنيه شهريا » !!

ونفذ رئيس الوزراء ارادة الملك !! •

***

قضى الامر •• واصبح « الابن البكر » لجريدة «المقطم» ، لسان حال الاحتلال البريطانى لمصر ، مستشارا صحفيا « لملك مصر » • !! وراح ، منذ ذلك التاريخ ، يسرع الخطى على طريق القوة ، والسطوة ، واستغلال النفوذ • فاذا به يصبح قوة خطيرة ، ومؤثرة •• قوة تتدخل فى شئون الحكم ، وفى مجيىء الوزراء وذهابهم ، وفى قيام الحكومات وسقوطها • واذا به يصبح (باشـــا) من « باشوات مصر » • ثم اذا به ، اخيراً ، يصبح « وزيرا للدولة » فى « وزارة حسين سرى » التى تولت الحكم قبل سقوط الملك بشهرين اثنين !!! •

ولم يكن « كريم ثابت » ، بطبيعة الحال ، ليقدر على الوصول الى شىء من ذلك كله من خلال « الوجه الظاهر » لوظيفته المعلنة على الناس • ولكن وظيفة الرجل كان لها وجهها الآخر •• كان لها « وجهها الخفى » الذى مكن له من الوصول الى كل ذلك • فلقـــد عرف « كريم ثابت » بوسائله الخاصة – وما اكثرها – كيف يصـــبح صفى الملك وخدينه ، ورفيق لهوه ومجونه •• كما عرف كيف يتحول من مجرد « صحفى تافه » الى « كلب صيد » من نوع ممتاز يطلقه « سيده » فى اعقاب كل « فريســة » يريد ان ينالها ، فلا يعود الى « سيده » بدونها !! •

ولعل نجاح « كريم ثابت » فى مهمته « ككلب صيد » ، يطلقه الملك فى اعقاب الفرائس ، هو الذى هيـأ له من اسباب القوة ، والسطوة، مالم يتهيأ اقل قدر منه لانظف الرجال •• بل الثابت ان عدداً من الرجال النظفاء ، بل و « الدستور » نفسه •• قد نالهم قدر مروع من بطش الملك بهم ، لانهم حاولوا أن يتصدوا « لكلب الصـــيد

الملكى » بخلع انيابه ، وتقليم اظافره ! ٠

حدث ذلك فى سنة ١٩٥٠، عندما سجل رئيس ديوان المحاسبة ، وقتئذ ، « محمود محمد محمود » فى تقريره السنوى ملاحظتين : احداهما تتعلق« بالذخيرة الفاسدة » التى قام عملاء الملك بتوريدها الى الجيش المصرى أثناء اشتراكه فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ٠ والثانية كانت خاصة بحصول « كريم ثابت » على مبلغ خمسة آلاف جنيه من اموال مستشفى جمعية المواساة بالاسكندرية ، بدعوى انها مقابل « دعاية » قام بها لحساب ذلك المستشفى !! ٠

ولقد ترتب على هاتين الملاحظتين اللتين ضمنهما رئيس ديوان المحاسبة تقريره ذاك ، عدة نتائج سياسية ، ودستورية ، بالغة الاثر ، والخطر ٠

● **أولا** : تعرض رئيس ديوان المحاسبة لغضب الملك، واضطر نتيجة لهذا الغضب الى الاستقالة من منصبه ٠

● **ثانيا** : علم « مصطفى مرعى » – عضو مجلس الشيوخ ، واحد اولئك الاحرار الذين كان الكيل قد طفح بهم – بما حدث لرئيس ديوان المحاسبة ، فقدم عنه – فى مايو سنة ١٩٥٠ – استجوابا لرئيس الوزراء ، وقتئذ ، « مصطفى النحاس باشا » ٠

● **ثالثا** : تعرض « مصطفى مرعى » – بوصفه عضوا فى مجلس الشيوخ – وزملاؤه الاعضاء الذين ظاهروا استجوابه ، بل ورئيس المجلس نفسه « الدكتور محمد حسين هيكل » الى بطش الملك ، والحكومة بهم ٠ اذ صدرت ، فى ١٧ يونيو سنة ١٩٥٠ ثلاثة مراسيم ملكية « تأديبية » عصفت بالدستور وبكيان مجلس الشيوخ ، وأخرجت منه اولئك الاعضاء الذين اجترأوا ، من ناحية، على اثارة قضية الذخيرة الفاسدة ، بينما كان الملك نفسه

هو بطلها الاول ، وحاميها ، وراعيها • كما اجترأوا ، من ناحية اخرى ، على التعريض « بكريم ثابت »•• مستشار جلالته الصحفى •• بسبب حصوله على خمســة آلاف جنيه لا يستحق منها ـ حقا وعدلا ـ قرشا واحدا •

ويقول « الدكتور محمد حسين هيــكل » فى كتابه : « مذكرات فى السياسة المصرية » تعليقا على هذا العدوان الصارخ على الدستور الذى شارك فيه الملك والحكومة معا ••• ما يلى :

« احدثت مراسيم ١٧ يونيو تأثيرا عميقا فى طول البــلاد وعرضها ، ووجمت الصحف ازاءها فلم يســتطع أحد الدفاع عنها • ذلك بأن أحدا لم يتصور أن تدبرمؤامرة يغتال بها الدستور هذا الاغتيال المريع ، من أجـــل شخص من أبناء جريدة «المقطم» التى ناصرت السياسة الاستعمارية فى مصر منذ نشأتها ، ذلكم هو « كريم ثابت » • كما أن أحدا لم يتصور أن يقع ذلك الاغتيال المريع للدستور ، حماية لاولئك الذين تلاعبوا فى صفقات الاسلحة والذخائر التى كانت ترسل للجيش المحارب فى فلسطين » •

***

واعود ، بعد هذا الاستطراد الى الاصـــل ••• الى الشرارة التى طيرت اللهب ، وحملت الملك والحكومة معا على أن يعصفا بالدســـتور ، وبحرية الرأى تحت قبة البرلمان عصفا مروعا ـ اعود الى اســتجواب « مصطفى مرعى » •••

شرح الرجل استجوابه ، فى جلسة مجلس الشيوخ التى عقدت لهذا الغرض ، باســهاب لا يخلو من عنف ، ولكنه لم يتجاوز العنف الى نبو فى العبارة • واستغرق شرح « مصطفى مرعى » لاستجوابه الجلسة كلها • وطلبت الحكومة تأجيل ردها على المستجوب الى الغد •

وفى الغد •• فوجىء الرأى العام الذى كان يتــابع مايجرى باهتمام ، وقلق ، « بمسرحية ملكية » مخـرجة

اخراجا متقنا ، وان لم يخل من سخف • اذ نشرت الصحف خبرا مؤداه ان « كريم ثابت » قدم اسـتقالته من منصبه كمستشار صحفي للملك • وان «جلالته » رفض قبولها • تأكيدا للثقة الملكية به • وبقدر ما كان هـــذا التصرف « الملكي » صغيرا ، بقدر ما كان حقيرا ، بقدر ماكان مغزاه مفهوما لابسط الناس ادراكا •

ذهبت الحكومة الى مجلس الشيوخ للرد على «مصطفى مرعى » ، يرفرف على رأسها « علم الثقة الملكية » المجددة بالمستشار الصحفى ••.وهو « العلم » الذى حرص الملك على نشره فى صباح اليوم نفسه !

بدأ ممثل الحكومة : « فؤاد سراج الدين باشـــا » وزير الداخلية ، واخطر وزير فى الحكومة القائمة وقتئذ بدأ رده على الاستجواب بقـوله : « انه لاحظ ان كرسى رياسة مجلس الشيوخ كان يهتز ، عندما كان « مصطفى مرعى » يتكلم •• لكثرة ما خولفت لائحة المجلس » •!!

ولم يفت على رئيس المجلس « الدكتور محمـد حسين هيكل » ما انطوى عليه هذا الاستهلال من تهديد ، فقاطع ممثل الحكومة بقوله : « ان هذا الكرسى الذى تشرفت بالجلوس عليه للسنة السادسة ، ثابت ثبوت الطـود • فالجالس عليه يؤدى واجبه فى كل الظروف ، فى حدود الدستور ، واللائحة الداخلية ، والتقاليد الكريمة التى حرص عليها مجلسكم الموقر » •

وعندما استأنف ممثل الحكومة كلامه ، راح يرد على الواقعتين اللتين تناولهما الاستجواب بانهما لم تقعا فى عهد وزارة الوفد ، بل وقعتـــا فى عهد الوزارات التى سبقتها • الا انه ، مع ذلك ، دافع عن تصرفات « كريم ثابت » دفاعا حماسيا جاء متفقا ، فى حجمه وفى نوعيته ، مع الثقة الملكية المجددة بالمستشار الصحفى • !! ومع

الامال الكبار التى كان « سراج الدين » شخصيا ٠٠ و « حكومة الوفد » نفسها يعلقانها على حسن ظن « كريم ثابت » فيهما ، وثقته الخاصة بهما ٠

ولم ينس « فؤاد سراج الدين » فى رده ان يقول « ان الحكومة اجرت تحقيقا فى مسألة الاسلحة والذخيرة الفاسدة ، فنفى التحقيق المسئولية عن كل من كان لهم يد فى هذه المسألة ٠ ثم اختتم رده على الاستجواب بأن رئيس ديوان المحاسبة هو الذى اصر على الاستقالة ، رغم محاولته هو ٠٠ ومحاولة رئيس الوزراء صده عنها»!!

وتأجل الاستمرار فى مناقشة الاستجواب اسبوعا ، عاد المجلس بعده الى استئناف المناقشة٠ فتكلم « الدكتور ابراهيم بيومى مدكور » ، وكان قد تبنى « الاستجواب » نيابة عن « مصطفى مرعى » الذى كان قد سافر الى اوروبا مرافقا للسيدة حرمه التى كانت مرتبطة بموعد سابق مع طبيبها المعالج ٠ تكلم « الدكتور مدكور » ، فطالب بتعيين لجنة تحقيق برلمانية تحقق الواقعتين اللتين تناولهما الاستجواب ٠ غير ان « حكومة الوفد » التى كانت قد صارت « ملكية » اكثر من الملك ، اعترضت على هذا الطلب بأنه « غير دستورى » وانتهى المجلس باحالة الموضوع على لجنة الشئون الدستورية لفحصه !! ٠

ويروى « الدكتور محمد حسين هيكل » ، رئيس مجلس الشيوخ ، وقتئذ ، هذه الواقعة :

« فى هذه الاثناء ، جاء عندى فؤاد سراج الدين (باشا) بمكتبى فى مجلس الشيوخ ، فلما عاتبته لدفاعه عن كريم ثابت (باشا) ـ ولطالما حدثنى من قبل طاعنا عليه ، وعلى سياسة القصر ، وتدخله المعيب فى شئون الدولة ـ كان جوابه : « لقد بقى الوفد فى الشارع عشر سنوات كاد يقضى عليه فيها ، ولنا من ذلك كل العذر عن الاتفاق مع القصر وسياسته !!»٠

« عند ذلك ايقنت ان حرص النحاس (باشا) على تقبيل يد

« الملك » قد أصبح سياسة الوفـــد المرسومة التي يأمل ، عن طريقها ، أن يبقى في الحكم السنين الطوال » !!.

على ان احالة طلب « الدكتور ابراهيم بيومي مدكور » بتعيين لجنة تحقيق برلمانيـــة ، الى لجنة الشـــئون الدستورية .. لم تكن هي النهاية السعيدة التي يمكن ان تشفي غليل الملك . وانما كانت النهاية السعيدة التي تشفي غليل الملك ، والحكومة ، معا . هي تلك المراسيم الملكيه « التأديبية » الثلاثة التي حدثتك عنهـا ، والتي صـــدرت في ١٧ يونيـــو سنة ١٩٥٠ ، لـكي تعصف بالدستور و « بمجلس الشيوخ » عصفا مروعا . اذ اسقطت هذه المراسيم رئاســة المجلس ، كما اســـقطت العضوية عن تسعة عشر عضوا آخرين كان في مقدمتهم، بطبيعة الحال ، « مصطفى مرعى » ... صاحب الشرارة التي طيرت اللهب .

وفي اليوم التالي لهذه العاصفة الهوجاء التي اجتاحت الدستور ، ومجلس الشيوخ ، وحرية الكلمة تحت قبـة البرلمان ، فتح الناس عيونهم على بيان مثير موجه اليهم من زعماء المعارضة ــ قالوا فيه :

« لم يبق بعد ذلك موضع للشك في أن الحكومة قد اتخـــذت اجراء باطلا غير شرعي ، عـــدوانا على السلطة التشريعية ، وتنكيلا بالمعارضة ، وفرارا من كشف الحقائق للناس . بل ان هذا الاجراء الذى اتخذته الحكومة ليشجع حماية المسئولين عن التلاعب بمال الدولة ، المستهترين برقابتها ، المستخفين بقوانينها .

« ان شر عهود الفساد ، والتحلل في الحكم ، هي تلك التي يتوارى فيهـا القانون ، ويقصر عن ادراك المرتكب . وأوغل في الفساد والشر أن تنزل الحكومة نقمتها على الـذين يشيرون الى مواطن التعفن لتداركها ، والى أبواب الشر لاغلاقها .

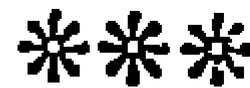
« ان الهاوية التي لا درك أسفل منها هي أن يرى الناس الجناة ، والادلة آخذة برقابهم ، بينما ضحاياهم تستجير ولا مجير . ثم يطالب ممثلو الامة بأن يتأدبوا بالخـــرس والعمى ، فان ثارت

ذممهم ، وتحركت أفئدتهم وألسنتهم ، فويل لهم ··· واقصاء ؛ وابعاد !·

« ان الحياة النيابية اذا فقدت حرية المنبر ، فقل عليها العفاء · ولقد طالب أعضاء مجلس الشيوخ بالتحقيق فى أمور خطيرة ، فيها ما يمس نظام الجيش وأرواح رجاله ، وصيانة عتاده ، وسلامة ماله ·· فماذا يغضب الحاكم المستقيم من هذا ؟؟

« لماذا لم تقبلوا التحقيق فى مأسى المذخيرة ؟ ·· واذا كانت النيابة تتولى ، فى حدود سلطتها ، التحقيق الجنائى · فما هو مصير المخالفات المالية الخطيرة ؟؟· ولماذا يحال بين البرلمان وتحقيقها ؟؟

« ان الحكومة تثير الشك فى جدية اجراءاتها ، وتقتلع الثقة اقتلاعا من نفس الشعب بسلامة مقاصدها ، بل انها لم تترك ناحية واحدة من نواحى الحكم يتعزى الناس بها عن فساد سواها · فالذى يجرى فى الادارة ، يجرى فى السوق المالية ، ويجرى فى سوق القطن ، ويجرى فى القضية الوطنية · وهذه التدابير انما تعد الحياة النيابية لتكون على غرار خاص ·· فتغضى عن فضائح الحكم ، وتخرس عن النطق باسم المرتكب ، أو الاشارة اليه ، ولو كانت آثار ما ارتكب تعرض حياة الجنود ، وطمأنينتهم ، للضياع » ··



حدث ذلك كله لأن شيخا فى مجلس الشيوخ اجترأ ، من خلال استشعاره لمسئوليته الوطنية ، على ذكر اسم « كريم ثابت »فى المجلس ، وعلى المطالبة بمحاسبته على ما استحل لنفسه من مال الشعب بغير حق ·

ولئن كان ذلك الذى وقع فى حق الدستور ، وفى حق مجلس الشيوخ ، وفى حق رئيسه ، يدلنا – من ناحية – على مدى ما كان « لكريم ثابت » من قوة ، وسطوة · فانه – من ناحية اخرى – يدلنا على مدى الهوة السحيقة التى رضيت « حكومة الوفد » لنفسها ان تسقط فيها ، لكى تعيش .. لكى تحكم سنين أطول ،

وليس يهمها فى كثير أو قليل ، ان يتم لها ذلك على حساب الشعب ، وعلى حساب الدستور ، وعلى حساب الاخلاق نفسها . انما كل الذى كان يهمها هو ان يكون « كريم ثابت » .. وان يكون « سيده » راضيين عنها ... فذلك ، فى تقديرها . يكفيها .. ويغنيها ..

ولم تكن خمسة الآلاف جنيه التى حصل عليها المستشار الصحفى للملك من أموال « مستشفى المواساة » ـ بتسهيل خاص من « الدكتور احمد النقيب باشا » رئيس ادارة المستشفى ، الذى كان هو الآخر واحدا من اللائذين « بحاشية الملك » ، يستمد منها قوته ، ونفوذه ـ لم تكن خمسة الآلاف جنيه هذه ، هى كل ما حصل عليه « كريم ثابت » من أموال الشعب ، بل كانت هى الشىء الوحيد الذى وصل الى علم رئيس ديوان المحاسبة .. فتوقف عنده ، وحاول ان يحاسب « كريم ثابت » عليه ، فكانت الطامة الكبرى . اما ما خفى من أموال حصل عليها « كريم ثابت » ـ بوصفه مستشارا صحفيا للملك ـ فكان أعظم وأفدح بكثير من ذلك المبلغ الذى أثار كل تلك العاصفة ، والذى جعل الملك والحكومة معه يفقدان رشديهما ، ويتصرفان تصرف اللص حين يضبط متلبسا فلا يتردد فى الاعتداء ، الى حد القتل ، على كل من اسهم فى ضبطه .. !

فكما استطاع « كريم ثابت » ، عن طريق تحوله من « صحفى تافه » فى بلاط « صاحبة الجلالة الصحافة » الى « كلب صيد » فى بلاط « صاحب الجلالة الملك » ، ان يصبح من اصحاب القوة والسطوة .. كذلك استطاع ، عن هذا الطريق نفسه ، ان يصبح من اصحاب الثروة .. بل والثروة الطائلة ..

ولنتوقف هنا قليلا لكى نلقى نظرة على تطور « ثروة » « كريم ثابت » فى الفترة الواقعة بين ٢٧ مايو سنة ١٩٤٦ ـ تاريخ تعيينه مستشارا صحفيا للملك ، حتى ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ تاريخ خروجه من دائرة السطوة ، والقوة ، واستغلال النفوذ .

لم يكن « كريم ثابت » ، قبل مايو سنة ١٩٤٦ ، يملك من الدنيا غير قطعة أرض فى « الزمالك » ثمنها ١٧٥٠ جنيها · دفع منها ، مقدما ، ٥٩٥ جنيها · وقسط الباقى على أربعة اقساط متساوية · كـــذلك لم يكن « كريم ثابت » ، حتى ذلك التاريخ ، يملك من الاسهم والسندات الا ١٥٠ سهما · اما زوجته فلم تكن ، حتى ذلك التاريخ نفسه ، تملك شيئا على الاطلاق ··

ولقد روى عبد السلام الشاذلى « باشـــا » الذى كان وزيرا للأوقاف فى وزارة « على ماهر » سنة ١٩٤٠ ، ان « كريم ثابت » ذهب اليه فى مكتبه بالـــوزارة ورجاه ان يتوسط له لدى رئيس الحكومة ليقــرر له مبلغــا شهريا من « المصروفات السرية » يستعين بها على مواجهة الحياة ..

ولننظر الآن ، كيف تبدل الحــال غير الحــال .. فأصبح الرجل الذى كان يستجدى اعانة من « المصروفات السرية » واحدا من أصحاب الثروات الطائلة ··

● أولا : لم يكن «كريم ثابت» ، حتى يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٤٦ ـ وهو تاريخ تعيينه مستشارا صحفيا للملك ـ يملك من أسهم الشركات غير ١٥٠ سهما فقط ·· وفى يوم التعيين نفسه اقتنى ٣٢٤ سهما جديدا · ثم اخذ عدد الاسهم التى راح يمتلكها يتصاعد حتى وصل ، فى سنة ١٩٥١ ، الى ٢٤٩٠ سهما قيمتها ١٧١٣٠ جنيها !!!

● ثانيا : أودع فى البنوك ، وحول لحسابه فى الفترة ما بين سنة ١٩٤٩ و ٥ مايو سنة ١٩٥٢ ، مبلغ ١٥٠٣٥٤ جنيها · ومن

بين هذا المبلغ ٧٧٫٠٠٠ جنيه أودعت فى سنة ١٩٤٩ وحدها ٠٠ ومبلغ ٣٥٣٤٠ جنيها أودع فى سنة ١٩٥٠ ، هذا فى الوقت الذى لم يزد مجموع ما كان يحصل عليه من مرتبات كمستشار صحفى للملك ، وكمستشار للاذاعة ، وكواحد من أصحاب جريدة المقطم ، عن ٢٥٠٠ جنيه سنويا ٠٠٠

● ثالثا : بلغت المبالغ (المعلومة) التى حولت الى الخارج باسمه ، أو باسم زوجته ، فى المدة من ٥ اغسطس سنة ١٩٤٧ الى ٢ يونيو سنة ١٩٥٢ ــ ٢٢٤١٦ جنيها !

كانت تلك هى ثروة «كريم ثابت» نفسه ٠٠ أما ثروة زوجته فقصتها أدهى وأمر ٠ فلم تكن السيدة « هيلانة سركيس » ٠٠ حين تزوجت من « كريم ثابت » فى سنة ١٩٣٣ ، وحتى يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٤٦ ــ وهو اليوم الذى عين فيه زوجها مستشارا صحفيا للملك ــ تملك سهما واحــدا ٠٠ ولا عقارا واحــدا ٠٠ ولا حتى جزءا فى عقار ٠٠ وفجأة أصبحت هذه السيدة نفسها تملك الثروة الطائلة التالية :

● أولا : ثلاث عمارات وفيللا بالاسكندرية ثمنها ، من واقع اقرارها ، ٦١٥٠٠ جنيه ٠٠٠ وقد اشتريت لها جميعها بواسطة « الياس أندراوس » المستشار الاقتصادى للملك ٠٠ والرجل الثانى فى « القائمة الملكية السوداء » !!

● ثانيا : أسهم وسندات قيمتها ٦٠٧٠٠ جنيه !!

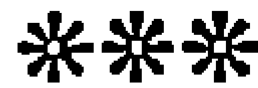
● ثالثا : مجوهرات قيمتها ، كما هو موضح فى اقرار زوجها ، ما بين ٢٥٠٠٠ جنيه و ٢٨٠٠٠ جنيه فقط !!

وليس ذلك هو كل شىء ٠٠٠ فلا يزال هنــاك ما هو افدح ٠ ففى يوم واحــد ــ هو يوم ١٣ ســبتمبر سنة ١٩٤٩ ــ أودعت السيدة حرم المستشار الصحفى فى البنك البلجيكى مبــلغ ١٥٫٠٠٠ جنيه فقط ٠٠ وحين سئلت ، امام محكمة الثورة ، فى اكتوبر سنة ١٩٥٣ ، عن مصدر هذا المبلغ الضخم الذى أودعتــه البنك فى يوم واحد ، زعمت أن والدة « كريم ثابت » اهدته اليها على دفعتين : دفعة فى سنة ١٩٣٣ ، بمناسبة زواجها ، ودفعة اخرى فى سنة ١٩٣٨ ٠٠ بلا مناسبة !! ويبــدو ان الزوجة ــ وهى تردد هذا الزعم امام محكمة الثورة ــ

لم تكن قد سمعت بحكاية ذهاب زوجها الى « عبد السلام الشاذلى » وزير الأوقاف فى وزارة « على ماهر » ، فى سنة ١٩٤٠ ، ليوسطه لدى رئيس الوزراء ليقرر له مبلغا شهريا من « المصروفات السرية » يستعين به على تكاليف الحياة !! ..

كذلك نسيت الزوجة ان زوجها لم يستطع ، فى سنة ١٩٣٨ ، أن يدفع مبلغ ١٧٥٠ جنيها ثمن قطعة الارض التى اشتراها دفعة واحدة ، فدفع منها ٥٩٥ جنيهـا فقط ، ثم قسط الباقى على أربعة أقساط متســاوية . فى حين انها - فى هذا التــاريخ نفسه - كانت تملك ، حسب زعمها ، ١٥,٠٠٠ جنيه مهداة اليها من أم زوجها ؟؟

كلام غريب .. واغرب منه ان « الســيدة هيــلانة سركيس » حرم المستشار الصحفى لجلالة الملك ، والتى كانت قد أصبحت هى الاخرى كبيرة لوصيفات « جلالة الملكة » ، تصورت أنه يوجد بين النــاس من يمكن ان يصدقه !! ..



وفى ضوء تلك الحقائق الدامية جميعها ، نستطيع ان نتفهم جيدا معنى ذلك المقال الذى كان واحدا من أخطر « الكلمات التى هــزت مصر » والذى نشره « مصــطفى مرعى » فى ٢٤ أبريل سنة ١٩٥١ فى صحيفة « اللــواء الجديد » تحت عنوان : « على الكبار ان يتجنبــوا مزالق المال » .. وقال فيه :

« أفراد حاشية الملك ، وبطانته ، هم مصــــدر وحيه وباعث الهامة . وهم ، ومن أجل ذلك ، خليقون أن يكونوا مصريين دما .. لا مصريين قولا ، ولا مصريين حكما . ذلك لان رجل « الحاشية » هو ، فى واقع الامر ، سفير لامته لدى الجالس على عرشها . وما يتأتى أن يكون هذا السفير سفير صدق وأمانة ، الا اذاخلصت مصريته ، وسلمت من كل شائبة ، ولا يجوز التفريق فى هــــذا

المقام ، ولا التمييز بين اخلاص للعرش ، واخلاص للوطن • لان الذى لا يخلص للوطن لا يتصور اخلاصه للعرش ، الا على فرض أن العرش والوطن شيئان متغايران • وهذا فرض لا يقول به أحد ، ولا يرضى عنه أحد •

ويلزم « رجل الحاشية » و « البطانة » ، فوق مصريته الصميمة الخالصة ، أن يكون فوق مستوى الشبهات والظنون •لافى سلوكه العام فحسب ، بل في سلوكه العام والخاص معا • ذلك لان الانتماء الى « الحاشية » شرف ، والذى يظن فيه الميـــل والانحراف عن الجادة لا يكون أهلا لهذا الشرف • كذلك الذى يظن فيه الافادة من جاهه ، أو الاتجار بنفوذه •• فان للمال دولة تغزو معــاقل الاخلاق ، وتدك قلاع الذمم •

« ودولة المال قد يلزمهـــا أن تشترى جاها ونفوذا ، ورجال « الحاشية » •• و « البطانة » أولى الناس بالحصانة من هــذا الداء ، واحراهم أن يتفادوا أسباب الوقوع فى فخاخه •

« واذا كان شرعنـــا الوضعى ـ من باب سد الذرائع ودفع الشبهات ـ قد حرم على الوزير ، ووكيل الوزارة ، ومدير العموم ، العمل فى الشركات قبل انقضــاء ثلاث سنوات من يوم اعتزالهم خدمة الحكومة • فما أولى شرعنا الاخلاقى أن يمد هذا التحريم ليشمل كل ذى جاه من رجال « الحاشية » •• و « البطانة » • ولا تقل أن هذا لزوم لما لا يلزم • بل قل أنه لزوم لبعض الــذى يلزم ، لان الرفعة لها مقتضياتها ، ولان السمو له ثمنه وتكاليفه

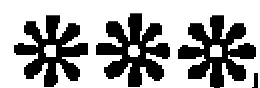
« خذ رجلا كبير القدر ، جليل الخطر ، مثل « شريف صبرى باشـــا » (خال الملك) وهو ثالث ثلاثة كانوا ، فى وقت ما ، أوصياء على العرش • ألا تراه قد ترخص حين رضى أن يســير فى « موكب المال » يحمل علما لشركة أو شركات ، يروج لهـا ، ويعلن عنها • ذلك وهو ، والحمد لله ، واسع الثراء •• لايعوزه المال ؟؟

« وهو ـ أعنى « شريف صبرى باشا » ـ اذا كان لابد له من عمل يصرف فيه نشاطه ، فان فى ميـــدان الجمعيات الخيرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، متسعا له •• وهى به أولى •

« وهلا قست على « مقامه الرفيع » أشباهه ، ونظـــائره ، من أمثال : « حسين صبرى باشا » (خال آخر للملك) •• و « محمد طاهر باشا » (ابن عمة الملك) •• و « الهامى حسين باشا » ••

و « نجيب سالم باشا » •• و « الدكتور احمد النقيب باشا » •• وغيرهم ممن عرفت الشركات اقدارهم ••• فعرفت كيف تفيد منهم، وتحقق و[illegible]ع الكسب من ورائهم •

« وكما يلزم رجل « الحاشية » •• و « البطانة » •• أن يتجنب « مزالق المال » ، كذلك يلزم أن يتجنب « مزالق السياسة » • ولا نعنى بهذا أن لا يشتغل رجل « الحاشية » •• و « البطانة » بشئون بلده • فهذا حقه • بل هو واجبه • وانمـــــا نعنى أن يترفع عن ألاعيب السياسة ، ومناوراتها ، فلا يؤثر حزبا على حزب ، ولا يشايع فريقا على فريق • وانما يؤثر فكرة على فكرة ، ويفضل رأيا على رأى • على أن يكون الصالح العام ، وحده ، هو هدفه ورائده • وعلى أن لا يعالن بآرائه ولا يصارح ، وعلى أن لا يتدخل ـ ابدا ـ في توجيه أداة الحـــكم •• حتى لا تتحرك ، بتدخله ، الريب •• وتظن به الظنون • »



هزت كلمات « مصطفى مرعى » هذه ،مصر من اقصاها الى أقصاها • فما من احد فيها كان يطوف بخيـاله انه يوجد بيننا من يستطيع ان يمسك بقلمه ليكتب ضـــــد اقرب أقرباء الملك . . وضد « حاشيته » ، و « بطانته » ، مثل هذه الكلمات الحادة كأسنة الحراب ، والتى راحت تدوى فى كل مكان كأنها طلقات البنادق . . بينما كان الملك لا يزال متربعا على عرشه ، متمتعا بكامل قوته ، ممارسا لكل فساده وطغيانه . .

ولئن كانت كلمات « مصطفى مرعى » هذه ، قـــــد هزت مصر من اقصاها الى اقصاها ، فانها ـ بالنسبة لرجال « الحاشية » ، و « البطانة » ، أنفسهم ـ ذهبت وكأنها صرخة فى واد . فان احدا منهم لم يحاول أن يتجنب « مزالق المال » ، كما لم يحاول احد منهم أن يتجنب « مزالق السياسة » . . اذ كانت هذه «المزالق» وتلك ، قد استعبدتهم الى الحد الذى لم يعودوا يستطيعون منه فرارا . . ثم لماذا يفرون منه ، و « سيدهم » نفسه

يرضى عنه ، ويشجعهم عليه .. بل ويتقاضاهم « ثمن » رضائه وتشجيعه ؟ !

من هنا ، لم يكن غريبا ان يثرى « كريم ثابت » كل ذلك الثراء الطائل .. كذلك لم يكن غريبا أن تصبح زوجته ثرية الى الحد الذى يجعلها تودع البنك » فى يوم واحد فقط ، ١٥٫٠٠٠ جنيه ، وأن تمتلك من المجوهرات ، وحدها ، ما قدر زوجها نفسه ثمنه بمبلغ يتراوح بين ٢٥٫٠٠٠ جنيه و ٢٨٫٠٠٠ جنيه ..

ولقد يتساءل بعضنا ، او كلنا : كيف .. ومن أين .. « لكريم ثابت » بهذا الثراء كله ، وهو الرجل الذى لم يكن مجموع دخله « المشروع » يزيد على الفين وخمسمائة جنيه سنويا ؟ ؟

لكننا حين نعرف ان الرجل لم يكن يفعل شيئا واحدا بلا ثمن .. بما فى ذلك قيام الحكومات وسقوطها ، وذهاب الوزراء ومجيئهم .. لا يكون هناك محل لمثل هذا التساؤل . ويكفينا للتدليل على مدى ما كان « لكريم ثابت » من نفوذ لدى « فاروق » ومن تسلط عليه ، هذه الواقعة التى وقعت فى سنة ١٩٥٠ ، وقتما كان « حسين سرى باشا » رئيسا للديوان الملكى . وقد رواها الرجل بنفسه لمحكمة الثورة ، فى اكتوبر سنة ١٩٥٣ ، خلال شهادته امامها ، فى محاكمة « كريم ثابت » .

فعندما عرض « النحاس باشا » ، فى سنة ١٩٥٠ ، اسماء الوزراء الذين يرشحهم للاشتراك معه فى الوزارة التى عهد اليه بتأليفها ، على رئيس الديوان الملكى ليقدمها بدوره الى الملك . كان من بين تلك الاسماء اسم « الدكتور طه حسين » كمرشح لتولى وزارة المعارف . ولان رئيس الديوان كان يعلم راى الملك فى « الدكتور طه حسين » ، فقد نصح « النحاس باشا » برفع اسمه من كشف المرشحين للوزارة ، والبحث عن شخص آخر يتولى

وزارة المعارف • فلما سأل « النحاس باشا » رئيس الديوان الملكى عن أسباب اعتراض الملك على « الدكتور طه حسين » ، قال رئيس الديوان أن الملك يعتقد أن لـ « طه حسين » أفكارا يسارية • ولكن « النحاس » لم يسلم بهذا الاعتراض ، وقال لرئيس الديوان انه مستعد لان يتنازل عن الوزراء كلهم ماعدا « طه حسين » •

ورفع رئيس الديوان الملكى كشف الوزراء المرشحين الى الملك • وما أن وقع نظره على اسم « طه حسين » حتى انتفض قائلا :

ـ مستحيل ••• دا راجـــل أفكاره يسارية • قل للنحـــاس (والكلام هنا موجه لحسين سرى) اننى موش عاوزه •

« ولكن « النحاس » زى ما انا قلت (لايزال حسين سرى هـو الذى يتكلم) • قال انه مستعد لان يتنازل عن الوزراء كلهم الا « طه حسين » • وهنا تدخل « كريم ثابت » واقنع الملك بدخـول « طه حسين » الوزارة ••

ويسأل رئيس محكمة الثورة ، رئيس الديوان الملكى السابق :

ـ وما هى الوسيلة التى اقنع بها « كريم ثابت » الملك ؟

ويجيب رئيس الديوان :

ـ آهو قعد يكلمه بالطريقة اللى كان بيكلمه بها لحد ما اقنعه !

من هذه الرواية التى رواها « لمحـكمة الثورة » ، رئيس الديوان الملكى السابق نفهم ان « النحاس باشا » كان مستعدا للعدول عن تأليف الوزارة اذا لم يشـــترك فيها « الدكتور طه حسين » . ومعنى هذا ، ببساطة ، انه مدين بتأليفها « لكريم ثابت » ، وليس للدستور ، ولا للشعب . فهل اذا ذهب « كريم ثابت » بعد ذلك الى « النحاس باشا » الذى هو مدين له بتأليف وزارته ، وطلب منه ما يخطر .. وما لا يخطر على البال .. هل كان بوسع « النحاس » ان يرفض له طلبا .. ؟

***

ويبدو ان « كريم ثابت » كان قد اقنع الملك بأن يقبل « طه حسين » وزيرا « تحت الاختبار » • وان هـــذه كانت هى الوسيلة التى استطاع ان يتغلب بها على معارضة الملك فى دخول « طه حسين » الوزارة • فلقد روى لى

وزير وفدى سابق ـــ كان عضوا فى « وزارة النحاس » هذه ـــ ان الملك انتهز فرصة اجتمـــاع الوزراء به ، فى مناسبة حلف اليمين الدستورية ، ووجه الكلام « للدكتور طه حسين » ، على مسمع من الوزراء جميعا ـــ قائلا :

ـ يا حسين بك (متجاهلا الاسم الاول للرجل ، ومتجاهلا كذلك لقبه العلمي) أنا أعطيك فرصة للاختبار .. ولما أشوف حتنجح والا لأ ..!!

وهكذا ... اصبح « لكريم ثابت » من النفوذ لدى الملك ما لم يكن لرئيس الديوان الملكى نفسه شيء قريب منه . واتذا به ينجح عنده فيما يفشل فيه الرســميون جميعا . وعلى رأسهم رؤساء الوزارات . بل ان رؤساء الوزارات انفسهم كانوا يتعاملون مع « كريم ثابت » اكثر مما يتعاملون مع الملك .. ذلك لانهم لم يكونوا يستطيعون، في اى وقت ، ان يروا الملك . لكنهم كانوا يستطيعون فى اى وقت ، ان يروا « كريم ثابت » . فان لم يستطيعوا هم الذهاب اليه . ذهب هو اليهم . ولم لا ؟؟ اليس كل شيء بثمنه ؟؟

ثم ماذا ؟ ؟ ..

ثم كان لابد مما ليس منه بد .

انتهى « كريم ثابت » بكل ما كان قد تجمع بين يديه من قوة ، وثروة ، وسطوة ، ونفوذ ..

انتهى النهاية الطبيعية التى لم يكن هناك مفر منهـــا بالنسبة لرجل صعد صعودا غير طبيعى ، لا يحكمه عقل ولا منطق ، اللهم الا منطق الدنايا والشهوات ، ان كان للدنايا والشهوات منطق . فلقد تحول « كريم ثابت » من « صحفى تافه » .. الى « كلب صـــــيد » من نوع ممتاز .. الى « ملك غير متوج » يتحـــكم فى « الملك المتوج » .. ويؤثر فيه ، ويؤثر عليه ، من خلال اذكاء شهواته ، وارضاء انحرافاته ومجونه ، حتى اصبح لديه

« اثيرا » .. يقول فلا يعصى الملك له قولا ، ويطلب فلا يرفض له الملك طلبا .. حتى ولو كان هذا الطلب هو اغتيال مجلس الشيوخ ..

انتهى « كريم ثابت » ، بكل ما كان بين يديه من قوة ، وسطوة ، وثروة ، ونفوذ ـ الى « محكمة الثورة » فى اكتوبر سنة ١٩٥٣ ، لتحكم عليه بالآتى :

● أولا : بالاشغال الشاقة المؤبدة .

● ثانيا : برد ما استولى عليه هو وزوجته من أموال الشعب الى الشعب . وذلك بمصادرة كل ما زاد من أموالهما ، وممتلكاتهما ، عما كانا يملكانه قبل ٢٧ مايو سنة ١٩٤٦ ـ تاريخ تعيينه مستشارا صحفيا للملك السابق .

هكذا كانت الخاتمة .. خاتمة طبيعية لرجل صعد صعودا غير طبيعى لا يحكمه عقل ، ولا منطق .

***

ويجيىء ، بعد « كريم ثابت » ، فى هذه « القائمة السوداء » ، التى افسدت الملك على أمته ، بعد اذ افسدته على نفسه ـ يجيىء الياس اندراوس (باشا) ... المستشار الاقتصادى .. وصنو « كريم ثابت » وقرينه فى الاجهاز على الملك ، وفى المضى به ، بمعدل سرعة لا مثيل له ، نحو النهاية المحتومة التى انتهى اليها .

ومثلما كان « كريم ثابت » ابنا للانجليز بشكل ما ، كذلك كان « الياس اندراوس » ابنا لهم بشكل آخر فلقد بدأ هذا الرجل حياته سكرتيرا خاصا لمستر « كين بويد » الذى كان مديرا للادارة الاوروبية بوزارة الداخلية المصرية ، وعندما ترك هذا الانجليزى مكانه فى وزارة الداخلية ، وعين رئيسا لمجلس ادارة شركة « صباغى البيضا » سحب « الياس اندراوس » وراءه . فالانجليز

لا يتخلون بسهولة عن شيئين : كلابهم .. وخدمهم ..

ومن خلال اخلاصه الذى لا حدود له لذلك « السيد الانجليزى » ، راح « الياس اندراوس » يترقى حتى صار واحدا من الاعمدة الاساسية التى يعتمد عليها مستر « كين بويد » فى ادارته لتلك الشركة .

وفى سنة ١٩٣٩ ، قامت الحرب العالمية الثانية . وأخذ الالمان ، فى سنواتها الاولى ، يحققون انتصارا تلو انتصار . حتى اقتربوا ، فى سنة ١٩٤٢ ، من «العلمين» .. وباتوا قاب قوسين او ادنى من ابواب الاسكندرية . عندئذ اضطر الانجليز الموجودون فى مصر الى الفرار منها .. بعضهم الى السودان ، وبعضهم الى فلسطين . وكان الانجليز المسئولون عن ادارة شركة « صباغى البيضا » ، من بين أولئك الذين فروا الى هذه الجهة او تلك . فروا وتركوا الشركة امانة فى عنق هذا « الخادم الامين » الذى بذل من الاخلاص فى ادارتها ما جعلهم ، حين عادوا اليها بعد زوال الخطر ، يجدون امامهم ما يكافئونه به غير عضوية مجلس ادارة الشركة ، وعضوية مجالس شركات أخرى من تلك التى كانت تخضع لنفوذهم .

واثرى « الياس اندراوس » .. والمال ، كما يقولون ، مفسدة .. فعرف الرجل طريقه الى موائد القمار . وعلى هذه الموائد نفسها ، كان الحظ السعيد فى انتظاره . فقد التقى حولها « بالمقامر الاول » فى مصر . التقى «بفاروق» .. الملك . ولم يكن صعبا بالنسبة لرجل تدرب تدريبه ، وتمرس مراسه ، أن يعرف من أين يؤكل الملك . !

كان الملك معروفا بأنه يكره أن يخسر على مائدة القمار .. كما كانت تحتويه فرحة كفرحة الاطفال حين يكسب .. وقرر « الياس اندراوس » ، ان يسعد الملك . قرر ان لا يكسب منه ابدا ، وان يخسر ، دائما ، امامه . وأحب

الملك « الياس اندراوس » ، وقربه اليه ، وادناه منه ، وجعله ــ لليالیه الحمراء ــ رفيقا لا يغيب • واذ كان الرجل ثريا من الاصل ، فقد عرف كيف يستثمر علاقته بالملك لكي يعوض ، اولا ، ما يخسره امامـــه على موائد القمار •• ولكي يزداد ، ثانيا ، ثراء فوق ثرائه •

وما لبث صيت « الياس اندراوس » ، كرجل لصيق بالملك ، ان طار فى دوائر الشركات .. وما لبثت ، هذه بدورها ، أن راحت تلهث وراءه . حتى لقد عين عضوا فى مجلس ادارة ثلاث منها فى يوم واحد !!!

كانت الشركات تعرف ، مسبقا ، انها مهما اجزلت العطاء « لالياس اندراوس » ، فانها لن تعطيه شيئا لله ، ولا لعبقريته . وانما هى تعطيه خمسة آلاف ، او عشرة آلاف جنيه ، سنويا ، لكى تستعيدها ــ من وراء علاقته بالملك ــ مائة الف . لم تكن الشركات فى مثل هـذه الصفقات هى الضحية •• كذلك لم يكن « اليـــــــاس اندراوس » هو الضحية •• وانمــــا كان « الشعب » ، دائما ، هو ، الضحية • فهو الذى كان يدفع الثمن غاليا من ماله ، ومن غذائه ، ومن كسائه ، لكى يستمر رجل « كالياس اندراوس » يقبض من هنا ، ويقبض من هناك، ويقبض من حيث يعرف الناس •• ومن حيث لا يعرفون ••

واذ ضاقت « دنيا المال » بطموح « الياس اندراوس » فقد وجه عينيه ناحية « دنيا السياسة » • فهى دنيـــــا واسعة الحول والطول ، تزيده نفوذا فوق نفوذه، وتزيده ثراء فوق ثرائه ، ويستطيع عن طريقها ان يحقق ما لا يستطيع ان يحققه بماله •

ولكن ••• كيف ؟؟

لا بد له ، أولا ، لتحقيق هذا الهدف من مكان رسمى فى « حاشية الملك » • لكنه لن يستطيع الوصـــول الى

هذا المكان بدون الاستيلاء على قلب احب الناس الى الملك ، لكى يرضى بأن يفسح له مكانا بجواره • ولم تكن هذه ، على كل حال ، مشكلة •• فلقـــد كان « كريم ثابت » ـ الذى هـــو احب الناس الى الملك ، واقواهم نفوذا عنده ، وأشدهم تأثيرا عليه ـ كان يعرض نفسه للبيع فى اسواق السياسة ، وفى اسواق المال ، لكل من يستطيع ان يدفع الثمن • واذن فالامر سهل • بل لعله كان أسهل من ان يشغل به الرجل باله •

ولعلنا لم ننس ، بعد ، ان العمارات الثلاث التى امتلكتها حرم « كريم ثابت » ، فجأة ، فى الاسكندرية ، اشتريت لها جميعـــا بمعرفة « الياس اندراوس » •وما أظن أن دوره فى هذه الصفقة التى بلغ ثمنها ٦١٥٠٠ جنيه كان دور « السمسار » • فالرجل كان أخطر من أن يرضى لنفسه بمثل هذا الدور الذى يتضاءل الى أبعد حد ، بجانب دور من يقدر على دفع الثمن •• وكان قادرا على دفعه ، وقادرا ، فى نفس الوقت ، على تعويضه بأسرع مما دفعه •

ولست اقول بهذا من باب الاستنتاج ، ولا من باب التجنى . وانما اقوله من واقع المستندات الرســمية التى كانت ماثلة تحت انظار قضاة « محكمة الثورة » اثناء محاكمة « كريم ثابت » .

فقد أثبتت هذه المستندات أن واحدة من هذه العمارات الثـلاث كانت ملكا لشركة « صباغى البيضا » التى كان « الياس أندراوس » قد أصبح رئيسا لمجلس ادارتها • بينما كانت الثانية ملكا لالياس أندراوس نفسه •• بل لقد كانت هناك « فيللا » أخرى بالزمالك اشترتها حرم « كريم ثابت » ، فى سنة ١٩٤٩ ، ثم باعتها لالياس أندراوس •• وليس لاحد غيره ، فى سنة ١٩٥١ ـ ســنة تعيينه مستشارا اقتصاديا للملك ـ فهل يمكن أن يكون هذا كله قد تم من قبيل المصادفة ؟!

المهم آن الرجل عرف كيف يحقق هدفه •فعين ،فىسنة ١٩٥١ ، مستشارا اقتصاديا للملك . وبذلك تفتحت فى

وجهه الابواب جميعا : أبواب المال ، وابواب السياسة ، وابواب السطوة والنفوذ ..

وعندما حصل « ايباس اندراوس » على هذا (الشرف) كتبت صحيفة « اللواء الجديد » في عددها الصادر في ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٥١ ، تحت عنوان : « الياس اندراوس .. وشركاته » ــ تقول :

« لقد صار لالياس أندراوس باشا شرف الانتساب الى « حاشية الملك » بتعيينه مستشارا اقتصاديا خاصا · وهو منصب ينشأ انشاء ، اذ ليس في تاريخ الاسرة المالكة المصرية ما يدل على أن مصر قد عرفت مثل هذا المنصب ..

وعلى الياس أندراوس (باشا) أن يهيىء نفسه ، ويوائم بينها وبين تبعة هذه المكانة التى رفع اليها · وهو اليوم عضو في مجالس ادارة شركات تدر عليه الكثير · وقد كان ، من قبل ، حرا في أن يكسب من هذه الشركات ما يستطيع الوصول اليه ، أو الحصول عليه ، لاسيما وهو رجل عصامى استطاع بمواهبه الخاصة أن يقفز من منصب سكرتير « مستر كين بويد » في الادارة الاوروبية ، الى هذه الصدارة في عالمى المال والسياسة · ولكنه ، اليوم ، لا يستطيع أن يتمتع بحريته السابقة ، فصلاته بالشركات يجب أن تقطع ، لان ما من موظف كبير في الحكومة سيتصل به « أندراوس باشا » في شأن من شئون الشركات التى يعمل لحسابها ، الا ويرى نفسه محمولا على مجاملة « أندراوس باشا » وفي هذا ما فيه من احراج للموظفين ، ومن الخروج بهم عن واجباتهم فضلا عما في ذلك من منافسة غير مشروعة بين الشركات التى يعمل « أندراوس باشا » لحسابها ، وبين الشركات الاخرى التى لم تظفر بعضويته أو برئاسته ·

« ولقد يظن ظان أن هذا الذى نطلبه شيء خيالى ، لا يتفق مع الاعتبارات المادية التى يعيش في ظلها المجتمع الآن · اذ اننا ندعو « أندراوس باشا » الى تحمل خسائر مادية قد تكون فادحة · ولكننا نعتقد أن « الدور » الذى أصبح يلعبه ، الآن ، يقتضيه أن يتحمل هذه الخسائر بلا تردد · فان « لمراتب الشرف » مقتضيات ، كما يقول المثل الفرنسى ، وكما يقول كل مثل عربى ، وكما تنادى بذلك كل اعتبارات الحياة الشريفة ·

« فليصدر أندراوس (باشا) بيانه السريع بأنه استقال من جميع الشركات التى له صلة بها ، فان ذلك أقل ما ينتظر من رجل قفز هذه القفزة السريعة » .

***

ولكن « اللواء الجديد » كانت متفائلة الى ابعد حد اذ تصورت أن الرجل يمكن أن يستجيب لندائها . فان « مراتب الشرف » ، و « أعتبارات الحياة الشريفة » التى بنت نداءها الى « الياس اندراوس » على أساس منهما ، لم يكن لهما وجود ، فى نفوس العاملين فى كنف « فاروق » من طراز « اليـاس اندراوس » ،و « كريم ثابت » وأمثالهما ..

ولو ان « مراتب الشرف » و « اعتبارات الحياة الشريفة » ، كان لها وجود عند أولئك الاشخاص ، او عند الملك نفسه ، لكانوا قد ردوا أنفسهم بأنفسهم عن كثير من مثل ذلك الذي هتفت « اللواء الجديد » بالياس اندراوس لكى يرد نفسه عنه ، ولما كان قد جرى لمصر على ايديهم ما جرى ، ولما كان قد جرى لهم هم انفسهم ما جرى ..

واذن ... لقد دخل «الياس اندراوس» الى «المسرح» من أوسع أبوابه . فبعد ان كان « سمير الليل » على موائد القمار، ارتقى فأصبح «مستشار الملك الاقتصادي» .. وصار ، بصفته الرسمية هذه ، شريكا لصديقه « كريم ثابت » في بطولة تلك المسرحية المأساة ، الملهاة ، التى كانت احداثها الاليمة تمثل على مسرح مصر .

ولقد روى صحفي ممن كانوا ، يوما ما ، قريبين من الملك ـ فى معرض التدليل على « المكانة » التى كان « الياس اندراوس » قد بلغها لدى « فاروق » ـ الحكاية الغريبة التالية :

ذات يوم ، دعا الملك صديقه « الياس أندراوس باشا » الى منزل والدة « الملكة ناريمان » • وبحضور الملكة ، وعدد من أقاربها ـ وجه « فاروق » الكلام الى « الياس أندراوس » قائلا :

ـ اسمع يا أندراوس •• ان كل الذين هنا ، وعلى رأسهم الملكة ، ضدك • انهم يقولون انك تسيء الى ، وانك تستغل نفوذك• ولتتكلم الملكة » •

وقالت الملكة ، موجهة كلامها لالياس أندراوس :

ـ نعم • ان البلد كله يكرهك أنت وكريم ثابت • واذا كان عدد سكان البلد ٢٠ مليونا • فمعنى هذا ، أن ٢٠ مليون يكرهونك ، ويكرهون كريم ثابت •

الياس أندراوس : وماذا فعلت ؟

الملكة : انك تتدخل في شئون الدولة • انك تذهب الى الوزراء وتقول لهم الملك يريد كذا ، ويريد كيت •• وهذا يسيء الى سمعة الملك •

اندراوس : ان « مولانا » يكلفني بمهام ، وأنا أقضيها •• وأنتم الذين أوعزتم الى « النجار » (أحد أقرباء الملكة) بأن يهاجمني في عملي بشركة « البيضا » ونشر بذلك مقالات في الصحف •

الملكة : ان البلد كله مسرور من هذا الهجوم •

اندراوس : أريد أن أعرف من هو المسرور ؟

الملكة : لقد هنأ عبد المجيد عبد الحق (وزير وفدى سابق) •• « النجار » على الهجوم عليك •

اندراوس : أنا لاأعرف عبد المجيد عبد الحق ، ولم أقابله سوى مرة واحدة لكي أطلب له رتبة الباشوية •••

الملكة : اذن أنت الذى تأتي بالباشوية للوزراء ؟؟

أندراوس : لا أقصد هذا • وانما أنا ألتمس من « مولانا » •• و « مولانا » هو الذى ينعم أو لا ينعم •

ثم تدخل الملك :

ـ الآن سأتكلم ••• اسمعي :•• ان أندراوس أكبر مخلص لي ، وهو ليس محتاجا لي ، وانما أنا الذى أحتاج اليه • وأنا أمنعكم من التعرض له ، أو الحديث عنه ، أو عن كريم ثابت • واذا فتح أحد منكم فمه عن أندراوس ، فستكون « واقعته سودة » • ان أندراوس قدم لي خدمات كثيرة •• وقدم لك أنت خدمات كثيرة •

ويجب أن تسكتي وتطلبي الى أهلك السكوت .. والا فانك لست أحسن من فريدة (الملكة السابقة) ..

وسكتت الملكة ناريمان ، ولم تفتح فمها ...

ولم يستطع أحد من الموجودين أن يفتح فمه ...

ثم التفت الملك الى « أندراوس » ، وقال له :

ـ مبسوط ... لقد أعطيتهم جميعا « علقة » ...

وقبل أن يغادر الملك المكان ، أمسك الملكة ناريمان من ذراعها وهو يقول :

ـ لا أريد مؤامرات ضد رجالى ... والا فلن تبقى يوما واحدا ملكة ...

من هذه الحكاية التى حكاها واحد ممن كانوا ، فى وقت ما ، من أقرب المقربين الى الملك . نستطيع أن نتبين كيف نجح « الياس اندراوس » فى التسلط عليه .. وكيف جعله يقتنع بأنه « محتاج » اليه ، بأكثر مما يحتاج هو الى الملك .. وكيف أنه أدى له .. ولزوجته الملكة .. خدمات ، وجد الملك نفسه مطالبا بأن يذكر زوجته بها ، عندما وجدها قد نسيتها ، وراحت تهاجم « الياس اندراوس » . وهكذا كان الرجل من « البراعة » بحيث لم يقصر « خدماته » على « فاروق » ، بل راح يمدها الى كل من حوله .. حتى يسيطر اكثر ، ويتسلط اكثر ، ويتحكم اكثر .

ولقد أوضح المؤرخ « عبد الرحمن الرافعى » نوع « الخدمات » التى كان « الياس اندراوس » يؤديها للملك ، عندما وصف الرجل فى كتابه : « مقدمات ثورة ٢٣ يوليو » بأنه : « كان اداة الملك فى سرقاته .. و « اختلاساته » . فاذا كان هذا هو نوع الخدمات التى كان « اندراوس » يؤديها للملك .. فما هو يا ترى نوع « الخدمات » التى كان يؤديها للملكة ؟ !

وهل كان للملكة ، هى الاخرى ، « سرقات » ..

و « اختلاسات » ‥ وكان الرجل هو أداتها فيها ؟ !

ام ان الامر لا يعدو عددا من « العمارات » وكميات من « المجوهرات » ، اشتراها لها « بمعرفته » ، كتلك التى اشتراها لحرم « كريم ثابت » .. وصيفة جلالتها.؟!

***

ولا نكاد نبتعد عن تلك الحكاية التى حكاها واحـد ممن كانوا يوما قريبين جداً من الملك . حتى نلتقى بالخبر التالى منشورا فى صحيفة « اللواء الجديد » بتاريخ ١٤ اغسطس سـنة ١٩٥١ . تحت عنوان : « مصـدر السلطات ... ؟؟ » .

« تحدث الي رفعة النحاس باشا ، رئيس الوزراء ، أحد أقاربه في سوء الحالة التي يشهدها كل انسان ، ويشكو منها كل عاقل . وكم كانت دهشة ذلك القريب بالغة ، حينما سمع « النحـاس باشا » يقول : « الحالة عال ‥ عال خالص ‥ أنا عايز أكثر من كده ايه « أندراوس » و « كريم » مبسوطين ‥ مبسوطين جدا ‥

« واندراوس ‥ وكريم ـ ان كنت لا تعرف ـ ليسا هما البرلمان الممثل للامة ‥ وليسا هما السلطة القضائية ‥ وليسا همـا السلطة التنفيذية ‥ فأعجب أن يبعث « انبساطهما » كل هـذا الرضا فى نفس رفعة (الرئيس) ...

***

ثم لا نكاد نطوى هذه الصفحة من صفحات « اللواء الجديد » ، حتى نلتقى ، بصفحة أخرى ، عليها مقـال آخر عن الرجل ‥ وعن تسلطه ، وسـلطانه ، تحت عنوان : « ما هى العصا السـحرية التى يملكهـا الياس اندراوس ؟! » : بقلم ـ : « ابن الوليد » (١) يقول :

« علمت أن « الياس أندراوس » ، وهو ـ ان كنت لا تعلم ـ « باشا » من « باشوات مصر » ، وعضو فى مجلس الشيوخ ـ قد

(١) « ابن الوليد » ـ هو كاتب هذه السـطور . وكان يكتب فى « اللواء الجـديد » تحت ذلك الاسم المستعار ، مراعاة لوضعه فى مجلة « المصور » التى كان يعمل « وقتذاك » مديرا لتحريرها .

« حظى » بزيارة من « عبد الفتاح عمرو باشا » اثناء وجوده بالمستشفى الذى يعالج فيه بلندن ·

ولست أستعمل كلمة « حظى » اعتباطا · فان « عبد الفتـــاح عمرو » سفيرنا فى لندن ، يعيش هناك كما لو كان « الها » لاينقصه الا العبيد الذين يسجدون له · فما من فرد ، أو جماعة ، ساقهم القدر الى « لندن » الا وعادوا وقد ضاقت صدورهم بتصرفات سفير بلادهم الذى لا يحب أن يرى مواطنيه ، ولا يسمح لهم بأن يروه · لا يعترف بحقهم عليه ، ولا بواجبـــه نحوهم ·· ولأضرب لذلك الامثال :

« فى أغسطس سنة ١٩٤٧ ، سافرت من مصر بعثة عســكرية مصرية لمشاهدة آثار معارك الحرب العالمية الثانية · فلما وصلت البعثة الى لندن ، رأت أن واجبها يملى عليها أن تبدأ بزيارة سفير مصر ، ولكن السفير « الكريم » لم يتفضل بمقابلة أعضاء البعثة ، معتذرا بأنه مشغول ··

« هذه واحدة ···

« والثانية ·· ان وكيل وزارة الحربية البريطانية أقام حفـــل استقبال لأولئك الضباط بمناسبة زيارتهم للندن ·· وكان « سفير مصر » أول المدعوين لهذا الحفل · ولكنه لم يكن أول الحاضرين ، ولا آخر الحاضرين · ففى الموعد المحدد ، جاء المدعوون كلهم ، الا « عبد الفتاح عمرو » · فقد أرسل ــ مرة ثانية ــ يعتذر بأنه مشغول ·· وكان موقف ضباطنا أمام المضيف الانجليزى مخجلا ··

« ولــكن العجيب فى الامر أن « عبـــد الفتاح عمرو » لم يخجل من موقفه ، بدليل أنه كرره ، فيما بعد ، أكثر من مرة ، مع أكثر من شخص · كرره مع البطل العالمى « محمود عبد الكريم » فى كل مرة ذهب فيها الى لندن لينازل أبطالها فى لعبة « الاسكواش راكت » · ولقد كان المفروض أن يكون « سفير مصر » هو أول من يحتم عليهم واجبهم الوطنى حضور مباريات البطل المصرى ليشجعوه ، ويشدوا عزمه ، ويلهبوا حماسه · ولكن الذى كان يحدث ، فى كل مرة ، هو أن « الجالية المصرية » فى لندن ، كانت تذهب جميعها الى مباريات « عبد الكريم » لتقف بتشجيعها وراءه الا « رأس الجالية » ·· الا « عبد الفتاح عمرو » ، فانه كان ، دائما ، لا يذهب ···

« رويت هذا كله ، لكى أتساءل من بعده : ما هى « العصـــا السحرية » التى يملكها « الياس أندراوس » ، والتى جعلت سفيرنا

فى لندن ينزل من سمائه ، ويهرول مسرعا الى المستشفى ليطمئن على الصحة الغالية ؟!٠

« نعم ٠٠ ما هى « العصا السحرية » التى يملكها هـــــذا « الالياس أندراوس » ، والتى جعلت ذلك « السفير العظيم » الذى لا يعترف بضباط مصر ٠٠ ولا يعترف بأبطال مصر ٠٠ ينحنى راكعا لرجل لا تحب مصر أن تعرفه ، ولا أن تعترف به ؟!

« ما هى « العصا السحرية » التى يملكها هذا « الاليـــــاس أندراوس » وجعلته يرتفع من القاع الى القمة٠٠فيصبح « باشا » من باشوات البلد » ٠٠ وعضوا فى مجلس الشيوخ ٠٠ فى مكان عز على برلمانى كبير كفكرى أباظة ٠٠ وعز على مجاهد جليـــل كعبد الرحمن الرافعى ٠٠ وعز على وطنى قديم كمحمد محمود جلال ٠٠ كما عز على كثيرين غيرهم ممن أفنوا أنفسهم كفاحا ، وجهادا ، من أجل وطنهم ٠٠ وفى سبيله ؟!٠

« ماهى « العصا السحرية » التى يملكها هذا « الاليـــــاس أندراوس » فجعلته ثانى رجلين يوجهان دفة الحكم فى البلاد ٠٠ ويجتمعان « بفؤاد سراج الدين » ليحلا معا ٠٠ أو ليحلا له ٠٠ معضلات السياسة ، ومعضلات المال ؟!!٠

« ترى ٠٠ هل صــــداقة الرجل للمستشار الصحفى الخطير الشأن ، هى هذه « العصا السحرية ؟!! »

« أم ان صداقته لانجلترا ، ورجالها ، والعاملين لحسابها ، والعاملين بوحيها ٠٠ هى هذه « العصا ؟!! »

« قد تكون « الاولى » هى « العصا السحرية » التى مكنت للرجل من كل هذا ٠٠ كما أنها قد تكون « الثانية » ٠ وقد تكون شـــيئا آخر غير هذه ، وتلك ٠٠٠

« سبحانك ربى ٠٠ تعلم الغيب ، وتعلم بمـــا أنزل « عمرو باشا » من سمائه » ٠٠٠

***

هــكذا راحت طلقات البنـــادق تدوى فى جو مصر ، متوجهة الى رأس الملك .. والى رؤوس أخطر رجاله ، وأعوانه . لقـــد كان « الشر » عنيفـــا ، فتعين ان يكون الهجوم أشد عنفا . ولم يستطع واحد من « جند الشر » هؤلاء أن يحتمى بالظلام ٠٠ كذلك لم يستطع واحد منهم

أن يختبىء وراء جدار . فلقد كان الملك هو « الجدار » الوحيد الذى كانوا يستطيعون الاختباء وراءه .. وكان الملك نفسه قد بدأ يهتز ، ويتداعى ، ويصبح آيـــلا للسقوط !

ولقد عرفنا ماذا فعلت الثورة « بكريم ثابت » ... وبثروته الطائلة التى كان قد امتصها من دماء الشعب ، فأعادتها الثورة الى الشعب .

أما « الياس اندراوس » صـــنو « كريم ثابت » ، وقرينه ، فى افساد الملك .. وفى افساد الحياة السياسية فى مصر ، فان « الثورة » لم تفعل به شيئا .. لا لانه كان أكبر ، أو أخطر ، من أن تحاسبه . وانما لانه عرف كيف ينجو بنفسه منها .. ومن حسابها ، وعقابها .

لقد مات قبل أن يدركه حسابها .

***

وقبل أن أترك «كريم ثابت» .. و «الياس اندراوس» .. منتقلا الى البقية الباقية فى تلك « القائمة السوداء » التى تضم هذه « الحثالة » من الناس الذين نجحوا فى افساد « فاروق » على أمته ، بعد اذ نجحوا فى افساده على نفسه ـ أتوقف قليلا لأسأل هذا السؤال :

● هل كانت صدفة محضة أن « فاروقا » كان محاطا دائما ، برجال معروفين بانهم اما من أصدقاء الانجليـــز الحميمين من أمثال : « أحمد حسنين » ، و « عبد الفتاح عمرو » ، و « حافظ عفيفى » . واما من عملائهم الصريحين من أمثال : « كريم ثابت »، و « الياس اندراوس » ؟؟

● وهل كان الانجليز هم الذين يعملون على احاطة « فاروق » بأصدقائهم المخلصين ، وبعملائهم الصريحين .. استبقاء لنفوذهم عليه ، واحاطة بكل تصرفاته .. وبكل تحركاته وسكناته ؟.. أم أن « فاروقا » هو الذى كان حريصا على أن يكون للرجال الذين يحيط بهم نفسه ، هـذا « اللون الفاقع » من الايمان بالانجليز والولاء لهم ، استبقاء لثقة الانجليز به .. ودفعا لكل مظنة يمكن أن تقوم عندهم فى صدق ولائه لهم ؟!

ثم أتابع الحديث عن « القائمة السوداء » ...

لم يبق فى تلك « القائمة » ـ بعد « كريم ثابت » ، و « اندراوس » ـ غير : « حلمى حسين » ، و « انطوان بوللى » و « محمد حسن » ٠

وأول هؤلاء الثلاثة ـ « حلمى حسين » ـ كان ، فى الاصل ، صولا ، بالحرس الملكى ، كان يقوم بمهمة السائق الخاص لسيارة الملك . ولأن هـذا « الصول » كان « حليفا مخلصا للشيطان » ، فقد راح الملك يرقى به فى سلم « الرتب العسكرية » حتى أوصله فى آخر أيامه الى رتبة « الاميرالاى » ـ وهى تساوى رتبة « العميد » حاليا ـ وبمقدار ما ارتقى هذا الرجل فى سلم «الوظائف» بمقدار ماهبط فى سلم « الاخلاق » . اذ كان ـ بطبعه ـ مستعدا لأى عمل ، ولكل عمل يكلفه به « سيده » الذى كان يسحبه وراءه الى كل مكان يذهب اليه . وعندما نتذكر أن « سيده » لم يكن يعرف الطريق الى مكان واحد طاهر أو نظيف .. نستطيع أن ندرك طبيعة الرجل ، وطبيعة « المهام » التى كان يقوم بها لحساب « سيده » ومن أجل « سيده » . صحيح ان « فاروقا » أوفده مرة ، أو مرات ، فى بعثات الى أوروبا لشراء أسـلحة للجيش . ولكن ، حتى هـذه المهام ـ برغم ظاهرها الشريف ـ لم تكن بالنسبة لهذا الرجل « مهاما شريفة » .. فلقد أوفده « سـيده » فى هذه البعثات ليكون « عينه » على الصفقات التى تعقدها بعثاته ، لكى يعرف ـ بالضبط ـ حجم « العمولات » التى سوف يتقاضاها فى مقابل التعاقد عليها ...

أما « انطوان بوللى » ٠٠ فانه رجل من « طراز آخر » ٠٠ وبالتالى فان له « شأنا آخر » !! ٠٠ فقد بدأ هـذا الرجل ـ وهو أصلا ايطالى الجنسـية ـ بدأ حيـاته

« كهربائيا » فى « القصر الملكى » · ولكن « مواهبه الخاصة » مالبثت أن راحت تقفز به فى سلم الترقى حتى أصبح « مديرا للشئون الخصوصية للملك » ، وأنعم عليه برتبة « البكوية » .. وهى رتبة لم يحملها ـ الى أن سقط الملك ، وسقطت معه الرتب والالقاب ـ كثيرون من أشرف رجال مصر .. ومن أكثرهم ولاء لها ، وتضحية فى سبيلها .

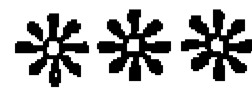
واننا لنستطيع ، من اسم الوظيفة التى اختارها « فاروق » لصديقه « بوللى بك » ، أن ندرك طبيعتها . « فالشئون الخصوصية » لفاروق لم تكن مجهولة لاحد · انها لم تخرج مطلقا عن « اصطياد النساء » ، واغرائهن ، وتطويع العنيدات منهن . كان طريق « الغانيات » الى الملك ، وطريق الملك الى « الغانيات » ، يمر دائما « ببوللى بك » . فاتصالاتهن التليفونية كانت تصل الى الملك عبر تليفون خاص موجود على مكتب « بوللى بك » .. ورسائلهن الغرامية الى الملك كانت ترسل الى « القصر الملكى » معنونة من الخارج باسم « بوللى بك » . وكان للنساء اللاتى عرفهن « فاروق » وما أكثرهن ، من كل نوع ، ومن كل جنس ـ كان لهن « أرشيف خاص » فى مكتب الملك (!!) يشرف على ترتيبه ، وتنسيقه ، « بوللى بك » · (وللنساء فى حياة « فاروق » حديث آخر طويل .. قد يكون مكانه كتابا قائما بذاته) ·

كان هذا هو الرجل .. وكانت هذه هى وظيفته ...

ومع ان الرجل ، ووظيفته ، كانا معروفين للخاص والعام على السواء . ومع ان الرجل ، ووظيفته ، كانا يدعوان كل انسان شريف الى ازدرائه ، واحتقاره . الا أن كثيرين ، ومنهم رجال مفروض فيهم أنهم كانوا كبارا ،

لم يستطيعوا ان يردوا انفسهم عن التقرب منه ، والتمسح به ، والتودد اليه ..

فلقد حدث عندما كانت النيابة العامة تقوم بالتحقيق فى « قضية الذخيرة والاسلحة الفاسدة » أن حومت التهم فوق رؤوس عدد من « حاشية » الملك ، كان « بوللى بك » من بينهم . لكن التحقيق معه مالبث أن حفظ . ولم يكن غريبا أن يحفظ التحقيق مع « بوللى بك » ، وانما الغريب انه بدأ . فلما حفظ التحقيق مع «رجل الاسرار الملكية» ،لم يرد كثيرون — ممن كنا نعتبرهم من « علية القوم — لم يردوا أنفسهم عن الذهاب اليه حتى مكتبه .. مهنئين .. ومباركين !!

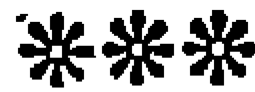


ثم أصل ، بعد ذلك ، إلى ذيل القائمة .. الى « محمد حسن » .. «الشماشرجى » الخاص — أى « الخادم الخاص للملك » ..لقد كانت المهمة الرسمية لهذا «الخادم الخاص » هى الاشراف على ملابس الملك الخاصة ، ومعاونته فى ارتدائها ، ابتداء من الحذاء .. ووصولا الى « الطربوش » . ولأن هذا « الخادم الخاص » كان يعرف القراءة والكتابة ، على العكس من شريك له فى خدمة الملك ، اسمه : « عزيز » ، فقد كان الملك ينتهز فرصة الساعات القليلة التى كان يقتطعها لشئون الدولة من « وقته الثمين » .. ليجلسه امامه ويملى عليه الاوامر ، والتعليمات ، التى يريد ابلاغها الى رئيس الديوان الملكى ، أو الى رئيس الوزراء . ومن خلال هذه المهمة ، عرف « الخادم الذكى » كيف يجعل له رأيا فى شئون الدولة . وصار كثيرون ممن كنا نعتبرهم كبراء يقصدونه ، ويتملقونه ، ويوسطونه . فارتفعت مكانة « محمد حسن » فى نظر نفسه .. من حيث هبطت الى

الحضيض مكانة أولئك الذين رضوا لأنفسهم أن يعترفوا به كانسان ذى مكانة على مستوى المسئولية فى الدولة ..

ولك أن تتصور مدى الهوان الذى كان « فاروق » يحيط به حياة أكبر رجال دولتـه ، عندما تعـرف أن النائب العام ـ محمد عزمى ـ حاول ذات يوم مقابلة الملك ليشرح له موقفه من قضية الاسلحة الفاسدة ، فاستعصى ذلك عليه الى حد اضطره للالتجاء الى مورد « الفراخ » للقصور الملكية ، موسطا اياه ـ ليس لدى الملك بطبيعة الحال ـ وانما لدى « محمد حسن » ليقوم هذا باقناع الملك لكى يتفضل بمقابلته . !!

هوان ليس بعده هوان .. ولكن ، اذا لم ننس ان الدولة كانت قد تحولت ، على أيدى « فاروق » الى « عزبة خاصة » تحكمها مجموعة من الخدم والاتباع ، تتفاوت أقدارهم ، ووظائفهم ، لكنهم يظلون ـ على الرغم من كل شىء ـ خدما .. واتباعا ... اذا لم ننس هذه الحقيقة المرة التى كانت تكوى أفئدة الاحرار بأسياخ من نار ، كان لنا أن ننظر الى سقطة النائب العام هذه ، وان كانت لاتغتفر ، على أنها شىء من الطبيعى أن يحدث فى دولة يحكمها الاتباع والخدم .



كان أولئك هم « الخدم العمالقة » الذين أحاط بهم « فاروق » نفسه .. يركبون كتفيه ، ويوجهون خطاه ، حتى أضاعوه وضاعوا معه . والى جانب هؤلاء « الخدم العمالقة » ، كانت هناك مجموعة أخرى من « الخدم الاقزام » .

كان هناك « جارو » ـ حلاق الملك الخاص ـ وكان هناك « بترو » ـ مساعد الحلاق ـ وكان هناك «كافاتس» ـ مدرب الكلاب الملكية ـ !! ومن هؤلاء ، وأولئك ، كانت

تتكون تلك « العصابة » الساقطة التى كان « فاروق » يســـحبها وراءه الى « لياليه الحمــراء » فى « نادى السيارات » وفى « أوبرج الاهرام » ، وفى « حلميــة بالاس » وفى « الاســكاربيه » باسـكندرية . وكلها أماكن شهدت من فضــــائح « فاروق » ومباذله ... وفضائح « عصابته » هذه ، ومباذلها ، ما لم تشهده من فضائح ومباذل ،أشد الناس سقوطا ،وانحلالا ،وضياعا

ولو ان الملك ... وهذه « الحثالة » التى كان يحيط بها نفسه .. ابتداء من « كريم ثابت » ، و « اليــاس اندراوس .. وانتهاء « بالحلاق » ، و «مساعد الحلاق» و « مدرب الكلاب » ـ كانوا يسفحون فى تلك الاماكن ، وعلى موائدها ، وحول كئوسها ، كرامتهم الشخصية ـ لهان الامر قليلا على ضمائر الاحرار . أما وان الملك ، ومعه هذه « الحثالة » من « حاشيته » و « بطانته » ، كانوا يسفحون فى تلك الاماكن كرامة مصر مع كرامتهم ، بل وقبل كرامتهم ، فان الامر كان أشـــق على ضـــمير الاحرار من أن يحتمل . ومن هنا اكتسبت المعركة بين هؤلاء الاحرار من ناحية ، وبين « فاروق » وحاشيته ، وعملائه ، وأتباعه ، من ناحية أخرى ، سخونة شـديدة ، وعنفا شديدا .. ولم يكن أمام أى من الفريقين سبيل الى التراجع . فلقد وصلت المعركة بينهما الى نقطة اللارجوع

الفصل الرابع

ملك .. ضد جيشه !

كان طبيعيا أن لايكون لفاروق مع الجيش مسلك آخر يختلف عن مسلكه مع الشعب . فلم يكن الجيش ـ قبل ثورة ٢٣ يوليو ، وأثناءها ، وبعدها ـ سوى جزء لايتجزأ من الشعب . واذا كان « فاروق » قد وجد بين قادة الجيش الكبار من رضوا لأنفسهم ـ جريا وراء ماعساه أن يكون قد لوح لهم به من جاه أو منصب ـ أن ينسلخوا عن الشعب ، ليمشوا فى ركابه . فان الكتلة الكبرى من الضباط والجنود ظلت دائما على ولائها الحقيقى للشعب الذى نبتت من شجرته الطيبة ، وجاءت من كل بيت نظيف من بيوته .

واذ لم يتردد « فاروق » فى أن يبيع للشيطان نفسه فلقد كان أسهل عليه من ذلك أن يبيع جيشه لنفس الشيطان الذى باع له نفسه ..

ولقد كانت حرب فلسطين التى أمر « فاروق » الجيش ، فى سنة ١٩٤٨ ، بدخولها دون أدنى استعداد لها ، ودون انتظار لموافقة البرلمان عليها ، كما تقضى بذلك أحكام الدستور ـ كانت هذه الحرب ، بما صاحبها من جرائم وخيانات ، بلغت ذروة بشاعتها بما تكشف عن

اختفاء « فاروق » وراء صفقات الاسلحة والدخيره الفاسدة ، هى بؤرة الضـوء التى كشفت عن الحجم الحقيقى لتلك الجريمة البشعة التى ارتكبها الملك ضد شعبه وجيشه . كما كشفت ، فى نفس الوقت ، عن الحجم الحقيقى للخيانة التى كانت تعشش فى أعماقه ، والتى لم ترده – فى سبيل أن يزداد ثراء فوق ثرائه – على أن يغمس يديه القذرتين ، وان كانتا « ملكيتين » ، فى الدماء الزكية لعشرات الآلاف من أبناء الشعب الذين دفعوا أرواحهم ، فضلا عن كرامة جيشهم وبلادهم ، ثمنا لخيانته ..

وقبل أن نمضى معا الى تفاصيل هذه الجريمة الملكية البشعة ، وظروفها ، وملابساتها – أريدك أن تعطى سمعك قليلا للمؤرخ « عبد الرحمن الرافعى » لكى تستمع اليه ، وهو يدلى بين يدى التاريخ بشهادته فيها :

« استغل « فاروق » حرب فلسطين استغلالا وضيعا ، قلما وصل اليه ملك من قبل . فقد انتهز حاجة الجيش الى الاسلحة والذخائر من الخارج لاستكمال تسليحه ، فاتجر شخصيا مع رهط من المقربين اليه فى صفقات من الاسلحة والذخائر التى تعاقدت عليها ادارة الجيش ، وتبين أنها أسلحة وذخائر فاسدة ، كانت لاتصيب المرمى .. بل تنفجر فيمن كانوا يستعملونها من الضباط والجنود ، وقد أودت بحياة الكثيرين منهم . وكان عملاء « فاروق » يجوبون الاسواق فى أوربا ، ويعقدون هذه الصفقات الحرام ، ويرسلونها الى مصر فتنقل الى ميدان الحرب فى فلسطين ، وتنفجر فى ايدى الجنود وفى صدورهم ، أو تحدث دخانا يؤدى الى اختناق الجنود.

« ولقد نزل « فاروق » فى هـذا الاستغلال الى أحط دركات السقوط والخيانة . وأى جريمة أفظع من أن يكسب ملك المال الحرام عن طريق تعريض بلاده للهزيمة ، وتعريض أفراد الجيش للقتل والهلاك ؟..

« وليس فى مساوىء « فاروق » كلها ما يعادل هذا الاثم ، فى

لخلاعته ووضاعته ، وكانت هذه الجريمة هي الضربة القاصمة التي زلزلت العرش ، وأطاحت بالبقية الباقية من سمعة « فاروق » ، وملأت نفوس المواطنين كراهية له ، وسخطا عليه » (١) .



كان رئيس ديوان المحاسبة « محمود محمد محمود » هو أول من سلط النور على جريمة الجرائم هذه ، اذ ضمن تقريره السنوى أول اشارة اليها . وما كاد المجرمون الذين اقترفوها — وعلى رأسهم كبيرهم .. « الملك » — يعلمون بما تضمنه تقرير رئيس ديوان المحاسبة من اشارة اليهم ، والى الجريمة السوداء التى اقترفوها ، حتى هرولوا — مدفوعين بالذعر ، وبالغيظ — الى «محمود محمد محمود » ، فى محاولة مستميتة للضغط عليه ، لكى يحذف من تقريره كل ماجاء فيه من اشارات الى صفقات الاسلحة والذخائر الفاسدة ...

ولكن « محمود محمد محمود » كان رجلا شريفا ، ولأنه رجل شريف ، فقد أبى عليهم أن يحولوه الى أداة من أدوات التضليل ، والعبث ، والخيانة . فصمم على ألا يحذف حرفا واحدا مما جاء فى تقريره . وكان لابد ، وهو يواجه قوة شرسة تدافع عن حصونها ، من أن يدفع ثمن اصراره على ألا يكون أداة من أدوات التضليل ، والخيانة . ودفع الرجل الثمن . استقال من منصبه فى سعادة ، ورضى .. وايضا فى صمت ..

وحسب المجرمون أنهم قد اخرسوا صوت الحق الى الابد . وان ستارا كثيفا من الصمت قد نزل على جريمتهم وان احدا لن يجرؤ على الاقتراب منها ليخرجها من قبرها . ولكن المجرمين — على ذكائهم — كثيرا ما يخطئون الحساب . وككل المجرمين ، فى كل جريمة ، اخطأ مجرموا الذخيرة

(١) مقدمات ثورة ٢٣ يوليو — للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

الفاسدة الجساب • فبينما اكتفى «محمود محمد محمود» باستقالته من منصبه ، كثمن لرفضه الرضوخ لما حاول المجرمون ان يفرضوه عليه • فان مصريا اخر تقدم ، فى جسارة المؤمنين بأنفسهم ، وبواجبهم ، وبوطنهم وآلتقط « الحربة » من يد «محمود محمد محمود» •• وراح يهاجم الاسد ••

كان ذلك المصرى المؤمن ، الجســـور ، هو « مصطفى مرعى » عضو مجلس الشيوخ حينذاك •

لقد علم الرجل بما جرى من رئيس ديوان المحاسبة ، وبما جرى معه • فقدم لرئيس الوزراء سؤالا عن الاسباب التى ادت الى استقالة « محمود محمد محمود » من منصبه واجاب رئيس الوزراء على سؤال « مصطفى مرعى » فقال فى اجابته كل شيء اراد ان يقـــوله •• الا الحقيقـة • عندئذ ، حول « مصطفى مرعى » سؤاله الى « استجواب » هز قاعة مجلس الشيوخ ، بل هز مصر كلها هزا عنيفا •

(ولقد جئنا على ذكر هذا الاستجواب ، وما قد ترتب عليه من نتائج بالغة الاثر ، والخطر ، ونحن نعرض ، فى صفحات سبقت، لقصة ارتفاع وسقوط « كريم ثابت »)•

واذ استطاع الملك ــ اعتمادا على ما بين يديه من سلطات غير مشروعة ، من ناحية ، واعتمادا على تأييد « حكومة الوفد » لتصرفاته ، من ناحية اخرى ــ ان يسكت صوت الحق فى مجلس الشيوخ ، بذلك العدوان الصارخ آلــذى انزله بالمجلس ، وبالدستور معه ــ فانه لم يستطع ان يسكت صوت الحق الذى انطلق يدوى من منبر اخر ، غير ذلك المنبر الذى نجح فى ان يهدمه •• ولسوء حظ الملك ، وشركائه فى الجريمة ، ان المنبر الجديد كان من آلاتساع ، والانتشار ، بحيث غطى مصر كلها •

فلقد دخلت « الصحافة » المعركة •• وتقدمت مجلــة « روز اليوسف » ، وتقدم « احسان عبد القدوس » فاخذا

مكانهما فى ساحتها ٠

ففى ٦ يونيو سنة ١٩٥٠ ، صدرت مجلة « روزاليوسف» حاملة للناس أول حلقة فى سلسلة مقالات نارية كتبها « احسان عبد القدوس » حول « الاسلحة ٠٠ والذخيرة الفاسدة » ٠ وفى هذا المقال الاول ، كتب « احسان » يقول :

« كان استجواب « الاستاذ مصطفى مرعى » عن أسباب استقالة رئيس ديوان المحاسبة السابق من منصبه ، شهادة مجد وفخار لضباط وجنود الجيش المصرى ٠ فقد اثبت « المستجوب » أن هؤلاء الضباط والجنود لم تهزمهم جرأة العدو وحنكته ، انما هزمتهم جرأة موردى السلاح والذخيرة الذين تعاملت معهم وزارة الدفاع ٠٠

« وأذكر أننى سألت المرحوم « احمد عبد العزيز » ، قائد الفدائيين فى حرب فلسطين ، عن اليوم الذى لاينساه من ايام القتال ٠ فأجابنى والدموع تملأ عينيه : « اننى لا أستطيع أن أنسى يوم كان الباشجاويش يطلق مدفعه على مواقع العدو ، وقد وقف من حوله «طاقم المدفع » من الجنود ٠٠ فاذا باحدى القنابل تنفجر الى الوراء فتحطم المدفع ، وتقتل الباشجاويش وجميع رجاله ، فيخرون صرعى فوق حطام المدفع ، وابتسامة الاستشهاد تضىء وجوههم » ٠

« ولقد سبق أن اشرت أكثر منمرة الى أن حديث صفقات الاسلحة التى عقدت فى ايطاليا لم يعد سرا ، وأنه حديث تستطيع أن تسمعه فى كل شارع من شوارع روما ، ونابلى ، وميلان ، كما أشرت الى أن هناك «مندوبا خاصا » لايزال يقيم فى ايطاليا ، واكتفى بأن أقول ان اسمه « أمين » ، يستطيع أن يتحدث طويلا عن هذه الصفقات التى كان اليهود أنفسهم يحاولون بيعها الى الجيش المصرى ليحاربهم بها ٠

كذلك اشرت الى أن هذا « المندوب الخاص » قاسى الامرين ، وهو يحاول أن يؤدى واجبه بصدق وشرف ٠٠ ولم يقاس ما قاساه من عملاء « دولة اسرائيل » ، بل من عملاء « مصر » الذين يشترون السلاح باسمها ٠٠ والذين كان كل منهم يتستر على الآخر ، وكل منهم يدافع عن شريكه فى الاثم !!٠

« وسبق أن طالبت ، على صفحات هذه المجلة ، باجراء تحقيق

سريع تنقذ به سمعة « مصر » التى أصبح معروفا فى العالم أجمع ، أنها دولة « مغفلة » ، وأصبحت اداتها الحكومية علما على الرشوة ‥ وفساد الخلق والذمم ...

« وقلت انى لا أستطيع أن أذكر اســـماء ، لأنه ليس لدى مستندات . ولكنى اعرف ان احد ضباط الجيش أصبح يمتلك قصرا فى جزيرة « كابرى » ـ مصيف أصحاب الملايين ـ يدعو اليه كل عام شخصيات مصرية كبيرة للتمتع بالجمال ، وبالراحة ‥ والهدوء ‥ على حساب شهداء حرب فلسطين الذين قتلهم الرصاص المغشوش ، وعلى حساب الشعب المصرى الذى ابتزت أمواله باسم العروبة ، والشهامة . ثم ناشدت وزير الدفاع أن يدعو اليه هذا الضابط ويسأله : من أين لك هذا ؟؟ . وان يراجع حسابات جميع الضباط والمتعهدين فى البنوك المحلية والاجنبية ، لعله ـ على الاقل ـ يجد مجالا للشك .

« الى أن تولى « مصطفى مرعى » شرح استجوابه فى مجلس الشيوخ . فاستخرج من تقرير رئيس ديوان المحاسبة السابق أدلة دامغة تثبت التلاعب الخطير الذى حدث فى شراء هـــذه الصفقات ، كما ثبت أنها كانت تتم مع علم رجال وزارة الدفاع بما فيها من تلاعب ، ومع علمهم بانها اسلحة مغشوشة ، ومع علمهم بان هذه الاسلحة المغشوشة سوف توضع فى ايدى جنود وضباط مصريين ليحاربوا بها ، فى حين انها لا تصلح للحرب ، ولا للدفاع عن النفس !!

« ورغم ذلك ، فقد حاول وزير الدفاع ان يدافع عن هـــذه الصفقات ‥ ولم ينتظر حتى يجرى بنفسه تحقيقا دقيقا ‥ ولم يسمح بأن يترك فى نفسه حتى مجالا للشك ، وسوء الظن الذى يدل على حسن الفطنة ‥ بل لقد أعد الوزير دفاعا ، او أعد له دفاع ، قام بالقائه فى مجلس الشيوخ . وعندما رفض المجلس ان يستمع اليه ـ لأن الوثائق كانت أقوى من أن تحتمل دفاعا ـ نشر الوزير دفاعه فى الصحف ...

« وفى مجلس الشيوخ ‥ حاول « فؤاد سراج الدين » الكلام باسم الحكومة . فبدأ كلامه منشدا ، معجبا بسحر بيانه ، قائلا : « لم تر هذه القاعة استجوابا انتحل فيه المتهم صفة المدعى ، وصفق فيه المطعون للطاعن ، وهش فيه المضروب لجلاده ، كما وقع فى هذا الاستجواب » .

« ولقد اراد « فؤاد سراج الدين » ، بهذه الكلمات ، أن يقول

ان الاتهامات التى ضمنها « مصطفى مرعى » استجوابه ، وقعت كلها فى عهد الحكومات السابقة على « حكومة الوفد » .

وهذا صحيح .. فان المتهم هو الحكومات السابقة ، والرجل الذى يوجه الاتهام كان وزيرا فى احدى هذه الحكومات السابقة، فهو يعترف ولا يتهم . فلماذا ، اذن ، تحمس « سراج الدين » كل هذا الحماس الذى كاد يفقده أعصابه ، وهو يحاول الدفاع عن الاتهامات التى وردت فى تقرير رئيس ديوان المحاسبة ؟؟ .

« هل كان « سراج الدين » يدافع عن « السعديين » و « الدستوريين » ، ووزراء « السعديين » و « الدستوريين » ، ومن عاونهم فى حكوماتهم ؟؟ .

« وما هذا الحب المفقود الذى تحرك ، فجاة ، فى قلب « سراج الدين » ودفعه لأن يدافع عن فضائح وقعت فى عهد حكومات غبر وفدية ؟ .

«ولماذا لم يؤيد هذه الاتهامات ، حتى يدمغ حكم الاقليات بفضيحة لا تمحى مدى الدهر ، وهو ما يدعوه اليه واجبه ، وتعصبه الحزبى ؟ .

« ان هناك سرا ... !

« وهو سر ليس فى حاجة لأن يفصح عنه « فؤاد سراج الدين » لأنه سر مفضوح !!

« وبعد ...

« فان الرأى العام كله يؤمن بأن هناك جريمة وطنية قد وقعت .. وكل جريمة لا بد لها من فاعل .

« فاين الفاعل فى هذه الجريمة .. ؟؟

« اين المجرم .. ؟؟

« ان كل ضابط وجندى ـ واقولها صريحة ـ لم يعد يطمئن ، بعد الذى سمعه فى مجلس الشيوخ ، الى سلاحه وذخيرته . وعندما يفقد الجندى ثقته بسلاحه ، يفقد ثقته بنفسه ، ويفقد روح القتال ، ويضيع مستقبل مصر .

« ولن يستعيد الجندى المصرى ثقته بسلاحه ، وبنفسه ، الا اذا اطمأن الى ان الحكومة جادة فى تحقيق اتهامات ديوان المحاسبة ـ وهو الرقيب الاعلى فى الدولة ـ وأطمأن الى ان وزارة الدفاع قد طهرت ، وطهر المتعاملون معها من كل شائبة ، ومن كل شك .

« واتقوا الله فى مصر .. وفى جنود مصر .. وفى ضباط مصر .

***

كانت تلك هى الحلقة الأولى فى سلسلة مقـــالات « احسان عبد القدوس » التى راحت تتتابع أسبوعا بعد أسبوع .. وتزداد ، مع كل اسبوع حدة وعنفا .. وتصبح كل واحدة منها اكثر تحديدا من سابقتها بالنسبة لنوعية الصفقات ، وبالنسبة لنوعية « المتجرين » فيها وبها .

عندئذ ، لم يجد وزير الحربية مفرا ـ وقد ذاعت فضيحة الفضـــائح ، وانتشرت ، واصبحت على كل لسان ـ من ابلاغ النائب العام ليتولى التحقيق . ولكن ، ليس مع الذين عقدوا تلك الصفقات ، وانما مع « احسان عبد القدوس » !!!

وبدأ النائب العام ـ محمد عزمى بك ـ تحقيقه . وبدأ « احسان عبد القدوس » يقدم اليه ما كان تحت يده من مستندات مؤيدة لكل حرف كان ينشره . ومن خلال هذه المستندات نفسها، وخطوة بعد خطوة ، بدأت دائرة الاتهام تتسع .. واخذت تشد الى محيطها كثيرين من رجال «الحاشية» على رأسهم« انطون بوللى» و «محمد حلمى حسين» ، و « ادمون جهلان » الذى لم يكن ـ رسميا ـ من رجال « الحاشية » ،ولكنه كان يقـــوم بدور « السمسار الاول » للملك فى صفقات الذخيرة الفاسدة .

ووجد النائب العام نفسه مطالبا بالتحقيق مع اولئك جميعا .. كما وجد نفسه مضطرا لان يطالب بابعـــاد الفريق « محمد حيدر باشا » ـ القائد العام للقـــوات المسلحة ، ورجل الملك الاول فيها ـ وكذلك الفـريق « عثمان المهدى » ـ رئيس هيئة اركان حرب الجيش ـ عن

منصبهما حرصا على سير التحقيق ٠

لكن الملك مالبث حتى ادرك ان التحقيق ـ وقد نجح فى ان يشد الى دائرته ، رجال حاشيته وعملائه ـ فانه لابد ممتد الى شخصه ، وهو ما لن يسمح به ٠ ومن هنا ، بدأ ـ بكل ما يملك من سطوة ، وقوة ـ يتحرك للتدخل فى سير التحقيق ٠ فاذا به ـ اعنى التحقيق ـ يلتوى ، ويتعثر ، ويفقد الكثير من قوته ، ومن استقامته ، ومن نقائه ٠ واذا به « يحفظ » بالنسبة لرجال الحاشية ٠ واذا بالفريقين : « محمد حيدر » ، و «عثمان المهدى» ٠٠ يعودان ، احدهما تلو الاخر ، الى منصبهما ٠ واذا بالنائب العام الذى كان قد ارتفع فى نظر الشعب ، الى اعلى عليين ، يعود فيسقط من حالق ٠ فلا يعطف عليه أحد ، ولا يترحم عليه احد !!

***

وما كاد النائب العام يستسلم للاغواء او للارهاب . ويخنع ويخضع ٠٠ ثم يقوده استسلامه للاغواء أو للارهاب، الى السير بذلك التحقيق التاريخى الخطير فى دروب أخرى غير تلك التى كان قد سلكها من قبل ـ ما كاد النائب العام يفعل هذا ، حتى انفجرت « الاقلام الحرة » فى ثورة عنيفة ٠ ومضت تهاجمه ، وتدينه ٠٠ وتدين معه ، بل وقبله ، اولئك الذين نجحوا بما يملكون من قدرة على الاغواء والارهاب ، فى ان يحولوه عن طريقه . !

ففى يوم الثلاثاء ٢٤ ابريل سنة ١٩٥١ ، صدرت «اللواء الجديد» وبها الخبر التالى ، تحت عنوان : «نقل النائب العام» :

« كانت الحكومة قد خيرت النائب العام بين الاستقالة ، او النقل الى منصب آخر ٠ وقد فضل النائب العام ان ينقل !! ٠

« وعلى ذلك ، وافق مجلس الوزراء فى جلسته التى عقدت

امس الاول على نقل « محمد عزمى بك » الى منصب رئيس ادارة قضايا الحكومة • !! » •

وفى صباح الثلاثاء ٢٢ مايو سنة ١٩٥١ ، صـــــدرت « اللواء الجديد » مرة ثانية ، حاملة على صفحتها الاولى طلقة جديدة من طلقات « مصطفى مرعى » ، تحت عنوان : « الدائرة تدور » ـ قال فيها :

« نعم الدائرة تدور ••• وانها لتدور بسرعة سريعة ، وعنف عنيف • يحركها الطمع الطامع الذى لا يعـــرف حدا ، وتدفعها الانانية السوداء التى تجرد الانسان من انسانيته ، فاذا به وحش مفترس • وقد يكون الوحش أكثر منه برا ورحمة •

« ولقد هم « محمد عزمى بك » ، يوم كان نائبا عاما ، أن يعترضها ، وان يقف فى سبيلها باسم القانون ، ولحساب القانون فاشتد فى الحق بعض الشـــدة ، وقطع برأى جرىء فى بعض تحقيقات الجيش ، واحال منها ما احاله على القضاء ، فلم تشأ « الدائرة » أن تصرعه فورا ، لأنها لو كانت قد صرعته وقتها لسقط « بطلا » فيه انفاس تتردد • فامهلته قليلا ، وسلطت عليه مؤثراتها •• فاذا هو يلين ، وينطوى ، ويسلم ، ويعلن البراءة المطلوبة • !!

« ولقد ظن الرجل انه مستحق بعد هذا ان يستريح ، وان يطمع فى مستقبل باسم •• فاذا بها تصرعه وتلقى به فى عرض الطريق جثة هامدة ، لاتجد من يشفق على صاحبها ، أو يرثى له • !!

« واراد وزير العدل أن يكون أكثر مهارة وكياسة ، فغضب أو تغاضب على النائب العام المعزول • وراح يتجر بغضبه أو تغاضبه على الطغاة والناس معا • يتجر به على الطغاة ، فيفهمهم انه ما كان يود ان تصل الامور الى ما وصلت اليه ، وان تمرد النائب العام المعزول هو الذى أدى الى هذه النتيجة • ويتجـر به على الناس فيفهمهم ان النائب العام المعزول لم يؤد واجبـه على وجهه الصحيح ، وانه ـ هو ـ كان يود لو كان هذا النائب اكثر جراة وشدة فى الحق • !!

« ولكن « اللعبة » تتكشف • فلا ينخدع الطغاة ، ولا ينخـدع الناس • ولهذا ، فسوف ترى ، عما قريب ، ان « الدائرة » لابد

مستأنفة دورتها ، وان وزير العدل الغاضب ، المتغاضب ، موشك ان يجد من يلزمه بأن يستقيل • !

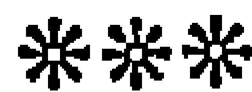
« وكان على « النحاس باشا » أن يساهم في هذه المأساة ، وأن يستغلها ، وأن يتجر ، هو الاخر ، بها ، فما ونى ، ولا فرط • بل وثب ، وتحفز •

« كان عليه أن يسهم في المأساة ، فاسهم فيها فعلا بمقدار ما أثر في النائب العام المعزول ، وأوحى اليه فكان « الحفظ » المطلوب !!

« وكان عليه أن يستغل هذا « الحفظ » • فما أن استقر عليه الرأى ، واعلن على الملأ ، حتى راح « النحاس باشا » ، يباركه ، ويؤيده ، ويشيد بفضل « النيابة العامة » التى قضت به • ولا يفوته في هذا المقام ان يدس للمعارضة ، فيزعم انها تجنت على ابرياء •• واساءت الى من لا يستحقون الاساءة • !!

« والحق ان « النحاس باشا » كان قاضيا نزيها ، لكن الحق أيضا انه اليوم آخر من يصح له التحدث في النزاهة •

« والحق ان « النحاس باشا » رجل سياسى ، لأنه هو الذى يوجه السياسة المصرية منذ اكثر من عشرين عاما ، لكن الحق أيضا أنه سياسى قصير النظر • لانه لو كان غير ذلك ، لادرك ان « الدائرة تدور » ، وان دوره مرتقب •• ان لم يكن اليوم ، فغدا • »



وفى يوم الاثنين التالى لقيام « مصطفى مرعى » باطلاق طلقته المدوية هذه ، كنا ــ هو وانا ــ نتناول العشاء على مائدة الاستاذ فتحى رضوان ، صاحب « اللواء الجديد » ، بدعوة منه • وكان طبيعيا ان يكون ما جرى للنائب العام ــ محمد عزمى بك ــ وما جرى منه ، هو حديث المائدة فى تلك الليلة . واليك ما كتبته فى مذكراتى بتاريخ : الاثنين ٢٨ مايو سنة ١٩٥١ ، حول ذلك الحديث ..

« كنا ثلاثة على مائدة العشاء عند الاستاذ فتحى رضوان هو ، ومصطفى مرعى بك ، وانا ، وقد امتدت جلستنا ، بعد أن فرغنا

من عشائنا الى ما بعد منتصف الليل • وكان الموضـــوع الذى فرض نفسه على جلستنا هذه ، هو موضوع النائب العام ـ محمد عزمى ـ وموقفه من قضية الذخيرة الفاسدة • وقلت ، موجهـا الحديث لمصطفى مرعى :

ـ المعتقد أن النائب العام تصور أن الملك كان سيقتله ، فيما لو استمر فى تحقيق هذه القضية حتى نهايتها المحتومة ، فقعـد به الخوف من الموت عن الاستمرار فى طريقه •

ـ ان هذه أوهام صورها « لعزمى » خياله ، فلم يكن هناك من يفكر فى قتله ، بل لم يكن هناك من يجرؤ ـ وسط الظروف المحيطة كلها ـ على قتله ، وحتى اذا سلمنا بوجود هذا الاحتمال الـذى لاأريد أن أسلم به فلقد كان على « عزمى » أن يذكر أن المرء ميت لا محالة ، وانه ليس من الضرورى أن يقتل الانسان لـكى يموت •• ولقد كان على « عزمى » ـ تبعا لهذا الايمـان بالله ، وبقضائه ، وقدره ـ ان يرعى الامانة المقدسة التى وضعها الوطن بين يديه • لقد كنت ممن رشحوا « عزمى بك » لمنصب النـائب العام ، وقد رشحته لهذا المنصب بحماس شديد ، ولعلى لم أندم فى حياتى على شىء ، قدر ندمى على حماسى القديم لهذا الرجل •

ثم أنهى « مصطفى مرعى » كلامه بقوله :

ـ لقد كتبت فى « اللواء » أهاجم « عزمى » ، ولكننى لم أكتب ما كتبته ضده ، الا بعد أن قابلته ، وعرفت حقيقة موقفه كمـا رواه لى بنفسه ، وبلسانه !•

وانتقل بنا الحديث بعد ذلك الى ما ينتظر أن يكون عليـه موقف « قاضى الاحالة » الذى أحيل اليه بعض المتهمين فى تلك القضية • فقلت :

ـ ان القضية أكبر بكثير من القاضى الذى أحيلت اليه ، فهـو شاب حديث عهد بالقضاء ، وليس له من التجـــارب ما يجعله يستطيع السيطرة على التيارات التى سوف تتقاذفه •

فقال « مصطفى مرعى » :

ـ الحقيقة ان القضية كانت أكبر من كل يد تولتها •• وهـذا هو سر ضياعها •

ولم تكن « الدائرة تدور » هي اول طلقة مدوية يطلقها الاحرار في معركة النائب العام • فقبلها ـ بنحو شهر تقريبا ـ اطلق « فتحي رضـــوان » طلقة لا تقـــل عن « الدائرة تدور » دويا وعنفا. والحق ان النائب العام، وقد نجح الاغواء من ناحية ، والارهاب من ناحية اخرى ، في ان يفعلا به فعلهما •• لم يلبث ان فقد توازنه ، كل توازنه .. ومضى يتصرف على نحو اصاب النـــاس بما هو اكثر من الحيرة في امره • اصابهم بالذهول • فالقد تأكد لديهم ان الرجل لم يفقد شجاعته فحسب، بل فقد معها الحد الادنى من القـــدرة على الاحتفاظ بالكرامة : كرامته كانسان .. وكرامته كموظف عـــام يشغل اخطر مناصب القضاء الواقف •

وكأنما ابى الطغاة ، وقد نجحوا في ان يجـــردوا الرجل من شجاعته ، الا ان يجردوه من كرامته • وكان افظع ما في الامر انه استسلم لما اراده الطغاة به .. !

فبعد ان فرغ النائب العام من تحقيق تلك القضيـــة الخطيرة •• وبعد ان اصدر « أمره » بحفظ التحقيق بالنسبة لرجال « الحاشية » الذين شملتهم قائمة الاتهام فيها •• خطا على طريق السقوط خطوة واسعة ـ فتوجه الى « قصر عابدين » ـ مصطحبا معه رجال النيـــابة الذين كانوا يعاونونه في تحقيقها ـ وقيـــد الجميـــع اسماءهم في « دفتر التشريفات الملكية » مؤكدين أو مجددين ، لا ندري ، ولاءهم للجالس على العرش • !!

لكن « الاحرار » ،لم يدعوا هذه السقطة البشـــعة تمر .. فقد شرع «فتحي رضوان» قلمه ، وكتب الى النائب العام خطابا مفتوحا حملته اليه ، والى الرأى العام كله ، صحيفة « اللواء الجديد » في عددها الصادر في ١٧

ابريل سنة ١٩٥١ • وجاء فى هذا الخطاب المفتوح الذى نشره كاتبه تحت عنوان : « ما هى المناسبة السعيدة التى سجل النائب العام من أجلها اسمه فى دفتر التشريفات؟» ما يلى :

« حضرة صاحب العزة النائب العمومى ••

« طلعت علينا الصحف بأنكم قصدتم « قصر عابدين » ، ومعكم معاونوكم ووكلاؤكم الذين اشتركوا فى تحقيق « قضية الجيش » ثم وقعتم جميعا فى دفتر التشريفات •

« وقد تساءل كل مصرى عن هـــــذه « المناسبة السعيدة » التى انفردتم ، ووكلاؤكم ، بالوقوف عليها ، والتى فات عليهم جميعا ان ينتهزوها ليعبروا عن ولائهم لجلالة الملك • !

« ولعله من فضول القول أن نسجل هنا ان التعبير عن الولاء عمل ممدوح • ولكن التقاليد جرت على ان المصريين ينتهزون الفرص العامة ، والمناسبات الشخصية ، لاظهار هذا الولاء ، فهم اعتادوا أن يقصدوا الى القصور الملكية فى القاهـــــرة أو الاسكندرية فى الاعياد الدينية ، وفى الاعياد الوطنية ، وما الى ذلك من المناسبات العامة • كما الفوا ان يذهبوا فرادى اذا كانوا على سفر ، وعادوا الى الوطن •او اذا كانوا مرضى ، وأبلوا من مرضهم وتمت لهم نعمة الشفاء • او كان الملك قد شملهم بعطفه فمنحهم رتبة ، او أغدق عليهم نيشانا ، او ولاهم بعض المناصب العامة او واساهم فى مصاب •

« ولم يسمع الناس ان شيئا من هذه الدواعى قد وقـــع ـ فلا اليوم الذى قصدتم فيه الى « القصر الملكى » كان يوم عيد، ولا أنتم مرضى أو على سفر ، ولم نسمع انكم قد منحتم رتبة أو نيشانا !

« ولقد اعتكفتم عزتكم مرارا ، وخرجتم من اعتكافكم ، فلم تروا ما يدعو الى قيـــد اسمكم فى دفتر التشريفات ، لان الامر لم يعد ان يكون وعكة لم يطل فيهـــــا غيابكم عن العمل ، بل لعلكم لم تنقطعوا خلالها عنه •

« ولا أكتم عزتكم ان الذى زاد من حيرة المصريين ، انكم لم تقصدوا الى « قصر عابدين » ، وحدكم • انما اصطحبتم معكم حضرات محققى « قضية الجيش » ، فتساءلوا : ما المقصود من تخصيص هؤلاء الاساتذة المحققين بشرف صحبتكم لأداء هـــذا

الواجب العظيم ؟ !! وما الذى حال دون بقية حضرات وكـلاء النيابة ، فى طول البلاد وعرضها ، وبين التمتع بهذه الحظوة المرموقة ، وهذه الفرصة الغالية ٠ ؟ !!

« ولقد ضرب الناس اخماسا لاسداس ، ليحلوا هذا « اللغز » المعمى ٠ فلم يهتدوا الى حل ٠ !

« وقد كان من الخير الا يفكروا فيما وراء القيد « بدفتـر التشريفات » من معان ، باعتباره واجبا عاديا ومألوفا ، ولكنهم حملوا على هذا التفكير حملا ٠ والذى يلومهم على أنهم فكروا هذا التفكير ، انما يتجنى عليهم ، فلقد جاء ذهابكم الى القصر الملكى ، ومعكم محققو قضية بذاتها – دون غيرها من القضايا – عقب صدور قراركم بحفظ الدعوى بالنسبة لبعض المتهمين من أفراد الحاشية الملكية – أمرا غير مسبوق فى عالم القضاء ٠ ولعله لم يلق ارتياحا فى دوائر « القصر » نفسه ٠٠ لأنه بماذا يفسر ؟ !

« ايفسر بانه اعتذار عن اجراء التحقيق مع هؤلاء الكبار ؟ ! اذن ، لتكونن الطامة الكبرى ان يجد « الامين على الدعـوى العمومية » نفسه مضطرا الى الاعتذار عن تحقيق رأى أن دواعى العدالة تقتضيه ، مهما كان المتهم ، وايا كانت التهمة ٠

« أم هو رد على ما يكون قد تناثر من الخصوم ، والحاسدين ، ماسا باسلوب عزتكم فى تحقيق الوقائع الخاصة بهؤلاء الكبار الذين حفظت القضية بالنسبة لهم ؟ !

« ولكن ٠٠٠ متى كان القاضى مطالبا بأن يفسر اجـراءاته ، ويكشف عن عواطفه الخاصة وهو يتناول دعوى من الدعاوى ؟ !

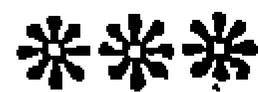
« ومع ذلك ، فان هذا التفسير هو اسلم التفاسير ٠ ولكن ، ينقضده أنكم تأخرتم فى اتخاذ هذه الخطوة حتى صدر قـرار الحفظ ٠ !

« ولقد ظن بعض المتعمقين انكم اعتبرتم الفراغ من تحقيق « قضية الجيش » مناسبة غيـر عادية لا تعرض فى حيـاة النائب العام كل يوم ، وقد لا تعرض له أبدا ، وانكم رأيتم ان تنتهزوها فرصة لتعلنوا ولاءكم ، وولاء من اعانوكم فى هذا العمل الشاق ٠ كأنما كان تحقيق هذه القضية محنة من المحن ٠٠ وكان زوال هذه المحنة يستوجب الحمد لله ، وللملك !!

« بقى بعد ذلك أن نقول : ان الذين يأخذون الامور من ظواهرها ٠٠ والذين يتعمقون فيها ، ويبحثون عن خوافيها واسرارها –

هؤلاء ، واولئك مجمعون على ان قيد اسمكم » مع اسماء محققى « قضية الجيش » ـ بعد صدور قرار الحفظ ـ هو عمل لم يستطع الناس ان يفهموا الغاية منه ، واحس كل منهم بقلق لم يعرفوا بالضبط مصدره ، وقد كانوا يودون الا يصيبهم مثل هـــذا القلق • !!

« ومن حق المصريين جميعا أن يعلنوا هـــذا اليكم • وقد لا يطمعون في أن تصدروا بيانا تكشفون فيه غوامض هذا المسلك غير المألوف • ولكنهم يتركون لكم اختيار الوسيلة التى تبدد قلقهم ، وتريح ضمائرهم • »

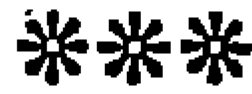


على ان النائب العام ، فى ذاته ، وعلى الرغم من مواقفه التى اعتصرت قلوبنا حزنا ، والما ، لم يكن هو الهـدف الحقيقى لذلك الهجوم المكثف الذى شنه « الكتاب الاحرار » عليه بسبب ترديه ، وانهياره ، بقـــدر ما كان الهدف الحقيقى هم اولئك الذين ساقه طغيانهم الى هذا التردى، وذلك الانهيار • كان ذلك واضحا كل الوضوح فى كلمة « مصطفى مرعى » : « الدائرة تدور » • كما كان واضحا بنفس الدرجة فى مقال فتحى رضوان : « خطاب الى النائب العام » • ثم بلغ هذا الوضوح أشـده ، فيما تلا ذلك من هجمات اتجه بها « فتحى رضوان » ، مباشرة ، الى «رجال الحاشية الملكية » ، فكتب فى « اللواء الجديد » يقول : « على رجال الحاشية الذين حفظت الدعوى بالنسبة لهم ان يستقيلوا من مناصبهم » • فلما لم يســتقيلوا ـ وما كان ممكنا ان يستقيلوا ـ عاود الهجوم عليهم بمقـــال جديد •• بطلقة جديدة ، جعـل عنوانها : « المفســـدون الملتصقون بالحاشية يضرونها اكثر مما ينفعونها » !!

واذ اسرف الطغاة فى طغيانهم على ذلك النحو • كان طبيعيا ان يزداد الهجوم عليهم حدة وعنفا • فلقد ترتب على انهيار النائب العام ، نتيجة لاستسلامه للاغواء أو

للارهاب ، ان عاد « الفريق محمد حيدر » - رجل الملك الاول في الجيش - الى مكانه القديم كقائد عام للقوات المسلحة .. بعد ان كان قد ابعد عنه بنـــاء على طلب النائب العام ، قبل ان يتردى وينهـــار . ثم ما لبث « الفريق عثمان المهدى » - بعد فترة وجيزة من عـودة « حيدر » - ان استرد هو الآخر موقعه القديم بجواره ، كرئيس لهيئة اركان حرب الجيش !! .

وبينما كان ظاهر هذه التصرفات ، واشباهها ، يوحى بأن الطغاة قد اخذوا يستعيدون قواهم التى كانت قد تبعثرت . كان واقع الامر يؤكد انهم يلفظون انفاسهم الاخيرة ، وان ما بدا منهم للناس وكأنه فورة القوة ، لم يكن - فى حقيقته - سوى صحوة الموت ! .



واذ امعن الطغاة فى تحديهم لمشاعر الشعب على هذه الصورة التى تمثلت فى حفظ القضية بالنسبة للمتهمين فيها من رجال « الحاشية » ، ومن أتباع الملك وعملائه .. ثم فى استرداد «حيدر» و «عثمان» لموقعيهما ، فان الرد على هذا التحدى - وبكل الجرأة والعنف - كان جاهزا دائما على اسنة اقلام اولئك الذين كانوا قد نذروا انفســهم لتعرية الطغيان، ولمقاومته ،ومقاتلته حتى الانفاس الاخيرة .. انفاسه ، او انفاسهم .

ومن هنا ، فانه ما كاد نبأ رجوع « حيدر » الى موقعه القديم يذاع بين الناس، حتى تولت صحيفة «الاشتراكية» - وكانت علما خفاقا من أعلام المقـــاومة - الرد عليه من خلال واحدة من صرخات « احمد حسين » العالية ، تاريخها ٤ مايو سنة ١٩٥١ ، جاء فيها :

« يتردد فى الصحف هذه الايام ان « الفريق محمد حيدر » فى طريقه الى منصبه الذى سبق ان استبعد عنه . وقد لا تظهر هذه

الجريدة الا بعد أن يكون قد عاد بالفعل الى منصبه • ولقد كانت هذه الجريدة على رأس الذين نادوا بضرورة اخراج « الفريق حيدر » من منصبه ، بل ومحاكمته أمام المحكمة المخصوصة المعدة لمحاكمة الوزراء •

« ونحن ، اليوم ، اشد استمساكا بهذا الرأى • ولا يغير من الموقف انتهاء التحقيق فى قضايا الجيش • فان أحدا لم يوجه الى « الفريق حيدر » اتهاما فى شرفه ، أو فى نزاهته • ونحن الذين قسونا فى الكتابة ضده ، لم نتعرض أبدا لهذه النزاهة • بل لعلنا أشرنا ، فى أكثر من مرة ، ان لحيدر من كبريائه ، وعجرفته ، وغناه الموروث ، ما من شانه أن يجنبه التلوث بالرشوة أو الاختلاس •

« ولكن مسئولية « حيدر » الكبرى ، كوزير ، تتلخص فى ان تلك الكوارث التى حاقت بالجيش المصرى أبان معركة فلسطين ، وهذه الجرائم البشعة التى لا مثيل لها فى تاريخ أية أمة من الامم ، قد وقعت خلال مسئوليته كوزير للحربية •

« وفى استطاعة اى موظف صغر أو كبر فى وزارة الحربية ان يتخلى عن المسئولية بأن يلقيها على عاتق غيره • فى استطاعة كل انسان أن يتحلل من المسئولية ، الا رجل واحد لا يستطيع ان يتحلل من مسئوليته • ذلك الرجل هو الوزير • فان الوزير ، فى مصر ، يتمتع بسلطان مطلق • ولا يبرم فى وزارته أمر ، مهما صغر ، الا بعد استئذانه • والدستور يفرض أن الوزير مسئول عن اخطاء جميع التابعين له • ولا يمكن ان يمارى انسان فى هذا البلد ـ الا ان يكون معتوها ، أو أحمق ـ فى ان جرائم بشعة قد ارتكبت فى وزارة الحربية ابان حملة فلسطين •

« وليس يعنينا ، كما قلنا أكثر من مرة ، من الذى ارتكب هذه الجرائم • انما المهم هو انها ارتكبت • والمسئول الاول عن وقوع هذه الجرائم ـ من الناحية السياسية والادبية ـ هو الوزير • ولا يستطيع الوزير أن يفر من هذه المسئولية • لانه لو قال عن نفسه انه كان « مغفلا » ، فالوزارة ليست ناديا للمغفلين •• ولو قال عن نفسه انه كان « لا يدرى » فالوزارة ليست محلا للمهملين • ولذلك ، ففى كل البلاد الدستورية يتحمل الوزير نتيجة الاخطاء التى يرتكبها بقية الموظفين • وفى أعقاب كارثة ككارثة فلسطين ، لا ينحى الوزير والوزارة المسئولة فحسب ، بل ويحاكمون •

« هذا هو الدستور ·· وهذه هى تقاليد الديمقراطية · ولذلك، فانه عندما تقدم الحكومة على اعادة « الفريق حيدر » ، على الرغم من كل هذه الظروف ، فان هذا يكون معناه اهـــــدار الدستور ، واهدار الديمقراطية ·

« وحسبك ان تطالع السخف الذى نشرته الصحف ، من أن « جنابه » اشترط لعودته للخدمة أن يعاد اعطاء رتب «الباشوية» و « البكوية » ـ اتوماتيكيا ـ لكبار ضباط الجيش ، وان يزاد من ســــلطانه ، وان يتبع رئيس الوزراء مباشرة ، لا وزير الحربية · !!

« ولك ، بعد هذا ، ان تسأل : وما جدوى وجود وزير الحربية اذن ؟ ! بل ما جدوى وجود البرلمان ، والدستور نفسه ·· اذا كان أحد ضباط الجيش يريد ان يتمتع بسلطان مطلق ، لا يحاسب عليه أمام ممثلى الامة · ؟ !!

ثم اعقبت « اللواء الجديد » ، فى ٢٢ مايو سنة١٩٥١ صرخة « احمـد حسين » هذه ، بصرخة من عنـــدها ، عنوانها : « لحساب من هذا ؟ » جاء فيها :

« هناك أشياء عجيبة تقع فى حياة هذا الشعب ، ولا يمكن أن تقع فى حياة أى شعب آخر · وواحدة منها تكفى فى الشعوب الحية لاحداث هزة عنيفة ، ولكنها فى مصر تتجمع ، وتتوالى ، وتمر · كل شىء يمكن أن يقع ، وكل شىء يمكن أن ينسى !!

« فحيثما تلفت الانسان ، والقى بصره ، وقع على لغز محير · او على تصرف عجيب ، ويتساءل : لحساب من هذا ؟ واذا لم يكن لحساب الشعب ـ ولا شىء فى هذا البلد يتم لحساب الشعب ـ فكيف يتم ؟ · وكيف يتركه الشعب يمر ؟ أم أن هذا الشعب ذاته خرافة ، ونحن الذين نعتقد بوجوده واهمون مخدوعون ؟!

لحساب من يرجع رجل من طراز حيدر (باشا) الى خـــدمة الدولة ؟

« الحساب الشعب ؟ ان الشعب يكره جلاديه · يكره الرجال الذين ربطوه الى ذيول الخيول لانه ثار فى وجه الانجليز · يكره الذين حاربوا وثبته الى الحرية ، وكانوا دائما فى صفوف أعدائه ، ولم يكونوا يوما فى صفه · !

« الحساب الجيش ؟ ان القواد المهزومين ، ووزراء الحربية الفاشلين ، تشكل الشعوب الحية المجـالس التأديبية لمعاقبتهم ،

والحكم عليهم .. على الاقل بابعادهم عن الجيش ، احتفاظا بروحه المعنوية ، وابعادا لروح الضعف والهزيمة . !

« لحساب من ، اذن ، يعود هذا الرجل ؟

لا بد أنه يعود لحساب جبهة أخرى غير جبهة الشعب والجيش . أليس هذا هو المنطق العادى البسيط ؟ اذا كان الشعب لا يريد ، فمن هذا اذن الذى يعود « حيدر » ليحقق مصلحته ؟! واية مصلحة هذه التى لا تتفق مع مصلحة الشعب والجيش ، ثم يصح ان تكون . ؟ !

« أفهم ان يتم هذا حين لا يكون هناك شعب ، ولا يكون هناك جيش ، ولا يكون هناك وطن يضم الشعب والجيش . فهل تراها خرافة تلك المصطلحات كلها : فلا وطن ، ولا شعب ، ولا جيش. ونحن الذين نؤمن بهذا كله ، واهمون مخدوعون ؟ !

« ان عودة حيدر (باشا) ليست سوى مثال واحد من أمثلة لا تنتهى . فما تطلع الشمس فى هذه الايام ، وما تغيب ، حتى تطالعنا بمثال من هذا النوع جديد . !!

« انها روح التحدى لهذا الشعب واضحة ظاهرة. ففى مصلحة من يا ترى يدون هذا التحدى .. ؟ !

« لعله فى مصلحة هذا الوطن ، ومصلحة هذا الشعب ، ونحن الذين لم نشرب ـ بعد ـ من نهر الجنون ، واهمون مخدوعون . »

***

اما عندما استرد « الفريق عثمان المهدى » موقعه القديم بجوار « حيدر » شريكه فى « الغفلة » ، وشريكه فى «المسئولية » ، وشريكه فى « العود الحميد » . فقد صدرت « اللواء الجديد » حاملة المقال التالى ،تحت عنوان:

« عثمان المهدى .. كان لابد ان يعود ؟ » (١)

« أجل ... كان لابد أن يعود « عثمان المهدى » على رأس الجيش من جديد . فما دام « القديم » قد عاد سيرته الاولى ..

(١) نشر كاتب هذه السطور ، ذلك المقال فى « اللواء الجديد » بتوقيع « ابن الوليد » . ولم يكن هذا هو اول مقال له عن « الفساد فى الجيش » فلقد بلغ عدد المقالات التى كتبها الكاتب فى هذا الموضوع باسمه الصريح فى مجلة « المصور » وباسمه المستعار فى اللواء الجديد » اكثر من ثلاثين مقالا .

وما دام « الهدف » قد أصبح أن نعيد كل شيء ، وكل شخص ، ى ما كان عليه .. فلماذا لا يعود الرجل الذى انحصر كل دفاعه عن نفسه ـ حين سئل أمام النيابة فى قضية الاسلحة الفاسدة ـ في قوله : « انه لم يكن مسئولا ، وانه لم يكن يدري من كل ما حدث شيئا » . على الرغم من انه كان رئيسا لهيئة اركان حرب الجيش . !!

« لقد اعترف « عثمان المهدى » ، بالامس القريب ، باشياء خطيرة ، عندما خيل اليه أن الاعتراف بهذه الاشياء الخطيرة ، قد ينجيه . !! ثم عاد فانكر كل ما كان قد اعترف به ، عندما رأى ان « الانكار » قد يعيده الى مكانه القديم .. بل وقد يرفعه ويرقيه . !!

« وهكذا ينبغي أن يكون « المثل » الذى نقـدمه لشباب جيشنا ليتمثل به .. ويحتذيه .!!

« أجل .. كان لابد أن يعود « عثمان المهدى » الى جـوار « حيدر » لتتحقق لهذا الاخير « ديكتاتورية » القيادة التى لا يستطيع العيش بدونها . فان « حيدر » لن يجد رجلا يجيـد كلمة : « نعم » ، كما يجيدها « عثمان المهدى » .. ولن يجد رجلا يمقت كلمة : « لا » ، كما يمقتها « عثمان المهدى » .. ولن يجد رجلا يحسن « الموافقة » على كل شيء ، وعلى أى شيء ، كما يحسنها « عثمان المهدى » . !!

« وانى لأعلم ان مجلس الوزراء حريص ، كل الحرص ، على مزاج » حيـدر (باشا) .. وليس من الحـرص على مزاج » حيدر « باشـا » فى شيء أن يصر مجلس الوزراء على استبقاء اللواء حسين فريد ، كرئيس لاركان حـرب الجيش ، واستبعاد « الفريق عثمان المهدى » . فلقد تبين ان « حسين فريد » يعرف كلمة : « لا » التى لم يسمع بها « عثمان المهدى »، ولا يحب أن يسمع بها .. كما تبين ان « حسين فريد » لم يجد فى نفسه استعدادا لأن يؤله « حيدر » .. ولا لان يعبد «الصنم» .. بعد اذ حطم الناس الاصنام منذ آلاف السنين . وعلى ذلك ، أخذ يعامل « رئيسه » « حيدر باشا » كانسان يحترم نفسه ، ويحترم فى نفس الوقت ، رئيسه الذى كان يجب ان يحترم اولئك الذين يحترمون أنفسهم .

« ولكن .. لان « حيدر » ليس رئيسا من هذا الطراز ، فقد أوغرت هذه المعاملة صدره على « حسين فريد » وأوشكت النار

أن تشب بينهما • ولكن « حسين فريد » رأى ألا يزيد النـــار اشتعالا ، فعاد الى بيته ، ريثما يعود « القائد الخطير » الى رشده ، فيدرك ان احترام الرجل ، أى رجل ، لنفسه ، ليس جريمة يعاقب عليه بتنغيص العيش ، وبالاهمال ، وبالابعاد •

« ولست ألوم « الفريق حيدر » على هذا السلوك ، بقدر ما أعذره • فلقد عاش الرجل أربعة وثلاثين ســـنة من عمره مع السجناء وبينهم (١) • عاش « حيدر » أربعة وثلاثين سنة كاملة مع اولئك التعساء الذين لا يستطيعون شيئا الا ان ينحنـــوا « لمعاليه » ، وينحنوا للمأمور ، وينحنوا حتى للسجان • !! فالرجل ، اذن ، معذوراذا لم يجد فى نفسه القدرة على معايشة أولئك الذين يرفضون ان ينحنوا ، كما يرفضـــون ان يرددوا كلمة : « نعم » مثلما يردد الببغاوات أية كلمة تسمعها !!•

واذن ، فمن واجب مجلس الوزراء أن يعينه على ان يمكن لنفسه فى الارض ، من واجبه أن يريحه من « حسين فريد » ، ومن واجبه أيضا أن يعيد اليه « عثمان المهدى » • فذلك ادعى الى راحته • والى اعتدال « مزاجه » • ويستطيع مجلس الوزراء بأن يفاخر بأنه قد فعل •

« ولقد اعادت الحكومة « الفريق عثمان المهدى » رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش ، دون ان توجه اليه سؤالا واحدا عن اخطائه فى حرب فلسطين • ودون أن تحاسبه على أرواح الشهداء الذين فقدناهم نتيجة للخطأ ، ونتيجة للجهل ، ونتيجة لكل كلمة •• بل لكل حركة كانت تصـــدر عن رأس القائد العـــام الخطير •• « الفريق محمد حيدر » !!

أعادت الحكومة « عثمان المهدى » الى مكانه القديم دون أن تسأله عن الاموال الطائلة التى ضيعناها ، ولا عن الاسلحة التى

(١) خدم « الفريق محمد حيدر » فى الجيش سنة واحدة . انتقل بعدها الى البوليس وكان احـــد رجلين اشتهرا ، خلال ثورة سنة ١٩١٩ ، بقسوتهما الوحشية فى معاملة المتظاهـــرين الذين كانوا يهتفون مطالبين باستقلال مصر . ثم نقل بعد ذلك الى مصـــلحة السجون ، وظل يترقى فى مناصبها حتى أصبح مديرا لها ، ثم عين فى سنة ١٩٤٨ وزيرا للحـــربية ، وكان معروفا بأنه يدير حرب فلسطين من مكتبه فى القاهرة . وفى يناير سنة ١٩٥٠ فرضه الملك على « حكومة الوفد » كقائد عام للقوات المسلحة !

بددناها ، ولا عن كرامة مصر التى اهدرها جهل « حيـــدر » و «عثمان » • !!

« اعادت الحكومة « عثمان المهدى » الى مكانه القديم ، دون أن توجه اليه سؤالا واحدا عن شيء من هذا كله •• وأغلب الظن أن الحكومة لم تكن لتقدر على ان توجه اليه سؤالا واحدا عن شيء من هذا كله • ذلك لانها حريصة ، كل الحرص ، على الا يصيبها ما اصاب اعضاء مجلس الشيوخ الذين ساقتهم شجاعتهم الى الوقوف في وجه « حيدر » وعصابته ، ليقولوا لهم باعلى الصوت : كيف بددتم اموالنا ••؟! كيف ضيعتم شــــهداءنا ••؟! كيف جعلتم « مصر » سخرية الساخرين ، لتحققوا لانفسكم مجدا ، ذاتيا •• ومنافع شخصية •• ورفعة اقمتموها ـ ان كانت هنـــاك رفعة ـ على اشلاء آلاف الشهداء من ابنائنا • ؟؟!



وكرب سائل يتســاءل : هل كنا « مجـانين » ونحن نكتب ضد اولئك الطغاة •• ضد الملك ، وضد حاشيته، وضد اعوانه ، تلك « الكلمات » التى كانت كأسنة الحراب •• مدوية كطلقات البنادق ؟!!

ام اننا كنا مؤيدين « بســـلطان » خفى اقــوى من « سلطان » الملك ، و « سلطان » حاشيته ، و « سلطان » عملائه • ؟ ! وان هذا « السلطان الخفى » الذى كنـا مؤيدين به ، هو الذى كان يشجعنا على أن نقول ما كنا نقوله ، ونكتب ما كنا نكتبه ؟!

والحقيقة اننا لم نكن « مجانين » حين كنـــا نقـــول ما نقوله ، ونكتت ما كنا نكتبه ••• بل الصحيح اننا كنا فى قمة عقلنا • ولاننا كنا فى قمة عقلنا ، فقد فتح « العقل » عيوننا ، اوسع ما تكون ، على نيران الفســاد التى كانت قد اشتعلت من حولنا، وكادت تلتهم كل شيء •• كل غال وعزيز فى أرضنا : الحـــرية ، والحق ، والعدل ، والقانون ، وانسانية الانسان ، وكرامته •

وفضلا عن اننا كنا فى قمة عقلنا ·· وان « العقل » هو الذى فتح عيوننا ، اوسع ما تكون ، على نيران الفساد التى كادت تلتهم كل شيء فى ارضنا · فاننا ، آيضا ، لم نكن نحرص على شيء ·· اى شيء · لم نكن نحرص على منصب ، ولا على جاه ، ولا على الحياة نفسها · لم يكن هناك حرص من اى نوع يمكن ان يذل اعناقنا ·· ومن هنا ، واتتنا الجرأة ، وأوتينا الشجاعة لكى نقول ، ونكتب كل ذلك الذى كان البعض يعتبرنا « مجانين » حين كنا نقوله ، ونكتبه ·

اما اننا كنا « مؤيدين » بسلطان خفى ، اقوى من سلطان الملك ، واقوى من سلطان حاشيته ، واقوى من سلطان اتباعه وعملائه · فذلك صحيح · وكان هذا « السلطان الخفى » الذى كنا مؤيدين به ، هو « سلطان الايمان » ·· ايماننا ببلدنا ، وبشعبنا ، وبحقه المقدس فى التحرر من الظلم ، ومن الخوف ، ومن القهر ، ومن كل ما من شأنه ان يستبذل انسانيته ، ويهدر كرامته·

الفصل الخامس

أوربا : القمار .. والغواني !

بينما كان قلب مصر يحترق بكل ذلك الذى كان يجرى .. وبينما كان اهلها – على اختلاف اقدارهم ، وثقافاتهم ، ومواقعهم – قد اضحوا وليس لهم من هم غير ذلك الفساد المروع الذى غرق فيه الملك حتى اذنيه، واغرق فيه حياتهم .. اذا بالملك – بكل الجرأة ، واللامبالاة بما جرى ويجرى – يدير ظهره لمصر الحزينة ، ولقلبها الذى كان يحترق، ويستقل يخته الملكى الخاص: « فخر البحار » متوجها الى « اوربا » فى رحلة مجون لاتحده حدود !!

ولم تكن « اوربا » التى ادار « فاروق » ظهره لمصر الحزينة متوجها اليها ، هى « اوربا الفكر » .. ولا هى « اوربا العلم » .. ولا هى « اوربا الصناعة » . وانما كانت « اوربا » التى قصدها « فاروق » ، شيئا آخر غير هذا كله .. كانت « أوربا : القمار ..والغوانى ».!! فلم يكن « فاروق » ، بكل ما تأصل فيه ، وانحدر اليه، ليستطيع ان يقصد « اوربا » اخرى غير هذه . بعد اذ صار « عبدا مطيعا » للفساد .. يأتمر بأمره ، ويسلس له قياده ! .

ويبدو ان « فاروقا » كان يعرف ، مقـــدما ، حجم الفساد الذى انتوى ان يغرق فيه نفسه ، وسـمعته ، وسمعة بلاده وشعبه . ومن ثم ، اختار ان يسافر فى رحلة المجون هذه ، متنكرا تحت اسم مســـتعار هو : « فؤاد باشا المصرى » . !! كأن التنكر تحت هذا الاسم المستعار يمكن ان يضلل « اوربا » عن حقيقته . ! أو كأن « اوربا » ، فى رأيـه ، كانت من الســـذاجة بحيث لاتستطيع ان تتبين حقيقته لمجرد انه سافر اليها متنكرا تحت اسم « فؤاد باشا المصرى » !!

ولم يكن هناك ما هو اشد اغراقا فى الجهل .. جهل الملك ، وجهل مستشاريه ، من هذا التصور الساذج . ودليل ذلك ، ان « فاروقا » لم يكد يطأ ارض « اوربا » بقدمه حتى كانت عيونها كلها ــ ممثلة فى صحافتها ، وفى مصوريها ، وفى وكالات الانباء فيها ــ قد احاطت به ، وتركزت عليه .. ثم مضت ــ بغير عنـاء كبير ــ ترصد جميع حركاته وســـكناته ، اذ كان بالنسبة لهـا صيدا ثمينا ، ثم تطيرها اولا بأول ، للعالم الذى اخـذ يأسى لمصر بمقدار ما كان فى تصرفات ملكها من مجون ، ومن ابتذال ، وترخص !

ولم تكن رحلة « فاروق » هذه ، هى اولى رحلاته الى « اوربا : القمار .. والغوانى » . فلقد قصد اليها مـرة سابقة ، عندما استقل ، فى سنة ١٩٤٦ ، ذلك « اليخت الملكى » نفسه ، متــوجها الى جزيرة « قبرص » ، حيث كان على موعد غرام مع ممثلة الســينما : ليليان كوهين (كاميليا) .. التى كانت ، فى ذلك الوقت ، قد دخلت قائمة عشيقاته ، كأحدث عشيقة فى تلك القائمة التى كانت طويلة جدا .. وقذرة جدا . !!

لم يكن « فاروق » ، وقتئذ ، قد كشف ، تماما ، عن

ذلك الوجه القبيح الذى عرف به بين النـاس فيما تلا ذلك من سنوات • كان لايزال فى وجهه بقيـــة من حياء •• كان لايزال يحاول ، ان يستخفى ، وان يتستر بالظلام ، وان يمضى الى صحبة الشيطان بعيدا ، ما امكن، عن نظرات الناس الذين لم يكن قد قرر ، بعد ، أن يلقى بنظراتهم تحت حذائه الملكى !!!

ولكن ••• لان « فاروقا » كان ملكا •• ولان الملوك لهم لمعتهم الخاصة التى تشبه لمعة النجوم فى اشد الليالى ظلمة • فان التستر بالظلام ، والمضى الى صحبة الشيطان فى غفلة من اعين الناس ، كان بالنسبة اليه ، حلما يصعب تحقيقه •ومن ثم، فانه ماكاد يستقر فى«قبرص»،حتى كانت الجزيرة كلها قد تحولت الى عيون مفتوحة عليه ، وعلى من يذهبون معه ، ويجيئون اليه • وما هى الا ايام قليلة •• حتى كان كل الناس ، فى كل الجزيرة — وعلى الرغم من كل الظلام الذى حاول « فاروق » ان يتستر وراءه — قد عرفوا لماذا جاء « فاروق » الى جزيرتهم •• ومع من كان يقضى ايامه ولياليه !! •

اما وقد عرف الناس ، فانهم كانوا لابد وان يتكلموا ••• وتكلم الناس فعــلا •• تكلمــــوا كثيرا عن ذلك « الزائر الكبير » •• عن استهتاره ، وتبذله ، ومجونه • وعندما ادرك « فاروق » ان الظلام فى « قبرص » لم يكن كثيفا بالقدر الذى تصوره ، وانه لم ينجح فى ان يخفى عن اعين اهلها فساده ومجونه •• امر « يخته الملـكى » بالرحيل عنها الى جهة أخرى ، بعد ان أوفد الى احــدث عشيقاته رسولا يحمل اليها « رسالة ملكية » من سطر واحد قال فيه : « اضطررت الى الســـفر » • ولم ينس الملك العاشق ان يطوى « رســـالته الملكية » هذه على خمسين جنيها !! •• ثمنا لاى شىء •• ؟! لا ندرى •

وذهلت احدث العشيقات •• ثم افاقت من ذهـولها لتجرى نحو الميناء فى محاولة يائسة للحاق «بفخر البحار» قبيل رحيله • وهناك كانت المفاجأة الكبرى فى انتظارها • لقد غادر « اليخت الملكى » الميناء عند الفجـر • وعندئذ ادركت « كاميليا » ان « فاروقا » كان قد رتب الامـور بحيث لاتصلها رسالته الا بعد ان يكون « اليخت الملكى » قد رحل عن « قبرص » !!

توجه « فخر البحار » ، بأمـر ملكى ، الى تركيا •• لكن الارصاد كانت لاتزال تتابعه •فما كاد يلقى مراسيه بميناء « مرسين » التركى ، حتى كانت وكالة انبـاء « رويتر » قد اذاعت نبأ وصوله اليها •

وبينمـا كان « فاروق » يتنقـل بين « قبرص » و « تركيا » على هذه الصورة من الطيش واللامسئولية • كان مجلس الوزراء فى مصر برئاسة « اسـماعيل صدقى » ، يغلى • فقد كانت هناك ازمـة وزارية بين رئيس الوزراء وبعض وزرائه ، كما كانت المفاوضـات المصرية ـ الانجليزية التى كانت تدور وقتئذ بين «اساعيل صدقى » من ناحية ، وبين « اللورد سـتانسجيت » من ناحية اخرى ، قد اخذت تتعثر ، وتقترب من دائرة الازمة •• وكان ذلك كله يقتضى أن يكون الملك موجودا فى بلاده •

وراحت برقيات « القصر الملكى » تتوالى على « فخر البحار » مناشدة الملك سرعة العودة الى مصر • وقرر « فاروق » ان يعود • لكن برقيـة عاجلة ما لبثت ان هبطت على « فخر البحار » جعلته يغير طريقه • كانت البرقيـة من احدث عشـيقات الملك •• من « كاميليا » •• تقول فيها : « اما ان تعود •• واما ان انتحر » !!

وعاد الملك ... ولكن ، ليس الى مصر .. وانما الى « كاميليا » !!

وبنفس الطيش ، واللامسئولية اللذين كان « فاروق » يدير بهما حياته كلها ، قرر اطالة اقامته بجوار احدث عشيقاته ، ضاربا عرض البحر بالازمـــة الوزارية التى كانت قائمة بين رئيس الوزراء وبعض وزرائه ، وبالازمة السياسية التى كانت وشيكة القيام بين وفدى المفاوضات المصرية ـ الانجليزية . كما ضرب عرض البحر بنظرات النـــاس التى كان قد هرب بســـببها من « قبرص » متوجها الى « تركيا » !! .

غير أن برقيات القاهرة الى الملك ، لم تدع له فرصة لكى يستمتع بالهناء ، او على الاصح بالضياع الذى كان يغرق فيه نفسه . فلقد حملت اليه البرقيات انبـــاء مزعجة : ان رئيس الوزراء يهدد بالاستقالة ، ان هو لم يعد الى مصر فورا .

وقرر « فاروق » ان يقابل رئيس الوزراء فى منتصف الطريق ، فارسل يستدعيه الى « رودس » ، بعد ان اقنع « كاميليا » بأن تتركه يذهب الى هناك ، حتى لا يعرف رئيس الوزراء بوجودها فى « قبرص » ان هو جاء اليها .!

وطار رئيس الوزراء الى « رودس » لمقابلة الملك الذى نجح فى ان يحصل من « كاميليا » على « اجازة خاطفة » يدبر فيها امور دولته . !!

وفى « رودس » .. وخلال هذه « الاجازة الخاطفة » التى حصل عليها الملك من أحداث عشيقاته ، وقع « فاروق » عددا من أخطر المراسيم الملكية . وقع مرسوما بالتعـــديل الوزارى الذى ادخله (اسماعيل صدقى) عـــلى وزارته . ومرسوما ثانيا بانشـــاء « مجلس الدولة ، وتعيين محمد كامل مرسى (باشا) رئيســـا له » ومرسوما ثالثا بتعيين مستشارى المجلس ونوابه . ومرسوما رابعا بالحركة القضائية . وقد وقع الملك هذه المراسيم جميعها

على ظهر اليخت الملكي « فخر البحار » باعتباره أرضا مصرية ، حتى تكتسب المراسيم « الشرعية اللازمة » !!..

***

كانت تلك هي رحلة « فاروق » الاولى الى « اوربا : القمار .. والغواني » . اما رحلته الثانية الى « اوربا » هذه ، وهي الرحلة التي حدثتك عن قيامه بها متنكرا تحت اسم : « فؤاد باشا المصري » .. فكانت في صيف سنة ١٩٥٠ . وعلى طول المسافة بين سنتي ١٩٤٦ و ١٩٥٠ ، كان « فاروق » قد احرز في ميدان الفساد ، والمجون ، تقدما اوسع . واستهتارا اكبر . اذ كان قد طلق – في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٨ – زوجته الفاضلة .. « الملكة فريدة » فتم له ، بطلاقها ، الخلاص من آخر قيد – وان يكن من حرير – على تصرفاته الطائشة التي كانت تقوده بسرعة مجنونة نحو الهاوية . !

وهكذا سافر « فاروق » الى اوربا في سنة ١٩٥٠ . وقد كشف تماما عن وجهه القبيح الذي عرف به بين الناس منذ ذلك التاريخ . والى ان ابتلعته الهاوية .

لم يعد في وجهه بقية من حياء .. وبالتالي ، لم يعد يتخفى .. ولم يعد يتستر بالظلام .. ولم يعد يبحث عن اماكن لا يعرفه فيها احد .. بل لقد ذهب في تحدي كل شخص ، وكل شيء ، الى ابعد ما يمكن ان يذهب اليه التحدي . كان يتصرف كانسان اصابه الجنون فجأة . غير أن المجنون .. أي مجنون .. يلتمس له الناس عذرا من جنونه . ولكن ، لان « فاروقا » لم يكن مجنونا ، فانه لم يجد بين الناس من يلتمس له العذر عن تصرفاته التي سفح بها سمعة مصر وكرامتها .. قبل ان يسفح بها سمعته ، وكرامته .

ويصف « الدكتور محمد حسين هيكل » ما جرى في

رحلة « فاروق » هذه • وما نشأ عنها من خزى وعار لحقا بالمصريين جميعا بقوله .

« بعد أيام من صدور مراسيم ١٧ يونيو المشهورة • اعلنت الصحف ان « الملك » سيسافر الى أوربا متنكرا باسم « فؤاد باشا المصرى » • فلما كان بفرنسا ، جعل مقره الرئيسى فيها مصيف « دوفيل » ، وجعل نادى هذه المدينة مكان سمره ، وسهره ، ولعبه القمار •• كما كان الحال في نادى السيارات بالقـــاهرة ، وما لبثت غانيات باريس ، والفاتنات الدوليات ، حين عرفن ذلك ، ان هرع عدد كبير منهن الى « دوفيل » ، مؤمنات بان « ملك مصر » يريد أن يقضى صيفه فى فرح ومسره • وزادهن ايمانا بذلك ان دعيت الراقصة المصرية « سامية جمال » الى « دوفيل » لتبعث برقصاتها الى هذا المجتمع المصرى ، الفرنسى ، الدولى ، النعمة والنعيم • !!!

« وأوفدت صحف فرنسا ، وصحف أوربا ، وصحف أمريكا ، مراسليها الى المدينة الرافلة فى حلل هذه البهجة انغناء لموافاتها بأنباء « الملك الشرقى » ومغامراته •

« وأخذت الصحف ، فى أرجاء العالم ، تنشر من أنبـــاء الملايين ، التى يكسبهـــا « فاروق » أو يخسرها على مائدة القمار ، ما فتح العيون فى العالمين القديم والجديد واسعة على هذا الملك الشاب الذى أعاد فى القـــرن العشرين ، وفى قلب أوربا ، صورا أعجب مئات المرات من صور ألف ليلة وليلة !!

« وانتهزت الصحف هذه الفرصة للتشـهير بملك مصر • ولم تكتف ، فيما راحت تنشره ، بأنباء الملك فى « دوفيل » بل لجأت الى حياته الخاصة فجعلت منها مادة زادت بها استهتار الملك بروزا ووضوحا •

« واثر ما نشرته الصحف • حتى كان المصريون المصـطافون بأوربا يخجلون فلا يذكرون جنسيتهم لمن يسأل عنها • وقد لمست ذلك بنفسى ، اذ كنت بباريس عائدا من مؤتمر الاتحاد البرلمانى الدولى الذى عقد ذلك العام بدبلن • عاصمة « ايرلاندا » •• فقد اطلعت فى مجموعة الصحف الفرنسية عند احـــد أصدقائى الفرنسيين على طائفة من المقـــالات والصور التى نشرت عن « فاروق » فطأطأت رأسى • واطلعت كذلك على بعض المجـــلات الامريكية ، ، فاذا هى تنشر عن حوادث « فاروق » وتصفه بأقبح

الصفات . ورأيت في بعض مسارح « باريس » تعريضا بالملك ومغامراته ، يندى لها الجبين . وسمعت من بعض معــــارفى ــ رجال وسيدات ــ ما ووجهوا به حين عرف محدثوهم أنهم مصريون . فآثرت الا أتعرض لمثل ما تعرضوا له .

« وزاد الطين بلة أن كانت الصحف الاوربية ، والامريكية ، تنشر عن التحقيقات التى كانت تجـــرى فى مصر عن الاسلحة والذخيرة الفاسدة التى اشتريت للجيش المصرى المحـــارب فى فلسطين ، ما يندى له الجبين .

« كانت صحف أوربا تنشر من التفاصيل الخاصة بهــــذا التحقيق ما يزيد الدعاية ضد الملك ، وضد مصر اثارة لنفس كل من يتابعها ، وما يجعـــل المصريين المقيمين بباريس ، وبأوربا ، يطأطئون رءوسهم خزيا وخجلا (١) .

***

ذلك ما سجله « الدكتور محمد حسين هيكل »ــ اجمالا عن فضائح « فاروق » .. وعن الخزى والعـــار اللذين الحقهما بكل مصرى تصادف وجـــوده باوربا فى ذلك الوقت . حتى لقد وصل الامر بالمصريين الى حد انكار جنسيتهم ، فرارا من العار الذى الحقه بهم ملكهم .

اما « تفصيل » هذه الفضائح ، فقد تولته صحف فرنسا واحدة تلو الاخرى ، وراحت تنشره تحت أبرز العناوين .

فهذه صحيفة « فرانس بريس » تقول :

« فاروق ينتزع قصب السباق فى « دوفيل » ويخسر أربعة مليون فرنك ونصف فى نصف ساعة » !!

وهذه صحيفة « **بارى بريس** » تقول :

« الف ليلة وليلة فى « دوفيـــل » .. الملك فاروق بين البيجوم اغاخان ، ومدام كحيل ، ومدام كريم ثابت » ..

وهذه صحيفة « **فرانس بريس** » تقول :

« اشترى « فاروق » بعض المجوهرات الثمينة من محلات « فان كليف » . ولكن ، لم يعرف بعد من التى سوف تفوز بهـــــذه

---

(١) « مذكرات فى السياســـــة المصرية » للدكتور محمد حسين هيكل الجزء الثانى .

المجوهرات : هل ستكون « ســـامية جمال » هى الفائزة : ام الراقصة » سيرين أوجيمونا » أم المغنية « انى برنييه » ؟• انه على كل حال ، يحمل المجوهرات فى جيب سترته الايمن •• ويقال ان « سونيا » عارضة الازياء فى محلات « كارفن » ســـتكون هى الفائزة بهذه المجوهرات » !!

وهذه صحيفة « **رادار** » تقول :

« ان فاروقا له راقصة مفضلة •• تماما مثل « الملك هيرود » فى التاريخ القديم ـ أما « سالومى » الحديثة فاسمها : « سامية جمال » • وقد شهدت «دوفيل» ، فى ليلة من ليالى الشرق الساخنة، « سامية جمال » وهى ترقص حافيـــــة القدمين فى ثوب مطرز بالفضة ، وقد أرسلت شعرها يصرخ فى الهواء » !!•

***

اما فضيحة الفضائح التى لم تنفرد بها صحيفة من صحف فرنسا ، بل شاركت جميعا فى نشرها .. فهى تلك التى كانت بطلتها فتاة امريكية فى السادسة عشرة من عمرها ، اسمها : « ميمى ميدار » ابنــة احد الاثرياء الامريكيين الذين ساقهم قدرهم الى الاصـــطياف فى « دوفيل » اثناء وجود « فاروق » بها . لقد وقعت عليها عينه ، لاول مرة فى صالة الفندق فأسال شبابها لعابه • وبيت ، فيما بينه وبين نفسه ، امرا ، لكنه لم يتمكن من الانفراد بهذه الحمامة الوديعة . الا فى مصعد الفندق . وفى المصعد ، راح « فاروق » يهاجم الحمامة الوديعة التى لم تكن تستطيع ، لضعفها تجاه وحشيته ، أن تدفع عن نفسها اذاه .. حتى هيض جناحها !!

كانت تلك فضيحة صارخة • تناقلها النزلاء ، ونقلوها بدورهم الى مراسلى الصحف الفرنسية التى شـــاركت جميعها فى نشرها تحت ابرز العناوين . ولكن ذلك كله لم يمنع « فاروقا » من ارسال الزهور كل صباح الى

غرفة الفتاة . وكأنه كان يريد ان يؤكد تلك الفضيحة الصارخة التى هزت المجتمع الفرنسى هزا عنيفا • !!

وقبيل ان يعود « فاروق » من رحلته المجنونة هذه التى تردى فيها الى أحط درجات التردى ، كانت اخبار فضائحه كلها ـ وعلى رأسها فضيحة « ميمى ميدار » ـ قد سبقته الى القاهرة . وحصلت « روز اليوسف » على صورة الفتاة الامريكية ، ونشرتها فى عددها الذى صدر فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٥٠ وتحتها « الخبر » التالى .

« يتحدث المصريون العائدون من اوربا عن الانسة « ميمى ميدار » • وهى آنسة امريكية فى السادسة عشرة من عمرها • وابنة احد كبار أصحاب مصانع الصلب فى ولاية « ميسورى » بامريكا • وقد وجهت الى الانسة « ميمى » أكثر من دعوة لزيارة مصر • ولكنها لم تقرر ، بعد ، قبول اى دعوة منها • » !!

كما نشرت « روز اليوسف » فى العدد نفسه •• وفى الصفحة المقابلة للصفحة التى نشرت عليها صورة الفتاة ، صورة أخرى لها ، فى وضع آخر ، وتحتها « الخبر » التالى :

« الانسة ميمى عند وصولها الى مطار لندن لتكمل دراستها فى جامعات انجلترا ، بعد أن قامت برحلة فى أوربا بصحبة والديها• وقد اعلنت أنها فقدت حقيبتين من حقائبها بين مدينتى « سان سبستيان » و « بيارتز » وهما حقيبتا ملابسها • واشارت «ميمى» الى « السويتر » الذى كانت ترتديه ، وقالت للصحفيين : هذا كل ما أملكه الان من ملابس » •

كان هذا ـ بطبيعة الحال ـ هو كل ما تستطيع « روزاليوسف » أن تنشره ، أو ترمز اليه حول تلك الفضيحة الملكية الصارخة . لكن النشر ، على هذه الصورة ، كان موحيا للقراء ، وبالقدر الكافى ، بأن فى الامر « سرا » !!

فلم تكن « الآنسة ميمى ميدار » هى أول فتاة أمريكية تصطاف فى أوربا • كذلك لم تكن هى أول فتاة أمريكية

لتذهب الى انجلترا لاستكمال تعليمها فى جامعاتهـــا .
واذن ، فما هو « السر » الذى يختفى وراء اهتمام مجلة مصرية بهذه الفتاة ، على هذا النحو الذى تمثل فى نشر صورتين لها ، وليست صورة واحـــدة ، على صفحتين متقابلتين فى عدد واحد ؟!

وتحرك فى الناس فضولهم .. وراحوا يبحثون عن « السر » المختفى وراء هاتين الصــورتين اللتين نشرتهما « روزاليوسف » فى عدد واحد ، لفتاة واحدة .. وما لبثوا حتى عرفوا « الحقيقة » كاملة .. ولم يكن من شأن الحقيقة التى عرفوها ، الا أن يزدادوا احتقارا للملك ، وبغضا له ، وسخطا عليه . !

وفى عددها الصادر بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥١ ـ أى بعد ١١ شهرا من نشر هاتين الصورتين ـ عادت « روزاليوسف » مرة أخرى الى قصة « الآنسة ميمى ميدار » . فنشرت تحت عنـــوان بارز : « البرقية التى اهتدت بها الاوساط المصرية» ، صورة الفتاة .. وتحتها وبالبنط البارز أيضا ـ الخبر التالى :

« بعثت الانسة ميمى ميدار فى صباح يوم السبت ١٨ اغسطس ببرقية عاجلة الى القاهرة باسم شـــخصية مصرية كبيرة ، تقول فيها : انها انجبت ولدا جميل الطلعة !!»

« والانسة « ميمى ميدار » ، امريكية فى الثـــامنة عشرة من عمرها . وهى فاتنة ، رائعة الجمال . وقد لمع اسمها لمعانا شديدا فى موسم « دوفيل » فى العام الماضى.

« وهى ابنة أحد كبار رجال الصناعات فى ولاية « ميسورى » . وقد انتحر والدها فى العام الماضى ، عقب عودته من قضاء اجازته فى « دوفيل » .!!

« وكان من المنتظر أن تزور « ميمى » القاهرة فى شتاء هـــذا العام ، ولكن ، حدثت ظروف قد تحول دون دخولها الاراضى المصرية الى الابد !.

« وقد اهتمت جميع الاوساط المصرية الرسمية وغير الرسمية ،

بهذه البرقية التى أرسلتها الانسة ميمى ميدار الى القاهرة » !!

وهكذا وضعت «روزاليوسف» ـ وان يكن بعد مرور ١١ شهرا من نشرها الخبر الاول ـ كل النقط على كل الحروف فى قصة « الآنسة ميمى ميدار » . وبعـــدها لم تعد « ميمى ميدار » لغزا يجهد الناس أنفسهم بحثا عن مفتاحه . فقد عرفوا كل شيء ، وفهموا كل شيء .. واعتصرهم خذى عميق بسبب ما عرفوا ، وما فهموا .

الفصل السادس

فى الطريق إلى الهاوية !

عاد« فاروق »من رحلته الماجنة هذه فى منتصف أكتوبر سنة ١٩٥٠ ، ليجد مصر الحزينة كلها تلوك فضائحه ، وتتحدث بصوت عال عما اقترفه فى حقها من مخاز نشرتها ، على أوسع نطاق ، صحف العالمين : القديم والجديد .

وعلى الرغم من ان الحكومة التى كانت قائمة فى الحكم وقتئذ ، كانت قد منعت دخول هذه الصحف الى مصر . الا أن الحصول على نسخ منها لم يكن ، بالنسبه للكثيرين ، شيئا عسيرا ..!

كان السيل ، كما يقولون ، قد بلغ الزبى . وكانت مصر قد اضحت بركانا تغلى مراجله ، واخذ يتهيأ للانفجار . ولكن « فاروقا » ، من حيث يشعر او لا يشعر ، كان مصمما على السقوط فى الهاوية . فاصم اذنيه تماما عن كل نصح ، وكل تحذير ، واستسلم للفساد ينوشه من كل جانب . وما احسبه كان مستطيعا ان ينجو بنفسه من براثن ذلك الفساد الذى اخذ ينوشه من كل جانب .. فلقد تهيأت له ــ بحكم تربيته الفاسدة، وطبيعته الموروثة ، وظروفه المواتية ــ جميع الأسباب التى

جعلته عاجزاً كل العجز ، عن التخلى عن فساده ، أو ترك فساده يتخلى عنه .

وآية ذلك ، ان سنة ١٩٥٠ حملت اليه من نذر الخطر ما كان كافيا لاقناعه ، لو انه كان يريد ان يقتنع ، ان عرشه قد أضحى قائما على الماء .. وانه ليس ثمة سياج من الولاء ، ولا من الحب ، ولا حتى من مجرد العطف يمكن ان يحمى عرشه من ذلك الموج الذى اخذ يعلو ليبتلعه . ! حتى الجيش الذى صور له خياله المريض، أنه يمكن ان يكون معه ضد الشعب ، جاءته من ناحيته انذر بانه يعرف تماما اين يضع ولاءه ، وانه لن يضع هذا الولاء فى اى ارض غير الارض التى يقف الشعب عليها . صحيح ان اذناب الملك من قادة الجيش ، كانوا قد غيروا ، فى وقت ما ، صيغة « القسم » الذى يقسم الضباط على الولاء له ، فجعلوها : « الله . الملك . الوطن » ، بعد ان كانت : « الله . الوطن . الملك » .. الا ان هذا التغيير الذى قدم « الملك » على « الوطن » ــ على الرغم من ان « الوطن » هو الباقى ، مابقيت الحياة . وكل « ملك » ، واى « ملك » .. الى زوال ــ لم يتجاوز مطلقا شفاه الضباط الى قلوبهم التى ظل ولاؤها العميق ، والاكيد ، لله .. ثم للوطن الذى حمل الضباط همومه ، واعتصرتهم احزانه ، فلما ان نفد صبرهم ، استداروا ــ ــ فى ثورة شجاعة ــ اقتلعوا بها الملك من فوق عرشه الذى كان قد أضحى قائما على الماء ، وليس ثمة سياج يحيط به .. لا من الحب ، ولا من الولاء . !

***

ويحضرنى ، وانا اتحدث عن فساد « فاروق » . وعن عجزه الكامل عن التخلص من فساده ــ يحضرنى رأى للوزير الوفدى السابق « عبد الفتاح حسن » فى فساد «فاروق»

وفى دواعيه ، واسبابه .. وقد افضى الى الوزير السابق بهذا الرأى صباح يوم الجمعة ٤ يناير سـنة ١٩٥٢ ، وكنت على موعد معه بمكتبه فى وزارة الشئون الاجتماعية لحديث صحفى لمجلة « المصور » ..

قال لى «عبد الفتاح حسن» ونحن نتحدث عن «فاروق» حديثا جانبيا — كان مستحيلا — ، وقتهـا ، ان ينشر لان نشره كان كفيلا بان يكلف صاحبه ليس مقعده فى الوزارة فحسب .. بل وعنقه ايضا :

« كنت دائما آخذ على اخواننا الذين يهاجمون الملك موقفهم . ذلك لان الملوك — وفاروق واحد منهم — لايمكن ، بحكم ظروفهم ، ان يكونوا احسن مما هم عليه . وليس فى هذا الذى اقوله شىء من الغرابة . فكل امرىء يولد ، وتولد معـــه آمال يريد ان يحققها ، الا الملوك ، فانهميولدون ليجدوا جميع آمالهم محققة . ففى الساعة الاولى من وجودهم على الارض ، يصبحون أوليـــاء العهد . ومن هنا تجد ان الطاقات التى نوجهها انا ، وانت ، والناس كلهم ، الى تحقيق آمالنا .. يوجههـــا الملوك الى ما يجرهم الى المزالق ، والخطايا ، والعيوب . وهم يفعلون ذلك ، ويستمرئونه ، لانه ليس هناك ما يخشونه نتيجة لوقوعهم فى هذه الخطايا ، وتلك العيوب . فان آمالهم كلها ، كما قدمت ، محققة .. وغاياتهم معروفة . ومن المسلم به انه لا يخشى المزالق والخطايا ، الا من كانت له آمال يريد أن يحققها ، وغاياتيريد بلوغها . لذلك فهو يخشى أن تقف خطاياه حجر عثرة فى طريق آماله ، وغاياته .

« اننى اصارحك باننى لا أرى جدوى من الهجوم على الملك . انما الذى يجب أن نفعله ، وأن نركز عليه جهدنا كله ، وتفكيرنا كله ، هو العمل على اخراج الانجليز من مصر . عندها ، سوف يصبح هذا الملك نفسه أتفه من ريشة فى مهب الرياح ، فهم قــد أفهموه — كما أفهموا أجداده من قبله — انهم حماته . وانه لا امان له من هذا الشعب الا بوجودهم بجانبه ، وقـــد درج الانجليز ، منذ أن احتلوا أرضنا ، على تقسيم بلـــدنا الى ثلاث جبهات : الملك فى ناحية ، والشعب فى ناحية ثانية ، والحـــكومة فى ناحية ثالثة . ومن بين الثغرات الموجودة فى هذه الجبهات الثلاث ، كانوا ينفذون دائما لتحقيق اغراضهم فينا . واياك ان

تصدق أن الانجليز سيبطل لهم تدخل فى شئوننا ماداموا على ارضنا » .

❋❋❋

واعود بعد هذا الرأى الذى نقلته ، بحروفه ، من مذكراتى عن ذلك اليوم — اعود الى ذلك الفساد الذى عجز « فاروق » — بحكم تربيته — وطبيعته ، وظروفه — عن الخلاص من براثنه .

فلقد حملت سنة ١٩٥٠ — كما ذكرنا — الى «فاروق» من نذر الخطر ما كان كافيا لجعله يرجع ، ويرتدع .. او فى القليل ، يتحسب ويحاذر . لكنه ، بما تأصل فيه من فساد ، ومن صلف ورثهما عن آبائه واجداده ، ادار ظهره لكل تلك النذر ، ومضى يتحدى .. انطلاقا من وهم كبير بانه يستطيع ، عن طريق التحدى ، أن يسترد اعتباره ، وان يثبت قوائم عرشه الذى كان قد اخذ يهتز ، ويتداعى تهيؤا للانهيار .

على انه كان مستحيلا ، الى ابعد حدود الاستحالة ، ان ينجح « فاروق » فى استرداد اعتباره عند الشعب . ذلك لان ما تكشف من امره — خاصة فى سنة ١٩٥٠ وما بعدها — لم يكن من قبيل « الهفوات » التى يسهل اغتفارها ، أو التسامح فيها ، وانما كان من قبيل « الجرائم » التى تجر العار ، ليس على مقترفها فحسب بل وعلى الذين يسمعون بها ، ويسكتون عنها . !

● **فدوره البشع فى حرب فلسطين ، وفى قضية الذخيرة الفاسدة ، كان جريمة يستحيل اغتفارها .**

● **وموقفه من رئيس ديوان المحاسبة ، ومن اعضاء مجلس الشيوخ الذين اثاروا هذه القضية ، كان جريمة يستحيل اغتفارها .**

● **ووقوفه وراء الملوثين من رجال حاشيته ، بالحماية المستترة تارة ، وبالتكريم العلنى تارة اخرى ، كان جريمة يستحيل اغتفارها .**

● ولياليه الداعرة التى كان يقضيها فى رفقـة الساقطات من النساء ، ويريق فيها اموال الشعب على موائد القمـــار ، وتحت اقدام الغوانى كانت جريمة يستحيل اغتفارها ٠

● وسطوه العلنى على الاموال ، والاعراض ، كان جريمـــة يستحيل اغتفارها ٠

من خلال هذه الجرائم البشعة جميعها ، وغيرها ، كان مستحيلا ــ كل الاستحالة ــ ان ينجح « فاروق » فى استرداد اعتباره عند الشعب . واذن ، لم يكن امامـــه الا ان يتحدى ٠٠ وهو ما راح يفعله ٠

وهنا .. يقابلنا سؤال على غاية من الاهمية :

اعتمادا على من ٠٠ وعلى ماذا ٠٠ لجأ « فاروق » الى ذلك التحدى ٠ ؟

من المؤكد ان « فاروقا » لم يقدم على هذا التحدى الا معتمدا على اسناد ثلاثة :

● اولا : تاكـــده الكامل من وقوف الانجليز بجانبـــه ، ومن حمايتهم له من كل خطر شعبى يمكن أن يتهدده ٠

● ثانيا : تهالك الزعامات السياسية التى كانت قائمـــــة ، وانصرافها عن مجاهدته الى الجهاد من اجل كراسى الحكم التى كانت دائما ملك يمينه ٠٠ يخلع عنها من يشاء ، ويجلس عليهـا من يريد !٠

● ثالثا : ثقته المطلقة ــ وقد اثبتت له الايام انه كان واهما ــ ان الجيش معه ٠٠ وانه بالجيش يستطيع أن يضرب اية قوة تحدثها نفسها ، او تحملها الامها على الثورة عليه ، او التحرك ضده ٠

من هنا ٠٠ واعتمادا على هذه الاسناد الثلاثة ، مضى « فاروق » .. يتحدى ..

ومن هنا ايضا نستطيع ان نتفهم جيدا معنى هـــذا « الخبر » الذى نشرته « روز اليوسف » فى اول سبتمبر سنة ١٩٥١ ، وجاء فيه : « ان شخصية كبيرة تصطاف الان فى اوربا ٠ طلبت من الانجليز اطـلاق يدها لتأديب « الشعب المصرى » !!

ويتلقف واحد من اولئك الكتاب الاحرار الذين كانت قلوبهم تتمزق بمصائب الشعب ، وآلامه ، هذا الخبر المزرى ، وينشر عليه ردا فى « روز اليوسف » بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٥١ - بعنوان : « كن ملكا ٠٠ يا جورج » ٠ وتحت هذا العنوان ، راح الناس يقرأون « لخالد محمد خالد » :

« يتحدثون عن مشروعات جديدة يحاولون بها تكبيل الحرية الظاهره ٠٠ ويتحدثون عن ذلك الكبير الذى توسل الى « الانجليز » أن يطلقوا يده لتأديب الشعب المصرى الذى يخاف ، ولا يستحى !!٠

« وتكدح أذهان السادة كدحا عنيفا باحثة عن البطشة الكبرى التى تريحهم من الرواد الاحرار الذين مضوا فى طليعة وعى جارف ، يرتادون الطريق المحفوفة بالوحوش والذئاب !٠

« وتنظر اليهم الحرية ضاحكة ساخرة ٠ اذ قد علمها الزمن الطويل أن أعداءها دائما فى خدمتها طائعين او مكرهين ٠ فقديما - مثلا - أراد « فرعون غليظ » أن يبطش بطليعة حرة كفرت بالوهته ، فاستضافها الى مشانقه الظالمة ٠ ومضى الاحرار نحو المشانق كما يمضى العابد الى محرابه ، وكما يسارع العاشق الى موعد حب جميل ٠٠ شنقوا وهم يصرخون فى وجه الطاغية : يا فرعون ٠٠ اقض ما أنت قاض ٠٠ انما تقضى هذه الحياة الدنيا !!٠

« ترى ٠٠ هل بقى « فرعون » من الخالدين ؟٠٠ كلا ٠ بل لقد سار شعبه على ضوء المشاعل - أعنى المشانق - حتى وصل ٠ أما « فرعون » ، فابتلعه اليم وهو ذميم ٠ وبعد أن اشبعه الموج الثائر صفعا ، وركلا ، بصقه على الشاطىء ليظل عبرة زاجرة لاخوانه الفراعين ٠٠ ولكن الفراعين لا يعتبرون !٠

« ألا ليت المسئولين فى هذا البلد يقرأون التاريخ ٠ اذن لرأوا وراء كل ثورة قامت على ظهر هذا الكوكب ركاما هائلا من القوانين الظالمة !٠

« انظروا ٠٠٠ عندما همت بعض الولايات الامريكية بالتحرر من التاج البريطانى ، خشيت أم الملك « جورج الثالث » أن تنتقل عدوى الحرية الى بقية الولايات ٠٠ وتقدم بعض مشيرى الملك ،

وهمسوا فى أذنه ألا يصارع ارادة شعب آثر الحرية أو الموت. بيد أن أمه صرخت فى أذنه الاخرى : « كن ملكا يا جورج » !!

« وأصغى « جورج » لصوت أمه ، وأدرك قصدها .. فأسرف فى اصدار القوانين الباغية ، وتحدى الثوار تحديا قاسيا .. هنالك وقفت الثورة ينادى بعضها بعضا .. وقامت حرب الاستقلال التى أودت بسلطان « جورج » ، وخلصت أمريكا من « التاج » الى الابد !

« ومن الحكام من لا يجد بجواره « اما » تصيح به . « كن ملكا يا جورج .. ولكن غروره يقوم مقام هذه الام الغائبة (١) . فيضله ، ويغريه ، ويمعن فى استهتاره بحقوق الشعب ، وارادته، وسلطانه .

« الا أن مصارع السوء لفى انتظار هذا اللون العابث الضال من الحاكمين . وهم حين يذهبون لن تبكى عليهم السماء. والجولة الاخيرة من نصيب الحرية دائما .

« فليقض « فرعون » ماهو قاض . اما نحن الذين نذرنا حياتنا لحرية هذا الشعب ، فلن نتراجع أبدا . وسنلاقى جميع المحاولات المضادة بسخرية ، مرددين قول « ابن تيمية » العظيم: «ما يصنع أعدائى بى ؟ .. ان سجنى خلوة .. ونفيى نزهة .. وقتلى شهادة .. فماذا يصنع الاعداء بى ؟! »

***

عاد « فاروق » من رحلته الماجنة ، فى منتصف اكتوبر سنة ١٩٥٠ ، وقد انتوى فيما بينه وبين نفسه امرا . ذلك ان يتحدى .. وان يذهب فى التحدى الى اقصى ما يستطيع . فهل فعل «فاروق» ذلك لأنه حصل من «الانجليز» على « الاذن » به ؟ ام انه ـ كمقامر عظيم ـ احس بغريزة المقامر ، انه يلعب « ورقته الاخيرة » ، وان « قوانين اللعبة » تفرض عليه أن يلعب « ورقته الاخيرة » هذه ، بكل عنف المغامرة التى لا توسط فيها : فاما ان تجىء له بكل شىء .. واما ان تفقده كل شىء ؟!

---

(١) يلاحظ أن أم «فاروق» ـ الملكة نازلى ـ كانت «غائبة» حينذاك فى امريكا ، بعد أن اتخذتها لها مقرا .

على كل حال .. ما كاد « فاروق » يلتقط انفاسه من رحلة صيف سنة ١٩٥٠ ، حتى طلب من الحكومة ان تصرف له مرتبه لمدة سنة - ومقداره مائه الف جنيه - مقدما .. « لان جلالته مدين ، ويرغب في تسديد ديونه » . !!

نعم .. هكذا قال « ناظر الخاصة الملكية » في « خطابه السرى » الذى كتبه الى وزير المالية ، وقتئذ ، « فؤاد سراج الدين » . !

ومع مخالفة هذا الطلب الملكى لكل القوانين المالية التى تحكم الدولة ، فان الحكومة لم تفكر ، للحظة ، فى الاعتراض عليه . بل لقد بادرت الى تلبيته بأسرع مما كان الملك نفسه يتصور .

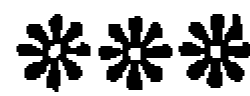
« وكان حرص وزير المالية : « فؤاد سراج الدين » .. على سرعة التلبية شديدا الى حد أنه لما لم يجد المبلغ المطلوب متوفرا فى خزانة وزارة المالية ، تفتق ذهنه عن ايجاد الحل السريع . كتب « خطابا سريا » الى وزير الداخلية طالبا اقتراض مرتب الملك لمدة سنة من بند « المصروفات السرية » المخصصة لهذه الوزارة ، لحين اعتماد الميزانية الجديدة للدولة .

« وفى ثوان ، وبغير تفكير طويل ، أو قصير - وافق وزير الداخلية على طلب وزير المالية . وذلك لسبب بسيط جداً . هو أن وزير الداخلية فى ذلك الوقت ، كان هو نفسه وزير المالية . وكان مستحيلا ، بطبيعة الحال ، أن يرفض « فؤاد سراج الدين » طلبا « لفؤاد سراج الدين » !!

ويضيف المؤرخ « عبد الرحمن الرافعى » - وهو من لايطعن أحد فى حرصه الشديد على تحرى الحقيقة - يضيف الى الواقعة السابقة التى رواها لى صديق لا أشك مطلقاً فى صدق روايته .. وكان - بحكم موقعه - واحدا من اثنين أو ثلاثة أتيح لهم أن يروا بأعينهم وثائقها : « ان الملك ، بعد أن حصل على مرتبه لمدة سنة ، مقدما ، طلب تحويله الى دولارات ، وارساله الى امريكا لايداعه فى أحد بنوكها باسمه . وايضا لم تتردد

« الحكومة » فى ان تصدر امرها للبنك الاهلى بتنفيذ رغبـــة الملك » !!

وهكذا عاونت الحكومة ــ من حيث تعلم ــ فى تهريب هذا المبلغ الضخم الى الخارج · فى وقت كانت الــدولة فيه اشد ما تكون احتياجا الى العملة الصعبة . خاصه وان رصيدها من الدولارات كان فى هبوط مســتمر بسبب المبالغ الضخمة التى كانت ترسل للملكة « نازلى » ــ والدة فاروق ــ والى اخته « فتحيه » اللتين كانتا قد اختارتا « امريكا » مكانا مختارا لاقامتهما · !!



لم تكن هذه على أية حال ، هى المرة الاولى التى يغتال فيها « فاروق » اموال الدولة على هذه الصورة ، التى لا يقدم عليها الا انسان له مثل طبــاعه . واذا كان « فاروق » ، فى هذه المرة ، قد رضى لنفسه أن يقبض مرتبه لمدة سنة مقدما ، بزعم انه « مدين » !! ــ وهو ما كان يتحتم ان ترده عنه حكومته ، ما دام هو لم يشأ ان يرد نفسه عنه ــ فانه ، فى مرات سبقت ، ســمح لنفسه ان يغتال اموال الدولة بنفس الطريقة التى يغتال بها « الافاقون المحترفون » اموال الاخرين . !!

حدث ذلك فى سنة ١٩٤٩ · حين فكر اولئك الذين كان قد جمعهم حوله ، وجعلهم اصحاب مشورته ، فى ان يدخلوا الى جيبه الملكى مبلغا ضخما من المال يسيل له لعابه ، ويزيده رضاء عليهم ، وتمسكا بهم ·· فزينوا له ان يبيع يخته الخاص « فخر البحار » الى الحكومة . وكان الملك قد اشترى هذا « اليخت » فى سنة ١٩٤٣ من صاحبه بمبلغ ٧٦ الف جنيه .

ولكن ·· ما هى الطريقة التى يمكن للملك ان يبيع بها يخته الخاص الى الحكومة ؟!

الأمر غاية فى البساطة . وقد تولاه رجاله هؤلاء نيابة عن سيدهم . حركوا اتباعهم فى السلاح البحرى لكى يزعموا ، اولا ، ان السلاح محتاج ، اشد الاحتياج ، الى قطعة بحرية تصلح « مدرسة » للتدريب العسكرى . ثم يرشحون ، ثانيا ، اليخت الملكى « فخر البحار » لهذا الغرض ، ثم يحددون ، ثالثا ، ثمنا تشتريه الحكومة به مقداره ١٧٦ الف جنيه !! اى بزيادة قدرها ١٠٠ الف جنيه عن ثمنه الاصلى .. بعد استعماله ست سنوات كاملة .!!

ومضى رجال البحرية ، من اتباع حاشية الملك ، ينفذون المسرحية ، حسبما رسمت لهم ، فأمروا ، بدورهم ، بتشكيل لجنة توافق على شراء « فخر البحار » ، طبقا للخطة الموضوعة — ورشحوا لرئاسة هذه اللجنة « القائمقام بحرى .. عز الدين عاطف » . وكانت هذه هى غلطتهم الوحيدة . فقد كان هذا الضابط الكبير ، على قدر من الشجاعة ، جعله يرفض رئاسة اللجنة المقترحة ، قائلا ان عنده لهذا الرفض سببين :

اولهما : ان اليخت لا يصلح للغرض المطلوب شراؤه من اجله ، فضلا عن انه لا توجد بحرية فى العالم تشترى يخوتا . !

ثانيهما : ان الثمن المقترح لشراء اليخت املى على اللجنة املاء ، وهو لا يقبل هذا الاملاء .

ابدى « عز الدين عاطف » هذا الاعتراض الخطير ، ثم قدم استقالته .. ومضى !

ولكن « اذناب » الملك كانوا إذكياء . فرأوا انهم لو قبلوا استقالة هذا الضابط الكبير ، فسوف يتيحون له الفرصة ليجعلها فضيحة تزكم الانوف . وعلى ذلك ، رفضوا قبول استقالته .. واصدروا قرار بلدبه بعيدا عن السلاح البحرى .. وعن « فخر البحار » وصفقته ..

ثم جاءوا بواحد من اولئك الذين اعتادوا أن يوافقوهم على أى شيء ، وعلى كل شيء ·· فوافق على اتمام الصفقة بصورتها التى اقترحها اذناب الملك · وبهذا دخل جيب « فاروق » فى لحظة ، مائة الف جنيه لا يستحق منها قرشا واحدا · !

كان ذلك عملا شائنا وخطيرا · ولكن هذا العمل الشائن ، والخطير ، كانت لاتزال له بقية ·· وكانت بقيته أكثر دناءة من العمل ذاته · فلقد قبض الملك ثمن اليخت من حكومته ، لكنه لم يسلمه لها بل ظل محتفظا به لنفسه ، كما كان عليه الوضع من قبل · وكل الذى حدث أنه « نصب » على حكومته · فقبض منها ١٠٠ الف جنيه ثمنا لشيء لم يبعه لها !!·

***

كانت هذه واحدة من ابشع جرائم السطو على اموال الدولة التى اقترفها « فاروق » ·· لكنها ، على كل حال ، لم تكن أبشع جرائمه ·· فلا يزال هناك ، وفى هذا المضمار ذاته ، جريمة اخرى اشد بشاعة من سابقتها .

ولئن دلت هاتان الجريمتان ·· تلك التى رويتها ، وهذه التى سوف ارويها ، الان ، على شيء ·· فانما تدلان على ان « فاروقا » ـ وان كان « ملكا » ـ الا انه كان مجبولا على طبيعة اللصوص الذين لا يخشون شيئا ·· ولا يحترمون قانونا ·· ولا يترددون فى الاقدام على اقتراف اى جرم مهما بلغ من دناءة · !

كانت الباخرة « المحروسة » هى بطلة هذه الجريمة الثانية ·· و « المحروسة » ـ « الحرية » الان ـ يخت ملكى اخر بنى لخديو مصر فى سنة ١٨٧٠ · وفى سنة ١٩٤٦ ، فكر «فاروق» فى اصلاح هذا «اليخت» الذى انتقل اليه عن طريق الوراثة ·· وكان العهد قد طال عليه ، وبدأ البلى يتسرب اليه ، ويتهدد بنيانه · فعرضه «فاروق» على البحرية البريطانية فى مالطة لاصلاحه ، فقدرت هذه

تكاليف العملية بمبلغ عشرين الف جنيه ، على ان تضمن اليخت بعد ذلك لمدة ١٥ سنة ، وهى اقصى مدة تقدرها البحرية الحديثة لاعمار اليخوت • ومع ان المبلغ الـــذى طلبته البحرية البريطانية لم يكن بسيطا ، الا ان «فاروقا» فاجأ مجلس الوزراء بطلب مليون جنيه ــ بالدولارات ــ لاصلاح « اليخت » لدى شركة ايطالية معينة •• وبدون مناقصة !! وكان لهــــذه الشركـــة فى مصر سمساران معروفان • هما : «انطوان بوللى» •• و « ادمون جهلان »! واول هذين الرجلين هو «مدير الشئون الخصوصية» للملك والثانى « سمساره الخاص » • ومنظم رحلاته الماجنة الى اوربا • !

وعرض طلب « فاروق » على رئيس مجــلس الوزراء ، وقتئذ ، « المرحوم محمود فهمى النقراشى » • ومن الانصاف لرجل رحل عن دنيانا ، أن نقرر ان موقف « النقراشى » من هذا المطلب الملكى كان موقفا رائعا ، وجديرا بأن يسجل له كرجل ، وكرئيس مسئول • فلقد رفض الرجـــــل الموافقة على طلب الملك • ولم يكتف بأن يكون الرفض شفاها بل كتب الى الملك يقول :

« فى الوقت الذى يشتد فيه التذمر من الفاقة التى تحيط بأفراد الشعب ، فان الناس لن يقبلوا منا التفكير فى مثل هذا العمل ، ولذلك ، فانى لا أستطيع ــ مادمت رئيسا للوزراء ــ أن أوافق على طلب كهذا ، واستقالتى بين يدى جلالتكم » !

تسلم الملك رد « النقراشى » وراح يتربص • اخـــذ يتحين الفرصة التى تمكنه من توقيع العقاب على رئيس الوزراء الذى جرؤ على ان يقول له : « لا » •• !

لكن القدر لم يتح « لفاروق » فرصة النيل من كرامة « النقراشى » ، فلقد اغتيل الرجل قبل ان يتمكن «فاروق» من ايذاء كرامته بأية صورة من صور الايذاء • وحـــل

محله فى رئاسة الوزارة زميله ، وصديقه .. « أبراهيم عبد الهادى » رئيس الديوان الملكى .

كان موقف رئيس الحكومة الجديد دقيقا تجاه تلك « الرغبة الملكية » التى رفض « النقراشى » الموافقة عليها . فقد جعلته الظروف بمثابة « الاب الشرعى » لهذه الرغبة التى ولدت فى احضانه ، حين كان رئيسا للديوان الملكى، وهو الذى كتب بها ــ بوصفه رئيسا للديوان ــ الى زميله رئيس الحكومة . فكيف يتنكر ، بعد ان صار رئيسا للحكومة ، لما سبق ووافق عليه عندما كان رئيســـا للديوان ؟!

ويبدو ان « ابراهيم عبد الهادى » اراد ان يكون وفيا لموقف صديقه وزميله ، « النقراشى » ، ووفيا فى نفس الوقت لما سبق له هو نفسه اقراره .. فوافق ، من حيث المبدأ ، على اصلاح « المحروسة » ، لكنه احاط موافقته هذه بعدة تحفظات ، اهمها : اجراء مناقصة عالمية لاصلاحها واستشارة خبراء عالميين فيما اذا كان شراء « يخت » جديد، انسب لخزانة الدولة من اصلاح « المحروسة » بهـــذا المبلغ الضخم المطلوب لاصلاحها .

الا أن شيئا من ذلك لم يتم .. فقد عصفت العواصف الملكية بوزارة « ابراهيم عبد الهادى » ، وحلت محلهـــا وزارة « حسين سرى » التى تمت فى عهدها ، صفقة اليخت « فخر البحار » . ولكن وزارة « حسين سرى » هذه لم تلبث حتى استقالت من الحكم تمشيا مع نتيجة الانتخابات التى جاءت « بالوفد » الى الحكم بأغلبية شعبية ساحقة.



كان ذلك فى سنة ١٩٥٠ ــ وكانت « حكومة الوفد » ــ قد جاءت الى الحكم ، كما قلنا قبلا ــ وفى طليعـــة اهدافها ان تكون اطوع للملك من بنانه . ! فاذا بها ،

حين عرض عليها امر المليون جنيه التى طلبهـــا الملك لاصـــلاح « محروسته » ، تحذف كل التحفظات التى كانت « وزارة عبد الهادي » قد وضعتها على مطلب الملك، وتوافق على المبلغ المطلوب ، بل وتضيف اليه من عندها ، مبلغ ٢٠٫٠٠٠ جنيه • قالت فى تبرير صرفها : « آنهـا فرق العملة الذى نشأ نتيجة لتخفيض قيمة الجنيـــه المصرى • !! »

تم هـــذا كله فى الوقت الـــذى كانت ميزانية الدولة تعانى فيه عجزا مقداره ١٦ مليون جنيه !!

ولم تكن هذه ، على أية حال ، هى الهدية الوحيدة التى اهدتها « حكومة الوفد » من اموال الشعب لفاروق • بل كانت هناك هدية اخرى اكبر من هذه واضـــخم • قدمتها الحكومة للملك فى صورة اعفاء •• أو « صهينة مقصودة » •• عن مطالبة الملك بضريبة الايراد العام المستحقة عليه • وكانت هذه الضريبة تقدر بعدة ملايين من الجنيهات • !!

وفي امكاننا ، بغير تجاوز للحقيقـــة ، ان نعتبر ان « سنة ١٩٥١ » كانت بداية النهاية بالنسبة « للوفد » وبالنسبة للملك معا • اذ راح الوفد ، من جهته ، يوافق — بغير قيد ولا شرط — على كل طلبات « فاروق » ، وعلى كل رغباته ، مهما كان فيها من مخالفات للدســتور ، وللقانون ، وللاصول • الامر الذى افقد الوفد جزءا كبيرا من رصيده ، ان لم يكن كل رصيده ، باعتباره القـــوة الشعبية التى كانت قادرة على الوقوف ، بحزم ، فى وجه الملك ، وفى وجه ما كان يبديه من طلبـــات ورغبات • خاصة وان القسم الاكبر من هذه الطلبات ، أو الرغبات ، لم يكن يستند لا الى حق ، ولا الى قانون ! ••

اما من جهة « الملك » ، فليس من شك فى ان مسارعة

« حكومة الوفد » الى تلبية رغباته وطلباته غير المشروعة ، على هذه الصورة من المسارعة التى لم يكن هـو نفسه يتوقعها منها ، قد زادته سعارا ، وفتحت شهيته لكل ما هو ليس من حقه . سواء كان ذلك فى الرغبات التى راح يبديها ، أو فى الطلبات التى راح يطلبها ، أو حتى فى القرارات الكبرى التى راح يصدرها من ورائهـا ، وبغير علمها !!

وقد ادى ذلك كله الى تزايد حجم السخط عليه ، والكراهة له ، واستعجال يوم الخلاص منه .

وهناك رأيان فى تفسير مسارعة حكومة الوفد ، فى سنة ١٩٥٠ ، الى تلبية جميع رغبات الملك ، وجميـع طلباته ، على هذا النحو الذى بيناه .

● رأى يقول بأن « الوفد » كان يفعل هذا لانه كان حريصا على أن يشترى بقاءه فى الحكم ـ أطول مدة ممكنة ـ بأى ثمن ، وبكل ثمن ! ، حتى يعوض ما فاته خلال الفترة الطويلة التى اقصى فيها عن الحكم . ومن ثم ، اختار سبيل الملاينـة .. والمسايرة .. والموافقة على اى شىء ، وسيلة لتحقيق هذا الهدف .

● ورأى ثان يقول بأن الوفد كان يقصد من مسارعته الى تلبية رغبات الملك ، الى تعريته ، واضعافه ، بحيث يستشعر حاجتـه الدائمة الى وجود « الوفد » بجانبه ، بوصفه قوة شعبية قادرة على أن توفر له برغم كل شىء ، قدرا من تاييد الجماهير يحمله ـ اى الملك ـ على الحرص عليه ، فلا يستغنى عنه بالسرعة التى اعتاد أن يستغنى عنه بها .

والرأى الاول ، فى تقديرى ، هو الصحيح . لانه يتفق تماما ومنطق الاحداث التى جرت خلال السنتين اللتين حكم فيهما « الوفد » حكمه الاخير . فلو ان « حكومة الوفد » كانت تقصد ، حقيقة ، الى تعرية الملك ، والى اضعافه ، كما يقول بذلك أصحاب الرأى الثانى ، لما دخلت مع الذين كانوا يهـاجمون الملك ، ويعرونه ، ويكشفون للناس عن فضائحه ، وفساده ، تلك المعركة

الحامية التى بدأتها فى مجلس الشيوخ ضد « مصطفى مرعى » ، وزملائه ممن وقفوا بجانبه يدعمون وقفتـــه التاريخية من الملك ، وفساده · ولما طاردت « الصحف الحرة » ، « والكتاب الاحرار » ، بكل ذلك العنف الذى راحت تطاردهم به ، والذى تمثل فى مصادرة الصحف واحدة تلو اخرى ·· وفى تقديم « الكتاب الاحرار » الى المحاكمة مرات ، ومرات · ولما جاوزت ذلك كله الى حد التفكير فى الغاء « مجلس الدولة » ، لانه – اى مجلس الدولة – كان ينصف « الصحف الحرة » و « الصحفيين الاحرار » ، عندما كانوا يحتكمون اليه من عسف الحكومة بهم · !

والحق ان دور « الصحافة الحرة » ، ودور « الكتاب الاحرار » فى تلك المرحلة الخطيرة من تاريخنا ، جدير بأن يسجل لها ، ولهم فى انصع الصفحات – بأحرف من نور · فلقد كانت هى – أعنى « الصحافة الحرة » – وكانوا هم – أعنى « الـكتاب الاحرار » – اول من علق الجرس فى رقبة القط » ·· اول من صرخ باعلى الصوت فى وجه الطغاة ·· اول من رفع المعول الذى هدم المعبد على رؤوس كهنته ·

وبسبب هذا كله ·· بسبب هذه الوقفة المجيدة التى وقفتها « الصحافة الحرة » ضد الطغاة والطغيان · راح الملك ·· ومن ورائه حكومته ، يكدحون اذهانهم بحثا عن « قيد من حديد » يغللون به اقدامها ، ويقيدون به خطاها· لكنهم لم ينجحوا · لانها كانت قد صارت اقوى منهم ·· واشد بأسا من « الحديد » الذى فكروا فى ان يصنعوا منه قيدا يغللون به اقدامها ، ويقيدون به خطـــاها ·

وسوف نصل الى هذا الدور المجيد – تفصيلا – فى موضعه من تسلسل الاحداث ·

استهل « فاروق » سنة ١٩٥١ – وهي السنة التي اعتبرناها بداية النهاية ، بالنسبة له ٠٠ وبالنسبة لحكومة الوفد معا – استهلها بتلك السقطة البشعة التي تمثلت في قبض مرتبه لمدة سنة ، مقدما ، وتحويله الى دولارات ٠ وارساله الى امريكا لايداعه باسمه فى احد بنوكها !!

ثم ما كاد شهر فبراير من تلك السنة يحل ، حتى كان الملك قد اتبع تلك السقطة البشعة بسقطة خلقية جديدة اكثر بشاعة من سابقتها !

لقد اراد ان يتزوج ٠٠ فلم يجد بين فتيات اسرته جميعا ، ولا بين فتيات مصر كلهن من تصلح للزواج منه غير فتاة كانت مخطوبة ، بالفعل ، لرجل آخر ٠٠ !

وكان الامر قد جاوز بالفتاة ، وخطيبها ، مرحلة الخطبة الى تحديد يوم الزواج ، وتوزيع بطاقات الدعوة اليه على أصدقاء الطرفين ٠

كانت « ناريمان صادق » – كريمة حسين فهمى صادق « بك » ٠٠ سكرتير عام وزارة المواصلات وقتئذ – – وهي الفتاة التي اختطفها « فاروق » من خطيبها – قد ذهبت ، بصحبة والدتها ، الى محل « احمد نجيب الجواهرجى » لتختار « خاتم الزواج » ٠ فلما رآها صاحب المحل – وكان واحدا من كثيرين كلفهم الملك بالبحث عن فتاة تصلح زوجة له – راقت فى عينيه كزوجة لفاروق ، فعمل على عودتها فى اليوم التالى الى محله ٠٠ وفى الموعد المحدد ، كان « فاروق » هناك !!

رأى الملك « ناريمان صادق » فى محل الجواهرجى ، فاعجبته ٠ ولعلها لم تعجبه الا لانها كانت مخطوبة لرجل آخر ٠ فلقد كان « فاروق » مجنونا بالسطو على ما يملك الاخرون !!؟

وعلى ذلك ، صدرت « الارادة الملكية » – الى والدى « ناريمان صادق » بفسخ الخطبة القديمة ، وبرد دبلة

الخطوبة الى صاحبها .. ثم اعلن « فاروق » على الناس انه خطب « ناريمان » لنفسه . !!

ولم يسمع الناس ـ حين ترامت اليهم تفاصيل هذه الخطبة الملكية ، وملابساتها ـ الا ان يزدادوا احتقارا لهذا الملك الذى سولت له نفسه ، اعتمادا على سلطانه كملك ، ان يخطف فتاة من خطيبها . فقد كان ذلك العمل جديرا بان يجلب الاحتقار لاى رجل عادى يقدم عليه . فما بالك اذا كان من اقدم على ذلك العمل الصغير ، والحقير معا ، هو الملك الذى يفترض فيه ان يكون قدوة للاخرين ، فى كل ما يصدر عنه من تصرفات ، وفعال ؟!

وبينما كانت « ناريمان صادق » ماضية فى استعدادها للذهاب الى القصر الملكى ، فى السادس من مايو سنة ١٩٥١ ـ وهو اليوم الذى تحدد كموعد لزفافها الى الملك ـ صدرت « اللواء الجديد » فى الرابع والعشرين من ابريل ، وعلى صفحتها الاخيرة مقال كتبه : « احمد شوقى » .. جعل عنوانه : « الملكة فى طريقها الى المقصلة » . !!

كان المقال يعنى « مارى انطوانيت » .. ملكة فرنسا» . لكن عنوان المقال ، وتوقيت نشره ، كانا يعنيان « لملكة مصر » الشىء الكثير .

ويهمك ، ولا شك ، أن تعرف ان تكاليف حفلة زفاف « ناريمان » الى « فاروق » بلغت ٧٣٤٨٣ر٧٣ جنيها !! كما بلغ ثمن الملابس التى اشترتها الملكة الجديدة ، من ايطاليا ، ٥٥٠٥ جنيه . أما فستان الزفاف وحده فقد بلغت تكاليفه ٥٠٠ جنيه !! وكل ذلك بأسعار تلك الايام طبعا .

***

ولقد تصور بعض الناس ـ ولعلها كانت امنية يرجونها ـ ان يكون زواج الملك ، بداية جديدة لعهد جديد يبدأه « فاروق » فى حياته الخاصة ، وفى

حياته العامة على السواء . ولم يكن هناك ما هو اشد بعدا عن الحقيقة من هذا التصور . ذلك لان « الفساد » كان قد سرى فى دماء « فاروق » مسرى السرطان فى الجسد . ولقد يهدأ السرطان احيانا ، ولعله قد يستكين، احيانا اخرى ، استجابة للعلاجات المخففة . لكنه ، ابدا لا يبرح الجسد الذى انشب فيه مخالبه الا بالاجهاز عليه . ومن هنا لم يكن غريبا ان يرى الناس ان حياة « فاروق » الخاصة ، والعامة ـ بعد زواجه الثانى ـ لم تكن الا استمرارا ، امينا ، ودقيقا ، لحياته قبل الزواج . ولو ان « فاروقا » كان مستعدا ، حقا ، لان يصلح بالزواج ما فسد من امره ، لفعل ذلك وهو مرتبط بزوجته الاولى « الملكة فريدة » .. لكن الذى حدث هو ان الفساد اخذ ينهشه نهشا « قاسيا » خلال الفترة التى كان مرتبطا فيها بهذه الزوجة الفاضلة التى توفر لها من الاحتشام ،ومن لاخلاق ، ومن عراقة الاصل ، ما جعلها تحاول جاهدة ، وصادقة ، ومخلصة ان تنقذه من براثن ذلك الفساد الذى اخذ ينهشه . فلما لم تنجح محاولاتها ، ابت عليهـــا كرامتها ان تستمر فى العيش هى وذلك الزوج الفاسد تحت سقف واحد . وفضلت ان تسترد حريتها ، وتعود سيدة عادية من عامة الناس ، على ان تعيش ملكة متوجة داخل قصر ملكى يزحف عليه الفساد من كل جانب .

وفى هذا تأكيد على ان القضية اولا ، واساسا ، انما هى قضية « طباع » . واذ كان « فاروق » فاسدا بطبعه فان احدا لم يستطع ان يصلحه .. كذلك لم يستطع احد ان يحمله على ان يضع ـ فى اضعف الايمان ـ بعض القيود على فساده !

على ان « فاروقا » لم يكن ملكا فاسدا فحسب . بل

كان ، اصلا ، « انسانا عاقا » بكل ما فى « العقوق » من قسوة .. ومن ظلم ، وظلام !!

ولقد بدا « فاروق » كانسان عاق ـ بنفسه ، فعقها اقسى عقوق حين اوردها ـ بكل القسوة واللامبالاة ـ موارد التلف والضياع .. وكانه مسلط عليها ، أو كانه مكلف من الشيطان ـ تكليفا ـ بذلك ، ومن ثم ، كان طبيعيا للغاية أن نجده « زوجا عاقا » بزوجته الاولى التى تزوجها عن حب ، وعاقا بزوجته الثانية التى تزوجها عن سطو .. فلا يتردد أن يجرح هذه ، وتلك ، فى كرامتيهما ، وفى انوثتيهما ، اعمق الجراح بمصاحبته للساقطات من النســـاء ، وبائعات الهوى فى عرض الطريق ، او فى جانب الطريق ، لا فرق ـ بلا اية مراعاة ، وبلا اى حرص على مشاعر احداهمـــا تلو الاخرى !.

كـــذلك كان فاروق « ملكا عاقا » انزل بشعبه ، اقسى الوان العقوق ، حين راح يستلبه ماله ، وكرامته ، ويجر عليه بفضائحه ، وباستهتاره ومجونه ـ ذلك العار الذى جعل الشعب محل سخرية الساخرين ، وهزء الهازئين !!.

كذلك كان فاروق « قائدا عاقا » . افرغ فى جيشه اسود ما لديه من عقوق ، حين امره ، فى سنة ١٩٤٨ ، بدخول حرب فلسطين بغير ادنى استعداد لها ، ارضاء لشهواته من ناحية ، وامتثـــالا لاوامر اسياده الانجليز من ناحية اخرى . فمن المؤكد ان «فاروقا» لم يامر الجيش بدخول تلك الحرب الا تنفيذا لرغبة الانجليز الذين ربما يكونون قد صارحوه برغبتهم هذه مباشرة . وربما يكونون قد تركوها لعملائهم الــــذين بثوهم من حوله ، ومكنوا لهم من ركوب اكتافه ، لكى يتولوا اقناعه بتنفيذها ، فيتحقق للانجليز من ورائها عدة اهداف ، لا هدف واحد . منها ، اولا ، تحطيم الجيش. ومنها ، ثانيا ، اضاعة ثقة الشعب بنفسه ، وبجيشه . ومنهـــا ، ثالثا ، اضاعة ثقة الشعوب العربية بزعامة مصر . ومنها رابعا ، ترسيخ اليقين عنـــد « فاروق » نفسه بانهم ـ اعنى الانجليز ـ لايزالون هم القوة الوحيدة التى باستطاعته الاعتماد عليها ، والاحتماء بها .

ولقد كان « فاروق » بعد هذا كله ، او قبل هذا كله ـ « ابنا عاقا » .. عق امه اشد عقوق حين لم يفكر فى السؤال عنها ، وهى طريحة الفراش فى احد مستشفيات

امريكا اثر جراحة خطيرة اشرفت خلالها على الموت . صحيح ان سلوك هذه الام نفسها كان شائنا . ولكن ،هل كان «فاروق» نفسه شريفا ، أو عفيفا ، حتى يمكن القول ان عدم سؤاله عنها كان مرجعه الى غضبه من سلوكها ، وليس الى ما تأصل فيه هو من عقوق ؟!

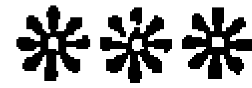
ولقد كشفت « الملكة نازلى » عن حجم هذا « العقوق » الذى كان محتشدا داخل اعماق ابنها ، فى حديث لها مع صحفى ممن كانوا ملتصقين به ، وبها .. وكان قد ذهب اليها فى امريكا فى محاولة لمصالحتها مع ابنها ـ كشفت الام عن المدى الذى وصل اليه عقوق « فاروق » كابن ، حين قالت له :

ـ قد يعتذر « فاروق » بأنه مشغول . قد يعتذر بأن أمور الدولة قد أنسته كل شىء حتى امه . وكنت على استعداد أن اقبل هذا العذر ، فكل أم تبحث لابنائها عن اعذار وهمية تستر بها تصرفاتهم. ولكن « فاروقا » لم يكن له عذر . فقد كان يتكلم يوميا مع مستشفى « مايوكلينك » حيث كنت أرقد . ولكنه لم يكن يتكلم معى ، ولا مع أخته الاميرة فايقة ، ولا مع أخته الاميرة فتحية ، ولا مع كبيرة المرضات ، ولا مع الطبيب الذى كان يعالجنى . وانما كان يتحدث مع « السيدة ناهد رشاد » .. فقد كانت «ناهد» تجرى عملية جراحية فى نفس الوقت الذى كنت اجرى فيه عمليتى ، فكان « فاروق » يتحدث يوميا معها مستفسرا عن صحتها !. ولم يفكر فى أن يحدثنى ـ أنا أمه ـ فى التليفون مرة واحدة !!.

« وكانت المرضات يجئن الى ، ويقلن لى : ان الملك كان يتحدث الان ، مع « ناهد » فى التليفون . وكنت أحاول أن أدافع عن كرامة ابنى .. فكنت ادعى ، كذبا ، انه كان يتحدث مع « ناهد رشاد » مستفسرا عن صحتى لانه لا يريد أن يتعبنى ، ويخشى ان تتأثر صحتى عندما اسمع صوته يحدثنى من وراء البحار ، وانا راقدة على فراشى ، بين الحياة والموت !!.

« ولم اغضب على « ناهد رشاد » بسبب ما كان يحدث ، بل لقد حرصت أن أقوم بالواجب معها بصفتها « وصيفة الملكة » ، فى

الوقت الذى كنت أعرف فيه أنه ليست هناك ملكة لتكون لهـــا وصيفة ؟!!



انسان هذه هى جميع جوانب صورته . كان مستحيلا ان يكون هناك أقل امل فى ان ينزل نفسه ، ولا فى ان ينزله الاخرون ، من فوق ظهر ذلك « الحصان الوحشى » الذى ركبه ، وراح يعدو به ، فى سرعة مجنونة ، على طريق الهاوية . !

ومن هنا ، كانت سنة ١٩٥١ ــ على الرغم من زواجه الثانى ــ استمرارا لكل ما كان قبلها .. كمـــا كانت اتصالا بكل ما جاء بعدها . !

فما كاد يتم فى السادس من مايو من تلك السنة ، زواجه من « ناريمان » حتى اصطحبها معه على ظهر اليخت الملكى : « فخر البحار » ، متوجهاً الى « كابرى » ليقضيا بين مغانيها .. شهر العسل . !!

ولـكن « فخـر البحـار » ما كاد يلقى مراسـيه « بكابرى » ، حتى كان « فاروق » قد نسى كل شىء ... نسى نفسه ، ونسى عروسـه الجـديدة ، ونسى « شهر العسل » ، ونسى كل نذر الخطر التى حملتها له سنة ١٩٥٠ ، وراح يصل ما كان قد انقطع بعودته الى مصر فى منتصف اكتوبر من تلك السنة .. عاد مرة اخرى ــ وبسعار اشد ــ الى القمار : والى الغوانى ، والى الفضائح التى كانت صحف العالم كله قد تعودتها منه ، وعودت عليها قراءها .. !!

واذ كان لرحلة « فاروق » هذه قيمة خاصة ، فقيمتها فى انها كانت تأكيدا قاطعا على انه قد باع نفسه للشيطان بيعا كاملا ، وانه كان عازما ــ عزما اكيدا ــ على الا يسترجع نفسه من بين أحضان الشيطان .. مهما ارتفع

من حوله الموج .. وتفاقمت النذر .

وما من شك فى ان المأساة الحقيقية فى حياة هذا الملك ، هى انه افتقد فى جميع المحيطين به ــ ومنذ ان رأت عيناه النور ــ النجم الذى يمكن ان يهديه . وحين لاح له هذا النجم ، لبعض الوقت ، فى صورة زوجتـــه الاولى .. الملكة فريدة .. ما لبث ــ بحكم ما ورث من طباع ــ ان ضاق به .. واشاح بوجهه عنه ، فى تصميم شيطانى ، على ان يضل ، وان يغوى .. !!

وبينما كان « فاروق » يفرغ على شواطىء «كابرى» وتحت أقدام غوانيها ، وفى قلب مراقصها وملاهيها ، كل ما لديه من غى ، ومن ضلال .. كان الشعب هنا يسمع ، ويعجب ، ويسائل نفسه : أهذا ممكن .. ؟! ايستطيع ذلك الرجل ان يتجاهل ــ فى استهتاره الاعمى ــ كل تلك النذر التى أخذت ترعد على طريقه ، ويعيش رحلته هذه بنفس الجنون الذى عاش به رحلته السابقة.؟!

واخذت صحف العالم تتولى الــرد ، اولا بأول ، على ما راح الشعب يسائل به نفسه :

● « ففى أول يوليو ســـنة ١٩٥١ ، نشرت صحيفة « امباير نيوز » رسالة لمراسلها الخاص « نورمان برايس » الذى كان ، وقتئذ ، موجودا فى كابرى . جاء فيها :

« لم يحدث فى تاريخ العالم ، أن تعرض ملك لمثل ما تعرض له ، « فاروق » من حملات النقد والتجريح . فهو متهم بانه طاغية يحيط نفسه بجو فاسد مفضوح . وهو متهم بانه خطف زوجتـــه الجديدة « ناريمان صادق » من بين ذراعى خطيبها . وهو متهم بانه طلق زوجته السابقة « فريدة » لانها لم تلد له ولدا . وهــو متهم بانه مقامر سفيه . ولايكاد يمضى يوم دون ان يتلقى «فاروق» سيلا من الرسائل المقذعة المهينة ــ واكثرها من انجلترا ــ وقــد سمح لى « فاروق » بالاطلاع على بعضها ، وقرات فى احداها ، وكانت من مواطن بريطانى من « مانشستر » ما يلى : اذا حدثتك نفسك بالقدوم الى انجلترا ، وحاولت ان تمنعنى من التقاط صورة

الكتك ، فانى سألقنك درسا لن تنساه » !!

وكتبت جريدة « صنداى اكسبريس » بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٩٥١ ـ تقول :

« لم يسبق للعصور الحديثة أن شهدت مثل هذا البذخ والاسراف اللذين شهدهما خلال الشهرين اللذين انقضيا على سهر العسل الذى يمضيه « الملك فاروق » مع عروسه !.

« ففى كل يوم مضى ، منذ أن غادر اليخت « فخر البحار » المياه المصرية ، خرجت ألوف من الجنيهات من جيب الملك لاحاطة فاروق وزوجته بمظاهر الترف والابهة !!..

« ولا تشمل هذه الالوف التى تنفق كل يوم ، بغير حساب ، مبلغ الـ ٧٠٠ ألف جنيه التى دفعها « فاروق » ثمنا لقطار خاص ، أمر بصنعه ، فى مصانع « تورين » ، كما أنها لا تشمل مبلغ الـ ٥٠٠ الف جنيه التى دفعها لبناء يخت جديد يحل محل « فخر البحار » !!.

ومضت « الصنداى اكسبريس » فى وصف حياة السفه واللامسئولية التى كان يحياها « ملك مصر » التى كانت الغالبية العظمى من أبنائها الفلاحين والعمال يتضورون جوعا ـ قائلة :

« ولقد بدأ هذا السيل المتدفق من الاموال فى يوم ٧ يونيو ، عندما وصل اليخت الملكى الى « تورمنيا » بصقلية ، حيث نزل « فاروق » وأفراد حاشيته بفندق « سان دومنكو » . وكان هذا الفندق رخيص الاجر نسبيا .. فقد دفع « فاروق » تسعمائة جنيه نظير اقامته به لمدة ستة أيام فقط ، انتقل بعدها الى « كابرى » !

● وتنقل جريدة « الديلى امريكان » عن جريدة « الصنداى اكسبريس » ـ سباق بين الصحف ـ وصف وصول « فاروق » الى « كابرى » ، وحياته فيها ، بقولها :

« استأجر « فاروق » فندق « قيصر اغسطس » بأكمله . ويتكون هذا الفندق من ١٥٠ حجرة ، أجرة المبيت فيها ١٢٠٠ جنيه عن الليلة الواحدة . غير نفقات الاقامة والأكل . وقد دفع « فاروق »

ـ فى عشرين يوما ـ ٢٤٠٠٠ جنيه نظير المبيت فقط !!

● وتدلى مجلة « باراد » بدلوها فى ذلك السباق الصحفى الذى كان دائرا على اشده حول حياة ذلك الملك الضليل ـ فتقول :

« يقضى الملك فاروق فى أوربا أعظم « شهر عسل » عرفه القرن العشرون • وفى كل ليلة •• وبينما زوجته الصغيرة تنام نوما هادئا فى فندق « كارلتون » يكون هو غارقا الى أذنيه فى لعب « البكاراه » و « الروليت » ••• وفى دفع آلاف الدولارات الى المائدة • وهو يقول ضاحكا : الناس يقولون أننى أخسر أموالا كثيرة فى اللعب • ولكنى املك أكثر مما يتصورون •• !!

وتضيف المجلة :

« لقد خسر الملك ، فى تسع ليال فقط ، مبلغ ثلثمائة الف دولار • اما نفقاته ، على هذا النحو • خلال ثلاثة شهور ، فهذا ما لا يمكن أحصاؤه • ولقد أصبح مألوفا ، فى أوربا كلها ، منظر هذا الملك الذى لا يعنيه سوى قضاء أوقات بهيجة يدفع ثمنها ملايين التعساء من أبناء مصر » !!•• (١)

***

هذا قليل من كثير .. كثير جدا .. راحت صحف أوربا ، وامريكا ، يسابق بعضها بعضا فى نشره عن ذلك الملك الذى بلغ من الجنون ، ومن السفه ، ومن التحدى لمشاعر الشعب حدا لم يصل اليه « شارل الاول » ملك انجلترا ، الذى شنقه شعبه •• ولا « لويس السادس عشر » ، ملك فرنسا الذى أجتثت « المقصلة » عنقه • ومعها عنق زوجته « الملكة مارى أنطوانيت » •

(١) قدرت تكاليف شهر العسل بألف جنيه لليوم الواحد، وقد استمر « شهر العسل » هذا ١٣ اسبوعا .. !!! وبذلك يصبح هذا الشهر اطول شهر فى التاريخ •• !!

ولم تكن « الصحف الحرة » فى مصر ، بعيدة عن متابعة فساد الملك ، ومباذلة ، ومجونة . لكنها — من خلال الرقابة الصحفية الصارمة التى كانت مفروضة عليها ، خاصة بالنسبة لاخبار الملك — لم تكن قادرة على المشاركة فى ذلك السباق الصحفى المحموم الذى كان دائرا بين صحف أوربا ، وامريكا ، حول مباذل الملك ، الا انها فى حدود قدرتها على اختراق تلك الرقابة الصارمة ، كانت تفعل المستحيل لكى تساعد الشعب على أن ينفذ بعيونه من خلال ذلك الضباب الكثيف الذى أريد أن يكون « حجابا حاجزا » يحول بين الشعب وبين اطلاعه على ما يقترفه ملكه من فساد ومجون . !

ففى ٢٨ اغسطس سنة ١٩٥١ — نشرت «روزاليوسف» تحت عنوان : « قيصر السينما يلعب القمار سبع ساعات » الخبر التالى ، من مراسلها فى « مونت كارلو » .

« يتحدث الناس فى « مونت كارلو » .. وفى « كان » .. وفى كازينو « بالم بيتش » عن شخصية مستر « داريل زانوك » المنتج السينمائى الامريكى ، الملقب « بقيصر السينما » .

« وقد حدث أن كان « مستر زانوك » يسير فى احدى الطرقات الجميلة المؤدية الى الشاطىء ، حينما التقى بشخصية مصرية كبيرة . ودار بينهما ، بالحرف الواحد ، الحديث التالى :

« قالت الشخصية المصرية :

— الى أين أنت ذاهب ؟

فقال « زانوك » :

— لماذا ؟!

— أريد أن ارافقك ..

— ولماذا ؟

— ألديك اعتراض على ذلك ؟

— من انت أولا ؟

— أنا فلان ..

— آه .. لقد سمعت عنك .. وقرأت عنك أيضا .

— اذن تعال ...

« وركب الاثنان فى سيارة « كاديلاك » فاخرة ·· ثم اتجها معا الى الكازينو ، وجلسا الى احدى موائد القمار !·

« ولعب الاثنان القمار سبع ساعات متواصلة ، خسرت فيها الشخصية المصرية عدة ملايين من الفرنكات ، قدرتها بعض الصحف بمبلغ مائة ألف دولار !!

« وقد بعثرت الشخصية المصرية ما تبقى معها على بعض الجرسونات والزبائن الذين كانوا يصفقون للخاسرين المقامرين !! »

***

وفى مكان آخر من نفس العدد ، نشرت «روزاليوسف» الخبر التالى ـ من مراسلها فى « الكوت دازير » تحت عنوان : « الفتاة التى تجلس على اليمين » :

« جاكلين دونى ·· فتاة رائعة الجمال ، زارت مصر عام ١٩٤٩ ··· عندما كانت ملكة جمال أوربا فى ذلك العام ·

« وقد صرحت لى « جاكلين » أنها سوف تسافر الى مصر قريبا ·· فان لها فى مصر ، كما تقول ، أصدقاء عظاما !

« وجاكلين دونى ·· تجلس الان ـ دائما فى مقعد معين لا تبرحه ، ولا تغيره ، ويعد لها بصفة مستمرة ، وهذا المقعد على الطرف الايمن من تراس « بالم بيتش » بعيدا عن كل الجالسين !·

« ويحدث فى بعض الليالى أن يزدحم الكازينو ، فتضطر ادارته الى أن تكتب ورقة عليها اسم « جاكلين دونى » ، وتلصقها بالمقعد حتى لا يجلس عليه أحد غيرها !·

« وقد أطلق على « جاكلين » اسم : « الفتاة التى تجلس الى اليمين » ·· أو « صاحبة المقعد الثانى » !!

***

ولم تستطع « روز اليوسف » فى حدود تلك الرقابة الصحفية الصارمة التى كانت قائمة ، أن تعطى تفصيلا أكثر ، ولا أن تفصح اكثر .. كانت « الصحف الحرة » تعتمد دائما على ذكاء الشعب الذى كان يقرأ ، ويفهم ، ويزداد يقينا بأنه لا أمل ·· لا أمل مطلقا فى ذلك الملك الذى

راح يقدم له فى كل يوم الدليل تلو الدليل ، على أنه عقد مع « الشيطان » صفقة، باع له فيها نفسه ... وانه لايريد، بوصفه ملكا!! أن يرجع فى كلمة قطعها «للشيطان» على نفسه .. ! !

اما ندماء الملك .. وضيوفه الى ليالى « الف ليلة وليلة » التى اعادها « فاروق » ، من جديد ، الى قلب أوربا .. فقد كانت « الصحف الحرة » قادرة ، دائما ، على تناول اخبارهم بصراحة لم تكن تستطيعها بالنسبة لاخبار الملك نفسه .

ففى العدد التالى لذلك الذى نشرت فيه «روزاليوسف» من اخبار الملك الخبرين السابقين .. نشرت المجـــلة لمراسلها فى « كان » الخبر التـــالى ، تحت عنوان بعرض الصفحة يقول : « المصريون يتبرعون بثلاثين الف جنيه لفقراء فرنسا ! » :

« شهدت مدينـة « كان » فى الاسبوع الماضى ، أروع حفلة خيرية فى هذا العام . وقد قامت الفتيات الجميـــلات بجمع التبرعات لمساعدة الهيئة الخيرية التى اقيمت الحفلة لحسابها .

« ولقد تجلى الكرم الشرقى فى أروع صوره . ولم يحدث أن احدا من الفرنسيين أو من كبار المصطافين ، تبرع لهذه الهيئة بمثل ما تبرع به المصريون !!.

« فقد تبرع محمد سلطان (باشا) بعشرة آلاف جنيه !!. كما تبرع (الامير) سعيد طوسون بسبعة آلاف جنيه !!. أما الهامى حسين (باشا) فقد تبرع بخمسة عشرة ألف جنيه ، ثم عاد فتبرع بثلاثة آلاف جنيه أخرى !!.

« وبعد أن جمعت هذه التبرعات من كبـــار المصريين الذين كانوا اكثر حماسة لجمع هذه التبرعات من الفتيات القائمـات بهذا العمل .. وقف « مصرى كبير » يناشد الموجودين فى الحفلة أن يمدوا يد المعونة لاسعاد فقراء فرنســـا ، ثم قال مازحا : « مساكين الفقراء فى بلادنا ، ان احدا لا يعطف عليهم » !!.

« وقالت احدى السيدات معقبة على قول « المصرى الكبير » : « لا أظن ذلك ، فان الذين يعطفون على فقراء بلاد اخرى بمثل

هذا السخاء ، لابد أن يكونوا أكثر عطفا على بنى جنسهم » !!٠

« وحدث أن اعتذرت احدى السيدات عن التبرع لانهـــا فى انتظار أن تصلها أموالها فى اليوم التالى ٠ ولكنها اتجهت الى أحد المصريين الكبار وطلبت اليه أن يقرضها ألف جنيه ، ففعل ٠

« وحين أرادت السيدة ، فى اليوم التالى ، أن ترد للمصرى الكبير هذا المبلغ ، رفض قبوله ، قائلا : « انه هدية منى لك » !!

وتحت هـــذا « الخبر » الـــذى بعث به مراســـل « روز اليوسف » من مدينة « كان » حيث كان يعيش « فاروق » ، واصفياؤه ، وندماؤه ٠ وحيث كان الجميع ، وهو على رأسهم ، يبعثرون الاموال بمئات الالوف على « موائد القمار » ، وتحت أقدام الفــوانى ــ نشرت المجلة « خبرا » آخر كان له مغزاه الاليم ، والمرير ، خاصة حين أن يقرأه القارىء فى ضوء ذلك الخبر المفجع الذى كان يعلوه فى نفس الصفحة . كان الخبر الاليم يقول :

« ان مرعى حماد أحد أبطالنا الذين فازوا بعبور المانش فى تلك السنة ، بحث مع الدكتور صبرى (بك) المشرف على بعثـــة هؤلاء الابطال ، عن مبلغ خمسين جنيها لكى يعطيها لقائد الزورق الذى كان يرافقه فى رحلة العبور ، بعد ان وعده بذلك أن هو فاز بالسباق ٠ ولكن البطل لم يجد فى جيب الدكتور صبرى (بك) غير أربعين جنيها فقط ٠٠ !! وكان عنوان الخبر : « بطل المانش يبحث عن ٥٠ جنيها » ٠٠ !!

وهكذا كانت « الصحافة الحرة » تخوض معركتهـــا ضد « فاروق » ، وفســـاده ، ونظامه . ليس فقط « بالكلمة » التى كانت تهز مصر من أعماقهــــــــا ، بل و « بالخبر » ، وبالصورة ، وبالرسم الكاريكاتورى ، وبالرمز ٠٠ وبكل ما كان فى وسعها أن تصنعه ٠

واذ احس الطغاة بالارض تميد من تحتهم ٠٠ فقــد مضوا يبحثون « للصحافة الحرة » عن « قيـــد من حديد » .. قيد يغلون به أقدامها ، ويقيدون خطاها . ٠٠٠ وبدأت معركة من أعنف المعارك ٠٠

الفصل السابع

أول هزيمة للملك !

قذفت « الصحف الحرة » بنفسها فى طريق قوى الشر الهائلة والمتحالفة : الملك ، والفســـاد السياسى ، والظلم الاجتماعى ، والعبث ، والفوضى .

ولم يكن عدد « الصحف » التى قذفت بنفسها فى طريق هذا المارد الجبار كبيرا . كانت لا تزيد عن خمس ، او ست : « روزاليوسف » . « اللواء الجـديد » . « الاشتراكيـــة » . « الدعوة » . « الـــكاتب » . « الملايين » .

كذلك لم يكن عدد (الكتاب الاحرار) الذين راحوا يخوضون المعركة ضد هذا المارد الجبار نفسه ، كبيرا . كان عددهم ، فى احسن الفروض ، لا يزيد على عدد اصابع اليدين . كانوا مجرد « فصيلة صغيرة » من فصائل الطليعة . ولكن اثرهم .. اثر كلماتهم التى اخذت تهز مصر من اعماقها هزا عنيفا ، والتى قدمت فيما سبق — ولا يزال امامى أن أقدم نماذج منها — كان يعادل أثر فرقة كاملة مدججة بالسلاح .

وكما قذفت (الصحف الحرة) بنفسها فى طريق ذلك المارد الجبـــــار ، بغير أدنى اكتراث بكل ما بين يدية من أدوات البطش والتنكيل . كذلك قذفت هذه (الفصيلة

الصغيرة) من « الكتاب الأحرار (بنفسها في طريقه بايمان هائل ، وشجاعة مذهلة.. غير عابئة بجنوده ، ولابسجونه، ولا بكبريائه ، ولا بعجرفته الناشئة عن تجرده الكامل من اي مبدأ ، ومن كل مبدأ .

وحين بدأت هذه المعركة التي أخذت - منذ اللحظة الاولى - لونا من أشد ألوان العنف ، بين (الصحف الحرة) التي أريد قتلها ، وبين الحكومة التي أريد لها أن تقوم بدور القاتل - كان الملك .. وندماؤه من اصحـاب الملايين المصريين الذين تبرعوا في حفلة واحدة بأكثر من ثلاثين الف جنيه (لفقراء فرنسا) ! ! ، بينما الملايين من ابناء شعبنا يتضورون جوعا .. كان الملك ، وهؤلاء ، لا يزالون هنـــاك .. كانوا لا يزالون في « كابرى » .. وفي « الريفييرا » .. يصطافون ، ويمرحون ، ويرقصون ، وما دروا انهم كانوا يمرحون فوق فوهة بركان ، ويرقصون على البارود ! .

ومن « كابرى » .. حيث كان الملك لا يزال يرتع ، ويلعب ، ويريق الملايين من أموال الشـــعب فوق موائد القمار ، وتحت اقدام الغواني - جاءت « الاوامـــر » لحكومته في القاهرة ، لكي تخلصه من هذه « الصحف الحرة » ، ومن أولئك « الكتاب الاحرار » . وذلك بأن تبحث لهم ، ولها ، عن « قانون جديد » .. عن « سيف جديد » .. يجهز عليها ، وعليهم .

ولم تتردد « حكومة الملك » في القاهرة ، ولم تتوان في تنفيذ « الاوامر » التي جاءتها من « كابرى » .. حيث كان الملك لا يزال يرتع ، ويلعب . بل لقد بادرت، على الفور ، الى صنع ذلك « القيد » الذي اراده الملك مصنوعا من حديد .. !

ولم يكن « القيد » الذي بادرت الحكومة الى صنعه ،

تنفيذا لمشيئة الملك ، هو اول القيود الضاغطة التى وضعتها على حرية الصحافة ، وحرية الصحفيين . ولكنه كان اقساها . لانه كان يلغى هذه الحرية الغاء ، ويجعل منها حقيقة لا مجازا ، جزءا لا يتجزأ من الدستور فاذا ذكرنا أن الدستور كان قد تحول ، من خلال عبث الملك به ، واعتداءاته الصارخة عليه — وهو العبث ، والاعتداءات التى قبلتها منه جميع الحكومات ، وليس حكومة الوفد وحدها — الى مجرد حبر على ورق ، لوجدنا ان تحول حرية الصحافة الى ما تحول اليه الدستور نفسه ، وهو الاصل ، كان أمرا طبيعيا لا يثير الدهشة . وان اثار ، بطبيعة الحال ، المقاومة .. اشد المقاومة .. بعد اذ اصبحت « الصحف الحرة » هى الرئة الوحيدة التى بقيت للشعب لكى يتنفس منها .. وكان لابد للشعب من أن يظل يتنفس لكى لايموت .

لم يكن « القيد » الجديد — كما ذكرنا — هو اول القيود التى وضعتها «حكومة الوفد» فى اقدام الصحف ، وفى اقدام الصحفيين . فمن قبله ، اصدرت هذه الحكومة قانونا يحظر على الصحف نشر « اخبار الجيش » . ثم تبعته ، فى اغسطس سنة ١٩٥٠ ، بقانون آخر يحظر نشر « اخبار القصر » .. سواء أكان ذلك عن طريق : « الكلمة » او « الرسم » او « الرمز » ، او « الصورة » ... الا بعد استئذان وزير الداخلية . !! على ان يعاقب من يخالف ذلك بالسجن ستة شهور . !!

وجدير بك أن تعرف ان هذا « القيد » ، أو هذا « السيف » الذى علقته الحكومه فوق اعناق الصحف ، وفوق اعناق الصحفيين ، لم تبادر الى صنعه الا « حماية للاسرة الكريمة — أسرة محمد على — وما لها من مقام ممتاز فى البلاد !! » — على حد قول الحكومة فى المذكرة

الايضاحية التى ارفقها بمشروع القانون .. وزير العدل بالنيابة .. « فؤاد سراج الدين » . !!

ولقد جاء صدور هذا القانون ، فى اعقاب سلسلة من الفضائح اقترفتها « الملكة نازلى » – والدة فاروق اثناء اقامتها فى امريكا . وكان من ابرز هذه الفضائح ، قيام « الملكة الام » بتزويج ابنتها « الاميرة فتحية » من شاب من غير دينها ، كان يعمل امينا للمحفوظات فى قنصلية مصر بمارسيليا ، قبل تفرغه للعمل فى خدمة « الملكة نازلى » نفسها . ! !

ولقد جرد « الملك فاروق » – نتيجة لهذه الفضائح ، وبسببها – جرد أمه ، واخته ، من لقبهما ، وايضا من اموالهما . ولكن ، هل كان معنى هذا « التجريد » . او هذا « العقاب » ، ان فضيحة مخزية لم تحدث .. وان رائحة عفنة لم تزكم الانوف . ؟ ! !

على العكس .. لقد جاء هذا الاجراء ، اعترافا صريحا من جانب الملك بأن الصحافة لم تتجن ، ولم تخترع ، ولم تقل فى حق « اسرته الكريمة ، وما لها من مقام ممتاز فى البلاد ! ! » غير الحق .. كل الحق .. والا ، فيما كان « التجريد » من المال ، ومن اللقب ، اذا كانت الصحافة هى التى تجنت ، وهى التى اخترعت ، وهى التى نسبت « لصاحبة الجلالة الملكة الام » آثاما ، لم تقترفها . ؟ ! !

فاذا اضفنا الى آثام « الاسرة الكريمة » اثام « رأس الاسرة » نفسه ، ثم آثام « حاشيته » ، واتباعه ، كان لابد – من وجهة نظر الملك التى سارعت حكومته الى تبنيها – من وأد « الصحف الحـرة » التى كشفت الناس عن كل هذه الآثام ، والفضائح ، وعرتها ، واذاعتها – بكل وسائل الوأد .. بقانون ، او بغير قانون ، لا يهم ،

وانما الذى كان هاما جدا ، وعاجلا للغاية، هو وأد هـذه الصحف فى أسرع وقت ، وبأى ثمن . ! !

وعلى ذلك ، ففى شهر يوليو سنة ١٩٥١ ــ وهى السنة التى قلنا انها حملت للملك ، ولحكومة الوفد معـه ، علامات بداية النهاية ــ كان « فؤاد سراج الدين باشا » يصطاف فى أوربا ، بالقرب من الملك الذى كان يقضى « شهر العسل » الذى امتد ثلاثة عشر اسبوعا !. ومن هناك .. من اوربا.. اتصل «فؤاد سراج الدين» برئيس الوزراء ــ « مصطفى النحاس » ــ وطالبـه بالتعجيل باصـدار عـدة قوانين كانا قد أصـدراها فى شهر مارس من تلك السنة ، ثم عادا فقررا تأجيلها . وكانت هذه القوانين ، المؤجلة ، تقضى بتعـديل المادة ١٥ من الدستور التى تنص على حرية الصحافة واصدار تشريعات تعطى مجلس الوزراء حق مصادرة الصحف ، وتعطيلها ، بغير الرجوع الى القضاء .. !!

***

وهنا ... أرانى محتاجا ــ قبل أن أمضى الى حكاية هذه التشريعات والى موجة السخط التى فجرتها ــ الى وقفة خاصة عند شخصية «فؤاد سراج الدين» .. وبصفة خاصة ، عند عمله الدائب لارضاء الملك ، وارضاء حاشيته .. على حساب الشعب ، وعلى حساب الحرية ، وعلى حساب الدستور ، بل وعلى حساب «الوفد» نفسه.!!

فلقد رأينا ، فيما سبق من صـفحات ، كيف نصب « فؤاد سراج الدين » نفسه محاميا عن ذلك الدور البشع الذى قام به الملك ، وحاشيته ، فى صـفقات الاسلحة والذخيرة الفاسدة !!. وكيف وقف أمام ممثلى الشعب ، فى مجلس الشيوخ ، مدافعـا عن (كريم ثابت) ، وعن مثـالبه وسقطاته !! وكيف بادر ، بوصـفه وزيرا للمالية والداخليـة ، الى صرف مرتب الملك ــ مقدما ــ لمدة عام كامل . فلما لم يجد المبلغ المطلوب متوفرا فى خزانة وزارة المالية ، لم يتردد ــ لحظة ــ فى ابتكار حـل

(لازمة الملك) !!· فصرف المبلغ من « المصروفات السرية » فى وزارة الداخلية !!· وكيف بادر ، بوصفه وزيرا للعدل بالنيابة ، الى اصدار قانون يصادر حرية الصحف فى نشر (أخبار القصر) ـ حماية للأسرة الكريمة ، ذات المقام الممتاز فى البلاد ـ ثم هانحن نراه يتخلى عن راحته فى مصيفه بأوربا ، ويتصل برئيسه فى القاهرة ·· حاثا اياه على سرعة اصدار القوانين التى كانت مؤجلة ، والتى تعطى مجلس الوزراء الحق فى مصادرة الصحف ، وتعطيلها بغير الرجوع الى القضاء !!·

● **فلحساب من كان « فؤاد سراج الدين » يفعل هذا كله ·· ؟!**

لعلى لا اعدو الحقيقة ، اذا ما قلت ان «سراج الدين» لم يكن يفعل شيئا من ذلك، وفى خاطره انه يفعله لحساب « الوفد » . ذلك لان رصيد « الوفد » عند أنصاره ـ وكانوا غالبية الشعب ـ كان قائما ، أساسا ، على انه « القوة » التى تستطيع مقاومة « الملك » ، وليس على انه « القوة » التى تستطيع ان تترافع عن جرائم «الملك»، وتداريها ، وتبررها ، وتحاول ـ اعتمادا على ما لها من رصيد عند غالبية الشعب ـ أن تشككهم فيها ، او تلفتهم عنها . ! !

● **واذا كان « سراج الدين » لم يكن يفعل ذلك لحساب « الوفد » ·· فهل كان يفعله لحساب « الملك » · ؟!**

استبعد ذلك .. استبعده لسبب بسيط . وهو ان « الملك » ـ وعلى الرغم من كل شيء ـ كان يكره « سراج الدين » ، ولا يثق به ، ولا يطمئن اليه . واستطيع القول أن « سراج الدين » نفسه لم يكن يجهل شيئا من هذا . ولعلى اعرف ، عن يقين ، ان الملك لم يخف مشاعره هذه تجاه «سراج الدين» عن كثيرين ممن كانوا قريبين منه ـ اى من « سراج الدين » ـ وممن اثق ، بحكم معرفتى بهم ، بانهم لم يخفوا عنه شيئا مما كاشفهم به الملك نحوه .

ومن غير المقبول ، « عقلا » .. و « سراج الدين » ،

اولا واخيرا ، بشر كسائر البشر - ان يكون مستطيعا ان يحمل الحب لانسان يصارح الناس بكراهته له ، وبعدم ثقته به ، ثم يتجاوز ذلك الى العمل لحسابه .. حتى لو كان هذا الانسان هو الملك .

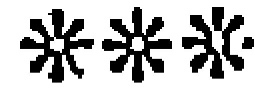
● فاذا انتهينا الى أن (سراج الدين) لم يكن يفعل ذلك لحساب (الوفد) الذى كان رصيده لدى أنصاره يتبدد نتيجة لهذه الافعال .

● واذا انتهينا أيضا الى أنه لم يكن يفعله لحساب (الملك) الذى لم يكن سراج الدين نفسه يجهل انه يكرهه ولا يثق به ، ولا يطمئن اليه . فلحساب من ، اذن ، كان يفعله ؟!.

لعلى لا اظلم « سراج الدين » اذا ما قلت انه لم يبذل كل ذلك الذى بذله من محاولات لملاينة الملك ، ومرضاته وهى السياسة التى نجح (سراج الدين) فى ان يجعلها سياسة (الوفد) نفسه - الا لحسابه الخاص .. ولحساب طموحه الشخصى .. ولحساب مستقبل سياسى اعظم كان يتطلع الى تحقيقه . !

فليس من خلاف على ان (فؤاد سراج الدين) كان رجلا موفور الذكاء . كذلك ليس من خلاف على أنه كان رجلا شديد الطموح . ولقد توفر له الى جانب ذكائه الموفور ، وطموحه الشديد ، ثراء عريض - اذ كان واحدا من افراد أسرة تملك آلافا من الافدنة - وكان طبيعيا ، وقد توفرت للرجل كل هذه الاسلحة ، أن يشتهى النفوذ .. ان تصبو نفسه لان يحكم ، ولان يسيطر ، ولان يرى الهامات تنحنى له طوعا ، أو كرها .. ثم جاءت القفزات الواسعة التى قفزها فى المناصب الرئيسية التى تولاها فى (حكومات الوفد) . وفى المراكز القيادية التى تولاها داخل الحزب ، فزادت طموحه اشتعالا . ولعله بات يرى ان وصوله الى « زعامة الوفد » بعد اعتزال رئيسه (مصطفى النحاس) بسبب تقدم عمره ، أو بسبب اعتلال

صحته ، أو بعد وفاته ، لم يعد أمنية يصعب تحقيقها . خاصة وان الاقدار كانت قد حابته كثيرا ، عندما ازاحت من طريقه جميع اولئك الذين كان باستطاعتهم — بحكم جهادهم القديم ، وبحكم ماضيهم الطويل فى خدمة (الوفد) — ان يسدوا عليه الطريق الى أمنيته . لم يكن قد بقى فى طريقه من هؤلاء غير (الدكتور محمد صلاح الدين) وزير الخارجية فى (حكومة الوفد) التى اقيلت من الحكم بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . وما اظن ان ازاحة (صلاح الدين) من الطريق كانت تشكل بالنسبة لسراج الدين ، هما يمكن ان يزعجه . !



من خلال ذلك كله ، نستطيع القول ان (سراج الدين) — وقد رأى نجمه يتألق فى افاق (الوفد) على نحو لعله هو نفسه لم يكن يتوقعه — راح يخطط لمستقبله السياسى ، على أساس من العمل الدائب لابقاء (الوفد) فى الحكم اطول مدة ممكنة . حتى يستطيع عن طريق سلطان الحكم ، وما يتيحه له من قدرة على تحقيق المنافع لاعضاء الحزب ، ان يكسب له من بين صفوفهم انصارا اكثر ، ومؤيدين اكثر . فاذا ما نجح — الى جانب هذا — فى الفوز برضاء الملك .. أو على الاقل ، برضاء (حاشيته) .. كان له أن يطمئن الى أن سفينة مستقبله السياسى سوف تمضى الى الشاطىء المنشود .. دون أن يتهددها الموج ، أو أن تعصف بها العواصف . !

وعلى هذا ، فان مسارعة (سراج الدين) ، من مصيفه فى اوربا ، الى الاتصال برئيسه فى القاهرة ، مستعجلا اصدار تلك التشريعات التى كان من شأن صدورها اخماد انفاس (الصحف الحرة) حتى يتاح للملك ، ولرجاله الذين عبثوا بكل شىء ، وافسدوا كل شىء ،

ان يطمئنوا الى مستقبلهم ، وان يستمتعوا بعبث هنىء .. وبنوم اكثر هناءة ـ كانت متسقة ، كل الاتســاق ، مع خططه للفوز برضاء الملك ، وبرضاء رجاله ، كعامل اساسي في تحقيق ذلك المستقبل السياسى الاعظم الذى كان يطمح إلى تحقيقه . !

لكن الصفوف الاولى فى (الوفد) ، كان لايزال فيهما بعض من لم يصبهم التلف الذى اصاب قيادته العليا . فهبت من بين هؤلاء جماعة ـ على رأسها (الدكتور محمد صلاح الدين) .. ذلك الذى حدثتك عنه ، منذ قليل ـ وراحت تعارض ، وباقصى العنف ، فى اصدار هــذه التشريعات التى رأوا انها سـوف تفقد (الوفد) البقية الباقية من رصيده لدى جماهير أنصاره .

ولم يستطع (رئيس الوفد) ، على الرغم مما كان له من مكانة شخصية فى نفوس اولئك الذين وقفوا بحزم ضد هذه التشريعات ، أن يقنعهم بفكرة تقدم الحكومة بها الى مجلس النواب لاصدارها .

عندئذ .. نبتت لدى واحــــد من وزراء الوفد ، « محمود سليمان غنام » فكرة اختيار احد النواب الوفديين ليتقدم الى مجلس النواب بهذه التشريعات ، وكأنها من عندياته . ووقع الاختيار ، فورا ، على « كبش الفداء » ... وكان « كبش الفداء » هذا هو النائب : « اسطفان باسيلى » . ولقد تعرض الرجل ، بسبب هذه المهمة التعسة التى قبل على نفسه القيام بها ، لحملة عنيفة شارك فيها أصدقاؤه قبل أعدائه ، على نحو جعله يدفع الثمن غاليا من استقرار نفسه ، وأيضا من ســلامة أعصابه . !

ولكن الوفد ـ الى جانب اولئك الذين لم يصبهم التلف من صفوفه الاولى ـ كان يوجد بداخله تيار شاب متحرر ،

لم يكن ـ اصلا ـ مؤمنا بسراج الدين ، ولا بقفزاته الواسعة ، ولا بسياساته التى راح يجر الوفد اليها .
وقد وقف هذا « التيار المتحرر » فى وجه هذه الجريمة البشعة التى كان يراد ارتكابها فى حق حرية الصحافة ، ولم يسمح لها بأن تمر . كان يقف على رأس هذا « التيار المتحرر » فى الوفد نائب وطنى شاب ، هو المرحوم « الدكتور عزيز فهمى » عضو مجلس النواب وعدد من زملائه الذين كانوا يشاركونه وطنيته ، وشجاعته . وحماسه .

انطلق «عزيز فهمى» وزملاؤه، يقودون داخل صفوف الحزب ـ وخارجها أيضا ـ حملة عنيفة ضد تلك التشريعات .. ضد « الوجه الظاهر » الذى تبناها ، وضد « الوجه الخفى » الذى كان يتخفى وراءها . . وجه الملك الذى كانت « الصحف الحرة » التى اريد وأدها ، قد اطارت النوم من عينيه .. وراحت تحمل له، ولنظامه السياسى والاجتماعى كله ، ليس فقط علامات النهاية . بل ودبيب اقدامها أيضا .

... واشتعلت النيران

بدأت « الصحف الحرة » التى كانت مقصودة . وحدها ، بهذه التشريعات القاتلة ، تطلق مدافعها .

فكتب « احمد حسين » فى صحيفة « الاشتراكية » ، تحت عنوان « الغاء الصحف يساوى الغاء الحكم » يقول :

« كتبنا اكثر من مرة حول هذا المعنى الذى نعود اليه اليوم ، وهو : « دعونا نحاربكم بالقلم ، والا حاربكم غيرنا بالقنابل » . وكنا نظن ان هذه الصيحة الصادقة التى لا تحوى الا تحذيرا أمينا ، ستجد صداها لدى الحكام فيدركوا ان النقد ـ مهما كان مرا ـ فهو الصمام الذى يسمح للشعب بأن يتنفس ، وبان يعبر عن عواطفه المكبوتة .

« كنا نظن أن الحكام لن ينسوا ، أبدا ، ان كل الجرائم

السياسية فى مصر قد وقعت فى ظل صحافة مقيدة ، ومقهورة .. فعندما قتل « بطرس غالى » ، لم يقتل فى عهد صحافة حرة. وانما قتل فى عهد قانون المطبوعات الذى جاء لمحاربة الصحافة. وعندما شرع بعض المصريين فى قتل « السلطان حسين » ، لم يفعلوا ذلك فى ظل حرية صحفية ، بل فعلوه فى ظل أحكام الانجليز العرفية التى فرضوها - باسم الحرب - على مصر . وعندما قتل الانجليز ، ومن تعاونوا مع الانجليز ، فى عام ١٩٢٠-١٩٢١ لم تكن الصحافة فى مصر حرة . وعندما شرع ، فى سنة ١٩٣٠ ، فى قتل رئيس الوزراء .. « اسماعيل صدقى » .. لم تكن الصحافة فى مصر حرة ، وكان هو نفسه يحكم مصر بالحديد والنار . وعندما قتل « أحمد ماهر » ، داخل البرلمان ، كان ذلك فى ظل أحكام عرفية ، وفى ظل رقابة صحفية. وعندما قتل « النقراشى » داخل وزارة الداخلية ، لم يكن ذلك فى ظل حرية الصحافة . بل كان فى ظل أحكام عرفية ، ورقابة صحفية . وعندما وقعت عشرات الحوادث التى هزت أركان الامن فى البلاد ، لم تقع فى حرية صحفية . بل وقعت فى ظل الكبت والرقابة الصحفية !!.

« فهؤلاء الذين يتصورون أن الصحافة سوف تحدث ثورة ، مخطئون . وهؤلاء الذين يتصورون أن الصحافة تدفع بالشباب الى الهوس السياسى ، ثم الى القتل ، مخطئون .

« انما تنشأ الثورات ، وتنشأ الجرائم السياسية ، نتيجة للكبت ، وللقهر ، وللاعنات ، والطغيان . وكنا نحسب أن هذه المعانى كلها ماثلة فى أذهان الحكام ، فلا يتصورون - كلما ضاقت صدورهم بكلمات الصحف - أن علاج ذلك فى الغائها . لقد ألغيت « مصر الفتاة » مرة . فماذا كانت النتيجة ؟..

« كانت النتيجة أن صدرت بدلها « الشعب الجديد » . بل وصدر الى جوارها أكثر من صحيفة راحت تنهج نهجها ، وتسير على منوالها . فالالوف التى كانت قاصرة على مطالعة « مصر الفتاة » ، قد تضاعف عددها بمطالعة هذه الصحف الجديدة . وما كانت هذه الصحف الجديدة لتنهج نهج « مصر الفتاة » ، الا لاحساسها بأن هذا هو ما يريده الشعب . وما كانت هذه الصحف لتروج - مع خلوها من كل زخرف وبهرج - الا لانها تعبر عن ارادة الشعب . فلو عطلت هذه الصحف اليوم ، لحل محلها ، غدا ، عشرات غيرها . بل لتحولت الصحف القائمة الى صورة

طبق الاصل منها . فاذا تعذر ذلك ، لحلت « الصحف السرية » محل « الصحف العلنية » . ولو ضيق الخناق على هذه « الصحافة السرية » ، لتفشت ، على الفور ، الجمعيات الارهابية، ولعادت ـ مرة أخرى ـ الى القتل ، والاغتيال ، والتدمير .

« ان هذا الذى نقوله بديهيات معروفة ، تكررت فى حياة مصر . ولسنا فى حاجة الى البحث عنها فى غير مصر من بلاد. فما بال كل من فى مصر يفهم ، ويعى ، الا الحكام ؟! . وما بال هؤلاء الوزراء قد تحولوا الى خصوم لكل رأى ، ولكل عقل ، ولكل حكمة ؟!.

« لقد قلنا ، فى مجلس الدولة ونحن نطالب باصدار « الشعب الجديد » ، اننا اذا لم ننجح فى اصدار الجريدة ـ بعد الغاء « مصر الفتاة » ـ فسوف نعاقب الحكومة الحاضرة بالصمت ، واعتزال الكتابة ، لنتركها لقدرها . ولنخلى بينها وبين طوائف الشعب الهائجة التى ننفس عنها ، الآن ، بالكتابة.

« وهذا هو ما نقوله ، مرة ثانية ، « لسراج الدين » .. وللوزراء مجتمعين .. ومنفردين .. انهم اذا أقدموا على الغاء هذه الجريدة . فسوف نكسر أقلامنا ، ونقبع فى عقر دورنا ... والويل لهم اذا فعلنا ذلك » .

***

... وتوالى هدير المدافع

فكتب « فتحى رضوان » فى « اللواء الجديد » تحت عنوان : « مذبحة الصحافة » يقول :

« نعم انها مذبحة ....!

« لقد خرج الجزارون ، منهم من يضع سكينه وراء ظهره .. ومنهم من يظهرها ويباهى الناس بها ... ومنهم من يتركها فى منزله ، مؤملا أن يسرع فيحضرها حينما تجهز الفريسة !!.

« ولقد نفد صبر الجزارين . وهم محقون فى ذلك . فان الصحافة تدعو الى حق ، وهم يقيمون حياتهم على باطل . والصحافة تدعو الى حرية والى كرامة ، والى احترام الدستور ، وهم غارقون فى دماء الحرية ، وفى دماء الكرامة ، وفى دماء الدستور !!

« انهم لا يستطيعون أن يصبروا على الصحافة ، وهى التى تذكر الامة صباح مساء ، بأنهم خدعوها ، وسخروا منها ، حينما وعدوها بأنهم اذا ولوا الحكم ، الغوا المعاهدة .. والتحموا مع

الانجليز ، وزغوا الادراك الوطنى السليم ونموه !!

« انهم لا يستطيعون أن يصبروا على الصحافة ، وهى التى تفضح ما استتر من مخازيهم ، وسرقاتهم ، ومحسوبياتهم ... وهى التى تنشر على الوف الألوف من قرائها حقائق هذا التدنى المفسد ، الفاسد الذى يتقلبون فيه ، ووقائع هذا الاجتراء المثير المذهل على حريات الامة ، وعلى مقدساتها ، وعلى خير ما ترجوه لنفسها .

« انهم لا يستطيعون أن يصبروا على الصحافة ، وهى التى ارغمتهم على أن يقدموا الى القضاء قضية الجيش ، وقد كان فى ظنهم انهم يستطيعون أن يطووها فى جنح الظلام ، وأن يعتبروها صفقة جديدة من صفقات الحكم المتعفن ، فيكسبوا بها لنظامهم المترنح المتخاذل ، سندا .

« انهم لا يستطيعون أن يصبروا على الصحافة ، وهى التى رعت قضية الجيش بعد أن انتزعتها من براثن الهوى ، وهى التى وقفت تصد عنها العدوان ، وعبث الايدى ، وغرض المغرضين . فسارت القضية بين الاشواك ، واجتازت طريقها بين الصخور .

« أليست الصحافة هى التى تطلب تجملا بالفضيلة والعفة .. وما اشق الفضيلة والعفة ؟! .

« أليست الصحافة هى التى تطلب تحرجا فى صرف مال الدولة .. وما أشهى التصرف فى مال الدولة ؟! .

« أليست الصحافة هى التى تتعقب الرخاوة ، والميوعة ، والفضوليين ، والمتطفلين ، والدخلاء ، ووسطاء السوء . وما اكثر هؤلاء ، وما أعزهم نفرا ، وما أوسعهم جاها ؟! .

« اذن ، لتكمم الصحافة هذه . فاذا لم ينفع معها تكميم ، فلتطعن ذات اليمين وذات اليسار .. بطلب المصادرة ، ويطلب التعطيل ، ليتوزع بال أصحاب الصحف ، ويبيتوا وهم لا يدرون : ايكتب لها القبر المنشور .. أى المحاكم ؟! أم القبر المحفور .. اى المصادرة ؟! فان ارتفعت الصحافة فوق ذلك كله ، وحلقت ، ولم تطلها أيدى الشر ، فلتقتل علنا . ولتقتل بأى سلاح . فان جريمة القتل ــ وان كانت أبشع الجرائم عند الله ، وعند الناس ــ الا انها السبيل المفتوحة أمام حاكم فاسد لا يريد أن يصلح حاله ، وأمام حاكم ضال ابى الله عليه أن يتهدى ، وأمام حاكم يئس من أن يسترد ثقة الناس به ، أو استمالتهم اليه !!

« وقد يسيل دم الصحافة ، ويتدفق ، حتى يحسب الظالم انها لفظت اخر انفاسها . لكنه سوف يرى ، بعد حين ، انها عادت

لتطارد الظالمين ، وتتعقب فسادهم ، وتصليهم نارا حامية !.

« ان الصحافة باقية ، وهم زائلون . وهى قوية . وهم ضعفاء جبنــاء . وهى صــادقة ، وهم كاذبون خائنون ... ولن تغلب الفضيلة ، ولن يغلب الحق ، ولن تغلب الحرية ... لن يغلبوا أبدا » .

***

وفى يوم الاثنين ــ ٣١ يونيو سنة ١٩٥١ ــ صدرت « روز اليوسف » وعلى غلافها رسما يمثل « فؤاد سراج الدين » وقد امسك بيده مسدسا كتب عليه : « مصادرة الحريات » ، راح يسدده الى صدر « المصرى افندى » ــ وهى الشخصية التى كانت المجلة تتخذها رمزا للشعب ــ وكتبت تحتها : « الاغتيال السياسى الذى لا يعاقب عليه القانون » !! .. وداخل العدد ، وتحت عنوان : « هذه الحكومة تخاف ان تواجه القضاء » ــ كتب « احسان عبد القدوس » يقول :

« هذه الحكومة تخشى أن تواجه القضاء ...

« هذه الحكومة رغم كل ما فعلت ، ورغم كل ما أفسدت من ذمم ، وما اشترت من ضمائر ، وما زرعت من فساد ، وما سنت من قوانين ظالمة ، لاتزال ترتجف من أن تقف خصما أمام القضاء العادل ، ولاتزال تخشى أن يكون بين القضاة المصريين قاض نزيه ، حر الرأى ، سليم المنطق ، نظيف الذمة ، غيور على ضـميره ، وغيور على العدل وعلى سمعة بلده .

« انها حكومة جبانة .. فقدت الثقة بنفسها ، وفقدت الثقــة بمبادئها ، وعجزت عن أن ترد على حجج خصومها ، وعجزت عن أن تجد لها سندا من الدستور ، أو من القانون ، أو من العدالة ... ولم تجد ما تدافع به عن نفسها الا أن تشرع القوانين التى تعفيها من الوقوف أمام القضاء ، وتحصر سلطة الاتهام والحكم والتنفيذ فى يدها وحدها ، لتظلم كيفمــا تشاء ، وتبطش كيفما تشاء .

« وهكذا بدأت تشرع القوانين الجديدة الخـــاصة بجرية الصحافة ،مدعية انها ــ بهذا التشريع ــ انما تفسر المادة ١٥ من الدستور .

« وعندما أقول أن هذه الحكومة تخشى أن تواجه القضاء ، لا أبالغ • فقد أرادت أن توقف « أحمد حسين » عن الكتابة ، فلما لم تستطع أن تواجه القضاء ، سلطت عليه النيابة ـ وهى جزء من السلطة التنفيذية ـ لتحبسه حبساً احتياطيا ، فى غير حكمة قانونية ، ومن غير داع يستدعيه التحقيق •

« وعندما أرادت أن توقف « مصطفى مرعى » عن الكتابة ، لم تقدمه الى القضاء ، بل اكتفت بالتحقيق معه ، ثم لجأت الى نص القانون الذى يقضى بمصادرة الجريدة ، اذا عادت الى الكتابة فى موضوع محل تحقيق النيابة ! ولكنها عندما تقدمت الى القضاء بهذه المادة نفسها ليحكم بتعطيل جريدة « اللواء الجديد » ، خذلها القضاء • لانه لم ير محلا لتطبيقها ، ولا عدلا فى التهديد بها •

« ولقد حقق مع « روز اليوسف » أكثر من مرة ، وفى أغلب المرات أفرج عن رئيس التحرير بكفالة • ورغم ذلك فلم تقدم واقعة من الوقائع التى حقق فيها الى المحاكمة • كما أن التحقيق لم يحفظ • انما بقى سلاحا مشرعا فوق أقلامنا يهددنا بتطبيق المادة ١٩٩ التى تنص على مصادرة كل جريدة تتعرض لموضوع هو محل تحقيق • بل ان الحكومة كانت تخشى مواجهة المحققين أنفسهم عندما ينزعون الى حرية الرأى ، ويتمسكون بشخصياتهم!•

« لقد خشيت الحكومة أن تواجه القضاء ـ أو احدى هيئاته ـ بهذه التشريعات • فلم تتقدم بها بنفسها ، تهربا من عرضها على مجلس الدولة ، أو محكمة القانون الادارى • فأوعزت الى أحد النواب بأن يتقدم بها ـ أى بهذه التشريعات ـ الى البرلمان مباشرة !!• وقبل النائب أن يقوم بهذه المهمة التعسة •• وقبل أن يسجل اسمه فى مضابط مجلس النواب على أنه الرجل الذى قبل أن يستخدم كمخلب قط لخنق حرية الرأى ، ووأد الوعى الجديد •

« ولست فى حاجة الى أن أعدد الشواهد على تهرب الحكومة من مواجهة القضاء ، ولا الى أن أعدد المرات التى دمغ فيها القضاء الحكومة بتهمة التعسف والاضطهاد •• فهى كلها شواهد تنتهى الى معنى واحد •• وهو أن الحكومة بهذه التشريعات لم ترم الى تقييد حرية الصحافة فحسب • بل الى تقييد حرية القضاء العادل ، ونزع اختصاصه ، حتى لتتهرب من ضمير القاضى الحر ، وتتجنب حكم القاضى النزيه !•

وحجة الحكومة فى اصدار هذه التشريعات انها تكمل نقصا

فى الدستور ، والقانون "

« ولاشك أن في الدستور ، والقانون ، نقصا كبيرا شعرت به الحكومة . فالدستور لم يتسع ، بعد ، لاطلاق يد الحكومة في مصادرة الحريات !! والدستور لم يتسع ، بعد ، لحماية حق أحدى الطبقات في استعباد ، واستغلال طبقة أخرى !!. والدستور لم يتسع ، بعد ، ليقيم من انسان ما الها مقدسا لا يجوز أن تقربه الاقلام ، ولا يرتفع اليه نقاش ، ولا يلحقه حساب ، ولا يرد عن جريمة !!.

« والدستور لا يعتبر الحكومة هيئة سماوية ترتفع فوق الشك. ولا يعتبر وزراء الوفد أنبياء مرسلين يسير الحق بين أيديهم وفي ركابهم ، وتظلل البركات أقرباءهم وأنسباءهم !!.

« نعم .. انه دستور ناقص ، وان النقص كبير .. وهذه الحكومة أول من شعر به ، وأول من عمل - ويعمل - على تغطيته !!.

« ولن يحدث شيء عندما تصدر هذه التشريعات التي تسد النقص في الدستور ، وفي القانون . لن تثور مصر ، ولن تمتنع صحافتها عن الصدور . كل ما هناك أن يتجرأ كاتب طويل اللسان، ويكتب مقالا كهذا المقال يمر كما يمر غيره من المقالات . ويعوضه أن يجد أحد كتاب الوفد في نفسه الجرأة ليؤيد التشريعات بحجة أن الحكومات السابقة كانت تضطهد الصحافة .. وان من المنطق أن نضع في يد هذه الحكومة سلاحا جديدا لكي تضاعف الاضطهاد .. ثم يقصر منطقه عن أن يرى أن الحكومات السابقة هي نفسها الحكومات اللاحقة ، وأن السلاح الجديد الذي نضعه في يد الحكومة الحاضرة اليوم ، سينتقل غدا الى يد حكومة أخرى تطبقه على خصومها !!.

« ولن يحدث شيء بعد هذا ...

« لن تفقد جريدة « الاهرام » وقارها . ولن تعلن جريدة « المصرى » خروجها على سياسة الوفد . ولن تلجأ نقابة الصحفيين الى هيئة الامم لتعينها على حماية حرية الصحافة . ولن ينظم سكرتيرها الدائم مظاهرة احتجاج !!.

« سيمر القانون في هدوء ... وتخنق الصحافة الى الابد !!.

« سيقال في مضابط مجلس النواب أن حكومة الوفد هي التي اصدرت هذه القوانين .

« وسيقال ان نواب الوفد الشبان الذين طالما ادعوا نصرة

الحرية ، هم الذين وافقوا على مصادرة الحرية !•

« سيقال كل هذا •• وسيبقى مسجلا فى التاريخ ، ولن يستطيع « النحاس باشا » ان ينفيه الا اذا اعلن انه « عبد مأمور » !! والا اذا اعلن نواب الوفد انهم « مسيرون لا مخيرون !!•

« سيقال كل هذا ••

ولكن ، ماذا يهم ما يقــال •• وما أكثر ما قيل •• مادامت الاقلام ستسكت الى الابد ، ومادام القضاء سيكبل الى الابد • ولتزهق انفاس مصر بعد ذلك •• فلن تقول شيئاً » •

***

اتسعت جبهة القتــال .. وتزايد عدد المواقع التى راحت تطلق مدافعها ضـــد الحكومة ، دفاعا عن الرئة الوحيـــدة التى بقيت للشعب لكى يتنفس منها • حتى الصحف التى لم يكن الخطر يتهددها ، بنفس القـــدر الذى كان يتهدد به تلك التى كان « الملك » ، وكانت « الحكومة » يريدان وأدها، لم تستطع الا ان تشارك فى المعركة • وصحا الشعب كله على دوى المـــدافع • فاذا فئاته المؤثرة : الطلبة ، والفلاحون ، والعمال ، يدخلون المعركة بمظاهراتهم ، وبمنشوراتهم ، وبصياحهم • !!

وروعت « الحكومة » •• سقط قلبها فى قدميها • فلم تكن تلك الهبة الشعبية الهائلة واردة لها فى حساب • ومن ثم ، راحت تتلفت وراءها باحثة عن طريقة للفرار من أرض المعركة • لكنها ، قبل أن تفر ، ارادت ان تقوم بمحاولة اخيرة ، وان تكن يائسة ، لعلها تستطيع ان تسترد بها شيئا من الارض التى فقدتها • فمضت بلسان احـــد وزرائها الذين كانوا قد اختاروا مكانهم ضد الشعب فى جانب الملك .. وهو ، الدكتور حامد زكى ــ مضـــت الحكومة بلسان هذا الوزير ــ تبرر تلك الضربة الغادرة التى ارادتها قاضية على « الصحف الحرة » بأنها لم تكن الا لحساب الشعب .. !!!

كانت « الشيوعية » هى « الغول » الذى تصـــورت

الحكومة انها تستطيع ان تخوف الشعب به ، ومنه ، لعله ـ مدفوعا بهذا الخوف ـ يقبل الموافقة على هـــذه التشريعات ، من منطق ، « ان « الغول » الذي نعرفه ، وهو ذلك الفساد الاجتماعي ، والسياسي ، الذى كانت ألسنته قد أمتدت الي جميع مقومات حياتنا ، فالتهمتهـا .. خير من « الغول » الذى لا نعرفه .

وأدلي وزير الملك ـ الدكتور حامد زكي ـ الي الصحف بتصريح قال فيه : « انهذه التشريعات يجب أنتصدر · اذ ليس فياستطاعة وزارة بيضاء أن تحكم شعبا احمر · أنها ضرورية كأساس للقضاء علي الصحف التي تدعو الي تقويض النظام الاجتمـــــاعي في مصر · » !!

ولكن ·· لان هذه « القنبلة » التى اراد « الـــوزير الدكتور حامد زكى » ان يفجرها فى وجه الشعب ، كانت « قنبلة فاسدة »، فانها سرعان ما ارتدت اليه وانفجرت في وجهه · فلقد بادر زميله الدكتور محمد صلاح الدين ، وزير الخارجية ، الذى اختار مكانه فى هذه المعركة علي رأس الجبهة الوزارية التى كانت تعارض هذه التشريعات، وتقف ضدها بأصرار ، وعنف ـ بادر الى الرد على هـــذا التصريح ، بتصريح صحفى آخر قال فيه :

« قرأت ببالغ الدهشة تصريح زميلى الدكتور حامد زكى عن مشروعات القوانين المقيدة لحرية الصحافة ، ذلك التصريح الذى اقحم فيه زميلى الالوان الحمراء والبيضاء ، والذى كان ، فيما أعتقد ، خطأ كبيرا · والذى يهمنى من هذا التصريح هو ان زميلى قد أحرج به زملاءه الوزراء أشد الاحراج ، مما يضطرني ـ وانا لا أملك الا الكلام عن نفسى ـ ان أعلن أنى عارضت كل مشروع مقيد للحرية ، وذهبت فى معارضته الى أبعد الحدود التى ترسمها مسئوليتى كوزير · ولسوف أعارض كل مشروع من هذا القبيل ، وأذهب فى معارضته الى أبعد الحدود التى ترسمها مســـئوليتى كعضو فى هيئة الوزارة ، أو فى الهيئة الوفدية ، او في مجلس الشيوخ » ·

وانهارت مقاومة الحكومة ·· وكان انهيارها ، مهمـــا

طالت المقـــاومة ، أمرا محتوما . فلقد تســـاقطت عليهـــا قنـــابل « الصـــحف الحـــرة » كأنهـــا السيل المنهمر . وجاءتها ، من داخل صفوفها ، ضربات موجعة واليمة ، وجهها اليها بعض اعضائها ممن كانوا يعارضون هذه التشريعات . ثم جاءت وقفة ذلك التيار المتحرر داخل الحزب ، بما انطوت عليه من حماسة الشباب، واخلاصه وفورته ، فكانت ــ الى جانب وقفة الشعب ــ اضافة خطيرة جعلتها تترنح ، وتفقد توازنها ، بل وتفقد مجرد القدرة علي الكلام الذي يساوي أن يعطيه العقلاء اسماعهم !

وباسرع مما كان يتوقع الكثيرون ، وضحت نتيجـــة المعركة ..

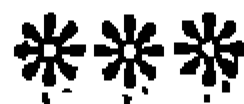
لقد هزمت الحكومة .. بل قل : هزم الملك ..

فلقد كانت تلك هي الحقيقة الناصعة التي أسفر عنها وهج المعركة . وكانت هزيمة الملك هذه ، هى أول هزيمة علنية، ورسمية ، تلحق به ، اذ كان معروفا لدى الجميع ان هذه التشريعات .. او هذا « القيد » الذي اراده الملك مصنوعا من حديد ، لم تحاول الحكومة صنعه الا بناء على امره ، ولحسابه ، ولحساب حماية نظامه الاجتماعى والسياسي من تلك « الاقلام » التي راحت تتعقب فساد ذلك النظام ، وتكشف للناس ــ اولا بأول ــ عن العفن الذى راح يمشي فى اوصاله ، ويجعل من الاستسلام له ، أو السكوت عليه جريمة فادحة يرتكبها الشعب في حق نفسه .. ويسلم ــ بسكوته عليها ــ عنقه الى جلاده . !!

لم تستطع الحكومة ان تمضى الى نهاية الشوط .. تحطمت ارادتها تحت ضربات « الاحرار » : ولم يعد امامها ما تفعله الا ان تنسحب ، وتتراجع ، وتقبـــل بالهزيمة التى أصـــبحت أمرا لا مهرب منه . وهـــذا بالضبط ، مافعلته .

أمرت ذلك « النائب » الذى كانت قد حملته الوزر امام نفسه ، وامام الشعب ، وامام التاريخ ، بسحب تلك التشريعات من مجلس النواب . فأطاع النـائب الامر وسحبها ، وان لم يستطع ، بطبيعة الحال ، أن يسحب عن نفسه عارها ، !

وهكذا انتصر الشعب فى اولى معاركه العلنية مع الملك. واذا كان الشعب قد كسب معركته الحيوية هذه ، والتى تعتبر - بحق - واحدة من اخطر معاركه ، ضد قـوى الشر الهائلة، والمتحالفة، فانه لم يكسبها الا لسبب واحد. ذلك انه عرف كيف يقف - فى ساعة الخطر - صفا واحدا .. يقاوم القيد ، ويقاوم الحكومة ، ويقاوم الملك . ولقد فعل الشعب ذلك لانه استطاع ، بفطرته ، ان يدرك انه لو ترك هذه الجريمة تمر ، لفقد بمرورها « الرئة الوحيدة» التى كانت قد بقيت له لكى يتنفس منها ، وكان الشعب، كما قلت لك، مصمما على أن يظل يتنفس .. حتى لايموت.



كسب الشعب معركته .. ولم يتوقف هدير المدافع . ذلك لان « المشوار » الى النصر النهائى على قـوى الشر الهائلة ، والمتحالفة هذه ، كان لايزال طويلا . هذا من جهة ومن جهة اخرى ، فان القضية - اساسا - لم تكن قضية « الصحف الحرة » ذاتها ، بقدر ما كانت قضية « المعانى » التى كانت هذه الصحف تعبر عنها ، وتدعو اليها ، وتبصر بها . ولم تكن « المعانى » التى راحت « الصحف الحرة » تدعو اليها . وتبصر بها ، هى « الشيوعية » كما حاول « وزير الملك » الدكتور حامد زكى ان يزعم : وانما كانت هذه «المعانى» هى: العدل الاجتماعى ، وهى التحرر الوطنى وهى التحرر الاقتصادى . وهى القضاء على استغلال الملايين من أبناء الشعب ، من فلاحين وعمال ، لمصلحة

فئة قليلة لم يكن يهمها من كل مايجرى على أرضنا ، الا أن تبقى محتفظة بنفوذها ، وبسطوتها ، وبقدرتها الرهيبة على امتصاص دماء الشعب ، وتحويلها الى ثروات هائلة تبددها من بعد ذلك ـ وبكل اللامبالاة ، والسفه ـ فوق موائد القمار .. وتحت أقدام الفوانى .!!

كذلك كانت هذه «المهانى» أخيراً هى العمل على شق الطريق أمام « زعامات وطنية جديدة » تستطيع بتجردها ، وبتطهرها ، وبتحرر قلوبها وعقولها من أى نوع من أنواع الارتباط بقوى الشر التى كانت ممثلة فى اربع ركائز متحالفة، ومتعاونة، ومرتبط مصير كل منها ـ تلقائيا ـ بمصير الاخر . وهذه الركائز الاربع هى :

● الاولى ـ ملك فاسد ، فقد ايمانه بشعبه . ومن ثم فقد احساسه بمصائبه والامه ، وعاونت ظروفه كلها على جعله حليفا طبيعيا ، وشرعيا ، للاحتلال الاجنبى الذى كان يحمى عرشه بحرابه .. وللاقطاع الذى يمكن اعتبار « فاروق » بما كان يملك من أرض « تقدر بعشرات الالاف من الافدنة » واحدا من ابرز أمرائه .

● الثانية ـ احتلال أجنبى عمل ، منذ اللحظة الاولى ، لوجوده على ارضنا ـ وبمعاونة فئة من الحكام اصطنعها لنفسه ، واعتمد عليها ، واعتمدت عليه ـ على ابقائنا مقيدين الى اغلال التخلف ، حتى نبقى دائما واقعين تحت رحمته .. عاجزين عن التحرر منه .. وعاجزين ، فى ذات الوقت ، عن الانقضاض عليه . !

● الثالثة ـ اقطاع زراعى شرس .. نشا ، أول ما نشا ، فى حجر الاستعباد والقهر ، ثم شب وترعرع فى ظل الاحتلال الاجنبى ، وبتشجيعه ، وتحت حمايته . حتى تحول ، مع الزمن ، الى وحش ضار يمتص دماء الملايين من شعبنا .. وياكلهم لحما ، ويرميهم عظاما . !

● الرابعة ـ مجموعة من الاحزاب الرجعية التى نشأت فى ظروف خاصة ، وفى ظل ملابسات متعددة ، والتى لم يكن لها ـ بحكم مصالحها وارتباطاتها ، وبحكم الظروف السياسية التى نشات فيها .. وبحكم التركيب الفكرى والاجتماعى لقادتها وزعمائها ـ اية قدرة على النضال من اجل تغيير الواقع السياسى، والاقتصادى ، والاجتماعى ، لحياتنا .. فضلا عن انعدام مصلحتها

في مثل هذا النضال .

ولعل أقطع دليل على أن المرحلة التي كنا نعيشها ، قبيل يوليو سنة ١٩٥٢ ، كانت قد تجاوزت هذه الاحزاب جميعا . كما تجاوزت قدراتها على ادخال أى نوع من التغيير على واقع حياتنا .. هو ان ثورة ٢٣ يوليو — في الايام الاولى اللاحقة لقيامها — أبدت استعدادها لاعطاء « الوفد » ، باعتباره أكثر الاحزاب التي كانت قائمة وقتئذ تمثيلا للشعب ، الفرصة ليتولى الحكم . وذلك تحت شرط واحد ، هو أن يقوم بتنفيذ « قانون تحديد الملكية الزراعية » . ولكن « الوفد » لم يقبل تنفيذ « قانون تحديد الملكية الزراعية » كشرط للتعاون بينه وبين الثورة ، وذلك طبيعى ، فقد كانت قيادة «الوفد» العليا قد سقطت فى أيدى عدد من أكبر ملاك الاراضى ، وكان مستحيلا طبعا ، أن يوافق هؤلاء — برضائهم ، وبارادتهم — على « قانون » لم يكن من شأنه الا أن يسقط التيجان من فوق رؤوسهم ، ويجردهم من ذلك التسلط الباغى على مقدرات ملايين التعساء الذين كانوا يعيشون تحت رحمتهم .. فوق أرضهم . ! !

على ان هذه ، على أية حال ، لم تكن هى المرة الاولى التي تقدم فيها تلك الاحزاب الدليل على جمودها ، وتخلفها ، وأيضا على ارتباط مصالحها — على نحو مباشر — بمصالح الإقطاع الذى كان ، بدوره ، حليفا شرعيا للاحتلال، وللملك

فلقد حدث ، في سنة ١٩٤٧ ، ان تقدم احد اعضاء مجلس الشيوخ ، « المرحوم محمد خطاب » الى المجلس بمشروع لتحديد الملكية الزراعية ، بهدف تضييق تلك الفجوة المروعة التي كانت تفصل بين كبار الملاك ، وصغارهم ، واحيل المشروع الى لجنة الشئون الاجتماعية فى مجلس الشيوخ ، فأقرته . ولكن ، على صورة مبكية ، ومضحكة

•• وشر البلية ، كما يقولون ، ما يضحك • !!

فلقد كانت الصورة المبكية ، والمضحكة التي اقرت بها لجنة الشئون الاجتماعية فى مجلس الشيوخ ، مشروع العضو « محمد خطاب » كالتالى :

« لا يجوز أن تزيد ملكية الفرد من الاراضي الزراعية علي مائة فدان • علي الا يسرى هذا القانون علي الملاك الموجودين حاليا • ولا علي ورثتهم » • !!

اليس هذا شيئا مبكيا ؟! بل اليس هذا شيئا مضحكا! اليس فيه هو وحده الدليل الكافي على ان أولئك الناس كانوا قد اصيبوا بالصمم ، فلم يعودوا يسمعون شيئا من كل ذلك الهدير المخيف الذى كان يهدر من حولهم ؟! وانهم حين كانوا يجلسون ليشرعوا ، انما كانوا يشرعون لانفسهم ، ولمصالحهم ، ولمصالح ورثتهم من بعدهم ؟!

او لم يكن مبكيا ، ومضحكا فى نفس الوقت ، ان يضع احد المجلسين اللذين كان يفترض فيهمـــا انهما يمثلان الشعب ، قانونا يحمى المترفين ، والمتخمـــين •• ثم لا يكتفى بحمايتهم، فينص على حماية ورثتهم من بعدهم ؟!!

وعلي الرغم من أن هذا القانون ، بصورته المبكية ، والمضحكة ، التي أقرته بها لجنة الشئون الاجتماعية بمجلس الشيوخ ، لم يكن يسرى على الماضى ، وان الاقطاعيين •• بل وورثتهم أيضا ، كانوا سيبقون فى ظله، ، وتحت حمايته ، محتفظين باقطاعياتهم ، ومسيطرين على ممالكهم الصغيرة بكل ما عليها ، ومن عليها ، فان غالبية أعضاء مجلس الشيوخ لم توافق عليه • وأيضا لم توافق عليه الحكومة • وعلى ذلك ، قرر مجلس الشيوخ فى جلسته بتاريخ ١٦ يونيو سنة ١٩٤٧، رفض المشروع • ولم يشفع له لدى المجلس أنه كان قانونا هزيلا •• وسقيما •• ومضحكا ، ومبكيا معا •!!

من هذا كله ترى ان تلك المجموعة من الاحزاب •• سواء منها من كان يمثل الاكثرية ، ومن كان يمثل الاقلية •• انما كانت تعتنق افكارا واحدة ، وتحركها مصالح واحدة، وتتسلط عليها مخاوف واحدة •• فالحكومة التى رفضت

قانون عضو مجلس الشيوخ « محمد خطاب » ـ بعد ان مسخته لجنة الشئون الاجتماعية بالمجلس ، وحولته الى ذلك الشيء المضحك المبكي ـ هذه الحكومة ، كانت واحدة من حكومات « الاقلية » • على حين ان الحزب الذى رفض تنفيذ «قانون تحديد الملكية الزراعية» كأساس يقوم عليه التعاون بينه وبين الثورة ، كان هو الحزب الذى يمثل الاغلبية الشعبية المقهورة ، والمغلوبة ، دائمـــا ، على امرها .
ومع ذلك، فها نحن نري الاثنين : حكومة الاقلية•• وحزب الاغلبية .. يلتقيان فى موقفهما من تحديد الملكية الزراعية. فلم يكن اى منهما افضل من الاخر ، ولم يكن اى منهما اكثر رحمة بالشعب من الآخر .. كذلك لم يكن أى منهما أكثر تفهما لروح العصر من الاخر • !!

وفى ضوء هذه الحقائق جميعها ، نستطيع ان ندرك انه كان صعبا • بل كان مستحيلا أن يتحقق هدف واحد من تلك الاهداف التى كانت (الصحف الحرة) تعبر عنها ، وتدعو اليها ، وتبصر بها ، بينما ذلك النظام السياسى ، والاجتماعى قائم •• ومرتكز ، فى قيامه ، على ركائزه الاربع تلك • ومن ثم ، كان طبيعيا ان تأخذ حملـــة (الصحف الحرة) عليه ، وبشكل تلقائى ، صورة الدعوة الصريحة للثورة ضده ، والعمل على اسقاطه •

لقد كان ذلك كله سببا كافيا لكى يستمر هدير المدافع ولا يتوقف . فعلى الرغم من أن الشعب كان قد كسب معركته ضد الملك ، وضد حكومته ، وضد ذلك (القيد) الذي اراده الاثنـــــان مصـــنوعا من حديد . الا أن (المشوار) الى النصر النهائى كان لايزال طويلا. كان لايزال امام « الاحرار » معارك كثيرة ، ومريرة ، يتعين عليهم ان يخوضوها بكل الحب للوطن ، وبكل الولاء له ، وبكل الإيمان به ، قبل أن يصلوا الى هذا النصر النهائى .

الفصل الثامن

الشعب يخرج من الظل

حين اشرفت سنة ١٩٥١ على نهايتها .. كانت «مصر الرسمية» قد اضحت اشبه ما تكون برجل شيخ تكالبت عليه امراض الشيخوخة ·· كل شيء فيها يسوء ، ويتدهور وينهار · « الملك » ـ رأس الدولة ـ يفقـــد كرامته ، واعتباره ، وكل مبررات وجوده · و « الحكومة » التى كانت قد جاءت الى الحكم بناء على رغبة الشعب ، وبارادته ، تعجز تماما عن تلبية مطالبه ، ويسلمها العجز إلى نوع من الفساد الحزبى افقدها ، هى الاخرى ، كل سمعتها ، وكل اعتبارها ·· و « الزعماء الاخرون » يلزمون اماكنهم التقليدية فى مقاعد المتفرجين ، انتظارا لاشارة من اصبع « الملك » يحلون بعدها محل « الحكومة » التى كان تيار الفساد الحزبى قد جرفها أمامه ، ولم يعد لديها مايمكن ان تتوقى به النهاية التى بانت لها علاماتها ، وسمعت دبيب أقدامها ، الا الامعان فى العمل على الفوز برضـــاء الملك · وذلك بالاسراف فى تملقه وبالمبالغـــة فى الزلفى اليه، وبالمسارعة الى تنفيذ رغباته ، حتى قبل ان ينطق بها . !! ولم يمنعها من ذلك ، أن رغبات «الملك» هذه، لم يكن لها غير نبع واحد تنبع منه .. ذلك هو نبـــع الانحراف ، والشـــطط ، والتجـــاوز الكامل لكل حق ، ولكل قانون .

كانت تلك هي صورة « مصر الرسمية » في اخريات سنة ١٩٥١ . اما « مصر الشعبية » ، في نفس الحقبة ، فكانت صورتها شيئا آخر .. شيئا مختلفا تماما عن تلك التي كانت عليها صورة « مصر الرسمية » .. فبينما كانت هذه قد اضحت ، كما قدمت ، اشبه ما تكون برجل تكالبت عليه امراض الشيخوخة .. كانت «مصر الشعبية» قد تحولت الى بركان يغلي بالغضب ، وبالقلق ، وبالاستعداد المحموم للانفجار .

كانت « العناصر الحرة » في الشعب ، وفي الصحافة ، وفي الجيش ، تقوم بواجبها الوطني في تعبئة مشاعر الجماهير ، وفي ايقاظ وعيها ، وفي تعميق ايمانها بنفسها ، وبارادتها ، وبما تستطيع هذه الارادة أن تفعله .

وغدت كلمة (الثورة) من اكثر الكلمات تدفقا على أسنة أقلام (الكتاب الاحرار) . ولم يكن تدفق هذه الكلمة على أسنة أقلام هؤلاء الكتاب .. ضعيفا ، ولا خافتا ، ولا متلصصا . بل كان تدفقا قويا ، وعاليا ، وذا صوت مسموع .. أشبه بذلك الذي يحدثه موج غضوب يرتطم بالشاطيء . كما غدا (البحث عن زعيم) هما يقلق بال الناس جميعا ، ولم يكن لمثل هذا الهم أن يؤرق الناس الا نتيجة ليأس كامل من الزعامات التي كانت قائمة ، بعد أن عرفوها ، وخبروها ، ولم يكفروا بها الا بعد سنين طويلة من الصبر عليها ، ومن اليقين بأنها قد صدأت ، وتآكلت .. ولم يعد بوسعها ان تصنع شيئا ازاء « جبل الفساد » الذي ما من شك في أن كلا منها قد اسهم ، بقدر او بآخر ، في اقامته . !

في وسط هذا الجو الملبد بالغيوم ، والذي لم يعد فيه من بارقات الامل غير بارقة واحدة ، هي : «الثورة»

.. يقوم بها الشعب ، أو يقوم بها الجيش ، أو يقوم بها الشعب والجيش معا ـ أقدمت (حكومة الوفد) على خطوة وطنية شجاعة جمعت بها مشاعر الشعب كله من حولها ، وأنسته بها أخطاءها ، وقصورها ، وتقصيرها . ألغت الحكومة (معاهدة سنة ١٩٣٦) التى كانت قائمة بيننا وبين بريطانيا .. وهى المعاهدة التى كانت تكفل لبريطانيا حقا شرعيا فى احتلال أراضينا ، وفى استغلال مواردنا ومرافقنا ، الى أبعد حدود الاستغلال التى يمكن أن يباشرها جيش أجنبى يحتـــل أراضى دولة أخرى برضائها وموافقتها ، وبموجب (معاهدة) قائمة بينه وبينها !

أقدمت (حكومة الوفد) على هذه الخطوة الشجاعة فى أكتوبر سنة ١٩٥١ ، بعد أن كانت قد طلبـــت من بريطانيا ـ فى مارس سنة ١٩٥٠ ـ الدخول فى مفاوضات معها لتحقيق جلاء قواتها عن مصر ، ووافقت بريطانيا ـ كما هى العـــادة ـ على طلب الحكومة .. وبدأت المفاوضات ...

الا أن المفاوضات بين الجانبين ، وكما هى العـادة أيضا ، استطالت حتى بلغت ١٩ شهرا (من مارس سنة ١٩٥٠ الى سبتمبر سنة ١٩٥١) ، أقدمت ، بعـدها ، (حكومة الوفد) على هذه الخطوة الوطنية التى نجحت ـ باقدامها عليها ـ فى اشعال جذوة الحماسة فى صدور الشعب ، وفى الفوز بتصفيق خصومها وتأييدهم ، قبل تصفيق وتأييد أنصارها .

ولقد قيل فى تفسير هذه الخطوة الوطنية التى اقدمت عليها (حكومة الوفد) كلام كثير :

● **قيل ان (الوفد) أراد أن يغطى اخفاقه فى المفاوضات التى طالت ١٩ شهرا ، دون الوصول الى نتيجة ، فضلا عما كان منسوبا اليه من تساهل فيها ، بعمل يكون له تأثير خاص على مشـاعر**

الجماهير ، يصرفها عن محاسبة (الوفد) على اخفـــاقه فى المفاوضات ، وتساهله فيها .

● وقيل أن (الوفد) ، وقد وقع أثناء حكمه فى اخطاء فادحة ؛ كان من أبرزها سياسته فى ملاينة الملك . وهجومه من أجله ؛ ولحسابه ، على حصون الحرية ممثلة فى الصحافة ، وفى البرلمان، وفى القضاء ، هجوما غير متحرز ، وغير مبق على خطوط الرجعة - وهى السياسة التى خسر بها (الوفد) الشعب ، ولم يكسب الملك - أراد أن يغطى هذا كله بعمل يتسم بطابع الاقدام والجرأة ، ويلفت انظار الشعب عما وقع فيه من اخطاء فادحة ، الى هـذه المعركة الجديدة التى كان حتما أن ينصرف اليها الشعب عن كل ما عداها .

● وقيل ان (الوفد) اراد ان يقوى مركزه أمام الملك ، بعد اذ ترامى اليه انه كان يعد العدة لاقالته من الحكم ، على الرغم من كل ما قدم له من تنازلات ، وما حقق له من رغبات ، تمت جميعها على حساب الشعب ، وعلى حساب الدستور .. وكان من نتائجها ان خسر (الوفد) نفسه سمعته ، وأصيب فى الصميم من كيانه . وعلى ذلك ، أقدم (الوفد) على هذه الخطوة التى قدر سلفا انها سوف تكسبه تأييد خصومه قبل انصاره ، ليضع بها (الملك) فى موقف صعب لا يستطيع معه الاقدام على اقالته !!

قيل هذا الكلام كله فى تفسير اقدام (حكومة الوفد) على الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ . ولكن ، مهما يكن ما قيل فى شأن الاعتبارات ، والملابسات ، التى أملت على (الوفد) الاقدام على هذه الخطوة .. فانها ، فى حد ذاتها .. وبغض النظر عن كل اعتبار يمكن أن يكون قد أملاها ، أو أسهم فى املائها - ، جديرة بأن تسجل له كعمـــل وطنى تاريخى كان له من الأثر المباشر ، والعميق ، فى تجديد عزيمة الشعب ، وفى بعث روح الكفاح فيه ، ما لا يستطيع منصف أن ينكره .

***

أحدثت خطوة (الوفد) هذه دويا هائلا ، اهتزت له أوصال جهات متعددة .

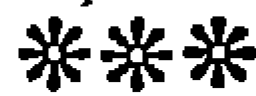
● اهتزت له أوصال الاحزاب التقليدية التى كانت

تعتمد « مهادنة الاستعمار » سياسة أساسية لهـــا . فرأت فى هـــذه الخطوة الجريئة تهديما لسياستها من الأساس ، وتعرية لها عند أنصارها !! ومن ثم ، مضت تنتقص من قيمة هذه الخطوة ، وتشكك فى قدرة (حكومة الوفد) على الثبات فيها !!

● واهتزت لهأوصال الاحتكاريين الذين كانوا يعتمدون « التعامل مع الاستعمار » أساسا لنشاطهم ، ولازدهار هذا النشاط ، ورأوا فى هذه الخطوة الوطنيـــة ضربة تصيب نشاطاتهم فى صميمها !!

● واهتزت له ، قبل الجميع ، أوصـــال الدوائر البريطانية ، فسارع (هربرت موريسون) وزير خارجية بريطانيا وقتها ـ الى الرد على اعـلان حكومة مصر ، بتصريح قال فيه :

« ان بريطانيا لن تتردد فى استخدام القوة ، اذا اقتضى الامر ، لابقاء قواتها فى منطقة قناة السويس . وانها لن تذعن لمحاولة مصر تمزيق المعاهدة » !!



وفى مساء ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ ـ نفس اليوم الذى قررت مصر فيه الغاء المعاهدة ـ أذاعت «السفارة البريطانية فى القاهرة » بيانا قالت فيه :

« ان الغاء الحكومة المصرية لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ـ من جانبها وحدها ـ عمل غير قانونى ، ويخالف أحكام المعـــاهدة . وان الحكومة البريطانية تعتبرها سارية المفعول ، وتعتزم التمســـك بحقوقها التى تكفلها لها هذه المعاهدة » !!

وتحدث زعيم بريطانيا العجوز .. (ونستون تشرشل) ـ وكان وقتئذ يتزعم المعارضة فى مجلس العموم البريطانى ـ تحدث أمام المجلس عن قيام مصر بالغاء المعاهـدة ، فقال :

« ان اقدام حكومة مصر على اجلاء الانجليز عن منطقة قنـــاة السويس ، يعتبر ضربة خطر ، واكثر مهانة لكرامة بريطانيا ، في اضطرارها الى الجلاء عن (عبدان) بايران » !!!

ولقد ترتب على الغاء المعاهدة ، من ناحية مصر ، الغاء جميع الاعفاءات التي كانت ممنوحة لجيش الاحتلال البريطاني بمقتضى تلك المعاهدة . ومن المهم أن تعرف أنها كانت تشمل كل شيء تقريبا : الرسوم الجمركية المهمات ، والاسلحة ، والعتاد ، ومواد التموين . وكذلك الرسوم المستحقة على مرور السفن التي كانت تعمل في خدمة القوات البريطانية ، وأجور النقل ، والاتصـــالات البرقية والتليفونية الخاصة بهذه القوات . وكذلك امتنعت الجمارك عن تقديم التسهيلات الجمركية الاخرى الخاصة بأولوية المرور ، والتفريغ ، والشحن ، الا بعد استيفاء جميع الاجراءات القانونية المفروضة على جميــع السفن الاجنبية . كذلك امتنعت السكك الحديدية عن أداء أية خدمة للقوات البريطانية ، أو نقل أى مهمات أو عتاد لها . كذلك امتنعت الحكومة ــ بصفة عامة ــ عن أداء التسهيلات ، والخدمات التي كانت تؤديها للســـــلطات العسكرية البريطانية ، وفي مقدمتها : مواد التموين . كما منعت وصول ضباط وجنود القوات البريطانية الى داخل البلاد . وحرمت على الرعايا البريطانيين المدنيين الذين كانوا يعملون في خدمة القوات البريطانية القادمين من الخارج ، دخول مصر ما لم يكونوا حاملين لجوازات سفر معتمدة من القنصليات المصرية في البلاد القادمين منها . كما أنهت الحكومة تصاريح الاقامة للبريطانيـــين الذين كانوا يقيمون بمصر بسبب الخــــدمة في القوات البريطانية ، أو لصالحها . كما منعت هبوط الطائرات العسكرية البريطانية بالمطـــارات المصرية ، أو تزويدها بالصيانات الجوية الفنية ، أو بأى نوع من التسهيلات .

وبدأت المعركة ... وكان لابد من ان تبدأ ...

فلقد ترتب على هذه القرارات المصرية أمران كان ، حتما ، ان يترتبا عليها : فقدت بريطانيا ، من ناحيتها ، رشدها.. وارتفعت روح الشعب، بالتالى، الى الذروة.

وكان العمال .. عمالنا .. هم أسرع الجميع الى دخول المعركة التى فجرت بريطانيا شرارتها الاولى بمحاولة للحفاظ على هيبتها . فبعثت الى منطقة القنال بثلاث ناقلات جنود تقل نحو ثلاثة آلاف من قواتها لتعزيز القوات البريطانية المرابطة فى منطقة القنال !!

وصلت هذه القوات الجديدة الى بورسعيد يوم ١٣ اكتوبر سنة ١٩٥١ . وما أن شرع الجنود فى ركوب القطارات التى كانت ستنقلهم الى معسكراتهم ، حتى روعوا بذلك المارد الذى كانوا يظنون انهم قد انتهوا من أمره بحبسه داخل قمقم لن يستطيع الخروج منه .

امتنع عمال السكة الحديد عن تزويد القطار الذى اعد لهم بالماء وبالوقود ، كما امتنعوا عن اعداده للسير.. ورفض سائق القطار ومساعده ، العمل فيه . كذلك رفض سائقو وعمال القطارات الاخرى التى كانت مخصصة لنقل القوات البريطانية العمل فيها . وترتب على ذلك وقف تسييرها ، فاضطرت السلطات البريطانية الى نقل الجنود ، والضباط ، وعائلاتهم الى المعسكرات فى سيارات الجيش البريطانى .

كذلك امتنع عمال الشحن والتفريغ فى موانىء القنال، عن تفريغ حمولة البواخر البريطانية . وفى الايام القليلة الاولى التى اعقبت الغاء المعاهدة ، ظل اكثر من سبع عشرة باخرة بريطانية تهيم فى القنال ، دون أن تستطيع الاستقرار ، ودون أن تستطيع انزال ما عليها من جنود وعتاد .. بعد أن تخلى عنها عمال الشحن والتفريغ :

ومضى العمال المصريون ، بكل الايمان بأنفسهم ، وبكل الولاء لوطنهم يكيلون الضربات لبريطانيا .. فامتنع من كان يعمل منهم في المعسكرات البريطانية عن العمل فيها . انسحبوا جميعهم منها .. وبلغ عدد العمال المنسحبين ٦٠ ألف عامل ، كانوا يعملون في المعسكرات البريطانية ، وفى ورشها ، ومصانعها ، واداراتها المختلفة .

ولقد أثبت العمال بموقفهم البطولى الرائع هذا ، انهم فى مستوى المعركة . كذلك أثبتوا أن الروح المصرى الذى ظن به البعض الظنون ، وحسبوا أنه قد مات وخمد .. لم يمت ، ولم يخمد . فقط ، كان مختبئا تحت الرماد !

وقابلت الحكومة هذا الموقف البطولى الذى قوى عزائمها ، وثبت أقدامها ، بما يستحقه من تأييد وتشجيع . فألحقت جميع العمال الذين انسحبوا من العمل فى المعسكرات البريطانية ، بمصالحها المختلفة ؛ وصرفت لهم أجورهم منذ انقطاعهم عن العمل . وأعلنت بلسان وزير الشئون الاجتماعية فيها — « عبد الفتاح حسن » — انه لن يبقى منهم واحد بغير عمل . ومن لم يتيسر للحكومة ايجاد عمل له ، لم تتردد فى أن تصرف له أجره . وذهب العمال ، من ناحيتهم ، الى مدى أبعد فى التضحية .. فقبلوا أن تصرف لهم الحكومة أجورا أقل من تلك التى كانوا يتقاضونها نظير عملهم فى المعسكرات البريطانية ! ومع ذلك ، فقد بلغ ما تحملته الحكومة لصرف أجور العمال المنسحبين ستة ملايين جنيه فى عام واحد .

وكان لهذا الموقف العمالى الرائع ، أثره العميق ، والبعيد فى الداخل ، وفى الخارج على السواء . ففى الداخل : اشتدت به ، كما قلنا ، عزائم الحكومة ، وثبتت أقدامها . وفى الخارج : فهم العالم ، وبريطانيا على رأسه ، أن القاعدة البريطانية فى قنال السويس ليست آمنة من الخطر . وان استمرارها وسط بحر

الكراهية التى يحيط بها ، لن يكون مجديا لبريطانيا ولا لحلفائها .. لا فى المستقبل القريب ، ولا فى المستقبل البعيد على السواء . !

***

وما هى الا أيام حتى كان الشعب كله قد خرج من الظل ليلقى بنفسه فى قلب المعركة .. وأخذت العناصر الثورية والوطنية فى صفوف الشعب ، وفى صفوف الجيش تنظم كتائب الفدائيين ، وتسلحها ، وتدربها ، وان هى الا الأيام قليلة ، حتى كانت منطقة القنال قد تحولت الى ميدان قتال حقيقى . فراح الفدائيون يهاجمون المعسكرات البريطانية ، ويهاجمون الجنود البريطانيين الذين كانوا يتساقطون بالعشرات تحت ضربات قنابلهم اليدوية .. بينما الانفجارات تدوى طوال الليل هنا ، وهنالك ، وفى كل مكان يقع فيه معسكر بريطانى !

وفقدت قيادة جيش الاحتلال السيطرة على أعصابها . فأصدرت الاوامر لجنودها باطلاق النار على كل شيء يتحرك .. سواء كان رجلا ، أو امرأة ، أو سيارة ، أو حتى مجرد جنازة !!

كانت أسلحة الجيش البريطانى أكثر . ولكن ايمان الشعب كان أعظم .

وبينما كان الشعب ، والفدائيون من أبنائه .. يخوضون فى منطقة القنال معركة انتحارية ضد قوات تفوقها عددا ، وعدة . كان « الملك » فى القاهرة يرتب لطعن الشعب فى ظهره . فلم يكن (الملك) ، من الأصل ، موافقا على الغاء المعاهدة . لكنه اضطر الى توقيع مراسيم الغائها اضطرارا . ذلك انه قدر ان امتناعه عن ذلك ، سوف يؤدى ــ بالضرورة ــ الى استقالة الوزارة التى لن تخفى على الشعب ــ اذا ما استقالت ــ أسباب

استقالتها . ومعنى هذا أن يكشف الملك للشعب عن وجهه القبيح كسليل للخيانة ، ويضع خيانته الموروثة فى قلب بؤرة من النور تفضحها .. وتعريها ! !

من هنا جاء اضطرار (الملك) الى الموافقة على الغاء المعاهدة . ولكنه ، فى ذات الوقت ، راح يؤكد للانجليز انه حافظ للعهد ، ومقيم على الولاء . ثم مضى يقدم لهم الدليل المادى على ذلك . فأصدر أمره ، فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ ، بتعيين احد رجالهم (حافظ عفيفى باشا) رئيسا لديوانه الملكى . ثم الحق هذا الامر بأمر آخر أصدره فى اليوم التالى مباشرة ، كأنه لا يستطيع أن يصبر ، بتعيين رجل آخر من رجالهم (عبد الفتاح عمرو باشا) سفير مصر فى لندن ، مستشارا خاصا فى الشئون الخارجية !!

وكما فهم الانجليز مغزى هذين الأمرين الملكيين بالنسبة لهم . فهم الشعب أيضا مغزاهما بالنسبة له . فانفجرت المظاهرات فى كل مكان احتجاجا على قرارات (الملك) .. ومضى الطلبة الى (قصر عابدين) فى مظاهرات صاخبة تهتف بسقوط « فيفى » ... و « حافظ عفيفى » .. وكان « فيفى الذى هتف الطلبة بسقوطه هو .. « فاروق » نفسه !!

وفى « ساحة عابدين » .. نفس الساحة التى قذف فيها (أحمد عرابى) فى وجه (الخديو توفيق) بكلمته التى حفظها ، عن ظهر قلب ، تاريخ كفاحنا الوطنى ضد الانجليز ، وضد الاسرة العميلة .. أسرة محمد على :

« لقد ولدتنا أمهاتنا احرارا ، ولن نستعبد بعد اليوم »

ـ فى نفس هذه الساحة التى قذف فيها ثائر من أبناء مصر بعبارته التاريخية هذه فى وجهه « خديو مصر » ، مزق الطلبة صورة «فاروق» وداسوها بأحذيتهم !! وكان

ذلك نذيرا للملك ، ليس أفظع منه نذير !

***

قبل ذلك بأيام كان الموقف فى منطقة القنال قد اشتعل نارا . كان الفدائيون قد شددوا هجماتهم على الانجليز . وكان طبيعيا أن يواجه الانجليز عنف الفدائيين هـذا بعنف أشد . فلم يكن أمنهم وحده هو الذى أضحى فى كف القدر . بل أيضا سمعتهم ، وهيبتهم ، التى مرغها الفدائيون فى التراب !

عزل الانجليز منطقة القنال عن بقية أجـزاء مصر . منعوا الخروج منها والدخول اليها .. وأخذت هجماتهم على مدن القنال وأحيائها تأخذ شـكلا وحشـيا .. استخدموا فيه الدبابات ، ومدافع الهاون ، وكل أسلحة القتال من خفيفة وثقيلة !!

وفى احدى هجماتهم الوحشية على مدينة السـويس أزالوا من الوجود قرية بأكملها .. هى قرية (كفر أحمد عبده) . بعد أن زحفوا عليها بقوة تتألف من حوالى ستة آلاف جندى تعـززها المدافع ، والمصـفحات ، والدبابات ... والطائرات أيضا !!

وقالت حكومة مصر فى مذكرة عنيفة اللهجة أبلغتهـا الى الحكومة البريطانية احتجاجا على هذا العمـل الوحشى ، وضمنتها ، فى نفس الوقت ، قرارها بسحب السفير المصرى (عبد الفتاح عمرو) من لندن ـ قالت الحكومة فى مذكرتها هذه : « ان مثـل هذه القـرية ، سيظل كمثل (دنشواى) منقوشـا على صفحات قلوب المصريين أثرا باقيا للفظائع ، واعمال الظلم ، والجبروت التى طالما ارتكبها الاحتلال البريطانى فى أرض الوطن »!

حدث ذلك فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٥١ ـ وبعـده .. راحت المعارك والأحداث ، تتلاحق ، وتتصاعد فى سرعة

وعنف شديدين . الانجليز ، من ناحيتهم ، يريدون قهر ارادة الشعب .. والشعب ، من ناحيته ، مصمم على عدم تمكينهم من قهر ارادته . ولم يتردد ، لحظة ، فى تقديم مئات الشهداء ، وآلاف الجرحى من صفوفه ، قربانا لهذا التصميم .

وبينما كان دخان المعركة يغطى كل شىء .. وبينما كان الانجليز ، فى منطقة القنال ، يقتلون ، ويدمرون ، ويحرقون .. وبينما كان (الملك) فى القاهرة ، يشحذ خنجره ، ويتهيأ لكى يخون . اذا بصوت كهزيم الرعد يدوى فجأة . فترتعد له فرائص (الملك) ، وفرائص الرجعية التى كانت تقف حوله ، ومن ورائه ، تزين له الخيانة ، وتشجعه عليها . كأنها كانت تجهل أن الخيانة تسرى مسرى الدم فى عروقه ، وأن مثله ليس فى حاجة الى من يشجعه لكى يخون !

كان ذلك الصوت الذى دوى كهزيم الرعد ، بينما دخان المعركة يغطى كل شىء .. فارتعدت له فرائص الملك ، وفرائص الرجعية التى كانت تقف حوله ، ومن ورائه ، هو : (صوت الضباط الاحرار) . وكان لارتعاد فرائص (الملك) ، من هذا الصوت بالذات ، ما يبرره . فلقد كان (الملك) — حتى آخر وقت — يتوهم .. ويوهمه أذنابه الذين فرضهم على رأس الجيش ، ان الجيش معه .. وانه ما دام الجيش معه ، فليس له أن يخاف شيئا ، ولا أن يقلق من شىء . واذ كان (الملك) لم يسمع ، عمره ، بالحكمة التى تقول : « من مأمنه يؤتى الحذر » . فانه لم يعر ما كان يعتمل فى نفوس الشباب من ضباط الجيش انتباها ، وظل مقيما على وهمه الكبير بأن الجيش جيشه ، وليس « جيش الشعب » ..

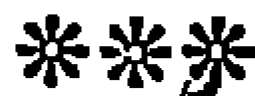
حتى جاءه (صوت الضباط الاحرار) يدوى فى سمعه بهذه الكلمات التى حملها اليه ، والى عملائه ، وأذنابه ، واحد من منشوراتهم التى كانوا قد بدأوا ، من سنتين سابقتين ، يطبعونها فى السر .. ويوزعونها فى السر .. لتقرأ فى العلن :

« ان هيئة الضباط الاحرار التى ترمى الى القضـــــاء على الاستعمار وتحقيق الاستقلال التام للوطن ، تعلن أنها تؤيد الحكومة فى الخطوات التى أتخذتها ضد الاستعمار . وتعتبر ذلك بداية للحرب المقدسة ضد أعداء الوطن ، يجب أن تتلوها خطوات أخرى حتى نصل الى الحرية والاستقلال . وتطالب بعدم الارتباط مع بريطانيا ، فهى العدو الطبيعى لنا ، وهى التى تحتل أرضنا ، وهى الحليفة الخائنة التى انتهزت محنتنا فى حرب فلسطين فمنعت عنا السلاح ، وسلحت اليهود حتى نفقد ثقتنا بأنفسنا وبجيشنا .

« ونطالب برفض الارتباط بحلف البحر الابيض المتوسط ، أو بغير ذلك من الاحلاف التى تدعونا اليها الدول الاستعمارية .. كالحلف المعروض علينا من أمريكا ، وانجلترا ، وفرنسا ، وتركيا .. والذى يوفر للكتلة الغربية ملايين المصريين الذين يموتون فى سبيل تدعيم الاستعمار ..

« ونطالب بتكوين جيش للتحرير لطرد الانجليز الغاصبين من القنــال . ونعلن استعدادنا للقيـــام بهـذا الواجب الوطنى مع المتطوعين من أفراد الشعب . فلن يخرج الانجليز من القنـــال الا بحرب العصابات ، كما خرجوا من فلسطين .

« ونطالب بأن تكون مهمة الجيش ، هى تحقيق استقلال البلاد .. ولا نقبل أن يستخدم الجيش للقضاء على الحركة الوطنية . فان الجيش جزء من الشعب . وآماله ، ومطالبـــــه ، هى آمال ومطالب الشعب . ولن تقوم للجيش قائمة الا فى بلد متحـــرر قوى » .



اذن .. فالشعب الذى كان يقاتل فى القنال ، لم يكن وحده فى المعركة . ان جيشه معه ، وضباطه الاحرار معه . فليجمع (الملك) وراءه ، ومن حوله ، ما يشاء

من الخونة والعمــــلاء . وليضيف الى « حافظ عفيفى » و « عبد الفتاح عمــرو » ، و « كريم ثابت » و « الياس أندراوس » ، من يشاء ، ومن يريد ... فلم تعد الكلمة له ، ولا للاحتلال ، ولا لواحد من عملاء الاحتلال هؤلاء . بل لقد صارت الكلمة للشعب، ولجيش الشعب.. يقولها كل منهم بطريقته ، وبأسلوبه . ولكنها ، فى كل الاحوال، كان لها من القوة ، ومن الدوى ، ومن الخطر ، ما كان حريا أن ينخلع له قلبه ، خاصة كلما مر بعينيه فوق سطور منشور (الضباط الاحرار) الذين قالــوا له فى كلمات حارقة كالنار ، وواضحة كضوء النهار ـــ ومن المؤكد انه كان يسمعها لاول مرة فى حياته : « ان الجيش ليس جيشه .. وانما هو جيش الشعب » .

***

وبينما كان هذا يحدث فى القاهرة .. فى قلب (قاعة العرش) ، وقريبا منها . كانت (معركة القنال) لا تزال دائرة بأقصى العنف بين الشعب وجيش الاحتلال الذى لم يترك له الشعب ، ولم يترك له الفدائيون فرصـــة يلتقط فيها أنفاسه .. وعلى الرغم من كل ما لجأ اليه جيش الاحتلال من قتل، وحرق ، وتدمير . فان الشعب لم يتراجع .. والفدائيون لم يتراجعوا. بل لقد ازدادت أعمالهم ـــ نتيجة لهذا كله ـــ جرأة وعنفا . الى حد انهم حاولوا ، فى ٣١ ديسمبر ١٩٥١ ، اغتيال (البريجادير جنرال اكسهام) ، قائد القوات البريطانية فى منطقــة الاسماعيلية ـــ بأن قذفه بعض الفـــدائيين ، أثناء توجهه الى (القصاصين) ، بثلاث قنابل يدوية أخطــأته .. وقتلت قائد سيارته !!

عندئذ ، لم يطق القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الاوسط صبرا على تلك النيران التى كانت تصب

على رؤوس جنوده ، فى منطقة القنال ، من كل مكان .. ومن أى مكان . فانتهز فرصة وصوله الى مقر قيادته فى (فايد) عائداً من لندن ، فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ ـ نفس اليوم الذى حاول فيه الفدائيون اغتيال (اكسهام) ـ وأدلى بتصريح خطير قال فيه :

« انه لخطأ كبير أن يتخيل أى انسان ، أن أعمال الضغط ، والارهاب ، وما يتلوها من نتائج لا مفر منها ، تؤثر ، بأى شكل من الاشكال ، فى عزمنا على الاحتفاظ بمركزنا فى منطقة القنال . واذا اقتضت الضرورة ، فاننا سنستمر فى أعمال المقاومة شهرا فى أثر شهر ، بل ولشهور عديدة اذا احتاج الامر . وسنقابل القوة بالقوة . مستخدمين من جانبنا ما لا يزيد عن الحاجة . ولدينا القوة الكافية تحت تصرفنا . كما لدينا التأييد من عدة بلاد أخرى . فلا يخدعن امرؤ نفسه بالتفكير فى اننا سنغير سياستنا مع مرور الوقت ، أو نتيجة للارهاب » !

لم يكن هناك ما هو ادق فى الاعتراف بفداحة الكارثة التى حلت ببريطانيا ، من هذا التصريح الذى قصد منه القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الاوسط ، أن يكون تخويفا للشعب ، وللفدائيين من أبنائه . فاذا هو يجيىء اعترافا صريحا ، ودقيقا ، بأثر الضربات التى كان الشعب يوجهها الى جيش الاحتلال . الامر الذى اضطره الى التهديد بالرد عليها لا بقوة بريطانيا وحدها ، بل وبقوة بلاد عديدة أخرى . قال : « ان لديه التأييد منها » !!

وترتب على هذا التصريح ما كان متوقعا . ازدادت أعمال قوات الاحتلال وحشية وعنفا . فتعرضت مدن القنال الكبرى . بل وقراها جميعا لهجمات بريطانية بالغة الوحشية ، واجهها الفدائيون ببسالة رائعة ، سجلتها الصحف البريطانية نفسها ، واعترفت لهم بها . فكتبت صحيفة (الديلى ميرور) تقول :

« لا نستطيع ، بعد اليوم ، أن نقول عن قوات التحرير المصرية ،

المؤلفة من شباب متحمس • انها احدى الدعايات المضحكة • لقد دخلت المعركة بين مصر وبريطانيا في دور جديد • فلقد استمر القتال ، يوم السبت الماضي ، يوما بأكمله • وظل الطلبة المتحمسون يحاربون فرق (الكاميرون) ، و (الهايلاندرز) باستماتة عجيبة » !!

● وقالت جريدة (نيوز كرونيكل) تصف معركة دارت في يومى السبت ، والاحد : ١٢ ، ١٣ يناير سنة ١٩٥٢ في منطقة (التل الكبير) :

« انها أولى المعارك المنظمة تنظيما جيدا • فقد ثبت المصريون في القتال ، ولم يركنوا الى الفرار • حتى لقد علق أحد الضباط الانجليز على هذه المعركة فوصفها بأنها أعنف من أى معركة خاضوها أيام الانتداب البريطانى في فلسطين • » !!

● بينما قالت (التيمس) في وصف المعركة نفسها :

« ان معظم الضباط الانجليز الذين اشتركوا في القتال متفقون على أن المصريين حاربوا ببسالة فائقة ، وان كثيرين منهم كانوا يصيبون الاهداف أصابة محكمة • ولقد كان من أعمال الشجاعة النادرة أن يتصدى هؤلاء المصريون لثلاث مجموعات من قوات المشاة الانجليز التى تعتبر من خيرة القوات البريطانية ، والتى كانت مؤيدة – في نفس الوقت – بالدبابات » !!

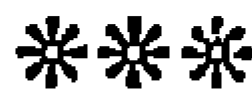
***

هكذا مضى أبناؤنا يقاتلون الانجليز ... كانوا يفقدون في كل معركة شهداء عظماء .. عظماء بشجاعتهم ، وبسالتهم ، وبايمانهم . ولكنهم على هدى النور المتدفق من دماء هؤلاء الشهداء ، كانوا يبصرون طريقهم .. كانوا يبصرون النصر ، ويزدادون تعلقا به ، وسعيا نحوه • وكان من شأن ذلك كله أن ازدادت المعارك شراسة .. خاصة من جانب قوات الاحتلال التى قلت لك انها لم تكن تقاتل دفاعا عن أمنها وأرواحها فحسب . بل وأيضا دفاعا عن سمعتها التى كانت قد انهارت ، حتى وصلت الى الحضيض ! .

حتى اذا كانت ليلة الجمعة ، ليلة الخامس والعشرين من

يناير سنة ١٩٥٢ ـ احتشدت ،في مواجهة مبنى محافظة الاسماعيلية ، قوات بريطانية هائلة ، تؤيدها الدبابات ، والمصفحات ، ومدافع الميدان ، بهدف محاصرة مبنى المحافظة وثكنات بلوكات النظام . كان هذا الحشد العسكرى مقدمة لأحداث رهيبة شهدتها المدينة ، وتحدث عنها العالم ، وكان لها ـ فيما بعد ـ آثارها المباشرة ، والعميقة ، على مجرى التاريخ .. ليس في بلدنا فحسب ، بل فى المنطقة العربية بأسرها .

وليس فى هذا الذى أقوله أية محاولة من جانبي للتضخيم من آثار الاحداث التي شهدتها مدينة الاسماعيلية في ذلك اليوم التاريخى . فلقد كان « حريق القاهرة » الذى وقع فى السادس والعشرين من يناير من تلك السنة ، بمثابة رجع الصدى لما وقع بالاسماعيلية فى اليوم السابق عليه . وترتب على « حريق القاهرة » أن انتهز (الملك) فرصته ، ليطعن كفاح الشعب في ظهره . فكانت (ثورة ٢٣ يوليو) ، بدورها ، هى رد الفعل الطبيعي لخيانة الملك لكفاح الشعب . أما ما ترتب على قيام (ثورة ٢٣ يوليو) نفسها من آثار في مصر ، وفى المنطقة العربية بأسرها .. فما أظننى فى حاجة لان أعود فأذكرك به ..



ونعود معا الى (الاسماعيلية) ، وما حدث فيها ..

ففى الصباح المبكر (منتصف الساعة السادسة !!) من يوم الجمعة ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ . دعا القائد البريطانى لمنطقة الاسماعيلية (البريجادير اكسهام) ، ضابط الاتصال المصرى (البكباشى شريف العبد) الى مقابلته بمنزله . وهناك سلمه انذارا بريطانيا ، طلب فيه تسليم أسلحة جميع قوات رجال البوليس من بلوكات النظام ، وغيرهم من الموجودين بالاسماعيلية ، وجلاء تلك القوات عن دار المحافظة ، وعن الثكنات ، مجردة من أسلحتها .. فى الساعة السادسة والربع من صباح ذلك اليوم ، ورحيلها عن منطقة القنال جميعها !!..

أبلغ الضابط المصرى (الانذار البريطانى) الى المسئولين فى المحافظة وفى بلوكات النظام ، فرفضوه .. واتصلوا ، فورا ، بوزير الداخلية (فؤاد سراج الدين) ، وأبلغوه أمر (الانذار) ، وموقفهم منه . فأقرهم عليه . وطلب منهم ـ زيادة على ذلك مقاومة أى اعتداء يقوم به الانجليز على دار المحافظة ، أو على ثكنات بلوكات النظام ، أو على رجال البوليس ، أو على الاهالى ، ومقابلة القوة بالقوة ، والصمود فى المقاومة حتى آخر رصاصة فى جعبة هذه القوات .

أبلغ قائد البوليس المصرى ، رد مصر على (الانذار البريطانى) الى (اكسهام) الذى عاد اليه بعد قليل ليبلغه : (انه اذا لم تسلم القوات المصرية أسلحتها فورا فستهدم دار المحافظة ، والثكنات على من فيها) !!

ومثلما رفض قائد البوليس المصرى (اللواء احمد رائف) الانذار الاول ، رفض التهديد الثانى ، وأمر القوات التى تحت قيادته بالمقاومة الى النهاية .. اذا نفذ الانجليز تهديدهم .

ولم يكن ممكنا ـ وقد انهارت سمعة الانجليز ، وتدهورت هيبتهم ـ أن يتراجعوا ، فتزداد هيبتهم تدهورا على تدهور . ولعلهم ، من الاصل ، لم يقدموا على هذه الخطوة الجنونية الا كمحاولة لانقاذ هذه الهيبة مما لحق بها من تدهور ، وانهيار !!

ومن هنا ، فانه لم تكد تمضى دقائق قليلة .. حتى كان الانجليز ينفذون تهديدهم . فمضوا يطلقون مدافعهم على مبنى المحافظة ، وعلى ثكنات بلوكات النظام .. بينما راحت الدبابات ، والسيارات المصفحة تمطر رجال البوليس بسيل من قذائفها ، وطلقاتها .

كان الفارق بين القوتين المتقاتلتين هائلا ، فلم تكن

قوة رجال البوليس المصرى تزيد فى عددها عن ٨٨٠ جنديا . منهم ٨٠٠ كانوا بثكنات بلوكات النظام . و ٨٠ بمبنى المحافظة . وجميعهم لم يكونوا مسلحين بغير البنادق . على حين ان قوة الانجليز المهاجمة كانت تبلغ نحو ثلاثة آلاف جندى مسلحين بالدبابات، وبالمصفحات، وبالمدافع الثقيلة والخفيفة !!

وعلى الرغم من هذا الفارق الهائل بين القوتين المتقاتلتين ، فقد استماتت رجال البوليس فى الدفاع عن مواقعهم . ودارت بين الفريقين معركة دموية رهيبة ، استمرت ساعتين كاملتين ، ضرب فيها رجال البوليس ، من ضباط وجنود ، مثلا رائعا من أمثلة البطولة التى تنحنى لها الرؤوس اجلالا . فلقد ظلوا يدافعون عن مواقعهم .. وعن شرفهم ، قبل مواقعهم ، حتى آخر طلقة معهم . وعندئذ ، اقتحمت الدبابات البريطانية ثكنات بلوكات النظام ، وأسرت من بقى حيا من أولئك الابطال !

وفى الوقت الذى تغلبت فيه الدبابات على البنادق .. والذى قاتل فيه جنود بلوكات النظام حتى آخر طلقة فى جعبتهم ، كان الاخرون من زملائهم المحاصرين بمبنى المحافظة لايزالون يقاتلون ، ويقاومون ، ويستميتون فى المقاومة على نحو اثار دهشة الانجليز ، وذهولهم .. وأيضا جنونهم !!

واذ رأى الانجليز عنف هذه المقاومة . فانهم لم يملكوا الا أن يخطوا على طريق الجنون خطوة أوسع . فهددوا بنسف مبنى المحافظة على من فيه ، اذا لم تسلم القوة المدافعة سلاحها . ولكن قائد القوة (اليوزباشى مصطفى رفعت) رفض الاستجابة لتهديد الانجليز ، ورد عليهم بقوله : « لن يتسلم منا البريطانيون الا جثثا هامدة »!!

كان « العار » ، وليس « الموت » هو مايتوقاه هؤلاء الابطال . كان « الشرف » ، وليس « الحياة » هو ما ينشدونه . ومن هنا ، استمروا يقاتلون ، ويقاومون ، ولم يضعف من مقاومتهم أنهم كانوا يرون بعيونهم ، ومن مواقعهم التى كانوا يقاتلون منها ، مبنى المحافظة وهو يتساقط قطعة بعد قطعة ، تحت ضربات المدافع . فبقوا على تصميمهم على المقاومة حتى نفدت ذخيرتهم . وعندئذ ، كان حتما ان يفرض « الامر الواقع » نفسه عليهم ، وبالتالى .. كان حتما ان يستسلموا اليه .

سقط من جنود البوليس فى هذه المعركة الدموية الرهيبة خمسون شهيدا ، واصيب ثمانون بجراح خطيرة . وأسر الانجليز من بقى حيا من أولئك الابطال وعلى راسهم (اللواء أحمد رائف) .. و (اليوزباشى مصطفى رفعت) . ولم يفرجوا عنهم الا فى شهر فبراير .

***

كانت تلك هى « معركة الاسماعيلية » بجانبها المفعم بالبطولة ، والفداء ، والشرف : صنعه المصريون . وبجانبها المفعم بالوحشية ، وبالنذالة ، والخسة : صنعه الانجليز . فاستحقت بجانبيها : هذا ، وذاك ، أن تكون مقدمة لتلك الاحداث التاريخية الجسام التى أعقبتها ، وكانت من مستواها .

ولست أستطيع أن أختم هذا الفصل من الكتاب ، دون أن أسجل أنه كان هناك من حاول أن يخطىء الامر الذى أصدره وزير الداخلية (فؤاد سراج الدين) لقيادة قوات البوليس بالمقاومة ، حتى اخر طاقة معهم ، فى مواجهة قوات تتفوق عليهم ، عددا ، وعدة . وما أظن - بالمقاييس الصحيحة للشرف - أن يعد قرار « سراج الدين » خطأ . انما الخطأ الحقيقى الذى يبلغ مبلغ « العار » ، هو أن يسلم الجندى سلاحه ايثارا للسلامة ، أو حفاظا على الحياة . فان الرجال يذهبون ، ويجىء غيرهم بالعشرات مع

صباح كل يوم جديد • أما « الشرف » ـ خاصة اذا كان هـــذا الشرف شرف أمة ، وليس شرف فرد ـ فانه حين يذهب لن يعود • ولن يعوضنا عنه شيء آخر مهما كان ، ومهما كانت قيمته •

ويقيني ، أنني ما كنت مستطيعا أن أتوقف عند « معـــــركة الأسماعيلية » هذه مثلما توقفت عندها ، الان ، لاعيد على سمعك تفاصيل وقائعها ، لولا ما أحاط بها من شرف •• ولولا ما تخللها من بطولات ، جعلت منها (مرآة) يسعد المرء أن يعود اليها ، بين الحين والحين ، ليرى فيها نفسه : انسانا يخشى « العار » ولا يخشى « الموت » •• وينشد « الشرف » ، ولا ينشد « الحياة » •فان الحياة ـ أشرف ما تكون الحياة ـ هي أن تعرف كيف تموت دفاعا عن شرفك •• وان تعرف كيف تموت دفاعا عن أرضك ، وعرضك •• وبغير ذلك ، لا تساوى الحياة ، بكل ما فيها من متاع ، حفنة من ذلك التراب الذى ندوسه بأقدامنا •

وعلى هذا ، فان (سراج الدين) لا يستحق اللوم عـلى الامر الذى أصدره لرجال البوليس بالمقاومة ، وبالصمود فيها لاخر طلقة معهم • الا بمقدار ما يستحقه رجل قاوم لصوصا مسلحين كانوا يحاولون السطو على أرضه ، وعرضه ، فمضى يقـــاوم هؤلاء اللصوص حتى سقط شهيدا دون أرضه وعرضه •

الفصل التاسع

القاهرة.. من الذى أحرقها ؟!

طارت الاحداث على جناح الريح ...

ففى مساء ذلك اليوم التاريخى : الجمعة ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ ـ اذاعت وزارة الداخلية ، عن طريق الراديو بيانا للشعب ضمنته تفاصيل تلك الاحداث الدموية الرهيبة التى كانت مدينة (الاسماعيلية) مسرحا لها .

لم تكن الحكومة تقصد أن تثير خواطر الشعب بهذا البيان .. فقط ، أرادته ان يكون موصول الصلة بكفاح ابنائه الذين كانوا يقاتلون بشجاعة ، وبسالة نادرتين .. متخذين من منطقة القنال مسرحا رائعا لشجاعتهم ، وبسالتهم .

لكن الاحداث بتفاصيلها الاليمة .. وربما اشتملت عليه هذه التفاصيل من صور الوحشية التى حارب بها الانجليز معركة الاسماعيلية ، لم تدع للشعب قدرة للسيطرة على نفسه . كان ذلك صعبا . بل كان مستحيلا ومن ثم ، فقد لاح ـ فى اعقاب اذاعة البيان الحكومى مباشرة ـ ان المشاعر تتهيأ لاضطرام جديد .

وكانت هذه المشاعر التى لاح ، فى مساء الجمعة ، انها تتهيأ لاضطرام جديد ـ كانت على موعد مع الصباح المبكر من يوم السبت ٢٦ يناير . ففى السادسة من صباح هذا اليوم ، تجمع جنود بلوكات النظام فى القاهرة

بثكناتهم فى العباســية ٠٠ ثم غادروها وهم يحمـلون أسلحتهم فى مظاهرة عسكرية صاخبة تهتف بســقوط الانجليز ، وتطالب بالسلاح للذهاب الى القنال .

قطعت المظاهرة ، بصورتها هذه ، قلب العاصمة كلـه حتى وصلت الى جامعة فؤاد (جامعة القــاهرة الآن) وهناك انضم اليها طــلابها ، واختلطت هتـافاتهم بهتافاتها ، ومشاعرهم بمشاعرها .. وعادت المظاهرتان .. أو المظاهرة الواحدة التى اجتمع فيها جنود بلوكات النظام وطلاب الجامعة فى صف واحد ، وفى مشــاعر واحدة ـ عادت الى قلب العاصمة وهى ماتزال تضـج بالسخط ، وبالهتاف ، منادية بسـقوط الاســتعمار والمستعمرين ..!

وفى قلب القاهرة .. التقت هذه المظاهرة التى جمعت بين الطلبة والجنود فى صف واحد ، وفى مشاعر واحدة ـ التقت بعدة مظاهرات اخرى قامت بها طوائف الشعب المختلفة ، اظهارا لمشاعرها ، واعلانا لسخطها .

اتجهت هذه المظاهرات جميعها الى رئاســة مجلس الوزراء ، والى « قصر عابدين » ، وهى تهتف بطلب السلاح ، وبالذهاب الى القنال للانضمام الى أولئـك الذين كانوا يقدمون أرواحهم بسخاء ، فداء لوطنهم . فلما أن جاء ظهر ذلك اليوم ، كان غليان النفوس قد بلـغ ذروته . وأخذت المؤشرات جميعها تشير الى أن انفجارا ما وشيك الوقوع .

وما هى الا لحظات حتى حدث الانفجــار الذى كان متوقعا . ومن اسف أن عناصر دخيــلة على صفوف الشعب أرادت له أن يعبر عن نفسه بالنار ، وبالحريق . فلقد امتدت بعض الايدى الخائنة فأضرمت النيران فى « كازينو اوبرا » ، وانهالت عليه تخريبـا وتدميرا ..

وبنفس السرعة المذهلة التى انتشرت بها النيران فى (كازينو أوبرا) انتشرت العدوى بين المتظاهرين . فاذا النار تشتعل فى كل مكان من المدينة الجميلة .. واذا هى تأكل اشهر متاجرها ، وافخم مبانيها . وانطلقت الجماهير ـ بغير اتفاق بينها ، وبغير خطة ، وبغير قيادة ـ انطلقت تحرق ، وتخرب ، وتدمر ، وتحيل (القاهرة) فى ساعات قليلة ، الى كومة من الانقاض والخرائب !!

وهكذا ... فى خلال ست ساعات فقط ـ من السادسة صباحا حيث بدات مظاهرة جنود بلوكات النظام ، الى الثانية عشرة ظهرا ، حيث بدأ أول عمود من النار يأكل (كازينو اوبرا) ـ كانت نكبة من أفدح النكبات قد حلت بعاصمة مصر ، وبمصر نفسها . وبكفاحها الذى كان مشتعلا فى قلب القنال . فلقد أكلت النيران ، فى هذه الساعات القليلة ، كل ما هو نافع ، وتاريخى ، وجميل ، فى العاصمة الجميلة . أكلت النيران ٣٠٠ من المتاجر ، من بينها أشهر المتاجر التى تعرفها الان : (شيكوريل) ، و (شملا) ، و (هانو) وغيرها . كما أكلت ١٣ فندقا من الفنادق الكبرى ، من بينها : فندق (شبرد) ، وفندق (متروبوليتان) ، وفندق (فيكتوريا) . كذلك أكلت النيران ٤٠ دارا للسينما ، من بينها : سينما (مترو) وسينما (ريفولى) ، وسينما (راديو) ، وسينما (ديانا) . كذلك اكلت النيران ٧٣ مقهى ، ومطعم ، وصالة من بينها : (جروبى) .. و (الامريكين) . كما أكلت ١٧ مكتبا من مكاتب الشركات والاعمال و ٩٢ بارا ، و١٦ ناديا منها (نادى محمد على) .. و (نادى رمسيس) .. ونادى (دار العلوم) .. و (النادى اليونانى) !!

ومما يستوقف النظر فى هذه الكارثة الفادحة ، أن النيران التى التهمت ، فى ساعات قليلة ، كل قلب العاصمة الجميلة ، وحولته الى خرائب وانقاض ، لم تتوقف عند هذا الحد ، ولم تقلع به ، فاذا هى تمد ألسنتها الى أطراف المدينة .. فتلتهم (الاوبرج) فى الجيزة . وتلتهم (نادى شل) .. و (سينما هونولولو) فى حدائق القبة !!.

***

اذهلت هذه الجريمة البشعة الناس عن أنفسهم ، اذ

كانت من الفداحة ، كما رأيت ، بحيث أقامت مأتما فى كل بيت ، واعتصرت بالحزن كل قلب . ولكن الناس ، بعد أن استفاقوا من ذهولهم ، أخـــذوا يبحثــون عن « المستفيد » من هذه الجريمة المروعة ...

اتجهت انظار الناس ، على الفور ، الى (الملك) .. والى (الانجليز) معا . فلقد كان معروفا لدى الجميع ، كما ذكرت لك من قبل ، أن (الملك) لم يكن يوافـــق حكومته على قرارها بالغاء المعاهدة . وانه اذا كان قـد قبل أن يوقع مراسيم الغائها ، فقد فعل ذلك مضـطرا ومن باب مخادعة الشعب عن حقيقة ما يدور بداخل نفسه .. ثم راح ، من بعد ذلك ، يتصرف على نحو يؤكد به ولاءه للانجليز ، وارتباطه بهم ، واعتماده عليهم . !!

فهل تراه قد دبر لهذه الجريمة البشعة ليتخذ منهـــا فرصة للاطاحة بالحكومة التى أرغمته على ما يكره ، ولانقـاذ أصدقائه الانجليز من غضبة الشعب التى أحاطت بهم فى منطقة القنــــال فى صورة كفاح منظم ، كلفهم الكثير من الارواح والاموال ، وبدد أمنهم ، وأهدر هيبتهم ؟!.

واذا كان (الملك) لم يفعلها .. فهل فعلها حلفاؤه (الانجليز) ودبروا لها كما دبروا (لمذبحـــة اسكندرية) التى وقعت فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ ، ليتخذوا منها ذريعـــة لضرب الاسكندرية ، بأساطيلهم فى ١١ يوليو من نفس السنة ، ولاحتلال مصر كلهـــا من بعد ذلك ؟!.

ما من شك فى ان احدى هاتين القوتين ــ أو كلتاهما معا ــ كانت لها فائدة حقيقية من وراء مثل هذه المؤامـــرة . فاذا لاحظنا أن تعثر كفاح الشعب فى القنال ، والتواءه ، ثم توقفه .. بعد الاطاحة بحكومة الوفد من الحكم ، كانا من أول النتائج التى ترتبت عليها . كان لنا أن نقول ان التفات الناس الى هاتين القوتين : (الملك) .. و(الانجليز) ــ باعتبار أن واحدة منهما ،أو كلتيهما، كانت وراءالتدبير لهذه الجريمة البشعة ــ انما هو التفات يقوم على أساس

من المنطق الذى تدعمه شواهد متعددة .

ففي ذلك اليوم المشئوم : ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . كان (الملك) قد أقام ، فى قصره بعابدين ، مأدبة غذاء كبرى ـ ابتهاجا بميلاد (ولى العهد) ـ الامير أحمد فؤاد ـ دعا اليها معظم الضباط الكبار فى الجيش ، وفى البوليس . ولقد انصرف هؤلاء جميعا ، منذ مطلع النهار ، الى اعداد انفسهم لهذه المأدبة الملكية الكبرى ، ثم الى التوجه اليها ، والبقاء فيها طوال الوقت الذى كانت فيه النيران قد بدأت تأكل القاهرة ، فى غيبة من رجال البوليس الذين غاب قادتهم ، بدورهم ، فى ضيافة (الملك) !!

وعلى الرغم من أن (معركة الاسماعيلية) الرهيبة ، كانت قد وقعت فى اليوم السابق مباشرة لهذه المأدبة الملكية ، وان الظروف جميعها كانت تدعو (الملك) الى الغائها ، مشاركة للشعب فى مشاعره نحو شهدائه الذين كانت دماؤهم ماتزال تجرى ساخنة على أرض المعركة ، الا أنه لم يشأ أن يفعل ما كانت الظروف كلها تدعوه لان يفعله !.

صحيح أن الاعداد لهذه الحفلة ، والدعوة اليها ، كانا قد تما قبل أن تقع (معـــــركة الاسماعيلية) ، الا أن تمسك (الملك) باقامتها ، بعد أن وقعت تلك المعركة ، ثم الاصرار على الاستمرار فيها بينما كانت القاهرة تحترق .. وبينما معظم قادة الجيش ، والبوليس ، محتجزون فيها ، كل ذلك يحيط (الملك) بأشد الارتياب فى أنه كان من وراء التدبير لهذه الجريمة البشعة ، وانه اذا لم يكن قد دبر لها بنفسه ، فانه ـ فى أضعف الايمان ـ كان شريكا فيها ، وسعيدا بها ، وراضيا عنها ـ باعتبار أنها سوف تمكن له من تحقيق عدة أهداف كان يسعى الى تحقيقها . وأولها : ضرب كفاح الشعب فى القنال ، انقاذا للانجليز من وطأته .

ودليلنا على ذلك ، انه ـ وهو « الملك » ، الذى بلغه ان عاصمة بلاده تحترق ـ لم يبادر الى صرف قادة البوليس على الأقل ، من حفلته ليقوموا بواجبهم الوطنى فى قيادة جنودهم فى محاولة للسيطرة على ذلك الانفجار المروع الذى التهم العاصمة ، ودمرها . ! !

ولقد حاول « الملك » ــ ومن ورائه اجهزته ــ ان يلصق جريمة حرق القاهرة (بالحزب الاشتراكى) بالذات .. وبزعيمه (احمد حسين) ، وببعض العناصر الوطنية الاخرى التى كانت تسبب له ، ولبطانته ، ازعاجا شديدا. والقى القبض بالفعل ، على (احمد حسين) ، وعلى عدد غير قليل من انصاره بتهمة حرق القاهرة .. الا ان رحمة الله تداركتهم جميعا ، فسقط (الملك) . وبرأ القضاء ساحتهم .

كانت هذه المحاولة من جانب (الملك) ، وأجهزته ، تأكيـــدا آخر لذلك الارتياب الشديد في أنه كان من وراء هذه المؤامرة . اذ رأى الناس فيها صرفا لهم عن الالتفات الى المجرم الحقيقى الـذى لم يكن يداخلهم أقل شك فى أنه واحد من اثنين : (الملك) ، أو (الانجليز) .. أو كلاهما معا .



وليس من شك فى ان مصلحة (الانجليز) من وقوع مثل هذه النكبة كانت مساوية تماما لمصلحة (الملك) ، ان لم تزد عليهـــا ، لانه اذا كان موقـــع (الملك) من (الانجليز) ، هو موقع التابع من المتبوع ــ وهذه حقيقة لاخلاف عليها ــ الان المتبوع، أعنى (الانجليز)، هم الذين كانوا يصطلون بتلك النار التى صبها الفدائيون على رؤوسهم فجأة ، اكثر مما كان يصطلى بها (الملك) نفسه . ومن ثم ، فان اشتراك (الانجليز) مع (الملك) فى التدبير لهذه المؤامرة ، بدفع بعض عملائهم ، واعوانهم ، وسط تلك المظاهرات الشعبية التى بدأت سلمية وبريئة ، ليحدثوا بعض الحرائق هنا ، وبعض الحرائق هناك ، ثم يتركوا الامر ، من بعد ذلك ، للروح التى تتسلط على (الجماعة) فى مثل هذه الظروف ــ امر يقول به العقل

ولا ينهض وقوع بعض حوادث التخريب على بعض الممتلكات الانجليزية دليلا على براءة الانجليز ، وعملائهم ، من هذه المؤامرة

البشعة . فلقد حدثنا التاريخ عن وقائع كثيرة ، دلل فيهـــا الانجليز على أنهم مستعدون ، دائما ، لان يضحوا بأعظم رجالهم، وبأكثر أموالهم ، فى ســـبيل هدف يرون فى تحقيقه مصلحة للامبراطورية !!.

كذلك لا ينهض دليلا على براءة (فاروق) من هـذه الجريمة ، ما قاله بعض الذين كانوا بجواره فى مساء يوم الحادث ، ووصفوه بانه كان يرتعد كالاطفال من هول منظر النيران وهى تتصـاعد فى سماء القاهرة ـ لا ينهض هـــذا الرعب دليلا عـلى براءة (فاروق) . فالثابت ، تاريخيا ، أن (نيرون) بعد أن أحرق (روما) .. وبعد أن راح يغنى على قيثارته منتشيا بذلك المشهد المروع .. مشهد النيران التى أشعلها بنفسه لكى تلتهم عاصمة ملكه . عاد فاستولى عليه رعب شديد من هـــذه الجريمة التى كان ، قبل لحظات ، يغنى على قيثارته منتشيا بها . وأدرك أن الشعب لن يتركه بغير قصاص ، فسارع الى اتهام دعاة المسيحية ، فى ذلك الوقت ، بأنهم هم الذين أحرقوا (روما) .. وأسلمهم الى الاسود الجائعة لتأكلهم عقابا لهم على جريمة لم يقترفوها !!.

ولست اؤكد على اتهام (الانجليز) .. و (الملك) .. بتدبير حرق (القاهرة) ، مدفوعا بمشاعرى الخاصة نحوهما . فلقد سبقنى الى هذا الاتهام كتاب اجانب لعلهم لا يحملون شيئا من العداء ، أو الكراهية ، لا للانجليز ، ولا للملك . فكتب (جورج فوشيه) فى كتابه : (عبد الناصر .. وصحبه) يقول :

« ان الخدمة التى أدتها حرائق القاهرة لبريطانيا ، تذكرنا بتلك الضربة الفجائية ، القاصمة ، التى وجهت ضد (عرابى) والتى مهدت لتحضير الرأى العام العالمى للحملة البريطانية بقيـــادة (الاميرال سيمور) ، بعد سقوط ٧٥ أوربيـا ، وحوالى ٢٠٠ من المصريين فى (مذبحة الاسكندرية) فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ ، تلك المذبحة التى مهدت لقصف مدينة (الاسكندرية) .. ولاحتـــلال مصر فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ . »

***

● وقال (جاك دومال) .. و (مارى لوروا) .. فى مؤلفهما المشترك : (عبد الناصر : من حصار الفالوجا

•• الى الاستقالة المستحيلة) ـ ما يلى :

« خرج الانجليز من حرائق القاهرة ، بأربعة مكاسب :

١ ـ لم ينفذ قرار قطع العلاقات السياسية مع بريطانيا •

٢ ـ لم تتمكن الحكومة من تنفيذ قرارها بالاحتفاظ برهائن •

٣ ـ توقف نشاط الفدائيين •

٤ ـ انتهى فؤاد سراج الدين !•

« وما من شك فى أن (الملك فاروق) كان يعلم جيدا أن (مجزرة الاسماعيلية) سوف تثير الاضطرابات •• ومع ذلك ، لم يحاول أن يؤجل مأدبة الغذاء التى كان قد دعا اليها • وذلك ـ كما يبدو واضحا ـ بهدف تجميد البوليس والجيش ، ومنع تدخلهما • فان جميع قادة البوليس والجيش كانوا بين المدعوين الى هذه المأدبة !!

« وعندما أخطر (الملك) ـ رسميا ـ باشتعال النار على نطاق واسع ، فى مختلف أنحاء العاصمة ، فانه لم يتحرك ، وظل يكرم ضيوفه •!!

« كيف يمكن للمرء ، اذن ، فى مثل هذه الظروف ، أن ينفى قيام تواطؤ بين (فاروق) وبين جهاز (المخابرات البريطانية) • لا سيما وقد شوهد بعض رجال ذلك الجهاز وهم ينطلقون فى شوارع القاهرة ، يحرضون على اشعال النار والقتل ؟؟• »

***

هذه نظرة ثلاثة كتاب اجانب محايدين ـ ليسوا مع مصر •• وليسوا ضد بريطانيـــا ـ للايدى الخفية التى كانت وراء تلك المؤامرة البشـــعة التى حققت للحليفين الطبيعيين : (الملك) ، و (الانجليز) •• فى وقت واحد ، وفى سرعة خاطفة ، اهدافهما المشتركة التى كانا يسعيان اليها • فاجهض كفاح الشعب فى القنال • واسقطت (حكومة الوفد) • واعلنت الاحكام العرفيـــة ، فالتقى سوادها مع سواد الدخان الذى كان مايزال يتصاعد من انقاض القاهرة ليحجبا الرؤية عن أعين الشعب حتى لا يبصر شيئا مما كان يدبره له الخونة •• والمتآمرون •!!

••• وراحت حلقات المأساة تتتابع •

الفصل العاشر

ملك لعبته الرجال!

كان الدور الذى اريد للملك ان يلعبه على مسرح الاحداث الذى كان قد استحال الى برميل من البارود ، دورا عسيرا .. وغير مأمون العواقب . ومع ذلك شرع (الملك) ،على الفور ، فى الاضطلاع به فى نشوة وجذل . ولعل اكثر ما حبب هذا الدور اليه انه رأى نفسه مقبلا على مرحلة جديدة من اللعب بالرجال . وكانت هــــذه (لعبة) تعجبه . !!

كان (الملك) ساخطا على (مصطفى النحاس) الذى لم يترك وسيلة يستجدى بها رضاء الملك عليه ، الا وفعلها . !! لكنه ـ اعنى (الملك) ـ لم يكن راضيا عن احد . فقط كان يريد ان يلعب .

بدأ (الملك) ، أول ما بدأ ، (بعلى ماهر) .. استدعاه للحكم بدلا من (مصطفى النحاس) الذى اعفاه من الحكم ، فى مساء السابع والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢ ـ اليوم التالى لحريق القاهرة ـ بأمر ملكى ، قال فيه :

« أسفنا أشد الاسف لما اصيبت به القاهرة ، أمس ، مـــن اضطرابات نتجت عنها خسائر فى الارواح والاموال ، وسارت الامور سيرا يدل على أن جهد الوزارة التى تراسونها قد قصر عن حفظ الامن والنظام . لذلك رأينا أعفاءكم من منصبكم » !!

كان (الدور) الذى ادخره (الملك) لعلى ماهر ، هو دور « رجل المطافىء » الذى كان عليه ان يطفىء نار الكفاح المسلح التى كانت قد اشتعلت فى القنال . وان يطفىء جذوة الحماسة التى كانت قد اتقدت فى صدور الشعب . وان يطفىء لهب الكراهية التى ثارت فى نفوس الملايين ضد الانجليز ، فيعود الى مفاوضتهم باسرع ما يستطيع !.

ولم ينس (الملك) ، ان يفرض على رئيس الوزراء الجديد ، اثنين من رجاله : (مرتضى المراغى) وزيرا للداخلية . و (زكى عبد المتعال) وزيرا للمالية والاقتصاد ليكونا عيونه على رئيس الوزراء، وليثيرا من حوله — وقت اللزوم — العواصف التى يكلفهما (الملك) باثارتها ، فى الوقت الذى يريده .. بالطريقة التى يريدها !

ومن العجيب ، حقيقة ، ان « رجال الملك » هؤلاء ، لم يكونوا مؤمنين به ، ولا بسياسته ، ولا بمستقبله ، ومع ذلك ، كانوا ينفذون سياسته .. ويربطون مستقبلهم بمستقبله الذى لم يكونوا هم انفسهم مؤمنين به . فانى اذكر اننى ذهبت ، فى ٢٢ من فبراير سنة ١٩٥٢ ، لمقابلة (مرتضى المراغى) ، بوصفه وزيرا للداخلية ، لحديث صحفى لمجلة (المصور) . كان لقائى به فى بيته بالزمالك وكانت (القاهرة) ، وقتها ، اشبه ما تكون بميدان قتال تركه جيش مهزوم : انقاض ، واطلال ، واحزان ، ونفوس مضفها الاسى . وجرفنى الحديث مع (المراغى) .. وزير الداخلية والحاكم العسكرى للقاهرة ، الى الحديث عن (الاحكام العرفية) .. والى متى سوف تستمر .؟!

وكدت اكذب سمعى ، حين سمعت وزير الداخلية .. رجل الملك .. يقول :

— الكلام الذى سأقوله لك الان ليس للنشر . لكننى أريدك أن تعرف رأيى الخاص فيما هو جار . اننى قـد انجح فى أن أحـكم البلد بالحديد والنار ، كما يريدنى هذا الرجل (يقصد الملك) أن

أفعل • ولكن ، الى متى أستطيع أن أستمر في ذلك ؟!•• والى متى يستطيع الناس الصبر على أن يحكموا بالحديد والنار ؟! ان هذه طريقة في الحكم ليس أشد من خطرها على الناس ، الا خطرها على الحاكم الذي يتخذها أسلوبا لحكمه !!•

وفي مرة اخرى •• ذهبت اليــــه في مكتبه بوزارة الداخلية ، لاحدثه في أمر الصديق •• (الاستاذ فتحي رضوان) •• الذي كان قد اعتقل في الساعة السادسة من مساء اليوم الذي احترقت فيه القاهرة • باعتبــاره ـ هكذا زعمت السلطة ـ من زعماء المحرضين على حرق العاصمة !!

فقال (المراغي) :

ـ اذا كان الامــــر بيدي ، فانني لا أحب أن يبقى (فتحي رضوان) في المعتقل ساعة واحدة ، فأنا أحبه ، وأحترمه ، وأعرف أنه آخر انسان يمكن أن يقدم على ما هو منسوب اليه • ولكنني أصارحك بأن (فتحي) موجود في المعتقل بأمر شخصي من الملك• وقد جربت ، مرة ، أن أفاتحه في موضوعه فوجدته واقعا تحت اعتقاد عجيب أن (فتحي) كان يعتزم قتله ، وانه كان سينفذ ذلك لو بقي مطلق السراح !! (١)

وضحك (المراغي) ضحكة ذات معنى ••ثم أكمل قائلا:

ـ ومن يدري •• فقد يخرج (فتحي) من المعتقل ، بأسرع مما يتصور الملك !!•

ولنترك ، جانبا ، (رجال الملك) •• ومدى ايمانهم به، وبسياسته ، وبمستقبله .. لكي نمضي في حديثنا .

نجح (على ماهر) في القيام بدور (رجل المطافىء) الذي اختاره (الملك) له . فهدأت نيران الكفاح الفدائي في القنال • ونامت جذوة حماسة الشعب تحت تلال من الرماد الذي خلفه حريق القاهرة وراءه . ومهد الرجل

(١) اكد الملك السابق «فاروق» هذا الزعم بنفسه في حديث صحفي أدلى به ، بعد عزله ، الى بعض الصحف البريطانية ، تعقيبا على اطلاق سراح « فتحي رضــوان » وتعيينه ـ فور اطلاق سراحه ، وزيرا في حكومة الثورة . !!

لمفاوضات جديدة مع الانجليز ، حدد تاريخا لبدئها :اول مارس سنة ١٩٥٢ · لكنه لم يعش فى الحكم حتى هذا التاريخ · فلقد ثارت من حوله العواصف · آثارها الرجلان اللذان قلت لك ان (الملك) قد فرضهما عليه ، ليقوما — وقت اللزوم — باثارتها · !! واستقال (على ماهر) من الحكم فى اول مارس سنة ١٩٥٢ · نفس اليوم الذى كان مفروضا ان يبدأ فيه مفاوضاته مع الانجليز · !!

... واستمر (الملك) يلعب !

فجاء الى (بيت الدمية) — أقصد الى (مقر الحكم) — برجل آخر .. جاء (بنجيب الهلالى) . وكان (الدور) الذى اعده الملك لهذا الرجل هو دور (الطبيب الحاذق) الذى عليه ان يدفع الحياة ، من جديد ، فى اوصال الرجعية التى كانت قد تيبست ، وتحللت ، وتهيأت للسقوط ·

واذا كان (على ماهر) قد نجح ، من خلال دور (رجل المطافىء) الذى قام به ، فى ان يهدىء من نيران الكفاح الفدائى فى القنال · وان ينيم جذوة الحماسة التى كانت قد اتقدت فى صدر الشعب ، تحت تلال من رماد (حريق القاهرة) · وان يمهد لمفاوضات جديدة مع الانجليز ·فان المطلوب من (نجيب الهلالى) القيام به ، كان اكبر من ذلك ·· واخطر · !!

كان المطلوب من (الهلالى) ان يصرف الشعب نهائيا ، عن شىء اسمه : الكفاح المسلح ضد الانجليز · وان يطفىء ونهائيا ايضا : جذوة الحماسة التى كانت قد اتقدت فى صدر الشعب ، بعد اذ رفض (على ماهر) ، ان يطفئها · وابقاها حية تحت الرماد · وان يسرح مجلس النواب الوفدى الذى كان لايزال قائما ، بعد اذ رفض (على ماهر) تسريحه · وان يعطل الدستور ، بعد اذ رفض (على

ماهر) تعطيله • وان ينشب مخالبه الجارحة فى لحم (حكومة الوفد) السابقة ، بعد اذ لم يشأ (على ماهر) ان يقوم بذلك العمل الرخيص •• وباختصار ، كان المطلوب من (نجيب الهلالى) هو ان يشد كل انتباه الناس الى الداخل ، وأن يصرفهم عن (الانجليز) بمعارك داخلية يفتعلها ، ويدق الطبول – اعلى ما تكون – حولها ، حتى يضيع بجانبها اى صوت •• وكل صوت اخر • !!

وبحماسة (الممثل) الذى عهد اليه بدور (البطل) ، لاول مرة فى حياته •• مضى (نجيب الهلالى) فى تمثيل الدور الذى اختاره (الملك) له ، والذى كان قبيحا •• ومقيتا •• الى ابعد حدود المقت ، والقبح • فأوقف الحياة النيابية • وعطــل الدستور • وصادر الحريات • وفتح المعتقلات على اوسع ابوابها لتستقبل أعداء الملك • ورفع شعار : (التطهير) بزعم تطهيـــر (آداة الحكم) من الفساد •• بينما كانت (السراى) اليه أقرب ، وكانت رائحة العفن التى تفوح منها ، أشد نفاذا من رائحة العفن المتسربة من أقذر مكان !!•

وهكذا مضى (البطل) – وكان يظن فى نفسه انه ذكى ، واريب – فى القيام باعباء (الدور) الذى اختاره له (المخرج المجنون) •

وبينما « نجيب الهلالى » ماض فى تمثيل دوره القبيح ، وراض عنه ، وسعيد به • دوت فى ســمعه صـيحة استهجان انخلع لها قلبه • فما كان يتوقع – وهــو (البطل) – ان يكون بين المشاهدين الذين يشــهدون المسرحية المأساة •• الملهاة التى كانت •• « مصر » كلها قد غدت مسرحا تدور أحداثها الاليمة عليه – من انه يوجد من يجرؤ على الصياح فى وجهه .. بهذه الصورة المفزعة . !!

كان الصيحة خطيرة فى مضمونها . واخطر من الصيحة نفسها ، كانت (نوعية) الصائحين . فلقد كان الصائحون هم (الضباط الاحرار) الذين كانوا قد كشفوا الى حــد

كبير ، عن وجودهم في قلب المعركة ، واضحوا بمثابة : (رأس الرمح) فيها •

قال (الضباط الاحرار) • في صيحتهم التي حملها الى (الهلالى) واحد من منشوراتهم ، ما يلى :

« توالت مؤامرات الاستعمار الانجلو أمريكي في الفترة الاخيرة على مصر ، لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية ، وصرف انظار الشعب عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار في القنال ، الى مشاكل داخلية في القاهرة • فبعد أن أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات •• والغاء المعاهدة ، ورفض حلف الشرق الاوسط الرباعى الاستعمارى • وبعد أن اتجه الشعب وجهته السليمة بالكفاح المسلح ، وتكوين الكتائب الوطنية ، واشتدت جذورة الوطنية في البلاد حتى كادت مصر أن تصل الى حقوقها كاملة ، دبر الاستعمار واذنابه الخونة (انقلاب ٢٦ يناير الماضى) ، وجاءت (حكومة على ماهر) ، وبدأت المفاوضات من جديد •

« وكان الاستعمار ، والخونة المصريون ، يأملون كثيرا من (على ماهر) التسليم تسليما كاملا بمطالبهم •• بقبول الحلف الرباعى ، وحل البرلمان ، واعتقال آلاف الوطنيين ، واستخدام الاحكام العرفية للتنكيل تنكيلا واسعا بالشعب •

« ولكن خاب رجاؤهم ، ولم يجبهم (على ماهر) الى كل مطالبهم • فكان لا بد لهم من أحداث انقلاب جديد لتحقيق اهداف الاستعمار السابقة ، وتحويل المعركة الى الداخل ، والقيام بحركة تطهير واسعة في البلاد بحجة تقوية الصفوف الداخلية قبل مجابهة الاستعمار •

« وهكذا وصل (الهلالى) الى الحكم ، بعد تدبير سابق اشترك فيه الخونة المصريون مع الاستعمار • (فاخبار اليوم) تعلن ان السفير البريطانى لن يبدأ المفاوضات مع (على ماهر)، و (مرتضى المراغى) •• و (زكى عبد المتعال) يستقيلان لتحطيم الوزارة من الداخل • والصحف تنشر نبأ تأجيل جلسات البرلمان ، دون ان يكون لذلك اى أساس • حتى اذا احكمت المؤامرة ، اضطر (على ماهر) الى الاستقالة • !

« ولقد جاء (الهلالى) واعلن برنامج الوزارة بصراحة ، وقال ان مهمتها الرئيسية هي التطهير ، والقضاء على الفساد ، وقد تناسى ان الفساد الاكبر هو الاستعمار • وانه لا يمكن القضاء

على الفساد الداخلى الا اذا قضى على اسبابه ومصدره • ان (الهلالى) يلعب لعبة الاستعمار الكبرى ، وهى محاولة صرف انظار الشعب عن القضية الكبرى •• قضية الاستقلال ، الى صراع داخلى لن ينتهى ، ولن يفيد الا الاستعمار •

« ان من اهداف (الضباط الاحرار) الكفاح ضد الفساد بكل مظاهره • ضد الرشوة والمحسوبية ، واستغلال النفوذ • ولكننا لا يجب ان نتجه الى ذلك ، الا بعد القضاء على الاستعمار • وان أى اتجاه الى ذلك ، الان ، يعد خيانة وطنية لا تغتفر •

« اننا نحذر (الهلالى) ، وشركاءه ، من هذه اللعبة الاستعمارية •• ونعتبره مسئولا عن صرف انظار الشعب عن قضيته الكبرى •• ان الشعب قد ازداد وعيه زيادة كبرى ، وهو يفهم جيدا ما يدبر له من مؤامرات • وان حسابه للخونة سيكون عسيرا •

« ايها الضباط ••••

« ان الخونة المصريين يعتمدون عليكم ، وعلى جيشكم لتنفيذ أهدافهم • انهم يظنونكم اداة فى ايديهم للبطش بالشعب ، ومحاولة فرض معاهدة استعمارية •

« فليفهم هؤلاء الخونة ••• ان مهمة الجيش هى الحصول على استقلال البلاد ، وصيانته • وان وجود الجيش بالقاهرة ، انما هو لاحباط مؤامرات الاستعمار التى ترمى الى التخريب ، والحريق • اننا لن نقبل ضرب الشعب ، واطلاق النار على المظاهرات الشعبية ، والقبض على الوطنين •

« يجب أن يفهم الجميع اننا مع الشعب • واننا سنقف مع مع الشعب دائما • واننا لن نستجيب الا لنداء وطن ••

« ايها الضباط ••••

« ان الوطن فى خطر • فتنبهوا للمؤامرات التى تحاك لوطنكم، والتفوا حول « الضباط الاحرار » • ففى ذلك قوتكم ، ووسيلتكم لمحاربة الاستعمار • »

لم يستطع (البطل) — بعد صيحة التحذير، والاستنكار هذه التى اطلقها (الضباط الاحرار) مدوية فى وجهه — أن يبقى طويلا على خشبة المسرح الكبير • نزل من عليها فورا ، وفى اعقابه ينطلق صفير فظيع • !!

فهل تراه قد فعل ذلك لأنه جبن •• لانه خاف (رأس الرمح) الذى لم يكن له بها علم من قبل •• فلما ان علم بها ، بسقط عنه

رداء الشجاعة المصطنعة الذى كانت مقتضيات (دوره) قد حكمت عليه بأن يرتديه ؟!٠

أم أنه غادر المسرح لانه شعر أن (المخرج المجنون) سئم وجوده عليه ، وانه يريد أن يغيره بوجهاخر جديد ، قبل أن يفقدالمشاهدون ما بقى من صبرهم ، ويهدموا المسرح الكبير على رأس المخرج ٠ وعلى رأس الممثلين معا ؟!٠

كل ذلك جائز ٠٠

المهم ٠٠ نزل (البطل) من على خشبة المسرح فى ٢٨ يونية سنة ١٩٥٢ ٠ ولم يبد لتخليه عن الاستمرار فى القيام بدوره الذى كان قبيحا ، ومقيتا ٠٠ الى ابعد حدود المقت والقبح ـ أية اسباب ٠ فقط ، قال انه لا يستطيع الاستمرار ٠٠ ومضى ٠٠ وليس فى اذنـــه صـــيحة استحسان واحدة ، وانما كان فيها صفير استهجان مروع ٠٠ وفظيع ٠

***

ولكن (اللعبة) كانت لاتزال مستمرة ٠ لان (المخرج المجنون) كان لايزال مصمما على الاستمرار فيها !!٠

جاء الملك الى المسرح الكبير بممثل جديد ٠٠ جـــاء (بحسين سرى) رئيسا للوزراء ٠ ولكن (البطل الجديد) لم يستطع ان يستمر على خشبة المسرح الكبير اكثر من تسعة عشر يوما فقط ٠ (من ٢ يوليو الى ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٢) ٠ !!

كان (الضباط الاحرار) ـ رأس الرمح فى معركة الشعب ضد الملك ، ونظامه ـ قد كشفوا ، تماما ، عن وجودهم فى قلب المعركة ٠ وذلك عندما قرروا ـ فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٥١ ـ ان يقوموا بأول اختبار لقوتهم فى مواجهة قوة (الملك) فانتهزوا فرصة انتخابات مجلس ادارة نادى الضباط التى كانت ستجرى فى ذلك التاريخ، وقرروا التقدم الى هذه الانتخابات بقائمة تتضمن اسماء

مرشحيهم ضد مرشحي الملك الذى كان قد اعتاد ان يفرض رجله ــ الفريق محمد حيدر ــ رئيسا للنادى بامر ملكى ، وان يوزع بقية كراسى المجلس ، عن طريق انتخابات صورية ، طبعا ، على اذنابه وعملائه • !!

شعر (الملك) عندما بلغته هذه الاخبار ان وراء الاكمة شيئا مخيفا • وقرر ، كعادته ، ان يكسب الوقت ريثما يدبر امرا ضد ذلك الشيء المخيف الذى شعر بانه يختفى وراء الاكمة • فبينما كان الضباط فى طريقهم الى ناديهم ، لكى يخوضوا اول معركة يختبرون فيها قوتهم فى مواجهة قوة الملك ، تلقت ادارة النادى امرا من ادارة الجيش بالغاء الاجتماع ، وتأجيل الانتخابات لمجلس ادارة النادى الى اجل غير مسمى • !!

ولكن الضباط ــ وكان الكيل قد طفح بهم ــ تحدوا امر ادارة الجيش • وعقدوا فى قلب النادى ، اجتماعا صاخبا افرغوا فيه الكثير مما كان فى صدورهم ضد ما كان يجرى على خشبة المسرح الكبير من احداث كانت تمزق قلوبهم ، وتدفعهم دفعا قويا الى استعجال القيام بثورتهم التى كانوا يدبرون لها من زمن بعيد ••

تحدى الضباط امر ادارة الجيش •• واجتمعوا فى ناديهم ، وتكلموا ، وخطبوا ، وقال بعضهم كلاما خطيرا لم يكن اذناب الملك فى الجيش ليتخيلوا انه سيجيء عليهم يوم يسمعون فيه مثل هذا الكلام الذى قيل يومها •• بلسان بعض الضباط • !

وحدد الضباط ، بارادتهم ، وليس بارادة قيادة الجيش ، موعدا لانتخاب اعضاء مجلس ادارة النادى •

وفى الموعد المحدد •• توافد الضباط ، من مختلف الاسلحة ، على ناديهم • واتخذت الجمعية العمومية قرارا اجماعيا يحدد مكان الجيش فى المعركة التى كانت دائرة

قال القرار : (ان الجيش المصرى جزء من مصر .. يشعر بشعور مصر واحساسها نحو المحتل الغاصب . وانه دائما فى خدمة قضية البلاد) .

ثم دارت معركة الانتخابات . فاذا (الضباط الاحرار) يكسبون معركة (اختبار القوة) كسبا رائعا ومروعا .. رائعا لهم ، ومروعا لخصومهم . فلقد فاز مرشحوهم جميعا . وسقط مرشحو الملك جميعا .. وكان ذلك شيئا اكثر من خطير .. شيئا هز قوائم (كرسى العرش) من تحت الملك ، وجعله يشعر بأن (نهاية النهاية) تدنو منه بسرعة « الرمح » يطلقه مقاتل افريقى متمرس ، وعنيد . غير ان طغيان الملك ابى عليه ان يتراجع ، أو ينقل قدمه الى الطريق الصحيح . ولكن ، هل كان بوسعه بعد كل ذلك الذى كان منه ، ان يفعل ؟!!

وهل كان هناك من هو على استعداد لان يقبل منه ذلك ، حتى لو استطاع ان يفعله . ؟ !

مستحيل ...

ولأن ذلك كان مستحيلا .. فلم يكن امام (الملك) الا أن يتربص ... والا ان يحارب معركته حتى النهاية . فاما ان يخرج منها قاتلا .. واما ان يخرج منها مقتولا ، ولم يكن هناك وسط بين الامرين . !

وعلى ذلك ، فانه حين صعد (حسين سرى) الى خشبة المسرح الكبير ، فى ٢ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ليقوم من فوقها بدور (البطل) بدلا من البطل الطريد .. (نجيب الهلالى) ، كان (الملك) ـ من ناحية ـ قد انهى مرحلة التربص .. وبدأ يخطو خطوته الاولى على طريق المعركة . ارسل الى (حسين سرى) ـ بوصفه وزيرا للحربية ـ مذكرة يطلب فيها حل مجلس ادارة نادى الضباط ، ونقل اثنى عشر من اعضائه الى جهات نائية .!!

وسلم (حسين سرى) الى القائد العام للقـــوات المسلحة (الفريق محمد حيدر) مذكرة الملك ، طالبا منه دراستها ، واعادتها اليه مشفوعة برأيه فيما تضمنته من طلبات .

غير ان (الملك) كان قد وضع (حيدر) ـ فى هـذه المذكرة نفسها ـ فى وضع لا يستطيع معه أن يكون له رأى يبـديه . اذ قال الملك فى رأس مذكرته : (يعتبر حيدر مفصولا من منصبه ، اذا لم يعمل الآتى فى ظرف خمسة ايام) . وذكر (الملك) بعد ذلك مطلبيه السابقين .!

ولأن (حيدر) لم يكن على استعداد لأن يفصل من منصبه .. ولانه أيضا لم يكن على استعداد لان يفقـد رضاء (سيده) الــذى ظـــل يرفعه ، ويرفعه ، حتى ارتقى به من وظيفة (السجان الاول) فى مصلحة السجون .. الى وظيفة (القائد العام للقوات المسلحة) ـ وهـو الرجل الذى لم يقد عمره كله كتيبة واحدة . !! فقـد سارع ، على الفور ، الى اصدار قرار بحل مجلس ادارة نادى الضباط . وكان هذا القرار هو (الفتيل) الذى عجل اشتعاله بانفجار القنبلة . !

لم يرض (حسين سرى) عن التصرف الذى لجأ اليه (حيـــدر) دون الرجوع اليه . واسرع الى (الملك) يحتج ، ويحذر ، ويقدم فى ختام الاحتجاج والتحذير ـ استقالته من منصبه ـ وكان ذلك فى ٢٠ يوليـــو سنة ١٩٥٢ .

المسرح الكبير لايزال قائما ..

والمسرحية المأساة ، الملهاة لاتزال تمثل فوق خشبته .. و (الملك) لايزال يأتى الى (بيت الدميـــة) بدمى جديدة . تقوم بدور (البطولة) على خشـــبة المسرح الكبير الذى كانت تدوى فى جنباته اصوات كهزيم الرعد

.. تتوعد ، وتنذر ، وتحذر ، ولكن الصم ، بطبيعة الحال ، لا يسمعون . !

كان هذا الفصل من هذه المسرحية المأساة ، الملهاة . هو افظع فصولها . فلقد روع المشاهدون بذلك (الممثل) الذى كان قد خرج منه بالامس القريب هاربا ، أو مطرودا ، يعود اليه مرة اخرى ، ليستأنف القيام بدور (البطل) . !!

وكان ذلك شيئا عجيبا .. ومثيرا لدهشة الناس ، وتساؤلاتهم :

● ما الذى حدث حتى يعود (نجيب الهلالى) الى المسرح الكبير ليقوم فيه ، من جديد ، بدور (البطل) ؟

● هل رضى عنه (المخرج المجنون) وارضاه .. ام انه هو الذى استغفر (المخرج المجنون) فغفر له ؟

● هل نسى (نجيب الهلالى) ـ وهو ليس ساذجا ـ (راس الرمح) أو تناساه .. أم قيل له ـ كذبا ـ أن (راس الرمح) قد عاد .. أو أعيد الى غمده ، فصدق ما قيل له ؟!.

● أم تراه قد فقد ذاكرته .. فلم يعد يذكر شيئامن ذلك الصفير المروع الذى انطلق فى أعقابه ، وهو يغادر المسرح الكبير مطرودا ... أو هاربا ؟!.

واذ عاد هذا (الممثل) الى المسرح الكبير مرة اخرى ، بعد ان رضى عنه (الملك) .. او بعد ان استغفره هو فغفر له . فقد عاد اليه هزيلا أشد ما يكون الهزال . فلقد فرض عليه (الملك) القائمقام اسماعيل شيرين ـ زوج شقيقته (الاميرة فوزية) ، وزيرا للحربية . ! ! وكان ذلك شيئا فكاهيا للغاية وسط هذه المسرحية التى كانت قد بلغت ذروة المأساة . ! فاسماعيل شيرين الذى فرضه (الملك) وزيرا للحربية ، لم يكن ضابطا يوما ما .. ولم يدخل الكلية الحربية .. وبالتالى ، فانه لم يتخرج فيها . وقد جعله (الملك) ضابطا لمجرد انه

زوج اخته . كان (الملك) ـ واستغفر ربى ـ قادرا على كل شيء . !!

***

لم يغب معنى مجيء (اسماعيل شيرين) وزيرا للحربية على احد . لقد جاء به (الملك) ليكون اداته في السيطرة على الجيش الذى قذف (ضـــباطه الاحرار) في وجهه بالحقيقة المرة التى افزعته ، وجعلت الرعب يأكل أوصاله ، حين قالوا فى احـــد منشوراتهم : « ان الجيش انمـــا هو جيش الشــعب .. وليس جيشه » !!.

واذا كان (الملك) قد قصد بمجيء (اســـــماعيل شيرين) وزيرا للحربية شيئا معينا . فقد فهم (الضباط الاحرار) ، على الفور ، قصد (الملك) . لقـــد دخلت المعركة بينهم وبينه ساعاتها الحاسمة ، فاما ان يعجـل بهم .. واما ان يعجلوا به .

ربما ان كاد الستار يرفع عن (الممثل) الذى رضى عنه (المخرج المجنون) ، فارجعه ليقـوم ، من جديد ، بدور (البطل) ، حتى عاد فنزل عليه بسرعة مروعة . لقد انطلق (رأس الرمح) الى قلبه ، فارداه فوق خشبة المسرح قتيلا . وقبله ، كان (رأس الرمح) قد اردي (المخرج المجنون) نفسه . !!

الفصل الحادى عشر

.. إنهــــا الثــورة !

تيقظ الناس فى الساعة السابعة والنصف تماما من صباح يوم الاربعاء : ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ ـ على صـوت واثق ، وقوى ، وعميق .. يقرأ عليهم أول بيان للثورة.

كان صاحب هذا الصوت الواثق ، والقوى ، والعميق ، هو (أنور السادات) ، عضو مجلس قيادة الثورة . اما البيان ! ، فكان موجها الى الشعب من القائد العـام للقوات المسلحة : وهذا هو ...

« اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الاخير من الرشوة والفساد ، وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش . وتسبب المرتشون ، والمغرضون فى هزيمتنـا فى حرب فلسطين . وأما فترة ما بعد هذه الحرب ، فقد تضـافرت فيها عوامل الفساد ، وتآمر الخونة على الجيش ، وتولى أمره اما جاهل ، أو فاسد ، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميهـا . وعلى ذلك ، فقـد قمنا بتطهير أنفسنا ، وتولى أمرنا داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم ، وفى خلقهم ، وفى وطنيتهم . ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر ، بالابتهاج والترحيب . أما مـن رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين ، فهؤلاء لن ينـالهم ضرر ، وسنطلق سراحهم فى الوقت المناسب ..

« وانى اؤكد للشعب المصرى أن الجيش كله ، أصبح اليوم يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور ، مجردا من اى غاية . وانتهـز هذه الفرصة ، فأطلب من الشعب ألا يسمح لاحد من الخونة بأن يلجأ الى أعمال التخريب ، أو العنف . لان هذا ليس من صالح

مصر . وان اى عمل من هذا القبيل ، سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل . وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال . وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس . وانى اطمئن اخواننا الاجانب على مصالحهم ، وأرواحهم ، واموالهم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم . والله ولى التوفيق » .

***

نزل الناس ، بعد أن استمعوا لهذا البيان، الى الشوارع ليجدوا جنود الثورة قد انتشروا فيها ، واحتلوا قيادة الجيش ، وسيطروا على جميع المرافق .

احتضن الشعب الثورة بملء حبه ، واخلاصه، وحماسته فلقد توقعها طويلا ، وانتظرها طويلا .. وكانت لديه آمال عريضه ، وعديدة ، يعلقها على مجيئها .

واذ تلقى الشعب الثورة بكل ذلك الحب الذى تلقاها به ، فقد ازدادت الثورة ثقة بنفسها ، وبالارض التى تقف عليها ، وبالاهداف التى كانت تعتزم المضى اليها .

اخذت الثورة ــ وقد زادها احتضان الشعب لها ثقة بنفسها ، وبالارض التى تقف عليها ــ تملى مطالبها على (الملك) . وأخذ (الملك) من ناحيته ، يتلقى هذه المطالب بالاذعان والتسليم .

كان اول مطلب للثورة هو تنحية (نجيب الهلالى) عن رئاسة الوزارة ، وتعيين (على ماهر) بدلا منه . وكان هذا المطلب متفقا تماما وآراء (الضباط الاحرار) التى كانت تحملها منشوراتهم السرية فى الاحداث الجارية . فلقد كانوا ساخطين على (نجيب الهلالى) ، وسياسته . ولعله لم يهرب من المسرح الكبير ، فى المرة الاولى ، الا لانه تبين ان هناك عنصرا مخيفا موجودا فى المعركة ، وان لهذا العنصر المخيف رأيا على غاية من السوء فيه . كذلك كان (للضباط الاحرار) شىء من الرضاء عن سياسة (حكومة

علي ماهر) التى جاءت الى الحـــكم فى أعقاب « حريق القاهرة » . فضلا عن استقلال الرجل عن الاحزاب جميعا، وتمتعه بقدر غير قليل من كراهية الملك له .

اما المطلب الثانى للثورة ، فكان ابعاد المفسدين من رجال الحاشيه الملكية . وقد حددتهم الثورة فى ستة اسماء : (انطوان بوللى) مدير الشئون الخصوصية .. و(محمد حسن) الخادم الخاص ،و (الياس اندراوس) المستشار الاقتصادى و (يوسف رشاد) الطبيب الخاص، و(حسن عاكف) الطيار الخاص، و (محمد حلمى حسين) السائق الخاص ، وكان مطلوبا ايضا ابعاد (كريم ثابت) ، ولكن تبين انه قد استقال من قبل .

واذعن الملك لكلا المطلبين ، متوهما ان هذا هو كل ما قامت من أجله الثورة .. وانه يستطيع ان يلاينها ، وان يسلم لها بما تريد ، حتى تجيىء ساعة يستطيع ان ينقض عليها ، ويسترجع مافقد . فلم يكن يعلم ان ما نجحت الثورة فى اخفائه حتى ذلك الوقت ، كان اخطر بكثير من كل ذلك الذى أعلنته .

ومرت على ذلك ايام ثلاثة .. جففت فيها الثـــورة عرقها ، وازدادت ، فوق ازدياد ، وثوقا من نفسها ، ومن الأرض التى تقف عليها . ثم وجهت الى الملك ، فى صباح السبت ــ السادس والعشرين من يوليو ــ ضربتها القاضية التى حملها اليه الانذار التالى :

« نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الاخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق ، نتيجة سوء تصرفكم ، وعبثـــكم بالدستور ، وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من افراده لا يطمئن على حياته ، أو ماله ، او كرامته .

« ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك ، حتى اصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية،

والامن ، والثراء الفاحش ، والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ٠

« ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين ، وما تبعها من فضائح الاسلحة الفاسدة ، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر ، مما أفسد الحقائق ، وزعزع الثقة في العدالة ، وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى ٠ فأثرى من أثرى ، وفجـــر من فجر ٠ وكيف لا ، والناس على دين ملوكهم ٠

« لذلك ٠ فقد فوضني الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الامير أحمد فؤاد ٠ على أن يتم ذلك في موعد غايته الساعة الثـــانية عشرة من ظهر اليوم (السبت الموافق ٢٦ من يوليو ســـــنة ١٩٥٢ - الرابع من ذى القعدة سنة ١٣٧١) ، ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ٠ والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج » ٠

***

كان الموعد الذى حدده مجلس قيادة الثورة لخلـع (فاروق) من فوق عرشه ، هو يوم : الجمعة الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ٠ وبالفعل ، سافر رئيس مجلس القيادة .. ومعه نصف أعضـــــاء المجلس الى الاسكندرية - حيث كان الملك والوزراء موجودين هناك - لتنفيذ عملية عزل (الملك) . ولكن رؤى فى اللحظـة الاخيرة .. ولأسباب تتعلق بالشئون الادارية للطابور المدرع الذى انتقل من القاهرة الى الاســكندرية لمحاصرة قصور الملك ، تأجيل تنفيذ العملية الى اليوم التالى : السبت ٢٦ يوليو . وحينما استقر الرأى على ذلك ، انتهز « قائد الجناح جمال سالم » عضو مجلس القيادة، فرصة تأجيل التنفيذ .. واثار مناقشة خطـيرة حول مصير الملك بعد عزله .

قال (جمال سالم) :

- لقد قرر مجلس القيـــادة خلع (فاروق) عن عرشه ؟؟؟

ولكنه لم يقرر : ماذا بعد الخلع • هل يقبض عليه ، ويحـــاكم ، ويعدم ••• ؟ ام يكتفى بخلعه عن العرش • ؟

ومضى نصف مجلس القيادة الذى كان موجودا بالاسكندرية ، يناقش المصير الذى ينبغى ان ينتهى اليه (فاروق) •

بدا (جمال سالم) المناقشة بحماسة المدعى العام الذى يطالب بعنق قاتل :

ـ اتريدون أن تتركوا (فاروقا) يفلت منا ؟• اتريدونه يخـــرج حيا من مصر • انه قاتل ، فيجب ان نشنقه كما يشنق القتلة • انه قائد خان جيشه ، فيجب ان يعدم رميا بالرصاص كما يعــدم الخونة فى الجيوش •• وهو لص ، فيجب ان يسجن كما يسجن اللصوص الصغار •

واعترض بعض زملاء (جمال) :

ـ اننا سنخلعه عن العرش • وهذا ، فى راينا ، يكفى •

وصرخ (جمال سالم) :

ـ ان هذا لا يكفى ابدا • اننا هنا نمثل العدالة • ان المحاكم تعدم الرجل العادى الذى يقتل رجلا واحدا • فما بالكم برجل قتل شعبا باسره •• ؟ ! ان القانون العادى يسجن الرجل الذى يسرق رغيفا •• فكيف لا يسجن قانون الثورة الرجل الذى سرق دولة باكملها • ؟ !

وقال اعضاء مجلس القيادة :

ـ ان ثورتنا امتازت بانها لم ترق قطرة دم واحدة ، ولا نريد ان نشوه جمالها بقطرة دم واحدة ، ولو كانت هذه القطرة من دم (فاروق) •

فقال (جمال سالم) :

ـ اذكروا من قتلهم (فاروق) •• يجب أن نثار لدمهم • اذكروا شهداء فلسطين الذين رايتموهم باعينكم يموتون بسبب الاسلحة الفاسدة التى مونهم بها (فاروق) يجب أن ننتقم لهم •

واستمر (جمال سالم) فى مرافعته ، محاولا اقناع زملائه بوجهة نظره :

ـ كيف تريدون ان نكتفى بعزل (فاروق) ، ونتركه حيا ؟! ان عنده اموالا طائلة فى الخارج ، يستطيع ان يستخدمها فى محاربة مصر وقضيتها • ؟ ! ان الدول الاستعمارية ســـوف تستخدمه آلة فى يدها ، لتهديد مصر وشعبها • اننى انبهكم : انكم تتركون القاتل يفلت من ايديكم •

وتكهرب الجو ....

فلقد استغرقت هذه المناقشة الساخنة خمس ساعات كاملة . (من التاسعة مساء الجمعة ٢٥ يوليو ، حتى الثانية من صباح السبت ٢٦ يوليو .) دون أن يستطيع (جمال سالم) اقناع نصف مجلس قيادة الثورة الذى كان موجودا بالاسكندرية ، بوجهة نظره فيما يتعلق بمصير (فاروق) . وعندئذ رؤى آن يسافر (جمال سالم) بالطائرة الى القاهرة لاستطلاع رأى نصف مجلس قيادة الثورة الآخر الذى كان قد بقى بها ، فيما ينبغى أن ينتهى اليه مصير (فاروق) بعد عزله .

وبالفعل ، طار (جمال سالم) ، فى الثانية والنصف من صباح السبت ٢٦ يوليو ، الى القاهرة لاستطلاع رأى النصف الآخر لمجلس القيادة . وجاء رأى الموجودين فى القاهرة . هكذا :

- ان الثورة تريد أن تتخلص من (فاروق) فى اسرع وقت ، لكى تتفرغ لما هو أهم من (فاروق) ، وهو تخليص البلاد من بقية الفساد الذى تركه (فاروق) وراءه ، ولكى تعد العدة لعهد جديد يستعيد فيه الشعب حقوقه ، وكرامته ، وسيادته . وان من اهداف الثورة تحقيق العدالة . وعلى ذلك ، فنحن لا يمكن أن نعدم « فاروقا » بغير محاكمة ، ولا يمكن ، فى نفس الوقت ، أن نتركه مسجونا ونشغل أنفسنا بقضيته ، تاركين أهداف الثورة بغير تنفيذ . فلنترك (فاروقا) حيا ، وسوف يحكم التاريخ باعدامه .

وبأمانة مطلقة .. حمل (جمال سالم) رأى اعضاء مجلس القيادة الموجودين فى القاهرة - وكان على رأسهم (جمال عبد الناصر) - وعاد الى الاسكندرية ، فوصلها فى السادسة من صباح السبت ٢٦ يوليو ومعه رأى القاهرة فى مصير (فاروق) ملخصا فى كلمتين اثنتين : (العزل) .. و (الطرد) .

وفى السابعة تماما من صباح ذلك اليوم . تحركت

الطوابير المدرعة ، والمدفعية ، والمشاة ، فاخذت مواقعها حسب الخطة الموضوعة ٠

كان (فاروق) ، وقتما وصلته اول اخبار عن قيام الثوره ، موجودا (بقصر المنتزه) . ولكنه ما لبث أن غادره في ليل الجمعة ٢٥ يوليو - الى (قصر رأس التين) حيث توجد تكنات الحرس الملكي بقواته الرئيسية ، وحيث يوجد السلاح البحرى الملكي . ولعله تخيل ، وهو يقرر هذا الانتقال المفاجيء من قصر الى قصر ، ان الحرس الملكي ، ومدافع الاسطول ، يمكن أن يقاتلا الجيش دفاعا عن بقائه فوق عرشه . ! !

هكذا غادر (فاروق) قصر المنتزه في سيارة خاصة قادها بنفسه ، وركبت معه فيها زوجته (ناريمان) ، وابنه (احمد فؤاد) ، ومربيته ، بينما جلس الى جواره طياره الخاص : (حسن عاكف) ٠ وتبعته سيارة أخرى تحمل بناته من الملكة السابقة : « فريدة » ٠ وبات (فاروق) ليلته هذه - ولا اقول (نام) ٠٠ فذلك كان مستحيلا - ينتظر ، ويترقب ما سوف يحمله اليه النهار ٠

وفي الصباح المبكر من يوم السبت ٢٦ يوليو . كان أزيز طائرات سلاح الجو المصرى ، يمزق السكون المخيم على الاسكندرية ، بينما راح شريط طويل من الدبابات يشق (طريق الكورنيش) متجها الى (قصر رأس التين) ٠ ورأى الناس في هذه ، وتلك ، علامات الساعة بالنسبة للملك !

وعندما بلغت الساعة تمام التاسعة من صباح ذلك اليوم ، كان هناك شيء آخر اكثر خطورة يجرى في مكتب رئيس الوزراء ٠٠ لقد وصل اليه رئيس مجلس قيادة الثورة ، وبرفقته اثنان من أعضائه : (البكباشي أنور السادات) ٠٠ و (قائد الجناح جمال سالم) ٠ واخرج

رئيس المجلس ورقة فيحجم الفولسكاب، وناولها (لأنور السادات) الذى راح يقرأ منها ، بصوت مفعم بالقوة ، وبالثقة ، نص « الانذار » الموجه من الثورة للملك وكان الانذار مكتوبا بخط (انور السادات) نفسه • وبعد ان فرغ (انور السادات) من قراءة (الانذار) ، سلمه الى رئيس الوزراء الذى اخذه منه ، وغادر ، على الفور ، مكتبه متوجها الى قصر رأس التين ، فبلغه فى تمـــام العاشرة •

استقبل الملك رئيس وزرائه فى لهفة وقلق باديين . فلابد أن لدى رئيس الوزراء شيئا هاما ، والا ما ذهب اليه فى هذا الوقت ، فى مثل هذه الظروف • ولعله تصور ان الامر سوف لا يعدو أن يكون مطلبا آخر من مطالب الثورة التى راض نفســه على الاذعان لها ، حتى تحين ساعة يستطيع أن ينقض عليها فيها •

ولم يشأ (على ماهر) أن يوجه اليه الضربة القاضية دفعة واحدة • ربما لانه تلقاه ، فى سنة ١٩٣٦ ، صبيا وديعا • ولعل صورة ذلك الصبي الوديع هى التى كانت حاضرة لحظتها ، أمام عينى (على ماهر) فحجبت عنهما صورة ذلك الرجل الفاسد ، السفيــه الذى لم ينـــل منه الشيطان ، بقدر ما نال هو من نفسه

وتكلم (على ماهر) •• فقال للملك بضع كلمـــات قصد بها أن يمهد للضربة القاضية التى كانت وشيكة النزول على رأسه •

قال (على ماهر) للملك :

– ان الموقف خطير • فالشعب ثائر • والجيش متحفز ••• والاثنان معا ضدك • ورايى الشخصي هو ان تضحى جلالتك ، وتتنازل عن العرش لابنك • وبذلك تتفادى اى احتكاك مع الشعب والجيش ، وتضمن بقاء الملك فى اسرة محمد على • !!

وأطرق (فاروق) برأسه لحظات ، كأنما يتأمل مدى الاخلاص الذى تنطوى عليه هذه النصيحة ، ثم رفع رأسه ؛ وقال لعلى ماهر :

ـ انا موافق • لكن لى طلبات ••

وسأل رئيس الوزراء الملك عن طلباته •

فقال أنه يريد أن يصطحب ابنه معه • وأن يسمح لكل من يريد من أفراد العائلة مصاحبته • وأن يتولى قيادة اليخت الذى سيبحر عليه ، البكباشى جلال علوبة • وان يختار بنفسه الرجال الذين سيتولون حراسته فى الخارج • وأن يسمح له بان ياخذ (بوللى) معه !!• وأن يكون هو ـ اى (على ماهر) ـ والسفير الامريكى فى وداعه عند سفره • ضمانا لحياته •

وتعهد (على ماهر) بتبليغ طلبات الملك لمجلس قيادة الثورة • ثم مد يده الى جيبه ، فأخرج (الانذار) وقدمه للملك الذى ما ان بدأ يقرأه ، حتى امتقع وجهه بصورة ملفتة • وقال لعلى ماهر :

ـ لكن دى لهجة عنيفة جدا •• وماتصحش فى موقف زى ده •

فقال (على ماهر) انه لم يحمل اليه الانذار الاول •• وانه بذل غاية جهده فى اقناع ممثلى مجلس القيادة بتخفيف الصيغة حتى جاءت على هذا النحو •

فقال (فاروق) :

ـ لازم الانذار الاول كان فظيع جدا •

ويبدو أن (على ماهر) اراد أن يخفف من وقع (الانذار) على (الملك) . فالحقيقة فى هذا الامر ، هى أن (على ماهر) لم يغير فى (الانذار) ـ بصفته الاولى التى كانت هى أيضا مكتوبة بخط (انور السادات) ـ غير كلمتين اثنتين فحسب . فلقد كان (الانذار) ، فى صيغته الاولى يقول فى سطر من سطوره : « ••• وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته ، أو ماله ، أو عرضه ، أو كرامته » • فاستبعدت منه ، فى

صيغته الثانية ، كلمة : (غرضه) .

وكانت الصيغة الاولى تقول فى سطر من سطورها :

« ... على حساب الشعب الجائع ، الجاهل ، الفقير » .

فاستبعدت فى الصيغة الثانية كلمة : (الجاهل) . وكان هذا — للتاريخ — هو كل ما أدخل على (الانذار) من تعديل .

***

عاد (على ماهر) الى مقر رئاسة الوزارة فى (بولكلى)، حيث كان ممثلو مجلس القيادة ينتظرون عودته . فأبلغهم موافقة (الملك) على التنازل عن العرش . وكذلك أبلغهم طلباته فوافقوا عليها كلها ، فيما عدا اصطحاب (بوللى) معه .

واستدعى رئيس الوزراء (الاستاذ سليمان حافظ) وكيل مجلس الدولة ، والمستشار القانونى لرئاسة مجلس الوزراء لوضع تنازل الملك عن العرش فى صيغته القانونية . ورأى (سليمان حافظ) ألا ينفرد بصياغة أخطر وثيقة فى تاريخ مصر الحديث . فأشرك معه (الدكتور عبد الرزاق السنهورى) رئيس مجلس الدولة فى صياغة هذه الوثيقة التاريخية التى جاء نصها على هذا النحو :

« نحن فاروق الاول ملك مصر والسودان

« لما كنا نتطلب الخير دائما لامتنا . ونبغى سعادتها ورقيها

« ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنيب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة . ونزولا على ارادة الشعب

« قررنا التنازل عن العرش لولى عهدنا الامير أحمد فؤاد ، واصدرنا امرنا بهذا الى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه .

« صدر بقصر رأس التين فى ٤ ذى القعدة سنة ١٣٧١ — (٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) .

وحين استقر الرأى على هذه الصيغة القانونية التى

أضيفت اليها عبارة .. (ونزولا على ارادة الشعب) ، بناء على اصرار (قائد الجناح جمال سالم) . حملها (الاستاذ سليمان حافظ) متوجها الى قصر رأس التين، ليضع عليها (الملك) توقيعه .

استقبل (سليمان حافظ) عند وصوله الى القصر ، الاميرالاى احمد كامل) قائد بوليس القصور الملكية . وقاده الى قاعة فسيحة فى وسطها منضدة كبيرة من الرخام الاسود المموه بالابيض .. وفى هذه القاعة الموحشة ، جلس (سليمان حافظ) ، وحده تماما .. وليس معه ما يؤنس وحشته ، غير ورقة صغيرة جدا . لكنها ـ على صغرها ـ كانت أشد ما تكون شبها بخنجر مسموم وشيك النفاذ الى قلب الملك .. !!

وبعد قليل .. وصل الملك .. كان يرتدى الزى الصيفى لاميرال الاسطول البحرى ، واتجه مباشرة الى تلك المنضدة التى كانت تتوسط القاعة فاتجه (سليمان حافظ) بدوره اليها ، والتقيا حولها . فتصافحا ،وأخرج (سليمان حافظ) وثيقة التنازل عن العرش ، وقدمها للملك الذى ألقى عليها نظرة عاجلة ، ثم التفت الى (سليمان حافظ) يسأله :

ـ هل هى محكمة الوضع من ناحية القانون ؟ ..

وأجاب (سليمان حافظ) :

ـ نعم ..

وعاد (الملك) يسأل :

ـ واسباب التنازل .. من أين جئتم بها ؟

فقال (سليمان حافظ)

ـ استلهمناها من مقدمة الدستور ..

يا لسخرية القدر .. لقد استطاع الدستور ، اخيرا ، أن يثأر لنفسه . فألهم رجال القانون صيغة طرد الملك

الذى كان يجد فى العبث به ، والعدوان عليه ، متعة لا تدانيها متعة !! .

كان (الملك) يحاول أن يبدو هادئا . ولكن سعلات قصيرة كانت تنتابه ، فتكشف عن أنه يعانى حالة انفعال عصبى شديد ، كان يبذل جهدا واضحا للسيطرة عليه

وعاد (الملك) يقرأ وثيقة تنازله عن عرشه كلمة كلمة ، وقد أخرج من جيبه قلما استعدادا لتوقيعها . فلما وصل فى قراءته للوثيقة الى عبارة : (ونزولا على ارادة الشعب .) ، نظر الى (سليمان حافظ) وقال :

ـ ألا يمكن اضافة كلمة : (وارادتنا) بعد عبارة : (ونزولا على ارادة الشعب) . ؟

فقال (سليمان حافظ) :

ـ لقد صغنا نزولكم عن العرش فى صورة أمر ملكى .

قال (الملك) :

ـ تريد ان تقول ان الامر الملكى ينطوى على هذا المعنى . ؟

قال (سلميان حافظ) :

ـ نعم . ؟

فقال (الملك) :

ـ اذن، ليس هناك مايمنع من اضافة هذه الكلمة..؟

فقال (سليمان حافظ) ـ وقد أطلق عليه (فاروق) بعد ذلك لقب : « التمساح العجوز » ـ قال :

ـ اننا لم نصل الى الصيغة التى بين ايديكم الا بصعوبة .

وهنا ، لاحت على وجه (الملك) علامات اهتمام كبير بما قاله له « التمساح العجوز » . وسأله :

ـ معنى هذا انهم كانوا يريدون منى ان أوقع على ورقة أخرى . قل لى : ماذا كان فيها . ؟

قال (سليمان حافظ) :
ـ اننى لم أطلع عليها .
قال (الملك) :
ـ أنت تمتنع عن ذكر ماجاء فيها حتى لاتجرح شعورى لكننى أعدك الا أتأثر مما ستقوله لى .
فأقسم (سليمان حافظ) للملك بشرفه بانه لم يطلع عليها . وعندئذ ، أمسك (الملك) بقلمه ووقع بامضائه فى ذيل الوثيقة .. ولكن التوقيع جاء مضطربا . فنظر الى (سليمان حافظ) ، وقال :
ـ لعلك تقدر الظروف ، فتلتمس لى العذر فى أن التوقيع لم يكن كما أود . ولذا سأوقع مرة أخرى .
ووقع الملك على الوثيقة مرة أخرى . وكان التوقيع فى أعلاها .
وصافح (سليمان حافظ) الملك مودعا ،وغادر القصر الملكى عائدا الى قصر رئاسة الوزراء .. يحمل معه آخر سطر فى خاتمة الرواية المأساة ، الملهاة التى كان مضى عليها سنوات طويلة وهى تمثل على مسرح الاحداث فى مصر . وكان « مخرجها المجنون » هو هذا الملك نفسه .!!

مرت الساعات الباقية بطيئة ، ومتثاقلة . حتى اذا جاءت الساعة الخامسة والنصف ، كان على رصيف (رأس التين) قوة من الحرس الملكى على هيئة (قره قول شرف) . وكان هناك رجلان جاءا لوداع الملك : رئيس وزراء مصر .. (على ماهر) . وسفير امريكا فى مصر .. (جيفرسون كافرى) .
نزلت أولا الملكة (ناريمان) ، وبنات (فاروق) . وتوجهن مباشرة الى (المحروسة) . وبعد قليل ظهر الملك يرتدى الزى الصيفى لاميرال الاسطول .. نفس الزى الذى كان يرتديه عندما استقبل (سليمان حافظ)

كان ينظر فيمن حوله بعينين زائغتين يدلان على أن الجهد الذى بذله ، منذ الصباح ، ليبدو مسيطراً على نفسه ، وعلى اعصابه ، قد أخذ يتبدد . وتقدم منه (على ماهر) مصافحا . لم يستطع الرجل ، لحظتها ، ان يمنع نفسه من البكاء . ربما حزنا على المصير الذى انتهى اليه « الملك» الذى باع للشيطان نفسه .. وربما رثاء له لانه كان بوسعه الا يبيع للشيطان نفسه . لكنه ـ بكل الغباء ، والغرور ، والجنون ـ رفض أن يفعل . ! ثم اقترب (كافرى) من الملك وصافحه مودعا: «حظ سعيد ياصاحب الجلالة .» وكررها مرتين ، ثم أخذ يتراجع ، وهو يجهش بالبكاء . !!

ومشى (فاروق) الى (اللنش) الـذى أقـله الى (المحروسة) بخطوات بطيئة جـدا .. كمن يمشى فى جنازة . وكانت هناك بالفعل جنازة ، .. جنازة عرشـه الذى اضاعه بطغيانه .. وبأخطائه ، وخطاياه .

وعندما بلغت الساعة تمام السادسة من مساء يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ .. كان قرص الشمس قد أخذ ينحدر نحو البحر فى سرعة سريعة ، ليغوص فى أعماقه حتى شروق جديد .. وفى هذه اللحظة ذاتها ، كان تاريخ طوله مائة وسبع وأربعون سنة ، هو تاريخ أسرة محمد على فى مصر ، ينحدر هو الاخر نحو البحر بنفس تلك السرعة السريعة ليشارك قرص الشمس نفس المصير . ولكن ، الى غروب أبدى ليس له ، بعده ، من شروق . !!

ولحظة أن تحركت (المحروسة) مغادرة مياه مصر ، متوجهة الى (نابلى) .. حاملة على ظهرها حطام ذلك الملك الذى أبى الا أن يبيع للشيطان نفسه .. طوى كتاب بأكمله ، وفتح كتاب جديد ..

الفصل الثاني عشر

كلمات هزّت مصر

على الصفحات السابقة من هــــذا الكتاب ، وخلال سياق الاحداث التي تألف منها .. قدمت لك — صديقي القارىء — بعضا من تلك الكلمات التى نجحت ، فى فترة السنتين العاصفتين السابقتين على الثورة ، فى أن تهز مصر هزا عنيفا .. وأصبحت بذلك جزءا لا يتجزأ من تاريخها فى تلك الحقبة التى بلغ فيها الطغيان ذروته ، وراح يدوس بقدميه الغليظتين على كل قيمة .. ويهدر كل حق .. ويتجاوز كل قانون . !

على أنه — أعنى الطغيان — بكل ذلك الذى راح يفعله، انما كان يستعجل نهايته .. ويحفر بيديه قبره . لقد كان مساره ، فى تلك الايام ، تأكيدا راسخا لهذه الكلمة الخالدة : « ما وجدت كالطغيان شيئا يســـوق الناس سوقا الى الحرية » . فلقد استصرخ الطغيان اقلامنـــا ، وعبأ قواها ، واخرجها من أغمادها : سيوفا تمزق اوصاله وتسيل دماءه ، ولا تدع له فرصة يلعق فيها جراحه التى لفظ ، من خلالها ، اخر أنفاسه . !

والان .. استأذنك — صديقي القارىء — فى أن أقدم لك على الصفحات التالية ، مختارات مما لم يتســـع سياق أحداث الكتاب لاستيعابه من تلك الكلمات التى هزت مصر من أعماقها .. وأضحت بذلك جزءا لا يتجزأ من تاريخها فى فترة تعتبر ، بحق ، من أخطر فترات هذا التاريخ .

من كتابات : مصطفى مرعي



- ولاء العبيد .. وولاء الأحرار
- فخر البحار !
- مأساة الرتب والنياشين

ولاء العبيد .. وولاء الأحرار

« اللواء الجديد ـ ١٧ ابريل سنة ١٩٥١ »

ولاء العبيد رخيص ، هين ، سهل المنال · لكنه قحل مجدب لا ينصح ولا يشير · وهو طيع طاعة عمياء لا تزن الامور ، ولا تقدر العواقب · عرفته الدنيا في عصور الظلام ، حين كان الاقطاع والحكم المطلق ، وحين كان الظن ان الملوك والامراء آلهة واشباه الهة · وحين كانت العروش تقوم على قوة الاجسام ، قبل قوة العقول ·

وكانت لهذا الولاء امارات ، كالانحناء ، والركوع ، والسجود ، وتقبيل اليد ، وأطراف الثوب ، أو مواطيء الاقدام · وهي ان اختلفت في البلاد ـ باختلاف الامزجة ، والاهواء ، والطقوس ـ فانها مع ذلك ، متفقة في الدلالة على معنى الذل والخضوع ·

وقد امحى هذا الموضوع من الولاء ، يوم أمحى الحكم المطلق وحل محله الحكم المقيد · يوم تقررت الدساتير ، واعلنت حقوق الانسان ، ونزل الملوك عن القداسة التي خلعها عليهم نفاق بعض المؤرخين والقصاصين ، وأصبح الملك فردا لا يميزه عن سائر افراد شعبه الا انه فوق الجميع لغاية واحدة ، هي مصلحة الجميع · ولم يعد الملك متاعا ، او لهوا ، بل صار وظيفة عليها من الواجبات مثل ما لها من حقوق · وانها لوظيفة تقتضي رجاحة عقل ، ونفاذ بصيرة ، وسعة مدارك ، وشمول اطلاع · لا في الجالس على العرش وحده ، بل فيه وفي بطانته ، وحاشيته ، وكل من يصح ان يدخل في دائرة تضمه او تحتويه · لأن هؤلاء ـ ارادوا او لم يريدوا ـ قد يكونون له مصدر وحي ، وباعث الهام ·

ولم تعد اقدار الملوك تقاس بمقدار تسلطهم على شعوبهم وتحكمهم فيها · وانما تقاس بمقدار ما ظفر به كل منهم من

محبة شعبه ، وتعلقه تعلقا تفيض به القلوب ، قبل ان تعبر عنه الالسن والاقلام • وتبارى الملوك فى هذا الميدان • وصار أهم ما يهم الملك وحاشيته وبطانته ، ان يلتمسوا رضى الشعب ويتفادوا غضبه وسخطه • وعلى هذا توارت من مراسم القصــــور ، وطقوسها ، أمارات الذلة والخضوع • وعلى هذا ايضا صـار الرفق بالشعوب ، والتودد اليها ، زينة التيجان • بعد العدل والاستقامة والامانة • وضرب ملوك الانجليز ، وبعض ملوك شمال أوربا ، فى هذا الباب أمثلة خليقة أن تحتذى • وكان ، ولا يزال ، اقوى هذه الامثلة تنازل الملك ادوارد الثامن عن عرشه حين قدر أن بقاءه فيه ، مع تصــميمه على الزواج ممن اختارها لنفسه ، قد يؤدى الى جفوة بينه وبين شـعبه • فاثر أن يتخلى عن العرش ، ويجنب نفسه وبلاده شر هذه الجفوة •

وقد ادركت مصر شعاعا من هذه المعانى الكريمة ، حين تخلى المغفور له الملك فؤاد ، راضـــيا ، عن سلطانه المطلق وآثر أن يكون سلطانا مقيدا بما قيد به نفسه فى الدستور الذى اصدره فى سنة ١٩٢٣ • وفى ظل هذا الدستور ، وعلى اساسه ، تقرر أن تكون مصر بلدا ديمقراطيا على رأسه ملك يسود ولا يحكم • وكان ـ علينا ـ ان نساير هذا الوضع الجديد ، وان نمكن له ، فنكيف ولاءنا للعرش على موجبه ليبقى من هذا الولاء جوهره ولبه ، وليزول عنه ما لا يتفق مع مقتضيات الحرية الفردية والكرامة الانسانية • وكان على حاشية الملك ، وبطانته ، أن يقرنوه الى الحرص على رضى الملك اذ لا غنى عن هذا كله بالتخفف من المشاركة الوجدانية التى بغيرها لا يستطيع هؤلاء ان يحسوا باحساس الشعب• ولا أن يروا رأيه ، فيرى فيهم صاحب العرش صورة صادقة من شعبه •

وقد فاتنـــا الواجب الاول ، وهو الواجب الشكلى ، فترانا ممسكين باطراف من الطقوس المذلة التى كان يلزمنا أن نترفع عنها ليثبت فى الاذهان اننا قد سايرنا فعلا ركب الحضارة ، واننا قد حطمنا فعلا قيود الماضى واغلاله ، واننا قد استبدلنا فعـــلا من حيث الولاء الجوهر بالعرض •

من ذلك ان رجالا منا اذا ما تشرفوا بمصافحة الملك انكبوا على يده وقبلوها • ولو انصف هؤلاء انفسهم ، وغيرهم ، لعرفوا انهم بما يفعلون يخجلون تواضع الملك ويفوتون عليـــه

قصدم الكبير فى أن يبدو أمام الملأ ملكا حرا كريما ، على رأس بلد حر كريم ·

من ذلك أيضا أن وزارة الحربية تعلن فى نشرة رسمية حركات التعيين والترقية فى الجيش فتقول ان حضرة صاحب الجلالة الملك قد (تفضل فأحسن) بتعيين فلان أو ترقيته · وكان خليقا بوزارة الحربية أن تعبـــــــر عن ارادة الملك بلفظ غير لفظ (الاحسان) · لان الاحسان صنو الصدقة · والتعيين والترقيـة فى الجيش كالتعيين والترقية فى سائر وظائف الدولة لا يجوز أن يرد ذكرهما فى الاذهان مختلطا بمعنى الصدقة والاحسان ·

وكما فاتنا الواجب الشكلى ، كذلك فاتنا الواجب الموضوعى · بيد ان الحديث عن هذا الواجب قد يطول · فلنرجئه الي كلمة أخرى ·

فخر البحار .. !!

« اللواء الجديد » ـ ٢٦ يونيو سنة ١٩٥١

كان هذا اليخت ملكا خاصا لجلالة الملك • ثم رأى ان يبيعه فاشترته حكومته ، لا ليكون فى خدمة جلالته ولكن ليكون وحدة من وحدات الاسطول البحرى المصرى • فالمعروف أن الرحلة الملكية التى يقوم بها صاحب الجلالة الملك الان فى ايطـــاليا هى رحلة خاصة ، لا تتصل بشئون الدولة ، ولا تتعلق بهـــا • فهل يجوز مع ذلك استعمال هذا اليخت فى هذه الرحلة ، وعلى من تقع اكلافه ونفقاته ، أعلى الدولة ، أم على خاصة جلالة الملك ؟

هذا سؤال خليق أن يسال من الناحية الدستورية ، وهو سؤال لا تطفل فيه ولا تهجم :

أما انه لا تطفل فيه ، فذلك لأن مال الدولة ليس مال الملك ، كما أن مال الملك ليس مال الدولة ، وقد رسم الدستور حـــدودا فاصلة بين المالين • ومن حق كل مصرى أن يتحرى علامات هذه الحدود • ومن حق الامة أن تكون هــذه العلامات واضحة غيــر مطموسة •

واما انه لا تهجم فيه ، فذلك لأن الملك غنى بماله عن مال امته ، ولأن تأخذ منه الامة فوق حقها ، أكثر وأفضل من أن يأخذ منها فوق حقه • والامر ، على كل حال ، أمر مبدأ يجب أن يتقرر لتسير البلاد على هداه ، فلا تتفتح المنـــافذ ويتقول المتقولون ، ويتظنن الظانون •

والسهر على مال الامة ورعايته ، امر منوط بالحكومة تحت اشراف البرلمان • فهل تصلح حكومة صاحب المقام الرفيع لاداء هذه الامانة ؟ وهل يرجى أن يراقبها البرلمان فى ذلك ، ويسالها عنه ؟

أما الحكومة فقد سافر رئيسها فى صيف العام الماضى ، وكان معروفا انه سافر للراحة لا للعمل • وكان مقتضى هذا ولازمه أن يسافر مقامه الرفيع كما يسافر اى مصرى اخر • فلا موكب ولا حاشية ، ولا بطانة ، ولا حرس • لأنه اذا كان على الدولة ان توفر له من ذلك ما يرضى تواضعـــــه في مصر حيث يعمل ، وحيث يقال انه يعمل ، فالامر على النقيض اذا كان في اجازة وفي الخارج ، حيث لا تكون الحاشية ، ولا البطانة ، ولا الحراس ، الا مظهرا من مظاهر الاسراف ، وسوء التدبير ، فضلا عن استغلال النفوذ •

لكن النحاس باشا ابى ان يكون فى أوربا أقل تواضعا منه فى مصر • وعلى هذا سافر ، وسافرت معه حاشيته لا لينفق عليهـا من ثرائه الواسع ، ولا لتنفق هى على نفسها • ولكن لتنفـق عليها الدولة نفقة السفيه المجنون الذى يعطى الكونستابل فوق راتبه بدل سفر على اساس خمسة جنيات في اليوم الواحـــــد . هذا الى سيارات استؤجرت فى فرنســـــا لتكون تحت تصرف الموكب السعيد ، وكما دفعت مصر التعسة بدل السفر كذلك دفعت اجور هذه السيارات •

واغلب الظن أن هذه الوقائع قـــد وصلت سـمع كثير مـــن الشيوخ والنواب ، ومع ذلك ما فكر واحد منهم فى ان يجعـل منها مادة لسؤال او استجواب ••• والوفديون من هؤلاء معذورون لانهم تعلموا فى مدارس الوفد أن الزعيم الامين لا يناقش ولا يحاسب ، وغير الوفديين كـــذلك معـــذورون لانهم تعلموا فى مدرسة البرلمان أن أخطر الاستجوابات قد تنتهى بشكر الحكومة والثناء عليها •••

واذا كان هذا هو شأن ممثلى الامة مع الحكومة ، فمــــاذا عساه يكون شأنها مع القصر ؟

هذه هى العلة التى تميت دستورنا نصا بعد نص ، وسطرا بعد سطر • ولو انها اماتته كله دفعة واحدة لكانت بنــــا ارحم واشفق • ولكن اين منا الرحمة هذه الايام ؟ !

مأساة الرتب .. والنياشين !

« اللواء الجديد » ـ ١٥ مايو سنة ١٩٥١

الرتب والنياشين ، فى ذاتها ، لا تستحق منا نظرة ولا وقفة • لاننا نؤمن بالديمقراطية الصحيحة والديمقراطية الصحيحة تستوجب المساواة ، ولا مساواة مع رتب تفرق بين الناس ، وتجعل بعضهم فوق بعض درجات •

لكن اذا كانت الرتب والنياشين لا تهمنا من جهة ذاتها ، فانها مع ذلك تهمنا من جهة الضرر الذى ينجم عن توجيهها غير وجهتها ، وصرفها الى غير مستحقيها • وهو ضرر استفحل ، واستشرى فى ايامنا البيض هذه • وها هو قد جاء اخيرا والقى ظلالا من ريبة ، وسحبا من ظن على هيئة كان ينبغى الا تدركها الريب ، ولا تلحقها الظنون •

انها النيابة العمومية ، أو هى القضاء الواقف • فالتقليد الراسخ أن القاضى لا يثاب على قضائه • اذ المفروض أن عمل القاضى اسمى من أن يلقى مثوبة غير مثوبة السماء • وعلى هذا ، لا اعتداد باشخاص القضاة ، ولا كفايتهم ، ولا مواهبهم •• ولا أعمالهم حين ينعم عليهم برتب أو نياشين ، وانما الاعتداد بوظائفهم ودرجاتهم • وهم حيث يتعددون ويتماثلون فى الوظيفة والدرجة يشملهم الانعام جميعاً بلا استثناء •• لتتحقق بينهم المساواة ولينتفى بينهم الاجحاف •

وقد افتاتت الانعامات الاخيرة على هذه المعانى كلها ، وخرقت حرمتها ، وتركت الناس يضربون كفا على كف ، ويتساءلون : ماذا يراد بالقضاء بعد الذى أريد بالجيش ؟ •

نعم افتاتت الانعامات الاخيرة على هذه المعانى كلها • لأنها انعمت على اثنين من المحامين العموميين برتبة البكوية من الدرجة

الاولى فميزتهما بهذا الانعام على سائر زملائهم ، وانه لمعروف أن المنعم عليهما كانا ذا شأن فى تحقيق قضية الجيش ٠
كذلك انعمت بنياشين النيل من الدرجة الرابعة على اربعة من وكلاء النيابة ، فميزتهم على سائر زملائهم ٠ ومعروف أن هؤلاء أيضا كانوا ذوى شأن فى ذات التحقيق ٠

فكيف تم هذا الانعام ؟ وبم يفسر ؟ انى أسأل وزير العــدل جوابا عن هذين السؤالين ٠ وأسأله أيضا : أهو الذى طلب هـذا الانعام على اعتبار ان المنعم عليهم تابعون له ؟ أم ان الذى طلبه سواه ؟ ام ان الانعام قد تم بغير طلب ؟

انى أسأل وزير العدل جوابا عن هذه الاسئلة كلها ٠ ولا يغنيه عن هذا الجواب غضبه أو رضاه ، مرضه أو تمارضه ، متى كان هو المسئول الاول عن هذه المأساة ٠

انى أسأل وزير العدل جوابا عن هذه الاسئلة ، باســــم العدالة ، واسم أسرة القضاء ، واسم الامة المصرية كلها ٠

اسأله باسم العدالة لأنها لا ترضى عن الريبة تمس حرماتها ، ولا عن الظن يغشى مقدساتها ٠٠
اسأله باسم أسرة القضاء لان هذه الانعامات ، ان كانت قــد اسعدت القليل من افراد هذه الاسرة ، فقــــد اشقت واخجلت الكثيرين منهم ٠٠

اسأله باسم الامة المصرية كلها لأنها حريصة أشد ما يكون الحرص على أن تجنب قضاءها مواضع الظن ٠ ليبقى كما كان العهد به ٠٠ موفور الكرامة ، مرفوع الرأس ٠ وتبقى هى كما هو العهد بها تفاخر به وتباهى ٠
فليجب وزير العدل عن هذه الاسئلة ٠ بعد أن أعفيناه من كثير غيرها ، حين كنا نظن انه جاد يوم قال أنه استقال ٠٠

من كتابات : أحمد حسين



- طلائع المد الثوري..
- عصابة الرأسماليين ترفع رأسها
- ربِّ السجن أحبُّ إليّ

طلائع المد الثورى ...

« الاشتراكية » ـ ٢٩ يونيه سنة ١٩٥١

منذ عشرة أشهر أو بالاحرى فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٠ على وجه التحقيق نشرت جريدة الاشتراكية مقـــالا بعنوان : « قادم من الريف أيها الكبراء •• أيها الوزراء •• أيها الاغنياء •• اننى لكم نذير مبين •• فالثورة آتية لا ريب فيها •• اذا استمر الحال على هذا المنوال »

وقلت فى هذا المقال ما يأتى بالحرف الواحد : « ثورة ••• ؟ الك تهذى يا صاح •• هؤلاء العبيد يثورون ؟ هؤلاء الجياع يثورون ؟ أن (شخطة) واحدة من السيد كفيلة بان تخلع قلوبهم •• فاذا لم تكف هذه (الشخطة) ، فان بنادق الخفر كفيلة بسحق هذه الحشرات »

وجاء فى هذا المقال أيضا « اننى عائد من الريف ، كما قلت ، فاى ثورة تلك التى رأيتها تجيش فى النفوس ، أى سخط ، وأى غضب ، وأى هيجان •• ليت الوزراء والحكام والكبراء كانوا معى ليسمعوا بآذانهم كيف تذكر اسماؤهم •• وجاء فى المقال : ليت الوزراء ، والحكام ، والكبراء كانوا معى ونحن نجتـــاز اقطاعيات وزير الداخلية ، واقربائه ، وأنسبائه ، ويسمـــعون تعليقات الناس •• ثم ختم المقال بالعبارة الاتية ••

« ان الثورة آتية لا ريب فيها ، ففى كل نفس سخط ، وفى كل نفس غضب ، وفى كل نفس نار تشتعل • والمسألة لا تحتاج الا للظرف المناسب ، والساعة المناسبة ، لكى يشتعل ذلك كله فى ومضة عين •

وبعد فانى نذير للحكام ، ولولاة الامور ، ولرئيس الحكومة ولوزير الداخلية وللسراة والاعيان والاغنياء •• أن الامور لا

يمكن أن تستمر على هذه الحال وفرصتكم الوحيدة لايقاف الثورة هو تطبيق المبادىء الاشتراكية ، والخطط الاشتراكية • فاذا لم تفعلوا فهى الثورة الاجتماعية آتية لا ريب فيها وقد اعذر من انذر »

ذلك كلام قلته منذ عشرة شهور ، أى فى ختام أشهر الصيف الماضية • وعلم الله انه لم يكن لى مقصد سوى التحـــذير والانذار • ولفت نظر الحكام الى تطور الحالة •

فان فى الريف تطورا عميقا يستدعى الاصلاح السريع النــاجح بتعديل القواعد التى يجرى عليها العمل فى الريف •• وتغيير هذه المعاملة التى يعامل بها كبار الملاك المزارعين ، وان ينظروا اليهم كبشر يساووذهم فى الحقوق ويجب ان يأخذوا نصيبهم الحق من الكرامة والاعتبار •• ويأخذوا فى الدرجة الاولى نصـيبهم الاوفر مما تنبته الارض من ثمرات نتيجة كدهم وجهادهم هم وأولادهم ومواشيهم طول العام •

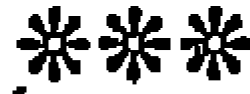
وجهت هذا النذير مخلصا صادقا ، لا أبغى من ورائه سوى الخير لكل الناس وعلى رأسهم الاغنياء والكبراء والاقطاعيين •• فقد خلقنى الله لا أحب ايذاء احد ولا أحمل الحقد والضغينة لاحد • وأومن ايمانا حازما اننا من خلال الحب وغريزة حب الخير نستطيع ان نحل كل المشاكل التى تعترض المجتمع • فماذا كانت نتيجة اخلاصى فى النصح والتحذير • كانت النتيجة أن قدمت لمحكمة الجنايات بدعوى أننى أحرض على الثـــورة •• ثم أقدم وزير الداخلية على الغاء مجلة مصر الفتاة من اساسها لأنها تحرض على الثورة •• ولم يكن لمحامى الحكـــومة أمام مجلس الدولة من كلام يقوله الا أن يتلو هذا المقال ويكرره ويعيده لاظهار خطورته • وسكتت مصر الفتاة لأنها الغيت •• وعنــدما صدرت « الشعب الجديد » لم تتحدث عن هذا الموضوع ولم تكرره •• ولم تشر الى حديث الثورة عن قرب أو عن بعد •

والان فنلق نظرة عما يجرى فى انحاء البلاد •

أما قصة الطوائف من أطبـــاء ومعلمين ومأمورى الضرائب وغيرهم •• وغيرهم فمعروفة ومشهورة لا تحتاج الى أن نشير اليها ••

على أن الذى يعنينا من دراسة هذه الظاهرة •• أن الوزراء

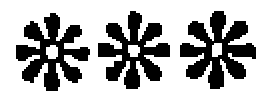
الذين حاولوا أن ينهضوا لعلاج هذه المشكلة بالذهاب لمناقشة هذه الطوائف ·· قد عوملوا معاملة خشنة وقاسية وقد سمعوا باذانهم ما يكرهونه ·· وقد اضطروا للانسحاب خوفا من أن يتفاقم الاعتداء عليهم ويتحول من التعدى بالقول والاشارة ·· الى التعدى بالايدى والاقدام ·· وعندما يجابه موظفون في الدولة وزيرا ورئيسا بمثل ما جوبه به وزير المعارف بالنيابة ·· فنحن ندع تسمية هذه الظاهرة للوزير نفسه ·



ومن كفور نجم تاتينا قصة طريفة وشائقة ·· فهذا مزارع قد رفع على تفتيش الامير محمد علي قضيتين وتوليت رفعهما بنفسي كوكيل عنه · اى أن مزارعا شاء أن يحتكم الى القانون وانا الذى اومن بالقانون وبأننا نستطيع في هذه الايام المضطربة أن أن ننقذ المركب المترنحة اذا التزمنا جميعا جادة القانون فما راعني وراع الناس ان هذا المزارع قد ألقيت عليه صنوف الاضطهاد وتعاون رجال البوليس مع رجال التفتيش على أن يكيدوا لهذا المزارع واهله وذويه وان يفعلوا بهم الافاعيل ··· ولكن ذلك كله لم يزد المزارع الا استمساكا بحقه وذودا عن كرامته فاذا بالتفتيش ورجال البوليس لا يجدون سبيلا للتخلص منه الا باستخدام الجريمة السافرة ··· والقوة الغاشمة متحدين القانون والنظام والدين والعرف والتقاليد ·· فيسقط (عنانى أحمد عواد) شهيدا على عتبة دار البوليس وقد انهالت عليه مجموعة من خفر التفتيش يضربونه بالبلط والخناجر والرصاص تحت سمع وابصار رجال البوليس · ولم يلق الجميع بالا الى أن هناك محاضر تحقيق مفتوحة وان النيابة ممسكة بأزمة الامور ·· ولم يلق الجميع بالا الى أن أعين الصحافة مفتوحة على كفور نجم وأنها تترصد كل ما يجري فيها من حركات ·· ولم يلق الجميع بالا الى أن وزارة الداخلية قد اوفدت مفتشيها الى هذه المنطقة لتراقب وتحدد المسئوليات · كل ذلك قد ضرب به عرض الحائط وجاءوا بالقوة البهيمية ·· وفى وضح النهار وامام مركز البوليس ···

·· جاء خفراء التفتيش يحولون رجلا الى كومة من اللحم والدم ·· لأنه تجرأ ورفع قضية على التفتيش ·· وبعدا للنيابة وبعدا للصحافة ·· وبعدا للقانون ·· وبعدا للقضاء ·· لقد أعدم التفتيش احد عبيده فمن الذى يجرؤ على محاسبة التفتيش

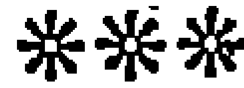
.. وعندما تصل الامور الى هذا الحد ... فنحن نتـــرك مرة اخرى وصف هذه الحالة لجناب الوزير المختص .



وأخيرا نصل الى هذا الحادث الذى يمكن أن يكون بداية عهد جديد من موجة ارهابية تدمر الشعب ، ومحنة جديدة تصيب الامة فى حريتها وكرامتها .. بل قد يرى البعض أن هذه الحكومة بكل حولها وطولها لم تعد صالحة لارهاب الشعب المصرى كما ينبغى فيسعون لرفع حكومة أخرى أشد نكرا ونقمة .. وليس لمثل هـذا التفكير سوى نتيجة واحدة وهو التعجيل باشعال نيران الثـورة الجائحة .. قد يكون هذا الحادث هو بدء هذا الانقلاب .. وقد يكون بدء انقلاب من نوع آخر ، انقلاب خير اصلاحى . ويتوقف الامر الان على سراج الدين باعتباره وزير الداخلية ووزير المالية والرجل المسئول عن هذه الحكومة .. يتوقف عليه الامر فى أى الطريقين سيسير بالبلاد ..

ولنرجع مرة أخرى الى هذا الحادث لنحلله تحليلا علميـــا .. هذا البدراوى عاش هو واباؤه واجداده وامتلكوا هـــذه الضياع وتعاملوا مع هؤلاء المزارعين .. فهل يذكر أن شيئا مما حدث أو شبيها به قد حدث له أو لأحد أفراد عائلته فى هذه المائة سنة الاخيرة .. هذا هو السؤال .. فاذا كان الجـواب بالنفى فهلا يدل ذلك على أن الحال قد تغير وتبدل وان الامر أصبح فى حاجة الى اجراءات من نوع جديد وأساليب جـديدة ليس فيها اصطناع القوة لأن هذا الحادث ما كان ليتطور بهذا الأسلوب العنيف لولا أن واحدا من أسرة البدراوى يعتبر نفسه دولة فى داخل الدولة وقد بدأ يطلق النار على العبيد فأردى منهم شهيدا وجرح آخرين .. لم تكن القوة اذن بعيدة عن الموضوع بل القوة هى التى اشعلت النيران فى القصر التليد الخالد . لقد كان للقصر حرمته فلما انبعثت الرصاصات من القصر لتهرق دم العبيد ثار العبيد واحرقوا القصر . وسمع البدراوى الكبير النبأ فظن أن مجرد ظهوره فى الميدان كاف لوضع الامور فى نصابها ، ساذا به يحتاج لكل حماية البوليس كى ينجو بنفسه ، والان فلنرجع قليلا لهذا الذى قلته منذ عشرة شهور « ثورة .. انك تهذى يا صاح .. هؤلاء العبيد .. يثورون ؟ هؤلاء الجياع يثورون ؟ أن (شخطة) واحدة من السيد كفيلة بان تخلـــع

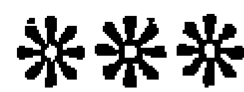
قلوبهم ، فاذا لم تكف هذه (الشخطة) فان بنادق الخفر كفيلة بسحق هذه الحشرات » ٠



ألم تكن هذه نبؤة صادقة وصفت هذا الذى حدث فى (بهوت) قبل أن يقع بعشرة أشهر ٠ واأسفاه ٠٠ لقد شخط السيد فلم تجد شخطته ٠٠ بل لقد بحث عن الخفراء ليحموه فوجد الخفراء يقفون فى صفوف العبيد فاضطر هو الى أن يقتل ٠٠ وان يقتل ثم يهرب بعد ذلك لينجو بجلده ٠ فهل يدرك السادة والكبراء الان ٠٠ ان العبيد يثورون ٠٠ وانهم عندما يثورون يحرقون ويدمرون ٠٠ ولا تفلح فيهم القوة ٠ لم نكن اذن الا ناصحين ومرشدين فعسى ان يسمع الينا وان يستفاد بنصحنا ٠

ان هذه الحوادث التى يمثلها تذمر الطوائف ٠٠ ومصرع (عنانى أحمد عواد) ٠٠ وانفجار الفلاحين فى أراضى سادة الاقطاع فى مصر ، هو طلائع المد الثورى على ما يقول علماء الاجتماع ٠٠ فالثورة لها مد كمد البحر وعلماء الاشتراكية يدركون هذا المد وطلائعه ويدركون هذا المد عندما يصل الى ذروته ٠ فهذا الذى يجرى الان ويقع فى البلاد هو من علامات طلائع المد الثورى ٠

وهاانذا فى يونيو سنة ١٩٥١ أعود لانذار الحكام وتحذيرهم ان هذا المد الثورى لا يزال من الممكن أن يتحول الى جزر فيتراجع ٠٠ ومن المحقق انه اذا لم تزل الاسباب التى تدعو لرفعه فانه سيتحول الى طوفان جبار ٠



أما الاسباب التى تزيد فى قوة المد فلا تخطئوا وتظنوا انها كتابات أحمد حسين أو كتابات أمثاله من أصحاب الاقلام الحرة ٠٠ حذار أن تضللوا أنفسكم فتظنوا ان هناك من يوقد لهب الثورة غيركم انتم معاشر الحكام والاغنياء ٠ أن مستنقع الفساد الذى يعيش فيه الكبراء والحكام والاغنياء هو الذى يرفع هذا المد الثورى ٠ لقد هرب الكبراء والوزراء ويهربون الى الخارج ٠٠ الى المصايف ٠٠ الى الشواطىء الى الكازينوهات ٠٠ وتركوا الفلاحين فى هذا الجحيم يعملون جياعا عرايا ، بعد أن سلطوا عليهم موظفيهم ليرهقوهم بالمطالب وابتزاز الاموال ٠ وينزل الفلاح عن قمحه وهو يسمع أن أحد ابناء الذوات يبتاع الجواهر من أوربا ويتعرى على الشواطىء ويفطر فى رمضان

في الوقت الذى لا يستطيع أن يحصل على بعض القمح الذى استغل فيه طول العام قوتا لاولاده ٠

وما يقال عن الفـــــــلاح يقال عن الموظفين وبقية طوائف الكادحين ٠٠

هذا هو مكمن الخطر ٠٠ وهذا هو العامل الاساسى لخلق هذا المد الثورى الذى لن يلبث أن يتحول الى طوفان ٠ اذا لم تكفوا عن هذا الاستهتار ٠٠ اذا لم تدركوا ان الحكم ليس لهوا ولعبا ومغنما ٠٠ وانما هو جهاد وتضحية وبذل٠ اذا لم يدرك (النحاس) ان قدمه قد أصبحت الآن فى القبر وعليه أن يعمل شيئا لأمته ، ولهذا الشعب الذى أولاه من الثقة ما لم يحط به انسان فى أى بلد من البلاد ٠ ما لم تخضعوا جميعا لهذا الشعب ٠٠ ما لم تعرفوا أن أموالكم هى من حق هذا الشعب ٠٠ ما لم تخفـــــوا مظاهر ثرائكم وتبذلكم واسرافكم وفجوركم عن هذا الشعب ٠٠ فان هذا الذى ترونه هو طلائع المد الثورى الذى يقرر العلم البحت انه سيتحول الى طوفان٠

عصابة الرأسماليين ترفع رأسها !..

« الاشتراكية » ــ أول يونية سنة ١٩٥١

قيل ان توجيها ملكيا وجه للوزارة بمناسبة تعديل الضرائب لتعرض هذه الضرائب على المجلس الاقتصادى الاستشارى الأعلى· ونحن الذين آلينا على أنفسنا أن نكون سدنة للدستور وحفاظا عليه ، قد كتبنا فيما مضى نؤكد حق رئيس الدولة الأعلى فى نصح حكومته وارشادها وتوجيهها · بل وزدنا على ذلك أن الحكومة الرشيدة ينبغى أن تلتمس توجيهات جلالة الملك من حين لآخر فى الشئون العامة · ولكن المرجع النهائى سيبقى دائما للحكومة الدستورية المتمتعة بثقة البرلمان · فالحكومة ليست ملزمة بأى حال من الأحوال ، بأن تعمل بتوجيهات رئيس الدولة الأعلى لأن الحكومة ــ وليس الرئيس ــ هى المسئولة أمام البرلمان ، وحيث تكون المسئولية تكون السلطة · وحيث تنعدم المسئولية تنعدم السلطة · ومن المعروف والمجمع عليه أن الملك فوق المسئوليات ، فهو بالتالى لا يملك الأمر ولا النهى ولا التنفيذ ، وانما الذى يملك ذلك هو مجلس الوزراء (المهيمن على مصالح الدولة) والذى يستمد سلطانه من الأمة مصدر السلطات ··

ونحن لا نقبل بحال أن تمسخ الأوضاع فى بلادنا فيتصور انسان أن التوجيه الملكى اذا صدر للوزارة فانه يكون ملزما لها··

هذه هى الأوضاع الدستورية نضعها تحت أنظار من لم يكن يعرفها ··

بقى ما يقال ويشاع بصدد هذا التوجيه الأخير الذى قيل انه صدر من رئيس الدولة الأعلى الى الحكومة خاصا بالضرائب ·· وقد كذبت الحكومة صدور هذا التوجيه فاصبح لا وجود له ·

فكان يتعين على الصحف أن تمسك عن القول بأن توجيها ملكيا قد صدر ، فمادام لم يصدر بيان رسمى بهذا التوجيه من ناحية

الوزارة او ناحية القصر .. فكل مايقال عن هذا التوجيه ليس الا لونا من الوان التكهنات .. ليس الا طرفا من هــذه المؤامرة المستمرة من الراسمالية الجشعة ضد الشعب ..

ولذلك فقد احسنت الحكومة كل الاحسان ، بل احسن وزير المالية بالذات عندما أعلن في حزم وفي صراحة ان مشروعات الضرائب هي الآن في ذمة البرلمان صاحب الاختصاص ، وهو وحده الذي يملك النظر في هذه القوانين وتعديلها وليس المجلس الاقتصادي الاستشاري ..

ننتقل بعد ذلك الى كشف الستار عن هـذه المؤامرة الدنسة ، التي حمل كبرها بعض الصحف الراسمالية ، وروج لهـا بعض الزملاء بحسن نية بعد أن اختلطت المعاني في رءوسهم .

يجب أن تعلم الأمة أولا وقبـل كل شيء ممن يتألف المجلس الاقتصادي الاستشاري الأعلى ؟ انه يتألف من وزيرين وأربعة نواب وشيوخ ثم حضرات السادة الاماثل مع حفظ الالقاب والرتب والنياشين ايضا :

حسين سري ـ حافظ عفيفي ـ الياس اندراوس ـ محمد أحمد عبود ـ علي امين يحيى ـ عبد المقصود أحمد ـ مسيو مارسيل فنسينو ـ مسيو الزورت لاميبورت ـ محمد محمد الوكيل ـ اسماعيل رمزي .

. ولكن عامة الشعب قد لا تعرف أن حسين سري هو رئيس الحكومة السابق الذي تؤجره الشركات الأجنبية ليكون سبيلها لاستغلال المصريين واستثمارهم ، وحافظ عفيفي هو الرجل الذي كان يرأس ادارة أربعين شركة لمجرد انه رئيس بنك مصر ، أما احمد عبود فهو رب المال في مصر ، وعلى امين يحيى هو رب اخر في دنيا الوثنية الراسمالية ... وان مسيو مارسيل فنسينو هو ممثل الراسمالية الفرنسية في مصر باعتباره رئيس البنك العقاري .. وزميله الخواجة الآخر قد يكون ممثل الراسمالية الانجليزية او اليهودية ..

فالمجلس الاستشاري الأعلى لا يتألف كمـا قد يقع في روع البعض من الخبراء الاقتصاديين ، او من المواطنين الكبـار الفنيين .. وانما هو يتألف من كبار الراسماليين الذين تضج البلاد منهم ، والذين قد اتخذوا من هذا الشعب عدوا لهم فلا هم لهم الا ان يستغلوه على اية صورة من الصور لغاية واحدة وهدف واحد

وهو أن تزيد ملايينهم وتتضاعف ·· ولو كان فى موت هذا الشعب وفنائه عن بكرة أبيه ، ما يضـــاعف فى ثرواتهم ، فلا تظن أنهم يترددون لحظة فى أن يتمنوا هذه النهاية ·· ولا لوم عليهم ولا تثريب · فطبيعة النظام الرأسمالى الجشع تجعل الهدف النهائى هو الحصول على الارباح بأى ثمن من الاثمان ولو باغراق العالم فى طوفان من الدم ··

وبقى أن نعرف أن تعديلات الضرائب الجديدة قد رفعت ضريبة الايراد على الدخل العام الى سبعين فى المائة عن كل ما زاد عن خمسين ألفا من الجنيهات · ولقد دعت الاشتراكية ولاتزال تدعو الى رفع هذه النسبة الى تسعين فى المائة بل الى ٩٥٪ اذا لزم الأمر ، حتى لايزيد دخل أى مصرى عن ستة آلاف جنيه فى العام بأى حال من الأحوال ، وذلك لكى يتسنى رفع الشعب الى المستوى الذى لا يقل فيه الدخل لأى مصرى عن خمسمائة جنيه فى العــام بأى حال من الأحوال كذلك ·· فنحن لا يســـعنا ــ وليس يسع الشعب ــ الا أن يرحب بهذه الخطوة التى خطتهـــا وزارة المالية وهى أن تجعل النسبة ٧٠٪ فى كل ما زاد عن خمسين ألفا من الجنيهات ، وبنسبة أقل من عشرة آلاف الى خمسين ألفا ·

ولكن الرأسمالية الجشعة ما كان يمكن أن تسكت فان هـــذه الضرائب ستحد قليلا من جشعها ·· وستقلل فى أيديها الاموال اللازمة للانفاق على موائد القمار وعلى الغوانى فى نيس وكان ومونت كارلو وباريس ··· هذه هى الضرائب الجديدة ، ستجعلهم يفكرون قليلا فى طريقة انفاق المال وهم قد اعتادوا أن لا يفكروا فى طريقة انفاقه ·· اعتــادوا أن يهبوا احدى الغوانى عقـــــدا بعشرة آلاف من الجنيهات أو بأضعاف ذلك ·· اعتادوا أن تكون لهم اسطبلات الخيول لا فى الاسكندرية وفى القاهرة فحسب بل وفى باريس نفسها وفى انجلترا ·· اعتادوا أن تكون لهم قصور للصيف وأخرى للشتاء وثالثة للربيع ورابعة للخريف ·· ثم قصور أخرى للالتجاء اليها عند الملل ، أو عندما يراد الابتعاد قليلا عن الأنظار ·· هذه الضرائب الجــديدة اذن قد يكون من شأنها أن تحمل سادتنا الكبار ، وأربابنا المعبودين على الشعور بشىء من التنظيم فى انفاق أموالهم وهم لم يعتادوا على غيـــر للفوضى ··· ولم يعتادوا على غير الفحش فى الانفـــاق وفى التصرف ، وفى المعاملات ··· ومن هنا بدأت المؤامرة فاستغل

الرأسماليون ـ على ما قال بعض الورزاء ـ سؤالا وجهه جلالة الملك الى أحد الوزراء عن المجلس الاقتصادى وعن المرات التى عقد فيها لكي يخلقوا ـ كما يقولون ـ من الحبة قبة وليقولوا ان جلالة الملك قد طلب عرض مشروعات الضرائب على المجلس الاقتصـــــادى الاستشارى ··· كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا ··· كيف نعرض هذه الضرائب على الأشخاص الذين ستجبى منهم هذه الضرائب والتى شرعت هذه الضرائب بالذات للحد من جشعهم وشرههم ··· ان بنك مصر وأعضاء مجلس ادارته وعبود وتوابعه وعلى أمين يحيى وفرغلى وأندراوس وأحزابهم ، هؤلاء النفر الذين ستؤخذ منهم هذه الضرائب المرتفعة، وهؤلاء هم أصحاب الملايين فى مصر ، وهؤلاء هم الذين يمثلون اخوانهم وزملاءهم من باقي افراد العصابة الرأسمالية الجشعة ، فهل من المعقول أن يوافق هؤلاء على أن تجبى منهم الضرائب · لو أن هذا المجلس كان يجلس فيه أساتذة الاقتصاد ··· لو أنه كان يجلس فيه ممثلون عن العمال وعن الفلاحين وعن صغار الموظفين ··· اذن لقلنا اجل فلتعرض هذه القوانين على المجلس ليمحصها من الناحية الفنيـة البحتة ·· أما وأعضاؤه هم الذين ذكرناهم لك فما جدوى العرض على هذا المجلس الا أن يكون المقصود هو وأد مشروع الضرائب الجديدة ·

دعونا اذن من التباكى على الشعب ، فأنتم فى كل أعمـــالكم وتفكيركم أبعد ما تكونون عن الشعب أو التألم لأجل الشعب انمـا تبكون لأن فرصة اســـتغلال الشعب واســـتنزاف دمه توشك أن تفر من أيديكم ·· لأن هذه الضرائب العالية ستجعل استغلال الشعب واستنزاف دمه قليل الجدوى فى تكوين ملايينكم ·· لاينبغي أن يقال اذن أن الحكومة بالغت فى الضرائب المباشرة بل الحق انها يجب أن تزيدها على الاغنياء أكثر وأكثر ··· وانما الحق أن يقال لها انك تبعثرين هـــذه الضرائب على ملذاتك وشهواتك وشهوات الأنصار والأتباع والكبراء ··· انما الذى ينبغى أن يقـــال أن الشعب لاينتفع بهذه الأموال المجموعة وانما هى رد على الأغنياء بعد أن يضاف اليها ما يؤخذ من الفقراء والكادحين على صورة الضرائب الجمركية والتى تبلغ أكثر من نصف الميزانية ·· أموال الدولة كلها لا تنفق على الشعب ولا تقضى على الفوارق ولكنهـا تعمل على زيادة هذه الفوارق وتضخيمها · قارن بين ما ينفق على أحياء الزمالك وجاردن سيتى وما يسمونه الاحياء الافرنجية فى كل

مدينة وبين ما ينفق على الأحياء الوطنية تدرك اين تنفق الضرائب. اقرأ ما كتبناه في العدد الماضي عما يجرى الآن في ضاحية المرج التي يراد تحويلها الى جزء من صميم القاهرة لمتباع عزبة الرئيس الجليل بالمتر والذراع بدلا من الفـــدان والقيراط ··· انظر الى ميزانية وزارة الأشغال في هذه الناحية تعرف أين تصرف الضرائب ··· اقرأ ما كتبناه في أعدادنا السابقة عن قصر محمد على بشبرا والملايين التي انفقت عليه ولاتزال تنفق ·· اقرأ عن التماثيل التي تقام في كل ميدان والتي تقام بالجملة لا بالقطاعي وتنزع لها احياء باكملها تدرك على الفور أين تبدد هذه الملايين ··

اسأل كم من الجنيهات انفقت على اصلاح يخت المحروسة وأمثاله وأي ملايين تنفق في هذا السبيل ·· تابع قضية الجيش والارقام الخيـــالية التي يتحـــدثون عن أن زيدا لطشها ·· وأن بكرا سرقها وأن عمرا (شفطهـــــا) تدرك على الفور أين تذهب أموال الشعب . وما خفي كان أعظم .

اقرأ الصحف واخبار الحفلات والزينـات والمؤتمرات وكبـار الموظفين والوزراء الذين لهم في كل يوم مؤتمر علمي تدرك على الفور اين تضيع أموال الشعب ··

اسأل عن هذه التصرفات وطالع انباءها ثم اصرخ في وجه الحكومة وفي وجه وزير المالية وقل له أيها الرجل اذا كنت تريد الاصلاح حقا ·· فهذا هو سبيل الاصلاح . ليس يكفي أن تجمع المـــال لتزعم أنك توفر العدالة الاجتماعية ·· انما العـــدالة الاجتماعية في كيفية انفاق هذا المال فلتكف الحكومة عن هـــذه النفقات الجنونية في التافه من الامور ··· فلتضرب الحـكومة على يدها ويد انصارها واتباعها ومريديها ·· فلتحكم الحكومة شهواتها وشهوات كل صنوف الحـــكام في مصر لتفرض على نفسها الوانا من الوان التقشف والتعقل ؛ وعندها سيكون من حقها أن تزعم انها تجبي الضرائب للانفاق على الشعب ·· أما الان فان هذه الضرائب التي تجبيها وكل الضرائب التي تجمعها من أفقر طبقات الشعب انما تنفق على الاغنياء ·· تنفق على الكبراء ·· تنفق على الحكام. وهذا مايجعلنا نؤيدها وهي تجمع الضرائب من الاغنياء لاننا لا نستطيع الا أن نؤيد المبدأ وكنا نلعنها وهي تنفق هذه الاموال على الحكام والاغنياء مرة ثانية بعد أن تضخم بما زيد عليه من ضرائب الشعب البائس .

رب السجن أحب الى

« الاشتراكية ـ ١٨ مايو ١٩٥١ »

اكتب هذه السطور صباح الاثنين ، وعندما يطالعها القــراء اكون قد وقفت بالامس امام محكمة الجنايات لأحاكم بتهمة العيب في الذات الملكية ، ولعشرات اخرى من التهم ما بين تحريض على الثورة ، وبغض الطوائف الراسمالية ، واهانة وسب « كـريم ثابت » و «حسين سرى » و « انطونيو بوللى » واضرابهم ٠ والوقوف امام محكمة الجنايات ليس جديدا علينا فيوم أن تؤرخ حركة كفاحنا ستؤلف المحاكمات والوقوف امام محكمة الجنايات ثلاثة ارباع هذا الكفاح ٠٠ وتنخلع قلوب الناس لمجرد تصورهم ان يقفوا امام محكمة الجنايات ٠٠ وحق لهم أن يهلعــوا فان المواطن الحر جدير به ان لا يقدم على الاخلال بالقانون من ناحية، ولأنه خلف محكمة الجنايات سجون وايمـــــانات وحرمان من الانسانية المهذبة وزج بالانسان فى مهاوى الذل والشقاء ٠

أما نحن فعندما نقف امام محكمة الجنايات فلا يســاورنا شيء من ذلك على الاطلاق ٠ فلا نحن نشعر اننا خرجنا على القانون واخللنا به ٠٠ وانما نحن نحارب الاخلال بالقانون والعبث به ٠٠ كل ما فى الامر أن الحكام وولاة الامور يتصورون انهم فوق القانون وفوق الدستور ، وان كل ما يفعلونه يصبح قانونا ٠٠ ونحن لا نعرف كبيرا ولا صغيرا امام القانون فى هذا البلد ٠٠ ولا نعرف لأحد مقاما يحفظ عليه الا أن يكون خادم القانون والدستور ٠٠ فاذا خرج على هذا الدستور والقانون ، أو ظن أن ارادته ومشيئته هي القانون ، فهو فى هذه الحالة خارج على القانون وثائر عليه ٠٠ ونحن عندما نرده الي جادة الصواب ، بأى أسلوب من الاساليب ، نكون نحن الحفظة على القانون ،

ونكون نحن من نمثل دور النيابة العمومية التي تمثل الشعب أصدق تمثيل .

واذا كان الوقوف أمام محكمة الجنايات هو الطريق الى السجن في كثير من الاحوال .. فان السجن هو والقبر سواء .. وقد قيل في الحديث ان القبر اما حفرة من النار ، أو روضة من رياض الجنة . هو حفرة من النار لهؤلاء العاصين والمذنبين والمعتدين على حق الاخرين .. هو حفرة من حفر النار لأرباب الشهوات والطغاة والجبارين والانانيين والجشعين .. هو حفرة من حفر النار لاعداء الشعوب ، والمستهترين بالاداب والاخلاق والتقاليد . هو حفرة من حفر النار لأصحاب الملايين والرأسماليين الذين يستغلون دماء العباد لينفقوها على المراقص والمغاني وموائد القمار . هو حفرة من حفر النار من غير شك للقوادين الذين يتخذون من القيادة سبيلا من سبل الارتقاء والحصول على ما لا يحصل عليه الشرفاء الامناء ... هو حفرة من حفر النار لكل منافق ومراء وكذاب لئيم .. ولكنه روضة من رياض الجنة ، وهو روح وريحان للصادقين الامناء - المخلصين والاطهار ، الذين لم يظلموا أحدا ولم يستغلوا احدا والذين لا يخافون فى هذه الدنيا أحدا الا الله ولا يرجون جزاء ولا مثوبة الا من الله .. القبر روضة من رياض الجنة للعاملين والكادحين الذين يكسبون عيشهم من عرق الجبين . الذين لا يعيشون فى كنف النساء ويحقرون الرذيلة ويحطمون الاصنام . القبر روضة من رياض الجنة للمجاهدين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون فى الحق لومة لائم ، ولا يخشون صولة جبار أو بطش طاغية .. هؤلاء ينفسح لهم القبر ليكون جنة وأرفة الظلال .

وما السجن الا لون من الوان القبر فالحكم فيهما واحد والمصير فيهما واحد . فالسجن سلاسل واغلال ، وعذاب وارهاق ، وعار وشنار للسراق (فى غير ضرورة) وللمختلسين والمرتشين ، ولسافكى الدم ، وقاتلى النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق ، وللزناة . أما بالنسبة للمجاهدين الذين نزلوه لانهم نطقوا بالحق ، وجاهدوا لاسعاد الشعب .. فان ناره تتحول الى برد وسلام ، وسلاسله تتحول الى أوسمة ونياشين ، وذله وعاره يتحول الى مجد وفخار . هكذا كان شأن السجن مذ عرفت الدنيا السجون .. وهكذا كانت تجاربنا الشخصية فى السجن ، فما تململنا في

يوم من الايام ، ولا تبرمنا الا من الترف والكسل وكثرة ما نشعر به من نعيم وسعادة .. فقد كان بالنسبة لنا دائما لونا من الوان الخلوة .. نخلو فيها الى أنفسنا ونخلو فيها الى الله .. نعبد ونتعبد ، ونفكر ونتعمق ، فاذا بنا نشعر بالسعادة التى قد لا يشعر بها القابضون على السلطان .. بل نشعر بسعادة لا يحس بها أصحاب الملايين ، او أصحاب التيجان ، او اصحاب الجاه العريض .

يجب أن يعلم الحكام فى هذا البلد أن الشعب قد قرر أن يجعل منهم خدما له لا سادة ، وان يكونوا محاسبين أمامه قبل أن يحاسبوه ، وانه يقف لهم بالمرصاد ، ويتتبع حركاتهم وسكناتهم، ويعد عليهم الانفاس . عندما يشترى الحاكم عزبة ، فان الشعب الذى أضناه الجوع والعرى لا يمكن أن يغتفر ذلك ، ولا بد أنه سيأتى يوم يحاسب الذين هزأوا من جوعه وفقره واثروا على حساب الامه .. لابد أنه سيأتى اليوم الذى يحاسبهم فيه ، وقد يكون هذا اليوم بعد مماتهم بالذات فيمتد الحساب الى اعقابهم وذراريهم ، بل قد يمتد الى أجسادهم وعظامهم البالية فى قبورهم عندما يسمع الشعب عن اصحاب الملايين فى مصر وهم يتهادون فيما بينهم بالهدايا التى تقــدر بالالوف وعشرات الالوف ، ثم يتلفت الشعب حوله فيجد نفسه فى حاجة الى (صفيحة) ماء للشرب فلا يجدها لأن موارد الميزانية لا تسمح . وعندما يجـد مستشفى اغلقت ابوابها لان احـــد اجهزتها لايزال ناقصـــا والميزانية لا تسمح بشراء الجهاز . وعندما يجد بين صـــفوفه مئات الالوف من العاطلين الذين يتسكعون للحصول على لقمة .. عندما يقارن الشعب بين حالته وبين حالة هؤلاء الكبار فان الغضب يجيش فى نفسه ويقرر أن لا يسمح باستمرار هـــذه الحال . عندما يسمع الشعب عن كبرائه وانهم يسهرون لياليهم يلعبون القمار ، ويسمع عن المبالغ الضخمة التى تقذف على الموائد وقد جمعت كلها من عرق الفلاح .. فان الغضب يمـــلأ جوانح الشعب ولا يمكن أن يسمح باستمرار هذا العبث .

عندما يرى الشعب حكومته مشغولة عنه وعما يعانيه من أزمات طاحنة .. ويراها وكأنها تعيش فى عالم آخر أو كأنها حكومة أمة أخرى .. أو حكومة دولة أجنبية تحكم شعبا مغلوبا على أمره . عندما يحس الشعب ذلك فان الغضب يفسد عليه حياته ويأبى الا

أن ينفجر ليرى على رأسه حكومة من صميمه تحس بآلامه وتجوع لجوعه وتشقى لشقائه •

عندما يرى الشعب ان المراكز الحساسة فى ادارة بلاده قد ملئت بالجواسيس وبأعداء البلاد وبمن لا تجرى فى دمائهم قطرة دم مصرية ·· فان الشعب لا يمكن أن يسمح باستمرار ذلك ، لأن مصر لم تعقم ، فلا يكون من ابنائها من يملأ هذه الوظائف فى أمانة وطهارة واخلاص •



ولا بد أن يكون للشعب صوت يرتفع ليعلن ارادته ·· وقد اخترنا ان نكون أحد هذه الاصوات ·· ونحن نعلم أن هـــذا يعرضنا لكل صنوف المحن والآلام ولكنها تهون الى جوار خدمة الشعب التي هي عندنا عبادة لله • وسنظل نعلى سلطان الشعب في كل موقف وفى كل مجال • نعليه ونحن نخطب ، ونعليه ونحن نكتب ، ونعليه ونحن ندافع فى المحكمة ، ونعليه ونحن نسجن ، ونعليه ونحن نزف الى قبرنا • فليسمع ذلك جيدا كل من له اذنان للسمع ، وليعلم أن الزمن قد استدار ، وان الاســـــاليب العتيقة والمعانى البالية لم تعد تصلح لهذا الزمان •

وآخر ما اختتم به هذه الكلمة التى لا أعرف ماذا يكون مصيرى بعدها • ان اهيب بكل مواطن يحس بمثل احساسى ان يبادر لحمل اللواء • وان يخف الى نجدة العاملين • فالشعب يجب ان يتكتل ، والشعب يجب ان يزأر ، والشعب يجب أن يخيف •

والله اكبر ويحيا الشعب •

من كتابات : فتحي رضوان



- عهد الكلاب !
- الشيطان يتكلم !
- رحلات الملوك !

عهد الكلاب ... !!

« اللواء الجديد ـ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥١ »

حدثني صاحبي قال : ركبت قطار الديزل من الاسكندرية عائدا الى القاهرة ، ومعي زوجتي وابني · وكان قبالتنا على المقاعد المواجهة ، أحد أخواننا النوبيين ومعه ·· حذر ماذا ؟ قلت ومعه زوجته : قال لا · بل كلب ارستقراطي ينظر الى الادميين نظرة ترفع واستكبار · وقد سبب لنا هذا الكلب فزعا ، لان ابني ، كان يتوجس من كل حركة تصدر منه ، شرا · ولقد اقتضانا ادخـال الطمأنينه الى قلبه بعض الوقت · ثم رأيت من الواجـب ان اتشرف بمعرفة رفيق السفر الذى انسنا بصحبته · فسألت النوبي عن أمره · فقال لي انه مريض يشكو علة ، وانه لا يعود الى القاهرة لمجرد الرغبة في السفر · بل ليعرض نفسه على طبيب ·· وقال الاخ النوبي أن طبيب القاهرة « بولوني » مشهود له بالكفاية في معالجة الكلاب · وأن الحرص على انقاذ حياة هذا الكلب ، هي التي دفعت بالسيدة المجرية صاحبته الى التشبث بعرضـه على الطبيب البولوني بالقاهرة ، فلقد فجعت السيدة من قبل ، في كلب كان زميلا للكلب المريض · فاشفقت عصمتها من أن تفجع فيه ايضا ، فيجل المصاب عن العزاء ·

والسيدة التي يتسع حبها لهذه الكلاب ، هي زوجة مصري تتسع ثروته لهذا اللون الجديد من البذخ ، ولهذا الطراز الوافد من المتع والهوايات ··

ولقد أطرقت ، وصاحبي يسمعني هذا النبأ · فسألني : فيم تفكر ؟ قلت : أفكر في خاطر يلح على الحاحا ، وانى أحاول أن اطرده وابعده عن رأسي · ان حديثك اوحى الى ، بعنوان لهـذا العهد الذى نعيش فيه ، يمثل ما فيه من فوضى ، ومن اضطراب ،

ومن انقلاب للمعايير ، ومن اطلاق للشهوات والغـــرائز ، ومن تحد لحقائق الحياة التي نحياها ، أو يحياها المجموع المتعب المكدود • الذي يسمونه الشعب • ان هذا العهد قد أختار لنفسه اسمه ، وأنا أرفض هذا الاختيار اكراما لادميتنا ، واجـــلالا لانسانيتنا • لقد أختار لنفسه ان يكون « عهد الكلاب » • وانا أرفض ان يمر في تاريخ امتي عهد ننحط فيه الى درك هـــذه التسمية • ولكن كل شيء يدعوني الى أن اقر التســمية ، وان اذيعها بين الناس •• فالعهد الذي ينال فيه الكلاب والخيــول هذا القدر من العناية والاحتفاء من أهل بلادنا ، هو العهد الذي يتضور فيه الادميون في القرى وفي المدن جوعا • هو العهـــد الذي تفتح فيه الوحدات الصحية ، فلا تجد الدولة لها أطبـــاء ليعالجوا الوف المرضى ، والذي تفتح فيه المدارس ، فلا تجـــد الدولة لها مدرسين ليعلموا ، والذي تفتح فيه المنشآت الاجتماعية فلا تجد الدولة لها مراقبين ومرشدين وحاضنات وممرضات •

ان العهد الذي تتقدم فيه الكلاب والخيول الصفوف ، فتسبق الفلاح والعامل ، بل تسبق التلميذ وطالب الجامعة ، هو العهد الذي تأكل فيه دودة القطن المحصول الرئيسي للبلاد ، والذي يرتفع فيه سعر الذرة ، المأكول الرئيسي للناس ، والذي يهدد فيه الافلاس الخزانة العامة •

ان العهد الذي يجد فيه الكلب مكانه في الديزل ، لا تجد فيه أسرة بأسرها من البشر أجرة الركوب في الدرجة الثالثة ، لأن الكلب يجد من يأويه ، ويحميه ، ويدافع عنه ، أما الفلاح فلا يجد الا أعيانا نزل بهم الفقر ، فعالجوه بالتمسح في الســياسة •• والتعلق بالمبادىء ، حتى اذا قفزوا الى الوزارة ومقـــاعد السلطان ، اسرعوا فوزعوا انفسهم على مناصب الدولة ، هنا شقيق وهناك شقيق ، وفي الشركات اشقاء ، ثم اندفعوا ينهبون ويسرقون ، ويقترفون ، سرقات مفضوحة ، سرقات يعاقب الله عليها بقطع اليد ، وتعاقب عليها الامم الحية بالاعدام المدني أو المادي •

كيف لا يتقـــدم الكلاب ، وجـــواز المرور في هذه الايام ، ان تكون تافها لا علم عندك ، خفيفا لا وزن لشخصك ، مسايرا لا اعتبار لرأيك ، وان تتستر على اللصوص وتعينهم ، بل وتعدهم

أبطالا وتعتبر جرائمهم تضحيات ، وسرقاتهم غزوات ، وفضائحهم امجادا خالدات باقيات ..

كيف لا تتقدم الكلاب .. وانت ترى الرجل منتفخ الاوداج كبرا ، منتفخ الجيوب تبرا ، وتسأل من هو ، فاذا عبارة تعريف به لا تخلو من اسم سيدة ، او اسم سمسار ، أو اسم خادم من خدام الاستعمار .

كيف لا تتقدم الكلاب ، والرذيلة باتت اليوم المصعد الذى يعلو بالحقراء والمفرطين في الاعراض ، والمتمسحين فى الاقـــدام ، والفضيلة قد باتت الاعباء الثقيلة التى لا يرفعها انسان فوق ظهره الا وقصمته ، ولا يرتبط بها الا حطمته ..

فالعهد اذن عهد الكلاب ، وعهد الخيول ، وعهـــد الامزجة المريضة ، وعهد اللذائذ المسمومة . فلا عجب ان تجلس والى جوارك كلب ، فغدا سيجلس الكلب ، بلا أجرة وفى غير مقابل ، الا أن يكون الاجر ، هو ان تنال شرف الاتصال بالكلاب المشمولة بعطف الاقوياء .

فليعرف اذن الكتاب والباحثون ، وليعرف الوطنيون والمربون انهم يعيشون في عهد الكلاب ، فليقلبوا أفكارهم وليغيروا فيها وليروضوا السنتهم ويصلحوا من شأنها ، وليدربوا أقـــلامهم ، ويقللوا من اندفاعها ، حتى تتشابه العقول والالسنة والاقلام بما يريده الكلاب ، ويأمرون به ، ويرضون عنه .

الشيطان يتكلم .. !!

« اللواء الجديد ـ ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥١ »

حدثني حافظ رمضان (باشا) يوما فقال أن جلالة الملك كان يستشير في احدى الازمات رجال السياسة ، فجــــاء دوره في مقابلة جلالته ، قبل حافظ عفيفي (باشا) مباشرة · فلما انتهى الحديث بينه وبين الملك ، وهم بالانصراف ، قال جلالته :

ـ وهل لديك شيء جديد تضيفه ؟

قال : ليس عندى الا أن أتشرف بلفت النظر بأن الذى سيأتي بعدى هو وكيل بريطاني ، أو صنيعة بريطانية · فأومأ جلالته برأسه ·

فحافظ عفيفي ، خادم من خدام الانجليز ، أفنى رجولتـــــه وشيخوخته في خدمتهم ، وهو خادم كما ترى مفضوح ، وان لم تكن يه ، خفة أمين عثمان ، الا انه من طرازه · ولم تتح لي الاقدار فرصة التحدث إليه الا مرة واحدة ، ولكن هذه المرة كانت كافية ، لتنطبع له في نفسي صورة تبعث على غاية الاشمئزاز والتقزز · فهو رجل ناعم · ناعم في كل شيء : ناعم الصوت ، ناعم الحركة ، لا تعرف وهو يحدثك من اين يخرج صوته · فلا تدرى اذا كان هذا الصوت منبعثا من امعائه ، أم من حذائه ، ام من طرف انفه · فهو ككل الذين يخدمون الانجليز ، قد قتلوا عواطفهم ، فأصبح يعيش بغير احساسات البشر وانفعالاتهم · ودفن قلبه ، فبات يرى نكبات أمته ، وكوارثها الفادحة ، فيفكر فيها ، لا ليردها عن الشعب المسكين الذى هو احد أفراده (رسميا) ولا ليتعظ منها بوصفه كبيرا من رجال السياسة والمال ، بل لينتفع هــــو ويكسب · ولقد كسب فعلا · كسب مكاسب فادحة بشيء واحد ، هو التسلل من ركن الى ركن ، والتسلق من مكان الى مكان ، على أكتاف الرجال وعلى تيار الحوادث · ولا أدل على ذلك أنه

الان يعد من أكبر رجال المال فى مصر ·· مع أن عهده بالمال ، لا يرجع الا الى عشر سنوات خلت··لاتكفى لتمرين محام عظيم ، ولا لاحراج طبيب كبير · فلقد قضى هو نفسه ضعفى هذه المدة فى الطب ، ثم هجره آخر الامر ، باحثا عن وظيفة تدر مالا أعظم ، وجاها أكبر ، ونفوذا أعمق ، فكانت هذه الحرفة هى السياسة · ولكن حتى حرفة السياسة التى كانت ملاذ كل كسلان مغمور ، فاشل من أبناء أغنياء هذه الامة ، لم تعجبه لانها تكلفه بعض العناء · وهو يريد ان يأكل حتى التخمة ، ويتمتع حتى الثمالة ، ويتبطل الى آخر الغاية ، بلا جهد ولا عناء ولا تفكير · فكانت هذه الوظيفة التى اختارها فكان مديرا لشركة ، ثم رئيســـا لشركة أخرى ، ثم عضوا فى شركات لا اول لها ولا آخر · ولا عد لها ولا حصر ·· شركات كلها تنتفع بعظيم خبرة ســـعادته فى شئون الاقتصاد والمال ·

ولقد اراد سعادة الباشا الاقتصادى العظيم أن يجدد الصورة التى انطبعت له فى ذهنى ويزيل عنها الغبار ، فخرج بحديثه الذى يدعو فيه الى التعاهد مع انجلترا وامريكا معا · فرأيتنى أسأل نفسى : ما هو أقرب شبه لسعادته ؟·· ولم أطل التفكير ، فان آخر عبارة فى حديث ســـــعادته هى التى أسعفت ذاكرتى ·· فقد حذرنا سعادته من التحالف مع الشيطان ·· أى مع روسيا ·· ان أقرب شبه الى سعادته ، هو ·· شبه الشيطان !

انا لم أر الشيطان وجها لوجه الا فيما صوره الفنـــانون فى صورهم ، والقصاصون فى قصصهم ، وأهل التمثيل على مسارحهم ·· ولكنهم جميعا لم يروا حافظ عفيفى ، ولو رأوه ، لهتفوا من أعماق قلوبهم : هذا هو الشيطان ··

فالشيطان لا يمكن الا أن يكون فى هدوء حافظ عفيفى ، وفى انخفاض صوته ، وفى اتئاد حركته ، وفى نعومة تنقلاته · ولا يمكن الا أن يكون صموتا أكثر الوقت كحافظ عفيفى ، فان تحـدث ففى التافه المسلى من الامور · حتى يخدعك عن حقيقته ، وحتى يوهمك بعلمه ، وحتى يسرق منك ثقتك به واطمئنانك اليه ··

وما أظن ان الشيطان دخل بيت انسان ليخربه ، ويهدمه على رأسه الا بنفس الحجة التى يريد ان يتذرع بها حافظ عفيفى ليهدم بيت المصريين ، ويخربه عليهم · أن الشيطان لا يدخل بيوت الناس الا فى ثوب صديق ، او ناصح ، او معين · والزمن وحده

هو الذى يكشف ان هذا الصديق جاء ليسرق من صاحب البيت زوجته ، وان هذا الناصح يبذل النصح ، ليصرف الناس عن الطريق السوى ، وان هذا المعين ، مراب أو جاسوس أو قاتل ٠

فحافظ عفيفى مشفق أشد الاشفاق على المصريين لانه يجدهم وحدهم فى هذه الدنيا المكشوفة لا تظلهم صداقة ولا يسندهم حليف ٠٠ وهو يريد أن يضمن لهم الامن ، ويوفر لهم الدعة ٠ فاختار لهم انجلترا وأمريكا ٠٠ فياله من شيطان جرده الله من كل رحمة اختار لهم دولتين معا لا واحدة ٠ وهو يعلم ان احدى الدولتين مفلسة ، فيها سعار الغنى الذى افتقر ٠ والثانية محدثة ٠٠ تواقة الى ان تضع يدها على كل ما تطوله من أمم وبترول وامتيازات واحتكارات ٠٠

اختار لنا دولتين احداهما انقضى لها فى مصر ثمانية وستون عاما من الاحتلال المدمر المخرب ، فلم تبذل لنا من مودتها الا العهود المنقوضة ٠ والوعود المهجورة ٠ اما الثانية ، فقد اعطت الامم كلاما ٠٠ ثم رأت الاحتلال البريطانى يعصف بنا ، فلم تقل له : رويدك ٠٠ ورأت الاحتلال الفرنسى يعصف بالمغرب ، والهند الصينية ، فلم تقل له حنانيك ٠٠

لقد اختار لنا الشيطان ، محالفة الذئب والثعلب اللذين ينهشان منا اللحم ويقضمان منا العظم ٠٠ وكاننا لا نعرفهما ٠ ولكن انيابهما تخرق نسيج ابداننا ٠ ومع أن بخر انفاسهما يزهق ارواحنا ٠

فالشيطان ــ على خبثه ، ونعومته ــ شاخ ، فاصبح مفضوحا ٠٠ وليس فى الدنيا اقبح من شيطان فقد دهاءه ، وخسر ذبهاءه ٠٠

رحلات الملوك .. !!

« اللواء الجديد ـ ٣ يوليو سنة ١٩٥١ »

نشرت جريدة (الملايين) نبأ الرحلة الملكية، قبل اذاعة هذا النبأ باربع وعشرين ساعة ، فرأت وزارة الداخلية في نشره مخالفة صريحة وصارخة لقانون أنباء القصر · فطلبت الى النيابة ان توافق على مصادرة الجريدة ووافقت النيابة على المصادرة ، وعرض الامر على القضاء ··

وقد وقف الاستاذ المدقق رئيس نيابة الصحافة ليترافع في مبررات المصادرة ، فقال كلاما خلاصته ان رحلة جلالة الملك ، هي شأن خاص من شئون جلالته ، فقانون أنباء القصر يحرم اذاعة الانباء الشخصية لافراد الاسرة المالكة الا بأذن من وزير الداخلية ·· وقد أقر القضاء وجهة نظر النيابة ووجهة نظر وزارة الداخلية · وأيد المصادرة ، وأصبح مقررا أن السلطتين التنفيذية والقضائية تعتدران رحلة الملك الاخيرة الى سواحل البحر الابيض الشمالية ، هي رحلة خاصة يشملها نص قانون أنباء القصر باعتبارها شأنا خاصا لجلالته ··

ولكن في العدد الماضي من (اللواء الجديد) نشرنا مقالا افتتاحيا قلنا فيه ان رحلة جلالة الملك هي رحلة خاصة · فدعتنا النيابة في اليوم نفسه الى التحقيق الذى جرى في يومين · سمعت في اولها ردود الاستاذ مصطفى مرعي على ما وجه اليه من اسئلة حضرة الاستاذ الكبير رئيس النيابة في شأن العبارات التى اعتقد المحقق انها تتضمن عيبا في الملك ·

وانتهى اليوم الاول ، وحسبنا انه خاتمة المطاف في التحقيق ·· ولكن حضرة رئيس النيابة دعانا على عجل في اليوم التالي ، فلبينا الدعوة · وجرى تحقيق جديد ، اساسه ان « اللواء

الجديد » اخطأت اذ اعتبرت أن رحلة جلالة الملك هي رحلة خاصة اذ إنها رحلة رسمية حكومية يباشر فيها جلالته عملا من اعمـال وظيفته الكبرى ، بدليل ان المراسيم ترسل الى جلالته اثناء قيامه بهذه الرحلة الميمونة فيوقع عليها ، وبدليل أن وزيرا جديدا قضت ظروف الدولة المستعجلة لاسناد منصب الوزارة اليه فطار إلى حيث تشرف بالمثول بين يدى جلالة الملك المعظم على ظهر اليخت الذي يقله .

ولا شك عندى فى أن تحقيق اليوم الثاني جاء بعد دراســـة دستورية وفقهية لرحلات الملوك عموما ولرحلة جلالة الملك الاخيرة خصوصا . وهو بحث جدير بأن يلتفت اليه رجال القانون ورجال السياسة ، وان يراجعوا فيه معلوماتهم ، وما وصلت اليه نتائج ابحاثهم . وقد كان مثل هذا البحث محلا لدراسة فى تاريخ مصر الحديث .

وقد جاء فى صفحة ٧٢٦ من كتاب « في أعقاب الثورة المصرية » الذى وضعه المؤرخ الوطنى الكبير الاستاذ عبد الرحمن الرافعى تحت عنوان : « رحلة الملك فؤاد الى أوربا » . ما نصه :

« اعتزم الملك فؤاد القيام برحلة الى أوربا . وأرادها رحلة ملك مطلق ، لا ملك دستورى . فلم يدع أى وزير لاصطحابه ، على حين ان المألوف فى النظم الدستورية أن يصطحب الملك وزير الخارجية فى مثل هذه الرحلات ، ولكن الملك أبدى رغبة فى ان لا يصحبه أحد من الوزراء . وهنا نشأت أزمة داخلية وقف (سعد) فيها الى جانب (ثروت) ، واشترط أن يصحب الملك فى رحلته ، وقد عرض على البرلمان فتح اعتماد بنفقات الرحلة الملكية فاحجم عن اقراره لأن الملك فؤاد كان لا يزال معتزما الســـفر دون أن يصطحب أحدا من الوزراء . وانتهت الازمة بقبول الملك اصطحاب (ثروت) فى رحلته . وعلى ذلك اقر البرلمان اعتمادات الرحلة » .

ويفهم من هذه السطور ، ان المصريين منذ ربع قرن من الزمان ، انتهوا فى امر رحلات الملك الى رأى دستورى ، حدد الامور ، ووضع المعالم . فالرحلة الرسمية هى الرحلة التى تمثل فيهـا الوزارة . وعند ذلك تقوم ميزانية الدولة بتحمل مصاريفها فالوزارة لا تمثل فى الرحلة من قبيل المراقبة بل قياما بواجبها الذى تسأل عنه وحدها والذى لا تملك أن تتخلى عنه لغيرها ، فالاتصال بالدول الاخرى ، والتعامل السياسى معها ، وتبادل الرأى مع

ممثليها انما هو شان وزير الخارجية تحت اشراف مجلس الوزراء فوزير الخارجية الذى يجلس فى مكتبه ويتنازل عن شرف مصاحبة ملكه ·· مفرط في واجبه نحو الملك ، وفى واجبه نحو الدستور · وهو بهذا جدير بأن يحاكم بعد أن يعزل · ولكن اذا كانت الرحلة خاصة لم يكن هناك من لوم على مجلس الوزراء اذا هو لم يمثل بأحد أعضائه في الرحلة الملكية · اذ من حق جلالة الملك في مناسبة سعيدة كمناسبة زفافه ان يستمتع بما يستمتع به اصغر رعاياه في مثل هذا الظرف من التخفف من أعباء القيود الرسمية بعض الوقت · وان يستجم ويجدد قواه ، فى رحلة خاصة ·

ولكن لا يطعن في طابع هذه الرحلة الخاصة ، ان يستقبل جلالته وزيرا أو يوقع مرسوما ، اذ ان ذلك يقع من جلالته ، رغبة فى عدم تعطيل الاعمال ، وهو يملك فى الرحلة الرسمية ايضا ان يوقع المراسيم ويقبل الوزراء فى سفن مملوكة للدولة باعتبارها امتدادا لارض الوطن ·

وبعد ، ماذا دهانا ؟

كان وزراؤنا فى سنة ١٩٢٨ اكثر معرفة بحدود الدستور ، واكثر استعدادا لتحمل تبعاته ·

اتكون الوزارة قد اعتزمت أن ترجع بنا القهقرى ، وان نعدو بظهورنا ؟! أنكون قد سئمنا الواجبات الثقيلة والقيود الغليظة فأردنا أن ننطلق على وجوهنا ؟!

اننا ان فعلنا تردينا فى هوة ما لها من قرار ··

ولكن الله لا يرضى لنا بشىء من هذا ، وفينا من يستطيع ان يقول كلمة الحق ، ولو فتحت له أبواب السجون ·

من كتابات : إحسان عبد القدوس



- دولة الفشل..!
- الفساد الذى تحميه القوانين
- هذه الحكومة يجب أن تستقيل

دولة الفشل .. !

« روزاليوسف - ٨ يوليو سنة ١٩٥١ »

اننا فى مصر نؤمن بالفشل ونعبد الفاشلين ..

الفشل فى كل مكان . وامام كل خطوة ، ووراء كل زعيم ، وفى حنايا كل « ملف » وفى ظلام كل « درج » وفى طيات كل صوت .. والفاشلون هم الذين يحكمون مصر ، وهم الذين يسوقونها من فشل الى فشل ثم الى فشل جديد .

رئيس الوزراء فاشل كبير ... فشل فى أن يحقق أهداف مصر القومية ، وفشل فى ان يصون نزاهة الحكم ، وفشل فى ان يحتفظ بقوة الشعب ، وفشل فى ان ينتصر للدستور ، وفشل فى ان يوفر قوت الشعب ، وفشل فى ان يجمع من حوله وزراء ناجحين ، وفشل فى أن يصلب عوده أمام الازمات ، بل انحنى لها حتى اصبح يتقدم الى الوراء زاحفا على بطنه .

والوزير الذى يتولى القضية الوطنية ، وزير فاشل .. فشل فى أن يحقق أهداف مصر ، وفشل فى ان يصون كرامة وطنه ، وفشل فى ان يغطى فشله .. وترك وجه مصر تكويه صفعات الانجليز ، وسمع باذنه ان لا أمل فى الجلاء ، وان لا أمل فى الوحدة ، فلم يقاوم . ولم تهده عبقريته - او وطنيته - الى طريق جديد يسير فيه ، انما استمر فى طريق الفشل لا يحيد عنه ، ولا يخجل منه ، ولا بدارية .. ورغم ذلك فلا يزال وزيرا مهما من وزراء مصر .

والوزير الذى يتولى شئوننا المالية وزير فاشل .. فشل فى أن يجعل من ميزانية مصر ميزانية محترمة ، وفشل فى ان يوقف التضخم المالى ، وفشل فى أن يرضى الطوائف ، وفشل فى ان يمول المشروعات الكبرى ، وفشل فى أن يفرض ارادته على الاغنياء

.. وفشل في ان يوقف شهوات اصحاب النفوذ ، وفشل في ان يصون مال الدولة من أيدى المختلسين والمتطفلين و « المراقيع » الطامعين ..

وهو نفسه وزير الداخلية .. وقد فشل في ان ينأى بالادارة الحكومية عن الحزبية ، وفشل في ان ينشر الاطمئنان والاستقرار في كل قرية ، وفي كل مديرية ، وفي صدر كل عمدة ، وكل مأمور ، وكل كونستابل ، وشيخ خفر . وفشل في ان يضع للجريمة حدا ، وللوساطات حدا ، وللخلاعة حدا .

ووزير الحربية فاشل ... فشل حتى في الاحتفاظ باختصاصه ، وترك الجيش يخرج من بين يدى الحكومة والشعب ، ليكون هيئة كهنوتية لها أسرارها ، ولها سلطانها ، ولها استقلالها ، ولها قائد فاشل .

ووزراء التموين والاشغال والتجـــــارة ... الخ ، كلهم فاشلون . وكلهم لا يدارون فشلهم ، بل يفخرون به .

والرجل الذى يتولى شئوننا العربية فاشل ، بطبيعته .. فاشل من يوم ولد .. ولا يكاد يرى الا والفشل من ورائه .. اشترك في حرب طرابلس ففشلت الحرب ، واشترك في وزارة على ماهر ففشلت الوزارة وفشل على ماهر ، وساهم في انشاء الجامعة العربية ففشلت ، ونظم حرب فلسطين ففشلت ، وساهم في حركة تحرير ليبيا ومراكش .. الخ . ففشلت كل حركات التحرير التى اشترك فيها .. ورغم ذلك فهو يعتمد على هذا الفشل في الاحتفاظ بمنصبه ، وفي تجديد مدة خدمته كلما ارتفع صوت بابعاده .

والمعارضة يتولاها زعماء فاشلون .. فشلوا في اكتساب ثقة الشعب ، وفشلوا في مواجهة الحقائق السافرة ، وفشلوا في وقف طغيان الحكومة وأخطائها .

كلهم فاشلون ..

ورغم ذلك فليس بينهم واحد يخاف من فشله او يندم عليه ، بل ان هذا الفشل هو الذى يؤهله لحكم مصر ، وهو الذى يحتفظ له بسطوته ونفوذه ، وهو الذى يؤهله للمنصب وللجاه ، وهو الذى يقدمه على خلق الله ويضعه فوق رؤوس الناس .

ان قائمة الفشل في يد اى رجل من رجالات مصر ، هى التى تفتح أمامه الابواب ، وهي التى تمهد امامه الطريق ، وهي التى تقربه وتحقق احلامه ، وكم من زعيم او رجل فشل ، وقلنا :

لن يعود · فاذا به يعود موفور السلطان والجاه ، ليفشل مرة ثانية ثم ليعود مرة ثالثة ·

وويل للناجحين · !!!

ويل للحر الابى الذى يخشى ضـــــميره ، ويخشى الله فى وطنه ·· !!

وويل للكفء الـــذى ينظر الى الامور نظرة جدية ·· ويعمـل متعمدا النجاح ، لا متعمدا الفشل · !!

ويل لمن يحاول ان يجعل من مصر دولة منتصرة ناجحة ·

ويل له ، فالابواب تغلق من ورائه ، ومن أمامه ، والجبروت الظالم يطارده اينما حل ، والتهم المفتراة تلاحقه فى كل يوم ·· فان كل عاقل وطنى ناجح معناه فى مصر أنه شيوعى ، أو انه متطرف يسعى لقلب نظام الحكم ·

اطردوا الفاشلين ، ودعوا الناجحين يأخذون مكانهم فى قيادة مصر ·

جربوا صنفا آخر من الرجال غير هذا الصنف الذى اثبت فشله ·· وارحموا مصر من الفشل ··

الفساد الذى تحميه القوانين .. !!

« روز اليوسف ـ ١٧ يوليو سنة ١٩٥١ »

اصدر مجلس الوزراء يوم الخميس الماضى ، قرارا بحظر نشر انباء الجيش ، الا بعد اذن كتابى من وزير الحربية ٠

وهو قرار من سلسلة قرارات وقوانين ، جرت عليها هـــذه الحكومة منذ تولت أمر البلاد ٠ عقابا للصحافة كلما ادت ، او حاولت اداء واجبها ٠ وعقابا للشعب ، او الرأى العام ، كلمـــا أبدى اهتمامه بما يجرى باسمه من مهازل ، وما يرتكب باسمه من جرائم ٠

والحكمة ـ او المراد ـ من هذا القرار الجديد ، لا تخفى على احد ، فان جيش مصر لم يسبق له ان تعرض لافشــــاء اسرار تنقلاته الحربية ، او تحركات قواده ، او مناوراته او تجاربه ، او نظام دفاعه عن المطارات والموانىء ، او خططه العسكرية لحماية المرافق العامة او حماية المدنيين ، أو برامجه أو بعثاته ٠ وكلها اشياء نص القرار على حظر نشرها ٠

ولو وقف القرار عند هذا الحد ، لقلنا انه قرار اتخذ لحماية الخطط العسكرية ، وما يتعلق بها من الافشـــاء والتسرب الى أعداء البلاد ٠٠٠

ولكنه مضى فى احصـــائه للممنوعات والمحظورات ، فذكر المباحثات ، والمفاوضات ، والطلبات ، والعروض والعقود !!

وهنا لا يستطيع أحد أن يغفل الصلة بين هــذا القرار ، وبين قضية الاسلحة والذخائر الفاسدة التى أثارتها هذه المجلة ٠ ولم تستطع الحكومة وقف اهتمام الرأى العام بهـــــا ، فاضطرت ـ عاجزة ـ الى المضى فى التحقيق فيهـــا ٠٠ حتى اذا وجدت الحلقات يجذب بعضها بعضا ، لتلتف حول أعنـــاق من تخشى

الحكومة نفوذهم وسطوتهم ، عجلت بالاجهاز على القضية ، وأصدرت حكمها على النائب العام ، قبل أن يصدر القضاء حكمه .. على المتهمين !..

وفتحت الحكومة عينيها ، فوجدت طريقها مزروعا بالاشواك السامة القاتلة .. فلا هى تحتمل التعرض لهذه التجربة مرة أخرى ، ولا هى تستطيع وقف الفساد ، ووضع حد للجريمة ، ولشهوات النفوس الضالة المتحكمة التى أثرت وتثرى من دماء الشعب .. من الطلبات والعروض والعقود ، التى يدفع الجيش ثمنها مضاعفا .. من ميزانيته ، ومن حياة جنوده وضباطه ..

ولم يكن بد من اصدار هذا القرار !..

أتريد الحكومة عندما تقع فى أيدينا وثيقة مماثلة لهذه الوثائق التى قدمنا بها المتهمين الى القضاء أن نسرع بها الى وزير الحربية ، ليتفضل معاليه ، فيمهرها بتوقيعه ويأذن لنا فى نشرها ، أو تقديم متهمين جدد الى القضاء ؟!

وهل تريد الحكومة أن تقنع الشعب بهذا المنطق الذى لا يقنع صبيان المدارس ، بأنها حريصة على اجراء العدل ، وحماية الجيش وتطهيره ممن يعبثون بحياة أفراده ، وبالدفاع عن الوطن ، والذود عن حياضه ..

وماذا يكون الامر ، لو ألقى الوزير نظرة على ما نقدمه اليه من وثائق ، ثم ابتسم ، ومد بها يده الى غياهب درج من أدراج الاغفال والنسيان ..

وأى سلطة يملكها وزير الحربية حتى نتقدم اليه بما يكون لدينا من معلومات أو وثائق ؟!..

اننا نتقدم بما لدينا الى الرأى العام ، لتأخذنا النيابة بما نكتب ، أو تأخذ المجرمين بما اقترفوا .. بما لها من سلطات التحقيق ، وحق اقامة الدعوى العمومية .

فأى سلطة مماثلة يملكها الوزير .. الا أن تكون اجراء التحقيق الادارى الذى تعبث به الايدى كما تشاء .

وماذا يكون الامر .. لو كان وزير الحربية نفسه هو المسئول عن عبث نتمكن من اكتشافه فى الطلبات أو العروض أو العقود ؟!

أنذهب اليه لنستأذنه فى النشر ضده ، أم لكى يتولى بعدله وعنايته احقاق الحق ، وازهاق الباطل ، كما جاء فى بلاغه المشهور الى النيابة العمومية ؟..

انها لمهزلة .. مهزلة نعز انفسنا واقلامنا وواجبنا الصحفى عن التردى فى الخضوع لما يهدف اليه القائمون بها .

مهزلة .. لا نملك حيالها ، الا أن نعد وزير الحربية ومجلس الوزراء منذ الآن ، باننا لن نتراجع عن نشر أى نبأ نشم فى حناياه رائحة العفن والفساد ، الذى نعمل على تطهير الجيش منه

سننشر .. وننشر .. وننشر .. ولن نخاف ، ولن نسكت عن عابث أو مرتش أو سمسار .. من هؤلاء الذين لم يستطيعوا حماية أنفسهم من شر انفسهم ، فسعوا الى حمايتها بالقرارات والقوانين ..

هذه الحكومة .. يجب أن تستقيل .. !

« روز اليوسف ـ ٦ أغسطس سنة ١٩٥١ »

كانت الحجة التى استندت اليها الحكومة ـ واقول الحكومة ـ ولا اقول « اسطفان باسيلى » ـ فى محاولة اصدار التشريعات الصحفية ، هى ، حماية النظام الاجتماعى ٠

ولا اعتقد ان هناك خلافا بين الصحافة والحكومة فى وجوب حماية النظام الاجتماعى ، بل ان الصحافة دائما احرص من الحكومة فى حماية هذا النظام ٠

ولكن ، ما هو النظام الاجتماعى فى مصر ؟ أو ٠٠٠ هل فى مصر نظام اجتماعى ؟!

ان النظم الاجتماعية المطبقة فى العالم هى : الشيوعية ، والديمقراطية ، والدكتاتورية ، او الفاشية ٠٠ أو هى من الناحية الاقتصادية : الشيوعية ، والراسمالية ، والاشتراكية ٠

فاى نظام من هذه النظم مطبق فى مصر ؟

لنفرض أنه النظام الديمقراطي الاشتراكى ، كما تقول الحكومة، وكما قال فؤاد سراج الدين مرة فى مجلس النواب ٠٠

فاى مبدأ من مبادىء الديمقراطية الاشتراكية يحمي ثروة عائلة البدراوى وسراج الدين وتفاتيش أصحاب التفاتيش ؟!

وباسم أى مبدأ من مبادىء الديمقراطية الاشتراكية تستطيع الصحافة أن تسكت أو تدافع عن الصفقات المريبة ، وعن الاستثناءات ، وعن استغلال موارد الدولة فى اتخام الكبراء والوزراء ؟!

وبأى صورة من صور الديمقراطية الاشتراكية يفرط فيميزانية الدولة حتى تختل وتبتز أموال مصر لتبعثر فى مصايف أوربا ومشاتيها ، وتفرض القوانين الاستثنائية لحماية مصلحة فرد ضد

مصلحة المجموع • وترفع الضرائب غير المباشرة التى يتحملها الفقراء ، وتحاول الحكومة رفع ثمن رغيف العيش بينما لا تحاول رفع ثمن زجاجات الويسكى والشمبانيا ؟••

وأى تفسير للديمقراطية الاشتراكية يبيح أن يبقى الفلاح على حاله ، مريضا جائعا محروما من النعمة الا نعمة الجهل ، ويبيح لاصحاب المصانع أن يستغلوا العمال ويعصروا دماءهم حتى يمرضوا بالسل ثم يطردوهم من العمل - الى الشارع لا الى المستشفيات - بحجة حماية زملائهم من عدوى المرض ؟!

اننا نريد أن نتفق أولا على نوع النظام الاجتماعى المطبق فى مصر ، وتفسيراته وحدوده • وما يدخل تحته من تصرفات وما لا يدخل ، ثم نتفق بعد ذلك على القوانين التى توضع لحماية هذا النظام •

وقد تطوع « معالى الدكتور حامد زكى باشا » وفسر النظام الاجتماعى فى مصر بأنه يعتمد على قواعد ثلاث ، هى : النظام الملكى الدستورى ، ونظام الملكية الفردية ، ونظام الاسرة •

وهذا صحيح وحق ••

ولكن ، أى صحيفة من الصحف المصرية نادت بتحطيم هذه المبادىء ، أو عارضتها ، حتى تسن هذه التشريعات التى أريد فرضها على الصحافة ؟••

انى لم أقرأ فى أكثر الجرائد المصرية تطرفا دعوة الى الجمهورية على اختلاف أنواع الجمهوريات •• ولم أقرأ فى أكثر الصحف تطرفا ، دعوة الى الغاء الملكية الفردية ، أو اعتبار الاراضى كلها ملكا للدولة •• ولم يظهر قلم ، بعد ، ينادى بالغاء نظام الاسرة المصرية ••

ان ما كتب حتى اليوم وما أثار ثائرة الذين أرادوا فرض القوانين المقيدة للصحافة ، انما كتب حماية للنظام الملكى الدستورى وتدعيما له فى حدود الفهم الصحيح والمنطق السليم ، وحماية للملكية الفردية وتنظيما لها فى حدود العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص ، وحماية لنظام الاسرة من أن يحطمه الفقر والظلم والشعور بالسخط ••

وفى دولة ديمقراطية كانجلترا يناقش مجلس النواب مخصصات الملك ويعترض عليها • وتحاسب الصحافة ولية العهد على ما تنفقه من مال خارج الدولة • وتلوم زوج ولية العهد لانه

اشترى سيارة رولز رويس ، وتسأله : من أين لك هذا ؟ ثم تثور عندما تحس بأن الملك تعدى سلطاته الدستورية ، كما حدث في أيام ملكها السابق ادوارد الثامن - دوق وندسور - ورغم ذلك لم يقل أحد أن النظام الملكي الدستوري في بريطانيا قد تزعزع ، بل أنه ازداد ثباتا وجلالا على مر الايام · ولم تحاكم جريدة من الجرائد الانجليزية بتهمة العيب في الـذات الملكية ، بل قدرت الحكومة اخلاص الجرائد لنظام الـدولة ، وشجعتها على المضي فيه ، وصانت حقها في أن تؤدي واجبها نحو الشعب والعـرش معا ··

وفي دولة كانجلترا أيضا ·· قامت الصحف بالدعوة الى تنظيم الملكية الفردية ، وحققت الحكومة دعوتها عن طريق فرض الضرائب التصـاعدية وتأميم الصناعات الكبرى ، ورغم ذلك لم تحبس صحفيا واحدا ولو حبسا احتياطيا بتهمة محاولة قلب نظـام الحكم ·· وقامت نفس الدعوة في الهند عندما قضى على نظـام المهراجات ، وفي ايران ، وفي فرنسا · بل وفي المانيا ، وايطاليا في عهد هتلر وموسوليني · وكل هـذه البلاد يقوم نظامها عـلى الديمقراطية الاشتراكية ، وتقوم صحافتها على حماية هـذا النظام ·

وأكثر من هذا ·· فقد لا يعلم معالي حامد زكي باشا ، أن هؤلاء الذين يخاف منهم على نظام الحكم في مصر ، والذين أرادت الحكومة أن تحطم أقلامهم عندما حاولت فرض قوانين الصحافة ، سبق لهم أن بحثوا فيما بينهم - وكنت واحدا منهم - فكرة انشاء حزب جديد يضمهم جميعا ، وكان الاسم المقترح لهذا الحزب ، هو : « الحزب الملكي الدستوري » ومعنى هذا الاسم أنه حزب يقوم على الاعتراف بالنظام الملكي الدستوري ويعمل على صيانة الملكية والدستور معا ·· وقد أجل بحث الفكرة ريثما تهيأ الاذهان لها ·· وعندما تتحقق الفكرة ويقوم هذا الحزب الجديد ، فسيجد من بين المسئولين من يتهمه بأنه حزب احمر !!

وهذا ما يجب أن يفهمه معالي حامد زكي باشا ، اذا اتسع صدره لمحاولة الفهم ، أما اذا ظل معاليه مصرا على أن هـذه الصحف التي أرادت الحكومة أن تطبق عليها التشريعات الصحفية المقترحة ، انما هي « صحف حمراء » وان كتابها « شيوعيون » ، فلماذا لا يطالب بتطبيق قوانين مكافحة الشيوعية عليهم · وهي

القوانين التى تبيح مصادرة النشرات الصحفية اداريا ، وتبيح للقضاء ان يحكم على مروجيها وكتابهـــا بالسجن الى عشر سنوات ، بدلا من فرض هذه التشريعات الجـديدة التى حاولت الحكومة فرضها ؟

لمـــاذا ؟!

لانه لا يؤمن بما يقول ، ولانه يعلم فى بخيلة نفسه ان هؤلاء الكتاب ليسوا « شيوعيين » ، وان هذه الصحف ليست «حمراء »، انما هى بيضاء ناصعة • وان كانت تحرر بدم احمر نقى ، انقى من ان يسكت على ضيم ، او يرضى بظلم ، او يسكب قطراته تحت الاقدام تزلفا ورياء وخسة ، ابقاء على منصب يضحى فى سبيله بالماضى القريب ، والمستقبل البعيد ، وبالمنطق الوطنى السليم •

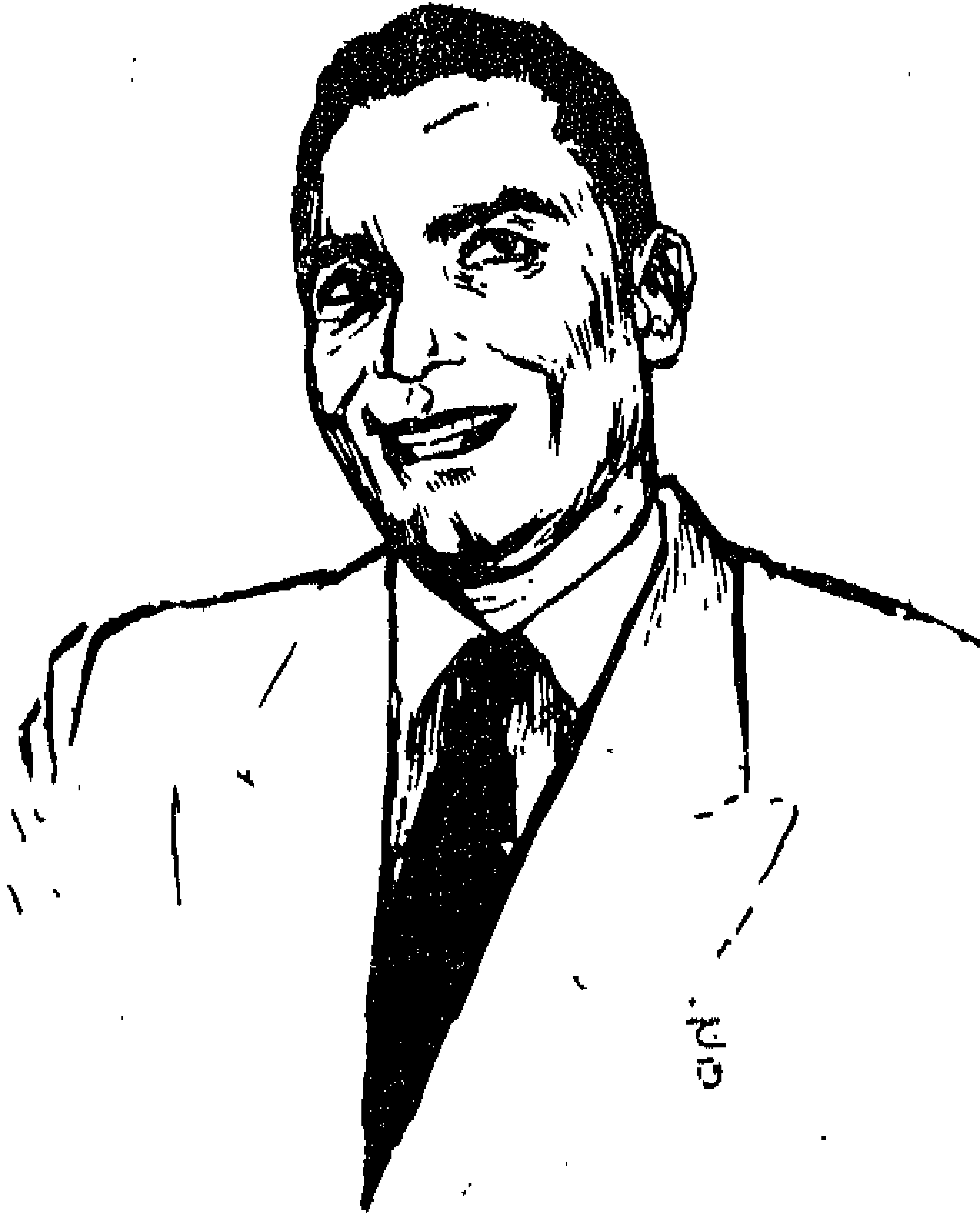
ورغم ذلك فانى احب حامد زكى •• احبه لانه اكثر الوزراء صراحة ، ولان لسانه يفضح ما يدور برأسه ، وان كان البعض يسمى صاحب مثل هذه الصراحة ، « مدبا » !

وقد « اندب » معاليه وقال فى حديثه الذى لم يكذبه : « اذا كانت الروح العامة شيوعية فيجب ان تكون الحكومة من طرازهـــا ايضا ، اذ لا يمكن ان يتفق وجود حكومة ديمقراطية فى بلد تتفشى فيه الشيوعية • ومن الواجب ان تتخلى الحكومة الديمقراطية عن الحكم » ••

والروح العامة ليست شيوعية ، واذا اراد معالى الوزير برهانا فليراجع مقالاته التى كان يكتبها حينما كان معارضا ويوقعهـــا بامضاء « ابو يوسف » •

ورغم ذلك ، فهـــذه الحكومة يجب ان تستقيل لا لان الشعب شيوعى ، بل لانها ليست حكومة ديمقراطية ، ولا تفهم للديمقراطية معنى الا معنى الاستمرار فى الحكم !

من كتابات: خالد محمد خالد



- اليوم خمر.. وغداً أخمر
- وراء كل ثورة رغيف
- صاحب الجلالة.. الشعب
- لا تخف إنك أنت الأعلى

اليوم خمر وغدا خمر .. !

« روز اليوسف » ٣ يوليو سنة ١٩٥١ – وكان مجلس الوزراء قد بحث فى اجتماعه مسألة الاحتفال بمرور مائة وخمسين عاما على وفاة محمد على مؤسس الاسرة العلوية ٠

عندما كان جيشنا يقتل فى فلسطين كان لاشراف القاهرة كل ليلة حفلة حمراء يجاهدون فيها جهادا مبرورا !٠٠
وعندما كانت حكومة ايران تغامر من أجل شرفها وحياتها ، وتسترد فى حزم بترولها المنهوب ، كانت حكومة مصر تساهم فى دعم شركات البترول الاجنبية بها وتهديها أربعة ملايين من الجنيهات المبللة بعرق الكادحين !٠٠٠

وعندما كان مجلس الوزراء فى بريطانيا مجتمعا ليضع الرد الاخير على استجدائنا ، كان مجلس وزرائنا مجتمعا ليقرر الاستعداد من اليوم للمهرجانات الضخمة التى ستقام ، بعد خمس سنوات ، بمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على ذكرى وفاة محمد على باشا الكبير !!٠
وعندما كان « تشرشل » يخطب فى مجلس العموم مطالبا حكومته بأن تفرض علينا مزيداً من القيود والسلاسل ، كان رئيس حكومتنا يخطب فى الهواء متحدثا عن الزغاريد التى سمعها ٠٠ والهتافات التى استقبل بها أثناء رحلته من القاهرة الى الاسكندرية !!٠

وبينما ذهب امبراطور ايران يوزع الارض ، ويشيع الاقطاع الى مقره الاخير ٠ انطلق الاقطاع المصرى السائب يذبح الفلاحين ٠٠ ويدق رءوسهم بالبالطة تحت سمع الحكومة وبصرها !

وهكذا يقنعنا سادتنا وكبراؤنا بفساد ذلك الشعار الذى كان

يقول : « اليوم خمر ·· وغدا أمر » ·· ويرفضون أن يقسموا حياتهم بين الجد والهزل ·· ويصممون على أن تكون كلها خمرا ·· ولهوا ·· واستخفافا !

وكل يوم لا يصعد فيه الحكم الى أسفل ، فهو فى نظرهم يوم منحوس ·· يعلنون الى الله منه براءة ومتابا !··وأصبح شعارهم الذى يدينون له بالطاعة والولاء هو : « اليوم خمر ·· وغدا خمر ·· وبعد غد خمر » ؟!·

ومن كان من ذلك فى ريب ، فلينظر فيما حوله من مظاهر الحكم جميعا يجد هذا الشعار مسطورا عليها بخطوط من ظلمات !·· هل تجدون فارقا ـ أى فارق ـ بين صيف ١٩٥٠ ، وصيف ١٩٥١ ؟ كلا ·· الا أن يكون الفارق ايغالا فى الرجس وامعانا فى التحدى ·

فى ذلك الصيف ازدهر أملنا فى القصاص من الذين خانوا جيشنا ·· وفى هذا الصيف ازدهر أمل مجرميها فى أن يعيدوها من جديد جذعة !··

فى الصيف الماضى كنا نخشى أن يفقد النائب العام بعض سلطته ·· وفى هذا الصيف فقدنا النائب العام نفسه !··

فى الصيف الماضى كانت لندن تستقبل وزير خارجيتنا ليفاوض وزيرها ·· وفى هذا الصيف حرمتنا من هذا الشرف ·· وأعلنت انها غير مستعدة لاستقبال أحد !

أفمن أجل هذا الحكم السفيه يشقى آباؤنا فى الحقول ، واخوتنا فى المصانع ليدفعوا من نور أعينهم الخابية ، وخفقـــات قلوبهم المجهدة ، ضرائب ·· وأتاوات ؟!··

ياويل مصر من حكامها الصالحين ·· لقـــد جعلوها بصقة وعارا ·· وقطعوا ما بينها وبين العالم المتمدين من سبب ·· ذلك أن شعار الحكم فى الامم الحرة : اليوم أمر ·· وغدا أمور ·· وشعاره فى مصر المرزوءة : اليوم خمر ·· وغدا خمور ·

وراء كل ثورة رغيف !! ..

« روز اليوسف » ـ ٢٤ يوليو سنة ١٩٥١ « وكان مجلس الشيوخ سينعقد فى مساء ذلك اليوم نفسه ليناقش اقتراحا للحكومة بزيادة سعر الرغيف مليما ..

فى الساعة السادسة من مساء اليوم ـ الاثنين ـ يجتمع مجلس الشيوخ ليقرر مصير البطون الصائمة .. هل تقدم تضحيةجديدة من أجل سفهاء مصر ومترفيها ، وتشد عليها حجرا آخر يسكت صياح الامعاء المهتاجة . أم حسبها ما نالها من سغب ، وما أصابها من ضمور ؟

وجلسة اليوم امتداد لجلستين سلفتا ، أبلى فيهما الشيوخ المحترمون بلاء مبينا وارتفعت أصوات كريمة مولولة تقول : اذا كان فى الميزانية عجز ، فلا تجمعوه من أفواه الجياع .. بل خذوه من الرصيد المجنون الذى تنشئون به قصر محمد على فى شبرا .. ومن أدوات الزينة التى تبلغ قيمة المستورد منها ١٨ مليونا من الجنيهات فى العام أو تزيد ..

ولقد تبدت فى الجلسة السابقة حقيقة فاجعة كشفت عن الحضيض الذى انحدرت اليه قيمة الشعب فى نظر حاكميه .. ذلك أنه فى الوقت الذى تريد الحكومة فيه ان ترفع سعر الدقيق الشعبى ، والرغيف الشعبى ، تذهب فتخفض سعر الدقيق الفاخر الذى يصنع منه السادة فطائرهم المحشوة !...

مع أنها لو أعادته الى سعره الاول لربحت مالا وفيرا ، لكنها بالمترفين رءوفة رحيمة .

ومشكلة الرغيف لا تتمثل فى زيادة سعره مليما ، بل فى المبدأ الخطير الذى تشير اليه هذه التصرفات المريبة .. فكلما جاءت

الميزانية لم يجدوا سوى لحوم الفقراء وجسومهم ، يدسونها فى فمها المسعور ، وجوفها النهم ..

وما مسئوليتنا نحن عن ميزانية لا توفر لنا غذاء ، ولا شرابا ، ولا علاجا ؟.. ميزانية اتخذها الاشقياء كلأ مباحا لاطماعهم وما يشتهون . على أن زيادة المليم مرهقة للمستهلك العادى وان لم تشعروا ، فالمواطن الذى يعول خمس أنفس مثلا فى حاجة لعشرين رغيفا فى اليوم على الاقل .. وفرق السعر الذى يتحمله آنئذ هو ستون قرشا فى الشهر .. مبلغ تافه ؟.. أليس كذلك ؟!.. لكنى اقسم لكم انه فى حياة الملايين من هذا الشعب جسيم جد جسيم !. وللمسألة وجه آخر خليق بنا أن نتدبره مليا ، فلطالما كان الرغيف هو عود الثقاب الذى أضرم الحطب وأحال الظالمين الى رماد ؟!..

ومن يدرى .. فربما كان من الممكن أن يكتفى ثوار باريس بتحطيم « الباستيل » .. لا سيما وقد استسلم الملك لمطالبهم .. وتنازل الاشراف عن امتيازاتهم ، لولا الرغيف .. فلقد حدث أن شح الخبز فى باريس فجأة .. وتجمع النساء أمام المخـــابز والافران يصحن : « الخبز .. نريد الخبز .. » وجاءت الجماهير تتراكض فى زحام طويل وصاحوا جميعا : « الخبز .. الخبز » .. فلما لم يجدوه صــــاحوا : « الى فرساى .. الى فرساى » .. واندفعوا كسيل العرم حيث أكرهوا الملك ، والملكة ، وولى عهدهما على العودة الى باريس وسجنوهم فى قصر التويلرى .. ثم مضت الثورة لمداها البعيد .. وفى انجلترا نفسها ، لم تطق الجماهير ارتفاع سعر الرغيف أمام « المسغبة الاربعينية » ، فانطلقت تدمدم وتصيح : استلوا خناجركم ، واعدوا مدافعكم..فاما الرغيف واما الدماء ... واما الحياة واما الفناء ... »

فياليت حضرات الشيوخ المحترمين يعلمون أن زيادة مليمين اثنين فى قانون الدمغة الذى فرضه الانجليز على الامريكان قبل استقلالهم ، هى التى شدت زناد تذمرهم وحقدهم .. ومن ذلك اليوم ، وبسبب مليمين ، بدأت حرب الاستقلال وثورة الحرية .. نعم .. ياليتهم يعلمون .. وياليتنا نعلم .

صاحب الجلالة الشعب !! ..

« روز اليوسف » ـ ٢١ أغسطس سنة ١٩٥١ ـ « وكانت الحكومة قد اعتمدت مبلغ اثنين وستين ألفا من الجنيهات ، لشراء سيارات للقصور الملكية ·

تلقب « الصحافة » بصاحبة الجلالة ، ثم لا يرى القانون في ذلك تجديفا ولا عيبا ، نريد أيضا أن نلقب « الشعب » بصاحب الجلالة ، فهو أحق بها وأولى ··

ولماذا لا نكون كذلك ؟·· نحن الذين ندفع الضرائب ، وننشيء الميزانية ·· نحن الذين نشق الترع ، ونسقيكم ماءها ·· ونحرث الأرض ، ونطعمكم ثمارها ·· وندير المصانع ، ونهبكم نتاجها ·· نحن الذين نصنع لكم من بؤسنا ثراء ·· وننسج لكم من عرينا كساء ·· وإذا كان في مصر أحد جدير بأن تخشاه الحكومة وتجامله ، فهو نحن ·· لأننا أصحاب البلد الذين نولي ونعزل ·· ونضع ونرفع ·· ونعز ونذل ·· وإذا جردتنا ظروف طارئة من سلطتنا يوما أو بعض يوم ، فمردها المحتوم إلينا ·· وإلينا وحدنا ، في يوم ترونه بعيدا ونراه قريبا ·

نحن الذين جئنا بالأسرة العلوية ·· وفي أحلك ساعات ضعفنا ذهبنا لنعزل خورشيد باشا ونضع مكانه محمد على · ولما قال لنا : إنني وليت بأمر السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ·· صرخنا في وجهه : بل نحن الذين وليناك ونحن الذين سنعزلك ·· وبعد أيام كان يتدحرج في طريقه الى تركيا ، وكان محمد على يجلس مكانه ·· بأمرنا ، نحن صاحب الجلالة الشعب ·· وهذا الوفد ·· نحن الذين جئنا به الى الحكم في ضجة حافلة ·· ومع ذلك ·· فماذا حدث ؟··

حدث أن وقف الشاذلي (باشا) بمجلس الشيوخ ، منذ

ايام ، يقترح حذف اثنين وستين الف جنيه من ميزانية ديوان الملك، لان السيارات المزمع شراؤها بهذا المبلغ للديوان لا تقتضيها ضرورة ملحة في هذا العام على الاقل ٠٠ فوقفت الحكومة ممثلة في وزير كان الناس ، يتهمونه ظلما ، بالذكاء الخارق والوطنية الشابة ٠٠ فدافعت عن « ثمن السيارات » واقنعت المجلس بوجهة نظرها ٠٠

وقد لا يكون ثمت بأس في أن يعتمد لديوان الملك بدل الستين الفا ستمائة الف لو أن ريح الميزانية تجرى رخاء ٠٠ لكن المؤلم ، والمحزن ، أن الحكومة التى جاد ولاؤها للديوان بهذه الكماليات ٠٠ حرمت الشعب من ضروراته الكبرى ٠٠ ولطمت خدودها ولاتزال تلطمها للعجز الفادح الذى يهدد الميزانية ٠٠ وحذفت كثيرا من الاعتمادات الهامة التى لا غنى لاصحابها عنها ٠٠ فستون الف جنيه حذفتها من ميزانية الازهر رغم وعودها الكاذبة التى بذلتها ٠٠ ورغم « ٣ مارس » الذى ضربت فيه العلماء ضربا مذلا مهينا !٠٠ ومائتا الف جنيه ، لاصلاح تلال زينهم حذفتها كذلك ، لتظل الصراصير الآدمية التى تعيش هناك محرومة من أن تجد لها في وطنها وطنا ٠٠ وفى بلادها سكنا !!٠٠ ومئات الآلاف ، تبخل بها على وزارة المعارف كى لا يتاح لاولاد الكلاب أن يتعلموا كأولاد الذوات ، وأبناء الصالونات !٠٠ واخيرا تجىء الطامة الكبرى ، فتؤكد صحيفة حكومية بأن كادر الموظفين لن ينفذ هذا العام لان الميزانية فى حالة اعياء!٠٠

ولكن اسمعوا أيها العابثون ٠ لقد صنع أخ لكم من قبل هو « نوبار باشا » مثل صنيعكم هذا ٠٠ وافرغ مال الشعب فى ديوان الخديو ٠٠ فقصده الشعب فى نظارة المالية وضربه ومرغه فى التراب ٠٠ وجاء « اسماعيل » لينقذ بنفسه خليله فرفض الشعب وساطته ولم يدع جثة نوبار حتى تعهد « اسماعيل » برد الاعتمادات المحذوفة (!)

وصحيح اننا لن نضربكم لاننا نحترم القانون ٠٠ بيد أننا سنسقطكم اذا لم تتوبوا ٠٠ سنسقطكم دون أن تغنى آلهتكم عنكم شيئا ٠٠ ويومئذ تعلمون علم اليقين أن هذا الشعب صاحب جلالة٠

لا تخف .. انك أنت الأعلى !

« اللواء الجديد ـ سنة ١٩٥١ »

فى حياة كل شعب ينابيع باطنة تمده باسباب الاخفاق ، واسباب الظفر ..

وفى العقل الباطن لكل أمة تستقر رواسب تجاربها العديدة .. وتتراكم ذكريات فشلها ، وذكريات نجاحها .

ومستقبلها منوط دائما ، أو غالبا بالقدر الذى تستطيع به ان تمحو ذكريات الاخفاق من ذاكرتها .. وتبعث ذكريات الفوز والامل .. فبهذا القدر وحده يمكنها ان تمخر الحوادث .. وتشق لنفسها طريقا وسط عبابها .

ومن هنا كانت حاجة الجماهير المتحفزة للثقة بنفسها ، والايمان بماضيها قبل البدء فى طريق الكفاح .. حتى اذا انقدحت أمام وعيها اللحظة الحاسمة ، والفرصة الملائمة تبعتها بكل عقلها وقلبها وطاقتها .

وفى تاريخ البشرية لوحات كثيرة تصور هذا المعنى فى براعة وحذق .. وهذه احداها :

عندما دعى لويس السادس عشر « مجلس طبقات الامة » للاجتماع ليعاون الحكومة فى تقرير ضرائب جديدة ـ وكان هذا المجلس معطلا منذ عهد « ريشيليو » .. اغتنم الوطنيون هذه الفرصة ، وقرروا وضع دستور جديد للبلاد يطامن من كبرياء « الملك لويس » وطيشه .. واقسموا يمين « ملعب التنس » ـ هنالك أقنعت الحاشية مليكها أن يواجه المجلس فى حزم رادع .. فذهب الى « المجلس الوطنى » كما اسماه الاعضاء أخيرا .. واستجمع « لويس » كل شجاعته التى افاءتها عليه مركبات نقصه .. ثم أعلن بطلان جميع قرارات المجلس التى اتخذها بشأن

الدستور ، وختم كلمته السامية بهذه العبارة المغرورة :
« اذا لم تنفذوا أمرى فسأعمل وحدى ٠٠ وسأعتبر نفسى مندوب الامة الفرد المطلق » ٠

واحتوى المجتمعين صمت عميق ٠٠ كان من الممكن أن يطول حيث ينتهى الى اذعان يضيف به الشعب الى رصيده من الاخفاق جديدا ٠٠ بيد أن رجلا تركز فيه وعى أمته وحماسها ، وايمانها، أدرك انه حيال اللحظة الحاسمة في تاريخ بلاده فاطلق صيحة كالاعصار المدمر قائلا : « ما هذه الدكتاتورية الشائنة ؟٠ أليس هذا الذى يصدر أوامره اليكم ـ هو الذى يجب أن يتلقى الاوامر منكم ٠٠ ؟ »

واذ هو يجلجل ويهدر دخل كبير أمناء الملك ليعلن انفضاض الجمع : فلفحه « ميرابو » بصرخة اخرى : « ابلغ سيدك اننـــا اجتمعنا هنـــا بارادة الشعب ٠٠ ولن نخرج الا على أسـنة الحراب ٠ »

بهذه الكلمات ، وفي لحظات كأنها ومض البرق ، أو لمح البصر ـ محا « ميرابو » من ذاكرة أمته كل ذكريات الفشل ، والذل ، والخوف ٠٠ وهيأ فرنسا كلها لمعركة الظفر ٠

ولو ان كلمات « لويس » هذا وجدت آذانا مفتوحة ، وعزمات مجفلة ، لتأخر خلاص فرنسا أمدا بعيـــدا ٠٠ ولظلت سلالة « لويس » تتوالد كالذباب ٠٠٠ من « لويس السادس عشر » ٠٠٠ الى « السادس والعشرين » ٠٠٠ أو « الثلاثين » ٠٠٠ !

الم يكن فى تاريخ فرنسا من المحاولات التحريرية التى باءت بالفشل الموصول ما يوحى فى تلك الساعة بالخوف والتردد ؟ ٠٠

نعم كان ٠٠ بيد انه قد كان أيضا في تاريخها من المحاولات الناجحة ما يوحى بالوثوب والاقتحام ٠٠ !

وكذلك كل أمة ٠٠ وكل شعب ٠٠ فيه هذا الخيط من المشـاهد والذكريات وحسبه لكي ينتفع بخيرها ، ويتقى شرها ـ أن يقدم على مغامرة ـ أى مغامرة ـ فتعود اليه ثقته بنفسه ويرى ان الاشباح الضخمة التى ترهبه وترعبه ، ليست الا ظلالا وهنانة ٠٠ وان فى الطغاة دائما من الآفات النفسية ، والتناقضـــات الداخلية ، ما يعمل دائبا على نخر عظامهم ، ويهيئهم للفنـــاء القريب ٠٠

نعم ـ مغامرة واحدة تبين للشعب ـ أى شعب ـ انه كان يمثل

مع مستعمريه وقاهريه دور الجن مع « سليمان » ـ مع الاحتفاظ بما لسليمان عليه السلام من كرامة وفضل ـ فقد ظلوا يعملون فى نحت الجبال وصنع التماثيل ·· وكلما اختلسوا النظر الى « سليمان » ووجدوه قائما يرمقهم بنظرات حداد ·· انكبوا على الضنى والشقاء ·· من أن « سليمان » آنئذ كان ميتا ·· ولم يكن له من مظاهر الحياة الا وقفته المتكئة على عصاه ·· فلما نخبت العصا « دابة الارض » وقضمتها خر « سليمان » وهوى ·· وهنا أدرك الجن كم كـــانوا واهمين ·· وعلموا لو لامسوا من قبل الشبح الذى كان يبدو رابضا حيا ـ ما لبثوا هذا الامد فى العذاب المهين ··

ولكن لماذا نعرض هذه المخاطرات ·· ؟

نعرضها ـ لتعلم الطليعة اليقظة منا ـ انها تعانى من سوء الظن بنفسها وبقدرتها عناء وبيلا ·· وان تفزعهـــا من ملاقاة المستعمر الغاصب ، والمستبد الناهب ، ليس له ما يبرره · مهما تكن قوة هذا المستبد وجبروته ، وليس علينا الا ان نفكر لهؤلاء المستبدين فى مغامرة·· وان ننتفع باللحظة الحاسمة الى ابعد مدى ·· وأن نؤمن باننا الاعلون فى بلادنا وفوق أرضنا ·

ايها الشعب ـ لا تخف ـ واذا غلبك الخوف ، فامض فى طريقك وانت خائف ·

من كتابات : حلمى سلام



- هذا الفساد الأعظم : متى نتخلص مصر منه ؟
- أريد أن أقول لقائد القوات المسلحة
- النظام الاجتماعى : من الذى يعرضه للدمار ؟
- اللهم اتهامًا يا رب

هذا الفساد الأعظم : متى نخلص مصر منه ؟!

« المصور ــ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥١ »

اجمع الناس كلهم ، على ان الفساد قد عم وانتشر ، واصبح طوفانها مسعورا يبتلع كل شيء ‥ ولم يعد هناك ما يمارى في وجود هذا الفساد حتى ولا الحاكمون انفسهم ‥

ولست اذيع جديدا ، اذا قلت ان الناس قد داخلهم الشك في وجود (المنقذ) الذى يستطيع أن يخلصهم ، ويخلص بلادهم ، من تلك المحن التي أخذت تنقض عليها متتالية سريعة ، كما تنقض الصواعق ‥ فلا تكاد تفيق من صاعقة حتى تلحقها اخرى ، تحطم كيانها ، وتضع رأسها في التراب !!

الناس كلهم في شك من وجود (المنقذ) الذى يستطيع ان يحمي مصر من هذه الصواعق ‥ وهم ــ الى حد ما ــ معذورون في شكهم ‥ فقد خلع الزمن الاقنعة عن وجوه القادة الذين كانوا يحسبونهم عمالقة ، وانبياء مخلصين ‥ وان كلا منهم هــو « المسيح المنتظر » الذى سيخلص الشعب من جميع متاعبه ، وآلامه ، ومآسيه ‥ خلع الزمن الاقنعة عن وجوه هؤلاء القادة ‥ فبدوا للشعب على حقيقتهم ‥ فاذا كل منهم « مسيح » كمـا كان الشعب يتصور ‥ ولكنه « مسيح » مشدود الى مطـــامع وشهوات رخيصة ‥ مطامع جعلته عبدا لاكثر من سيد ‥ جعلته عبد للمال ، وللمناصب ، وللشركات ‥ وللذين بيدهم امر هذا كله !

لقد يئس الناس من هؤلاء الرجال الذين وقفوا على المسرح ــ كأبطال ــ أكثر من خمس وعشرين سنة ‥ وكانت كل سنة تمر تثبت انهم جميعا « كومبارس » لم يكونوا ليستحقوا ــ لولا الظروف التعسة ــ ان يخرجوا من وراء الستار ‥

ومع انى أحس فى بعض الاحيان بكثير من اليأس الذى يحسه سائر المصريين من مجيء المنقذ ·· ومع انى أرى الدنيا فى بعض الظروف ، وقد اظلمت ، ولم يعد فيها بصيص من نور ، الا اننى أحب — على الرغم من كل شيء — أن أهزم اليأس ·· أحب أن أؤمن بأنه لا يزال فى مصر مصريون كثيرون يستطيعون ان يحملوا العلم ·· ويستطيعون أن يكونوا جنودا فى جيش يخلص مصر من هذا الفساد ، ويخلصنا من المفسدين ·· ولكن هؤلاء المصريين الصالحين ، قاعدون — مع الاسف — ··· قاعدون عن حمـــل التبعة ، وقاعدون عن القيام بالواجب الاكبر ·· والعجيب فى أمرهم انهم لم يقعدوا عن جبن ، ولم يلقوا سلاحهم عن خـوف من قوة ، ولا عن رهبة لسيد من الاسياد ·· وانما قعدوا يأسا من باقى الجنود ·· قعدوا لأن الفساد طارد ايمانهم برجولة الرجال ، وجعلهم يشعرون بأنه لم يبق فى مصر رجولة لم يفسدها المفسدون بوسيلة من وسائل الافساد ··

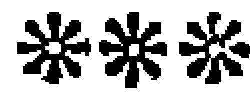
وهنا يبرز الواجب الوطنى لهؤلاء المنقذين الذين أعنيهم ، فليس من الوطنية أن يسكتوا حتى تصير مصر خرابا ·· ليس من الوطنية ان يسكتوا حتى تبلغ الروح التراقى ثم يحاولون انقاذ المريض ·· انما عليهم أن يتقدموا وفى المريض — أى فى مصر — بقية من حياة · عليهم أن يستغلوا هذه الصحوة التى اصابتها ويجعلوها صحوة حياة تمتد الى الابد ·· وليست صحوة موت تنطفىء بعد حين !·

صحيح ان هؤلاء الصالحين « القاعدين » قليلون ، ولكن قلتهم لن تعجزهم — اذا أرادوا — عن أن يجمعوا وراءهم جيشـــا من الصالحين ·· فلقد كان معظم قادة التـاريخ وحدهم يوم وقفوا يصرخون صرختهم الاولى ، ثم جاءهم الانصار تباعا استجابة لهذا الصراخ !!·

وصحيح أن بعض هؤلاء الصالحين يؤدون الان شيئا من هذا الواجب ·· ولكن ما يؤدونه لا يزال أصغر منهم ، ومن قدرتهم ، ومما يتصور الشعب أنهم قادرون عليه ·· وهم يوم يتقدمون لحمل العلم ، سيشعرون — ربما لأول مرة فى حياتهم — انهم اوتوا قوة عملاق من الجن ·· وقدرة جيل من الخلق ·· فان الرجل الذى يستمد قوته من امة ، ليس كالرجل الذى يستمد قوته من نفسه ، ومن بضعة اصدقاء يحيطون به ·· والرجل الذى يفكر

برؤوس عشرين مليونا ، ويفكر لعشرين مليونا ، ليس كالرجل الذى يفكر برأس واحدة ، لحساب شخص واحد ، أو لحساب عدة اشخاص ، يعيشون معه او يعيشون عليه ٠

وصحيح ان هؤلاء الصالحين سيتقدمون لقيادة شعب أكثره جائع ، ومريض ، وفقير ٠٠ وقد يعوق الشعب جوعه ، ويقعد بهفقره وهزاله ، عن الاستجابة للنداء الجديد ٠٠ ولكنا لن نكون افقر من الهنود ، أو اشد منهم هزالا ٠٠ يوم مشوا وراء « غاندى » يرددون نشيد الخلاص ٠٠٠ والمسألة كلها تتركز فى أن يؤمن الشعب بالذين يتصدون لتخليصه من هذا الفساد الذى أوشك أن يدمره، ويأتى عليه ٠



اننى أؤكد أنه لا يزال فى مصر صالحون كثيرون يستطيعون ان يمشوا بالشعب فى طريق الخلاص ٠ وما أظن أن الشعب سيقعد عن السير وراءهم لو انهم تقدموا اليه ٠ فليس فيهم من يرتاب الشعب فى مقصده ٠ وليس فيهم من اخذ عليه الشعب ثراء طارئا ٠٠ ولا ثراء طائلا ٠ وليس فيهم من لم يعرف باستقامة القصد ، واستقامة الخلق ، واستقامة الضمير ٠٠ !

كل عيب هؤلاء الصالحين ــ فى نظرى ــ أنهم قنعوا بواجب أصغر بكثير من الواجب الاكبر الذى تؤهلهم له وطنيتهم ، ومن تجاربهم ومن الالم العميق المدفون فى صدورهم ٠٠ فان ما يعمله هؤلاء الصالحون الان ، يقدر عليه كثيرون غيرهم ،ولكن الذى يجب ان يعملوه لايقدر عليه سواهم !!

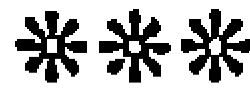
ان كثيرين يستطيعون أن يستقيلوا من مناصبهم هربا من وجه الفساد ، كما استقال « بهى الدين بركات » و « محمود محمد محمود » ٠٠ وكثيرين يستطيعون ان ــ يكتبوا كما كتب « مصطفى مرعى » ٠٠ وكثيرين يستطيعون أن يخطبوا كما يخطب «فتحى رضوان» ٠٠ وكثيرين يستطيعون أن يحرجوا الوزراء فى مجلس النواب كما يحرجهم « نور الدين طراف » ، و « ابراهيم شكرى » و « أحمد ابو الفتح » ، و « عزيز فهمى » ٠ ولكن ليس هناك كثيرون يتفهمون الحرية كما يتفهمها هؤلاء ٠٠ وليس هناك كثيرون يحسون آلام مصر واوجاعها كما يحسها هؤلاء ٠

وصحيح ان هناك كثيرين ، غير هؤلاء ، يدركون أن مصر يمزقها الفساد ، ويقضى على كل مقدس من مقدساتها ٠٠ ولكنهم

يخشون أن يتقدموا لانقاذها فيتمزقوا كما تمزق غيرهم ...
ولكنى أحسب أن هؤلاء الرجال الذين أتحدث عنهم مستعدون لأن يموتوا لكى ينقذوا مصر ، وهم مستعدون لان يموتوا معها ان لم يستطيعوا ان ينقذوها ! .

بقى ان يستجيب هؤلاء الاحرار لنداء هذا الوطن المنكــود فيلتقوا فى موكب واحد ، هو موكب الخلاص مما نحن فيه ..

وانى لأعرف ان طريق هذا الخلاص مملوء بالوحـــوش ، وبالذئاب ، وبصخور قاسية تمزق أقدام الســـالكين .. وان خلاصنا لن يكون باسقاط وزارة ، ولا باسقاط زعيم .. انمـــا يكون بالقضاء على الفساد الاعظم الذى صنعه الاحتلال خلال ٧٠ سنة وأقام صرحه باتقان وبصبر . حجرا فوق حجر .. وثبت الارض من تحته . وهو فساد حرص الاحتلال على أن يمد جذوره فى كل أرض ليقضى على كل أرض .. مد جذوره فى الجيش ، وفى التعليم ، وفى الاداة الحكومية ، وفى النظام الاجتماعى والادارى للدولة .. بل وفى داخل الاحزاب التى تخرج زعماء « يحاربون الاستعمار » ، نثر المحتلون جراثيمهم ، فباضـــت وافرخت .. ولم يعد فى مصر جهة تستطيع أن تقول عنها أنها برئت من جراثيم الاحتلال .



ان الوطنيين الصالحين يجب أن يلتقوا .. وليس من الضرورى أن يلتقوا فى حزب واحد .. أو هيئة واحدة ، بل يكفى أن يلتقوا على فكرة واحدة .. وأن يمشوا معا فى طريق واحدة .. وهم لابد ملتقون فى يوم من الايام .

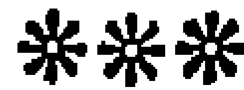
يجب أن يلتقى الاحرار فى موكب واحد .. يجب أن يتحـــرر الحزبيون منهم من حزبيتهم .. يجب أن ينسوها ، أو يتجاهلوها أو يدوسوها بالاقدام .. فليسوا هم « الامعات » الذين لايستطيعون أن يدخلوا البرلمان مثلا الا محمولين على اكتاف عبد الهادى ، وهيكل ، ومصطفى النحاس .. ان كفاءاتهم تفتح لهم الابواب ، ووطنيتهم تشق لهم الطريق .. وليس هناك ما يمكن ان يخافوه الا أنفسهم ، والا اطماعهم الخاصة .. وعليهم ان يهزموها !!.

ان مصر لم يعد ينفعها أن تحارب بعشرة جنود ، كل منهم فى جبهة يطلق منها رصاصة .. بل يجب أن يتوحد الجنود كلهم فى جبهة واحدة .. يطلق منها الرصاص دفعة واحدة .. على هدف واحد ، فى وقت واحد .. وبغير هذا ، لن يسقط حصن الفساد الاعظم ...

أريد أن أقول لقائد القوات المسلحة ..

« المصور » ـ ٢٨ أبريل سنة ١٩٥٠

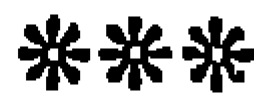
اريد أن أقول للقائد العام للقوات المسلحة : ان مصر لا بد ان ترتطم يوما ـ قريبا أو بعيدا ـ باسرائيل .. وقد كانت معركتنا التي لم تنته ، بعد مع هؤلاء الناس ، سلسلة من الاخطاء ... كانت المعركة عسكرية ، ولكن قادتها كانوا سياسيين ... فضاعت المعركة منهم ، واضاعوها من العسكريين . غير اننا لم نعدم عظات كثيرة نخرج بها من هذه المعركة .. عظات سياسية ، وعسكرية ، وقومية ، ومن كل لون .. واني لأعلم أن قائد القوات المصرية في فلسطين كتب بكل هذه العظات تقريرا رفعه بعد انتهاء المعركة الى الجهات المختصة .. ولكن هذا التقرير لم يناقش .. ولم يناقش كاتبه فيما قد، قرر وكتب ... واخشى ما أخشاه ان يكون ذلك التقرير قد نام دون ان يقرأه احد .. وان تكون تجارب قائد المعركة قد ضاعت كما ضاعت فلسطين .!! ان تجارب الماضي هي أسس المستقبل .. والمستقبل ـ كما أرى ـ مشحون بالمتفجرات .



أريد أن أقول لقائد القوات المسلحة : ان ضباط الجيش يهمهمون باشياء واشياء . وحذار ان تظن انهم بكم لا يتكلمون ! .. انهم يقولون أن الجيش جزء من الامة .. بل هو الجزء الذي تتوقف عليه حياة هذه الامة .. ولهذا لا ينبغي له ان يبقى بعيدا عن متناول النقد الاصلاحي النزيه .. والا فانه سيظل سادرا في جهالة الماضي .. ويحكم في عهد الاستقلال بعقلية محطمي الاستقلال ! ..

ان الضباط يقولون ان البطولة لم تلق في الجيش ما كانت

تستحق ·· وما كانت تنتظر ·· ويضربون الامثال بما كوفىء به الضباط الابطال الذين تكشفت عنهم المعركة الوحيدة التى خاضها جيش مصر منذ مائة سنة ·· وسل عن هــؤلاء الابطال الذين صهرتهم النيران وانضجتهم التجربة ··· سل عنهم ، وعن مكانهم فى الجيش ·· انهم بعيدون عن الاماكن الممتازة التى لا ينبغى ان يشغلها الا الممتازون من طرازهم ·· ولكنها عزت عليهم ، وشغلت بمن ليسوا لهم قدرتهم ولا كفــاءتهم ولا شـــجاعتهم ولا ··· لا احب أن اقول كل ما عندى ! .



اريد أن اقول لقائد القوات المسلحة : ان فى بعض مراكــز الجيش الهامة كادارة المخابرات ، وسلاح خدمة الجيش ، ضباطا متزوجين من يهوديات ·· واذا استطاع المرء أن يكتم اسرار عمله عن الناس جميعا ، فلن يستطيع أن يكتمها عن زوجه ·· وقــد فطنت وزارة الخارجية الى هذا الضعف الطبيعى فى البشر ، فسنت قانونا يسقط حق الدبلوماسيين فى تمثيل بلادهم اذا ما تزوجوا من اجنبية ·· ولست أطالب باقصاء هؤلاء الضباط عن الجيش ، فقدتزوجوا من زوجاتهم قبل أن تقوم دولة اسرائيل··ولكن الذى أطلبه هو ابعادهم عن الاماكن ذات الاهمية الخطيرة كالتى يعملون بها الان ·· فان الخطر الذى يصيبنا من وراء بقــائهم فيها افدح من أن اصوره ·· ويكفى أن تعرف « معاليك » ان كل ضابط فى الجيش يحتفظ فى بيته بعدد كبير من الكتب العسكرية الرسمية ، والخرائط العسكرية التى تشرح كل حركة تعليمية ، وعملية ، من حركات جيشنا ، لتدرك مدى الخطر الذى يحيق بنا من جراء وجود مثل هذه الكتب تحت ايدى هؤلاء الزوجات ·· ان هذه الكتب ، لتتناول ادق أسرار الجيش بالايضاح والتفسير ·· وقد فطنت وزارة الحربية الى هذا فوضعت على رأس الغلاف العبارة التالية : « غير مصرح بنشر ، أو نقل محتويات هــــذه الكراسة ، بطريق مباشر ، أو غير مباشر للصحف ، او لاى شخص ليس فى الخدمة العسكرية » ·· ولكن ·· ما ابعد التحذير عن الحقيقة •

اريد أن اقول لقائد القوات المسلحة : ان أسرار تسليح الجيش واخبار بعثاته الموفدة الى الخارج ، تذاع على الصحف ، وعلى الناس ، أولا بأول ·· ولو أن الصحف هى التى تذيع هذه الاخبار

من عنترياتها لهانت المصيبة قليلا .. وقد يكون هذا العمل مقبولا لو لم نكن في حالة حرب مع اسرائيل .. أما الان .. فان اولئك الذين يمدون الصحف بهذه الانباء محتاجون لمن يقول لهم ان سلامة الوطن أغلى من وزارة الحربية .. وأغلى من كل شخص فيها يريد الدعاية لنفسه .. سلامة الوطن تحتم على الجميع أن يصمتوا حتى ولو اتهموا بانهم لا يعملون .. أن وراءنا عدوا يستفيد من كل همسة نهمسها ، ومصيبتنا اننا لا نكتفي بالهمس .. بل نذيع اسرارنا بمكبرات الصوت ، وعلى أوسع نطاق . !!

أريد أن أقول لقائد القوات المسلحة : ان أمر تعويض مشوهي حرب فلسطين ، قد طال أكثر مما ينبغي . ولقد عرفتك تكره « الروتين » وتمقت خطوات السلحفاة التى تسير بها الاداة الحكومية عندنا .. واذا كان لهؤلاء الابطال أمل .. فاملهم معقود عليك .. لقد تنازلت لهم عن مرتبك طالما كانت المعركة قائمة .. أما الان ــ وقد انتهت المعركة بعدما سلبتهم سواعدهم، وأرجلهم ، وانظارهم ــ فانهم لا يريدون مرتبك بقدر ما يريدون همتك ..

« ان عدد هؤلاء المشوهين لا يزيد على المائة .. والمبلغ الذى سينفق على عمل الاطراف الصناعية للذين فقدوا أطرافهم من هؤلاء الابطال ، ليس مبلغا ضخما تعجز الدولة عن توفيره .. انه ثلاثة آلاف وستمائة جنيه فقط !! وما أكثر الالاف التى تنفقها الدولة فيما لا يفيد ..

لقد كان هؤلاء الرجال عدتك فيما أردت .. فلا تدع السلم يسحقهم .. كما سحقتهم الحرب !!

أريد أن أقول لقائد القوات المسلحة هذا كله .. وكثيرا غيره .. ولكني لا أبيح لنفسي أن أنشر كل ما أريد أن أقول .

النظام الاجتماعى : من الذى يعرضه للدمار ؟

« اللواء الجديد » ـ ٧ أغسطس سنة ١٩٥١

تحدث الوزير الدكتور حامد زكى (باشا) الى بعض الزملاء الصحفيين ، حديثا طويلا فى وجوب مراقبة الصحف . أو على الاصح وجوب وأد حريتها ، ليتحقق للحكومة حماية النظام الاجتماعى السائد فى البلاد .

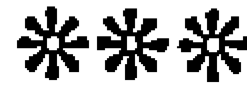
وانا أسلم مع الوزير بأن نظامنا الاجتماعى مهدد ، وان الحكومة لابد من أن تفعل شيئا ما لتحميه !! ولكن الحكام يخطئون اذ يتوهمون ان الشىء المطلوب عمله لحماية النظام الاجتماعى هو قتل الصحف ، وقتل الصحفيين ، وكسر أقلام الاحرار .. فان هذه وسيلة تعين على التعجيل بهدم النظام أكثر مما تعين على وقايته .. وتعجل بانفجار البركان ، وكان أحرى به أن يتأخر ، لو انهم لم يحطموا صمام الامان .. وهو الراى الحر ، والقلم الحر ، والصحيفة الحرة يتنفس عن طريقها الاحرار !

انتم تستطيعون أن تحموا النظام الاجتماعى اكثر مما تشتهون .. ولكنكم لا تملكون لتحقيق هذا ، الا وسيلة واحدة .. هى أن تنحلوا للنتائج ، وتبحثوا عن الاسباب ، فليست صرخات أقلامنا جميعا الا صدى لآلام اكثر شدة ، واعمق غورا آلام يحسها الشعب ، ويصرخ من هولها .. ويصرخ أيضا من الصمم العجيب الذى أصبتم به ، حتى صرتم لا تسمعون شيئا من هذا الصراخ ..

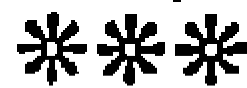
أحموا النظام الاجتماعى ، لا من الشعب ، وانما من الطغاة الذين يثيرونه بطغيانهم ، ويستفزونه بمباذلهم ، وينكأون كل يوم جراحه التى طال عليها الامد ولا تريد أن تطيب ! .

أحموا النظام الاجتماعى .. ولكن بالطريق السليم لحماية كل نظام .. تبينوا الداء ، وابحثوا عن الدواء ، وحاولوا ان

تكونوا أطباء يشفون المرضى ، ويقضون على المرض • أما ان تتخلوا عن دوركم الحقيقى ، وتلجأوا الى الدور الاسهل •• دور الجلاد الذى يقتل المريض لانه لا يريد أن يشقى فى علاجه ، فانكم بهذا تبرهنون على انكم حلقة جديدة ، أو صورة مشوهة ، من أولئك الجلادين الذين عرفتهم الشعوب خلال عصور كانت فيها غارقة لاذنيها فى أغوار الظلام •

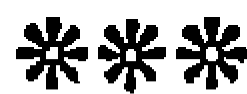


يجب ان تعرفوا انكم انتم الذين صدعتم بناء النظام الاجتماعى •• ولا زلتم تواصلون العمل على جعله هشيما تذروه الرياح •• أنتم الذين بنيتم القصور الشاهقة على مرأى ومسمع من شعب ينام أكثره فى أكواخ كالمقابر ، أو مقابر كالاكواخ •• أنتم الذين تركتم الشعب يتضور جوعا ورصدتم مئات الالوف من الجنيهات على اقامة تماثيل لأناس ، لو كانوا أحياء لسخروا هم أنفسهم من نفاقكم ، ولاظهروكم للناس على حقيقتكم : اذلاء ، جبناء ، تنشدون الخلود فى الحـــكم عن طريق الزيف الفاضح ، والملق المكشوف •



انتم الذين صدعتم بناء النظام الاجتماعى بان جعلتم الشعب يجوع لتاكلوا وحدكم ، ويعرى لتلبسوا وحدكم ، ويمرض لتستشفوا وحدكم ، واين ••• ؟ ! فى « كابرى » و « اكس ليبان » •

انتم الذين صدعتم بناء النظام الاجتماعى بان مكنتم غول الغلاء من الشعب تمكينا مروعا •• كان ، قبل ان تجيئوا الينا ، يعمل مخالبه فقط فى اجسامنا •• وبفضلكم ، وعلى ايديكم ، اكل الوحش لحومنا ، وامتص دماءنا •• والله أعلم ـ اذا طال بكم المدى ـ ان كان الوحش سيبقى لنا على شىء من عظامنا !



انتم الذين صدعتم البناء الاجتماعى بضرائب مجنـــونة • فرضتموها ارتجالا وفرضتموها على الشعب دون ســـواه • فاذا هو يشقى لتنعم القلة من اولئك المترفين الذين اتخمهـــم الترف ، حتى انساهم صوت الفقر الذى يعوى فى الاذان !

والعجيب فى امركم ، إنكم تلومون الشعب لأنه لا يستقبل هذه الضرائب التى تقصم ظهره ، بالرضى والتسليم •• كأنكم تجهلون ان الشعب يرى ، ويسـمع •يرى مظاهر الابهة التى لا••••• مع

صراخ الدولة من قلة المال ·· ولا تتفق مع ما يقابل من اننا امة تملك قوت يومها ، ولا تكاد تطمئن على قوت غدها !

انتم الذين صدعتم بناء النظام الاجتماعي · لانكم تحمـــون الفساد ، وتظاهرونه ، وتقفون من خلفه حتى لقـد ضج منـــكم بعض زملائكم فتركوا لكم دنياكم بما عليها ·· او لعلهم تركوكم تنفردون بالسفينة حتى لايكونوا معكم يوم يبتلعكم الطوفان ·· وما اظن هذا اليوم ببعيد ··

انتم الذين صدعتم بناء النظام الاجتماعى بتلك المحسوبية السافرة التى جعلتموها دستور الدولة فى كل مكان ·· فاضحت الكفاءة فى عهدكم « لغوا » ، والاستقامة « عبطا » و « التجربة » سلاح العاجزين · · يكفى ان يكون الموظف قريبا ، او حبيبا ، او هتافا يجيد الصراخ ، او عبدا يجيد الانحناء ·· يكفى ان تتوفر فى الموظف صفة واحدة من هذه الصفات ـ لا كلها ـ ليمتطى به فوق رقاب الاكفاء !·· ويقفز به من فوقهم ·· وويل للاكفـــاء اذا ما ارادوا أن يفرجوا عن انفسهم بآهة بسيطة تفرج عن جرح الصدور ·· الويل لهم من « مصطفى النحاس » ، و جبـــروه وجبروته · الويل لهم من هذا الانسان الذى ينحنى امام القوة حتى يصبح كالقوس المقفول ·· ويتجبر على الشعب حتى يصبح ماردا لا يطاوله طول · · !

انتم الذين صدعتم بناء النظام الاجتماعى لأنكم اعدتم اليه وأنتم الفلاحون أبناء الفلاحين ـ نظام الطبقـــــات ·· فأرضيتم طائفة على حساب أخرى ·· وكسبتم ود جماعة على حســــاب اخرين ·· ولكنهم جميعا عرفوكم وعرفوا الاعيبكم ·· وعرفوا انكم تريدون ان تعيشوا لتحكموا ·· او لعلكم ـ وهذا هو الحق ـ تريدون أن تحكموا لتعيشوا ·· فخدعتم الجميع ·· وأسأتم للجميع ·· وجعلتم من الجميع قربانا لمطامعكم التى لا تريد أن تتوقف عند حد ·· ولا تريد أن تنتهى عند غاية !!··

نعم ·· أنتم ـ ولا أحد سواكم ـ الذين صدعتم بناء النظـــام الاجتماعى وعرضتموه للدمار ، ومع هذا كله ·· مع هذا الفساد الذى عم وانتشر ·· مع تلك الضمائر الفاسدة التى نثرتموها نثرا فى كل مكان ·· مع تلك الذمم الخربة التى استشرت كالنار ، ولم تعد تخشى بطش حاكم من الحكام ·· مع تلك الجرية المعذبة التى صارت وهما من الاوهام ·· مع هذا وغيره··فماتزال أمامكم فرصة

لان تنقذوا هذا النظام قبل أن يتقوض ·· أمامكم أن تمكنوا الفقير من حقه فى ان يأكل ·· وأن تمكنوا المريض من حقه فى أن يعالج ·· كما يعالج المرضى ، وكما يأكل الفقـــراء ، فى الامم التى تعرف ، وتعترف ، بحق الانسان ·· وبكرامة الانسان !

أمامكم أن تمكنوا الشعب من أن يعود فيعيش لحسابه ، بدلا من أن تقتلوه لحساب الطغاة ·· ولحساب الشركات ·· ولحساب المترفين !··

أمامكم أن تجعلوا الاكفاء لا يندمون على كفـــاءتهم ·· ولا يتحسرون لان أمهاتهم ولدتهم دون أن تصلهم بكم صلة رحم من الارحام ·

أمامكم أن تردوا للريف أمنه الذى فقده فأضحى أشبه بساحات الوغى : اقطاعيون يتنمرون ، ويستأسدون ، وشعب أعلن عزمه على أن يخرج من حظائر الاغنام ·· انها دقة ناقوس لا أظن أنكم وعيتموها !!·

أمامكم بعد هذا كله – لا بل قبل هذا كله – أن تتقوا الله فى هذا الشعب ·· فلا تخنقوا رغبته فى الحرية ، ولا تحطموا طاقتـــه للجهاد ، ولا تقطعوا لسانه الذى يسب الانجليز ، وعهـــدهم ، وأذنابهم ، واليوم الذى جاءوا فيه !··

اتقوا الله فى هذا الشعب فلا تخدروا أعصابه بقولكم : « اننا نعمل » وأنتم فى الحقيقة لا تعملون · وحتى اذا كنتم تعملون ·· فانكم تعملون لانفسكم لا له ، ولا لاهـــدافه ، ولا لتحقيق الحلم الكبير الذى يراوده منذ عشرات السنين ·

وبعد ···

فهذه هى الطريقة الوحيدة – ياسيدى حامد زكى – للقضاء على « الاحمـرار » ، وعلى « الصحف الحمراء » ·· وبغيرها لن تستطيع ·· ولن يستطيع كل الذين ينهجون نهجك ، فيتوهمون أنهم قادرون على حماية النظام بخنق الاصوات ، وقطع الالسن ، ووضع الاقلام الحرة وراء القضبان !·

ان القضاء على الرأى الحر بالقوة ، سيجعله يزداد انتشارا ·· فان الناس ، الآن ، يبحثون عنه ، ويشترونه بنقودهم · أما بعد ذلك ، فان الرأى الحر سيذهب اليهم حتى بيوتهم ، وبالمجان · فتتلقفه الاف الايدى ، وتقرؤه الاف الاعين ، وتردده الاف الشفاه ·· والويل لأمة يخشى حكامها النور ·· ولا يؤمنون الا بالظلام ·

اللهم اتهاما يارب ..

« اللواء الجديد » ــ ١٠ يوليو سنة ١٩٥١

لو صدر هذا الدعاء عن غير مصرى ، وفى بلد غير مصر ، لرمى الناس صاحبه بالخبل ، واتهموه بالجنون ٠٠ فالاصل فى الدعاء أن يكون ابعادا لشر أو دفعا لبلاء ، اما أن يدعو الانسان ربه ليصيبه بشر ، أو ليرميه ببلاء ، فهذا هو الجنون بعينه ٠٠ وهو جنون فى أى أمة ، وفى أى بلـــــد ٠٠ الا فى مصر ، فان ما يحدث فيها فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، يحرض الناس تحريضا عنيفا على أن يتجهوا الى ربهم داعين : « اللهم اتهاما يا رب » !!

نعم ٠٠ اللهم اتهاما يارب ٠ فقد اتهم « حيدر باشا » بأنه كان فى غفلة عما يجرى وراء ظهره قبل حملة فلسطين ، وخـــــلال الحملة ، وبعد الحملة ٠٠ وثبتت هذه « الغفلة » على الرجل بأكثر من دليل : واذا كان هناك من لايزال محتاجا الى دليل واضح ، فليسأل حيدر باشا : كم عدد المواقع التى بقيت للجيش المصرى ، من تلك التى كانت قد وقعت فى قبضته ؟!

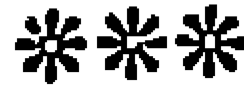
وليسأل حيدر باشا : لماذا ضاعت هذه المواقع بعد الذى دفعناه فى سبيلها من أرواح وأموال ؟!

ولن يكون الجواب غير الدليل المرتقب ، على « الغفلة المركبة » التى كان يتمتع بها الرجل الذى كان يدير من مكتبه فى القاهرة ٠٠ دفة الحرب فى فلسطين !!

وعندما نرجع الى التاريخ البعيد أو القريب ، لنرى ماذا صنعت الامم بقوادها الذين اتهموا بمثل ما اتهم به « حيدر » ، نجدها جميعا قد حاكمت هؤلاء القواد وعاقبتهم ٠٠ أو فى القليل ، نجدها قـد أبعدتهم عن أن يكون لهم أى دور جدى فى حياة بلادهم ! ٠

اما في مصر ، فقد ابعدت الحكومة « حيدر باشا » عن منصبه ٠٠ ولم تلبث غير أيام قليلة ، ثم أعادته الى مكانه القديم ، بعد أن قبلت منه كل الشروط التي اشترطها لعودته ٠٠ ولعلهـــا ـ أي الحكومة ـ قد اعتذرت له عما بدر منها في حقه !!

وهكذا كان « اتهام الرجل » سببا في أن يقوى عن ذي قبل ٠٠ وسببا في أن يشترط ويتدلل ، وسببا في أن يعود قائدا أو سيدا ٠٠ وأنف الرأي العام في الرغام !!



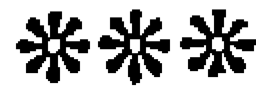
ولقد رأى المحققون في قضية الاموال المخصصة للترفيـــه عن الجنود ، أن يبعد ضابط برتبة « لواء » عن منصبه حتى يتم التحقيق في كيفية التصرف في هذه الاموال ٠٠ وقد تم هذا التحقيق منذ أيام ، ورؤى اعادة اللواء المذكور الى مكانه في الجيش ٠٠ ولكن وزارة الحربية لم تكتف باعادته الى منصبه القديم كقائد لاحدى الوحدات ، بل رشحته لمنصب أكبر وأخطر ٠٠ رشحته نائبا لرئيس هيئة أركان حرب الجيش ، وهو منصب يعطى له شرف رياسة كل قواد الجيش ممن لم يطلب محقق ابعادهم ، ولم تحم حولهم شبهات ٠ ولم يشك انسان في نزاهتهم وكفاءتهم ٠

ولم يكن من حق واحد من هؤلاء القواد أن يطمع في مثل هذا المنصب الذي رشح له اللواء الذي كان قد أبعد ٠٠وكيف يطمعون فيه وهم لم يبعدوا عن مناصبهم ٠٠ ولم يكونوا في يوم من الايام متهمين بتهمةتخدش الذمة ، أو تشين الشرف ، أو تمس النزاهة !!؟

ولقد اتهمت النيابة نفرا من الموظفين بتهم مشينة ، ثم عادت ـ لاسباب لاتزال خفية ـ فحفظت التحقيقات بالنسبة لهـــؤلاء المتهمين ٠٠ وكان المفروض أن تنتهي المسألة عند هذا الحد ٠ ولكن يبدو أن حكومتنا كانت تنظر الى هؤلاء المتهمين نظرتهـــا الى الشهداء والقديسين ٠٠ فما لبثت حتى احتفت بهم ، وكرمتهم ، وأرضتهم ٠٠ ولولا بقية من حياء ، لامرت الحـكومة بأن تقـــام التماثيل في أوسع الميادين « لانطوان بوللي » ٠٠٠ و « أمون جهلان » !!٠٠

لقد صار من الواضح جدا أن الاتهام الـــــذي وجه الى معظم المتهمين في قضية الجيش ، كان سببا في أن يبلغوا مكانات لم يكونوا بالغيها لولا ذلك الاتهام الذي أحاط بهم ٠٠ وواضح بجانب هذا أن براءة الابرياء قد أطاحت بهم الى غير رجعة ، اذ كان المعول في رجعتهم على مزاج « حكومة الشعب » !!

أطاحت البراءة باللواء فؤاد صادق ، وغيره من لواءات الجيش ·· ولعله من سوء حظ هؤلاء القادة أنهم خرجوا من الجيش أطهار الذيل ، أنقياء الذمة ·· فلو أن الاتهـــــام كان قد نالهم برشاشه ، لكانوا الان قد عادوا الى مراكزهم القديمة ·· بل لما كان بعيدا أن يرقى اللواء فيهم فريقا ·· ويصير المرءوس رئيسا تعنو له الرقاب !·



وبعد ·· فانى أعذر الذين يستطيلون طريق الاستقامة ·· ولا يرون فى نهايته غير سراب من فوقه سراب ·· انى اعذر هؤلاء اذا جهروا برأيهم فى الاستقامة وقالوا عنها انها حيلة العاجزين·

نعم ·· انى أعذرهم اذا قالوا هذا ، فانهم يرون الاسيادييسرقون ويرتشون··ويرون الذمم تباع فى الاسواق··كل ذمة بسعرمعلوم ·· ويرون المتخمين بالمال لايكادون يشبعون ، فهم يسرقون بأيديهم ويسرقون بأعوانهم ، ويسرقون بما لهم من نفوذ !

انى أعذر الذين يصيبهم اليأس من نظافة الخلق ، ونظافة اليد ، ونظافة الضمير · نعم أعذرهم ·· فهم يرون المثل العليـا تتساقط امام انظارهم مثلا بعد مثل ، ويرون القانون قد تقاعس وقعد ، ولم يعد يقدر الا على الذين يسرقون لقمة عيش ليسدوا بهـــــا رمقهم ، أو رمق أطفال يعوون من الجوع حولهم !!

انى أعذر المستقيمين اذا ضاقوا باستقامتهم ·· ورفعوا أيديهم الى السماء داعين :

« اللهم اتهاما يا رب »!!

فهرس

صفحة

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.





هذا الكتاب

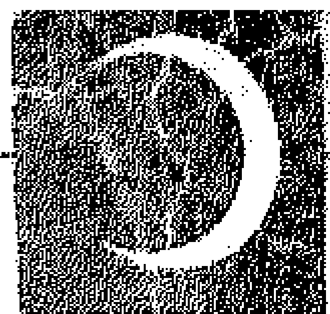
لم تكن « ثورة ٢٣ يوليو » التى أطاحت فى سنة ١٩٥٢ ، بنظام فاسد كان على رأسه « ملك » لم يتردد فى أن يبيع للشيطان نفسه ـ لم تكن هذه الثورة استثناء من ثورات الشعوب •• فلقد جاءت الى وجودنا بعد صبر طويل من جانب الشعب على فساد « الملك » ، وعلى فساد نظامه ، وعلى فساد رجال كثيرين كانوا يقفون حوله ، ومن ورائه •• حتى اذا لم يبق فى قوس الصبر منزع ، كان لابد مما ليس منه بد • تفجرت « ثورة ٢٣ يوليو » لكى تطيح بالملك ، وبنظامه ، وباولئك الرجال الفاسدين ، والمفسدين الذين كانوا يقفون حوله •• ومن ورائه

وهذا الكتاب يقدم لك ـ لاول مرة منذ عشرين سنة ـ صورة كاملة ، ومجسدة ، لذلك « المسرح الكبير » الذى كنا نعيش فيه ـ قبيل ثورة ٢٣ يوليو ـ مأساة حياتنا ••• يقدمها لك كاملا : بكل الاحداث الاليمة ، والمريرة التى كانت تمثل على خشبته •• وبكل العمالقة والاقزام الذين كانوا يتحركون عليه •• وبكل الكلمات النارية التى كانت تدوى فى جنباته •

ولقد صور لك ذلك كله كاتب لسنا فى حاجة لان نعرفك به • فلقد عرفته ، من قبل ، واحدا من صحفيى الصف الاول الذين عاصروا تلك الاحداث ، وعانوها ، واكتووا بنارها •• وكان له فيها ـ بوصفه واحدا من كوكبة الكتاب الاحرار الذين تصدوا بكل شجاعة قلوبهم ، وبكل حيوية اقلامهم ، لفساد « الملك » ، وفساد عهده ، وفساد رجاله •• وكان لهم فى ذلك كله دورهم الملحوظ الاثر ، والخطر •

ان كتاب (أيامه الاخيرة) الذى نعتز بتقديمه اليك ، ليس كتابا للتسلية •• كما انه ليس كتابا لازجاء الفراغ • وانما هو (شهادة بين يدى التاريخ) ، أعتمد الكاتب فى تسجيلها على احداث عاصرها •• وعلى مذكرات سجلها •• وعلى اسرار خطيرة سمعها بنفسه من شفاه صانعيها الذين مايزال كثيرون منهم على قيد الحياة •

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

شعراء المجون

صالح جودت

٦٤ ع

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦٤ ـ شوال ١٣٩٢ ـ ديسمبر ١٩٧٢

No. 264 — Decembre 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جـك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان جمال قطب

صالح جودت

شعراء المجون

دار الهلال

روحوا القلوب ساعة بعد ســــاعة ،
فـــان القلوب اذا كلت عميـــــت
« حديث شريف »



ابن الحجاج

علي نحت القوافي من معادنهـــــا
وما علي اذا لم تفهم البقــــــر ؟

هو الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر المعروف بابن الحجاج . وقد تولى حسـبة بغداد الى أن عزل منها لفرط مجونه .

ويقول عنه مؤرخو الادب انه شـاعر مفلق ، وقد جعلوه فى مرتبـة امرىء القيس ، وقالوا : ولم يكن بينهما من هو مثلهما ، وان كان جل شعرة فى المجون.

أما ياقوت ، فيكره ابن الحجاج الي حـد انه كان يود لو أنه لم يذكره فى معجمه ، ويقول : لولا قول ابراهيم لابن المهدى ان جد الادب جد ، وهزله هزل ، لصنت كتابى هذا عن مثل هذا المجون . .

والواقع ان أكثر شعر ابن الحجاج مما تعف عن ذكره الاقلام والالسنة . ولـكن لا سبيل مع هذا الى انـكار ان ابن الحجاج كانت له طريقته الخاصـة فى خلاعته ومجونه ، لم يسبقه اليها أحد ، وان ألفـاظه تتميز بالعذوبة والسلاسة .

وقد مدح الملوك والامراء والوزراء ، فلم تكن هيبتهم بمانعته من التبسط معهم الى حـد الهزل دون أن يغضبوا عليه ، بل انهم كانوا يتقبلون هـــــــذا منه بالاحسان والانعام .

وحسبك منه أن تقرأ بعض مدحته فى الامير عز الدولة بختيار ، لتعجب من استحسان الامير لمثل هذه المدحة :

فديت وجه الامير من قمر
يجلو القذى نوره عن البصر
فديت من وجهه يشككنى
فى انه من سلالة البشر
أن زليخا لو أبصرتك لما
ملت الى الحشر لذة النظر (١)
ولم تقس يوسفا اليك كما
نجم السهى لا يقاس بالقمر
وكان يا سيدى قميصك ان
هربت منها ينقد من دبر
بل وحياتى ، لو كنت يوسفها
لم تك من تهمة العزيز برى
لأننى عالم بأنك لو
شممت ريا نسيمها العطر
سبقتها وانزلقت تتبعها
ما بين تلك البيوت والحجر

ويمضى بعد ذلك فى مدح سوأة زليخا وسوأة الامير، والامير يسمع ويبتسم !

***

وكان له كثير من الهجاء ، منه قوله فى بعض من لم يحسنوا اليه :

---

(١) زنيخا امرأة العزيز ، صاحبة القصة مع يوسف عليه السلام ، وفى الابيات التالية اشارات الى القصة .

قد قلت لما غدا مدحى فما شكروا
وراح ذمى فما بالوا ولا شعروا
على نحت القوافى من معـــادنها
وما عــلى اذا لم تفهم البقــر

وان ابن الحجاج ليصف نفسه ، فى قصيدة لا تخلو من الفخر ، وان كان يعترف فيها بالسخف فى شعره . يقول عن نفسه :

رجــل يدعى النبــوة فى السخــ
ــف ، ومن ذا يشك فى الانباء
جــاء بالمعجزات يدعو اليهـــا
فأجيبـــوا يا معشر السخفــاء
حـــدث الســن لم يزل يتلقى
علمـــه بالمشـــايخ الــكبراء
خاطر يصفع الفرزدق فى الشعــ
ــر ، ونحو . . . (١) أم الــكسائى
غير انى أصبحت أضيع فى القو
م من البــدر فى ليالى الشتاء

***

ثم يعتذر ـ فى قصيدة أخرى ـ عن هــذا التردى بمستوى الشعر ، بأنه لو أراد أن يتسامى لاستطاع ، ولــكنه يتبذل فى نظمه من أجل لقمة العيش. يقول :

بالله يا احمـــــد بن عمرو
تعرف للنـــاس مثل شعرى ؟
شـــــعر يفيض الــكنيف منه

---

(١) الكلمة المنقوطة • فعل صريح

من جـانبى خاطـــرى وفــكرى
فلفظـــه منتن المعـــــــــانى
كأنه فلتـــــــة بحـــــجر
لو جد شـــعرى رأيت فيـــه
كواكب الليـــــــــل كيف تسرى
وانمـــــا هـــزله مجـــــون
يمشى به فى المعـــــــاش امرى

وهذا قول صدق .

فمن قليـــل شـــعره الجاد ، ندرك انه لو أمن غائلة الفقر لانقلب أمره ، فصار أكثره للجد واقله للمجون .

فمن جميـــل خمرياته :

يا صــاحبى استيقظـا من رقدة
تزرى على عقل اللبيب الاكيس
هـــــذى المجرة والنجوم كأنها
نهر تدفق فى حـــديقـــة نرجس
وارى الصبا قد غلست بنسيمها
فعلام شرب الراح غير مفلس ؟
قوما اســـــقيانى قهوة روميـــة
من عهــد قيصر دنها لم يمسس
صرفا تضيف اذا تسلط حكمها
موت العقول الى حيـــاة الانفس

ومن جميل وصفه لفوارة (نافورة) عند أحد الامراء :

صــــــنعت فى دارك فوارة
اغرقت فى الارض بها الانجما

فاض على نجم السـهى ماؤها
فأصبحت أرضـك تسـقى السما

***

وقد توفى ابن الحجاج سنة ٣٩١ هـ ، وأوصى بأن يدفن عند قدمى موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وأن يكتب على قبره « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » . اذ هو شيعى المذهب . وقد نفذت وصيته ، ويقال ان بعض أصحابه رأوه فى المنام بعد وفاته ، فسألوه عن حاله ، فقال :

افسـد سـوء مذهبى
فى الشعر حسن مذهبى
لم يرض مولاى علـى
سبى لاصحاب النبى



ابن سَـيَابة

« لان القى الله تبارك وتعـــــــالى
بذل المعــــاصى ، فيرحمني ، احب
الي من ان القـــاه التبختـــــر
ادلالا بحســـــــناتى ، فيمقتنى »

اسمه ابراهيم بن سيابة ، من موالى بنى هاشم .
وكان ماجنا خليعا حاضر النكتة ، يحب أهل الغناء ، ويمدح ابراهيم الموصلى وابنه اسحق ، فيجزيانه بأن يغنيا بعض شعره أمام الخلفاء ، فيناله من ذلك بعض الخير .

وكان مخنثا منحلا زنديقا .

ومن وقائعه مع بشار بن برد ، انه جاءه يوما يقول له : ما رايت أعمى قط الا وقد عوض من بصره : اما الحفظ والذكاء ، واما حسن الصوت ، فأى شيء عوضت ؟

فقال بشار : ألا ارى ثقيلا مثلك !

ويروى ان ابن سيابة لقى ذات يوم غلاما أمرد ، فغمزه ، فاستجاب له الغلام ومضى معه الى بيتـه ، فأكلا وشربا ، ثم قال له الغلام : انت يا ابن سيابة زنديق ؟

قال : نعم ...

قال : أحب أن تعلمني الزندقة ...

قال : افعل ، وكرامة ...

ثم هم به ، فصاح به الغلام : ماذا تفعل ؟

قال : أعلمك الزندقة ، وهذا أول باب فى شرائعها.

***

وكان ابن سيابة فى طريق ، فلقى غلاما أمرد يعرفه ، ومع الغلام جارية مغنية ، اسمها رحاص ، تحب الغلام. فتلكأ ابن سيابة ، حتى سلم على الغلام ، وقبله قبلة تحمل الريبة ، فسبته الجارية سبا شديدا ، ثم هجره الغلام بعد ذلك . فقال ابن سيابة يلوم الغلام على هجره :

قل للذى ليس لى من
يدى هواه خلاص
أئن لثمتك سرا
فأبصرتنى رحاص
وقال فى ذاك قوم
على انتقاصى حراص
هجرتنى وأتتنى
شتيمة وانتقاص
فهاك فاقتص منى
ان الجروح قصاص

وعوتب ابن سيابة على مجونه ، فقال لمعاتبيه : ويلكم ، لأن ألقى الله تبارك وتعالى بذل المعاصى فيرحمنى ، احب إلى من أن ألقاه اتبختر ادلالا بحسناتى فيمقتنى !

***

ولابن سيابة لمحات شعرية لطيفة ، وان لم تصل به الى مكانة بين شعراء عصره .

من ذلك انه عشق جارية سوداء ، وقال يسوغ هذا اللون من العشق ، وهو معنى مألوف عولج من قبله ومن بعده ، وان كان ابن سيابة قد أحسن صياغته :

يكون الخال فى وجه قبيح
فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام مفتون على من
يراها كلها فى العين خالا

وله فى استعطاف الفضل بن ربيع ، عندما سخط عليه لكثرة مجونه :

ان كان جرمى قد أحاط بحرمتى
فأحط بجرمى عفوك المأمولا
فكم ارتجيتك فى التى لا يرتجى
فى مثلها أحد فنلت السولا
وضللت عنك فلم أجد لى مذهبا
ووجدت حلمك لى عليك دليلا

فلما قرأها الفضل دمعت عيناه ، ورضى عنه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .



ابن لنكك

نعيب زماننا ، والعيب فينـــــا
ولونطق الزمان اذن هجــــــانا

هو محمد بن محمد بن جعفر، أبو الحسن ، المعروف بابن لنكك البصري .

كان صدر ادباء البصرة في زمانه ، ولعله أراد ان يكون من فحول شعراء العربيــة ، ولــكن القدر ســد عليه الطريق ، بأن ظهــر في عصره شــاعران أولى منه بكل مكانة ، ارتفع نجمــاهمــا ، وملأ شــعرهما الاســماع والابصــار ، همــا ابو رياش اليمــامى ، وأبو الطيب المتنبى .

ولم ترق موهبته الى مستوى عبقريتهما ، فلم يجد من سبيل يظهر به ضوؤه ولو خافتا في ســماء نورهما المبهر ، الا ان ينقلب عليهما فيهجوهما ويعدد مثالبهما ويقف حياته على هــذا الدرب ، ويتجاوزهما في بعض الاحيان الى شكوى زمانه ، وهجاء سائر شعراء عصره .

وشعره في كل هـــذا لا يزيد في أكثر الاحيان على البيتين أو الثــلاثة ، مما يدل على انه لم يكن مهيــأ للفحولة ، وان كان مهيأ للمجون .

فمن قوله في شكوى الزمان :

نحن والله في زمان غشـــــوم
لو رأينــــاه في المنـــام فزعنـــا
يصبح الناس فيه من سوء حال

حقّ من مات منهمو أن يهنا

ومنـه :

جار الزمان علينـا فى تصرفه
وأى دهر على الاحرار لم يجر ؟
عندى من الدهر ما لو ان أيسره
يلقى على الفلك الدوار لم يدر

ومنـه :

نحن من الدهر فى أعاجيبـا
فنسـأل الله صـبر أيوبا
اقفرت الارض من محاسـنها
فابك عليهـا بكاء يعقـوبا

وهكذا ترى فى هذه الابيات الستة ان معانيها كسائر اقوال الناس فى شكوى الزمن ، الا البيت الثانى من المقطعة الثانية ... فهو وحده الذى يرقى الى مستوى الجدة .

وكان يحنق اذا كان فى مجلس تردد فيه مدح سواه من أهل الادب والفضل ، ويقول :

زمان قـد تفـرغ للفضول
وسـود كل ذى حمق جهول
فان أحببتمو فيـه ارتفـاعا
فكونوا جـاهلين بلا عقـول

***

ومع قلة ذكره ، فان له أبياتا مفردة سارت على السنة الناس حتى عصرنا هـذا ، كالبيتين الاولين فى هذه المقطعة :

يعيب النـاس كلهم الزمانا
وما لزماننـا عيب سـوانا

نعيب زماننـــا والعيب فينا
ولو نطق الزمان ، اذن هجانا
ذئاب كلنـــا فى زى ناس
فسبحان الذى فيــه برانا
يعاف الذئب يأكل لحم ذئب
ويأكل بعضنـــا بعضـــا عيانا

***

أما قوله فى هجاء الشاعر أبى رياش اليمامى ، فكثير من أقبحه قوله :

نبئت ان أبا رياش قـــد حوى
علم اللغـــات وفاق فيمـــا يدعى
من مخبرى عنه ، فانى ســـائل
من كان حنكه ب . . . الاصمعى (١)

ولـــكنه خص المتنبى بنصيب أوفر من أهاجيه ، لإن المتنبى كان ألمع نجما من اليمامى ، وأطفـــأ منه لضـــوء ابن لنكك .

قال فيهُ معرضا بتسميته « المتنبى » وبحظوته عند أصحاب النعمة :

ما أوقح المتنـــــــبى
فيمـــــا حكى وادعاه
ابيح مالا عظيـــــما
حتى أباح قفـــــاه
يا ســـائلى عن غنـــاه
من ذاك كان غنـــاه
ان كان ذاك نبيـــــا
فالجاثليـــــق اله (٢)

---

(١) الكلمة المنقوطة ، ســواة الرجل .
(٢) الجاثليق : رئيس الاساقفة .

وقال فى هجائه معرضا بأبيه ، اذ كان أبوه سقاء بالكوفة :

قولا لأهل زمان لا خلاق لهم
ضلوا عن الرشد من جهل به وعموا
اعطيتم المتنبى فوق منيته
فزوجوه برغم أمهاتكمو
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها
نعالهم فى قفا السقاء تزدحم

ومن أقبح قوله فيه هذان البيتان :

متنبيكم ابن سقاء كوفا
ن ، ويوحى من الكنيف اليه
كان من فيه يسلح الشعر حتى
سلحت فقحة الزمان عليه

***

على انه لم يترك أحدا من أهل العلم والادب والفضل فى زمانه الا هجاه كما أسلفت القول .

قال يهجو علماء الفقه :

اقول لعصبة بالفقه صالت
وقالت : ما خلا ذا العلم باطل
اجل لا علم يوصلكم سواه
الى مال اليتامى والارامل

وقال يهجو الشاعر الرملى ، وكانت بينهما خصومة :

حلف الرملى فيما
قص عنه وحكاه
يدعى يوم اصطلحنا

أنني قبلت فاه
لم أقبل فاه ، لكن
قبلت نعلي قفاه

***

وقال يهجو المبرمان النحوي :

صداع من كلامك يعترينا
وما فيه لمستمع بيان
مكابرة ومخرقة وبهت
لقد أبرمتنا يا مبرمان

***

واخيرا ... هجا أهل زمانه جميعا ، وقال فيهم :

مضى الاحرار وانقرضوا وبادوا
وخلفني الزمان على علوج (١)
وقالوا قد لزمت البيت جدا
فقلت : لفقد فائدة الخروج
فمن ألقى اذا أبصرت فيهم
قرودا راكبين على السروج
زمان عز فيه الجود حتى
كأن الجود في أعلى البروج ! ..

(١) العلج ، العير ، والحمار ، من كفار العجم .



ابن المعـذل

اي ماء لحـــــــــر وجهك يبقى
بين ذل الهوى وذل الســـــــؤال

هو عبد الصمد بن المعذل ، ويكنى أبا القاسم .

وهو شاعر فصيح من شـــعراء الدولة العباسية ، بصرى المولد والنشأة .

وكان هجاء خبيث اللسان .

وكان أخوه أحمد بن المعذل شاعرا أيضا ، الا انه كان عفيفا ، ذا مروءة ودين وتقدم فى المعتزلة ، وله جاه واسع فى بلده وعنـد ســلطانه لا يقاربه فيه عبد الصمد ، ولهذا كان هـــذا يحسده ويهجوه ، فيحلم أحمد عنه .

على ان عبد الصمد ــ برغم مجونه ــ كان أشعر من اخيه .

وكان أبوهما المعذل ، وجــدهما غيلان ، شــاعرين أيضا . ومن شعر أبيهما قوله :

الى الله أشكو لا الى الناس انني
أرى صالح الاعمــال لا أستطيعها
أرى خــلة فى اخــوة وأقــارب
وذى رحم ما كان مثلى يضيعها
فلو ساعدتنى فى المــكارم قدرة
لفـــاض عليهم بالنوال ربيعهــا

وكان أبوهما المعذل هجاء كابنه عبد الصمد . هجاه ابان اللاحقي يوما ، قائلا :

كنت أمشي مع المعـــذل يوما
ففسا فسوة فـكدت أطـــير
فتلفت هـــــل أرى ظربانا
من ورائي والارض بي تستدير (١)
فاذا ليس غيره ، واذا اعـ
ـصـــار ذاك الفساء منه يفور
فتعجبت ثم قلت : لقـد أعـ
ـرف ، هذا فيما أرى خنزير

فأجاب المعذل قائلا :

صحفت أمك اذ سمتك في المهـد أبانا
قد علمنـا ما أرادت ، لم ترد الا أتانا
صيرت باء مكان التاء والله عيانا
قطع الله وشيكا من مسميك اللسانا

***

ونعود الى عبد الصمد بن المعذل ، فنقول انه على قلة دينه ، وفساد سيرته ، وميله الى الغلمان ، كان يكثر من هجاء الزناة واتهامهم بالمعصية .

من ذلك أن شروين المغنى ، وقد كان حسن الصوت والضرب ، كان يعشق النساء ، ولا يبلغ في غنائه الاوج الا اذا شاهد امرأة ، ولهذا كان من يحبون أن يسمعوه ، يجيئون بجويرية ســـوداء ، تطالعه وتلوح له بخرقة حمراء ، ليظنها امرأة تطـالعه . فكان حينئـذ يحسن الغناء . فغضب عليه عبد الصمد في بعض الامـــور ، فقال يهجوه :

من حـل شروين له منزلا
فلتنهـه الاولى عن الثـانيه
فليـس يدعـوه الى بيتـه

(١) الظربان : حيوان صغير نتن يقال انه اذا فسا في ثوب لم تذهب رائحته حتى يبلى .

الا فتى فى بيتــه زانيــــه

وكان فى البصرة رجــل من الزناة ، وكانت امراته تزنى هى الاخرى ، فقال عبد الصمد يخاطبها :

ان كنت قد صفرت أذن الفتى
فطــالمــا صـــــــفر آذانا
لا تعجبى ان كنت كشخنته
فانما كشـــخنت كشـــخانا

والــكشخان هو القـــواد

***

ومن رقيق غزل عبد الصمد ، هــذا القول فى فتى من أصدقائه عشق جارية حلوة :

لســـان الهوى ينطق
وشـــاهده يصـــدق
لقد نم هـــذا الهوى
عليك وما يشـــفق
اذا لم تكن عاشـــقا
فقلبك لم يخفق ؟ ..
ومالك اما بـــــدت
تحار فـــلا تنطق ؟ ..
أشـــمس تجلت لنـــا
أم القمر المشرق ؟ ..

***

وكان عبد الصمد يعشق فتى من المغنين ، يقال له احمد ، فغاضبه الفتى وهجره ، فقال فيه :

سل جزعى مذ صددت عن حالى
هــل خطــر الصــبر على بالى
لا غير الله ســــوء فعلك بى
ان كنت أعتبت فيـــك عذالى
ولا ذممت البــكا عليـــك ولا

حمدت حسن السلو من سالى
لو كنت أبغى سواك ما جهلت
نفسى ان الصدود أعفى لى

***

ومن لطيف شعره فى وصف بستان له كان هامرا بالطيبات :

اذا لم يزرنى ندمانيه
خلوت فناديت بستانيه
فنادمته خضرا مؤنقا
يهيج لى ذكر أشجانيه
يقرب مفرحة المستلذ
ويبعد همى وأحزانيه
ارئ فيه مثل مدارى الظباء
فظل لاطلائها حانيه (١)
ونور أقاح شتيت النبات
كما ابتسمت عجبا غانيه
ونرجسه مثل عين الفتاة
الى وجه عاشقها رانيه

وكان كثير الهجاء لشعراء زمانه . وكان هو والجماز يتهاجيان ، فيشمت ابو قلابة الجرمى فى عبد الصمد ، ويستزيد الجماز من الهجاء ، فقال عبد الصمد يهجو ابا قلابة :

يا من تركت بصخرة
صماء هامته أميمه (٢)
ان الذى عاضدته
أشبهته خلقا وشيمه
وكفعل جسدتك الحديثة

(١) المدارى : قرون الظباء ـ والاطلاء جمع طلا ، ولد الظبى
(٢) الاميم : المشجوج الراس .

فعـــــل جـدته القـديمه
فتنـــاصرا ، فابن اللئيـــ
ـــمة ناصر لابن اللئيمـــــه

***

واجتمع أبو تمام الطائى وعبـد الصـمد فى مجلس فتلاحيا ، وكان عبد الصمد سريعا الى الشعر ، وأبو تمام بطيئا اليه .

قال عبد الصمد يهجو صاحبه :

أنت بين اثنتين تبرز للنـا
س ، وكلتاهما بوجه مذال (١)
لست تنفك طالبـا لوصـال
من حبيب ، أو طالبا لنوال
اى ماء لحر وجهك يبقى
بين ذل الهوى وذل السؤال

فتأنى أبو تمام ، وخلا طويلا ، ثم قال :

افى تنظم قول الزور والفند
وانت أنزر من لاشىء فى العدد (٢)
أشرجت قلبك من بغضى على حرق
كأنها حركات الرمح فى الجسد (٣)

***

ولما كبر عبد الصمد تاب ، وقال فى توبته ، وهى عن عجز :

هجرت الصـبا أيما هجرة
وعفت الغوانى والخمـــرة
طوتنى عن وصـلها سـكرة
بكأس الضنى أيما سـكرة

(١) المذال : المهان . (٢) الفند : الكذب
(٣) أشرجت : شددت الحقيبة بخيط أو نحوه .



ابن مناذر

... وكان يرسل العقارب في المسجد بالبصرة حتى تلسع الناس ، وكان يصب المداد بالليل في ماء الوضوء بالمساجد حتى يسود وجوه المصـــلين !..

هو محمد بن مناذر ، كان مولى سليمان القهرماني ، وكان سليمان هذا مولى عبيد الله بن ابى بكرة ، وكان عبيد الله هذا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فابن مناذر ، اذن ، مولى لمولى لمولى !

ثم ادعى ابو بكرة انه ثقفى ، وادعى ســـليمان انه تميمى ، وادعى ابن مناذر انه من بنى صبير بن بربوع. فهو مولى دعى ، لمولى دعى ، وهـــذا نسب لم يعرف احط منه فى تاريخ العرب !

وهـــذا سر ما تراكم فى نفسه من العقد ، فكان فى اول امره ناسكا ، ثم ترك هذا وهجا الناس ، وتهتك ، وكثر تهتكه ، وان ابا الفرج الاصبـــهانى ليعجب منه كيف بدأ بالنســـك والتأله ، ثم انتهى الى مثل هـــذا القول متغزلا فى امرد فى مسجد ، يريد أن يظفر به :-

الا يا قمر المسجد هل عندك تنويل ؟
شفانى منك أن نولتنى ، شتم وتقبيل
ســـلا كل فؤاد وفؤادى بك مشغول
لقد حملنى حبك ما لا يحمل الفيل

وابن مناذر شاعر فصيح ، متقـــدم فى العلم باللغة ،

امام فيها ، اخذ عنه كثير من اللغويين ، وقد صحب الخليل بن أحمد وأبا عبيدة ، واخذ عنهما علوم الادب واللغة والعروض ، وله معرفة بالحديث .

ولكن يحيى بن معين حذر الناس من رواية الحديث عنه ، وقال : لا يروى عنه من فيه خير .

فقيل له : وما تعرف عنه ؟ ..

قال : أعرفه ... كان يرسل العقارب فى المسجد بالبصرة حتى تلسع الناس ، وكان يصب المداد بالليل فى ماء الوضوء بالمساجد حتى يسود وجوه المصلين .

ولما أسرف فى تهتكه ، وعظته المعتزلة ، فلم يتعظ ، فزجروه ، فهجاهم وقذفهم حتى نفى عن البصرة الى الحجاز الى آخر عمره .

ويروى عنه انه لما وقع مع المعتزلة فتوعدوه ومنعوه من دخول المسجد ، هددهم بقوله ، وفيه اصرار على انتسابه كذبا الى بنى بربوع :

أبلغ لديك بنى تميم مألكا
عنى ، وعرج فى بنى بربوع (١)
انى أخ لكمو بدار مضيعة
بوم وغربان عليه وقوع
يا للقبائل من تميم ، مالكم
روبى ، ولحم أخيكمو مقطوع (٢)
واذا تحزبت القبائل صلتمو
بفتى لكل ملمة وقطيع
هبوا له ، فلقد اراه بنصركم
يأوى الى جبل اشم منيع
ان انتمو لم توتروا لأخيكمو (٣)

(١) مألكا : رسالة .
(٢) الروبى : الذين ارهقهم السير فثقل نومهم
(٣) توتروا : تفزعوا وتأخذوا ثأره .

حتّى يبـــاء بوتره المتبـــوع
فخذوا المفــازل بالاكف وايقنــوا
ما عشتمو بمذلة وخضـــــوع
ان كنتمو حــربا على أحســابكم
سمعا ، فقد أسمعت كل سميع

***

وكان مر اللسان ، حتى لقد خشيه أبو العتاهية ، الذى سأله يوما : كيف أنت فى الشعر ؟ ..

فقال ابن مناذر : أقول فى الليـلة عشرة ابيات الى خمسة عشر .

فقال أبو العتاهيــة : أما انا ، فلو شئت ان أقول فى الليلة ألف بيت لقلت .

فحنق ابن مناذر ، وراجع ذاكرته فى أضعف شعر أبى العتاهية ، ثم قال له : أجل والله ، لانك تقول :

ألا يا عتبــة الســاعه
أموت الســاعة الساعه

وتقول :

يا عتـــب مالى ولك
يا ليتـــنى لم أرك

وانا أقول :

ســتظلم بفـداد ويجلـو لنــا الدجى
بمكة ما عشنــــــــا ثلاثة أبحر
اذا وردوا بطحــاء مكة أشـــرقت
بيحيى وبالفضــل بن يحيى وجعفـر
فمــــا خلقت الا لجود أكفهــــم
وأرجلهم ، الا لأعواد منبــــــر

واستطرد يقول لأبى العتاهيــة : ولو أردت مثله ،

لتعذر عليك الدهر ، وانى لا أعود نفسى مثل كلامك الساقط .

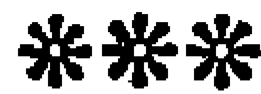
فخجل أبو العتاهية وانصرف .

ومن طرائفه انه التقى بيونس النحوى ، وكان أصل يونس هذا من مكان ضئيل الشأن اسمه « جبل » . فقال له متخابثا ، وكأنه يسأله فى النحو : أينصرف جبل أم لا ؟ فقال يونس : لقد عرفت ما أردت يابن الزانية !

وانصرف . ثم ذهب ابن مناذر فى اليوم التالى فجمع قوما ، وقال لهم ان يونس النحوى يجهل النحو ، فكونوا شهودا .

وذهبوا اليه ، وكرر ابن مناذر سؤاله : هل ينصرف جبل ؟ ..

وعرف يونس ما أراد ، فقال : الجواب ما سمعته منى أمس ! ..



وكان له الى جانب كل هذا شعر حسن ، ولا سيما فى الرثاء .

ومن جميل رثائه لسفيان بن عيينة ، المحدث :

يجنى من الحكمة سفياننا
ما تشتهى الانفس ألوانا
يا واحد الامة فى علمه
لقيت من ذى العرش غفرانا
راحوا بسفيان على عرشه
والعلم ، مكسوين أكفانا

ومات ابن مناذر بمنفاه فى أرض الحجاز سنة ١٩٨هـ



ابودلامة

الم تعلمـــا أن الخليفـــة لزني
بمسجده والقصر ... مالي وللقصر ؟
أصلي به الاولى جميعـــا وعصرها
فويلي من الاولى وويلي مـــن العصر

هو أبو دلامة زند بن الجون .

وهو كوفى أسود ، وكان أبوه عبدا لأحد الصحابة من بنى أسد .

وكان أبو دلامة ماجنا ، مدمن خمر ، فاسد الدين، رديء المذهب ،، مرتكبا للمحارم ، مضيعا للفروض ، مجاهرا بذلك كله . ولـكن الخلفاء والنـــاس كانوا يتجاوزون له عن ذلك للطفه وظرفه .

من ذلك أن أبا جعفـر المنصـور أمر أصحابه بلبس السواد ، وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلهـا ، وأن يعلقوا السيوف فى المناطق ، ويكتبوا على ظهورهم : « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » .

فدخل عليه أبو دلامة فى هـذا الزى ، فقال له أبو جعفر : ما حالك ؟ ..

قال : شر حال ، وجهى فى نصـفى ، وسـيفى فى استى ، وكتاب الله وراء ظهرى ، وقد صبغت بالسواد ثيابى ...

فضحك منه وأعفاه وحده من هذا اللباس ، وسأله الا يكرر ما قال لتوه أمام أحد من الناس .

ومنه انه دخل على أم سلمة المخزومية ، امرأة الخليفة ابى العباس السفاح ، بعد وفاة زوجها ، فاذا هى متفجعة ، فبكى وبكت معه ، وأنشدها قصيدة فى رثائه ، فقالت له : لم أر احدا أصيب به غيرى وغيرك يا أبا دلامة .

فقال : ولا سواء ، يرحمك الله ، لك منه ولد وما ولدت أنا منه .

فضحكت ، ولم تكن ضحكت قبل ذلك ، وقالت : لو حدثت الشيطان لاضحكته .

ودخل أبو دلامة على المهدى يبكى ، فقال له : مالك ؟ قال : ماتت أم دلامة .

فأمر له بثياب وطيب ودنانير ، وخرج . فدخلت أم دلامة على الخيزران ــ زوجة المهدى ــ فأعلمتها ان أبا دلامة قد مات ، فأعطتها مثل ذلك . فلما التقى المهدى والخيزران ، عرفا حيلتهما فجعلا يضحكان .

وكانت له دالة على المنصور ، والمنصور لا يرده . دخل عليه يوما فأنشده :

رأيتك فى المنام كسوت جلدى
ثيابا جمة وقضيت دينى
فكان بنفسجى الخز فيها
وساج ناعم فأتم زينى (١)
فصدق يا فدتك النفس رؤيا
رأتها فى المنام كذاك عينى

فامر المنصور له بذلك ، وقال له : لا تعد أن تحلم على ثانية ، فأجعل حلمك أضغاثا ولا احققه .

---

(١) الساج : الطيلسان .

ثم خرج من عنده وشرب فى بعض الحانات فسكر ، وانصرف وهو يميل ، فلقيه العسس فأخذوه ، وقيل له : من أنت وما دينك ؟

قال :

دينى على دين بنى العبـــاس
ما ختم الطـين على القرطـاس
انى اصـطحبت أربعـا بالـكاس
فقــــد أدار شربهــا براسى
فهل بما قلت لـكم من باس ؟

فأخذوه وخرقوا ثيابه وساجه ، وســاقوه الى أبى جعفر الذى أمر بحبسه فى بيت الدجاج .

فلما أفاق ، ورأى ثيابه على هــذه الحال ، وهو فى بيت الدجاج ، سأل من الذى أمر بهذا ؟ .. فقيــل له أمير المؤمنين ، فـكتب له هذه الابيات :

أمير المؤمنــــين فدتك نفسى
علام حبستنى وخرقت ســاجى ؟
أمن صـــفراء صـــافيــة المزاج
كأن شـــــعاعها لهب السراج
وقــد طبخت بنـــار الله حتى
لقد صــارت من النطف النضاج
تهش لهــا القلوب وتشــتهيهــا
اذا برزت ترقرق فى الزجــاج ؟
أقاد الى الســـجون بغير جرم
كأنى بعض عمـــــال الخراج
ولو معهم حبست لـكان سهلا
ولـكنى حبســـت مع الدجــاج
وقـــد كانت تخبرنى ذنوبى
بأنى من عقـــابك غير ناج

على اني وان لاقيت شـــــــرا
لحيرك بعـد ذاك الشـــر راج

فدعا به ، وسأله : أين حبست يا أبا دلامة ؟ .. قال : مع الدجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ .. قال : أقوقى معهن حتى أصبحت .

فضحك المنصور ، وخلى سبيله .

وكان ذكيا فى طلب الصـلات من الخلفاء ، تدل على ذلك حكايته مع أحد الخلفـاء ، اذ مثـل بين يديه ، فسأله الخليفة : سلنى حاجتك .

قال : كلب أتصيد به . قال : اعطوه اياه .

قال : ودابة أتصيد عليها . قال : أعطوه .

قال : وغلام يصـــيد بالـكلب ويقوده ، قال : أعطوه .

قال : وجارية تصلح لنـا الصيـد وتطعمنا منه . قال : أعطوه .

قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك ، فلا بد لهم من دار يسكنونها . قال : أعطوه دارا تجمعهم .

قال : فان لم تكن ضـيعة فمن أين يعيشون ؟ .. قال : قد أعطيتك مائة جريب (١) عامرة ومائة جريب غامرة (٢) .

قال : قد أقطعتـك أنا يا أمير المؤمنين خمســمائة الف جريب غامرة من فيافى بنى أسد .

فضحك الخليفة ، وقال : اجعلوها كلها عامرة !

ويردد الجاحظ هذه الحكاية ، ويقول : انظر الى

---

(١) الجريب شيء كالفدان .
(٢) غامرة : لا نبات فيها .

حذقه بالمسألة ولطفه فيها ، ابتدأ بالكلب فسهل القصة به ، وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة ، حتى نال ما لو سأله بديهة لما وصل اليه .

***

وقد أحسن أبو دلامة استغلاله لهذه الخلة فى الخلاص من أداء فروض الدين ، دون أن يقام عليه الحد .

فقد ذهب أحد الشانئين عليه الى أبى جعفر، وقال له أن أبا دلامة عاكف على الخمر ، لا يحضر صلاة ولا يدخل مسجدا ، وقد أفسد فتيان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لكان لك عند الله أجرك فيه وفى فتيان عسكرك بقطعه عنهم .

فلما دخل أبو دلامة على أبى جعفر ، قال هذا له : يا ابن اللخناء ، ما هذا المجون الذى يبلغنى عنك ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا والمجون وقد شارفت باب قبرى ؟

قال : دعنى من استكانتك وتضرعك ، واياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر فى مسجدى ، فلئن فاتتاك لاحسنن أدبك ولأطيلن حبسك .

فوقع فى الحظر ، ولزم المسجد أياما . ثم كتب قصته ودفعها الى المهدى فأوصلها الى أبيه المنصور . وكان فيها :

ألم تعلما ان الخليفة لزنى
بمسجده والقصر . . . مالى وللقصر؟ (١)
أصلى به الاولى جميعا وعصرها
فويلى من الاولى وويلى من العصر

---

(١) لزه : الزمه .

أصليهما بالكره في غير مسجدي ،
فما لي بالاولى ولا العصر من أجر
لقد كان في قومي مساجد جمه
سواه ولكن كان قدر على قدر
يكلفني من بعد ما شبت خطة
يحط بها عني الثقيل من الوزر
وما ضره ، والله يغفر ذنبه
لو ان ذنوب العالمين على ظهري

فلما قرأ المنصور هذه الابيات ضحك ، وأعفاه من الحضور معه ، وأحلفه أن يصلى الصلاة في مسجد قبيلته .

***

ومن ذلك أيضا ان موسى بن داود اعتزم الحج ، وقال لأبي دلامة : احجج معي ولك عشرة آلاف درهم .

فقال : هاتها .

فدفعت اليه ، فأخذها وهرب الى السواد ، فجعل ينفقها هناك في شرب الخمر . فطلبه موسى فلم يعثر عليه ، وخشي فوت الحج ، فخرج بدونه .

فلما شارف القادسية ، اذ هو بأبي دلامة خارجا من قرية الى أخرى وهو سكران . فأمر بأخذه وتقييده وطرحه في محمل بين يديه . ففعلوا به ذلك . فلما سار غير بعيد ، أقبل على موسى وناداه :

يا أيها الناس قولوا أجمعون معا
صلى الاله على موسى بن داود
كأن ديباجتي خديه من ذهب
اذا بدا لك في أثوابه السود
اني أعوذ بداود وأعظمه

من أن أكلف حجا يابن داود
خبرت ان طريق الحج معطشة
من الشراب ، وما شربى بتصريد (١)
والله ما فى من أجر فتطلبه
ولا البناء على دينى بمحمود !

فقال موسى : « ألقوه لعنه الله ، عن المحمل ، ودعوه ينصرف » . فألقوا به ، وعاد الى حاناته حتى نفدت العشرة آلاف درهم .

وألطف ما نختتم به الحديث عن أبى دلامة ، تلك الحكاية التى تدل على براعته فى الهجاء ، حين هجا زوجته أم دلامة ، لغرض فى نفسه ، وكيف كانت أم دلامة هى الاخرى أذكى منه فى انتقامها .

حجت الخيزران ، زوجة المهدى . فلما حرجت ، صاح بها أبو دلامة : أيتها السيدة ، انى شيخ كبير ، وأجرك فى عظيم .

فسألته عما يريد ، فقال : تهبين لى جارية من جواريك تؤنسنى ، وترفق بى ، وتريحنى من عجوز عندى قد أكلت رفدى ، وأطالت كدى ، وقد عاف جلدى جلدها ، وتمنيت بعدها ، وتشوقت فقدها .

فضحكت الخيزران وقالت : سوف آمر لك بما سألت .

فلما عادت من الحج ذكرها بوعدها ، وخرج معها الى بغداد ، وأقام حتى مل ، فى انتظار الوعد .

ثم دخل على أم عبيدة ، حاضنة موسى وهارون ، فدفع اليها رقعة قد كتبها الى الخيزران ، قال فيها :

---

(١) التصريد : القطع .

أبلغي سيدتي بالله يا أم عبيده
انها ارشدها الله ، وان كانت رشيده
وعدتني قبل أن تخرج للحج وليده
فتأنيت وأرسلت بعشرين قصيده
كلما أخلقن اخلقت لها أخرى جديده
ليس في بيتي لتمهيد فراشي من قعيده
غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حوت طرى في عصيده

وقرأت الخيزران القصيدة وضحكت ، وبعثت اليه بواحدة من جواريها ، وعليها خير زينتها .

ولم يكن أبو دلامة في البيت حين وصلت الجارية .

ورأتها أم دلامة ، فجعلت تبكي ، فدخل عليها ابنها دلامة ، فراعه بكاء أمه ، فسألها عن أمرها ؟ فقالت له : ان أردت أن تبرني يوما من الدهر فاليوم .

فقال لها : قولي ما شئت ، فاني أفعله .

قالت : تدخل على الجارية فتعلمها انك مالكها ، فتحرم على أبيك ، والا ، ذهبت بعقله فجفاني وجفاك .

وفعل الفتى ما أرادت أمه .

وجاء أبو دلامة ، وكان قد علم بمجيء الجارية ، فسأل عنها ، فأشارت أم دلامة الى مكانها ، فدخل عليها ، فارتاعت اذ هو شيخ محطم ذاهب . فمد يده اليها وهم بها يقبلها ، ففزعت منه قائلة : ويلك ، تنح والا لطمتك لطمة دققت منها أنفك .

قال : أبهذا أوصتك السيدة ؟

قالت : انها بعثت بها الى فتى من حاله وهيئته

كيت وكيت ، وذكرت له ما كان بينهـا وبين الفتى ، فخرج اليه فلطمه وعنفه وحلف الا يفارقه الا عند الخليفة

وأمسك بخناقه ، وجره حتى وقف به على باب المهدى ، فلما دخل به ، سأله المهدى عن أمره فقال : لقد عمل بى هذا ابن الخبيثة ما لم يعمل ولد بأبيه ، ولا ترضينى الا أن تقتله .

فضحك المهدى حتى استلقى . فقال أبو دلامة محنقا : أأعجبك فعله فتضحك منه ؟

قال دلامة : قد سمعت حجته يا أمير المؤمنين فاسمع حجتى . هذا الشيخ أصفق الناس وجها ، يأتى أمى منذ أربعين سنة ، وما غضبت . وآتى جاريته مرة واحدة ، فغضب وصنع بى ما ترى .

فضحك المهدى أكثر من ضحكه الاول ، ثم قال : دعها له يا أبا دلامة ، وأنا أعطيك خيرا منها .

ووهبه جارية أخرى خيرا من الاولى .



ابو العيناء

ان يأخذ الله من عيني نورهمـــــا
ففي لساني وسمعي منهمـــــا نور

هو محمد بن القاسم ، أبو عبد الله ، المعروف بابى العينـاء ، الاخبـارى الاديب الشاعر . ولد بالاهواز سنة ١٩١ هـ . وكان أعمى .

قيل ان جده الاكبر كان يلقى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فيسىء الخطاب اليه ، فدعا عليه بالعمى له ولولده من بعده . فكل من عمى من ولد أبى العيناء فهو صحيح النسب فيهم .

وناقش المبرد هذه الرواية ، وقال : ان أبا العيناء عمى بعد أن جاوز الاربعين وخرج من البصرة .

وكان أبو العينـاء من أظرف أهل الارض وأوفرهم ذكاء وسرعة جواب ، وكان يعرف ذلك فى نفسه ويقول :

ان يأخذ الله من عينى نورهما
ففى لسانى وسمعى منهما نور
قلب ذكى وعقل غير ذى خطل
وفى فمى صارم كالسيف مأثور

ويقال انه أصابه حول فى عينيـه قبـل أن يعمى ، فسأله أحدهم : أيهما أصلح : الحول أم العمى ؟ فقال : هما السقم الذى يجر الى الموت ، أو هما الزنا وتليه القوادة !

ومن جميل غزله وهو أحول ، قوله :

حمـــدت الهى اذ بلانى بحبها

عليَّ حول يغني عن النظر الشذر
نظرت اليهـــا والرقيب يظنني
نظرت اليـــه فاسترحت من العـــذر

***

وله لطائف كثيرة تدل على ظرفه ، منها :

● انه شكا الى عبيد الله بن سليمان تأخر أرزاقه ، فقال له : ألم نكن كتبنا لك الى ابن المدبر ، فماذا فعل فى أمرك ؟ . .

قال : جرنى على شوك المطل ، وحرمنى ثمرة الوعد.

قال : أنت اخترته !

قال : وما على ، وقد اختار موسى سبعين رجـلا من قومه ، فما كان منهم رشيد ، فأخذتهم الرجفة . واختار النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى سرح كاتبا ، فلحق بالمشركين مرتدا . واختـــار على بن أبى طالب أبا موسى الاشعرى حكما ، فحكم عليه لا له ؟ . .

● واعترف بأن ابنا صغيرا لعبد الرحمن بن خاقان اخجله ذات مرة وغلبه . اذ رآه أبو العيناء ذكيا لماحا ، فقال له : وددت لو أن لى ابنا مثلك .

قال الطفل : هذا بيدك .

قال أبو العيناء : كيف ؟ . .

قال : تحمل أبى الى امرأتك فتلد لك ابنا مثلى .

● وكانت بينه وبين محمد بن مكرم مداعبات كثيرة : أراد ابن مكرم مرة أن يعـــرض بالبصريين ، لان أبا العيناء من البصرة ، فقال له : كم عـــدد البـــخلاء فى البصرة ؟ فأجابه بقوله : كعدد أهل البغاء فى بغداد .

وقيل له : ما تقول فى محمد بن مكرم والعباس بن رستم ، فقال : هما الخمر والميسر ، اثمهما أكبر من نفعهما !

● وقال له ابن مكرم يوما : أحسبك لاتصوم رمضان.

فأجابه بقوله : ويلك ، وهل تدعنى امرأتك أصوم ؟ ..

● وبات ليلة عند ابن مكرم ، فجعل هذا يفسو ، فقام أبو العيناء فصعد السرير ، فارتفع اليه فساؤه . فصعد الى السطح ، فبلغته رائحته ، فقال : يا ابن الفاعلة ، ما فساؤك الا دعوة مظلوم .

● ومر أبو العيناء يوما بدار عدو له ، فسأل عن حاله ، فقيل له : كما تحب . قال : فما لى لا أسمع بكاء ولا عويلا ؟ ..

● وسرق لص حماره . فقالوا له : كيف سرق حمارك يا أبا العيناء ؟ .. قال : لم اكن مع اللص فأخبركم كيف سرق !

***

وكان أبو العيناء تاركا للصلاة والصيام . بل انه ليشهد على نفسه انه يستحل أن يمد يده الى ما ليس له ..

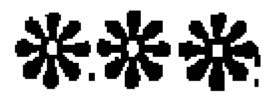
يقول : مررت يوما فى درب ببلدة سر من رأى ، فقال لى غلام : يا مولاى ، فى الدرب حمل سمين ، والدرب خال ، فأمرته أن يأخذه ، وغطيته بطيلسانى، وسرت به الى منزلى . فلما كان الغد ، جاءتنى رقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب مكتوب فيها : « جعلت فداك . ضاع منا بالامس حمل ، فأخبرنى صبيان دربنا أنك أنت أخذته ، فهل تأمر برده متفضلا ؟ » . فكتبت اليه أقول : « سبحان الله ! ما أعجب هذا الامر ! مشايخ دربنا يزعمون أنك تدر بيتك للبغاء ، وأنا أكذبهم ولا أصدقهم . وتصدق أنت صبيان دربك انى آخذ الحمل ؟ » ...

قال أبو العيناء : فسكت الرجل ، ولم يعد الى طلب الحمل .

● ومر به سائل ، فدعاه أبو العيناء للطعام ، فأكل الرجل كل شيء ، فقال له : يا هذا ... دعوتك للطعام رحمة بك ، فدع لى شيئا آكله رحمة بى ..

● ودعاه قوم يوما الى طعام ، وجاءوا بقدر تحسسها أبو العيناء ، فلم يجد بها لحما ، بل كلها عظام ، فقال : ويحكم ... أهذه قدر أم قبر ؟

● وكان يتخذ خادمين أسودين . فسئل لم اتخذهما أسودين ؟ .. فقال : اما أسودان ، فلئلا اتهم بهما ، واما خادمان اثنان ، فلئلا يتهما بى !



وقصة خروجه من البصرة من أطرف قصص حياته. ذلك انه رأى فى السوق غلاما يباع بثلاثين دينارا ، وهو يساوى فى هيئته ثلثمائة ، فاشتراه .

وكان أبو العيناء يبنى بيتا ، فأعطى الغلام عشرين دينارا ينفقها على العمال . فأدى لهم عشرة ، واشترى بالعشرة الاخرى لباسا لنفسه . فلما سأله فى ذلك قال : ان أرباب المروءات لا يعتبون على غلمانهم هذا .

قال أبو العيناء فى نفسه : ترى هل اشتريت الاصمعى ولم أدر ؟ ..

ثم أراد أبو العيناء أن يتزوج فى السر امرأة دون أن تعلم ابنة عمه ، زوجته الاولى ، فاستودع الغلام سره ، واعطاه دينارا لحفاظ السر ، وقال له : اشتر به سمكا وكله .

فأنفق الغلام الدينار ولم يشتر السمك ، فسأله أبو العيناء ، فقال الغلام : رأيت بقراط يذم السمك .

قال أبو العيناء فى سره : أتراني اشتريت جالينوس ولم أدر ؟ ..

واحب أن يؤدبه ، فضربه عشر مقارع ، فقام الغلام

الى المقرعة ، فضرب أبا العيناء سبعا ، وقال له : يا مولاي ، الادب ثلاث فقط ، ولهذا ضربتك سبعا قصاصا . فرماه أبو العيناء فشج رأسه ، فذهب الغلام الى زوجة أبي العيناء الاولى ، وروى لها قصة زواجه بالثانية ، فمنعته من دخول البيت ، حتى طلق الثانية.

وكره الغلام لا يكلمه ، واعتقه ، ولكن الغلام لم يبرح البيت . ثم أراد الحج ذات يوم ، فزوده بما يلزمه ، فسار وعاد بعد عشرين يوما ، وقال ان الطريق قد قطع .

ثم اراد أن يخرج للجهاد ، فجهزه أبو العيناء ، فما أن أدار ظهره ، حتى خشي أبو العيناء أن يعود ، فباع بيته ونزح عن البصرة .

***

كان أبو العيناء هجاء لم يصل الى حد الابتذال .

كان يكره الوزير أحمد بن الخصيب ، وكان هذا كثير الحماقة غبيا جاهلا ، اذا ناقش وغلب على امره ركل مناقشه .

قال أبو العيناء فيه ، يشكوه للخليفة :

قل للخليفة يابن عم محمد
أشكل وزيرك انه ركال
قد أحجم المتظلمون مخافة
منه وقالوا : ما نروم محال
ما دام مطلقة علينا رجله
أو دام للنزق الجهول مقال
قد نال من اعراضنا بلسانه
ولرجله بين الصدور مجال
امنعه من ركل الرجال وان ترد
مالا فعند وزيرك الاموال

وقال يهجو أسد بن جوهر :

تعس الزمان لقد اتى بعجاب
ومحا رسوم الظرف والآداب
وافى بكتاب لو انبسطت يدى
فيهم رددتهمو الى الكتاب
جيل من الانعام الا انهم
من بينها خلقوا بلا اذناب !

***

وفى قصائده كثير من الابيات المفردة التى تسير مسار الامثال ، كقوله :

ألم تعلمى يا عمرك الله اننى
كريم على حين الكرام قليل
اذا كنت فى القوم الطوال فضلتهم
بطولى لهم حتى يقال طويل
ولا خير فى حسن الجسوم وطولها
اذا لم يزن طول الجسوم عقول
ولم أر كالمعروف ، أما مذاقه
فحلو ، وأما وجهه فجميل

***

وقد توفى أبو العيناء فى بغداد سنة ٢٨٣ هـ ، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة .



ابو نواس

الم ترني ابحـــت اللهـــو نفسي
ودينى ، واعتكفــت على المعاصي ؟
كاني لا اعـــود الى معـــاد
ولا أخشى هنـــالك من قصـــاص

أوشــك النهــار أو أكثره أن يمضي ، وابو نواس واصحابه من أهل المجون في رحاب الجارية الغانيــة « عنان » يشربون ويسمرون ويضــحكون ، حتى اذا قاربت الشمس المغيب ، لم يشاءوا أن يجعلوا الليــل لباسا ، بل راحوا يفكرون أين يمضون ليلتهم عاكفين على ما هم فيه من أنس وشراب وفسوق ، وكل يدعو الى بيته .

فأقسمت « عنان » عليهم الا تكون الدعوة الا شعرا ، والا ، فما لهم الا أن ينزلوا على ما تقول ..

وهكذا بدأ الحوار ...

قال « الرقاشي » :

عـــذراء ذات احمـــرار
انى بهــــــا لا أحاشي
قوموا نـــــداماى رووا
مشـــاشــكم من مشـــاشي
وناطحوني كؤوســـــــا
نطـــاح صـــلب الــكباش
وان نكلت ، فحـــــل
لـــــكم دمى ورياشي

وقال ابو نواس :

لا ، بل الى ثقاتى
قوموا بنا بحياتى
قوموا نلذ جميعا
بقول هاك وهات
فان أردتم فتاة
أتيتكم بفتاتى
وان أردتم غلاما
صادفتمونى مواتى
فبادروه مجونا
فى وقت كل صلاة

وقال الحسين الخليع :

أنا الخليع فقوموا
الى شراب الخليع
الى شراب لذيذ
وأكل جدى رضيع
ونيل أحوى رخيم
بالخندريس صريع
فى روضة جادها صو
ن غاديات الربيع
قوموا ننال جميعا
منال ملك رفيع

وقال الوراق :

عوجوا الى بيت عمرو
الى سماع وخمر
وساقيات علينا
تطاع فى كل أمر
هذا ، وليس عليكم
أولى ولا وقت عصر

وقال محكم بن رزين :

قــوموا الى دار لهــو
وظــل بيت دفـــين
فيه من الورد والنر
جس واليـــاســـمين
وريح مســـك زكى
وجيـــــد المرزجون
قوموا فصــيروا جميعا
الى الفــتى ابن رزين

وقال الحسين الخياط :

قضت عنــان علينـــا
بأن نزور حسينـــــا
وأن تقـــروا لـــديه
بالقصف واللهو عينــا
فما رأينــا كظرف الـ
ـحسين فيمــا رأينــا
قــــد قرب الله منه
زينـــا وباعد شينـــا
قوموا وقولوا أجـــزنا
ما قـــد قضيت علينــا

وقالت عنان :

مهــلا فديتـــك مهــلا
عنـــان أحرى وأولى
بأن تنــــــالوا لديها
أشـــهى نعيم وأحــلى
فان عنـــــدى حراما
من الشــــراب وحلا
لا تطمعوا فى ســوائى
من البـــــرية كلا

يا سادتى خبرونى
أجار حكمى أم لا ؟
فقالوا جميعا : أجزنا حكمك !
وقضوا الليلة عندها حتى الصباح ... وحتى الصبوح !

***

وقد أحببت أن أبدأ الحديث عن شيخ العابثين ، أبى نواس ، بهذه الصورة التى قد تكون حدثا فى حياة شاعر من شعراء عصرنا اذا وقعت له — وقلما تقع — ولكنها كانت صورة من الصور المألوفة كل ليلة فى حياة شاعرنا ، أبى نواس .

واسمه الحسن بن هانىء

وكان أبوه هانىء هذا جنديا ، ثم اعتزل واشتغل برعى الغنم وحياكة الملابس ، تعاونه زوجه جلبان ، وهى امرأة حلوة من الاهواز .

وقد شهد أبوه سقوط دولة بنى أمية ، وقيام دولة بنى العباس . وقد فرحت أمه جلبان بهذا الحدث ، لانها فارسية ، وقد أسلم العباسيون زمام الامور لأهل فارس .

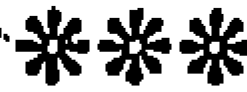
واعتزل أبوه الجندية ، واشتغل بالحياكة ورعى الاغنام ، واستقرت الأسرة فى البصرة .

وولد أبو نواس سنة ١٤١ هـ فى عهد أبى جعفر المنصور ، ثانى خلفاء بنى العباس .

ومات أبوه ، واشتغلت أمه ببعض التجارة ، وحامت حولها الشبهات انها كانت تجعل بيتها وكرا للملذات . على انها أحبت وتزوجت فى النهاية ، وأهملت شأن ابنها ، واسمه عند مولده الحسن ، الذى التحق بالكتاب ، ليحفظ القرآن ويحسن القراءة والكتابة ، ثم عمل عند رجل من العطارين ، ولكنه كان يكثر من

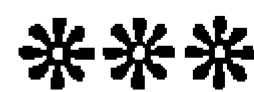
التردد على مجلس العلماء والفقهاء ، ويقرمز في الشعر

وكان الفتى جميل الطلعة ، رقيق اللون ، أبيض الجسم ناعمه ، منسدل الذوائب ، معتدل القامة ، حسن العينين والسن ، فصيحا منطيقا مليحا ، ألثغ بالراء يجعلها غينا ، وفيه حلاوة شمائل ...



وكان بدء التغير في مجرى حياته حينما ذهب مع العطار الذي يعمل عنده الى الاهواز ، لعرض بضاعته على أبي بجير الاسدي ، عامل الخليفة على الاهواز . وكان عنده شاعر جهير من أبناء عمومته ، وهو والبة بن الحباب ، وكان هذا مشهورا بزندقته ومجونه وانحرافه واقباله على الخمر والغلمان ، فما أن رأى الغلام الحسن ، حتى تعلقه قلبه ، وكان بينهما حديث عاجل شد كلا منهما الى صاحبه . فلما آن لوالبة أن يعود الى الكوفة ، حيث يقيم ، أخذ معه الحسن ، وتعاشرا عشرة سيئة ، مع صحبة سوء من خلعاء الكوفة وماجنيها ، كلهم متهم في خلقه ودينه .

وهكذا قدر للحسن ، في أول نشأته ، أن ينخرط في هذه المدرسة من مدارس الشيطان ، وأن يكون لها عليه فضل تفتق برعمه ، وتعويده الارتجال والسبق في المطارحات والمنادمات .



كان مقدم الحسن على الكوفة سنة ١٥٦ هـ ، فهو بعد صبي في الخامسة عشرة . ولكنه كان ، فضلا عن شاعريته ، وحسن روايته ، مولعا بضرب العود ، وكانت الكوفة حافلة بالقيان ، ومنهن فتاة غريرة هام بها الحسن ونظم فيها أول ما نعرف له من الغزل ، على حد رواية ابن خلكان ، قال فيها :

جـــامل الهوى تعب
يســـتخفه الطـــرب
ان بكى يحـــق له
ليـــس ما به لعب
تضـــحكين لاهيـــة
والمحب ينتحـــــب
تعجبين من ســـقمى
صـــحتى هى العجب
كلمـــا انتفى ســـبب
منـــك جـاءنى ســبب

وهكذا أحرقه الشوق صبيـا ، ولا سيما بعـد أن اختفت هذه القينة الصغيرة فى زحام الحياة كما تغيب مثيلاتها ، فهـام بغيرها وغيرها ، وانخرط فى سـلك اللاهين بالحب .

ومما يرويه أستاذه والبة ، قوله : كنت نائما ذات ليلة ، والحسن الى جانبى نائم ، اذ اتانى آت فى منامى، فقال الهاتف : أتدري من هذا النائم الى جانبك ؟

قلت : لا ...

قال : هذا أشعر منك ، وأشعر من الجن والانس. أما والله لأفتنـن بشـعره الثقلـين ، ولأغرين به أهل المشرق والمغرب .

قال والبة : فعلمت انه ابليس ، فقلت له : ماعندك؟

قال : عصيت ربى فى سجدة فأهلـكنى ، ولو امرنى أن أسجد لهذا الف سجدة لسجدت .

***

وذهب الحسن بعد الـكوفة الى البادية ، فأقام فيها عاما تفتحت فيه روحه وصلحت صحته واستقام لسانه ثم عاد الى البصرة ، فاستغرب القوم عودته ، وسألوه :

أرغبت عن والبة ، أم مللت الكوفة ؟ ..

فقال : ان الكوفة لأجدى وأطيب من أن تمل ، ووالبة ممن لا يرغب عنهم ، ولكنى نزعت الى الاوطان واشتقت الى الاخوان .

وراح بالبصرة يتقلب على مجالس العلم والرواية واللغة ــ ولا تفوته حلقة درس ، وكان أستاذه الثانى ، بعد والبة ، هو خلف الاحمر ، الذى دربه على جودة السبك وحسن النقد ، وهو الذى اختار له اسم ابى نواس .

وكان أبو نواس شعوبيا ، من أثر امه ، فكان لايفتأ يذكر الفرس ومجدهم ، ويتغنى بأعيادهم ومواسمهم ودنان خمورهم ، ويسخر من العرب لتفاخرهم بالانساب ، قائلا :

عاج الشقى على رسم يسائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد
لا در درك ، قل لى من بنو أسد ؟
ومن تميم ؟ ومن قيس ولفهما
ليس الاعاريب عند الله من أحد !

واعانه على الزندقة ، ان الشكاك والدهريين ومروجي التعاليم اليهودية والنصرانية والمجوسية والثنوية والمانوية كانوا لا ينفكون يطوفون بالعواصم العربية ، يغرون الناشئة بالترخص فى الدين ، ويزينون لهم الزندقة والالحاد ، ولولا ان نفر لهم نفر من المتكلمين والمعتزلة لضاعت صولة الدين .

كل هذا كان له اثره فى أبى نواس ، حتى قال ، وكأنما يتخير مذهبه فى الدين :

يا ناظراً فى الدين ما الامر ؟

لا قــدر صــح ولا جبــر
ما صح عندى من جميــع الذى
يذكر الا الموت والقبــر

وهان عليه بعد ذلك أن يرتكب كل معصية ، ما دام قد تحرر من وازع الدين ، مما يلخصــه لك فى بيتين اثنين :

ألم ترنى أبحت اللهــو نفسى
ودينى ، واعتكفت على المعاصى
كأنى لا أعــود الى معــاد
ولا أخشى هنــالك من قصــاص

ولقد ألقى به فى سجن الزنادقة للمرة الاولى ، وهو ابن عشرين ، أو دونها ، على ان أكثر الشواهد تدلنا على ان أبا نواس لم يتزندق عن ايمان بالزندقة ، وانما اتخذ الزندقة — كأكثر أهــل عصره — ســبيلا الى التظرف .



واعظم قصة حب فى حياة أبى نواس — بعد أن شب عن الطوق — هى قصة حبه للجارية جنــان ، وكانت لآل عبد الوهاب الثقفى . وهى مقــدودة ، حلوة ، بديعة الحسن ، أديبة ، عاقلة ، تعرف الاخبار وتروى الاشعار ، فقال فيها أجمل شعره ، وصرح باسمها فى بعضه ، كقوله :

لمــــا تكشفت عنى أننى كلف
كشفت أيضا لهم عمن به الـكلف
جيم وجــدت لها نونين ، بينهما
لمن تهجى اسمها أو خطــه ، ألف
يضمه من ثقيف بعض دورهمو
ما بينكم بعد ذا التبيــان مختلف

وراح يتابعها فى روحاتها وغدواتها ، ويخالسها النظر فى كل مناسبة ... حتى لقد مات يوما بعض سادتها ، فذهب يرقب من بعيد ، فلمحها سافرة تبكى وتلطم ، فقال :

يا قمــــرا أبرزه مأتم
يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس
ويلطم الورد بعنــــاب
لا تبك ميتا حل فى حفرة
وابك قتيــلا لك بالبــاب

وقد ذل أبو نواس فى حب جنــان ، الى حد أنها شكته يوما لمولاها ، فشكاه لبعض اخوانه وسبه عندهم، ثم أشفق من لسانه ، وخشى أن يكون موضع هجائه ، فلاينه ، فأجاب أبو نواس على هذه الملاينة بأنه ليس بمن يهجو قوما عندهم جنان :

من سبنى من ثقيف
فاننى لن أسبــه
أبحت عرضى ثقيفــا
ولطم خـدى وضربه
وكيف ينكر هــذا
وفيهمو لى احبـــه
لأوســع بحلمى
عن الحبيب وكلبتـه
ولا أكون كمــن لم
يوسع لمولاه قلبــه
فقــام يدعو عليــه
ويجعل الله حسبــه

وخرجت جنان للحج فى ركاب سيدتها ، فبلغ الوله بأبى نواس أن خرج وراءها ، لعله يحظى منها بلقاء .

وهنــاك ، وقف أمام الـكعبة ، فأحس الزنديق برهبة الموقف ، وجلالة الله ، فراح يبكي كأشـــد المؤمنين ايمانا ، ويلتمس العفو والمغفرة ، فى هــذه الابتهالة المنغمة :

إلهنــا ما أعدلك
مليــك كل من ملك
لبيك قــد لبيت لك
وكل من اهــل لك
لبيــك ان الحمد لك
والملك ، لا شريك لك

***

والليل لــا أن حلك
والســابحات فى الفلك
على مجــارى المنسلك
ما خاب عبـــد أملك
أنت له حيث سـلك
لولاك يــارب هـــلك

***

يا مخطئـا ما اغفـلك
عجـــل وبادر اجـلك
واختـم بخـير عمـلك
لبيــك ان العـز لك
والملك ، لا شريك لك
والحمـد والنعمـة لك

***

هل كان أبو نواس صادقا فى هذه التوبة ؟

ان ما كان من أمره بعد هذا يدلنا على أنه حينما قال تلك الابيات ، انما كان مأخوذا بموقف الرهبة بين يدى الله ، ولكن هذه الرهبة لا تلبث أن تزول حين يرى جنان ، فيتابع خطوها فى كل مكان ، حتى همت بلثم الحجر الاسود ، فزعم هو الآخر انه يهم بلثمه ، فلصق خده بخدها فى زحام الناس ، وقد وصف لنا هذا المشهد فى أبيات جريئة يقول فيها :

وعاشقين التف خداهما
عند التثام الحجر الاسود
فاشتفيا من غير أن يأثما
كأنما كانا على موعد
لولا دفاع الناس اياهما
لما استفاقا آخر المسند
ظللنا ، كلانا ساتر وجهه
مما يلى جانبه باليد
نفعل فى المسجد ما لم يكن
يفعله الابرار فى المسجد

***

وعاد أبو نواس الى البصرة ، فعاد الى صبوته بجنان ، حتى بلغت به الصبوة نهاية اليأس ، فهاجر الى بغداد ، وكانت قد بلغت قمة الحضارة ، وتلونت بلون الترف الفارسى فى عهد المنصور .

وكان شعراء بغداد حتى ذلك الحين لايزالون ينهجون نهج الجاهليين من الوقوف على الرسوم والبكاء على الاطلال ، فجاءهم أبو نواس بالدعوة الى الجديد ، قائلا :

لا جف دمع الذى يبكى على حجر
ولا صفا قلب من يصفو الى وتد

كم بين ناعت خمر فى دساكرها
وبين باك على نؤى ومنتضـــــد

فلمــا جاءت خلافة الرشيد ، وأبو نواس فى ذروة الثلاثين ، راح الشـــاعر الشـــاب يتقرب الى البرامكة ، ويسأل نداهم ، ويذكرهم بنسبه الفارسى، حتى اجزلوا له العطاء ، فكثر ماله ، وحسن حاله .

وما أن وقعت نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ ، حين غدر بهم الرشيد ، حتى أصبحت الكلمة بعد الخليفة لعدو البرامكة ، الفضل بن الربيع ، الذى قرب اليه اهل الادب والعلم ، ومنهم أبو نواس ، الذى مدحه فنال منه كل خير .

***

وقدم ابو نواس الى مصر فى عهــد الخصيب ، عامل العباسيين عليها ، فمدحه بكثير من قصائده ومنها :

أنت الخصيب وهـذه مصر
فتــــدفقا فـكلاكما بحر
لا تقعـدا بى عن مدى أملى
شيئا ، فما لـكما به غدر
ويحق لى اذ صرت بينكما
ألا يحل بســـاحتى الفقر

وقد أكرم الخصيب وفادته ، وأجزل له العطاء ، كما مدح كثيرا من سراة مصر فوصــلوه ، حتى اغتنى ، وقال :

يا ســـــائلى كيف حالى
تنبيكه أشـــــــعارى
بمصـــر صـــرت غنيـــا
عن ســـائر الامصـــار
بها اســـتقام طبـــاعى
وتم خلـــع عـــذارى

وقد تهتك أبو نواس فى أسواق مصر ، وأسرف فى طلب الخمر والغلمـان ، وكان يأخذهم الى بعض أديرة الاقباط لطلب اللذة ، وفى ذلك يقول :

هات من الراح فاسقنى الراحا
أما ترى الديك كيف قد صاحا
من كف قبطـيـة مزنرة
تجعلهـا للصبـوح مفتـاحا
تقول للقوم من مجـانتهـا
بالله لا تحبس الاقـداحا (١)

على ان المقام فى مصر لم يرق لأبى نواس طويلا ، اذ لم تعجبه خمرها ، ولا تحرج أهلها من التهتك ، فشد رحاله عائدا الى بغداد ، ليستأنف حياة اللهو والمجون التى ألفها وتعودها .

وصادفت عودته نوبة تزمت ركبت الرشيد بعـد أن كبرت سـنه ، فحملتـه على الغضب على المـاجنـين والمتهتكين ، حتى لقـد أمر بالقاء أبى نواس فى سجن « المطبق » لجهره بالشراب .

ودخل أبو نواس السجن مستسلما ...

وخرج من السجن بعد ذلك ودخـله عدة مرات : مرة لسكره ، ومرة لانحرافه ، ومرة لزندقته .. الخ .

يقال انه دخـل المسـجد يوما ، والامام يقرأ الآية الـكريمة : « قل يا أيها الـكافرون » ، فوقف أبو نواس يصيح : لبيك !

فهاج الناس وماجوا وضربوه وساروا به الى صاحب الزنادقة الذى أمر بسجنه .

ومما يدل على استهتاره بأمور الدين ، قوله فى غلام

(١) قد يبدو الوزن نابيا فى نهاية البيت ، ولكنه صـحيح اذا جعلت الهمزة فى كلمـة (الاقداحا) همزة وصل .

نصراني مليح :

تمر فاستحييك أن أتكلما
ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما
ويهتز في ثوبيك كل عشية
قضيب من الريحان شب منعما
بحسبك ان الجسم قدشفه الضنى
وان جفوني فيك قد ذرفت دما
اليس عظيما عند كل موحد
غزال مسيحي يعذب مسلما
ولولا دخول النار بعد بصيرة
عبدت مكان الله عيسى بن مريما

وقد روى صاحب الشرطة انه لما حبس ابو نواس ، كان اكثر من يزوره في حبسه من المرد والشبان والخمارين ، وأصحاب الريبة . وأضاف صاحب الشرطة انه عرف منهم وقتئذ من لم يكن يعرف ، فجعل عليهم الضرائب .

فلما أطلق سراح أبي نواس ، فقد صاحب الشرطة اكثر دخله منهم .

على ان هذا الشاعر الماجن الذى قضى جل حياته في العبث والفسوق والزندقة ، قد خلف لنا من نتاج أويقات زهده — وهي قليلة — ما لم يتركه أعمق المتصوفين ، كقوله :

حتى متى يا نفس تغـ
ـترين بالامل الكذوب
يا نفس توبى قبل أن
لا تستطيعى أن تتوبى
واستغفرى لذنوبك الر
حمن غفار الذنوب

وكقوله :

يا نواسي توقـــــر
وتجمـــل وتصـــبر
ســاءك الدهر بشيء
ربما ســـرك أكثر
يا كبـــير الذنب عفو
الله من ذنبـك أكبر
أكبر الاشياء من أصغـ
ـر عفو الله أصـغر
ليس للانســـان الا
ما قضى الله ودبـــر

***

وكقوله :

أيها الغـافل المقيـم على السهـ
ـو ولا عذر فى المقـام لسـاهى
ما بأعمـالنـا نطيـق خلاصــا
يوم تبدو السماء فوق الجبـاه
غير انى على الاســـاءة والتفـ
ـريط راج لحســن عفـو الاله



ابو الهيثم

عش ، فحبيـــــك سريعـــــا قاتلي
والهوى ان لم تصلني واصـــــلي
وبكي العـــــاذل من رحمتـــــه
فبكائي لبـــــكاء العـــــاذل

هو خالد بن زيد ، واصله من خراسـان ، وسمى أبا الهيثم ، وقد عاش ببغداد ، ومات سنة ٢٦٩ هـ . وقد اشتهر فى زمانه لرقة شعره ، وكان من كتاب الجيش ، ثم تولى العمل ببعض الثغور .

وقد أصابته فى فترة من حيـاته لوثة ووسواس ، اختلفت فيها الاسباب ...

فقيل انه اذ كان ببعض الموانيء ، سمع فى الطريق مغنية تغنى بصوت شجى :

من كان ذا شجن بالشام يطلبه
ففى سوى الشام أمسى الاهل والشجن

فبكى أبو الهيثم حتى سقط مغشيـا عليه ، فأفاق مختلطا ، ووسوس !

وقيل انه كان يهوى جارية لبعض اغنياء بغداد وقد نظم فيها شعرا كثيرا ، من أرقه قوله :

عش فحبيك سريعـا قاتلى
والهوى ان لم تصلنى واصلى
ظفر الشـوق بقلب دنف
فيك والسقم بجسم ناحل
فهمـا بعـد اكتئاب وضنى

تركانى كالقضـــيب الذابل
وبكى العــاذل من رحمتــه
فبــــكائى لبــــكاء العـــاذل

فلما لم يقدر عليها ، اختلط ، وغلبت عليه السوداء ، وهى الداء المعروف علميا باسم الميلاخوليا ، اى المزاج السوداوى الذى يخيم الحزن على صاحبه .

وقيل انه كان مغرما بالغلمـــــان ، ينفق عليهم كل ما يكسبه . فأحب غلاما يقال له عبد الله ، وكان ابو تمام الطــائى يهواه . ومن قول أبى الهيثم فى هــذا الغلام :

قضيب بان جنــــاه ورد
تحمله وجنـــة وخـــــد
لم أثن طـــرفى اليــه الا
مات عزاء وعاش وجـــد
ملك طــوع النفـوس حتى
علمــه الزهو حـين يبـدو
واجتمــع الصـد فيه حتى
ليـس لخلق ســواه صـد

وسمع ابو تمام هذه الابيات ، فقال :

شـعرك هــذا كله مفرط
فى برده يا خــالد البــارد

وعلم ابو تمام هذا البيت للصبيان ، فكانوا يجرون وراء أبى الهيثم فى الطـرقات ويرددون : « يا خــالد البارد » حتى وسوس !

وهكذا وقعت المهاجاة بينه وبين ابى تمام من أجــل هذا الغلام ، فقال فيه يتهمه بالابنة :

يا معشر المرد انى ناصح لــكمو
والمرء فى القول بين الصدق والكذب

لا ينكحن حبيبا (١) منكمو أحد
فان وجعاءه أعدى من الجرب
لا تأمنوا أن تعودوا بعد ثالثة
فتركبوا عمدا ليست من الخشب

ويبدو ان قصة الوسوسة ، من أجل هذا الغلام ، طالت به سنين عمره ، حتى كان فيه أكثر شعره وأطيبه ومنه قوله يعاتبه :

يا تارك الجسم بلا قلب
ان كنت اهواك فما ذنبى
يا مفردا بالحسن أفردتنى
منك بطول الشوق والحب
ان تك عينى أبصرت فتنة
فهل على قلبى من عتب
فحسبك الله لما بى كما
انك فى فعلك بى حسبى

وانه ليحبه حتى ليشفق عليه من أن يصيبه من السقم ما أصابه . ويدعو الله له ، يقول :

كبد شفها غليل التصابى
بين عتب وجفوة وعذاب
كل يوم تدمى بجرح من الشو
ق ونوع مجدد من عتاب
ياسقيم الجفون أسقمت جسمى
فاشفنى كيف شئت ، لابك مابى
ان أكن مذنبا فكن حسن العفـ
ـو أو اجعل سوى الصدود عقابى

وزادت الجنة بأبى الهيثم ، حتى لقد حدثنا ابن

(١) حبيب ، هو اسم ابى تمام .

ابى سلالة الشاعر قال[1]: دخلت بغداد بعض السنين ، فبينا أنا مار فى طريق ، اذا أنا برجل عليه مبطنة وعلى رأسه قلنسوة حمراء ، وهو راكب على قصبة ، والصبيان خلفه يصيحون : « يا خالد البارد ... يا خالد البارد » ... فلم أزل أطردهم عنه حتى تفرقوا ، وأدخلته بستانا هناك ، فجلس واستراح ، واشتريت له رطبا فأكل ،واستنشدته فأنشدنى :

قد حاز قلبى فصار يملكه
فكيف أسلو وكيف أتركه
رطيب جسم كالماء تحسبه
يخطر فى القلب منه مسلكه
يكاد يجرى من القميص من النعـ
ـمة لولا القميص يمسكه

***

ومن تلك الصورة التى يرسمها لنا ابن سلالة ... من ذلك اللباس المضحك كالبهلوانات ، ومن ركوب القصبة ، ندرك مدى ما جنى عليه حب الغلام ، وبيت أبى تمام ، حتى مات بها فى بغداد سنة ٢٦٩ هـ .



الاقيشر

رايتك أعمي العين والقلب ، ممسكا
وما خير أعمي العين والقلب يبخل
فلو صم ، تمت نعمة الله كلها
عليه ، وما فيه من الشر افضل

اسمه المغيرة بن عبد الله الاسدى ، ويكنى بأبى معرض . وقد غلب عليه اسم الاقيشر ، لانه كان شديد حمرة الوجه ، كأنما ألبس جلده مقلوبا .

وكان يكره أن ينادى بهذا الاسم .

مر يوما ببنى عبس ، فى طريقه الى الحيرة ، فناداه احدهم : يا أقيشر ...

ومضى الاقيشر الى أن لقى مابر سبيل ، فقال له : تعال معى ، فاذا أنشدت بيتا فقل لى : ولم ذاك ؟.. وخذ هذين الدرهمين .

فقال الرجل : بل أذهب معك بلا أجر ...

وسارا ، حتى اذا بلغا مجلس بنى عبس ، نظر الاقيشر الى الرجل الذى ناداه منهم ، وقال :

أتدعونى الاقيشر ذلك اسمى
وأدعوك ابن مطفئة السراج

فقال صاحبه كما اتفقا : ولم ذاك ؟

قال الاقيشر :

تناجى خدنها بالليل سرا
ورب الناس يعلم ما تناجى

وانصرف الاقيشر وصاحبه ... وضحك بنو عبس

من صاحبهم ، وسموه طول عمره ابن مطفئة السراج .

***

من هـذه الحادثة ، نلمس أن اقيشر كان ظريفا مهذارا لاذع الهجاء . وكان الى جانب ذلك خليعا ماجنا يكثر من الشراب حتى لايعى ، وانه ليعترف بفسوقه فى أكثر من قصيدة ، منها :

فان أبا معرض اذ حسا
من الراح كأسا على المنبر
خطيب لبيب أبو معرض
فصار خليعا على المكبر
أحل الحرام أبو معرض
فان ليم فى الخمر لم يصبر
يجل اللئام ويلحى الكرام
وان أقصروا عنه لم يقصر

***

والاقيشر ، ولد فى الجاهلية ، ونشأ فى الاسلام ، وعمر طويلا .

ويروى ابن سلام ان الاقيشر كان عنينا لايأتى النساء ، وأنه كان يغالط فى هذا فيتحدث عن فحولته بشعر قبيح لا يسمح لنا أدب القلم بذكره .

ونحن نرجح رواية ابن سلام ، لأننا لم نجد فيما وقعنا عليه من شعر الاقيشر شيئا يستحق الذكر من الغزل أو التشبيب ، فجل حصيلتنا منه هجاء وزندقة وقول فى الخمر .

ومع هذا ففى سيرته انه تزوج ابنة عم له اسمها الرباب ، على أربعة آلاف درهم ، ويقال عشرة آلاف ، لم يكن يملك منها شيئا ، فسأل قومه ، فلم يمدوا له يد العون ، فذهب الى ابن رأس البغل ، وهو دهقان

الصين ، وكان مجوسيا من عبدة النـــار ، فســأله ، فأعطاه الصداق .

ومدحه الاقيشر بقصيدة لا ندرى اهى مدح أم ذم ، ولـكنها بالغة آية الطرافة . قال :

كفانى المجوسى مهر الرباب
فدى للمجوسى خالى وعم
شهدت بأنك رطب المشاش (١)
وان أباك الجواد الخضـــم
وانك سـيد أهل الجحيم
اذا ما ترديت فيمن ظلم
تجاور قـارون فى قعـرها
وفرعون والمكتنى بالحكم (٢)

فقـــال له المجوسى : ويحك ، سألت قومك فلم يعطوك ، وجئتنى فأعطيتك ، فجزيتنى هذا القول ، ولم افلت من شعرك وشرك !

قال الاقيشر : أو ما ترضى ان جعلتك مع الملوك وفوق أبى جهل ؟

***

من هذه الابيات التى قالها فى المجوس ، نستشف فى الاقيشر ـ على مجونه ـ لمحة ايمان ، فهو كمســلم ، لا يعفى المجوسى من النار حتى ولو أعطاه عشرة آلاف درهم .

وقد عرفنا انه لا يحفل كثيرا بذكر النساء كما حفل غيره من أهل المجون ، ولا كان شعوبيـــا كأبى نواس وبشـار ، وأكثر الماجنين ، بل عربيـا يتعصب لقومه ، حتى ضد أطراف العرب .

---

(١) رطب المشـــاش : كريم النفس .. (٢) الحكم : ابو جهل

خطب رجل من حضرموت امراة من بنى أسد ، قبيلة الاقيشر .

وراح الرجل يسأل عن احسابها وأنسابها ، فساء الاقيشر ذلك ، فقال :

حضرموت فتشت أنسابنا
والينا حضرموت تنتسب
أخوة القرد وهم أعمامه
برئت منكم الى الله العرب

***

وتعلقه بالخمر اذن هو مصدر مجونه ، ومستلهم شعره .

شرب الاقيشر يوما بالحيرة ، فى بيت فيه خياط مقعد ورجل أعمى ، وعندهم مغن مطرب ، فطرب الاقيشر ، فسقى أصحابه من شرابه ، فلما انتشوا توثب الاعمى فى أركان الغرفة ، وراح المقعد يرقص رقصة عرجاء .

وراح الاقيشر يصف خمره الصافية وما صنعت بالقوم من المعجزات ، قال :

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا
وأعمى سقيناه ثلاثا فابصرا
شرابا كريح العنبر الورد ريحه
ومسحوق هندى من المسك أذفرا
من الفتيات الغر من ارض بابل
اذا شنها الحانى من الدن كبرا
لها من زجاج الشام عنق غريبة
تألق فيها صانع وتخيرا
ذخائر فرعون التى حببت له
وكل يسمى بالعتيق مشهرا
اذا ما رآها بعد انقاء غسلها
تدور علينا صائم القوم أفطرا

وكان الاقيشر قنوعا فى طلب المــال ، لا يروم منه الا ما يسد شهوة الشراب عنده ، ولا يسأل أحدا أكثر من خمسة دراهم ، يجعل درهمين في كراء بغل الى الحيرة ، ودرهمين للشراب ودرهما للطعام .

ويروى عنه انه أتى قيس بن محمــد بن الاشــعث الضرير ، وهو من سراة البصرة ، فســأله العطــاء ، فأعطاه ثلثمائة درهم ، فقال الاقيشر : لا أريدها جملة ، بل ثلاثة دراهم كل يوم حتى تنفد .

وكان له ما أراد ، فلما نفدت ، أمر له بثانية ، وعلى النهج نفسه .

فلما أتاه يسأل الرابعة ، قال له قيس : لا أبا لك ، كأنك قد جعلت هذا خراجا علينا !

فهجاه بقوله :

ألم تر قيس الاكمه ابن محمــد
يقول ولا تلقـــــاه للخير يفعل
رأيتك أعمى العين والقلب ممسكا
وماخير أعمى العين والقلب يبخل
فلو صم تمت نعمــة الله كلهــا
عليه وما فيه من الشر أفضل

***

على ان الطف ما نختتم به الحديث عن الاقيشر ، حكايته اذ أخرجه الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة ، الملقب بالقباع ، مع قومه لقتال أهل الشام . ولم تكن للاقيشر فرس ، فخرج على حمـــار ، حتى اذا بلغ الجيش قرية يقال لها قنين ، توارى عند خمارٍ نبطى يتجر — الى جانب الخمر — بجسد زوجتــه ، فبــاع الاقيشر الحمار ، وجعل يسكر بثمنه — وقيــل يفجر أيضا — الى أن قفل الجيش !



بشار بن برد

بنو امية هبوا ، طال نومكمـــو
ان الخليفـــة يعقـــوب بن داود
ضاعت خـــلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفـــة الله بين الناى والعـــود

ان في بردى جسمانا حلا
لو توكأت عليه لانهـــدم

لعلك اذا قرأت هذا البيت دون أن تعرف قائله ، تصورت ان قائله شاعر يذوب رقة حتى ليكاد يتهاوى من الشفافية والنحول .

والحقيقة أبعد ما تكون عن هذا الظن . فقائل هـذا البيت شاعر كفيف البصر ، قبيح الخلقة ، ضـــخم الجثة ، سليط اللسان ، زنديق الفكر ، شـــعوبى النزعة ، كاره للناس ، حاقد على الدنيا ، حتى لا نكاد نجد فيه بقية تدل على انسانيته الا انه كان شـــاعرا يجعله النقاد القدامى سيد شعراء عصره .

ثم تجد فيه بعد هذا ولوعا بالنكتة اللاذعة الجارحة هذا هو بشار بن برد .

مر بشار برجل رفسته بغلة في بطنـــه فآلمتـــه حتى سـقط على الارض من الالم ، وهو من ايمانه يقول : الحمد لله !

وسمعه بشـــار وعرف مابه ، فقال له : اســتزده يزدك !

ومر به قوم في جنازة ، وهم يسرعون الخطى، فقال

ساخرا : مالهم مسرعين ؟ أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم ؟

وكان يوما بين يدى المهدى ينشده شعرا ، فدخل يزيد بن منصور الحميرى ، خال المهدى ، وكان ذا غفلة ... فلما انتهى بشار ، أقبل عليه يزيد يسأله : من أنت ، وما صناعتك ؟

فأجابه ساخرا : أثقب اللؤلؤ !

ولم يستطع المهدى أن يكتم الضحك من النكتة ، وان ساءه أن يسخر بشار من خاله ، فلامه على هذا ، فقال لبشار : وماذا أقول له ؟ يرى رجلا أعمى ينشد شعرا بين يدى الخليفة ، فيسأله عن صناعته !

***

ويروى داود بن رزين هذه الرواية :

أتينا بشارا ، فأذن لنا والمائدة بين يديه ، فلم يدعنا الى الطعام . فلما أكل دعا بطست ، فكشف عن سوأته ، فبال . ثم نودى لصلاة الظهر ، ثم صلاة العصر ، ثم المغرب فلم يصل . فدنونا منه وقلنا : انت أستاذنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها .

قال : وما هى ؟

قلنا : دخلنا والطعام بين يديك فلم تدعنا اليه ...

فقال : انما اذنت لكم أن تأكلوا ، ولو لم أرد أن تأكلوا ما اذنت لكم بالدخول . ثم ماذا ؟

قلنا : ودعوت بطست ونحن حضور ، فبلت ونحن نراك !

فقال : انا مكفوف ، وأنتم بصراء ، فأنتم المأمورون بغض الابصار . ثم ماذا ؟

قلنا : وحضرنا صلاة الظهر ، ثم العصر ، ثم المغرب ، ولم تصل .

فقال : ان الذى يقبلها تفاريق ، يقبلها جملة !

***

وكان فارسى الارومة ، يعتز بنسبه ويفخر بقومه فى مجالسه ، وتبلغ به هذه النزعة الى حد انه كان يؤثر النار على الطين ، شـأن المجوس من قومه ، ويدين بالرجعة ، ويكفر الامة كلها بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى انه سئل مرة عن الامام على كرم الله وجهه ، فتمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شر الثلاثة أم عمرو
بصاحبك الذى لا تصحبينا

فاذا كنت قد وجدت فى شعره انه قد مدح خلفاء بنى أمية ، ثم خلفاء بنى العباس من بعدهم ، فلا نزولا عن شعوبيته ، ولا حبا فى العرب ، وانما كما مدح غيرهم من الاشراف والسراة ، ابتغاء رفدهم ، فان لم ينل منهم المال بالمديح ، ناله بالتخويف بالهجاء ، ثم بالهجاء ، مما كان يحملهم على العطاء خشية المزيد.

***

كان بشار كثير المجون ، شديد التشبث باللذات ، يسرف فيها فى غير مراعاة لحرمة الدين أو حرمة العمى. وكان من فرط افساده للنساء يثير جزع أهل البصرة ، فيبعثون اليه بالوعاظ ينهونه عما هو سادر فيه ، وهو سادر لا يرتدع ، حتى ضاقوا به فشكوا امره الى المهدى ، الذى عنفه وأنذره ، وفى هذا يقول بشار :

يا منظرا حسنا رأيته
من وجه جارية ، فديته
بعثت الى تسومنى
برد الشباب وقد طويته
- والله رب محمد

ما ان غدرت ولا نويتــه
أمســــكت عنك ، وربما
عرض البـلاء وما ابتغيتـه
ان الخليفـــــة قد أبى
واذا أبى شيئا أبيتـــه
ومخضب رخص البنـــا
ن بكى على وما بكيتـــه
ويشـــــوقنى بيت الحبيـ
ـب اذا ادكرت ، وأين بيته ؟
قام الخليفـــــة دونه
فصبـرت عنه وما قليتـه
ونهــــانى الملك الهمـــا
م عن النســاء وما عصيته
لا ، بل وفيت فلم أضـع
عهـدا ، ولا رأيا رأيتـه



وقد تقف ـ وأنت تقرأ هذه الابيات ـ عند قسـمه بالله رب محمد ، وتتساءل : أين اذن زندقته ؟

والجواب ، انه كان كاذبا فى قسمه ، كما كان كاذبا فى قوله انه استجاب لامر الخليفة ، وفى اظهار حبـه للخليفة ووصفه بأنه الملك الهمام .

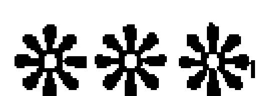
كان ديدنه النفاق فى كل هذا . فقد كان بالبصرة ، على زمانه ، نفر من أهل الزندقة يجاهرون بها ، ولكنهم لاذوا بالفرار هربا من بطش الخليفة بهم . أما بشار ، فكان يكتم زندقته ويتظاهر بالايمان نفاقا ونجاء بعنقه.

وليس أدل على كذبه فى مدح الخليفــة من اعترافه هو ، بعد أن مدح الخليفة بقصيدته التى مطلعها :

خليلى ان العسر سـوف يفيق

وانْ يســـــارا فى غد لخليــق

فلم يجزه عليها .. وعيره النـاس قائلين له : انما حرمك لانه لم يستحسن شعرك . فأجاب : لقد مدحته بشعر لو قيل فى الدهر لأمن الناس صروفه ، ولـكنه كذب أملي ، لانى كذبت فى القول !



ونعود الى بشار فى مجونه ، فنقع على قصيدة يتمثل فيها فحشه الى أبعد مداه ، فى اللفظ والمعنى والصورة بعد الثلث الاول من القصيدة ، مع اعترافنا بأنها من جميل الشعر ، الى حد اننا نضطر فى أحد أبيـاتها الى اهمال بعض الالفاظ مراعاة لادب القلم ، تاركين للقارىء أن يفطن اليها فى استطراده مع القافية :

قــد لامنى فى خليــلتى عمــر
واللوم فى غير كنهه ضـــجر
قال : أفق ، قلت : لا ، قال : بلى
قد شاع فى الناس منكما الخبر
قلت : واذ شاع ما اعتذارك ما
ليس لى فيــه عنــدهم عــذر
ماذا عليهم ، ومالهم خرســوا
لو أنهم فى عيــــوبهم نظروا
أعشــق وحــدى ، ويؤخذون به
كالترك تغـزو ، فتؤخـذ الخزر
يا عجبــا للخــلاف يا عجبــا
بفى الذى لام فى الهــوى الحجــر
حسبى وحسب الذى كلفت به
منى ومنه الحديث والنـــظر
أو قبلة فى خلال ذاك ، وما
بأس اذا . . . . !

أو عضة في ذراعها ، ولها
فوق ذراعي من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدي
والباب قد حال دونه الستر
والساق براقة مخلخلها
أو مص ريق ، وقد علا البهر
واسترخت الكف للعراك وقا
لت : ايه عني ، والدمع منحدر
انهض ، فما أنت كالذي زعموا
انت وربي مفازل أشر
قد غابت اليوم عنك حاضنتي
والله لي منك فيك ينتصر
يارب خذ لي ، فقد ترى ضرعي
من فاسق جاء مابه سكر
أهوى الى معضدي فرضضه
ذو قوة ما يطاق مقتدر
ألصق بي لحية له خشنت
ذات سواد كأنها الابر
أقسم بالله لا نجوت بها
فاذهب فأنت المساور الظفر
كيف بأمي اذا رأت شفتي
أم كيف ان شاع منك ذا الخبر
قد كنت أخشى الذي ابتليت به
منك ، فماذا أقول يا عبر
قلت لها عند ذاك : يا سكني
لا بأس ، اني مجرب خبر
قولي لها : بقة لها ظفر
ان كان في البق ما له ظفر

وصاحب الذوق من قراء الشعر يصطدم بالبيت الاخير ، فيتأذى منه ، ويعجب كيف هبط بشار ، بعد تلك الصورة الحسية المستملحة عند أهل المجون، وبعد ذلك الحوار الطريف بينه وبين فتاته ، الى مستوى « البق » وكان أخلق به أن يلتمس عذرا أقرب الى الذوق واللطف .

ولكن هذا هو بشار فى عثراته الذوقية التى نجد منها أكثر من شاهد . ومن ذلك قوله فى الغزل بسليمى :

انما عظم سليمى قصب
قصب السكر لا عظم الجمل
فاذا ادنيت منها بصلا
غلب المسك على ريح البصل

ومع هذا ، فبشار هو صاحب هذه الابيات الاثيرة التى يرددها كل عاشق منذ عصر بشار الى اليوم ، وكثيرا ما تغنى بها أهل الغناء القدامى والمحدثون :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم
ونفى عنى الكرى طيف ألم
رفهى يا « عبد » عنى واعلمى
اننى يا « عبد » من لحم ودم
ان فى بردى جسمانا حلا
لو توكأت عليه لانهدم
واذا قلت لها جودى لنا
خرجت بالصمت عن لا ونعم

وأما « عبد » هذه التى يذكرها فى القصيدة ، فهى عبدة ، التى خصها بشار ـ على فجوره ـ بأكثر غزلياته ، وكانت ـ على ما يجمع عليه الرواة ـ تميل اليه وتحب شعره وتمده بالالهام وتخصه بود كبير ،

وإن كان أستاذنا الدكتور طه حسين - وهو يعترف بشدة كراهيته لخلق بشار وفرط نفوره من شخصيته - ينكر أن رجلا كبشار يستطيع أن يحب عبدة أو غير عبدة ، وانه فى صلته بها منافق ، كما هو منافق فى جميع صلاته بالحياة ، وان عبدة هى الاخرى لم تكن تحبه ، وان كانت تأنس اليه .

ومع اعترافنا بأن بشارا كان فاجرا متهتكا عربيدا ، فاننا لا نستبعد أن يكون قد أحب عبدة بالفعل ، فهى فى حياته كبوة الجواد ، أحبها اذ سمعها لأول مرة وهى فى مجلسه ، ومعها غيرها من النساء ، فوقع صوتها وحديثها فى قلبه ، فدعا غلامه فقال : انى قد علقت امرأة ، فاذا تكلمت فانظر من هى واعرفها .. فاذا انفض المجلس وانصرف أهله ، فاتبعها وكلمها واعلمها انى لها محب ، وأنشدها هذه الابيات ، وعرفها أنى قلتها فيها :

قالوا : بمن لا ترى تهذى ، فقلت لهم : الاذن كالعين توفى القلب ما كانا

هل من دواء لمشغوف بجارية يلقى بلقيانها روحا وريحانا

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والاذن تعشق قبل العين أحيانا

وفض المجلس ...

وسار اليها الغلام فأبلغها الابيات ، فهشت لها ، وكانت تزوره مع نسوة يصحبنها ، فيأكلن عنده ويشربن وينصرفن بعد أن يحدثها وينشدها ولا تطمعه فى نفسها .

ولا شك ان عبدة كانت تعلم ما عنده من مجون ، ولكنها كانت تفد عليه محبة لشعره ، ولا سيما شعره فيها ، وحسب ...

أماهو، فلعله أحب هذه المرة لغيرالمجون، ولهذا يقول:

يا عبد حبى لك مستور
وكل حب غيره زور
ان كان هجرى سركم فاهجروا
انى بما سرك مسرور

ولعله صدق فى شىء لاول مرة ، فقال فى عبدة أكثر غزلياته وأجودها وأحفلها بحرارة الصدق ، كهذه الابيات التى بكى الوليد بن يزيد عند سماعها حتى امتزجت دموعه بدمه فى الكأس :

أيها الساقيان صبا شرابى
واسقيانى من ريق بيضاء رود
ان دائى الظمأ ، وان دوائى
شربة من رضاب ثغر برود
ولها مضحك كغر الاقاحى
وحديث كالوشى ، وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلـ
ـب ، ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت : نلقاك بعد ليال
والليالى يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقائى ، وعندى
زفرات يأكلن قلب الحديد

***

ومن الانصاف لبشار قبل أن نفرغ من الحديث عنه ، انه لم يكن شاعرا ماجنا وحسب ، وانما له الكثير من الشعر الجاد ، الذى يرتفع به الى مكانة سامقة بين شعراء عصره ، ولا سيما شعره السياسى. وكان بشار يزعم انه أشعر الناس ، ويقول : ان لى اثنى عشر ألف قصيدة ، فويلى اذا لم يكن فى كل

قصيدة منها بيت جيد !

أما كيف انتهت حياة بشار ، فقصة ذلك انه حمل فى قلبه الحفيظة على الخليفة المهدى حين أنشده شعرا فلم يصله ، فى حين وصل غيره من الشعراء ، على ما روينا من قبل .

وبينما هو ذات يوم فى مجلس يونس بن حبيب النحوى ، تحركت الحفيظة فى قلبه ، فأراد أن يقول شعرا قبيحا ، فتساءل ، حتى يأخذ الحيطة ، أن كان فى المجلس من يسمع فيشى به عند الخليفة فقيل له : لا ، فتطاول على الخليفة ببيتين قبيحين ، ذم فيهما المهدى ، ودعا على ولى عهده ، موسى الهادى ، دعوة فاجرة فيها تعريض بالخيزران ، زوجة المهدى . قال :

خليفة يزنى بعماته
يلعب بالديوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره
ودس موسى فى . . . الخيزران (١)

ثم عرج على يعقوب بن داود ، وزير المهدى ، فقال يدعو بنى أمية الى الانتفاض ، ويتهم يعقوب بأنه هو الخليفة الفعلى :

بنى أمية هبوا طال نومكمو
ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفة الله بين الناى والعود

وكان بشار مكروها من أهل البصرة ، علمائها وعامتها ، فسار يونس وأصحابه بالابيات الاربعة الى المهدى ويعقوب ، فثارت ثائرة المهدى ، وأمر بأن يجلد بشار سبعين جلدة بالسوط . وكان كلما أوجعه السوط

---

(١) الكلمة المنقوطة ، سوأة المرأة

صاح « حسس » وهذه كلمة تدل على شدة الالم ، فقال بعض الحاضرين :

انظروا اليه لا يقول بسم الله . فقال بشار وهو يتأوه : ويحكم ، أهو ثريد حتى أسمي عليه ؟

***

حمل الى بيته بعد الجلد في حال سيئة ... وسمع الناس بما وقع له ، فساروا اليه بالهدايا والعطايا ، لا حبا فيه ، ولا عطفا عليه ، ولكن استجلابا لمودته واشفاقا من لسانه بعد أن يفيق من غشيته .

على انه لم يفق ، وما لبث أن مات من أثر الضرب .

وهنا تجلت كراهية الناس له ، حتى قيل ان احدا من أهل البصرة لم يخرج الى جنازته ، الا جارية عجماء من السند كانت له ، سارت وراء نعشه تولول : وا سيداه .. وا سيداه !



جحظة البرمكى

ولى صاحب زرته للســـلام
فقابلنى بالحجـــاب الصراح
وقـــالوا : تغيب عن داره
لخوف غـريم ملح وقـــاح
ولو كان عن داره غائبـــا
لادخلنى أهـــله للنـــكاح

هو من البرامكة ، واســمه أبو الحسن أحمـد ابن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك .

سمى بجحظة ، لجحوظ عينيه .

وكان قبيح المنظر ، قذرا ، دنىء النفس ، قليـل الدين ، كريه الرائحة من كثرة الفساء . ومع هـذا كان حسن الادب ، كثير الرواية للأخبار ، متصرفا فى فنون من العلم ، كالنحو واللغة والنجوم ، مليح الشعر ، حاضر النادرة .

وكان حسن الغناء والعزف على الطنبور ، حتى كان المعتمد يسميه « خنياكر » ... وهى كلمـة فارسـية معناها : المغنى .

ولد جحظة سنة ٢٢٤ ، ومات سنة ٣٢٤ هـ ، أى انه عمر مائة سنة .

وله كتب عدة ، فى مختلف الفنون ، منهـا كتاب « الطبيخ » ... وكتاب « السكباج » وهو لون من المرق يطهى باللحم والخل ... وكتاب « المشاهدات » وكتاب عن التنجيم ، وكتاب عن الطنبور وعزفه وعازفيه

وله بعد ذلك ديوان شعر طريف فى مختلف الاغراض، فمن أرق شعره فى الغزل :

اذا ما ظمئت الى ريقـــــه
جعــلت المـدامة منه بديلا
وأين المـدامة من ريقــه ؟
ولـكن أعلــل قلبــا غليــلا

ومنه :

أقول لها والصبح قد لاح ضوؤه
كما لاح ضوء البـارق المتـألق
شـبيهك قد وافى ولاح افتراقنـا
فهل لك فى صوت وكأس مروق ؟ (١)
فقالت : شفائى فى الذى قد ذكرته
وان كنت قد نغصتــه بالتفرق

ومن قوله فى الهجاء ، ما قاله فى صاحب له ، يصاحبه طمعا فى أدبه وظرفه وغنائه ، ولا يصله بشىء :

لى صديق مغرى بقربى وشدوى
وله عند ذاك وجه صـــفيق
قوله ـ ان شدوت ـ «أحسنت، زدنى»
وبأحسنت . . . لا يبــاع الدقيق

وله أيضا فى هجاء صاحب له أخفى عنه نفسه :

ولى صـــــاحب زرته للســـلام
فقـــابلنى بالحجــاب الصـــراح
وقالوا : تغيـــــب عن داره
لخـــوف غريم ملح وقـــاح
ولو كان عن داره غائبـــــا
لأدخـــــلنى أهـــله للنكاح

وله فى الشكوى مما أصابه من الخمر :

(١) الصوت ، الغناء ـ والمروق الصافى .

قد قلـــل الادمان أكلى ، فمــا
أطعم زادا قيس ابهـــــام (١)
فالحمـــــــد لله وشـــــكرا له
قد صـــــرت من بائد أقـــوام
قوم ترى أولادهم بينـــــــــهم
للجـوع فى حلبـــــة ايتـــام (٢)

وله فى شـكوى الزمن ، مما يقترن بالفخر ، وقـد طعن فى السن :

أرى الايام تضـــــمن لى بخير
ولـكن بعـــــــد أيام طوال
فمن ذا ضـــامن لدوام عمرى
الى دهر يغير ســــــوء حالى
هى التسعون قد عطفت قناتى
ونفرت الغوانى عن وصـــــالى
وفيهــا لو عرفت الحق شـغل
عن الامر الذى أضحى اشتغالى
كأنى بالنــــــــــوادب قائلات
وجسمى فوق أعنـــــاق الرجال
الا سـقيا لجســمك كيف يبلى
وذكرك فى المجالس غـــــير بال

ومن القصيـدة التالية نستشف ما صـار اليه من سوء الحال فى كبره حتى انه كان يبيـع كتبه ليـكرم ضيفه :

الحمــــــد لله ليس لى كاتب
ولا على باب منــزلى حاجب
ولا حمـــــار اذا عزمت على

(١) قيس : قدر .
(٢) حلبة : هيئة .

ركوبه قيـل : جحظـة راكب
ولا قميـــص يكون لى بدلا
مخافة من قميـــصى الذاهب
واجـرة البـيت فهى مقـرحـة
أجفــان عينى بالوابل الساكب
ان زارنى صـاحب عزمت على
بيـع كتاب لشـبعة الصـاحب
أصـــبحت فى معشر تشمتهم
فرض من الله لازب واجـــب

ويروى عنه الرواة انه كان خسيف الدين ، لا يصلى، ولا يصوم رمضان . وقد كان صـباح نهار عند بعض الوجهاء ، فلمـا انتصف النهـار ، قام جحظة فسرق رغيفا ، ودخل المستراح ، وجلس على المقعدة .

ودخـل عليه مضيفه عن غير قصـد ، فرأى الخبز بين يديه ، فقال له : ويحك ، ما هذا يا أبا الحسن فى رمضان ؟ ..

فزعم جحظة انه اخذ الرغيف ليقطعه للخنافس التى تملأ المستراح حتى يرحمها من الجوع ! ..

وكان من سخطه على حياته ، بعد ما انخفض عيشه ، يلعن كل ما فى الحياة ومن فى الحياة ، حتى أبويه ، قائلا :

ما انصـــفتنى يد الزمان ولا
أدركنى غــير حـرفــة الادب
لا حفـظ الله حيثمـا سلـكت
أمى ، وأ ... الحمار فى است أبى (١)
ما تركا درهمـــا أصــون به
وجـــهى يوما عن ذلة الطلب

(١) الكلمة المنقوطة : قبيحة .

ومن البيت الاخير نرى انه كان يتدنى وهو كاره ، ويشعر ان الفقر مسئول عما يهدر من ماء وجهه ، وما ينزل به عن المكانة التى هو أهل لها عند الناس .

وانك لترى هذه المرارة فى حادث وقع له اذ هو فى حضرة عبد الله بن المعتز ، اذ اعتدى أحمد بن أبى العلاء على جحظة بسباب جارح ، فأمر ابن المعتز جحظة أن يخرج من المجلس حتى يهدأ أحمد .

وخرج مطأطىء الرأس ، كاسف البال ، مهدور الكرامة ، فلم ينم الى أن كتب الى ابن المعتز يقول :

أليس من العجائب ان مثلى
يقام لأحمد بن أبى العلاء
ولى نفس أبت الا ارتفاعا
فأضحت كالسماء على السماء
لقد غضب الزمان على أناس
فأبلاهم بأولاد الزناء

وعلى هذا الحال مات جحظة فى المائة ، لا هو راض عن الدنيا ، ولا الدنيا راضية عنه ، وفى هذا يقول :

يطول على الليل حتى أمله
فأجلس والنوام فى غفلة عنى
فلا أنا بالراضى من الدهر فعله
ولا الدهر يرضى بالذى ناله منى



الحسين الخليع

فمازلت أبسطه مازحا
وأفرط فى اللهو حتى ابتسم
وحكمنى السريم فى نفسه
بشىء ولكنه مكتتم

هو الحسين بن الضحاك ، ولقب بالاشقر ، كما لقب بالخليع لخلاعته . ولد سنة ١٦٢ ، ومات سنة ٢٥٠ هـ .

وقد نشأ - كما نشأ أكثر أهل المجون - فى ظل الدولة العباسية ، وكان على شاكلتهم فى أكثر ماكانوا ، فارسى الاصل ، وان كان بصرى المولد والنشأة .

كان - كما يصفه أبو الفرج - شاعرا أديبا ظريفا مطبوعا حسن التصرف فى الشعر ، حلو المذهب ، لشعره قبول ورونق صاف .

وكان أبو نواس يفعل به ما يفعله مع غيره من شعراء عصره ... يسطو على معانيهم ، ويحسن صياغتها حتى يحفظها الناس بشعره ، وينكروها على أصحابها الاصلاء .

واننا لنجد من شعر الخليع أصداء ، لا فى شعر أبى نواس وحده ، ولا فى شعر معاصريه وحسب ، بل ان هذا السطو ليمتد حتى يصل الى عصرنا هذا ... انظر الى هذين البيتين من خمرياته :

اذا ما الماء أمكننى
وصفو سلافة العنب

صببت الفضــة البيــ
ضاء فوق قراضة الذهب

الا يذكرانك ببيت شوقى ، وان كان بيت شــوقى أوفر فى رشاقته :

حف كأسـها الحبيب
فهى فضــة ذهب !

***

كان الخليــع ماجنــا ، وكان اكثر مجونه فى الهيام بالخمر والغلمان ، ولــكنه فى الحق لم يتعرض للدين كما تعرض له غيره من أهل المجون ، وأن لم يحرص عليه حرص المتقين .

على انه تميز بالوفاء لولى نعمته ، الخليفة الامين ، مما أغضب عليه المأمون عنــدما ولى الحكم ، اذ ذكر فرط مدحه للأمين ورثائه له فى أكثر من قصيدة تجاوز فيها الشاعر حدود البكاء على الامين الى ذم المأمون ، كقوله :

هلا بقيت لســـــد فاقتنــــا
ابدا ، وكان لغــــيرك التلف
فلقـــد خلفت خلائفــا ســـلفوا
ولســــــوف يعوز بعدك الخلف

وكقوله :

اطــل حــزنا وابك الامام محمدا
بحزن وان خفت الحسام المهندا
فلا تمت الاشــياء بعــد محمد
ولا زال شمل الملك منها مبددا
ولا فرح المــأمون بالملك بعــده
ولا زال فى الدنيا طريدا مشردا

وقد بلغ من جزعه على الامين انه خولط فى عقله بعد

قتله ، فكان لا يصـدق انه قتل ، ويقول انه مستتر وانه سيعود يوما ما . ويقول فى ذلك :

سـألونا ان كيف نحن فقلنـا
من هوى نجمـه فـكيف يكون
نحن قوم أصـابنا حدث الد
هر ، فظلنـا لريبـه نستكين
نتمنى من الامـيـن ايابا
لهف نفسى وأين منى الامين !

وقد بلغ المأمون بعض ذلك الشعر ، فظل قلبه مغلقا دون الخليع ، وان كان الخليع قد حاول أن يسترضيه بعد ذلك ، فلم يصب كثيرا من التوفيق .

على ان الخليع قد عمر طويلا ، حتى مات المأمون ، وأدرك خلافة المعتصم والواثق والمتوكل ، وناله منهم خير كثير ، وان كان قد أدركه منهم كذلك وصب كثير.

ومما يؤثر عنه فى أواخر أيامه انه قال :

ضربنى الرشيد فى خلافته لصحبتى ولده (وكان متهتـكا) ثم ضربنى الامين لممايلة ابنـه عبد الله ، ثم ضربنى المأمون لميلى الى محمد (يعنى الهادى) ثم ضربنى المعتصم لمودة كانت بينى وبين العباس بن المأمون ، ثم ضربنى الواثق لشىء بلغه من ذهابى الى المتوكل ، وكل ذلك يجرى مجرى الولع بى والتحذير لى . ثم أحضرنى المتوكل وأمر شفيعا (غلامه) بالولع بى ، فتغـاضب المتوكل على ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان كنت تريد أن تضربنى كما ضربنى آباؤك ، فاعلم ان آخر ضرب ضربته بسببك . فضـحك المتوكل وقال : بل أحسن اليك يا حسين واصونك وأكرمك .

ولمـا تجاوز الخليع الثمانين ، تقـاعد عن مجونه ، ورجع الى الله ، ومن قوله فى ذلك :

اصبحت من أسراء الله محتبسا
في الارض نحو قضاء الله والقدر
ان الثمانين اذ وفيت عدتها
لم تبق باقية مني ولم تذر

وذكر النساء في شعر الخليع قليل ، اذ كان أكثر شعره في الغلمان ، ولا سيما غلام يقال له « يسر » .

ومن قليلات النساء في حياته ، مغنية اسمها «فتن» كان يستملحها ويحب صوتها ، ولكنها كانت تجيء اليه دائما في حراسة خادم اسمه « نجح » يحفظها ولا ينيل الخليع منها شيئا ...

ومرض هذا الخادم يوما ، فجاءت فتن مع خادم غيره ، لين العريكة ، فظفر الخليع ببغيته من فتن ، وقال في ذلك قصيدة موفورة السحر ... قال :

لا تلمني على « فتن »
انها كاسمها فتن
فاذا لم أهم بها
فلمن ؟ .. لا بمن اذن
أين ، لا أين ، مثلها
في جميع الورى سكن
طيب نشر اذا لثـ
ـمت وغنج ومحتضن
وال عشرا من الصبو
ح على وجهها الحسن
وعلى لفظها المنـ
ـون للأم بالفنن
لست أنسى من الفر
ية اذ بحت بالشجن
قولها اذ سلبتها

عن كئيب وعن عكن
ليس يرضيك يا فتى
من هوى دون أن تهن
فامتزجنا معا ممـا
زجة الروح للبدن
وكفينا من أن نزا
قب « نجحا » اذا فطن
وأمنـاه أن ينم
وما كان مؤتمن
كل ما كان من حبيـ
ـبك مستظرف حسن

***

ومن أيامه المشهورة فى تاريخ مجونه ، يومه اذ نزل على الحسن بن سهل ، ومد الشراب ، فظلا يشربان ، وساقيهما غلام مليح لم تهبط عنه عينا الخليع .

فلما أدرك الحسن ذلك ، أومأ الى الغلام فاختفى ساعة ثم عاد ، فسأل الخليع فى شوق : أين كان ؟.. قال سرا : كنت فى الحمام ، والحسن هو الذى حبسنى عنك . فقال الخليع لفوره :

وا بأبى أبيض فى صفرة
كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة
تلوح فيها عكن بضه
غصن تبدى يتثنى على
مأكمة مثقلة النهضه (١)
كأنما الريش على خده
طل على تفاحة غضه
صفاته فاتنة كلها

(١) المأكمة : العجيزة .

فبعضـــه يذكرنى بعضـــه
يا ليتـــه زودنى قبـــلة
أو لا فمن وجنتـــه عضه

فقال له الحسن : قد عمل فيك النبيذ ؟
قال الخليع : لا وحياتك !
قال : هذا شر من ذلك !

ومضى الخليع يرتجل قصيـــدة اخرى ويوغل فى التشبيب والاغراء ، فتغاضب الغلام عن دل، وانصرف، ثم عاد بعد قليـل ، وناوله قدحـا وقال له : اشرب ودع الهذيان .

وقام الحسن لبعض شأنه . واقبـل الفـلام على الخليع فأعطاه بعض النقل ، فقال الخليع : اجعل بدله قبلة . فجعل الفلام يؤمله ولا يعطيه ، ويقترب منه وينسحب ، الى أن كانت لحظة سانحة اختطف فيهـا الحسين قبلة ، فتغاضب الفلام وقال : هـذه حرام عليك . هذا فى حين كان خادم آخر يقال له فرج يهون عليه الامر . قال الخليع :

وبديع الدل قصـرى الفنج
مرة العـين كحيـل بالدعج (١)
سمته شيئا وأصفيت له
بعد ما صرف كأسا ومزج
واســـتخفته على نشوته
نبـرات من خفيف وهـزج
فتـــأبى وتثنى خجـــلا
وذرا الدمع فنـــونا ونشج
لج فى «لولا» وفى «سوف ترى»
وكذا كفكف عنى وخلج (٢)

(١) مره : خلا من الكحل . (٢) كفكف : أعرض .

ذهب الليــــل وما نولني
دون ان اســفر صــبح وانبلج
هون الامر عليـــــه فرج
بتأنيه ، فســــقيا لفرج
خمــر النكهة لا من قهوة
ارج الاصــداغ بالمسك ارج .
وبنفسي نفس من قال ، وقد
كان ما كان : حرام وحرج

فلما نام القوم ، وطلع الصبح ، قال الحسن لضيفه كيف كانت ليلتك ؟
قال الخليع :

تألفت طيــف غزال الحرم
فواصلني بعــد ما قد صرم
وما زلت أقنع من نيــله
بما تجتنيه بنـــان الحلم
بنفسي خيــال على رقبــة
ألم به الشوق فيما زعم
أتاني يجاذب أردافــــــه
من البهر تحت كسوف الظلم
تمج ســــوالفه مســــكة
وعنبرة ريقه والنســــم
تضمخ من بعـــــد تجميره
فطاب من القرن حتى القدم (١)
يقول ونازعتــــــه ثوبه
على أن يقــول لشيء نعم
ففض الجفــون على نجله
وأعرض أعراضــة المحتشم

(١) التجمير : التبخير .

فشـــبكت كفى على كفه
واصـــفيت الثم درا بفم
فنهنهنى ، دفع لا مؤيس
بجد ولا مطمـع معتـزم
اذا ما همست فأدنيتـــه
تثنى وقال : لى الويل ، لم ؟
فما زلت أبسـطه مازحـا
وافرط فى اللهو حتى ابتسم
وحكمنى الريم فى نفســه
بشىء ولـكنه مكتتـــــم
فواها لذلك من طـــارق
على أن ما كان أبقى سقم

فقال الحسن : يا فاسق ، أظن ما ادعيته على الطيف فى النوم كان فى اليقظة مع الشخص نفســه ، وأصـلح الاشياء لنا بعد ما جرى ان ندحض العار عن انفسنـا بهبة الغلام لك ، فخذه ، لا بورك لك فيه !

فأخذه الخليع وانصرف .

***

أما حكاياته مع غلامه الاثير « يسر » الذى قال فيه اجمل شعره ، فكثيرة . ويسر هـــذا ، خادم لابن هارون الرشيد ...

منها : انه التقى بيسر عنـد بعض أصحابهما ذات يوم على مائدة شراب ، وكان هـذا فى العشر الأواخر من شعبان ، فقال حسين ليسر : ياسيدى ، قد هجم الصوم علينا . فتفضل بمجلس نجتمع فيه قبل هجومه

فوعده بذلك ، واقسم على الوفاء .

وفى اليوم التالى كتب اليه يسأله الوفاء بقسمه ، فأنكره ، فقال الخليع :

تجاسرت على الغـدر
كعاداتك فى الهجـر
فأخلفت وما استخلفـ
ـت من اخوانك الزهر
وما أقنعنى فعـ
ـلك يا مختلق العذر
بنفسى أنت ان سؤت
فلا بد من الصبـر
ولولا فرقى منـك
لسميتك فى الشعر
أما تخرج من اخـ
ـلاف ميعادك فى العشر
غـدا يفطمنا الصـوم
عن الراح الى الفطـر

قال الخليع : فلما قرأ الابيات أجاب أحسن جواب وفعل أجمل فعل ، وكان اجتماعنا قبل الصوم فى بستان مولاه ، وتممنا سرورنا وقضينا أوطارنا الى الليل .

***

وقد حسنت سيرة الخليع لما بلغ به الكبر عتيا ، حتى لقد بعث اليه المتوكل لكى ينادمه ويلازمه ، فلم يطق ذلك ، فقال الوشاة للمتوكل انه يطيق الذهاب الى القرى والمواخير ، ويأبى أن يكون فى خدمة أميرالمؤمنين.

فلما عرف الخليع ذلك ، بعث الى المتوكل بهذه الابيات يعتذر بها ، اذ أوشك أن يبلغ التسعين ، فلا قبل له بمنادمة ولا بشراب :

أما فى ثمانين وفيتهـا
عذير وان أنا لم اعتـذر

فكيف وقد جزتها صـاعدا
مع الصـاعدين بتسع أخر
وقـــد رفع الله أقلامه
عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على فتنة
والحد فى دينــه أو كفر
وانى لمن اسراء الالـــه
فى الارض نصب صروف القدر
فان يقض لى عمـلا صـالحا
أثاب ، وأن يقض شرا ، غفر
فلا تلح فى كبر هـــذنى
فلا ذنب لى ان بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب
فأعقبنى خورا من أشـــر
وقد بسـط الله لى عذره
فمن ذا يلوم اذا ما عذر
وانى لفى كنف مغـــدق
وعز بنصـــر أبى المنتصـر
يبارى الرياح بفضل السما
ح حتى تبــلد أو تنحسر
له أكد الوحى مـــــيراثه
ومن ذا يخالف وحى السور
وما للحســـود واشيـاعه
ومن كذب الحق الا الحجر ؟

وقرا المتوكل الابيــات ، فقر بهــا ، وارســل اليه عشرين الف درهم .



حماد عجرد

ـ ١٦١ هـ

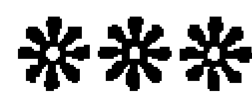
لك جار بالمصر لم يجعـــل الله
له منك حـــرمة الجيـــران
انما معدن الزناة من السفـــ
ـلة في بيته ومـــأوى الزواني

هو شـــاعر مجيـد من مخضرمى الدولتين الاموية والعباسية ، وان كان قد اشتهر فى الثانية .

نادم الوليد بن يزيد الاموى ، ثم جاء الى بغداد فى أيام المهدى .

قال علي بن الجعد : قدم علينا فى أيام المهدى هؤلاء : حمـاد عجرد ، ومطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد ، فنزلوا بالقرب منا ، فكانوا لا يطاقون خبثا ومجانة .

وقال الجرجاني : كان بالـكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحمـاد الراوية ، وحمـاد ابن الزبرقان . يتنادمون على الشراب ، ويتناشـدون الاشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا وكأنهم نفس واحدة ، يرمون جميعـا بالزندقة ، وأشـهرهم حماد عجرد .



كان حماد عجرد من هؤلاء الزنادقة الذين شـجعهم انحلال الخليفة الاموى ، الوليد بن يزيد ، على المجاهرة بالمعصية ، والاسراف فى طلب اللذة بغير حرج فى الكوفة والبصرة وغيرهما .

وكانوا يجتمعون فى بيوتهم ، أو فى الحـــدائق او الحانات أو الاديرة ، ولا يجتمعون الا على شراب وغناء وعبث بالنساء والغلمان .

وكانت بين حماد وبشار بن برد مهاجاة متصلة ، وكانا ندين فى النزوع الى الشر وفى سلاطة اللسان ، فكان كل منهما يغرى بالآخر عند ذوى السلطان ، ويرميه بالزندقة دون أن يكون هو نفسه بريئا منها .

وتهاجيهما يصلح لان يكون كتابا بذاته ، ولكننا نجتزيء منه بما يلقى ضوءا على هذه المعركة التى تعد من أسوأ المعارك فى تاريخ الادب .

قال حماد ، يغرى الامير عيسى بن عمرو ببشار :

قل لعيسى الامير عيسى بن عمرو
ذى المساعى العظام فى قحطان
والبناء العالى الذى طال حتى
قصرت دونه يدا كل بان
بابن عمرو ، عمرو المكارم والتقـ
ـوى وعمرو الندى وعمرو الطعان
لك جار بالمصر لم يجعل الله
له منك حرمة الجيران
لا يصلى ولا يصوم ولا يقـ
ـرا حرفا من محكم القرآن
انما معدن الزناة من السفـ
ـلة فى بيته ومأوى الزوانى
وهو خدن الصبيان وهو ابن سبـ
ـعين فماذا يهوى من الصبيان
طهر المصر منه يا ايها المو
لى المسمى بالعدل والاحسان
وتقرب بذاك فيه الى الله
تفز منه فوز أهل الجنان

ثم يوجه الخطاب لبشار بن برد فيقول :

يابن برد ، اخسأ اليك فمثل الـ
ـكلب فى الناس انت لا الانسان
ولعمرى لأنت شر من الـكلـ
ـب وأولى منـه بكل هوان

وأراد بشار أن يرد الصفعة بمثلها ، فأشاع ان حمادا كان ينشد يوما شعرا ، والى جانبه قارىء يتلو القرآن ، والناس مجتمعون حول القارىء . فصاح حماد فى الناس : علام تجتمعون ؟ ان الذى أنشده لخير مما ينشده !

ثم نظم ـ اى بشار ـ هذه الابيات يهجوه ويرميه بالشرك :

ابن نهبى ، راس على ثقيل
واحتمال الرءوس خطب جليل
ادع غيرى الى عبادة الاثنين
فانى بواحـد مشغول
يابن نهبى ، برئت منك الى الله
جهارا ، وذاك منى قليل

فلما شاعت الابيات ، أمعن حماد فى اشاعتها بعد أن عدل عبارة « فانى بواحد مشغول » فجعلها « فانى عن واحد مشغول » مما يثبت عليه الزندقة ... فلما سمع بشار ذلك ارتعد وجزع ، لانه ـ برغم زندقته ـ كان يستسرها ويخشى أن يعرفها ولاة الامور .

وقد عرفت عنه فى النهاية ، وقتل بأمر المهدى .

ومن مقذع هجائه فى بشار ، قوله :

وأعمى يشبه القرد
اذا ما عمى القرد

وقال الرواة ان بشارا بكى حينما سمع هذا البيت ، فقيل له : لم تبكى ؟ فقال : يرانى فيصفنى ، وأنا لا أراه حتى أصفه .

ولم يقصر حماد هجاءه على بشار وحده ، بل تجاوزه الى الكثيرين ، ومنهم مطيع بن اياس ، وابو حنيفة ، ويحيى بن زياد ، وغيرهم . وكانوا جميعا يخشون لسانه ويترضونه . ولم يكن يرعى فى ذلك حرمة صداقة قديمة ، فقد كان صديقا لمطيع ويحيى ابن زياد ، وكثيرا ما مدحهما ونال منهما خيرا ، ولكنه لم يتورع عن شتمهما فيما بعد .

وقال حماد ، يهجو بكر بن محمد المازنى النحوى ، وهذه اقبح أهاجيه ، لانها قيلت فى رجل من ائمة اللغة ، تتلمذ عليه المبرد ، وقال عنه انه كان بعد سيبويه أعلم الناس بالنحو :

كادنى المازنى عند ابى العبا
س ، والفضل ما علمت كريم
يا شبيه النساء فى كل فن
أن كيد النساء كيد عظيم
جمع المازنى خمس خصال
ليس يقوى بحملهن حليم (١)
هو بالشعر والعروض وبالنحـ
ـو وغمز . . . طب عليم (٢)
ليس ذنبى اليك يا بكر الا
أن . . . عليك ليس يقوم (٣)
وكفانى ما قال يوسف فى ذا
أن ربى بكيدهن عليم ! . .

***

وله ــ الى جانب أهاجيه ــ شعر جميل ، فله فى المدح

(١) قال خمس خصال ، ولم يذكر الخامسة فى القصيدة
(٢) الكلمة المنقوطة قبيحة ، وهى جمع
(٣) هى نفس الكلمة القبيحة ، بالمفرد

هذا القول السائغ :

أرجوك بعد أبى العباس أذ بائنا
يا أكرم الناس اعراقا وعيدانا
فأنت أكرم من يمشى على قدم
وأنضر النـاس عند المحل أغصـانا
لو مج عود على قوم عصارته
لمج عودك فينا المسك والبـانا

وله فى العتاب :

فأقسمت لو أصبحت فى قبضة الهوى
لأقصرت عن لومى وأطنبت فى عذرى
ولـكن بلائى منك أنك ناصـح
وأنك لا تـدرى بأنك لا تـدرى

وله فى الغزل :

انى احبـك فاعلمى
ان لم تكونى تعلمينا
حبـا أقل قليـله
كجميـع حب العالمينـا

***

اما نهايته ، فاختلف فيها الرواة ، فقيـل ان مولى من موالى محمد بن سليمان قتـله ، لانه كان يكتب الغزل فى أخته زينب ، لا لحسابه ، بل لحساب محمد ابن أبى العبـاس السفاح ، الذى كان يحب زينب ، ولا يحسن الشعر ، فأراد أن يستميلها بشعر حماد ، وكان ينسبه الى نفسه .

وفى رواية أخرى انه أصابته علة طالت عليه ، وأشيع انه مات ، ووصل نعيه لبشار ، فقال :

لو عاش حمـاد لهونا به
لـكنه صـار الى النـار !

فلما سمع حماد هذا البيت ، قال :

نبئت بشـــارا نعاني وللشــعر
براني الخـــالق البـــارى
يا ليتني مت ولم أهجـه
نعم ولو صرت الى النـــار
وأى خزى هو أخزى من أن
يقال لى : يا ساب بشار

***

ثم مات حماد ، سنة ١٦١ هـ بالبصرة . وقتل بعده بشار . ودفنا فى مكان واحد ، ومر على هذا المكان شاعر بصرى يقال له أبو هشام الباهلى ، فقال :

قـد تبـع الاعمى قفـا عجرد
فاصـبحا جـــارين فى دار
قالت بقـاع الارض لا مرحبـا
بقرب حمـــاد وبشـــار
تجاورا بعـــد تجافيهمـــا
ما أبغض الجـار الى الجـار
صـــارا جميعـــا فى يدى مالك
فى النـــار ، والـكافر فى النار



الزوزنى البحّاث

ليت شـــــعرى ، اذا خرجت من
الدنيا فأصبحت ســـاكن الاجداث
هل يقولن اخوتى بعـــــــد موتى
رحم الله ذلك البحـــــــــائى ؟

هو محمد بن اسحق الزوزنى البحاثى القاضى .

كان من أهل العلم ، سنيا متعصبا لاهل السنة ، وله أشعار ومصنفات كثيرة جعلته فى قمة عصره علما وادبا وظرفا وخفة ظل .

وكان الناس يحترمونه مرتين ، مرة لعلمه وفضله ، واخرى لانه كان هجاء ، وكانت له طريقة من الهجاء فى النظم والنثر لم يسبق اليها ، فكان الجميع يخشون مرارة لسانه .

ومع هذا فانه لم يترك أحـدا من الـكبراء والائمة والفقهاء وسائر الناس فى عصره الا هجاه مر الهجاء .

قال عبد الغافر : وكان صديقا لوالدى ، يبيت عنده فى بعض الاحيان ، ويقترح عليه ما يشتهى من الوان الطعـــــــام . وكأن والدى يحكى عنه أحواله وتهتكه واشتفاله فى جميع الاحوال بما لا يليق بالعلمـــــــاء الافاضل . ولـكنه كان يحتمله اتقاء للسانه .

ويمضى عبد الغافر فيقول :

ومما رواه لى والدى عنه انه قال :« ما وقع بصرى قط على شخص الا تصور فى قلبى هجاؤه قبل أن اكلمه واجربه او أخبر أحواله » . وحكى لى بعض من اثق

به انه قال : لم يفلت أحد من هجائى الا القاضى الامام صاعد بن محمد ، رحمه الله . فانى كنت قد صورت فى نفسى أن اهجوه ، فحيث تأملت فى حسن عبـادته وكمال فضله ومرضى سيرته ، استحييت من الله تعالى، وتركت ما أجلته فى فكرى »

وروى ياقوت عنه فى معجمه ، انه كان يضع التصانيف عن الاكابر والعلماء ، فيرميهم فيها بما براهم الله منه ، وانه أظهر النسك بين الناس ، ولـكنه بالغ فى الافحاش واغرب فى فنون الهجاء ، وأتى بالعبـــارات الرشيقة والمعانى الصحيحة من حيث الصنعة ، وان كانت عن آخرها أوزارا وآثاما وكذبا وبهتانا .

وقد اتفق أهل عصره على انه أهجى أهل العصر من الفضلاء ، وأفتقهم شتما قبيحا وتعريضا وتصريحا .

وكان يسكن باعذرا ، وهى قرية من أعمال الموصل، ويخص جماعة سكانها من الائمة بالهجاء ، وله معهم ثارات ومشاغبات يطول شرحها .

من ذلك هجاؤه لرجل اسمه « يوسف » قلب اسمه فسماه « فسوى » وقال فيه :

فسوى وضرطى والخرا مائعا
على الذى مقلوبه فســوى
من خلقه أقبح من خلقــه
وجحره أوسـع من دلوى

وقال يهجو صاحب دعوة :

ســـــألونا عن قراه
فاختـصرنا فى الجواب
كان فيـــه كل شيء
باردا الا الشــــراب

وله فى هجاء أحد أصحابه المحدثين :

ألا ان هــــــذا البيهقى محدث
مسيلمة الـكذاب فى جنبـه ملك
ففى وجهه قبح وفى قلبه عمى
وفى نطقه كذب وفى دينه حلك
لو ابن معين كان حيـا لجاءه
وبالسلح، سلح الكلب، لحيته دلك (١)
فلا تعجبا أن مد فى عمر مثله
ويهلك أهل الفضـل اذ خرف الفلك

وكان يتعرض بالهجاء كثيرا لرجل من أفاضل قومه ، اسمه البارع الزوزنى ، ويقلب اسمه فيسميه بالباعر ، ويدعى انه افترسه ظبيا غريرا ، وافترشه بدرا منيرا ، قال : « فلما التحى أنكرت صحبته ، ونبذت وراء ظهرى مودته » وقال فيه :

كان البويعر بـدرا فى حـداثتـه
ما كان أحسـنه بـدرا وأبهـاه
والطيب أجمع فيها تحت مئزره
والسحر ما بثه فى الناس عينـاه
ربيتـه وهو فى حجرى الاعبـه
نهـاره ، وفـراشى كان مأواه
أفيده من جنايا العلم أحسـنها
وأستفيـد لذيذا من جنى فاه
حتى اذا ما عشا جلد آسته وغدا
مشعرا ودجـا واسـود قطـراه
وصـار كلبـا وخنـزيرا وزوبعه

(١) ابن معين ، رجل اشتهر بالكذب ، وقال عنه الامام احمد بن حنبل انه أكذب الكذابين .

وغول قفر يميت الانس لقياه
انشا يمزق عرضى منكرا أدبى
وليس يحسن الا ما أفسدناه
ان كان ينكر ما قدمت من أدبى
فليس ينكر . . . شم مفساه (١)
لو لم تغير صروف الدهر صورته
لكان مغفورة عندى خطاياه

وان أنكرنا منه هذه الكلمة المنقوطة وغيرها فى هذه الابيات ، فينبغى لنا أن ننكر الكثير من شعره وهو حافل بألفاظ الجنس الصريحة ، ومن شهادته على نفسه بأنه كان يمارس عميرة ، قائلا :

ب . . . غزلان الحسان ولا أرى
غزالا من الغزلان فردا بساحتى
فمن يك قد لاقى من ... راحة
ففى راحتى أنسى ورفقى وراحتى (٢)

وشهادته على نفسه باتيان الغلمان ، فى مثل قوله :

ولما رأيت الفقر ضربة لازب
ولم يك لى فى الكف عقد على نقد
ولا لى غلام قد . . . ولم يكن
سبيل الى الترك المكحلة المرد
شريت قبيحا من بنى الهند أسودا
و . . . الهنود السود خير من الجلد (٣)

ومن خبيث شعره فى هذا المجرى قوله :

---

(١) الكلمة المنقوطة ، معناها سواة الرجل .

(٢) الكلمتان المنقوطتان فى هذين البيتين ، هما الكلمة الصريحة ، وفعلها بالجمع فى البيت الأول ، وفى البيت الثانى المصدر .

(٣) الكلمتان المنقوطتان فى البيتين الثانى والثالث ، هما الكلمة الصريحة فى الجنس ـ الجلد : جلد عميرة .

الحمـــد لله وشـكرا عـــلى
انعامه الشـــامل فى كل شي
ان الذى لاعبنى فى الصبـــا
مات ، ومن قد . . . بعد حى (١)

وهو فى البيت الثانى يعترف بأنه كان هو نفسه وهو صغير موضعا لعبث الـكبار .

وقد بلغ حب الهجاء بالزوزنى الى حد انه هجا لحيته الطويلة ... قال :

يا لحيـة قـد علقت فى عارضى
لا أسـتطيـع لقبحهـا تشبيهـا
طالت ولم تفلح ولم تك لحية
لتطول الا والحمـاقة فيهـا
انى لأظهر للبرية حبهـا
والله يعلم اننى أقليهـا

وكان فى تشبيبه بالغلمـان كثيرا ما يكرر الصـورة نفسها فى أكثر من قصيدة .

من ذلك قوله :

بأبى من عنـد لثمى
زاد فى عشقى بشتمه
ومضى يبـكى ويمحو
أثر اللثـم بكمـه

ثم قوله بعد ذلك :

بليت بطفـل قـل طـائل نفعـه
سوى قبل يزرى بها طول منعه
ويمسحها من عارضيـه بكمه
ويغسـلها من وجنتيـه بدمعه

(١) الكلمة المنقوطة هى نفس الكلمة الصريحة ، فعلا ماضيا .

يكاشفني ان لاح شخص بعينه
ويغتابني ان مر ذكرى بسمعه

وكان حاذقا فى معاملة الناس ، ويعترف بأنه يماريهم من أجل الرزق ، قائلا :

انى لمرزوق من الناس اذ
اصبحت من أحذق حذاقهم
ما ذاك من فضل ، ولكننى
اخالق الناس بأخلاقهم

ويقول ياقوت ان للزوزنى شعرا من الطبقة العليا ، وله قصائد غر ، ومقطعات فى الغزل مأثورة وكان ينسخ كتب الادب أحسن النسخ ، ومنها كتاب يتيمة الدهر فى خمس مجلدات وكتاب « غريب الحديث » لأبى سليمان الخطابى ، وغيرهما من أمهات الكتب .

وهو أول من شرح ديوان البحترى شرحا فريدا .
وكان الزوزنى ، اذ دنت منيته ، يخشى قول الناس فيه بعد وفاته ، ويقول :

ليت شعرى ، اذا خرجت من الد
نيا فأصبحت ساكن الاجداث
هل يقولن اخوتى بعد موتى
رحم الله ذلك البحاثى ؟ ..

***

فلما مات بكاه الناس ، ورثاه أبو سعد بن دوست قائلا :

يا أبا جعفر بن اسحق انى
خاننى فيك نازل الاحداث
من هوى من مصاعد العز قسرا
بك تحت الرجام فى الاجداث

فلك اليوم من قواف حسان
سرن فى المدح سيرها فى المراثى
مع كتب جمعن فى كل فن
حين يروين الف باك وراث
قائل كلها بغير لسان
رحم الله ذلك البحاثى

وكانت وفاته بغزنة ، سنة ٤٦٣ هـ .



العبرتائٮ

وزير لا يفيق من الرقـــــــاعة
بولى ثم يعزل بعد ســـــــاعة
اذا أهل الرشــــا صاروا اليه
لأحظى القوم أوفرهم بضــــاعه

هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، أبو الحسن العبرتائى ، نسبة الى بلدة « عنبرتا » .

كان حسن البديهة ، شاعرا ماضيا أديبا لا يسلم من لسانه أحد ، حتى لقد هجا كل من أحسن اليه ، ولم يسلم من هجوه أبوه نفسه .

وشر من ذلك ، انه كان يصنع الشعر فى النيل من الرؤساء ، وينسبه الى ابن الرومى وغيره من معاصريه .

من ذلك قوله يخاطب عبيد الله بن سليمان الوزير ، وقد مات ابنه أبو محمد :

قـل لأبى القاســم المرجى
قابلك الــــدهر بالعجائب
مات لك ابن ، وكان زينا
وعاش ذو الشـين والمعايب
حيـاة هــذا كفقد هــذا
فلست تخلو من المصـائب

قال هذه الابيات ، ونسبها الى ابن الرومى . فلما بلغت عبيـد الله ساءته ، فدعا العبرتائى وقال له : يا على ، كيف قلت .. ؟

فأدرك انه مغضب ، فقال : قلت أيها الوزير :

قـل لأبى القاسـم المرجى
لن يدفع الموت كف غالب
لئن تـولى بمن تـولى
وفقـده أعظم المصـائب
لقـد تخطت لك المنـايا
عن حـامل عنـك للنوائب

ويعنى ولده الآخر أبا الحسين ، فسكت عبيد الله ، وغفر له .

ومن من هجائه ، قوله فى الوزير الخاقانى :

وزير لا يفيق من الرقاعه
يولى ثم يعزل بعد ساعه
اذا اهل الرشا صاروا اليه
فأحظى القوم أوفرهم بضاعه
فلا رخما تقرب منه خلقـا
سوى الورق القحاح ولا شفاعه
وليس بمنكر ذا الفعل منه
لأن الشيخ أفلت من مجاعه

وكان مع فصاحته وبيانه ، لا حظ له من التطويل ، فجل قصائده مقطعات قصار .

وكانت له الى جانب الشعر تصانيف جليلة ، ابرزها كتاب « أخبار عمر بن أبى ربيعة » وكتاب المعاقرين ، وكتاب ديوان رسائله ، وكتاب مناقضـات الشعراء ، وكتاب أخبار الاحوص .

***

وكان كثير الاسـاءة للمحسـنين له ، كما أسلفنـا القول .

من ذلك ما رواه ابن حمدون النديم ، قال :

كان المعتضد قد أمر بعمارة البحيرة واتخاذ رياض حواليها ، وأنفق على الابنية بها ستين ألف دينار .

وكان يخلو فيهـا مع جواريه ، وفيهن جارية اثيرة يقال لها دريرة ، فقال العبرتائى :

ترك النـــاس بحيره
وتخلى فى البحـــيره
قاعد يضرب بالــ ...
على . . . دريره (١)

وبلغ البيتان المعتضد ، فلم يظهر لأحد انه سمعهما ، وامر بتخريب ما استعمره من تلك العمارات والابنية .

قال ابن حمدون : فكنت ألاعب المعتضد بالشطرنج ذات يوم ، اذ دخل عليه القاسم بن عبيد الله ، وهو وزيره ، فاستأمره فى شيء وانصرف . فلما ولى ، أنشد المعتضد قول العبرتائى فى القاسم :

حياة هـذا كموت هذا
فلست تخلو من المصـائب

وجعل يكرر البيت وهو يلعب ، حتى عاد القاسم ، والمعتضد غير منتبه اليه ، يلعب ويردد البيت .

قال ابن حمدون : فاحتلت حتى أعلمته بحضوره ، فرفع رأسه اليه واستحيا منه ، ثم قال له : يا ابا الحسين ، لم لا تقطع لسان هـذا الماجن وتدفع شره عنك ؟ ..

فانصرف القاسم مبادرا الى مجلسه ، فطلب العبرتائى ...

قال ابن حمدون : فدهشت وارتعشت يدى فى اللعب خوفا مما يلحق بالعبرتائى ، للقرابة التى بينى وبينه . فقال المعتضد : مالك ؟ .. قلت :

يا أمير المؤمنين ، القاسم لا يصطلى بناره ، وكأنى به وقد قطع لسان العبرتائى حنقـا عليه ، وهو أحـد

(١) الكلمتان المنقوطتان هما سوأتا الرجل والمرأة .

النبلاء الشعراء ، فيكون ذلك سبة على أمير المؤمنين .

فأمر المعتضد باحضار القاسم ، وسأله عما فعله فى امر العبرتائى ، فقال : لقد أمرت باحضاره لأقطع لسانه . قال المعتضد : انما أمرناك أن تقطع لسانه بالبر والصلة والتكرمة ، ليعدل عن هجائك الى مدحك.

قال : يا أمير المؤمنين ، لو عرفته حق المعرفة ، وعلمت ما قاله فيك وفى البحيرة ودريرة ، لأجزت قطع راسه .

فتبسم المعتضد وقال : انما أمرنا بتخريب البحيرة لذلك . فتقدم أنت باحضاره ، وأخرج له ثلثمائة دينار، فان ذلك أولى وأحسن من غيره .

قال ابن حمدون : فأحضره القاسم وخلع عليه ، وولاه بريد الصميمرة وما والاها ، فبقى فى عمله الى آخر ايام المعتضد . ثم جمح به طبعه الى اعادة الاساءة ، فقال :

ابلغ وزير الامام عنى
وناد ياذا المصيبتين
يموت خلف الندى ويبقى
وأنت من ذا سخين عين
حياة هذا كموت هذا
فالطم على الراس باليدين

ومن حكاياته وهو يتولى البريد، ان أخا أبى صخرة ، عامل المدينة ، أهدى اليه فى ليلة عيد الاضحى بقرة للأضحية ، فاستقلها العبرتائى وردها اليه مع رقعة كتب عليها :

كم من يد لى اليك سالفة
وأنت بالحق غير معترف
نفسك أهديتها لأذبحها
فصنتها عن مواقع التلف !

وكان من تهتكه انه كان يحب الغلمان ، وهو يروى عن نفسه هذه الحكاية :

كنت أتعشق خادما لخالى أحمد بن حمدون، فقمت اليه ليلة لأدب عليه ، فلما اقتربت منه لسعتني عقرب ، فصرخت ، فقال خالى : ما تصنع ها هنا ؟ ..

فقلت : جئت لأبول . فقال : صدقت ، ولكن تبول في . . . غلامى ، فقلت لوقتى :

ولقد سريت مع الغلام لموعد
حصلته من غادر كذاب
فاذا على ظهر الطريق مغذة (١)
سوداء قد عرفت أوان ذهابى
لا بارك الرحمن فيها عقربا
دبابة دبت على دباب

***

ويبدو انه تاب عن تهتكه فى شيخوخته ، فجعل يقول مثل هذا القول الرزين :

أقصرت عن طلب البطالة والصبا
لما علانى للمشيب قناع
لله أيام الشباب ولهوه
لو أن أيام الشباب تباع
فدع الصبا يا قلب واسل عن الهوى
ما فيك بعد مشيبك استمتاع
وانظر الى الدنيا بعين مودع
فلقد دنا سفر وحان وداع
فالحادثات موكلات بالفتى
والناس بعد الحادثات سماع

ومات العبرتائى عن نيف وسبعين سنة ، وكان ذلك سنة ٣٠٢ هـ .

(١) مغذة ، من أغذ أى أسرع السير ، ويقصد العقرب



عمر بن أبي ربيعة

وذو الشـوق القديم ، وان تعزى
مشوق حين يلقى العاشـقينا

ويكنى « أبا الخطاب » . . .

وهو شاعر قرشي ، فاتن السمت ، عريق النسب ، ولد يوم مقتل عمر بن الخطاب ، ولهـــذا يقول فيه خصومه : أى حق رفع ، وأى باطل وضع ، فى ذلك اليوم !

وقد عاش طويلا ، حتى شارف الثمانين ، ويقال انه قضى نصف عمره متهتكا ، ونصفه الآخر ناسكا .

ولــكن تهتكه كان أكثر ما يكون فى فرط مغــازلته للنساء ، حتى انه لم يتورع عن مطاردتهن وهن يؤدين مناسك الحج والعمرة .

وكانت العرب تقر لقريش بالتقدم على سائر القبائل فى كل شيء الا الشعر ، حتى كان عمر بن أبى ربيعة ، فأقر لها العرب بالشعر أيضا .

على انه لم يتفوق على غـيره فى مجال من مجالات الشعر الا الغزل ، وقد اعترف له بهذا أكثر معاصريه ، فقال جرير عنه انه أنسب الناس ، أى أجملهم تسيبا .

وكان حماد الراوية مفتونا بشعر عمر ، حتى لقـد قيل له ذات يوم ان هناك رجلا لا يعجبه شعر عمر ، فأجاب بقوله : اذهبوا بنا اليه .

قالوا : ماذا تصنع به ؟ ..

قال : ننزوا على أمة لعلهـا تأتى بمن هو أمثل من عمر ! ..

ويصفه أحد معاصريه بقوله :

« راق عمر بن أبى ربيعة الناس ، وفاق نظراءه ، وبرعهم بسهولة شعره ، وشـــــدة الاسر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصـــد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وانطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، واثبات الحجة ، وترجيح الشك فى موضـــع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العزال ، وقـــد أحســـن التفجع ، وبخل المنازل ، واختصر الخبر ، وصدق الصفاء ، ان قدح أورى ، وان اعتذر أبرأ ، وان تشكى أشجى ، واقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغرة ، وأسر النوم ، وغم الطير ، واغذ السير ، وحير ماء الشـــباب ، وسهل وقول ، وقاس الهوى فأربى ، وأبرم نعت الرسل وحذر ، وأعلن الحب وأسر ، وبطن به وأظهره ، وألح وأسف ، وأنكح النوم ، وجنى الحديث ، وضرب ظهره لبطنه ، وأذل صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلى قاتله ، واســـتبكى عاذله ، ونفض النوم ، وأغلق رهـــن منى وأهدر قتلاه ، وكان بعد هذا كله فصيحا »

وهذا الوصف ، الذى لم يقله أحد فى شاعر آخر فى اى عصر ، وفيه ما فيه من المبالغة ، ومن التناقض فى بعض مواضعه ، يدل بوجه عام على أن عمر كان محبوبا من معاصريه ، ومن أبناء صنعته بخاصة ، لانه كان لا يتكسب بالشعر كغيره ، وكان له من حسبه ونسبـــه وماله وجماله وظرفه ولطفه ما يحشـــد حـــوله قلوب الرجال والنساء ، حتى انه ليقول ان اللواتى عشقنه من النساء كن أكثر ممن عشقهن هو ..

ويحاول بعض النقاد أن ينفى عن عمر مفـــامراته مع

النساء ، أو أن يخفف منها ، فيقول انها كانت مناورات عذرية . ولكننا نأخذ عمر باعترافه فيما قاله لأبى سمرة الرومانى ، اذ قال انه — أى أبا سمرة — كان يطوف بالبيت ، فرأى شيخا فى الطواف ، هو عمر ابن أبى ربيعة فى شيخوخته ، فقبض على يده وقال له : يابن ربيعة ، أكل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ ..

قال : اليك عنى ...

قال : أسألك بالله ...

قال : نعم ، وأستغفر الله !

وكان سليمان بن عبد الملك يسأل عمر : ما يمنعك من مدحنا ؟ .. فيجيبه عمر بقوله : انى لا أمدح الرجال ، انما أمدح النساء .

وكان رجال قريش يخشون على نسائهن من شعر عمر .

قال ابن جريج : ما دخل على العواتق (أى الفتيات الناضجات) فى مجالهن شىء أضر عليهن من شعر عمر ابن أبى ربيعة .

وقال هشام بن عروة : لا ترووا فتياتكم شعر ابن أبى ربيعة ، لا يتورطن فى الزنا تورطا !

***

ولا نستطيع أن نجزم بما كان من أمر نسكه فى شيخوخته ، أهو عن عفة أو عن عجز ، ولعل فى قوله ما يقرب لنا الظن الثانى ، اذ يقول : لقد كنت وأنا شاب أعشق ولا أعشق ، فاليوم صرت الى مواراة الحسان الى الممات .

ومما يرجح هذا الظن ، انه رأى فى الطواف شابين وسيمين ، فسألهما من يكونان ؟ فلما عرفهما ، قال لهما : انى موكل بالجمال أتبعه ، وانى رأيتكما فراقنى

حسنكما وجمالكما . فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه .

ويروى عنه انه كان مع الوليد بن عبد الملك في ركب، وحرك عمر رداءه ليصلحه على كتفه . فرأى الوليد على منكبه أثرا ، فقال له : ما هذا الاثر ؟ ..

قال : كنت عند جارية ، اذ جاءتني جارية برسالة من عند جارية أخرى ، فجعلت تسارني . فغارت التي كنت أحدثها فعضت منكبي . فما وجدت ألم عضها من لذة ما كانت تلك تنفث في أذني ، حتى بلغت ماترى.

وضحك الوليد ، فلما رجع عمر من الركب ، قيل له : ما الذي كنت تحدث به أمير المؤمنين فأضحكه ؟..

قال : ما زلنا في حديث الزنا حتى رجعنا .

***

كان من معاصريه جميل بثينة ، شاعر الغزل المأثور. ولكنه كان يعترف لعمر بالسبق . اجتمعا يوما بالابطح ، فأنشد جميل قصيدته التي مطلعها :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلي
بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون : مهلا يا جميل ، وانني
لأقسم مالي عن بثينة من مهل

وأكمل القصيدة ، ثم سأل عمر أن ينشد من هذا الروى ، فقال عمر :

جرى ناصح بالود بيني وبينها
فقربني يوم الحصاب الى قتلي (١)
فطارت بحد من فؤادي وقارنت
قرينتها حبل الصفاء الى حبلي
فقالت : وأرخت جانب الستر انما

---

(١) الحصاب : موضع رمى الجمار .

معى فتكلم غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها : ما بى لهم من ترقب
ولـكن سرى ليس يحمله مثلى

وأكمل القصيدة المعروفة ، فقال له جميل : هيهات أبا الخطاب ، لا أقول والله مثل هذا أبدا . والله مايخاطب النساء مخاطبتك أحد .

وقام مشـمرا ...

***

وكان عمر كريما مفداقا ...

يحكي انه هام بامرأة فواعدها ، فلما جاءه رسـول يبشر بقدومها ، أعطاه مائة دينار .

ويروى عنه انه بعد أن كبر ، رأى رجلا يكلم امرأة فى الطواف ، فلامه على هـذا وسأله أن يرعى حرمة المكان ـ وهو ما لم يفعله عمر فى شـبابه ـ فقال له الرجل : انها ابنة عمى ...

قال عمر : هذا أشنع ...

قال : انى خطبتهـا لعمى ، فطلب أربعمائة دينـار صداقا ، وأنا غير مطيق ذلك .

وشكا اليه من حبها وكلفه بها ، فسار عمر معه الى عمه ، فأعطاه الصداق ، وزوجها له .

وحينما دبت الشيخوخة فى أوصال عمر ، تاب عن الشعر وحلف الا يقول بيت شعر الا أعتق رقبة .

وذات ليلة ، هيجت جارية له نزوعه الى الشعر ، فقال :

تقول وليـدتى لمـا رأتنى
طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقا
وهاج لك الهوى داء دفينا

وكنت زعمت أنك ذو عزاء
اذا ما شئت فارقت القرينا
بربك هل أتاك لها رسول
فشاقك أم لقيت لها خدينا
فقلت : شكا الى أخ محب
كبعض زماننا اذ تعلمينا
فقص على ما يلقى بهند
فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وان تعزى
مشوق حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة أعرضت عنها
لغير قلى وكنت بها ضنينا
أردت بعادها فصردت عنها
ولو جن الفؤاد بها جنونا

ثم دعا تسعة من رفيقه فأعتقهم ، لكل بيت عبد او جارية !

***

ولو أردنا ان نعد النساء فى حياة عمر ، لاعيانا العد ، ولكل منهن نصيب فى شعره حتى ان ابنة الخليفة لم تسلم منه .

ذلك ان فاطمة بنت عبد الملك بن مروان قدمت الى مكة للحج ، فجعل عمر يدور حولها ويسمعها من شعره فيها دون أن يبوح باسمها خوفا من غضب الخليفة الذى حذرها منه وتوعده ان تعرض لها ..

فلما قضت حجها وارتحلت ، قال عمر ، وهذه من أرق غزله :

كدت يوم الرحيل أقضى حياتى
ليتنى مت قبل يوم الرحيل

لا أطيق الـكلام من شدة الخو
ف ، ودمعى يسيل كل مسيل
ذرفت عينهـــا وفاضت دموعى
وكلانا يأتى بوجد أصيـــــل
لو خلت خلتى أصـــبت نوالا
وحديثـــــا يشفى مع التنويل
ولظـل الخلخـال فوق الحشـــايا
مثل أثناء حيـــــــة مفتول
فلقـــد قالت الحبيبة : لولا
كثرة النـاس جزت بالتقبيـــل



مطيع بن إياس

ان تشـتـه فســـادا
فعنــــدنا فســـاد
او تشــئه غـــلاما
فعنــــدنا زيـــاد
ما ان به التـــــواء
عنـــا ولا بعـــاد

هو شاعر من مخضرمى الدولتين الاموية والعباسية. وكان ظريفا خليعا ، حلو العشرة ، مليـح النـادرة ، ماجنا ، متهما فى دينه بالزندقة ، ويكنى أبا سلمى .

وقد ولد ونشأ بالـكوفة ، الا انه فلسطينى الاصل ، اذ جاء أبوه الى العراق مع من أمر بهم عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف فى وقت قتاله مع ابن الزبير وابن الاشعث ، فاستقر بالـكوفة ، وتزوج ، وولد له مطيع .

ومن جداته امراة اسمها « أم خارجة » ســار بها المثل ، اذ يقال « أسرع من نكاح أم خارجة » لانهـا كانت مزواجة كثيرة الاولاد .

ويروى أحد الرواة أن شيخا من أهل الـكوفة قدم على البصرة ، وكان يحدث عن أبنـاء مطيـع بن اياس ويحيى بن زياد وحماد الراوية وسائر ظرفاء الـكوفة ويروى الـكثير عن أعاجيبهم وظرفهم ، فلم يكن يحدث عن أحد بأحسن مما كان يحدث عن مطيع .

قال الراوى : فقلت له ، كنت والله أشتهى أن ارى مطيعا .

فقال : والله لو رأيته للقيت منه بلاء عظيما ...

قال : وأى بلاء ألقاه من رجل أراه ؟

قال : كنت ترى رجلا لا يصبر عنه العاقل اذا رآه ، ولا يصحبه أحد الا افتضح به .

وسئل أحد أصحابه عنه ، فقال : لا تسألنى عن رجل اذا حضر ملكك ، واذا غاب عنك شاقك ، واذا عرفت بصحبته فضحك .

وذكر حكم الوادى ، المطرب المشهور ، انه غنى الوليد بن يزيد ذات ليلة وهو غلام حديث السن هذه الابيات :

أكليلها ألوان
ووجهها فتان
وخالها فريد
ليس لها جيران
اذا مشت تثنت
كأنها ثعبان

فطرب الوليد أيما طرب ، وسأل عن صاحب هذا الشعر ، فقيل له انه شاعر بالكوفة ، اسمه مطيع ابن اياس ، فبعث رسولا الى الكوفة أتى به ، فقبله فى فيه وبين عينيه ، واتخذه نديما ، وشرب معه ، وسمع منه ، وأجزل له العطاء .

وكان مطيع ويحيى بن زياد وابن المقفع ووالبة ابن الحباب يتنادمون ولا يفترقون ، ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا بملك ، وكانوا جميعا يرمون بالزندقة .

ويروى النوفلى ان مطيعا كان مأبونا ، فدخل عليه قوم فلاموه على فعله ، وقالوا له : انت فى أدبك وشرفك وسؤددك ترمى بهذه الفاحشة القذرة ؟ فلو أقصرت عنها ! ..

فقال : جربوه أنتم ، ثم دعوا ان كنتم صادقين .
فانصرفوا عنه قائلين : قبح الله فعلك وعذرك ! ..
ودعاه حماد عجرد ذات ليلة الى سهرة مع صديقة له من المغنيات ، اسمها ظبية الوادى ، واشترط عليه ألا يتكلم أو يتظرف حتى لا يفسدها عليه .
ووعد مطيع . ولكنه أخل بالوعد ، وتكلم وتظرف حتى أفسد الجارية على حماد ، فسادا أدى بهما الى الخصام .
وخرج مطيع يهجو حمادا قائلا للجارية :

ألا يا ظبيـــــة الوادى
وذات الجســـد الرادى (١)
وزين المصـــر والـــدار
وزين الحى والنـــادى
وذات المبســـم العـــذب
وذات المبســـم البـــادى
أما بالله تســـــتحيـــ
ــــين من خـــلة حمـــاد
فحمـــــاد فتى ليس
بذى عز فتنقـــــادى
ولا مـــال ولا عـــز
ولا حـــظ لمرتـــاد
فتـــوبى واتقـــى الله
وبتى حبـــل عجراد
فقـــد ميزت بالحســـن
عن الخلـــق بافـــراد
وهـــذا البين قد حم
فجودى منـــك بالزاد

(١) الرادى : البهى .

وقد شاعت القصيدة وغناها المغنون وافتضح بها حماد المسكين .

وشبيه بذلك ما يروى عنه من ان يحيى بن زياد قال له : انطلق بنا الى فلانة صديقتي ، فان بيني وبينها مغاضبة ، لتصلح بيننا ، وبئس المصلح انت ! ..

فدخلا عليها ، فأقبلا يتعاتبان ، ومطيع ساكت ... حتى اذا أكثر ، قال يحيى لمطيع ، ما يسكتك ، أسكت الله صوتك ؟

فقال لها مطيع :

أنت معتلة عليه ، وما زا
ل مهينا لنفسه في رضاك

فاعجب يحيى مما سمع ، وذهش له ، فمضى مطيع يقول :

فدعيه وواصلي ابن اياس
جعلت نفسه الفداة فداك

فقام يحيى اليه بوسادة في البيت ، فما زال يجلو رأسه بها ويقول : ألهذا جئت بك يا ابن الزانية ؟ ..

وما زال يحيى يضرب ومطيع يستغيث والجارية تضحك ، حتى تركه وقد داخ .

ومن مجونه انه مر بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان ، فقال لهما : فيم انتما ؟

قالا : في قذف المحصنات . قال : أو في الارض محصنة فتقذفانها ؟

وروى عوف بن زياد انه كتب لمطيع ذات يوم يقول له : « أنا اليوم نشيط للشرب ، فان كنت فارغا فسر الي ، وان كان عندك نبيذ طيب ، وغناء جيد ، جئتك »

فجاءته رقعته وعنده حماد الراوية وحكم الوادي ، ومعهم غلام أمرد اسمه زياد ، فكتب اليه مطيع يقول :

نعم ، لنـــا نبيـــذ
وعنـــدنا حمـــاد
وخـــيرنا كثـــير
والخـــير مســـتزاد
وكلنـــا من طـــرب
يطـــير أو يـــكاد
وعنـــدنا واديـنـــا
وهو لنـــا عمـــاد
ولهـــونا لـــذيـــذ
لم يلهـــه العبـــاد
ان تشتـــه فســـادا
فعنـــدنا فســـاد
أو تشـــته غلاما
فعنـــدنا زياد
ما ان به التـــواء
عنـــا ولا بعـــاد

فلما قرأ عوف الرقعة صار اليهم فأتم يومه معهم .

***

ومن اقبح شأنه فى الزندقة ، انه اجتمع بيحيى بن زياد وبعض صحابه ، فشربوا أياما تباعا . فقال لهم يحيى ليلة من الليالى وهم سكارى : ويحكم ، ما صلينا منذ ثلاثة أيام ، فقوموا بنا حتى نصلى

فقالوا : نعم .

فقام مطيع فأذن وأقام .

ثم قالوا : من يتقدم ؟ (١)

فتدافعوا ذلك ، فقال مطيع للمغنية : تقدمى فصلى بنا . . .

فتقدمت تصلى بهم . وعليها غلالة رقيقة مطيبة بلا

(١) يتقدم : يكون اماما .

سراويل ، فلما سجدت بانت سوأتها ، فوثب مطيع وهى ساجدة ، فكشف عن سوأتها وقبلها وقطع صلاته ، ثم قال :

ولما بدا . . . جاثما
كراس حليق ولم يعتمد (١)
سجدت اليه وقبلته
كما يفعل الساجد المجتهد

فقطعوا صلاتهم وضحكوا وعادوا الى شرابهم .

***

الى هذا الحد بلغت به الزندقة ، ويبدو انه لم يكن يدعيها تظرفا ، وانما كان مؤمنا بها ، أخذها عن بعض كتب الزنادقة فحفظها ولقنها أولاده .

وقد أصابته فى كبره علة أقعدته ، فلبس لها ثيابا خضرا ، وجلس على فرش خضر ، وقال له الطبيب : أى شىء تشتهى اليوم ؟

قال : أشتهى الا أموت .

ومات بعلته هذه ، بعد ثلاثة أشهر مضت له من خلافة المهدى .

---

(١) الكلمة المنقوطة ، معناها سوأة " اة .



والبة بن الحباب

لها ، ولا ذنب لهـــــــــا
حب كـــــأطراف الرمـــــاح
جرحت فؤادى بالهـــــــوى
فـــالقلب مجـــروح النواحى

لو لم يكن والبة ، ما كان أبو نواس .

هو الذى أفسده ، وهو الذى جعل منه شاعرا يملأ الـكون .

وقد روينا طرفا من هذه السيرة ونحن نتحدث عن أبى نواس ، أما هنا ، فقد آن لنا أن نتوسع فى هـذا الحديث .

كان والبة من أهل الـكوفة . وكان له ابن عم اسمه أبو بجير الاسدى . وكان أبو بجير هذا عامل الخليفة أبى جعفر المنصور على الاهواز .

كان والبة فى زيارته يوما بالاهواز ، حينمـا هبـط عطار من البصرة ، يعرض عطوره على أبى بجير . وكان مع العطار غلامه الحسن بن هانىء ــ الذى أصـــبح أبا نواس فيما بعد ــ فوقع نظر الشاعر الغزل الماجن على الغلام ، فاستملحه من النظرة الاولى .

وتحدث اليه ، فلمس ما عنده من معرفـة وذكاء وحب للشعر وتطلع الى مكانة فيه .

وتساءل الغلام : ومن انت ؟

قال : أنا والبة .

فصاح الغلام متهللا : أنا والله ، جعلت فداك ، فى طلبك . وقد أردت الخروج الى الـكوفة والى بغـداد من أجلك . وان بى شهوة للقائك ، لأبيات لك تقول فيها :

لهــــا ، ولا ذنب لهــــا
حب كأطـــــــراف الرماح
جرحت فـــــؤادى بالهوى
فالقلب مجـــروح النواحى

***

حينمــا جاء محمــد بن أبى العبــاس السفاح الى البصرة ، عاملا عليها من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور سنة ١٤٧ هـ ، جاءت معه جماعة من الشعراء والمغنين، وأصحبه عمه المنصور، داهية بنى العباس، قوما تعاب صحبتهم ، فكلهم من أهل الزندقة والمجون، وغايته من ذلك أن يبغض ذلك الناس فيه ، فيرتفع ابنه المهــدى عند الناس .

كان من هؤلاء المــاجنين الخلعاء ، حماد عجرد ووالبة وأشباههما من المنكبين على الخمر والفسوق مع محمد السفاح .

وكان محمد يحب أن يسمع الحكم وهو يغنى له من شعر والبة مثل هذه الابيات :

قد قابلتنــا الكؤوس
ودابرتنـــــا النحوس
واليـــــوم هو نيروز
قـــد عظمتـــه المجوس
لم تخطه فى حســاب
وذاك مما تســـوس

فيطرب الامير لمــا يسمع ، ويزيد شرابا ويزيدون
وبمثل هــذه الابيات اشتهر والبة وذاع صيته بين اهل البصرة .

وكان والبة فى نسبته من بنى أســد ، فهو عربى قح ، ولــكنه كان مع ذلك أشبه بالموالى الروم منــه بالعرب ، فهو أشــقر ، أبيض اللون محمره ، ذهبى

الشعر ، واننا لنستدل على هذا الوصف من هجاء أبى العتاهية له :

وابن الحباب صليبة زعموا
ومن المحال صليبة أشقر (١)
ما بال من آباؤه عرب الال
ـوان يحسب من بنى قيصر
اترون أهل البدو قد مسخوا
شقرا ؟ أما هـذا من المنكر ؟
اكذا خلقت أبا أسامة ، أم
لطخت سالفتيك بالعصفر ؟
مالى رأيت أباك أسود غر
بيب الفدال كأنه زرزر (٢)
وكأن وجهك حمرة ، رئة
وكأن رأسك طائر أصفر

وقد تعرض والبة للكثير من هجاء الشعراء ، لغرابة لونه فيهم ، ولقبح سيرته فى الناس .

ثم انه كان فى الكوفة — وهى يومئذ من قواعد العلم والدين — متباعدا عن العلماء والفقهاء والمحدثين وأصحاب الاجتهاد فى الدين ، ملازما لامثاله من الرقعاء العاكفين على الشراب والجوارى والغلمان ، وقد يسكرون فيعربد بعضهم على بعض ، ويقولون فى ذلك شعرا لا حياء فيه . وقد يتهاجون فيفحشون فى القول الى غير حد .

وكان والبة بعد ذلك متلافا يسرف فى الانفاق على الملذات من خمر وطعام وجوار وغلمان ، وعلى دعوة اضرابه لكل ذلك ، برغم انه لم يكن واسع الثراء ،

(١) صليبة : عربى قح

(٢) غربيب ، حالك السواد — الفدال : مؤخر الرأس — زرزر : طائر اسود .

ولا قريبا من الخلفاء ، فكان عماده فى الرزق ، أن يتقرب الى من هم على شاكلته من عمال الخلفاء ، كابن عمه أبى بجير الاسدى عامــل الاهواز . فاذا نضب معين هؤلاء ، لم يستح ان يطلب الصلات من أصحابه الماجنين كحماد عجرد ، الذى أمله مرة وسوفه ، فكتب والبة اليه يقول :

حمــاد ، ما كانت عداتك بالعـدات الـكاذبه (١)
فعلام ياذا المـكرمات وذا الغيوث الصائبه
اخرت ، وهي يســيرة فى الرد ، حاجـة والبه
فأبو اســامة حقه احـد الحقوق الواجبـه
فاســتحى من ترداده فى حاجـة متقــاربه
ليســـــت بكاذبة ولو والله كانت كاذبه
فقضيتها احمـدت غب قضائها فى العاقبـه

وما أن قرأ حماد الابيات ، حتى أحس أنه أصبح ممدوحا كما يمدح الخلفاء والامراء ، فقضى حاجــة والبة .

***

ويحدثنا ابن منظور عن والبة حينما راى ابا نواس غلاما لاول مرة ، فيقول : « فراى بدنا حسنا ، وكان جميل الوجه ، وحسن البدن ، فأطار عقله » .

ومنـــذ يومئذ تولى والبة أمر ابى نواس ، وعلمه الشعر والمجون وهو غلام ، وكان بينهما عشرة سيئــة لم يتحرج الاصبــــهانى من روايتها بصراحة فى كتابه « الاغانى » ... بل ان أبا نواس نفسه لم يتحرج من الاعتراف بها بكل صراحة ، وفى روايته ما يدلنا على ان استاذه والبة هو الذى هيأ له هذا الطريق النكر الذى سلـكه طول حياته فأصبح على حد قول الدكتور طه حسين ــ مبغضا عند الناس ومحببا اليهم ... مبغضا

(١) عداتك : وعودك .

لسوء سيرته ، ومحببا لحسن شعره وتقدمه فى الادب الى حد لم يبلغه كثير من معاصريه .

وكان والبة يأخذ أبا نواس فى صحبته ويخرج به للنزهة ومعاقرة الخمر ، حتى لا يعقل ولا يعى ما يفعل ، وترتفع بينهما الحشمة .

وقد ظل والبة يفعل هذا بأبى نواس وهو حدث ، حتى نجح فى اضعاف خلقه وافساد سلوكه .

ومن لطيف محاوراتهما المرتجلة ، انهما خرجا يوما من الكوفة يريدان الحيرة ، ماشيين ، وأرجلهما تفوص فى الرمل ، وقد جاعا ، فدار بينهما هذا الحوار الشعرى المرتجل .

قال أبو نواس :

يا ليت فيما بيننا ستة
أرغفة ما بينها وزه

قال والبة :

من وز أرض الصين يؤتى بها
مشوية تتبعها رزه

قال أبو نواس :

خوذابة ، تؤخذ من بعدها
خمر من الحيرية المزه (١)

قال والبة :

يديرها ساق وقد شابها
من ماء مزن صوب مؤتزه (٢)

قال أبو نواس :

طاب لنا العيش ولكننا
أرجلنا فى الرمل مرتزه (٣)

---

(١) خوذابة : طعام من سكر ورز ولحم .
(٢) صوب مؤتزة : سحابة فائرة
(٣) مرتزه : مفروزة .



الـولـيـد بن يـزيـد

أتوعد كل جبـــار عنيد ؟
فهأنذاك جبـــار عنيـــد
اذا لاقيـــت ربك يوم حشر
فقل يارب مزقنى الوليـــد

وتهون البلية حينما يكون الشاعر ذو المجون من عامة الناس ، فللنـاس منه ما يروق لهم من مجونه ، فاذا اجترأ فجاوز هذا الحد برز له القانون .

ولـكن ما القول فى شاعر المجون اذا جاوز الحد ، وكان هو الحاكم الذى يملك القانون ؟

هذا ما كان من أمر خليفة المسلمين الاموى ، الوليد ابن يزيد بن عبد الملك .

كان من فتيان بنى أمية الظرفاء ، وكان أشـعرهم واجودهم . ولـكنه كان فاسقا خليعا فى دينه برغم انه من أبناء خؤولة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانه القائل :

نبى الهـدى خالى ، ومن يك خاله
نبى الهـدى يقهر به من يفـاخر

ومع هذا النسب الـكريم ، فهو القـائل حين سئل ما دينه :

يا أيها السائل عن ديننا
نحن على دين أبى شـاكر
نشربها صرفا وممزوجة
بالسخن أحيانا وبالفاتر

ويقال انه لمـا تولى خلافة المسلمين ، بدأ يومه بأن استدعى أهله وسألهم : أتدرون لم دعوتكم ؟

قالوا : اردت يا امير المؤمنين ان ترينا ما جدد الله لك من نعمته واحسانه .

فقال : نعم ، ولـكنى . . .

أشـهد الله والملائـكة الابر
ار والعـابدين أهل الصـلاح
انني أشتهى السماع وشرب الـ
ـكأس والعض للخدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفا
ره يسـعى الى بالاقـداح

ولما جن الليل ، سمع صـياح بنات سلفه هشام ، يندبن اباهن ، فما راعى شعورهن ، ولا احترم قرابتهن له ، وانشد يقول :

انى سـمعت بليـل
ورا المصـلى برنه
اذا بنـات هشـام
ينـدبن والدهنـه
ينـدبن قرما جليـلا
قـد كان يعضـدهنـه
أنا المخنث حقـا
ان لم أ . . . . . .

والفعل المحذوف ــ وبنون التوكيد ــ اقبح كلمة فى اللغة !

ويروى ابو الفرج عنه ما هو شر من هـذا ، يروى أن الوليد خرج ذات ليلة من مقصورة له الى مقصورة ، فوقع بصره على بنت له معها حاضنتها ، فوثب عليهـا فافترعها ، فصرخت الحاضنة تقول : انها المجوسية !

قال لها : اسكتى .

ثم أكمل :

من راقب الناس مات هما

وفــاز باللـــذة الجســـور

وقد بلغ من استخفافه بأمر الدين أن أشعب دخـل عليه يوما ، فكشف الوليد عن سوأته ، وسأل أشعب أن يسجد لها !

وذكرت جـارية من جـواريه انه قربهـا يوما وهو سكران ، فلما تنحى عنها ، آذنه المؤذن بالصلاة فحلف الا يصلي بالنـــاس غيرها ، فخرجت متلثمة فصلت بالناس !

وقيل ان الوليد بعث الى شراعة ـ وهو من ماجنى الندماء ـ فلمـا قدم ، قال له : يا شراعة ، انى لم استحضرك لاسألك عن العلم ، ولا لاستفتيك فى الفقه ، ولا لتحدثنى ولا لتقرئنى القرآن .

قال شراعة : لو سـألتنى عن هـذا لوجدتنى فيه حمارا .

قال : فكيف علمك بالفتوة ؟

قال : أنا ابن بجدتها ، وعلى الخبير بها سقطت ، فسل عما شئت .

قال : فكيف علمك بالاشربة ؟

قال : يسألنى أمير المؤمنين عما أحب .

قال : ما قولك فى المـاء ؟

قال : هو الحياة ، ويشركنى فيه الحمار .

قال : فاللبن ؟

قال : ما رأيته قط الا ذكرت أمى فاستحييت .

قال : فالخمر ؟

قال : تلك السارة البارة ، وشراب أهل الجنة .

قال : لله درك ! .. فأى شيء أحســن ما يشرب عليه ؟

قال : عجبت لمن قدر أن يشرب على وجه السماء فى كن من الحر والقر ، كيف يختار عليها شيئا ؟

وكان الوليد على علم بلؤم مجالس الغناء وما يدور فيها ، ولكنه ما كان يقدر أن يصبر عليها . وله فى ذلك خطاب الى بنى أمية يقول لهم فيه :

« يا بنى أمية ، اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل السكر . فان كنتم فاعلين ، فجنبوه النساء ، فان الغناء رقية الزنا . وانى أقول ذلك فيه على انه احب الى من كل لذة ، وأشهى الى من الماء البارد الى ذى الغلة ، ولكن الحق احق ان يقال » .

فكيف نفسر هذا القول ونوائمه مع صنيعه ، الا ان نقول ان الوليد كان مصابا فى نفسه بالشذوذ ، أو أنه كان مريضا بازدواج الشخصية ، نستشف هذا من الشطر الاول من عبارته هذه ، ومقارنتها بشطرها الاخير ، ومن أرجوزته التى استبدل بها خطبة الجمعة يوم صعد الى المنبر فأبى الا ان يقول للناس شعرا ... قال :

الحمد لله ولى الحمد
أحمده فى يسرنا والجهد
وهو الذى فى الكرب أستعين
وهو الذى ليس له قرين
أشهد فى الدنيا وما سواها
ان لا اله غيره الها
ما ان له فى خلقه شريك
قد خضعت لملكه الملوك
اشهد ان الدين دين أحمد
فليس من خالفه بمهتد
وانه رسول رب العرش
القادر الفرد الشديد البطش

ارســــــله فى خلقه نذيرا
وبالـكتاب واعظـا بشــــيرا
ليظهــــر الله بذاك الدينـــا
وقد جعلنـــا قبـــل مشركينا
من يطع الله فقد أصـــابا
أو يعصه أو الرسول خابا
ثم القرآن والهدى السبيل
قد بقيا لما مضى الرسول
كأنه لمـــــــا بقى لديكم
حى صحيح لا يزال فيكم
انــكم من بعــد أن تزلوا
عن قصده أو نهجه تضلوا
لا تتركن نصحى فانى ناصح
ان الطريق فاعلمن واضــح
من يتق الله يجد غب التقى
يوم الحساب صائرا الى الهدى
ان التقى أفضل شىء فى العمل
أرى جماع البر فيه قد دخـل
خافوا الجحيم اخوتى لعلـــكم
يوم اللقاء تعرفوا ما سركم
قد قيـــل فى الامثـــال لو علمتم
فانتفعوا بذاك ان عقلتــــم
ما يزرع الزارع يوما يحصده
وما يقدم من صلاح يحمده
فاســــــتغفروا ربكمو وتوبوا
فالموت منكم فاعلموا قريب

***

اتينا بهذه القصيدة ، لا من اجل فنها الشعرى ، فهى جرداء من ذلك ، ولـكننا أتينـــا بها كدليل على

ازدواج الشخصية عند هـذا الخليفة المريض ، الذى يقول مثل هذا الموضوع على المنبر ، ثم يكون ذات ليلة على غير هذا المزاج ، فيفتح المصحف ، فتقع عيناه ، اول ما تقعان على الآية الكريمة :

« واستفتحوا ، وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » .

فيصيح بخدمه : اسجعا سجعا ؟ علقوه

ويعلق المصحف الكريم ، ويأخذ الوليد القوس والنبل فيرميه حتى يمزقه ، ثم يقول له :

أتوعد كل جبار عنيد ؟
فها انا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشر
فقل يارب مزقنى الوليد

وسار البيتان الى النـاس ، فازدادوا سخطا على سخط ، ولم يلبثوا بعد قليل أن دبروا له فقتلوه شر قتلة .

نقول ان تلك القصيدة المنبرية ليست من جيد الشعر ، بل انها ليست الا نظما متراصا لا فن فيه . وهى لا تمثل شعر الوليد بأية حال ، وما نحسب ان له من هذا الطراز الا هذه .

ولكننا ـ على كراهيتنا لمجونه وزندقته ـ نقف مأخوذين بالناحية الجمالية فى الكثير من قصائده فى هذه الاغراض .

قضى الوليد ليلة عند غانية دعته للمبيت عندها ، فلما انصرف ، قال فيها :

قامت الى بتقبيل تعانقنى
ريا العظام كأن المسك فى فيها
أدخل فديتك لا يشعر بنا أحد

نفسى لنفسك من داء تفديها
بتنا كذلك ، لا نوم على سرر
من شدة الوجد تدنيني وأدنيها
حتى اذا ما بدا الخيطان قلت لها
حان الفراق ، فكاد الحزن يشجيها
ثم انصرفت ولم يشعر بنا أحد
والله عنى بحسن الفعل يجزيها

ومع طلاقة هذه الابيات ، وارتفاعها عن الاسفاف فى وصف ليلة غرام ، فان الوليد لم يتورع ، من استخفافه المؤصل بالدين ، أن يدعو الله لها جزاء ما أحسنت اليه فى « الفعل » فى تلك الليلة !

ومن أجمل خمرياته هذه الابيات التى تجمع بين المجون والفخر فى رقة سائغة سلسالة ، الى حد أن بعض ندمائه كان يرقص عند سماعها :

اصدع نجى الهموم بالطرب
وانعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش فى غضارته
لا تقف منه آثار معتقب
من قهوة زانها تقدمها
فهى عجوز تعلو على الحقب (١)
أشهى الى الشرب يوم جلوتها
من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورق جوهرها
حتى تبدت فى منظر عجب
فهى بغير المزاج من شرر
وهى لدى المزج سائل الذهب

(١) كانت القهوة عند العرب من أسماء الخمر ، والمقصود بتقدمها أنها معتقة .

كأنها فى زجاجهـــــــا قبس
تذكو ضيـــــاء فى غير مرتقب
فى فتيـة من بنى امية أهـــ
ـــل المجـد والمـأثرات والحسب
ما فى الورى مثلهم ولا بهمـــو
مثـــــلى ولا منتم لمثـــــل أبى

ومما يدل على سبق الوليد على غيره فى الخمريات قول ابى الفرج ان الشعراء قد اخذوا من أوصـــاف الوليد فى الخمر الـكثير الذى ادخلوه فى أشـــعارهم وسلخوا معانيها ، وقد سـلخ ابو نواس خاصـة كل معانيه وجعلها فى شعره فكررها فى عدة مواضع منه .

***

قال المدائنى : ولمـا أكثر الوليـد بن يزيد التهتك وانهمك فى اللذات وشرب الخمر وأفرط فى أمره وغيه ، مل الناس أيامه وكرهوه ، وتآمر عليه عقلاء بنى أمية فقتلوه .

ولم يعدم الوليـد بعد انفضـاض سيرته من ينبرى للدفاع عنه وتبرئته .

يقول أبو الفرج ان المهدى حين جاء ذكر الوليد ــ رماه بالزندقة ، فانبرى ابن علاثة الفقيه فقال : يا أمير المؤمنين ، الله عز وجل اعظم من ان يولى خلافة النبوة وامر الامة من لا يؤمن بالله . لقـــد أخبرنى من كان يشهده فى ملاعبه وشربه عنه بمروءة فى طهـــــارته وصلاته ، وحدثنى انه كان اذا حضرت الصـلاة يطرح ثيابا بيضا عليه من مطيبة ومصبغة ، ثم يتوضـــأ فيحسن الوضوء ، ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلى فيها أحسن صلاة بأحسن قراءة واحسن سكوت وسكون وركوع وسجود ، فاذا فرغ عاد الى تلك

الثياب التى كانت عليه قبل ذلك ، ثم يعود الى شربه ولهوه .

***

وهـــــــذه الحكاية تؤكد لنا ما زعمنا انه ازدواج الشخصية عند الوليد . فلعله كان مؤمنا فى قلبـه ، ولـكن الخمر كانت تفسد عليه ايمانه ، فكان اذا أفاق آمن ، واذا سكر كفر .

وتؤكد هذه النظرية حكاية عن نديم له أثير عنده ، اسمه القاسم بن الطويل العبادى ، وكان أديبا ظريفـا شاعرا . وكان الوليد لا يصبر على بعده .

كان القاسم عنده فى ليلة اشتد عليه السكر والطرب حتى نام ، فلما فتح عينيه والخمار لايزال فى رأسه ، سأل عن القاسم ، فقيل له انصرف ، فغضب وصاح : ائتونى برأسه .

وذهبوا فالتمسوا الرجل وذبحوه وأتوا برأسه الى الوليد ، فلما رأى الرأس أفاق من سكرته وسـأل عن قاتله ، فرووا له القصة ، فبكى وندم ورثاه بقصيـدة من جيد شعره فى الرثاء .

ومهما يكن من أمر ، فان تاريخ المجون قـد عرف عشرات من الماجنين من كل اون وفى كل عصر ، ولـكنه لم يعرف أفجر من الوليد فيما صـنع بكتاب الله مما لا يغفره له التاريخ الى يوم الدين .

المجون

في العصر الحديث

لم يكن المجون مقصـــورا فى أكثره على تلك الفترة الصاخبة من زمان الدولتين الاموية والعباســـية . فالمجون قائم فى كل عصر ، باق بقاء النفس البشرية فى نزواتها وانحرافاتها ، وضحكها وهزلها .

واذا كان صوت المجون قد علا أبان تلك الفترة التى اشرنا اليهــا كما لم يعل فى اية فترة اخرى من تاريخ الادب ، فذلك لان أثر الحضارة الفارسية عند دخولها على العرب ، بخيرها وشرها ، وبما تحمل فى طياتها من مذاهب معادية لروح الاسلام ، كان من أبرز الاسبــاب التى حملت الموالى ، ومن صاحب الموالى من العرب ، على الاسراف فى المجون ، اما انسياقا مع التيار ، واما تظرفا وطلبا للشهرة .

على ان المجون قائم فى كل عصر ، وفى كل أرض ، حتى اليوم ، وان كانت لهجة الزندقة منه قد اختفت ، وحـدة الانحراف الجنسى قد خفت ، وأصبح مجون شـعرائنا المعــاصرين يجرى اكثره فى الهجاء والدعابة والتظرف وما الى ذلك من الاغراض الهينة .

وقد عرفنا فى زماننا نفرا من الشعراء المتاجنين ، المسرفين فى المجون ، كالمرحومين عبد الحميد الديب ومحمد مصطفى حمام .

وكذلك ابتدع المرحوم حسين شفيق المصرى اسلوبا جديدا فى المجون السيــاسى ، اشتهر باسم « الشـعر الحلمنتيشى » .. وقوامه معارضة القصائد المشهورة ،

بقصائد مبتدعة ساخرة تدخلها الدارجة فى الكثير من أبياتها ، وتعرض برجال السياسة الذين حكموا مصر فى عهد الاحزاب .

وفيما يلى المامة عاجلة باللون الجديد من المجون الذى عرفه العصر الذى نعيش فيه ، وأكثره من الفكاهة الحلوة التى لا توغل فى المجون .

***

كان لأمير الشعراء أحمد شوقى ، على ضخامته ، جانب من المجون .

ومن الطف مجون شوقى ، مداعباته لصديقه الدكتور محجوب ثابت ، وهى مداعبات كثيرة ، دار اكثرها حول لحيته المشهورة ، وجواده الهزيل ، وسيارته العرجاء .

يقول شوقي فى لحية الدكتور محجوب ، وما يسكنها من البراغيث :

براغيث محجوب لم انسها
ولم انس ما طعمت من دمى
تشق خراطيمها جوربى
وتنفذ فى اللحم والاعظم
ترحب بالضيف فوق الطريق
فباب العيادة فالسلم
قد انتشرت جوقة جوقة
كما رشت الارض بالسمسم
وترقص رقص المواسى الحداد
على الجلد والعلق الاسحم
بواكير تطلع قبل الشتاء
وترفع الوية الموسم
اذا ما ابن سينا رمى بلغما

رأيت البراغيث فى البــــلغم (١)
وتبصرها حول « بيبا » الرئيس
وفى شـــــــاربيه وحول الفم
وبين حفـــائر أســـنانه
مع الســـوس فى طلب المطعم

وحين استبـدل الدكتور محجوب عربته وجواده ، وكان يســميه مكسوينى (٢) ، بســيارة عرجاء ، قال شوقى ، وكان ذلك سنة ١٩٢٤ :

لــكم فى الخط ســـياره
حـــديث الجار والجاره
« أوفرلاند » ينبيـــك
بها القنصل « طماره » (٣)
اذا حركهـــــا مالت
على الجنبـــين منهـــاره
وقـــد تحرن أحيــــانا
وتمشى وحـــــدها تاره
ولا تشـــبعها عـــين
من البنـــــزين فواره
ولا تروى من الزيــــت
وان عامت به الفــــاره
ترى الشـــارع فى ذعر
اذا لاحت من الحـــاره
وصبيــانا يضـــــجون

(١) يقصد بابن سينا الطبيب ، الدكتور محجوب ثابت • وكان « ابن سينا » يلقب بالرئيس ، وترى الاشارة فى البيت التالى •
(٢) والاسم أصله لاحد زعماء الاحرار بايرلنـــده الذى أضرب عن الطعام حتى مات جوعا • وقد سمى حصان محجوب مكســوينى بسبب تجويع محجوب له •
(٣) هو الشيخ طماره ، وكان اماما بالمفوضية المصرية فى وشنطون •

كما يلقون طيـــــاره
وفى مقـــــدمها بوق
وفى المؤخـــر زمـــارِه
فقـــد تمشى كما شـــاءت
وقـــد ترجع مختـــاره
قضى الله على الســـوا
ق أن يجعلهـــا داره
يقضي يومه فيهـــا
ويلقى الليـــل مازاره

***

أدنيـــا الخيل « يا مكسى »
كدنيـــا النـــاس غـــداره ؟
لقـــد أبـــدلك الدهـــر
من الاقبـــال ادبـــاره
فصـــبرا يا فتى الخيل
فنفس الحر صبـــاره
أحـــق ان محجـــوبا
ســـلا عنـــك بفخـــاره
وبـــاع الابلـــق الحـــر
« بأوفرلاند » نعـــاره
ولم يعـــرف لك الفضـــل
ولا قـــدر آثاره ؟
ولا والله ما كلفـــ
ـــت محجوبا ولا بـــاره
فلا البرســـيم تـــدريه
ولا تعـــرف نواره

***

ولشوقى ـ غير المحجوبيات ـ طرائف كثيرة ، منهـا

قوله عندما بشر بميلاد ابنه علي :

صـــــار شوقي ابا علي
في الزمـــان التـــــرللي
وجنـــاهـــا جنـــاية
ليس فيهـــــــا بأول

***

والشاعر القروي ، رشيد سليم الخوري ، من اكثر الشعراء الجادين في هذا العصر ، فجل شـعره وطني موهوب لوجه القومية العربية ، ودعوة الامة العربيـة الى اليقظة والتماسك في وجه الاستعمار .

ومع هذا ، فان له قصائد قليلة ضاحكة ، كتلك التي قالها عندما جز شاربيه :

قالوا : حلقت الشـــاربين
ويا ضيـــاع الشـــاربين
فأجبتهم : بل بئس ذان
ولا رأت عينــــاي ذين
الشــــاغلين المزعجـــين
الطـــالعين النـــازلين
ويلي اذا ما ارهفـــا
ذنبيهمـــا كالعقـــربين
ان ينـــزلا نجمـــا فمي
او يطلعـــا التطمـــا بعيني
واذا همـــا بســـط الخوا
ن تراهما ســـبقا اليـــدين
فاذا أردت الاكل يقتســـما
ن بينهـــــما وبيني
واذا أردت الشرب يمتصا
ن كالاســـــــفنجتين .

فكأنني بهما وقد
وقفا بباب المنخرين
عبدان من أشقى العبيد
تقاضيا ملكا بدين

***

وكان صديقنا المرحوم فخري البارودي ، من سراة الشام ، وهو في الوقت نفسه من زعمائها وساستها واعلام الادب والشعر والموسيقى والفكاهة فيها .

وكان يحب صباح الوجوه من الشباب ، وقد رويت عنه في هذا الصدد نوادر كثيرة ، شهدت واحدة منها ، اذ كنا بدمشق ، ومعنا نفر من اعلام الادب والشعر في مصر ، منهم أحمد رامي .

وكان مقررا أن نصعد الى بلودان ، ونقضي الليلة هناك ، على أن نبيت بأحد فنادقها .

وأصر فخري البارودي على أن يصحبنا الى بلودان ثم يعود ، وفعل . وهم بالعودة ، فاستبقاه رامي اشفاقا عليه من الطريق في الليل ، فذهب معنا الى الفندق .

وبعث له رامي بصحن من الكمثرى في غرفته ، مع مليح من غلمان الفندق . ويبدو ان الغلام كان يعرف بعض حكاياته ، فترك له الصحن على مائدة فيغرفته ، وولى مسرعا دون أن يستجيب لنداء فخري الذي يبدو انه كان يريد أن يقول له شيئا .

ونظم فخري أبياتا يشكر فيها رامي على هديته ، مطلعها :

يا رامي الشعر ، كمثراكمو وصلت
مع الرسول ، فأهلا بالحبيبين

وفي الصباح ، كنا نقف ، رامي وانا ومن معنا من

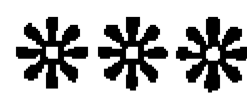
ادباء مصر ، مع نفر من الشباب المحب للأدب .

وجاء فخرى ، فألقى تحية الصباح ، وجعل يقبلنا واحدا واحدا ، حتى أدرك رامى ، فتردد قليلا ، ثم قال له :

ــ وأنت أيضا ... أقبلك لوجه الله .

فقال له رامى ، مشيرا الى حكاية « كمثراكمو وصلت مع الرسول » :

ــ أتريد أن تقبلنى لوجه الله أم لوجه الرسول ؟



ومن حكاياته انه كان مع بعض أصحابه ، ومنهم المرحوم حسنى تللو ، وكان هو الآخر من ظرفاء دمشق ، يسمرون فى بيت فخرى ، فهبط عليهم مطرب شاب مليح مخمور ، وجلس يغنيهم حتى الصباح :

وقال فخرى يصف الليلة :

وغزال زار تكيتنا
حرم الظرفاء بذى البلده
فى عتمة آخر شوال
اذ جاء مفاجأة وحده
وابو عدنان يحدثنا
حسنى تللو فوق السده
عن شيخ المفشى والمحشى
والعسل الصافى والزبده
واذا بالظبى يفاجئنا
والسكر يوسده زنده
صفقنا فرحا وسرورا
وأقمنا الكون بلا قعده
من ثمة راح يغنينا الـ
ـشحرور على نهج البرده

وجعلنـــا نرقص . بالدبكا
وفتـانا يرقص ع الوحـده
وأدار الـكأس مشعشـعة
يسـقي وينقلنـا خـده
فشربت ورحت أقبـله
خـدا يتـأرجح كالورده
فيروح ويغـدو منتشيـا
ويميس بقـد كالصـعده
وإذا بالفجـر يشـير لنـا
والليـل مشى يطـوى برده
بالقبـلة راح يودعنـا
كوداع الطفـلة للجـده
وأنا لليـــوم على نار
أرجـو ازيـارته رده

***

وحكاية أخرى ...

زاره ذات يوم نفر من اصدقائه في قريته «الجرباء» بالغوطة ، وكان فيهم الشاعر خليل مردم بك ..

وباتوا عنده ، فأكرمهم بالطعام والشراب والمنام فلما كان الصباح ، انصرفوا ولم يودعوه ، واكتشف فخري بعد انصرافهم ان خليل كتب على جدار الغرفة هذه الابيات باسمه هو ومن معه :

الا يا صـاحب الجربا
بلاك الله بالجـرب
فانا قـد وجدنا عنـ
ـدك البلوى على كثب
فلـدغ البق والنـامو
س يدنينا من العطب

ومذ خفنا الحمـــام فقـــد
لجــانا منـــك للهـــرب

وقرا فخرى هذه الابيات ، فرد عليهم جميعا بمثلها ، قائلا :

الا يا عصـبة الاشرا
ر اهل الزور والـكذب
أ أدعـــوكم وأكرمـــكم
واهجى دون ما سبب
يلذكم الهجـــاء كما
يلذ الحك ذا الجرب
فما أنتم سوى غجر
ولستم من بنى العرب
فشـــــعركمو ونثركمو
وهجوكمـــو على ذنبى

***

واحمد رامى ، هو من اظرف ظرفاء عصرنا هذا ، وله مداعبات كثيرة ، منها ان صاحبه الشاعر اللبنانى الجهير امين نخلة دعاه يوما الى الغداء ، وقال انه قد أعد له اكلة ممتعة .

فلما ذهب ، وجد ان هذه الاكلة الممتعة هي الضفادع ، التى لا تأكلها نحن المصريين ، فأمسك رامى عنها ، وخرج جائعا ، وكتب هذه القصيدة فى هجاء صاحبه :

دعانى الى اكلة ممتعـــه
وقال : سيطعمنى ضفدعه
وكيف تكون الضفادع قوتا
ومرقدها الليـل فى منقعه
تبيت مع الطـين مطمورة
وتـأكل أوضـاره طيعـه

وتملأ جو الليالى ضجيجا
يقض على نائم مضجعه
لها مشية مثل زحف القعيد
اذا دب يسعى على أربعه
وجلد كجلد الحذاء العتيق
تهرا ، وصاحبه رقعه
دعانى اليها فأمسكت عنها
ومد الى اكلها اصبعه
وراح يقضقض بالضبتين
عظاما لها بيننا قرقعه
فأقسمت الا أقبل فاه
اذا غاب والمنتأى أرجعه
وخيل لى ان أمد ذراعى
وطاب لكفى أن تصفعه
فلا كان هذا الطعام الكريه
ولا كان يومك يا ضفدعه



والشاعر الراحل محمود غنيم ، له اخوانيات كثيرة توغل احيانا فى الهجاء . ومن أصلحها للنشر ، انه ذهب مع بعض أصحابه لزيارة الشاعر محمود الخفيف ــ رحمه الله ــ وجاءت الظهيرة ومرت ، وأوشك العصر ، وهم جياع ، فقال لمحمود الخفيف :

ايه يا محمود جعنا
هات لحما ورغيفا
واسقنا شايا ثقيلا
لعن الله الخفيفا

ومن مداعباته لصديق له كان يعمل باحدى الدوائر الحكومية ، ورئيسته سيدة :

فلان ... نعم الرجل
محتـــرم مبجــــل
له رئيســــــة اذا
ما أمرت يمتثــــل
حتى اذا ما حمـلت
تــراه أيضـا يحمـل

نماذج من

الشعر الضاحك المعاصر

عبد الغنى سلامة

بين الجد والهزل

يقولون : جـد ولا تهزل
والا غـدوت بلا « منـزل »
فان الفكاهة شـؤم الاديب
وان يك فى منصـب يعـزل
فقلت : املكوا أنتم الناطحات
سأنأى عن الهم فى معـزل
مباهج حفت بهـا جنـة
ومن يسع فى نيلهـا يبـذل
سئمت الاسى ، وحياتى بكم
حيـاة أمر من الحنظـل
أ أسكت بين نبـاح الكلاب
لتنهش لحمى باللمز لى ؟ . .
ألفت الفكاهة . . . انى بها
ارد الى عمـري الارذل
سأحيا لها ... وأسوق الفلاظ
قطيعـا من الضـأن لم يهزل
فلا تعجبوا ان جزرت الخراف
وأعملت فى صـوفها مقزلى

ضرس شاعر

« نظم شاعر صديق قصيدة يرثى فيها ضرسه مدعيا انه لم يجاوز سن الخمسين مع انه قد ناهز الستين ، فقال عبد الغنى سلامة معارضا قصيدته الباكية » :

هل رأيتم من راى نوحا غلاما
كيف يحصى عمره خمسين عاما
عمر الشاعر وارتد الى
أرذل العمر ، ولم يشك سآما
يا له ودع ضرسا ناتئا
هاربا من أكل أموال اليتامى
جدره الفانى شجانا نعيه
حين سجاه وواراه الرغاما
ليس بدعا وغريبا أن سقى
ضرسه من ريقه الموت الزؤاما
وغريب ، بل عجيب أن نرى
مثله فى شدقه ضرس أقاما !
ظل يرميه بروع من وغى
سنه الستين طعنا وسهاما !
وهو ان خف الى معركة
جرد الضرس ولم يحمل حساما
كيف يبكيه ، ومثلى لم يجد
فى الثلاثين بفكيه عظاما

وانا الصــادق لا الـكاذب فى
ان ضرسى لم يذق يوما حراما
لا ولم أطحن به فولا ، ولم
اعتلك فى ســاعة الشــد لجاما

***

انا أولى ببـــــكاء موجــع
ينصف اللؤلؤ عقـــدا ونظــاما
أنا لو عاش لى الضرس الذى
ضــج ناعيه لفـــاخرت الاناما
كنت أكســوه نطـــاقا مذهبــا
ثم أبقيه على الصــدر وســاما

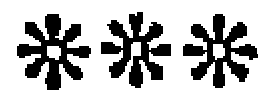
***

ظل يحمى ذلك الضرس لـكى
يحسن الاكل ديوكا وحمـــاما
وأنا أنشـــــد ضرســا علنى
أحسن النطق حديثــــا وكلاما
ايه يا شـــاعر عمــرت كما
عمــر الضرس ولم تبق طعاما
هات أســـانك وارحــل تاركا
لفمى نورا فقــد عاش ظـــلاما
من مجـــيرى من ظـــلام معتم
حالك شــــيع أضراسى تؤاما
جفت الادمع فى مأتمهـــــــا
وتجلــدت ، ولم أبد اهتمــاما
يا لمهــــدار على ضرس غـــدا
فى نـــواح زاد عن نــوح الايامى

عبد السلام شهاب

تفاريح أعياد

ببـاب الخلق قد طـال الوقوف
ولا جدى هناك ، ولا خروف
لقـد سبقت فما أبقت كروش
بها ـ للأكل ـ قد خلقت كهوف
لحوم العيـد قد وقفت عليهـا
وامثالى لهم : جلد ، وصوف
بل الاسعاف نعطيـه « ألفراوى »
أيسعفنـــا ونتركه يهيف ؟ . .
فيا عيد الضحية : هل اضحى
بنفسى فيك ؟ أم ماذا تشوف ؟ . .



الا . . . فى ذمة الحاتى . . . كباب
عليه الفائزون به . . . عكوف
فما ظفرت به منا . . . بطون
ولا ظفـــرت بريحتــه أنوف
اذا ذهب الاخــاء فـلا كـريم
يحن على الفقير ، ولا عطوف
فقل لذوى الذبائح : ألف طظ
ولا تسـأل اذا غضب القحوف

كفى . . . للأسرة احتفلوا بعيد
تساوى الضيف فيه والمضيف
وكم فيه اشترينا من هدايا
وما فيها تليد، أو طريف
بضائع . . . طالما فتنا عليها
ملقحة ، بها امتلأ الرصيف
ومدخراتنا . . . ضاعت هباء
وضيعها لنا الحس الرهيف
وما انتفعت بها أم رؤوم
ولا . . . زوج لها واب رؤوف

***

وقالوا : للصحافة جاء عيد
وأنت لكل أسرتها رصيف
نعم ، عيد الصحافة جاء يسعى
ونحن به ـ حواليها ـ نطوف
وفى دار النقابة . . . كل يوم
صباح مساء . . . تنتظم الصفوف
ونشبع كلنا : خطبا ، وشعرا
وازجالا . . . بها عملت كشوف
فمن يفرحه فى عيد خروف
ففرحتنا الصحائف والحروف

***

وقالوا : لليهود ـ كذاك ـ عيد
وفيهم صاحب حلو ظريف
فطرت اليه يحملنى اشتياقى
وقلت : سعدت فصحا يا جوزيف
فقابلنى بكم أهلا وسهلا
وأشبعنى كلاما . . . يا لطيف ؟

دماغى منه . . . حل به صداع
له دق على مخى عنيف
وخفت أموت بين يديه جوعا
فيرفسنى وفى يده الرغيف
وعدت بفردتى خفى حنين
وبفتهما .. لأبلع .. قرص « ريفو »

***

وفى عيد القيامة ، قمت أسعى
وفى ذهنى من الماضى طيوف
عسى ولعل ... آكل لحم ديك
به قلبى — على طول — شغوف
ولكنى رجعت ودمع عينى
على خدى من جوعى ذروف

كأن النيل يجرى تحت جفنى
ودمعى منه ينزحه شدوف
وواصلت الصيام برغم أنفى
وعدت كأننى قط أليف
تحجبت الفراخ . . . بلا حياء
ووارتها الستائر والسجوف

وأصبح لحمها سرا مصونا
وحتى ليس يعرفه العريف
وما منع الحجاب لقاء حب
ولكنى — على فقرى — أنوف
وآكل لقمتى — حافا — بكوخى
وليس يهمنى القصر المنيف
وياما قد أكلنا من ديوك
لها روس تتوجها عروف

وقلت : غدا لنـــاظره قريب
وفى عيـد الربيـع لنـا قطوف
على شم النسيم ... فطرت صبحا
ورحت على حـــدائقهم أطوف
فلم أر زهـــرة لم يقطفوهـا
ولم تذهب بنضرتهــا الحتوف
ورائحة الفسيخ لهـا هبـوب
وقد عصفت ولا الريح العصوف
وفوق الارض قد فرشت قشور
ملونة ، شـكا منهـا الجروف
فمن بيـض الى بصـل وفجل
عليهــا انكب جاز منتشـوف
فمـا يدرى ابن آدم : هل ربيع
يطـــالع فى الحدائق أم خريف
ولا يدرى ، ولا مخلوق يدرى
أروض ها هنـالك أم كنيف ؟

***

على ان الذى زاد انقـــلاقى
ومنه أنا على نفسى أســـيف
منـــاظر فى الحدائق للسكارى
وما فيهم ولا رجـل نظيـف
وكل فتى ... تلوف به فتـاة
سواى ، فليس بى أحد يلوف
فعــدت لمنـزلى أجـرى فرارا
كهتـــلر حين طـارده زكوف ،
فيالك فســـحة قلبت بفم
وما يرضى بهـــا الا سـخيف
وهل فيهـا سـوى قرف وغلب
وآفات ـ بلا حصر ـ تؤوف ؟

وقلت لزوجتي هـذا ، فثارت
كبركان يقـال له : فزوف
ومن فمهـا تشبلق بى لسـان
كما تهوى على الباغى السيـوف
اقول لها ، وقد هاجت وماجت
كفى ... فتقول : تكفيك الـكيوف
انحن أقـل قـدرا أو مقـاما
وكرشـك وحده الـكرش العفيف
وقلت لها : اسكتى ، فبكت بصوت
تردده الحوائط والسـقوف
وقالت : مالنا ـ كالنـاس ـ عيـد
فقلت لهـا : كذا قضت الظـروف
لقد كنا وكنا ... ثم صرنا
وقد نظفت من الستر الـكفوف
ومطبخنـا ... خـلا من كل لون
فما فيه لنـا الا الرفوف
زمان العز ولى ... بالاوازى
فلا أوسـيم تنجب او منوف
وليس فتى مرتبـه قروش
كمثل فتى مرتبـه ألوف
فمن يرقص له زمن الفـوازى
فانا لا تحركنا الدفـوف
وكم عيد ، شبعنا فيه لحما
وكانت عنـدنا منه صـنوف

***

فخلى عنـك لومى واعذرينى
فمـا فى الفقر عيب أو كسوف
انا فى عرض مامتـك اعتقينى
فقـد جننتنى ياست فوفو

وما قلبى بحب الفول مضنى
ولكني امرؤ سهل ألوف
فصبرا فى مجال الفول صبرا
فانى عن ذبائحهم عزوف
وفى الامثال قيل : الصبر حلو
ومن يصبر فذاك هو الحصيف
وأكل المش خير من خروف
أشككه . . . اذا وجد الخروف
اذا فى العيد أهل البيت صاموا
فليس يهم ما طفح الضيوف
وما ذنبى أسمن فى ضيوف
وجسمي ـ دائما أبدا ـ نحيف
ولو أنى استطعت شراء ديك
لقاسمت الخلوذ أباك خوفو

***

فيا عيد الفكاهة : أنت عيدى
وأنت لعمرك العيد اللطيف
وحسبى منك تشبعنى ابتساما
وحسبك أننى رجل شريف
وليس العيد يصنعه طبيخ
وليس العيد يصنعه غريف
وما دمنا معا نحيا ونسعى
فليس أمامنا شيء يخيف

***

نعم ، حقا هى الدنيا حظوظ
وما كالحظ فى الدنيا حليف
اذا ما الناس فازوا بانبساط
فما قد فاتهم . . . شيء طفيف

سوسو

احب سوسو ، وما ادراك ما سوسو
سوسو التى فى هواها الصب موحوس
كم اظهرت دلعا قد زادنى ولعا
ثم اشترت سلعا .. فالجيب متعوس
وقال عقلى : انس سوسو فهى مسرفة
فقلت : كلا ... فولى وهو ملحوس
وهامس باسمها فى سره سحرا
والـكون فى خنه المحبوك محبوس
فقمت من عز نومى صارخا فزعا
كانما شكنى فى القلب دبوس
وقلت : روحى وما تحويه محفظتى
فداء سوسو .. تعالى بس يا سوسو

هن هن

احبهن ، كلهن : بيضهن، سمرهن ، حمرهن .. غير هنه
واين هن: سودهن، صفرهن،خضرهن، زرقهن، اين هنه؟
الا .. وان كلهن : بعضهن . . . يشبهن بعضهنـه !
وكلهـن ، فافهمـن واحكمـن ، انهـن : هـن هنـــه

حسين شفيق المصرى

الفقر والأخلاق

« علو فى الحيــــاة وفى الممات
لحق تلك احـــدى المعجزات »
حيـــاتك كلها كانت صـــعودا
الى غرف الســـطوح العاليات

هى الســكنى ، وللفقر احتـكام
يمرمغ انف أقوى الـكائنـــات
وتدفن بعـــد موتك فوق تل
نزيلا بين أقوام حفـــــاة
كأنك قائم فيهم خطيبــــــا

يهجص فى الليـــالى الخاليات
بفلســـفه من التخريف أدعى
الى ضحكى من النكت اللواتى
تقول : الفقر للأخـلاق صـون
وفيه حشـــمة للغانيـــات
فقلت لك : اتلهى ما أنت الا
حمـــار من حمـــير ناهقـــات

رايت الفقر يفســد كل نفس
باذلال الابـــاة بنى الابـــاة
يخلى أشـــجع الشجعان يخشى
من الولد الصغير ... وم الفتاة
وكم فى الفقر من رجل حرامى
وكم فى الفقر من رجل فلاتى
ولولا المال ما صـلحت أمور
ولم تر كيف حل المشـكلات

رجال أحدثوا البدعا

« امسيت فوق تراب الارض مضطجعا
فما أبالى أراح الصبر أم رجعا ؟ »
مفيش شغل ولا مال نعيش به
والعقل م الراس بعد اليأس قد طلعا
ولا رجاء لنـا ما دام يدفعنـا
الى البلاء رجال احدثوا البدعا
أحزاب تلحمة ما فيهمو احـد
يدرى بشيء اذا لم يفتح الودعا
مخرفون ملاحيس اذا نطقـوا
قاقوا مقاقاة وز جاوب البجعا
فحزب شعب وليس الشعب يعرفه
ملخبط المخ طول العمر ما نفعا
وآخرون ادعوا م الجهل انهمو
حزب اتحاد وليس الرأى مجتمعا
فيـا وزارة بزياداك مهيصـة
بهؤلاء فحبـل الهيصـة انقطعـا

خلقت على كيفى

«سواى يهاب الموت او يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا »
وكم من فتى مثلى مرازى متلحم
رأى «حمدا» فى « زره » فتقنفدا (١)
« لكل امرىء من دهره ما تعودا »
وعادة هـذا الزر أن يتبـلدا

(١) حمد : المرحوم حمد الباسل

خلقت على كيفى وكيف أحبتى
وكيفك أيضا لو تقر على كذا
فلا بائعا دينى بدنيا أصيبها
ولا مظهرا للبقف يوما توددا
ولست وصوليا أريد وظيفة
فأنصب رأيى للوظيفة مصيدا
اذا أنت أكرمت الحصان ركبته
وان أنت أكرمت الحمار تبغددا
فان كنت يا ابن الناس زيى فاننى
صديقك ما أرغى العذول وأزبدا
وان كنت فلعوصا أو ابن صريمة
فدعنى ولا تكثر على الترددا

حسين طنطاوى

اضحك

اسمع ـ فهذا الشعر «حلمنتيشى»
هو ـ سكر ـ والله « سنترافيشى »
فيه الهزار ـ وفيه أيضا ـ حكمة
ونا شاعر فحل « وزيه مفيشى »
« أفكاره » هى كالجواهر «والنبى»
خذها ـ بلا ثمن ـ ولا بقشيش !..



اضحك ـ فان الضحك كالياميش
فى طعمه ـ والكحك والارائيش
اضحك ـ صباحا ـ أو مساء ـ مغربا
ليلا ـ بلا بخل ولا تحويش

اضحك ـ لاصحاب ـ لأهل ـ اخوة
« اضحك لى ـ لو حتى ماتعرفنيشى»
اضحك ـ إذا كانت أمامك « لحمة »
أو كنت « متغدى بجبنه أريش »
واذا ضحكت أنا « ما تسألنيشى »
عمـــا يضحكنى « ولا تحوشـنيشى »

***

اضحك ـ تجد دنيـاك ـ بنتا حلوة
وقفت «بتضحك لك ـ ولا بتمشيشى»
بوز ـ تجدها ـ غولة بمخالب
بالضرب ـ تنزل فيك ـ والتلطيش !!

***

اضحك أمام مراية ـ تر طلعـة
كالبـدر ـ أو أحـلا ـ بلا تهويش
بوز أمام مراية ـ تر سحنة
كالقرد ـ والله « ما تعجبنيشى »

***

اضحك ـ وكل « مشا » تحس كأنه
« جاتوهة » والجيم بالتعطيش !..
بوز ـ وكل « عسلا » تحس بحنضل
أو علقم ـ فى البق والنفاشيش ! ..

***

انى صديق الضحك ـ اجرى خلفه
«وانده» له ـ لو فات «ولاشافنيشى»
ويزورنى ـ فى بيتنا ـ وأزوره
فى بيته ـ لو غاب « لو ما يجيشى »

***

انى عدو الحزن ـ لو أنا شفته

فى سـكة ـ اجرى « ما تلحقنيشى »
واسك « شباكى » اذا «ست» بكت
أو صوتت ـ « بزجاجه والشيش »

***

لا تزعلوا ـ فالحزن ليـل ـ ضـلمة
والضحك نور ـ احمـر ـ طرابيشي
والضـاحكين ـ عقولهم موزونة
والزعلانون ـ عقولهم «مناويشى»

***

ان الحياة حديقة ـ بزهورها
وطيورها ـ ذات الفنا والريش
هى جنـة ـ وبنات حور ـ حولنـا
تبـدى حلاوتهـا « ولا تخبيشي »
لو شمسها غابت ـ ينور بدرها
ونجومها ـ فالنور «مابيطفيشى»

***

يا أيها الزعلان ـ ان جمالهـا
«دايما» أمام عيونك الشبش بيش !
افرح بها ـ وانس الهموم فانها
بأظـافر ـ فى القلب ـ كالخرابيش
اضحك ـ فان الضحك كاليـاميش
فى طعمه ـ والـكحك والقراقيش

فهرس

كتاب الهلال القادم :

اعلام الادب والفكر والدين يروون

قصة الازهر

رحاب العلم والايمان

يصدر ٥ يناير سنة ١٩٧٣ ـ الثمن ١٠ قروش

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جده – ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

ليس من المجون أن نكتب عن المجون ، فلقد أنشأ الاستاذ العميد الدكتور طه حسين فصولا مطولة عن أبي نواس وأصحابه من العابثين والزنادقة ، وكتب عملاق الأدب عباس محمود العقاد عن أبي نواس أيضا ، وعن « جحا ــ الضاحك المضحك » • ووضع عشرات من اعلام الأدب المعاصرين عشرات من الكتب عن أهل العبث والمجون في الأدب العربي ، ولاتزال دواوين هؤلاء تطبع وتنشر على النـــاس وتدرس في الجامعات حتى يومنا هذا ، والى ما شاء الله . كلون من الأدب ، الذي يبعث على الابتسامة مرة ، وينتزع من أعماقنـــا القهقهة مرة اخرى ، ولكن كثيرا ما تختفي وراء ابتساماتنا وقهقهاتنا استنكارات للنصوص التي نقرأها ، او استغفارات لله منها •

وامهات الكتب القديمة ، كالاغاني ومعجم ياقوت والف ليلة وغيرها من الكتب التي ينبغي لكل متأدب أن يقرأها ، لا تخلو ــ على فضلهـا وطرافتها ــ من حكايات مطولة عن شعراء المجون وعبثهم وزندقتهم وانحرافهم •

وهذا الكتاب ، دراسة لهذا اللون من الادب ، تصور التيارات التي تخللت تاريخ الأدب العربي في بعض العصور السياسية المضطربة ، ثم تنتهي الى نماذج لطيفة من عصرنا الحالي ، الذي خفت فيه وطأة المجون ، ونشأت فيه ألوان لطيفة وسمحة ومستحدثة من الشـــعر الفكه ، شارك فيها أعلام الشعر المعاصر ، كشوقي وحـــافظ ورامي وغنيم وحسين شفيق المصري وغيرهم •

١٠ فــــروش

كتاب الهلال
أعلام الأدب والفكر والدين يروون

قصة الأزهر
رحاب العلم والإيمان

سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعى

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفنى : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦٥ - ذو القعدة ١٣٩٢ - يناير ١٩٧٣

No. 265 — Janvier . 1973

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جـك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــــــة
الفنـــــان عادل ثابت

قصة الأزهر

رحاب العلم والإيمان

دار الهــــلال

تقديم

في مثل هذا العام ، من الف سنة ميلادية خلت ، اقيمت أول صلاة جامعة في صحن الازهر . وبهذه الصلاة الجامعة بدات القاهرة تجتذب انظار العالم الاسلامي الى هذا البناء الشامخ الذي ما لبث أن أصبح اكبر جامعة لعلوم الاسلام ، ومعارف الدين والدنيا ، ومحجا لطلاب النور من جميع فجاج العالم الاسلامي ، ومصدر اشعاع للقلوب المؤمنة والعقول الذكية والارواح المتفتحة .

وقد اجتاز الازهر ، في أعوامه الالف عشرات من المحن ، فأغلقت أبوابه ، وضربت حجارته بالقنابل ، وسقط في رحابه وعند بابه مئات من الشهداء .. ولكنه بقي صامدا أمام أحداث الزمن ، وخرج من كل محنة وهو أشد وهجا وأعمق ايمانا وأعلى هامة .

من رحاب الازهر خرجت أعظم الثورات في تاريخ هذا البلد ..

وفي رحاب الازهر ، تخرج المع الرجالات في كل علم وفن .. في رحابه تخرج أقطاب الشريعة والمحاماة والسياسة والادب والشعر والموسيقى ..

ولولا الازهر ، ما كان لنا أبو العلاء الجديد ، طه حسين . ولعل بروزه من صحن الازهر كان استجابة

من القدر لدعاء من أمير الشعراء ، فى قصيـدة يقول فيها للملك فؤاد ، ناصحا اياه بأن يرعى مكفوفى الازهر:

نظـرا واحســانا الى عميـائه
وكن المسـيح مداويا ومجبـرا
والله ما تدرى ، لعـل كفيفهم
يوما يكون أبا العـلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملـكك لم تجد
غبنا ، وجل المشترى والمشترى

فتحية للأزهر فى عيده الالفى ، وما زال فينا قلعة تحمى الشعار الذى نحمله فى أعماقنا فى هذا العصر : العلم والايمان .

صالح جودت

تحية للأزهر

قم فى فم الدنيا وحى الازهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر ان فصلته
فى مدحه خرز السماء النيرا
واذكره بعد المسجدين معظما
لمساجد الله الثلاثة مكبرا (١)
واخشع مليا ، واقض حق ائمة
طلعوا به زهرا وماجوا ابحرا
كانوا اجل من الملوك جلالة
واعز سلطانا وافخم مظهرا
زمن المخاوف ، كان فيه جنابهم
حرم الامان ، وكان ظلهم الذرا (٢)
من كل بحر فى الشريعة زاخر
ويريكه الخلق العظيم غضنفرا
لا تحذ حذو عصابة مفتونة
يجدون كل قديم شىء منكرا

* نظم امير الشعراء هذه القصيدة التى نتخير منها هذه الابيات الرائعة ، فى سنة ١٩٣٤ ، عندما نودى باصلاح الازهر . !

(١) المسجدان : الحرام والاقصى

(٢) الذرا . الملجأ

ولو استطاعوا فى المجامع ، انكروا
من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض فى القديم وهدمه
واذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة
والعلم نزرا والبيان مثرثرا (١)

***

يا معهدا أفنى القرون جداره
وطوى الليالى ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره
وأضاء أبيض لجها والاحمرا
وأتى الزمان عليه يحمى سنة
ويذود عن نسك ويمنع مشعرا (٢)
فى الفاطميين انتمى ينبوعه
عذب الأصول كجدهم متفجرا (٣)
عين من الفرقان فاض نميرها
وحيا (٤) من الفصحى جرى وتحدرا
ما ضرنى أن ليس أفقك مطلعى
وعلى كواكبه تعلمت السرى
لا والذى وكل البيان اليك ، لم
أك دون غايات البيان مقصرا
لما جرى الاصلاح قمت مهنئا
باسم الحنيفة بالمزيد مبشرا
نبأ سرى ، فكسا المنارة حبرة (٥)
وزها المصلى واستخف المنبرا

(١) النزر : القليل — والمثرثر : المخلط
(٢) النسك : العبادة — والمشعر · موضع مناسك الحج
(٣) جد الفاطميين ، على بن ابى طالب ، وكان بحرا فى العلم
(٤) الحيا : المطر (٥) الحبرة : الفرحة

وسما بأروقة الهدى فأحلها
فرع الثريا ، وهى فى أصل الثرى
ومشى الى الحلقات ، فانفرجت له
حلقا كهالات السماء منورا
حتى ظننا الشافعى ومالكا
وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا
ان الذى جعل العتيق مثابة
جعل الكنانى المبارك كوثرا
العلم فيه مناهلا ومجانيا
يأتى له النزاع يبغون القرى (١)

***

يا فتية المعمور (٢) ، سار حديثكم
ندا بأفواه الركاب وعنبرا
المعهد القدسى كان نديه
قطبا لدائرة البلاد ومحورا
ولدت قضيته على محرابه
وحبت به طفلا وشبت معصرا (٣)
وتقدمت تزجى الصفوف ، كأنها
«جاندرك» فى يدها اللواء مظفرا

***

هزوا القرى فى كهفها ورقيمها
أنتم لعمرو الله أعصاب القرى
الغافل الامى ينطق عنكمو
كالببغاء مرددا ومكررا
يمسى ويصبح فى أوامر دينه
وأمور دنياه بكم مستبصرا

(١) القرى : الضيافة
(٢) المعمور : الازهر
(٣) المعصر : الفتاة المدركة

لو قلتم اختر للنيـــابة جاهلا
أو للخطـــابة « باقلا » لتخيرا
ذكر الرجال له ، فأله عصبـة
منهم ، وفســق آخرين وكفــرا
آباؤكم قرأوا عليــــه ورتلوا
بالامس تاريخ الرجـــال مزورا

عمارة الأزهر

نحن الآن فى ميدان الازهر امام الباب المزدوج الذى انشأه الامير عبد الرحمن كتخذا سنة ١١٦٧ هـ ـ ١٧٥٣ م ، أمام الباب وكان يعلوه كتاب ، وتجاوره مئذنة وقد هدما وفكت مبانى الباب ثم أعيد بناؤها فى سنة ١٨٩٦ عند توسعة الشارع وبناء الرواق العباسى ، وبانشاء هذا الباب ضمت المدرستان الطيبرسية والاقبغاوية الى الازهر .

شيد الازهر القائد جوهر الفاطمى فى الجنوب الشرقى من مدينة القاهرة وعلى مقربة من القصر الكبير الذى أقيم حينذاك بين حى الديلم فى الشمال وحى الترك فى الجنوب . فهو أول جامع أنشىء بمدينة القاهرة الفاطمية . بدأ جوهر فى انشائه فى ٢٢ جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ ـ ٢ ابريل سنة ٩٧٠ م . وفرغ منه فى رمضان سنة ٣٦١ هـ ـ ٩٧٢ م . والمعروف ان أول جمعة صلاها الفاطميون فى الازهر ، كانت يوم ٦ رمضان سنة ٣٦١ .

وجامع الازهر الذى نزوره اليوم . ليس كله بالجامع الفاطمى الاصلى ، بل هو حصيلة اضافات من الآثار ضمت اليه فى أزمان متتابعة . وسنبدأ بالحديث عن تخطيطه وزياداته وزخارفه فى العصر الفاطمى .

(*) عن كتاب « الازهر وما حوله من الاثار » للاستاذ المؤرخ الدكتور عبد الرحمن زكي

الازهر فى العصر الفاطمى :

كان مخططه الافقى زمن بنائه مكونا من ثلاثة ايوانات حول الصحن ، الشرقى منها مكون من خمسة أروقة ، المشرف منها على الصحن يقوم على أكتاف ، أما الاروقة الباقية فمن عمد رخامية . وفى كل من الجانبين القبلى والشمالى ثلاثة أروقة ، المشرف منها على الصحن قائم على أكتاف أيضا .

أما الجدار الغربى فليست به أروقة . ويتوسطه الباب العام . وكانت تعلوه المنارة ، ويرجح أن هذا الباب كان بارزا عن الجدار .

وبأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية ، وعقودها مستديرة ، أحيطت بافريز مكتوب بالخط الكوفى المزهر . وما زالت بقاياه موجودة بالايوان الشرقى للجامع . ويشطر الايوان الشرقى مجاز متجه مباشرة الى المحراب ، ارتفعت عقوده وسقفه عند مستوى ارتفاعات الجامع ، وقد حليت حافة عقود هذا المجاز بكتابات كوفية ، وحليت أيضا خواصرها بزخارف نباتية مورقة منوعة . وعقود هذا المجاز هى الباقية فقط من عقود الجامع القديمة . أما باقى العقود بالمسجد عدا العقود التى حول الصحن فقد تغيرت غير مرة . وينتهى هذا المجاز الى المحراب القديم الحافل بالزخارف والكتابات الكوفية .

ويعلو المحراب (١) قبة حلت محل قبته القديمة . وكان ينتهى طرفا هذا الايوان بقبتين غير موجودتين الآن

(١) لما بلغ البناء إلى المحراب كتب بدائرة القبة على يمنة المنبر والمحراب « بسم الله الرحمن الرحيم » مما امر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الاكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى ستين وثلثمائه .

وكان للجامع ثلاثة ابواب فى جدرانه القبلية والشمالية والغربية .

هذا هو تخطيط الجامع الذى بناه جوهر الصقلى لمولاه المعز لدين الله والمنبر الاصلى القديم الذى أنشىء بالازهر عند بنائه نقل فيما بعد الى جامع الحاكم بأمر الله . واخذ الخليفة يخطب مرة فى الازهر ، ومرة فى الجامع الحاكمى ، ومرة فى جامع عمرو بن العاص ، ومرة فى جامع احمد بن طولون .

وفى حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م جدد الحاكم بأمر الله الازهر ، وأوقف عليه الاوقاف (١) ثم تبعه من بعده أهل الخيرات فأصبح يعتمد على أوقاف عظيمة .

وفى عام ٤٢٧ هـ (١٠٣٥ — ٣٦ م) جدد الجامع الازهر فى خلافة المستنصر بالله معد بن الظاهر لاعزاز دين الله . ثم اقتفى اثره حفيده المنصور ابو على الآمر بأحكام الله الذى تولى الخلافة سنة ٤٩٥ هـ — ١١٠١ — ٢ م . فأحدث فى الازهر تجديدا . وفى متحف الفن الاسلامى لوح من الخشب كان يعلو محراب الازهر الذى بناه المنصور أبو على (٢) .

ولما تولى أبو الميمون الحافظ لدين الله عبد المجيد سنة ٥٢٤ هـ — ١١٢٩ م ، جدد فى الازهر أبنية وانشأ فيه مقصورة « فاطمة الزهراء » ، التى تجاور الباب الغربى الذى فى مقدمة الجامع بداخل الاروقة . وقال بعض رجال الآثار انه أضاف رواقا يحيط بالصحن

---

(١) محب الدين الخطيب : الازهر . القاهرة ١٣٤٥ هـ — ص ١٠ — ١١ .

(٢) كتب على هذا المحراب «بسم الله الرحمن الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . امر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الازهر سيدنا المنصور أبو على امام الآمر باحكام الله .

من جوانبه الاربعة مكونا من عمد رخامية فوقها عقود فارسية الطراز وقبة رشيقة بأول المجاز (١)

ولما انقضت الدولة الفاطمية كانت مساحة الازهر ١٣٠٠٠ ذراع ، أى أقل من نصف مساحته الحالية ، وقد أصبحت اليوم ٢٦٣٣٣ ذراعا (١٢٠٠٠ متر مربع).

هـذا ما كانت عليه عمارة الازهر فى أيام الفاطميين حتى بادت دولتهم من مصر على يد السلطان الناصر صلاح الدين الايوبى فى عام ٥٦٧ هـ ــ ١١٧١ م . ثم عطل اقامة الجمعة فيه حتى تولى الملك الظاهر بيبرس حكم مصر فأعادها اليه .

الازهر فى العصر المملوكى :

جمع الامير عز الدين ايدمر الحلى من أمراء الظاهر بيبرس ، بعض ما تبدد من أوقاف الازهر وانتزعه من أيدى غاصبيه ثم جدد سقوف الجامع وتبليط أرضيته وفرشه وكسوته. وكان للأمير بدرالدين بيلبك الخازندار الظاهرى يد محمودة فى هـذا التجديد ، فأنشأ رواقا كبيرا وقف عليه المزارع والعقار واشترط أن ينفق من غلاتها على من ينقطع فى هـذا الرواق لقراءة القرآن الكريم واسماع كتب السنة المحمدية ، وتدريس فقه الامام الشافعى رضى الله عنه . وبعد أن تم تجديد الازهر ، أراد الامير عز الدين ايدمر أن تعاد الخطبة فى منبره الى ما كانت عليه من قبل . فمن الفقهاء من أجاز ومنهم من منع ... وفيمن أجاز قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ... فعمل الامير عز الدين بقول من أجاز . وكان لاعادة الخطبة الى الازهر حفلة عظمى فى هذا الجامع ، ثم فى دار الامير عز الدين ، وكان ذلك

(١) حسن عبد الوهاب . العمارة الاسلامية فى العصر الفاطمى . مجلة العمارة العدد ــ ٦ عام ١٩٤٠ ص ٣١٤ .

على قول ابن الفرات فى يوم الجمعة ١٨ ربيع الاول سنة ٦٦٥ هـ ــ ١٢٦٦ م .

وفى عام ٧٠٢ هـ ــ ١٣٠٢ م . حدثت زلزلة عنيفة ، خربت قسما عظيما من مصر والشام ، وأصابت الازهر وبعض مساجد القاهرة بأذاها ، فتقاسم الامراء عمارتها ، وأخذ الامير سلار من رجال المماليك البحرية على نفسه عمارة الازهر وتجديده .

وفى عام ٧٠٩ هـ ــ ١٧٠٩ م انتهى الامير علاء الدين طيبرس الخازندارى نقيب الجيوش من انشاء مدرسته وجعلها مسجدا (تعرف بالمدرسة الطيبرسية) وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية وتأنق فى رخامها وتذهيب سقفها وفرشها ببسط منقوشة بشكل المحاريب ، وجعل فى المدرسة خزانة كتب (١) .

وفى عام ٧٢٥ هـ ــ ١٣٢٥ م جدد الازهر القاضى نجم الدين محمد بن حسين « حسن ؟ » الاسعردى (٢) محتسب القاهرة .

وفى عام ٧٤٠ هـ ــ ١٣٣٩ م انتهى الامير اقبغا علاء الدين الواحدى من انشاء مدرسته المتصلة بالمدرسة الطيبرسية ، وقيل انه لم يؤسس بنيانها على التقوى فأخذ أرضها بغير رضى من أصحابها وانشأها بالعسف . وقد وقف عليها أوقافا دارة ، وجعل لها منارة هى احدى المنارات الخمس الازهرية .

---

(١) مما يدل على اخلاص هذا الامير النية لله فيما تقرب اليه به من عمله هذا . فانه لما فرغ من بناء مدرسته أحضر اليه مباشروه حساب مصروفاتها ، فلما قدم اليه إستدعى بطست فيه ماء وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها وقال : شيء خرجنا منه لله تعالى لا نحاسب عليه . محب الدين الخطيب ، الازهر ص ١٦ (ألحقت هذه المدرسة والمدرسة الاقبغاوية بالازهر فيما بعد) .

(٢) من سعرد فى ارمينية .

وفى عام ٧٦١ هـ - ١٣٦٠ م جدده الامير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى ، لما سكن بقرب الازهر ، فاستأذن الملك النـاصر حسن بن محمد بن قلاوون فسمح له بأن يقوم بالاصلاح . تتبع جـدرانه وسقوفه بالتحديد حتى عادت كأنها جديدة . وبيضه وبلطه ، وأنشأ على بابه الجنوبى حانوتا لتسبيل المـاء العذب ، وعمل فوقه مكتبا لاقراء أيتـام المسلمين . ورتب فيه دروسا لفقهاء الحنفية ، وأنشـأ لفقراء المجاورين مطبخا يوميـا ، وأوقف على ذلك أوقافا جليلة .

وفى سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ - ٩٨ م) سقطت منارة الجامع ، فأعاد بناءها الظاهر أبو سـعيد برقوق بن آنصل من ماله الخاص . ولم تدم هذه المنارة طويلا ، فقد سقطت فى٨١٧ هـ (١٤١٤ - ١٤١٥ م) ثم فى عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ - ٢٤ م) وكان يعاد اصلاحها فى كل مرة . وأنشأ السلطان برقوق صهريجا للماء فى صحن الجامع وعمل فوقه مكانا مرتفعا له قبة ويسيل فيه الماء ، كما انه أقام ميضأة .

وفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ - ٤١ م) شيـد جوهر القنقبائى الحبشى الخازندار المدرسـة الجوهرية عند الباب الشمالى الصغير للأزهر تجاه زاوية العميـان ، وبداخلها مدفن منشئها ..

وفى أثنـاء حكم السلطان الملك الاشرف أبى النصر قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١ هـ) (١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) أحدث تجديدا شـاملا فى الجامع ، فأنشأ باب المزينين ، والمنـارة التى هناك ، وفسقية وسبيلا وميضأة ، وأحدث صهريجا تجاه باب المغاربة ، وشيد على باب الجامع مكتبا ، ونقش فى الحجر على الباب بعد كتابة

كوفية يعسر قراءتها : « انما الاعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، لا اله الا الله محمد رسول الله ، نصر من الله وفتح قريب ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذا الباب والمئذنة الشريفة مولانا السلطان الاشرف قايتباى بتاريخ شهر رجب الفرد ثلاثة من سنة ... » . كما انه جدد رواق المغاربة ، ونقش على بابه : « أمر بتجديده مولانا وسيدنا السلطان الملك الاشرف قايتباى ، على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود ، غفر الله لهما » .

ولقايتباى نقش على أحد المحاريب وبعض الشبابيك وكان ذلك فى سنة ٩٠٠ هـ ــ ١٤٩٥ م .

وفى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ ــ ١ م) قام السلطان قانصوه الغورى ببناء مئذنته ذات الرأسين داخل باب المزينين ، كما أنه رتب فى رمضان ٦٧٠ دينارا لمطبخ الازهر .

الازهر فى أيام العثمانيين :

لما دخل السلطان سليم القاهرة ــ ١٥١٧ م ــ زاهر، وصلى فيه ، وأمر بتلاوة القرآن فيه ، وتصدق على فقراء المجاورين . وسنذكر فيما يلى أهم عمليات التجديد فى ذلك العصر :

ــ فى عام ١٠٠٤ هـ ــ ١٥٩٥ ــ ٩٦ م ــ جدد الشريف محمد باشا والى مصر بعض أجزاء الأزهر .

ــ وفى عام ١٠١٤ هـ ــ ١٦٠٥ م ــ عمر حسن باشا والى مصر مقام الحنفية أحسن عمارة وبلطه .

ــ وجدد الامير اسماعيل بك القاسمى ــ ١١٣٦ هـ ــ ١٧٢٣ م ــ سقف الجامع .

ــ وفى سنة ١١٤٨ هـ ــ ١٧٣٥ م ــ أنشأ الامير

عثمان كتخدا زاوية العميان ، وجدد رواق الاتراك ورجبة ورواق السليمانية « الافغانيين » ، وزاد فى رواق الشوام ، ورتب لذلك مرتبات من وقفه .

ــ وفى سنة ١١٦١ هـ ــ ١٧٤٨ م ــ تقلد ولاية مصر أحمد باشاكور ، وتتلمذ للشيخ حسن الجبرتى « والد الشيخ عبد الرحمن » فأثبت عدة مزاول لمعرفة المواقيت وضع احداها فى ركن صحن الازهر على يسار الداخل .

ــ وفى سنة ١١٦٧ هـ ــ ١٧٥٣ م ــ أنشأ الامير عبد الرحمن كتخدا الزيادة التى زادها فى الازهر . قال الجبرتى عنها : انشأ مقصورة فى الجامع مقدار النصف طولا وعرضا ، ويشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت ، وسقف أعلاها بالخشب وبنى به محرابا جديدا ، ومنبرا ، وأنشأ له بابا عظيما « يعرف بالدودارى » وهو المشهور بباب الصعايدة ، وبنى بأعلاه مكتبا له قناطر معقودة على أعمدة له من الرخام لتعليم الايتام ، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجا عظيما وسقاية لشرب العطاش ، وعمل لنفسه مدفنا بتلك الرحبة وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنع عليها أسماء العشرة من المبشرين بالجنة ووصفا للنبى « صلعم » وبعض الاشعار . وبالرحبة رواق مخصوص بمجاورى الصعيد المنقطمين لطلب العلم ومرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب .

وبنى بجانب ذلك الباب « المزينين » منارة ، وانشأ بابا آخر جهة مطبخ الجامع وجعل عليه منارة أيضا وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها مع المدرسة

الاقبغاوية المقابلة لها من داخل باب المزينين الكبير(١) ، وهذا الباب مؤلف من بابين عظيمين ، كل باب بمصراعين ، وجعل على يمينه منارة ـ أزيلت سنة ١٣١٥ هـ ـ وفوقه مكتب . وبداخله ميضأة . وزاد فى رواق الشوام ووقف عليه ، وجدد رواق المكيين والتكروريين .. فكان مجموع ما عمله « عبد الرحمن » فى الازهر مما تقصر عنه همم الملوك .

وفى مدة مشيخة الشيخ عبد الله الشرقاوى ـ ١٢٠٨ ـ ١٢٢٧ هـ ـ ١٧٩٣ ـ ١٨١٢ م ـ لم يكن لمواطنيه من مجاورى مديرية الشرقية رواق خاص بهم ، وانما يقطنون المدرسة الطيبرسية ، واتفق حدوث خلاف بينهم وبين من فى المدرسة من الطلبة أدى الى اخراجهم منها ، فأرسل الشيخ الشرقاوى امرأة ضريرة فقيهة تحضر عنده فى درسه الى عديلة هانم زوجة ابراهيم بك زعيم المماليك ، فكلمت زوجها فى انشاء رواق لهؤلاء الطلبة فكان ذلك سبب انشاء رواق الشرقاويين (٢) .

الازهر فى القرن التاسع عشر :

وفى عام ١٢٢٧ هـ ـ ١٨٠٥ ـ ٦ م أنشأ الوالى محمد على ـ رواق السنارية بالتماس الشيخ محمد وداعة السنارى ، فاشترى الوالى ربعا قديما فى مكان هذا الرواق وشيده ووقف عليه .

وفى عام ١٩٢٩ هـ ـ ١٨٦٢ ـ ٦٣ م ـ قام السيد

(١) نقش على وجهة الباب من الخارج ابيات مموهة بالذهب مشتملة على تاريخ بنائه (١١٦٧ هـ) وهى :

ان للعلم ازهرا يتسامى . كسماء ما طاولتها سماء
حيك وافاه ذا البناء ولولا . منه الله ماتسامى البناء
رب الهوى هداك وايا . تلك نور تهدى به من تشاء

(٢) محب الدين الخطيب : المرجع السابق ذكره ص ٣٢ .

ابو بكر راتب باشـــا باتمام عمل كان قد بدأه الوالى عباس الاول . فأنشأ رواق الحنفية وأنفق عليه من ماله وشيد فوقه ثلاث عشرة غرفة للمتقدمين من المجاورين فى ذلك الرواق ، وجعل له خزانة كتب قيمة .

وفى عام ١٢٩٠ هـ ــ ١٨٧٣ م ــ جدد باب الصعايدة والمـكتب الذى يعلوه ، وأوقفت ابنة الخديو اسماعيل أوقافا عظيمة على الازهر .

وفى عام ١٢٩٦ هـ ــ ١٨٧٨ ــ ٧٩ م جـدد الخديو محمد توفيق نحو ثلث المقصورة القديمة مما يلى باب الشوام ، وأصلحت المدرسة الاقبغاوية التى تقوم فيها دار الكتب الازهرية .

الازهر فى العصر الحديث :

وفى عام ١٣١٠ هـ ــ ١٨٩٢ ــ ٩٣ م ــ قام ديوان الاوقاف بتجديد صحن الازهر وما بدائرتيه من البائكات ودربزينات المقصورة القديمة ، وأصـلح باب المزينـين وطرقته ، والمدرسة الطيبرسية والاقبغاوية . وفى عام ١٣١٤ هـ أنشئت فى المدرستين المذكورتين دار الـكتب الازهرية . وفى ٢٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ ــ ١٨٩٧ م ــ احتفل بافتتاح الباب العباسى والرواق العبـاسى أيام مشيخة الشيخ حسونة النواوى رحمه الله ثم شـمل التجديد الاروقة المتصلة بالسور الجنوبى (١) .

ولعل خير وصـــف للأزهر هو ما جاء فى الخطط التوفيقية « ج ٤ ص ١٤ ــ ٢٦ » فقد وصف العـلامة على باشا مبارك بناء الازهر الذى كان عليه فى أخريات القرن الماضى ، وحدد أبعاده ، وذكر ابوابه ومحاريبـه وقبلاته ودورات مياهه ، وأماكن الوضـوء ، وصحن

(١) محب الدين الخطيب : المرجع السابق ذكره ص ٢٥ .

المسجد ، ومناراته ، ومزاوله ، وأروقته وصهاريجه.. الخ .

أما من الناحية المعمارية والفنية ، فخير وصف للجامع ورد فى كتاب العلامة الاستاذ ك.أ.كريسويل.

وفى عهد حكومة الثورة أجريت بالازهر اصلاحات هامة ، تناولت اصلاح محراب عبد الرحمن كتخدا ، وتجديد سقوف المسجد ، وفتح مناور جديدة بها ، كما أجريت به أعمال بياض ودهان ، وضوعفت فيه الانارة .

موجز وصف الازهر :

ان الجامع فى شكله الحاضر بناء فسيح يقوم على أرض مساحتها ٢٦٣٣٣ ذراعا « ١٢٠٠٠ متر مربع » يحيط به سور مربع الشكل تقريبا وبه ثمانية أبواب :

فى الجانب الغربى المطل على ميدان الازهر باب المزينين والباب العباسى . والاول باب شامخ من زيادات الامير عبد الرحمن كتخدا ، والثانى أحدثته نظارة الاوقاف عند تأسيس الرواق العباسى نسبة الى الخديو عباس الثانى .

وفى الجانب الجنوبى، باب المغاربة تجاه درب الاتراك، وباب الشوام ، وباب الصعايدة .. الذى انشأه عبد الرحمن كتخدا .

وفى الجانب الشمالى ، باب الجوهرية وهو باب صغير تجاه زاوية العميان وهو من انشاء جوهر القنقبائى .

وفى الجانب الشرقى باب الحرمين وهو مقفل أنشأه عبد الرحمن كتخدا ، وباب الشوربة وينسب الى عبد الرحمن أيضا .

وتعلو أسوار الازهر وأبوابه خمس مآذن (١) : ثلاث في داخل باب المزينين : احداهما الاقبغاوية ، والثانيـة مئذنة قانصوه الفوري وهي أعلى منـاراته ، والرابعة بجانب باب الصعايدة ، والخامسة ببـاب الشعرية ، وكلتاهما من انشاء كتخدا .

وينقسم حرم الازهر الى رواقين :

الرواق الـكبير وهو القديم ، ويلى الصحن ويمتد من باب الشوام الى رواق الشراقوة . والرواق الجديد الذى انشأه عبد الرحمن كتخدا ـ ١١٦٧ هـ ـ ويلى الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع . وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع . وترتكز الباكيات على عمد من الرخام الابيض . أما الباكيات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتـــاف « دعامات » والعقود من النوع المعروف بالعقود الدقيقة الزاوية

وكان للجامع عشرة محاريب أزيل أربعة وبقى الآن ستة . ففى الرواق الجديد محرابان : المحراب الكبير الذى أقيمت عليه قبة مرتفعة على ستة عمد ومحراب صغير من شمال المنبر يعرف بقبلة الشيخ الدردير . وفى الرواق القديم محراب واحد يعرف بالقبلة القديمة وان لم يكن محراب الجامع الاصلى ، وعليه قبة قديمة . وكان فى صحن الجامع أربعة محاريب صغيرة (٢) وللجامع منبر واحد وهو حديث .

وبالازهر ما يزيد على ٣٨٠ عمودا من الرخام الجميل، جلبت تيجانها من المعابد الوثنية والكنائس القديمة .. من الجيزة وأبى صوير وسقارة وميدوم ودهشور .. الخ

(١) كانت ستا ثم أزيلت المئذنة التى كانت خارج باب المزينين عند تجديد الرواق العباسى ..

(٢) فى متحف الفن الاسلامى ، المحراب الذى انشأه الخليفة الامر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ولوح الخشب الذى كان يعلوه .

أشهر الثورات السياسية في تاريخ الأزهر

تتحد العبادة والحضارة فى الدعوة الاسلامية ، ويتصل الدين بالدولة أوثق الاتصال . بل ان استقامة السلوك البشرى والسياسة الانسانية من أهداف العبادة ومقوماتها الاساسية ..

فالنظام الروحى فى الاسلام هو قاعدة المبادىء الخلقية ، واذ كان المسجد أو الجامع هو المعهد الاسلامى الاول ، فقد كان يضم العبادة والسياسة وكانت المساجد لعهد الرسالة والخلافة والصالحين من بعد هى منازل العبادة والحكم معا ، تؤدى فيها الصلاة وتتقرر السياسة ، وتوجه منها الغزوات ، واذ كان العلم هو قاعدة الدين والدنيا معا فى حكم الاسلام ، فقد كان لزاما أن يأوى الى المساجد أو المعاهد الاسلامية الجامعة . وقد ظهر ذلك على اتمه فى مساجد البصرة والكوفة وغيرهما فى فجر الاسلام ..

ومن هنا كان تأسيس الجامع الازهر دينيا سياسيا علميا ، وكان تأثيره ودوره فى شئون الدين والدنيا واسع المدى منذ نشاته لاكثر من الف عام خلت ، وفى مختلف الحقب التاريخية التى مرت به ...

لقد أنشأه الفاطميون اثر اتخاذهم مصر قاعدة لملكهم ، وسموه الجامع الازهر ، نسبة الى فاطمة

(*) للاستاذ الدكتور سيد نوفل

الزهراء التى ينتمون اليها ، وعينوا فيه نحو أربعين من علماء الشيعة ، ينشرون فى الناس مذهبهم الدينى ، ويدعون لسياستهم ، ويبشرون بحكمهم ...

ولهذا كان طبيعيا أن يسعى الايوبيون لتغيير الصبغة الفاطمية فى الازهر ، وأن يتنكروا له مائة عام حتى يتم لهم هذا التغيير ويمارس الازهر دوره السياسى من جديد على وجه يرضون عنه . لكن زاد من شأن دوره العلمى ، قضاء المغول على مدارس العلم فى المشرق العربى ، واندثار الوجود الاسلامى الزاهر فى الاندلس..

وكان صنيع العثمانيين مع الازهر أشبه ما يكون بصنيع الايوبيين أو أقسى منه ، وان حاول قادتهم التزلف الى علمائه وطلابه والظفر بتأييدهم ، ويدل على طبيعة الازهر السياسية انه كان ينتخب لرياسته ناظر أو وزير من بين كبار رجال الدولة ، وان الرئيس العلمى أو الشيخ لم يعرف الا فى العهد العثمانى .

والحق ان دور الازهر الدينى والسياسى لم يتهيأ لاى من الجامعات الاسلامية أو غيرها . ويشير المؤرخ والمستشرق المعروف ك . فولرز K. Vollers الى بعض أسباب هذه المكانة المرموقة للأزهر ، فيذكر : « وقوع الازهر فى مكان يتوسط العالم الاسلامى ، وقربه من الحجاز ، وأهمية مصر الاقتصادية وصبغتها العربية ، وامتداد القارة الافريقية فيما يلى مصر » . ثم يقول : « وأهم من هذا كله ما لوادى النيل من ثقافة عقلية قديمة العهد ، تركت فيه بذورا صالحة لنمو العلوم والآداب » .

ومهما يكن من أمر ، فان دور الازهر بارز فى جميع الاحداث والثورات السياسية التى تعاقبت على وطننا منذ نشأته . ودوره فى العالم الاسلامى يمثل دور مصر

البارز لمختلف العصور الاسـلامية ، ومنذ الثورة الأسلامية الاولى لعهد عثمان بن عفان .

وقد احتل شيوخه فى التاريخ مكانة لا تقل ، ان لم تفق ، مكانة الكثيرين من الملوك والولاة ، فسجلت عهودهم وابعادها وسماتها ... وأرخ الجبرتى لشيوخ الازهر فى اتصال وتعاقب امتد مائتى عام ...

وكان شرط القيادة والادارة من الشروط الاساسية فى شيخ الازهر الصالح ، فحين ولى الشيخ ابراهيم ابن محمد الباجورى المشيخة منذ قرن مضى ، لم يستطع لضعف ارادته النهوض بأعباء المشيخة رغم عظمته العلمية . وحين ظهر ضعفه ووهنه ، عين فى عام ١٢٧١ هـ مجلس من أربعة وكلاء للنهوض بأعباء المنصب الكبير ...

ويظهر الاثر السياسى لشيخ الازهر حتى فى عهد طغاة المماليك ... ويروى صاحب عجائب الآثار ان الطاغية ابراهيم بك ذهب الى الشيخ العروسى متذللا متصاغرا باكيا ، طالبا أن يؤيده ضد ثورة الشعب على حكمه ..

كما يروى المؤرخون انه فى عام ١٧٩٥ م استبد الوالى بأهل بلبيس فى تحصيل الضرائب ، فلجأوا الى الشيخ الشرقاوى ، شيخ الازهر ، ليحميهم .. ونصح الشيخ الحاكمين : مراد بك وابراهيم بك ، ولكنهما لم يستمعا لنصحه ... وحينئذ قاد الشيخ ثورة شملت أهل القاهرة وضواحيها ، وتجمع الناس ثلاثة أيام مصرين على سيادة الحق والعدل ، أو الجهاد والفداء فى سبيلهما .. ولم يكن بد للطاغيتين من الرضوخ ، وتحرير عهد يوقعانه بالتزام الجباة السيرة الحسنة ، والكف عن مد أيديهم الى أموال الناس بغير حق ..

لـكن الدور الازهرى لم يكن من صنع شيخ الازهر وحده ، بلْ من صـــنع الازهر كله : شيخه وعلمائه وطلابه جميعا ، ومن صنع الرأى العام الوطنى الذى يقرره الازهر . واذا الم بشـــيخ الازهر ، أو بكبار العلماء ، ضعف عن مسايرة الآمال الوطنية ، أو اعترى همتهم فتور ، تصدى لهم جمهرة العلماء والطـلاب ، وأعرضوا عنهم ، وتخلوا عن قيادتهم ، بل أوقعوا بهم الاذى ، ومضوا فى سبيل الثورة الوطنية ما استطاعوا الى تأدية واجب النضال الوطنى للحرية سبيلا ...

والامثال على ذلك كثيرة :

ومنها ما حدث فى ثورة مارس (آزار) لعام ١٨٠٠ ضد الفرنسيين . فقد طالت مدتها ، وتكبد فيهـــا الفرنسيون من الخسائر ما لا يقل عن خسائر الوطنيين. وحينئذ لجأ الفرنسيون الى المصانعة . فاتصلوا بالشيخ الشرقاوى ، شـيخ الازهر ، وجمـاعة من زملائه هم المشايخ المهدى والفيومى والسرساوى . واتصـــل الشرقاوى وزملاؤه بالفرنسيين ، وعادوا الى الثائرين يحملون طلب الفرنسيين بايقاف الحرب ، والعفو عن جميع القائمين بالثورة ، واباحة الخروج والبقاء لمن شاء منهم ... ولم يكد الثوار يسمعون هذه الشروط التى تبعدهم عن هدفهم ، فى التخلص من احتلال الفرنسيين واجلائهم عن أرض الوطن المقدســة ، حتى استنكروا صنيع الشيخ وزملائه ، ولقنوه وزملاءه درسا لاينسى ، « فضربوهم ، ورموا عمائمهم الى الارض ، وأسمعوهم قبيح الـكلام » ، كما تقول الرواية التاريخية المأثورة..

وقد امتد هذا التأثير الى عهد قريب ، ظهر فى وقفة الشيخ مصطفى المراغى ضد دخول مصر الحرب العالمية الثانية فى خريف عام ١٩٣٩ ، ضنا بمساندة من ساموها

سوء العذاب وتنكروا لحقوقها ولسائر الحقوق العربية، وسارت فى الشعب المصرى العربى ، بل فى الامة العربية كلها ، قولته المأثورة : « كيف ندخل حربا لا ناقة لنا فيها ولا جمل ؟ ! » ، وكان لوقفته أثرها فى حركة على ماهر منذ نهاية ١٩٣٩ لتجنيب مصر ويلات الحرب ، ثم فى حركة رشيد على الكيلانى العراقية صدى للحركة المصرية ومن بعدها بعامين ...

وكانت مداخلات الشيخ المراغى ذات أثر فى شئون الحكم وتاليف الوزارات لعهديه فى نهاية العشرينات ، وفى الثلاثينات لهذا القرن ...

واذا كان حديث الثورات السياسية فى تاريخ الازهر يطول ، فاننا نكتفى بعد هذه الكلمة العامة بالاشارة الى أشهرها واقربها ..

ثورة أكتوبر ١٧٩٨ على الاحتلال الفرنسى

فى يوم الاحد الحادى عشر من جمادى الاولى لعام ١٢١٣ هـ ، الموافق ٣١ من أكتوبر (تشرين أول) لعام ١٧٩٨ ميلادية ، وبعد ثلاثة أشهر من الاحتلال الفرنسى بقيادة نابليون لمصر .. شبت ثورة القاهرة الاولى ..

وذكرت أسباب كثيرة لهذه الثورة . فقيل انها الكساد وسوء الاحوال . واتفق الجبرتي ونابليون فى رد اسبابها الى الاوامر الادارية الفرنسية التى أرهقت الشعب ، وسنت القروض والبيوع الاجبارية ، والاستيلاء قسرا ، والغرامات ، ورسوم التسجيل وما اليها من الوان الاستنزاف والعنت ..

ويضيف جديدا الى ذلك المعلم « نقولا الترك » اللبنانى ، مراقب الحملة ومسجل أحداثها ، فى كتابه « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد

الشامية » ، فيذكر المعلم نقولا ان الطبائع المصرية نفرت من ايلاف الاحتلال الفرنسى رغم التودد والتحبب من المحتلين الى الوطنيين ، وان الاستهتار والدعارة الفرنسيين ضايقا المصريين أشد المضايقة ، فضلا عن « الخمامير التى اشتهرت فى كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفى بعض الجوامع أيضا » ، مما جعل المصريين يؤثرون الموت على الحياة ، مع ان طبقة الاسافل والاراذل كسبت كثيرا من الانحلال الشائع .

ومهما يكن من سبب ، فقد كانت الثورة المصرية على الاحتلال الفرنسى ثورة شعبية عامة بشهادة المؤرخين الفرنسيين وغيرهم . وقد بلغت شعبيتها حد انها فاجأت المحتلين وأذهلتهم رغم عموم دعوتها قبل وقوعها ، وسيرورة الجهر بندائها فى كل مكان ...

وفى ذلك يقول ج . كريستوفر هيرولد Christopher Herold فى كتابه « نابليون فى مصر » :

« واغرب ما فى الثورة المصرية ، التى نشبت فى ٢١ من أكتوبر ، انها أخذت الفرنسيين على غرة ، مع ان اقترابها كان ينادى به على الملأ من فوق سطوح المنازل وأعلى المآذن » . ويضيف « هيرولد » ان أعضاء الديوان الذى اقامه نابليون كانوا على علم تام بمقدمات هذه الثورات والاعداد لها ، وانهم مع لقائهم المتصل لنابليون وأعوانه لم يفضوا الى الفرنسيين بشىء .. ثم يظهر ان نابليون كان يدرك النقمة المصرية ، ولهذا حاول امتصاصها باعلان رغبته فى اعتناق الاسلام ...

ويقول « المركيز دى لاجونكيير » الضابط الفرنسى ، فى الجزء الثالث من موسوعته عن حملة نابليون الى مصر : « كانت الدعوة الى الثورة تختلط جهرا بأذان المؤذنين ، فكانوا يدعون الى الله والى الثورة صباح

مساء . فبلغت عوامل الاثارة أقصى المدى ، حتى كانت حادثة واحدة تكفى لاضرام بركان الثورة القومية . وكان فرض ضرائب المنازل سببا كافيا فى اثارة نفوس الذين لم تستثرهم الدعوة الدينية » . ومن هذا يظهر أن أسباب الثورة كانت أعم من هذه الخصوصيات التى حاول بعض المؤرخين ارجاعها اليها ..

ولقد كانت هذه الثورة أزهرية القيادة ، وكان الجامع الازهر مقر قيادتها العامة ، اذا ساغ هذا التعبير عن أحداث مر عليها مائة وثلاثة وسبعون عاما ..

لقد أخذ علماء الازهر يبثون الدعوة الى الثورة بواسطة شيوخ المساجد يحثون عليها فى عظاتهم وخطبهم وبواسطة المؤذنين يدعون اليها خمس مرات فى اليوم مع كل صلاة .، فكان الازهريون هم قادة الثورة ودعاة الوطنية والفداء . وفى ذلك يقول هيرولد : « أما العناصر المجاهدة حقا ، فهم الغلاة فى الدين كالائمة وطلاب الازهر ... » .

ويجمع الجبرتى ونقولا الترك والمؤرخون على ان الذى تزعم الثورة يوم نشوبها عالم ازهرى شاب هو الشيخ بدر المقدسي . فقد نزل الى الشارع ، وخطب فى جمع غفير من الناس ، داعيا كل مؤمن بالله أن يذهب الى الجامع الازهر : « لان اليوم يوم غزو المؤمنين للكافرين » . ومن بعد ذلك قاد جماعة الى منزل القاضى التركى ابراهيم ادهم افندى . وكان وقورا محترما ، وطلبوا منه أن يذهب معهم الى مقر نابليون بونابرت للاحتجاج على المظالم الفرنسية ... ولم يكد يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين فى زحف وتكاثر وهياج ، فأدرك خطورة الامر ، وانكفأ راجعا الى بيته.. ولكن الجماهير اصرت على مصاحبته للمسيرة ..

وحين تشبث بتخاذله ، سقط ما كان له من الاحترام فى نفوس الناس ، فانهالت الجماهير عليه وعلى رجاله ضربا بالعصى ورجما بالاحجار ...

وشكلت لجنة لقيـــادة الثورة ، وانتخبت الشيخ السادات من نقباء الاشراف رئيسا لها ، واتخذت فى الازهر مقرها ، ونظمت كتائب المتــــطوعين وزودتهم بالسلاح والطعام ، واندمج شيوخ الازهر فى الصنــاع والتجار والعمال وسائر الطوائف بدعوتهم الى الجهــاد فى سبيل الله والوطن .

وتكاثر المعممون ، كما يقول الجبرتى ، يخطبـــون الجماهير ، ويشعلون نار الحماسة فى قلوبهم . وتطايرت انباء الثورة فى سرعة مذهلة ، وأقبل الفلاحون وأهل الضواحى الى القاهرة ، وظهرت الاســــلحة والرماح والاسهم فى الايدى مع الحجارة والعصى والفئوس وما اليها . وتجمع فى الازهر عدد قدر بأربعين ألفــا من الثائرين ...

وبلغت أنبــاء التجمهر فى الازهر وخان الخليلى وما حولهما الى الجنرال « ديبوى » حاكم القاهرة من قبل بونابرت . فركب الخيل مع عدد من مســاعديه حتى صادفته المتاريس التى أقامها الثوار على أبواب خان الخليلى والنحاسين . وهنا برز له أحد الثائرين وطعنه برمح فأرداه قتيلا ، كما أجهز الثوار على مساعديه...

وكان بونابرت قد غادر القاهرة فى رحلة تفتيشــية الى مصر القديمة والروضـــــــة . وحين بلغه مصرع « ديبوى » أسرع بالعودة الى مقره وعين « بون » محل « ديبوى » ...

واتخذ على الفور أشد الاجراءات للقضاء على الثورة وتدمير الازهر معقلها ...

ويقول هيرولد : « أما بونابرت ، فقد ثار غضبه وهو فى مقر قيادته بقصر الالفى ، وأمر مدفعية القلعة المعززة بمدافع الهاوتزر والمورتار بأن تسدد المدافع الى الجامع الازهر وما حوله من أحياء هى مركز الثورة... وبدأ ضرب الازهر بالقنابل عند الظهر واستمر حتى المساء ، واصدر بونابرت أمره الى الجنرال « بون » بأن يقضى على كل من فى الجامع الازهر ... »

وأخذت القنابل تضرب الازهر وما حوله حتى تصدعت الجدران وانهارت الابنية وسقط الالوف قتلى تحت الانقاض ، وجرى الدم فى الشوارع من الوطنيين والاستعماريين ...

وقدرت المصادر الفرنسية عدد القتلى من الفرنسيين بخمسمائة وعددهم من المصريين بنحو ثلاثة آلاف . ثم اقتحم الفرنسيون الجامع الازهر بخيولهم ، ونهبوا نفائسه وكتبه ، ودنسوا طهارته ، وانتهكوا حرماته ، واقاموا فيه مركزا لهم ...

كما أسر الفرنسيون زعماء الثورة من علماء الازهر ، واعدموهم فى القلعة دون محاكمة ، والقوا بجثثهم خلف الاسوار ، ثم قذفوا بها فى النيل ...

ولم يترك نابليون أسلوبا للوحشية لم يستخدمه فى التنكيل بالثوار والتمثيل بجثثهم ...

ولكنه مع ذلك لم يستطع اخماد الثورة الا بعد أن احضر طائفة من علماء الازهر الذين لم يشتركوا فيها لاسباب شتى ، وأعلن لهم العفو عما اقترفوه كما قال ، واستكتبهم منشورا يطلب الى الناس الهدوء ، ويزف لهم بشرى الصفح المزعوم والامر باخراج الجنود الفرنسيين من الازهر ، واعادة نفائسه وكتبه اليه ، وفى ذلك يقول « هيرولد » :

« وهكذا نجد الجهر بالعفو عن الابرياء ، واعدام الثائرين فى الخفاء وتحت جنح الظلام . وهى سياسة خليقة بأن تنال رضاء مكيافيللى ! » ..

وهذه الثورة الازهرية ، تخطيطا وقيادة ومقرا ، من أخلد الثورات المصرية على الزمان . واذا قدر لها أن تخمد ، فقد كانت بتجربتها القاسية ، وخسائرها الفادحة وتضحياتها الغالية سببا فى اضطراب مقام الفرنسيين بها ، ونشوب ثورات فى جميع الاقاليم ضدهم ، كما كانت أعظم دافع لمصر فى ثورتها الثانية..

ثورة مارس (آزار) لعام ١٨٠٠

كانت ثورة مصر الاولى وما أثبتته للغزاة الفرنسيين من تعذر استقرارهم فى مصر وتحقيق أحلامهم فى السيطرة الدولية عليها ، وما تتبعها من هزيمة لنابليون فى عكا من الاسباب التى دعت نابليون الى العودة خفية الى فرنسا فى السابع عشر من أغسطس (آب) عام ١٧٩٩ ، مخلفا قيادة جيش الاحتلال فى مصر «لكليبر» ، كما شجعت العثمانيين على غزو الفرنسيين فى مصر اعتمادا على انضمام المصريين اليهم .. لكن الفزو العثمانى وما صحبه من تدبير بريطانى ، دفع «كليبر» الى محاربة الجيش التركى المصرى ، والانتصار عليه فى معركة « المطرية » الطاحنة فى ٢٣ من شوال لعام ١٢١٤ هـ ، الموافق ٢٠ من مارس (آزار) لعام ١٨٠٠.

وعاد « كليبر » مزهوا بانتصاره الى القاهرة ، لكن الثورة الثانية قابلته فى ذات الوقت .. فقد عز على أهلها هزيمة جندهم وجند اخوانهم الترك المسلمين ، وضياع فرصة التخلص من الاحتلال الفرنسى الباغى الطاغى ..

وكان أبرز رجال هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف ومن رجال الازهر الاعلام .. وقد اعتمد فيها على تأييد شيخ الازهر ، وعلمائه وطلابه الذين انبثوا فى الاحياء المختلفة وأشعلوا الثورة فيها جميعا ، مستفيدين من تجربة الثورة الاولى فى حى الازهر وحده ...

وقد دامت سبعة وثلاثين يوما تخللتها هدنة ، وخرج منها الثائرون بشروط مشرفة تضمنت العفو عنهم .. وامتازت هده الثورة بأعلام كثيرة مشرقة اهمها :

اولا ـ الوحدة الوطنية : فقد التقى فيهـا الامراء السابقون والفلاحون ، والعلماء والعـامة ، والاغنيـاء والفقراء ...

ثانيا ـ الشـمول : فقد بدأت فى حى بولاق ، ثم اشتعلت بها أحياء الحسينيـة وباب الحديد وبركة الرطل وسائر أحياء القاهرة ، مما كلف جيش الاحتلال الكثير من الضحايا والخسائر ...

ثالثا ـ الاستعداد : فقد عملوا على الاستفادة من اساليب الحرب الحديثة حينذاك ، وانشأوا بجهودهم الذاتية ووسائلهم المتاحة معملا للبارود فى الخرنفش ، وجمعوا مختلف الصناع لصنع الذخيرة وأخرجوا المدافع والاسلحة القديمة من المخابىء والمخازن وأصـلحوها واستخدموها ، وجمعوا الحديد من كل مكان حتى من المساجد ذاتها ، مؤمنين بأن الاسلام عمل ونضـال ، وان أعلى درجات الايمان هى الجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمته : كلمة الحرية والعدل والسلام ...

رابعا ـ التنظيم : فقد قسموا القاهرة الى منـاطق عسكرية ، عينوا لكل منها قائدا من اعلام الثوار ، ونسقوا العمل ...

وكان من العسير على جيش الاحتـلال أن يثبت فى

المعركة لولا ما اخترعته البعثة العلميــة الفرنسية من وسائل الحرب الاشد حداثة ، والتى أطنب الجبرتى فى وصف هولها وفى فظاعة استخدامها بعد ثلاثة أسابيــع من بدء المعركة.. ومع ذلك فقد استطاع الثوار مقاومتها لمدة أسبوعين ، ثم نزل الجيش المحتــل على شروطهم للمصالحة التى لم يجدوا منها بدا ..

لــكن هذه الثورة ، وما أعقبها من مصرع « كليبر » بيد سليمان الحلبى ، وماصاحبها من تطورات دولية ، مهدت لتصفية الاحتلال الفرنسى فى مصر بعـــد ثلاث سنوات من مقامه الدامى فيها وبها كتبت مصر ، فى تاريخ النضال البشرى للحرية ، صـــفحة من أروع الصفحات الوطنية ...

ثورة مايو (آيار) عام ١٨٠٥

ومن الثورات الازهرية التاريخية ، ثورة مايو (آيار) لعام ١٨٠٥ .. فقد تمرس المصريون بأعمال النضـــال الوطنى وأعبائه ومسئولياته ثلاث سنوات أثناء الاحتلال الفرنسى ، ثم ذاقوا طعم الحرية والنصر بعــد جلاء الجنود المستعمرين عن وطنهم .. وقد تبينوا قوتهم ، وعجز العثمانيين واحتماءهم بالبريطــانيين المستعمرين لتحقيق الاهداف المشتركة ...

وكان من دوافع الاسى والنقمة على اخوان الاســلام ان العثمانيين بعثوا خسرو باشا ، الطــاغية المستهتر الاخرق ، حاكما لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها ، وان طغيانه وما صحبه من صراع بين المماليك والترك من ناحية ، وبين زعماء كلا الفريقين من ناحية أخرى ، حملت المصريين أشد ألوان العنت حتى ضاقت نفوسهم عن جميع منازع الصبر عليها .. وكان محمد على قائد

الجنود الارناؤود الالبانيين يشارك المصريين النقمة على الحكم العثمانى والحاكم الاخرق خسرو باشا ...

وكان الاعداد لثورة مصرية وطنية بقيادة شيوخ الازهر للخروج على الوالى التركى ولتنصيب محمد على من قبل شعب مصر واليا عليه ، وسجلت الحركة الوطنية المصرية نصرا مؤزرا فى المجال القومى العربى ، سبق حركة الشريف حسين ملك الحجاز بمائة واثنى عشر عاما ، وكانت له أعظم الآثار فىاحياء الحركة العربية وانتصارها من بعد .. رغم النضال المتصل الذى لا تزال تخوضه منذ ستين عاما أو أكثر ..

ففى يوم الاحد ١٢ من مايو (آيار) لعام ١٨٠٥ ، احتشدت جموع الشعب من علماءالازهر وطلابه والتجار والفلاحين والعمال ، بجوار الازهر يتزعمهم الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الازهر والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف .. وتعالى لاول مرة هتاف الجماهير المصرية العربية بالانفكاك العربى من الرباط العثمانى فى هذه العبارة البسيطة النقية : « يارب يا متجلى ــ اهلك طائفة العثمانلى » ..

وعقد مؤتمر شعبى بجوار الازهر تقرر فبه مطالبة الوالى التركى باخراج الجنود من القاهرة الى الجيزة ، والا يدخل جندى القاهرة بسلاحه ، وعدم فرض الضرائب الا بموافقة علماء الازهر والاعيان ، واعادة المواصلات المقطوعة بين القاهرة والصعيد ..

وتلكأ الوالى ، وواصل الثائرون اجتماعهم فى اليوم التالى ، وسارت جموعهم المقدرة بعشرات الالوف والممثلة لطوائف الشعب ، فى يوم ١٣ من مابو (آيار) عام ١٨٠٥ ، الى منزل محمد على باشا ... وقدم اليه شيخ الازهر الشرقاوى ونقيب الاشراف عمر مكرم

شروطا للولاية خلاصتها الحكم بالعدل وفق الشريعة الاسلامية السمحاء ، وعدم ابرام الامور الا بمشورة زعماء الشعب ، وعزله عند المخالفة للآراء الشعبية ..
ووافق الوالى ، وانتصرت ارادة الحرية ، وان قدر لمماركها أن تتصل من بعد دفاعا عن كيانها ، وعن عهودها المنقوضة ...

ثورة مارس عام ١٩١٩

وكانت ثورة ١٩١٩ قمة الثورات الوطنية المصرية ، وبداية الحركة الاستقلالية الفعالة . وقد تمت بارادة شعبية اجماعية ، اشتركت فيها المدن والقرى جميعا ، وشملت الشعب كافة .. وكانت أوامر سلطة الاحتلال البريطانى تتناول جميع المدن والقرى دفعة واحدة ، مقاومة للحركة الشامله الواحدة ...

لكن دور الازهر مع ذلك بارز فيها أعظم البروز ، وظاهر أتم الظهور ... فزعيمها الاول سعد زغلول من علماء الازهر الذين تعلموا وتخرجوا فيه ، وزادت استنارتهم بما أضافوا الى ثقافتهم الوطنية من ثقافة أجنبية ...
والازهر كان الملتقى الدائم للثوار من المسلمين والمسيحيين على سواء ، يدعمون الوحدة الوطنية النضالية ، ويعملون لتنفيذ خطط الثورة فى جميع الاقاليم المصرية ...

والذين يطالعون يوميات الثورة المصرية كما كتبها المصريون والبريطانيون يتبينون الدور الفعال الذى نهض به الازهر فى ثورة ١٩١٩ ...
وقد ظهر الدور الازهرى القيادى منذ اليوم الاول للثورة : يوم ٩ من مارس (آذار) لعام ١٩١٩ . لقد

نفى فى ذلك اليوم سعد زغلول ومحمد محمود واسماعيل صدقى وحمد الباسل الى مالطه ، على اثر مطالبة الوفد المصرى بانهاء الحماية البريطانية والاعتراف باستقلال مصر وسيادتها ...

وتقول اليوميات المصرية ان طلبة الازهر كانوا فى مقدمة الطلاب المصريين فى اليوم الاول والثانى للثورة ، مع طلبة المدارس العليا وبعض المدارس الثانوية ....

وفى يوم ١٢ من مارس كان اول تعرض مسلح من الجنود البريطانيين لطلبة الازهر ، وكان أول الشهداء من طلبة الازهر ...

وفى يوم ١٣ من مارس ظهر الازهريون فى قيادة مظاهرة المسجد الحسينى بعد صلاة الجمعة ، التى اطلقت ــ المدرعات البريطانية ــ عليها النار وقتلت منهم ١٢ شخصا ...

وكان العلماء وطلبة الازهر فى مطلع المظاهرة الكبرى فى ١٧ من مارس ...

وكان علماء الازهر فى مقدمة العناصر التى يستشيرها الوفد فى خطواته ، مثلما حدث قبل تقديم تقرير الوفد الى المارشال « اللنبى » فى ٢٦ من مارس ، اذ استشار فيه علماء الازهر وبطريرك الاقباط وبعض الوزراء والنواب ...

وفى أول ابريل « اشتدت ثورة الازهر وكثرت اجتماعاته حتى لجأت السلطة العسكرية الى مخاطبة شيخ الازهر فى اغلاقه دفعة واحدة ، أو الاكتفاء باغلاقه فى غير أوقات الصلاة فأبى » ...

وتؤكد الوثائق البريطانية الدور الازهرى . ففى التقارير اليومية لرجال بريطانيا فى مصر شواهد كثيرة ، نكتفى بايراد بعض ما تضمنته تقارير سير «م . تشيتام»

الى لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية ...

ففى تقريره عن يوم ١١ من مارس قال : « انتشرت الثورة فى أماكن عديدة من القاهرة . ففى ساعة مبكرة من صباح اليوم تجمع الثائرون ، ومعظمهم من طلبة الازهر ، وبعض الافراد فى الاماكن الرئيسية بقلب المدينة ، وزحفوا نحو ورش السكك الحديدية لاخراج العاملين فيها ...

وفى يوم ١٣ من مارس يتحدث عن أفراد التنظيم فى حركة الثورة ، وتعذر التغلب على منطقة الازهر ، قائلا : « ان الاضطرابات فى هذه المنطقة يصعب التغلب عليها ، بسبب الرغبة فى منع الجنود البريطانيين من الاقتراب من الجامع الازهر » ...

وفى يوم ١٧ من مارس يقول : « سارت مظاهرة فى القاهرة ضمت نحو ١٠ آلاف شخص بقيادة طلبة الازهر » ...

وفى يوم ٢٠ من مارس يتحدث عن تعاون زعماء الازهر مع البطريركية القبطية بطريقة فعالة وحرص الازهريين على كفالة هذا التعاون ...

وهكذا كان دور علماء الازهر الوطنيين المستنيرين فى بداية القرن العشرين مواجهة للاحتلال البريطانى هو دورهم فى نهاية القرن الثامن عشر مواجهة للاحتلال الفرنسى ... وهو دور لم يستطع اخفاءه مؤرخو الحملة الفرنسية من الفرنسيين ومؤرخو الثورة المصرية من البريطانيين ...

وهو دور يتفق مع قواعد الدين الاسلامى ومبادئه : قواعد العمل والنضال والفداء وضرب أحسن الاسوة وخير المثل ، ومبادىء الحرية والعدل والسلام ، والعمل الجاد المخلص لسيادة سلطانها واعلاء كلمتها ..

رسالة الأزهر

قضى الكاتب الكبير فكرى اباظة جانبا من مرحلة الطفولة يدرس فى الازهر . وهو فى هذا الحديث ، يحدثنا عن ذكرياته وآرائه فى الازهر ورسالته ..

* اعرف انك فى صغرك كنت طالبا أزهريا ، وأظن ان الكثيرين من أبناء هذا الجيل لا يعرفون هذا ، فهل ترسم لنا صورة عن طفولتك ؟ ..

ـ كان المرحوم والدى من طلبة الازهر ، ومن خريجيه ، ولم يكن ذلك غريبا ، فقد كان كل أبناء الاسر يلتحقون بالازهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وربما قبل ذلك بعدة سنين ... لان آباءهم كانوا ينذرون أن « يهبوهم للعلم » ، وكان أخى الاكبر والاخ الذى يليه يتعلمان فى المدارس ، مدرسة « النحاسين » بالتحديد ، ورأى والدى أن أكون « أزهريا » ، والحقنى بكتاب « خان جعفر » من الكتاتيب الملحقة بالازهر ، لأحفظ القرآن ، ومبادىء القراءة والكتابة ...

ولقد واظبت على الحضور الى ذلك الكتاب مع والدى عدة شهور ، وكنا فى ذلك الوقت نسكن بحى « شبرا » حيث كان والدى قد استأجر مزرعة لسيدة « نمساوية » ولم يكن « الترام » قد سار فى شارع

شبرا بعد ، فكنا نمتطى « الحمير » حتى ميـــدان « السكة الحديد » ثم نركب عربات « سوارس » التى تجر الواحدة منها أربع خيول ، الى الازهر ! ..

ولـكن حدث اننى مرضت فى طفولتى مرضا خطيرا بسبب جلوسى على « البلاط » طوال اليوم ، وبسبب الطعـــــام المدمن من الفول المدمس ، والطعمية ، و « الطرشى » ، فاستنجدت بوالدتى وأهلى فى قرية « كفر أبى شحاتة » التابعة لمركز منيا القمح ، وكانت التقاليـــد تقضى بأن تبقى الاسرة حيث هى بالريف ، ونعيش نحن الاولاد ، وحدنا أثناء التعليم فى القاهرة .

وأنقذتنى والدتى من كتاب « خان جعفر » والتحقت بمدرسة « النحاسين » المواجهة لذلك الـكتاب ...

ولـكن هل انتهت علاقتى مع الازهر ؟ ..

لا .. فقد كان والدى يحرص كل الحرص على أن أقرأ معه الـكتب « الصفراء » ، وأنسخ منها ما يرى أن يحتفظ به ، وربما كان هـذا هو السبب فى اننى ظللت فى الواقع « أزهريا » رغم التحاقى بمدرســـــة « النحاسين » ...

* كيف بدأت علاقتك بالازهر ؟ ..

ـ كنت فى بعض الاحيـــــان أذهب مع والدى الى صحن الازهر لاحضر معه الدروس التى يقوم بالقائها علماؤنا الاعلام ، ونحن جلوس على « البلاط » بالحلقات العديدة من مختلف الموضوعات الدينية من دروس اللغة العربية ، والمنطق ، والحديث ، والتفسير ، الى غير ذلك ...

وقد كنت أتمنى أن أتابع دراســـتى بالازهر ، وأن أتخرج فيه لاكون من بين كبار العلماء ومن يدرى ؟ .. فربما كنت توليت منصب « المفتى » أو « شيخ الازهر »

من زمن طويل لو اننى واصلت دراستى بالازهر ...

وقد كان علمـــــاء الازهر الاعلام من زملاء والدى يتابعون زيارتهم لنا فى قريتنا « كفر أبى شحاتة » وكنت لا أفارق مجالسهم مستمعا الى أحاديثهم الدينيـــة ، ومنهم الشيخ « المرصـــــفى » والشيخ « البشرى » والشيخ « الخضرى » وغيرهم ، وغيرهم ...

والذى لايعلمه الجيل الجديد ان طائفة من العبقريات المصرية ، ومن الزعماء السياسيين قد تعلموا فى الازهر وتخرجوا فيه ، وأصبحوا من أشـــــــهر الرجال فى السياسة والمحاماة والقضـــاء ، أمثال الزعيم الـكبير «سعد زغلول» والمحامى الـكبير « ابراهيم الهلباوى » وزميله المحامى الـكبير « محمد أبو شادى » والمرحوم « حسن صبرى باشـــــا » و « محمود أبو النصر » وكثيرين غيرهم ، منهم من كان بين زعماء ثورة ١٩١٩ برياسة سعد زغلول ، ومنهم من ولى الحكم رئيســـا للحكومة مثل « سعد زغلول » و « حسن صـبرى » ومنهم من اشتغل بالصحافة مثل المرحوم «أبو شادى» بل ان بعضهم اختارته الدولة فى بعثات دراســية الى فرنسا وفى مقدمتهم الامام الـكبير « محمـد عبده » والزعيم « سعد زغلول » و « حسن صبرى » رحم الله الجميع ...

وبالطبيعة تأصلت فى نفسى عقيــــدة « الايمان » والتمسك بمبادىء الدين ، وحفظ القرآن مع تفسيره ، وكذلك الاحاديث النبوية ، ثم كان بعد ذلك أن استوعبنا فى نشأتنا الادب العربى القديم من الشعر الجاهلى وما بعده من أشعار العهد الاسلامى ، ولا نزال حتى الآن نستعيد مراجعة المعلقات السبع لامير الشعراء امرىء القيس ، والاعشى ، وعنترة بن شـــــداد ، والنابغة

الذبيانى ، الى آخر القائمة ...

* هل لك مآخذ على أبنـــاء الجيل الحاضر من الازهريين ؟ ..

ــ لا أدرى ما حال أبناء الجيل الحاضر فى كليات الطب والهندسة وغيرهما من الجامعة الازهرية ، هل يحفظون قواعد الدين ، ويتبحرون فى تفسير آيات الذكر الحكيم ، والمنطق ، وعلم الحديث ، أو شغلتهم الدروس الجامعية العصرية عن دروس الدين المختلفة ؟ وهل حققت الجامعة الازهرية العصرية ، وكلياتها الفكرة بأن يكون أساس التعليم هو الدين أولا ، ثم الطب والهندسة وغيرهما ثانيا ؟ ..

أتمنى أن يكون هذا الهدف قد تحقق ، وان كنت قد عارضت الفكرة من أساسها وخشيت على الازهر من أن يجتاحه هذا التحول الذى يتناقض مع تقليده القديم ...

* اذن بماذا تنصح الجيل الجديد من الدارسين ؟..

ــ نصيحتى الى الجيل الجديد تتلخص فى النقاط الآتية :

أولا : أن يعنوا عناية تامة باللغة العربية ، وانى لاجزع أشد الجزع من تدهورها وانحرافها انشاء ونطقا واملاء ، فانها حالة يرثى لها حقا ... خريجو الجامعات لا يتقنون اللغة العربية بجميع قواعدها الاساسية مثل النحو والصرف والفاعل والمفعول ، وان الاخطاء مزعجة بدرجة قصوى فيما نقرؤه للخريجين ، وفيما نسمعه منهم ، والواجب أن تعالج هذه الحالة ، لاننا نتزعم العالم العربى بحق ووسيلة التفاهم هى « اللغة العربية الفصحى » حيث تختلف اللهجات فى اللغات

العامية الدارجة بين قطر عربي وقطر آخر ...

ولا يجوز لنا أن ننسب التقصير الى « الطلبة » وانما يشتد جزعنا أكثر وأكثر اذا علمنا من اجماع المسئولين عن التعليم ان طائفة « المدرسين » الذين يدرسون اللغة فى المدارس الابتدائية ، والثانوية ، هم أيضا فى حالة يرثى لها .. ولا أدرى كيف كان ذلك ، وكيف يكون؟ !

والعلاج يجب أن يتناول الطلبة ، ويتناول فى الوقت نفسه المدرسين الذين لم يتعلموا التعليم العربى الفصيح الكافى لينقلوه الى تلاميذهم ...

وأرى الا يقتصر تعليم اللغة العربية الفصحى على المدارس الابتدائية والثانوية فقط ، بل يجب أن تدرس فى الكليات الجامعية المختلفة .. لانه لا يجوز بحال من الاحوال أن تكون اللغة هزيلة فى «مذكرات» المحامين الناشئين وفى « مرافعاتهم » أمام المحاكم وكذلك الحال فى كليات الهندسة والطب ، وغيرهما ...

ان اللغة العربية الصحيحة الفصيحة يجب أن تكون فى ميسور خريجى هذه الكليات .. والذى يقارن بين ما ينشر من كتب هذه الايام ، وما ينشر فى الصحف والمجلات هذه الايام وما كان ينشر منها فى الايام السابقة ، يجد الفرق شاسعا بين الاجادة فيما مضى والضعف فى أيامنا هذه ...

لغة « القرآن » يجب أن نوفر لها « القدسية » والبقاء فى كياننا العربى المترامى الاطراف ، وفى « مصر العربية » بالذات ...

ثانيا : الإخلاق .. والاخلاق هى كل شىء ، وقد جدت بالذات « أخلاقيات » عديدة فى السنين الاخيرة ، وتنوعت الوان الجرائم الخلقية من مادية وادبية ، وابشعها « جرائم الطلبة » من المدارس الثانوية والعالية ، وتنشر احداثها بين يوم وآخر فى الصحف ،

ولم يكن هذا التردى الاخلاقى معروفا أيامنا نحن ابناء الاجيال الماضية ، والرقابة على هذه الاخلاق يجب ان تكون رقابة مزدوجة فى البيت والمدرسة حتى الجامعة . ولكننى ألاحظ ـ مع الاسف الشديد ـ ان الاشراف المنزلى ، أو السلطان الابوى لم يعد له وجود فى الاسر، وكذلك ضعف نفوذ المسئولين عن التعليم فى المدارس الثانوية والجامعات ، فان هؤلاء المسئولين لا يستغلون سلطاتهم فى حدود القوانين واللوائح الوزارية والمدرسية والجامعية فى مراقبة الانحراف الاخلاقى ...

وقد شاعت بالمدارس الثانوية والجامعات «التقليعات» المستوردة من الخارج والتى تتنافى مع التقاليد والدين، ولم يستعمل الادارى المدرسى والجامعى الحزم مع المترفين من « الهيبيز » و « الخنافس » والمرتديات « المينى جيب » و « الميكرو جيب » الى آخر هذه التقليعات الفاسدة التى شوهت صورة عدد لايستهان به من الطلبة والطالبات ...

ثالثا : لا أدرى كيف تعالج مشكلة كثرة الزاحفين بالالوف على كليات الجامعة بحيث استعصى على المدرسين والاساتذة أن يعلموهم التعليم الكامل بسبب كثرة العدد فى الفصول وبسبب قلة المدرسين والاساتذة الذين يتنقلون بين محافظة ومحافظة لالقاء دروسهم الخاطفة فى الجامعات الاقليمية ؟ ..

* هل يؤدى الازهر رسالته فى العالم الاسلامى كما يجب ؟ ..

ـ أنا شخصيا أتساءل معك نفس هذا السؤال ، بل واقول : وهل استطاعت البعثات الازهرية الى البلاد الافريقية والآسيوية أن تقوم برسالة كاملة فى هذه البلاد ؟ ..

لا أستطيع الجواب ، لانني لا أستطيع أن أجيب بالايجاب ، بل يرد على خاطرى تساؤل آخر ، هو سبب تخلف « العالم الاسلامى » هذا التخلف الملحوظ فى جميع أقطاره ، وما يصيبه من نكبات محزنة فى اندونيسيا والفيليبين والباكستان وغيرها ...

ان مصدر الشريعة الاسلامية هو « القرآن الكريم » وهو الكتاب المنزل الاوحد الذى لم يقتصر على « الروحانيات » والعبادات وانما وضع أسس سياسة الحكم ، والمعاملات الدينية والعقوبات وكل ما احتوته القوانين « الوضعية » العالمية ، واذكر بهذه المناسبة أن العبقرى العظيم « نابليون بونابرت » قال فى أحد بياناته انه لا يفاخر بالاربعين معركة التى انتصر فيها ، وانما يفاخر « بقانونه المدنى الفرنسى » والمعلوم أن بعض مبادىء هذا القانون مستقاه من أحكام الشريعة الاسلامية فى المعاملات ، وأذكر أيضا انه لما اجتاح المانيا واستقبل رجال الفكر ، قال فى لقائه مع الكاتب الالمانى الخالد « جوتة » : « انك اذا جئت الى باريس ، فسوف تجد على مكتبى كتابين فقط هما : رواياتك الخالدة ، والقرآن الاسلامى العظيم » ...

وقد يكون سر تخلف الدول الاسلامية راجعا الى تزمت علماء الدين وتنافسهم فى التطرف ، مبالغة فى مدى اسلامهم وايمانهم ، مع ان القاعدة الاصيلة فى الدين الاسلامى هى انه : « دين يسر لا عسر » ...

والله أرجو أن يعصمنى من الزلل على قدر امكانى ، وان يغتفر لى بعض ما ذهبت اليه من ملاحظات ومؤاخذات ، متمنيا لامتنا الاسلامية كل تقدم وازدهار ، على يد أبنائها ، بعد أن يتسلحوا بالعلم والايمان ، أقوى وامضى سلاحين يتسلح بهما المؤمن لخوض معترك الحياة

ثورات فكرية في تاريخ الأزهر

يذكر التاريخ ان الذى بنى الازهر هو جوهر الصقلى قائد جيش المعز لدين الله الفاطمى ، وقد أتم بناءه سنة احدى وستين وثلاثمائة وقد أريد للأزهر فى أول الامر أن يكون مقرا للدعوة الفاطميـــــة القائمة على المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وسموه « الازهر » نسبة الى « الزهراء » لقب فاطمة رضى الله عنها التى ينتسب اليها الفاطميون ، ولــكن الله تبارك وتعالى أراد للأزهر بعد ذلك أن يكون معقلا للدراسات الاسلامية والعناية بعلوم الدين واللغة ...

ويذكر التاريخ ان الوزير يعقوب بن كلس الذى وقف على الازهر أوقافا أشار سنة ٣٧٨ هـ على العزيز بالله الخليفة الفاطمى أن يحول الازهر من مسجد شيعى الى جامعة لتدريس العلوم الدينية والعقلية ، وكأن هــذا الرأى قد كان ايذانا بحدوث ثورات فكرية كثيرة فى الازهر ، لا نستطيع هنا أن نرصدها على وجه الاحصاء ولــكنا نستطيع أن نذكر طائفة منهــا قد تكون أقوى أثرا من غيرها فى تاريخ هذه الجامعة الاسلامية التليدة .

لعــل صــلاح الدين الايوبى كان أول من قام بثورة فكرية فى الازهر كان لها أثرها وخطرها فقد كان صلاح الدين سنيا ، فعنى بالقضاء على المذهب الشيعى من

(*) للاستاذ الدكتور احمد الشرباصى

الازهر ليغرس مكانه المذهب السنى ، ومهـد لهـذه الثورة بأن أنشأ فى سنة ٥٦٦ هـ المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو لتدريس المذهب الشافعى ، كما أنشأ المدرسة القمحية بجوار المدرسة السابقة لتدريس المذهب المالكى ، وعزل صلاح الدين القضاة الشيعيين، وعين بدلهم قضاة شافعيين، وكان صلاح الدين شافعيا ، وبعد حين ضعف المذهب الشيعى وتقلص ، ثم انقرض من مصر وبعد أن كان اسم الخليفة الفاطمى يذكر على منبر الازهر ، صار يذكر اسم الخليفة العباسى ...

ولقد كان سـقوط بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ سببا فى اتجاه كثير من العلماء والفقهاء الى مصر ، والاتصال بالازهر ، والتأثر به أو التأثير فيه ، من أمثال ابن حجر العسقلانى ، والمقريزى ، والعينى، والبلقينى ، وهم من رجال القرن التاسع الهجرى ، ومن أمثال السخاوى والسيوطى من رجال القرن العاشر وصار الازهر — بعد غارات التتار المدمرة — هو الجامع الوحيد الذى يرتفع فيه صوت العلم والدين ، وذلك لاكثر من سبب ، فالتتار قد خربوا غيره من المساجد والمدارس والمعاهد ، والحضارة العربيـة قد انقرضت من الاندلس — الفردوس المفقود — والازهر يوجد فى مصر التى تتوسط العالم الاسلامى ، والتى لا تبعد عن الحجاز منزل الوحى، ولها أهميتها الاقتصادية وصبغتها العربية ، وهى مفتاح قارة أفريقية ، وفيها بذور من الثقافة العقلية المصرية القديمة ...

ويبدو أن الازهر خلال هذه القرون كان مجتلى الرأى العام فى الشعب ، ولذلك يروى أن قايتباى — وكان أكثر الناس رعاية للأزهر فى القرن التاسع — كان يتخفى فى زى رجل مغربى ، ويذهب الى الازهر ويسمع ما يقوله الناس فيه ...

كما يبدو أن الناس كانوا ينظرون الى الازهر منذ القديم نظرة خاصة قائمة على الاحساس العميق برسالة الازهر وخطير مكانته ، وقد يدل على ذلك ان الامير بهادر استصدر سنة ٧٨٤ هـ مرسوما من السلطان برقوق ينص على أن من مات من مجاوري الازهر عن غير وارث شرعي ، فان تركته توزع على المجاورين فى الازهر ، وقد نقش هذا المرسوم ، وعلق على الباب البحرى الكبير للأزهر ، ومن الممكن أن يقول القائل المعاصر : ان هذا الاجراء يعد ــ بلغة العصر ــ ثورة اشتراكية ، قد يعزز معناها ما عرفه تاريخ الازهر ــ من قبل ومن بعد ــ من نظام الاروقة والمساكن والجرايات والهبات التى كانت تخصص لأهل الازهر وطلابه ...

مصر منبع العلوم والفضائل

ولقد ظل الازهر قوى الاثر عميق الخطر فى الحياة الاجتماعية والعقلية حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٢ هـ ، ثم كان هذا الفتح سببا فى ضعف الحياة العلمية فى مصر بعامة ، وفى الازهر بخاصة ، وعلى الرغم من هذا الضعف ظل الازهر يصارع ويقاوم ، حيث لم يكن هناك معهد علمى سواه ، وتألقت فى سمائه نجوم رجال أعلام من أمثال زكريا الانصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ . وعبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ . واحمد الدردير المتوفى سنة ١٧٠١ هـ .

واذا كان للحكم العثمانى فى مصر مساوئه الكثيرة ، فان هذا لم يمنع أن نجد أحد الولاة العثمانيين فى مصر ، يفتح الباب أمام ثورة علمية فى الازهر سنة ١١٦١ هـ ، وذلك الوالى هو « أحمد باشا » المعروف بكوروزير ، وكان كما يذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى من أرباب الفضائل . وله رغبة فى العلوم الرياضية ، وكان

الازهر قد أهمل دراسة العلوم الرياضية ، وكان شيخ الازهر حينئذ هو الشيخ عبد الله الشبراوى ...

فلما وصل ذلك الوالى الى القاهرة واستقر بالقلعة. ذهب اليه وفد من علماء الازهر لتهنئته ، فدار بين الوالى والوفد حوار فى مسائل من العلم ، الى أن دخل بهم فى مسائل العلوم الرياضية ، فأمسكوا عن الكلام فيها قائلين : نحن لا نعرف هذه العلوم ، فعجب الوالى من ذلك أشد العجب . وكان الشيخ الشبراوى بين ذلك الوفد ...

وذات يوم اجتمع الوالى بالشيخ الشبراوى وقال له : المسموع عندنا بالديار الرومية (التركية) ان مصر منبع العلوم والفضائل ، ولقد كنت فى غاية الشوق الى المجىء اليها ...

فقال له الشيخ : هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف ...

فقال الوالى : وأين هى وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجد عندكم منها شيئا ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول (مثل علم المنطق والتوحيد) والوسائل (مثل علم النحو والصرف) ونبذتم المقاصد (يعنى العلوم الرياضية) ؟

فأجاب الشيخ : نحن لسنا أعظم علمائها ، وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الازهر لايشتغلون بشىء من العلوم الرياضية ، الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث ، وذلك من فروض الكفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الباقين ...

فقال الوالى : وأين أجد هذا البعض ؟ ..

فأجابه الشيخ : هم موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم

ثم دله الشيخ على حسن الجبرتى - والد الجبرتى المؤرخ ...

فطلبه الوالى وسأله عن تلك العلوم ، فوجده يحسن معرفتها ، فسر به سرورا عظيما ، وصار يكثر من الاجتماع به ، ليذاكره فيها ، ويناقشه فى مسائلها ...

ولم يكن الشيخ حسن الجبرتى هو الوحيد من رجال الازهر الذين استوعبوا العلوم المختلفة ، بل كان هناك مثل الشيخ أحمدالدمنهورىالمولود سنة ١١٠١هـ والمتوفى سنة ١١٩٢ والذى تولى مشيخة الازهر سنة ١١٨٢ وظل فيها ما يقرب من عشر سنوات ، فقد ذكر فى سند العلوم التى تلقاها ودرسها انه درس كتبا فى علوم الحساب والجبر والمقابلة ووضع المزاول ، وأسباب الامراض وعلاجها ، والحدود والدوائر والفلك ، وعلم الهيئة والهندسة والمساحة والتكعيب ، والممالك الطبيعية : الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلم التشريح ... الخ ...

شعر يتوقد رقة وعذوبة

ونستطيع أن نقول ان الشيخ عبد الله الشبراوى المتوفى سنة ١١٧١ هـ والذى تولى مشيخة الازهر عقب وفاة الشيخ الفيومى ، قد أحدث فى البيئة الازهرية ثورة ادبية فنية عاطفية ، بما نظمه من شعر غزلى عذب قد يستبعد كثير من الناس أن ينسبه الى عالم أزهرى ، فضلا عن عالم جليل يتولى مشيخة الازهر فى ذلك العهد السابق القديم ، وحسبنا أن نذكر هنا ان هذا الشيخ هو صاحب تلك القصيدة المشهورة التى تتوقد رقة وعذوبة ، والتى مطلعها :

وحقك انت المنى والطلب
وانت المراد ، و انت الارب

ولى فيك يا هاجرى صبوة
تحير فى وصفها كل صب

فهل من السهل على الناس اليوم أن يصدقوا ان هذا الشعر الغزلى قد صاغه منذ قرابة ثلاثة قرون عالم كبير تولى مشيخة الازهر ما يقرب من عشر سنوات ؟

هزة قوية

وممن قاموا بثورة فكرية فى الازهر الشريف الشيخ حسن العطار الذى ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ ، وتعلم فى الازهر كغيره من الطلاب ، وهام بالسياحة والرحلات شرقا وغربا فى البلاد الاسلامية ، وكان يشاهد ويتابع ويحاور ويجمع المعلومات . وحينما جاء الفرنسيون الى مصر فى حملتهم المشهورة اتصل العطار ببعض أفرادها ، وأخذ يتعلم منهم ، وينقل عنهم ، ويتشبه بهم فى البحث والتنقيب العلمى والادبى والاجتماعى ...

وفى سنة ١٢٤٦ هـ تولى الشيخ العطار مشيخة الازهر ، فانتهزها فرصة ذهبية ، وأخذ يهز الازهر هزا عنيفا قويا ليستيقظ ، وتوفى عليه رحمة الله سنة ١٢٥٠ هـ ...

عاب العطار على الازهريين أنهم يعرضون عن كتب المتقدمين وسعة أفقهم .. ولا يستفيدون بتراث السلف القيم العظيم ، فقال :

« ان من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية ، لهم اطلاع واسع على غيرها من العلوم والكتب التى الفت فيها ، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع ، واعجب من ذلك تجاوزهم الى النظر فى كتب غير أهل الاسلام من التوراة

وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية ، ثم هم — مع ذلك — ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الاشعار ولطائف المحاضرات ...

ومن نظر فى ذلك ، وفيما انتهى اليه الحال فى زمن وقعنا فيه ، علم انا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم ، فان قصارى أمرنا النقل عنهم ، بدون أن نخترع شيئا من عندنا ، وقد اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا الى النظر فى غيرها ، حتى كأن العلم فيها ...

فاذا ورد علينا سؤال من علم الكلام لا نجده فيها ، تخلصنا بأن هذا كلام الفلاسفة ، أو مسألة أصولية قلنا : لم نرها فى جمع الجوامع ، فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية قلنا : هـــذا من علوم أهل البطالة ، وهكذا » ...

فصار العذر أقبح من الذنب ، وحالنا الآن كما قال ابن الجوزى فى مجلس وعظه ببغداد :

ما فى الديار أخو وجد نطارحه
حديث نجد ، ولا خل نجاريه

وهذه نفثة مصدور ، فنسأل الله السلامة واللطف.

ويعود الشيخ العطار فى حاشيته على كتاب « جمع الجوامع » فيشيد بأمر الكتب العلمية المترجمة الى اللغة العربية ويوحى بالعناية بها عند علماء الأزهر ، فيقول :

« قد عربت كتب فى زماننا من كتب الفرنجة ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال رقيقة ، اطلعنا على بعضها ، وقد استخرجت تلك الاعمال بواسطة الاصول الهندسية والعلوم الطبيعيـــة ، وفى تلك الكتب تكلم القوم فى

الصناعات الحربية والآلات النارية ، ومهدوا فيها قواعد وأصولا ؛ حتى صار ذلك علما مستقلا ذا فروع كثيرة ، ومن سمت به همته الى الاطلاع على غرائب المؤلفات .. ظهرت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته ان كانت سليمة فى رياض الفهوم ، فلا تجعل سعيك لغير الحصول على الكمالات العرفانية مصروفا ، ولا تتخذ غير نفائس الكتب أليفا ألوفا :

ولا تك من قوم يديمون سعيهم
لتحصيل أنواع المآكل والشرب
فهذى اذا عدت طباع بهائم
وشتان ما بين البهيم وذى اللب

وهذه نفثة مصدور أيضا والله عاقبة الامور ..

ولقد تكلم المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى عن شخصية الشيخ العطار فى كتابه « تاريخ الاصلاح فى الازهر » ونقل نصوصا له ونصوصا قيلت عنه ، ونوه بشخصيته ، وتوسع الاستاذ محمد عبد الغنى حسن فى كتابه عن الشيخ العطار ، وذكر انه قد امتاز بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعربة فى زمانه ، ولم يختص بعلم معين ، أو بفن بعينه من الفنون ، ولكنه كان حريصا على الافادة من كل علم ، وانه كان من القلة الازهرية التى أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية لنهوض البلاد ، وكان صاحب فضل فى التنبيه الى قيمة العلوم الطبيعية ، والى ضرورة ادخال العلوم العصرية فى الازهر ، والى ضرورة الاخذ بالعلوم الطبيعية والاصول الهندسية ، بجوار الرسوخ فى العلوم الشرعية والاصول الفقهية ، وانه لا شك ان تحرر الشيخ العطار الفكرى ، وبعده عن الجمود ، ودعوته الى الاخذ بالعلوم الحديثة ، مع الاهتمام بالعلوم

القديمة ، قد جذب اليه الطلاب من كل فج ...

ويقول الباحث المفضال : « اذا كان حسن العطار لم يوفق فى اصلاح الازهر وبرامجه وخطط الدراسة فيه كما كان يريد ، فانه قد رزق حظا كبيرا من التوفيق فى الدعوة الى اصلاح التعليم بالبلاد كلها ، فالمدارس العالية الفنية التى أنشئت بمصر فى ذلك العهد — كالهندسة والطب والصيدلة والالسن — هى الاستجابة الحقيقية لدعوة الشيخ حسن العطار وتطلعاته ومناداته بحتمية تغيير الاحوال فى البلاد ، والكتب التى ترجمت بالمئات فى عصر محمد على هى الصدى المحقق لأمنية الشيخ حسن العطار حين رأى كتب الفرنسيين فى الرياضة والعلوم والآداب ..

دافع لعوامل الثورة الفكرية

وتأتى ثورة رفاعة رافع الطهطاوى :

ولد رفاعة فى طهطا سنة ١٢١٦ هـ ، وتعلم بالازهر حتى تخرج فيه ، ثم اختير ليكون إماما لأول بعثة مصرية أرسلت الى فرنسا سنة ١٨٢٥م ، وهناك تعلم الفرنسية وأجادها ، ودرس كثيرا من العلوم ومنها التاريخ والجغرافية . ثم عاد الى مصر سنة ١٨٣١ م ، فكان رئيسا لترجمة الكتب الى العربية ، وألف كتبا فى التربية والأخلاق ، وأنشأ جريدة الوقائع المصرية ، وأسس مدرسة الالسن ، وتوفى سنة ١٨٧٣ م — ١٢٩٠ هـ ...

ولقد كان الطهطاوى تلميذا للثائر الازهرى الشيخ حسن العطار ، وممن لازموه بصفة مستمرة ، وحينما هم رفاعة بالسفر الى فرنسا ذهب الى شيخه ليتلقى نصيحته ، فأوصاه بأن يقوم بتدوين كل ما يراه فى

تلك البلاد العجيبة ، وأن يعنى بدراسة العلوم التى نبغوا فيها ، وكانت سبب قوتهم ونهضتهم ، ليقوم بنقلها الى اللغة العربية فيستفيد أهلها منها ، وينهضوا كما نهض أهل أوربا ...

ومع ان الوظائف التى تولاها الطهطاوى بعد عودته من فرنسا كانت خارج الازهر ، ومع أن صلاته الوظيفية أو الرسمية انقطعت عن الازهر ، لم يترك تحريك عوامل الثورة الفكرية بين أبناء الازهر ، بل أخذ يتلمس الوسائل الى بث أفكاره والاخذ بآرائه فى اصلاح الازهر والنهوض به ، لأنه لم ينس انه أحد بنيه ، ولذلك نراه فى كتابه « مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » يتحدث عن فوائد العلوم الحديثة ، ووجوب اغتراف الازهريين من منابعها ، ويقول عن أبناء الازهر : « ان لهم اليد البيضاء فى اتقان الاحكام الشرعية العملية والاعتقادية ، وما يجب من العلوم الآلية ، كعلوم العربية الاثنى عشر ، وكالمنطق وآداب البحث والمقولات وعلم الاصول المعتبر ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

غير ان هـذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر ، ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابة ، منوط — بعد ولى الامر — بهذه العصابة ، التى ينبغى أن تضيف الى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقديم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الامة المحمدية ، فانه بانضمامه الى علوم الشريعة والاحكام ، يكون من الاعمال الباقية ، ويقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام

ثم يستحث الطهطـــــاوى همم نجباء أهل الازهر ليتمسكوا بدراســـة العلوم العصرية ، ويقرر أنهم لو فعلوا ذلك « لفازوا بدرجة الـكمال ، وانتظموا فى سلك الاقدمين من فحول الرجال ، وربما يتعللون بالاحتياج الى مساعدة الحكومة ، والحال أن الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد ، فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، فترجع المسألة دورية ، والجواب عنها أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ، ليغتنم فرصـــة ذلك كل طالب وسائل ، وكل من سار على الدرب وصل ، وانما المكافأة على تمام العمل » ...

حدث خطير فى تاريخ الازهر

وممن يمثلون ثورة فـكرية فى تاريخ الازهر المرحوم الشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى ولد سنة ١٨١٠ م وكان أبوه من بلدة «محلة مرحوم» فى محافظة الغربية ، وقد حفظ صـاحبنا القرآن الـكريم فى « الـكتاب » كما حفظ فيه طائفة من المتون ، وفى الثالثة عشرة من عمره دخل الازهر ، وتعلم فيه على أيدى الشيخ ابراهيم الباجورى ، والشيخ حسن العطار ، والشيخ حســن السقا ، والشيخ محمد الاشمونى ، واستمر فى الازهر سنوات ، ثم مات والده ، فأخذ الابن يجمع بين الدراسة والتدريس ، ليستعين بذلك على مطالب الحياة ، ثم حصل على اجازة التـدريس فى ٢٠ من المحرم ســنة ١٢٤٤ هـ ــ ١٨٢٨ م وقام بالتـدريس فى الازهر ، حيث درس التفسير والمنطق ، وعنى بالشعر والادب ، وظل يقوم بالتدريس عشر سنوات ، وتعلم فى أثناء ذلك اللغة الفرنسية ، ولم يقتصر على جوه الازهرى ، وبيئته الوطنية ، بل خطا خطوة كان لهـا أثرها وخطـرها فى

عهده ، حيث قام بتدريس علوم اللغة العربية فى المدرسة الانجليزية بالقاهرة ، وقام بتعليم الفرنجة فى بلاده لغة العرب ، واتصل بالجالية الاوربية بالقاهرة ، وفيها عدد كبير من المهندسين والعسكريين والسياسيين ، فأثر فيهم وتأثر بهم ، وكان أستاذا فى اللغة العربية للمستشرق الفرنسى « فرنيل » وقرأ معه ديوان الشاعر الشنفرى ..

وكان من تلاميذ الشيخ الطنطاوى : الاستاذ يوسف الاسير الذى ترك أثرا فى الادب العربى والمجتمع العربى ، والاستاذ ابراهيم مرزوق الاديب الشاعر الذى ترجم « أمثال لافونتين » ، والشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ، والشيخ عبد السلام الحلبى ، وغيرهم من أعلام الادباء والعلماء . ومما يدل على مدى الثورة الفكرية التى اوقدها الشيخ الطنطاوى فى بيئته أن نراه فى سنة ١٨٢٧ م يقول وهو يدرس فى الازهر انه لا يعرف أحدا قبله قرأ فى الازهر ماقرأه من مقامات الحريرى والمعلقات مع شرح الزوزنى ..

وفى سنة ١٨٤٠ دعاه قيصر روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها فى القسم التعليمى التابع لوزارة الخارجية بروسيا ، فتعلم الشيخ الطنطاوى اللغة الروسية ، وانتقل إلى هناك ، فكان انتقاله حدثا خطيرا فى تاريخ الازهر ، وفى صلة العرب بالروس ، وكان سفره الى روسيا يوم السبت ٢٤ من المحرم سنة ١٢٥٦ هـ ..

وقد وضع المستشرق الروسى « اغناطيوس كراتشوفسكى » كتابا عن حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، وترجمت هذا الكتاب الى العربية سيدة فلسطينية هى « كلثوم عودة » وراجع الترجمة وعلق

عليها الاستاذان عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن ، ونشر الترجمة المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤ م . ويقول « كراتشوفسكى » فى كتابه هذا : « كان رحيل الطنطاوى الى روسيا حدثا كبيرا ، ليس فى حياته فحسب ، بل وفى الاستشراق الروسى أيضا ، حتى ان الصحافة الواسعة أولته انتباها كبيرا » ..

وهذا هو العالم « سافيليف » الذى صار فيما بعد من علماء الآثار المشهورين وأحد مؤسسى جمعية الآثار فى روسيا ، يكتب رسالة الى أحد أصدقائه فى سنة ١٨٤٠ يصور فيها تأثير الشيخ الطنطاوى فى الجو الروسى وغيره فيقول : « أنت تسألني من هذا الرجل الجميل فى لباس شرقى ، وعمامة بيضاء ، وله لحية سوداء كجناح الغراب ، وعينان تشعان باشعاع غريب، على وجهه سمة الذكاء ، وقد لفحت الشمس بشرته ، وليست بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة . لقد رأيته مرتين يسير بخطوات وئيدة على بلاط شارع « نفسكى » فى جهته المضاءة بالشمس ، ولقد لفت هذا الرجل نظرى ، كما لفت انظار زائرى هذا الشارع فى أيام الجو الطيب ...

« هو ضيف جديد من ضفة النيل ، انه الشيخ الفاضل محمد عياد الطنطاوى ، وهذا الاسم معروف لدي كل من يدرس اللغة العربية ، وكل السياح الذين انتفعوا بخدماته ، والمدينون له بنجاح بحوثهم ، يذكرونه بالشكر ، ويكنون له المودة ، مذيعين شهرته فى أوربا »

وفى القاهرة ، وفى الجامع الازهر ، مدرسة من أحسن المدارس ، ان لم نقل أحسنها ، وهناك عند الاعمدة التي يقوم عليها سقف غرفة كبيرة ، يجلس

الاساتذة ، ويجلس تلاميذهم بهيئة نصف حلقة حولهم، وكنت ترى حول أحد الاساتذة حلقة تتألف من شعوب مختلفة ، وعدد تلاميذها أكثر ممن فى الحلقات الاخرى، بينهم شباب أوربيون من الذين يريدون دراسة اللغة العربية ، هنا كان كرسى الشيخ محمد عياد الطنطاوى، من أشهر العلماء الوطنيين وأكثرهم اطلاعا على الآداب الوطنية والتاريخ ...

وقد أذاع شهرته فى أوربا مستشرقان كانا تلميذيه ، يجلسان عند أعمدة الجامع الازهر ، ثم اشتهرا بمعرفة اللغة العربية واللهجات ، أحدهما فولجنس فرنيل القنصل بمدينة جدة فى جزيرة العرب ، وصاحب الرسائل عن تاريخ العرب قبل الاسلام ، والثانى غوستاف فيل أستاذ هيدلبرج السابق ، ومترجم ألف ليلة وليلة ومؤلف شعر العرب قبل محمد ، والفضل لظهور البحثين عن جزيرة العرب قبل محمد يرجع لمساعدة الشيخ للمؤلف ، اذ انه بغير مساعدته ما كان لبحوثهما أن تظهر كما يشهدان ...

أستاذ الآداب الشرقية فى الجامعة الروسية

ومما يدل على روح الثورة عند الشيخ الطنطاوى انه فى طريقه الى روسيا نزل فى ايطاليا ، ولم يتردد ــ وهو الشيخ المعمم فى ذلك الوقت المبكر الذى تتجلى فيه محافظة الازهر على العرف والتقاليد ــ أن يزور دار الاوبرا مرتين ، حيث شاهد فى المرة الاولى رواية « السلطان محمد » ، وفى المرة الثانية رواية « العاشقين » ، ويذكر الطنطاوى انه لم يكن هناك معمم من المشاهدين سواه ...

وكذلك نزل وهو فى طريقه ــ مدينة « كييف » ،

وحرص على أن يزور دير اللافرا وكنيسة القديسة صوفيا ، وكنيسة القديس اندراوس ، وحضر حفل استعراض الجيش يوم الاحد ، وزار مدرسة البنات ، وسمع العزف على البيانو ، وفعل كل هذا وهو بعمامته وثيابه الازهرية ...

وشغل الشيخ الطنطاوى كرسى الآداب الشرقية فى الجامعة الروسية، وكان يجمع ــ كما يذكر كراتشوفسكى ــ بين الطرق النظرية والطرق العملية ، فمن جهة كان يدرس قواعد اللغة ، ويشرح أمثال لقمان ، ويقرأ قطعا من مؤلفات تاريخية من مجموعة « بولدريف » ومقامات الحريرى ، ومن جهة أخرى كان يدرس الترجمة من اللغة الروسية الى العربية ، والخطوط الشرقية ، وقرأ المخطوطات ، والمحادثة باللغة العربية ، وزاد على ذلك من سنة ١٨٥٥ تدريس تاريخ العرب ، وترى من المختصرات المحفوظة بين أوراقه انه كان يشرح فى محاضراته تاريخ الخلافة حتى عهد فتوحات المغول ..

وحاز الشيخ الطنطاوى ألقابا وأوسمة ومداليات وهدايا من القيصر وولى عهده ، وصادف فى روسيا تقديرا وانتباها ، وان الاعجاب به كان يتملك كل من يلتقى به من الواقفين على حقائق الامور ...

وعلى الرغم من النشاط الموصول الذى كان يبذله الطنطاوى فى التدريس والحوار والرحلة فقد ألف مجموعة قيمة من الكتب . ألف فى النحو والصرف ، والفلك ، والجبر ، والميراث ، والحساب ، والعقائد ، والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والعروض ، والتوحيد ، كما نظم الشعر ، وكتب الرسائل وكتب القصص ، ووضع القواميس ...

ولقد استفاد من الشيخ الطنطاوى طائفة كبيرة من

المستشرقين ، أمثال نقولا موخين ، وفرين فرانيل ، وبيرون رفيل، وغيرهم من الفرنسيين والالمان والروس، والذى يزور مقبرة التتر فى قرية «فولكوفا» الروسية يجد فيها قبر الشيخ محمد عياد الطنطاوى المصرى الازهرى الذى كانت حياته صورة من صور الثورات الفكرية الملحوظة فى تاريخ الازهر الطويل ...

الدعوة لفتح باب الاجتهاد

ثم جاءت فى تاريخ الازهر ثورة « جمال الدين الافغانى » موقظ الشرق الاسلامى من سباته ...

لقد ولد جمال الدين الافغانى فى سنة ١٢٥٤ هـ ، ودرس فى أفغانستان ، وحصل جملة من العلوم فيها الطب والتشريح والفنون الحربية ، ثم درس فى الهند حيث حصل فيها العلوم العصرية وتعلم اللغة الانجليزية، مع التركية والفارسية ، وجاء الى مصر سنة ١٢٨٦هـ، وكان فى شرخ شبابه ، فأيقظ سبات الازهر ، ودعا الى فتح باب الاجتهاد فى الدين ، ولقى فى سبيل دعوته أهوالا من الاعداء والاولياء ، وعلى سبيل المثال كان الخديو توفيق يؤيد جمال الدين قبل أن يتولى هذا الخديو حكم مصر ، وكان يقول للأفغانى : « أنت موضع آمالى فى مصر أيها السيد » ولكن الخديو انقلب على جمال الدين بسبب السعايات الاجنبية بينهما ، وكانت النتيجة هى نفى جمال الدين من مصر ، بعد أن بذر فى محيط علماء الازهر بذور ثورة فكرية واجتماعية واسعة النطاق ...

وأصدر جمال الدين مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » التى كانت أعظم مجلة اسلامية تهز العالم الاسلامى هزا عنيفا ...

ثم جاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فحمل مشعل الاصلاح والثورة الفكرية فى الازهر ، بعد أن ضاق بنظام الازهر منذ شبابه ، وأراد اصلاح الادارة ، واصلاح التدريس ، وتغيير الكتب ، واستطاع أن يحقق الامور التالية :

١ ـ انشاء مجلس ادارة للأزهر سنة ١٣١٢ هـ .
٢ ـ ضبط مرتبات العلماء وطريقة توزيعها .
٣ ـ ربط المعاهد الدينية فى مصر بالجامع الازهر .
٤ ـ اصلاح نظام التدريس .
٥ ـ وضع نظم للامتحانات .
٦ ـ اصدار طائفة من القوانين للاصلاح .

ولقد قال الشيخ محمد عبده : « انى بذرت فى الازهر بذرا اما أن ينبت ويثمر ويؤتى أكله المغذى للروح والعقل ، فيحيا به الازهر حياة جديدة ، واما أن يقضى الله على هذا المكان قضاءه الاخير » . وعاد الاستاذ الامام فقال : « اننى ألقيت فى الازهر مشكاة لا تنطفىء ان لم تلتهب اليوم أو غدا ، فستلتهب فى ثلاثين عاما ، وستكون ضراما » وقد حورب الشيخ محمد عبده فى ثورته الفكرية حربا لا هوادة فيها ، وتفاصيل ثورته كثيرة واسعة تكفلت ببيانها مصادر ومراجع كثيرة. ولقد عنيت بالاشارة الى ذلك فى كتابى « مدرسة الاستاذ الامام » وكتابى « رشيد رضا صاحب المنار » ...

ثم جاءت ثورة فكرية أخرى فى عهد الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، وقد دعا المراغى الى محاربة الجمود فى الازهر ، والى صلة الازهريين بالمجتمع ، والى التجديد فى التدريس والتأليف ، والى ربط الدين بالحياة ، ووضع فى سنة ١٩٢٨ مذكرته التى توضح ملامح ثورته الفكرية فى

الازهر ، وفيها يقول :

« يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية — فقهها وآدابها — من المعانى، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة ، وأن يبتعد فى تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه ، وعن كل ما لايتفق وقواعد اللغة العربية ...

« يجب أن تهذب العقائد والعبادات ، وتنقى مما جد فيها وابتدع ، وتهذب العادات الاسلامية بحيث تتفق وقواعد الاسلام الصحيحة ...

« يجب أن يدرس الفقه الاسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الادلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالاحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والاحكام المجمع عليها ، والنظر فى الاحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والامكنة والعرف وأمزجة الامم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء ...

« يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها ، وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة مما يتوقف عليه فهم القرآن فى أصول الآيات التى أشارت الى ذلك ...

« يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الاسلاف ، وأن يضاف الى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغات وآدابها ...

« يجب أن نوجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة ، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة — فى عصور الاسلام الزاهرة — والطرق الحديثة المعروفة الآن عند

علماء التربية . وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعي فيه محافظة تامة ، وأن تهذب الاساليب ، ويهذب كل ما حدث بالاجتهـاد ، بحيث لا يبقى منه الا ما هو صحيح من جهة الدليل ، وكل ما هو موافق لمصلحة العباد » ...

رصيد الثورات الازهرية

ان فى تاريخ الازهر الطويل العريض عشرات وعشرات من الثورات الفكرية وقد ذكرت طائفة منها ، دون أن أدخل فى التفاصيل أو اصدار الاحكام على هذه الثورات فقد تكون هنا بعض الملاحظ ، وقد تكون هناك بعض المآخذ ، وقد تكون هنالك بعض العيوب ، وتبيان ذلك على وجهه الكامل الشامل جهد واسع تضيق به ظروف الزمان ، والمكان ، ومن حق كل ثورة من هـذه الثورات أن تنال حقها المستقل من التحليل والتمحيص، ولعل ذلك يتيسر لهذا القلم أو ذاك ، وعلى الله قصد السبيل ...

أعظم الشيوخ
في تاريخ الأزهر ومؤلفاتهم

ان تاريخ الازهر طويل عريض ، يستطيع الباحث فيه ان يصول ويجول ، ليستعرض اكثر من ناحية او أكثر من اتجاه ، فهناك النواحى الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والادبية وغيرها ، وان ألف عام تمر على الازهر ــ وهو قائم ثابت ــ لدليل أى دليل على ان الله تبارك وتعالى قد أعطى هذا المعهد الاسلامى الاكبر من عوامل البقاء والخلود شيئا كثيرا ، على الرغم مما عرض له أو حاق به ...

وانى الآن بسبيل ان اتحدث حديث الايجاز عن بعض الشيوخ اللامعين فى تاريخ الازهر وعن كتبهم ومؤلفاتهم التى تصور عقليانهم وجهودهم الثقافية والفكرية ، حتى يكون ذلك الحديث لونا من ألوان التعريف بالتراث الفكرى الضخم الذى يرتبط بتاريخ هذه الجامعة الاسلامية العربية التليدة ...

هذا الحديث لا يستوعب ولا يستقصى ، بل يقوم بمسيرة عاجلة خلال قرون الازهر العشرة ، فيختار منها طائفة من الشيوخ ، منذ فتح الازهر أبوابه ، حتى آخر القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، وأما القرن العشرون فقد حفل بعشرات وعشرات من الازهريين الذين غزر انتاجهم ، وكثرت مؤلفاتهم ، وهؤلاء جديرون بأن يستقلوا بحديث ...

(*) الاستاذ الدكتور احمد الشرباصى

وصاحب هذا البحث لا يستطيع ان يزعم لنفسه ـ فضلا عن أن يزعم لغيره ـ انه قد أحصى مؤلفات كل شيخ من هؤلاء الاعلام ، وانما الذى كان انه بحث وفتش ، مستعينا بكتب السابقين وكتب اللاحقين ، وانتخل من هذا العباب خلاصة تصلح أن تكون علامة بارزة على طريق التعرف المفصل الى تراث الازهر فى مجال التأليف والانتاج الفكرى ...

واذا كان ابن تغرى بردى قد عرفنا فى كتابه «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » بطائفة من أعلام الازهر الذين تألقوا منذ قرون ، فان عبد الرحمن الجبرتى قد عرفنا فى تاريخه بطائفة أخرى منذ قرابة قرنين ، وجاء باحثون معاصرون فعرفوا بطوائف من أعلام الازهر فى القديم والحديث ، فكتب الاستاذ محمد عبد الله عنان كتابه « تاريخ الجامع الازهر » ، وظهر للدكتور عبد الحميد يونس كتابه « الجامع الازهر » ، وظهر للدكتور كامل الفقى كتابه « الازهر وأثره فى النهضة الادبية الحديثة » . وظهر للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى كتابه « الازهر فى ألف عام » وظهر من وزارة الاوقاف كتاب « الازهر : تاريخه وتطوره » ، وظهر للشيخ عبد المتعال الصعيدى كتابه « تاريخ الاصلاح فى الازهر » . وظهر للدكتور أحمد الشرباصى ـ صاحب هذا البحث ـ كتابه « فى عالم المكفوفين » ومنهم طائفة كبيرة من هؤلاء الاعلام الازهريين ، وظهر كتاب « الاعلام » للاستاذ خير الدين الزركلى ، وهو يضم فى تراجمه أخبارا عن كثير من هؤلاء الاعلام .. الخ ...

وهذه المجموعة من مشهورى الشيوخ اما أن يكونوا قد تعلموا فى الازهر ، أو قاموا بالتدريس فى الازهر ، أو كان للأزهر تأثير فيهم بطريق مباشر أو غير مباشر،

أو كان لهم تأثير فى مسيرة الازهر الفكرية بطريق مباشر أو غير مباشر ...

ولن يعنينا كثيرا فى هذا المجال أن نطيل عنان الحديث عن تراجم هؤلاء وأحداث حياتهم ، فهى معروفة يسهل على اليد أن تتناول تفاصيلها من المراجع التى ذكرتها أو من سواها ، وانما يعنينا أن نذكر لكل واحد منهم ما نعرفه من مؤلفاته ، ليكون ذلك رصـــدا تاريخيا للاتجاهات التي ســـيطرت على هؤلاء فى مجال العلم والفكر والثقافة ...

وينبغى أن نلاحظ هنا جملة ملاحظات :

فلنلاحظ أولا ان بعض هذه المؤلفات قد طبع ، ولكن نسخه نادرة أو قليلة ، وان بعضها مفقود أو مجهول المصير ، وان الكثير منها ما زال مخطوطا ينتظر اليد الامينة النشيطة لاخراجه من الظلمات الى النور ، وانه أكثرها لم يطلع عليه أبنـاء الجيل الحاضر ، حتى من الازهريين المعاصرين ...

ولنلاحظ ثانيا ان الكثير من هـذه المؤلفات تدور حول موضوعات دينية أو لغوية ، وبعضـها يدور حول موضوعات يظن الكثيرون من الناس أن لا علاقة لها بالازهر ، كموضوعات الطب والهندسة والفلك والحساب والجبر ...

ولنلاحظ ثالثا ان كثيرا من هذه الكتب كانت كتبا مقررة للتدريس فى الازهر ، أو شرحا لهذه الكتب المقررة ، وذلك أمر طبيعى ما دمنا نتذكر أن العلوم التى كانت تدرس فى الماضى بالازهر كانت كثيرة متنوعة ..

ولنلاحظ رابعا أن مجموعة هـذه المؤلفات تسير فى الغالب على طريقة أزهرية خاصـة معروفة بين أبنـاء الازهر ، أو كانت معروفة بينهم الى عهد قريب ، اذا

حرصنا على الدقة فى التعبير ، وهى طريقة « المتن ، فالشرح ، فالحاشية ، فالتعليق ، فالتقرير .... » الخ ، وفى سنة ١٩٦٦ شرحت فى كتابى « رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة » هذه الطريقة ...

ولنلاحظ خامسا شيوع السجع فى عناوين هـذه المؤلفات ، ولم يقل السجع فى عناوين الكتب الا أخيرا ، وسنجد بين مئات المؤلفات أمثال هذه العناوين : « دعائم الاسلام فى الحلال والحرام ـ البرهان فى تفسير القرآن ـ المختار فى ذكر الخطط والآثار ـ منهج السلوك الى نصيحة الملوك ـ دقائق الاخبار وحدائق الاعتبار ـ الايضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير ـ البحر المورود فى المواثيق والعهود » ... الخ .

ولنلاحظ سادسا ان هؤلاء الاعلام من أصحاب المؤلفات لم يكونوا من مصر وحدها ، بل من اقطار كثيرة ، قد تكون من العالم العربى ، وقد تكون من العالم الاسلامى ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الازهر ليس جامعة مصرية ، وليس جامعة عربية ، وانما هو جامعة اسلامية لكل المسلمين فى سائر أنحاء العالم الاسلامى .

اتجاهات علمية واسعة

وأول شخصية تبدو أمامنا من مشهورى الازهريين أصحاب المؤلفات والكتب هو أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله بن محمد القيروانى ، قاضى المعز لدين الله الفاطمى ، وقد كان القيروانى من أعلام الدعاة الى المذهب الفاطمى الشيعى ، وقد توفى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، وكان كتابه « الاقتصار فى فقه آل البيت » هو أول كتاب درس فى الازهر ، والى جوار هذا الكتاب توجد للقيروانى كتب أخرى ، منها :

١ ـ مختصر الآثار فيما روى الائمة الاطهار .
٢ ـ الدعائم ، فى المذهب الاسماعيلى .
٣ ـ دعائم الاسلام فى الحلال والحرام .
٤ ـ الينبوع .
٥ ـ المجالس والمسايرات .
٦ ـ اختلاف أصول المذاهب .
٧ ـ الاخبار .

والصبغة الغالبة على هذه المؤلفات انها كتب فقهية واعتقادية ، وانها تصور نتاج عالم شيعى اسماعيلى ، يحاول بالكلمة المكتوبة ، كما حاول بالكلمة المنطوقة أن يدعو الى مذهب الفاطميين الذى شاع فى مصر خلال ذلك العهد .

ويأتى بعد ذلك أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن كلس ، الذى ولد فى بغداد ، ورحل الى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، وكان يهوديا فأسلم فى شعبان سنة ٣٥٦ هـ ، ثم رحل الى المغرب ، وهناك تعرف الى المعز لدين الله الفاطمى ، وحظى عنده ، حتى صار رائدا لجيش المعز فى حملته على مصر ، وحضر يعقوب مع المعز الى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، وقام بالتدريس فى الازهر ، وكان بارع الحديث والمحاضرة ، وكان ثريا معطاء ، وتولى الوزارة للمعز ، ولقبه المعز بلقب الوزير الاجل ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٣٨٠هـ .
وله طائفة من الكتب والمؤلفات ، منها :

١ ـ الرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى .
٢ ـ كتاب فى القراءات .
٣ ـ كتاب فى آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
٤ ـ كتاب فى علم الابدان والصحة .

ونلاحظ أن الدعوة الى المذهب الشيعى ظاهرة فى

عنوان الكتاب الاول ، وان الناحية الدينية تستحوذ على معظم المؤلفات ، ولكن اضيف اليها التأليف فى العلوم الطبية ، وقد يدلنا هذا على ان الازهر لم يقتصر رجاله على البحث فى العلوم الشرعية ، بل طرقوا ابوابا غيرها من العلوم والمعارف .

وممن تألقت أسماؤهم فى تاريخ الازهر من ناحية العلم والتأليف فيه : أبو الحسن على بن ابراهيم بن سعيد الحوفى ، الذى كان اماما علامة فى النحو وعلوم العربية ، وقد توفى سنة ٤٣٠ هـ . ومن مؤلفاته :

١ ـ البرهان فى تفسير القرآن .
٢ ـ الموضح فى النحو .
٣ ـ اعراب القرآن .
٤ ـ مختصر كتاب العين للخليل (فى اللغة) .

واذا كان بعض هذه الكتب يشير الى العناية بأمر تفسير القرآن الكريم ، لأن فهم كتاب الله تبارك وتعالى يأتى فى الصدر بالنسبة الى علماء الاسلام ، فان بقية الكتب تشير الى العناية بالنحو واللغة ، وللأزهر الشريف منذ أقدم العهود شهرة عالمية بالعكوف على قواعد النحو والصرف ، والعناية بمفردات اللغة وتراكيبها ، ولعل هذه الكتب التى ألفها الحوفى تشير ايضا الى اتساع الاتجاه العلمى داخل الازهر ، فبعد أن كنا نرى الدعوة المذهبية الشيعية غالبة عليه ، أخذنا نرى من رجاله عناية بعلوم القرآن وعلوم العربية

ويأتى الفقيه المفسر المحدث المؤرخ : أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى المولود بمصر ، والذى تولى القضاء فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأرسله الخليفة الى قيصرة قسطنطينية (تيودورا) سنة ٤٤٧ هـ لمحاولة الصلح بينها وبين

مصر ، والذى تأثر بالازهر واثر فيه ، وتوفى بمصر سنة ٤٥٤ هـ . وكانت له مجموعة مؤلفات ضخمة منها :

١ ـ تفسير القرآن (عشرون مجلدا)
٢ ـ تواريخ الخلفاء .
٣ ـ خطط مصر .
٤ ـ درة الواعظين ، وذخر العابدين .
٥ ـ نزهة الالباب .
٦ ـ دقائق الاخبار وحدائق الاعتبار .
٧ ـ دستور معالم الحكم .
٨ ـ ألف ومائتا كلمة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
٩ ـ الشهاب فى المواعظ والآداب .
١٠ ـ مسند الصحاب .
١١ ـ انباء الانبياء .
١٢ ـ مناقب الامام الشافعى .
١٣ ـ عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف .
١٤ ـ المختار فى ذكر الخطط والآثار .

ونلاحظ ان الصبغة الغالبة على هـذه المؤلفات هى الميل الى التاريخ والوعظ ، ولكن لا يفوتنا التنويه بأحد هذه الكتب وهو « دستور معالم الحكم » فعنوانه قد يفهمنا ان من علماء الازهر من أخذ يكتب عن السياسة الشرعية وعن الامور التى تتصل بالحكم والمجتمع ، وهذا اسهام شخصى من القضاعى وأمثاله فى توسيع دائرة الدراسات التى شهدها الأزهر الشريف خلال تاريخه الطويل .

ويأتى اللغوى النحوى ابو الحسن طاهر بن احمد المصرى ، المعروف بابن باب شاذ ، الذى كان امام عصره فى النحو واللغة ، وتأثر بالازهر واثر فيه ، وكان تاجرا

فى الجواهر ، وتولى اصلاح ما يصـــدر من كتابات عن « ديوان الانشاء » فى مصر ، وتزهد فى آخر حياته ، وتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، وقد ألف عدة كتب منها :

١ ـ المقدمة فى النحو ، وتســمى : المقدمة المحسنية فى فن العربية .

٢ ـ شرح الجمل للزجاجى .

٣ ـ شرح الاصول لابن السراج .

٤ ـ شرح النخبة .

٥ ـ التعليق فى النحو (خمسة عشر مجلدا) .

٦ ـ المحتسب فى النحو .

ومن الجلى أن المجرى الرئيسى لكتب ابن باب شاذ هو مجرى الدراسات النحوية ، وكأن هـــذه المؤلفات امتداد للاتجاه الذى سار فيه الحوفى وأمثاله ، كما أن هذه المؤلفـات تمثل ما نســتطيع أن نسميه بالـكتب الدراسية فى الأزهر حينئذ .

ويأتى أبو نصر المؤيد فى الدين : هبــة الله بن موسى ابن داود الشــيرازى ، الذى لقبوه بداعى الدعاة وباب الابواب ، وأصله من شيراز ، ورحل الى الاهواز ، ثم رحل الى مصر ، ودعا الى مذهب الفـاطميين ، وكان يلقى دروسه فى الأزهر ، وكان شاعرا مناظرا ، ناظــر أبا العلاء المعرى بالمراسلة فى موضوع « أكل النبات » ، وتوفى بمصر سنة ٤٧٠ هـ وعمره ثمانون عاما ، وترك من ورائه مجموعة كتب ومؤلفات نذكر منها :

١ ـ المجالس المؤيدية .

٢ ـ السيرة المؤيدية .

٣ ـ ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

٤ ـ أساس التأويل (بالفارسية) .

٥ ـ مراسلات مع أبى العلاء المعرى .

٦ ـ تأويل الارواح .
٧ ـ المرشد الى أدب الاسماعيلية .
٨ ـ كتاب الابتداء والانتهاء .
٩ ـ كتاب المسألة والجواب .
١٠ ـ المسائل السبعون .
١١ ـ نهج الهداية للمهتدين .
١٢ ـ نهج العباد وشرح المعاد .
١٣ ـ الايضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير .

ونشاهد أن الميل الى الدراسات المذهبية الشيعية يبدو جليا فى هذه القائمة من المؤلفات فى الوقت الذى كان أبناء الاسلام يأملون فيه أن ينفسح رحاب الازهر المعمور لدراسات فقهية واسلامية أوسع وأشمل، حتى لايقتصر البحث على مذهب بعينه ، أو اتجاه بذاته .

ولكننا لا يطول بنا الانتظار فى تاريخ الازهر الشريف حتى يأخذ أبصارنا ضوء علم من الاعلام ، تأثر بالازهر وأثر فيه ، وهو الشيخ العلامة الامام شيخ الاسلام : عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السلمى الدمشقى الشافعى ، المشهور باسم « العز بن عبد السلام » أو « عز الدين بن عبد السلام » والملقب بلقب « سلطان العلماء » . وقد ولد بدمشق سنة ٥٨٧ هـ ، وتألق فى العلم والفقه ، فأفتى وألف وصنف ، وبلغ مرتبة الاجتهاد ، وقصده الطلاب وتخرج على يديه أئمة ، وتولى قضاء مصر القديمة مدة من الزمن ، وقام بالتدريس فى عدة بلاد ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ . وقد خلف لنا العز بن عبد السلام مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ الالمام فى أدلة الاحكام .
٢ ـ التفسير الكبير .

٣ ــ الالمام فى ادلة الاحكام .
٤ ــ قواعد الشريعة .
٥ ــ ترغيب أهل الاسلام فى سكنى الشام .
٦ ــ بداية السول فى تفضيل الرسول .
٧ ــ الفرق بين الايمان والاسلام .
٨ ــ قواعد الاحكام فى اصلاح الانام .
٩ ــ رسالة فى التصوف .
١٠ ــ الاشارة الى الايجاز فى بعض انواع المجاز .
١١ ــ الغاية فى اختصار النهاية .
١٢ ــ الفوائد فى مشكل القرآن .
١٣ ــ حل الرموز (تصوف) .
١٤ ــ مسائل الطريقة (تصوف) .
١٥ ــ شجرة المعارف والاحوال ، وصالح الاعمال والاقوال .
١٦ ــ مقاصد الصلاة .
١٧ ــ مناسك الحج .

ونلاحظ فى كتب العز بن عبد السلام تنوعا وتناولا لموضوعات ومواد مختلفة ، فهو قد كتب فى التفسير والأصول والفقه والتاريخ والاجتماع والتصوف ، وقد كانت للدراسات الصوفية بين علماء الأزهر منزلة ملحوظة ، واذا كان العز قد أسهم فى ذلك بنصيب ، فان غيره قد توسع فى هذا الجانب الروحى من الدراسات الاسلامية ، كما سنرى فى موطن آخر ، وهذا التنوع الواضح فى كتب العز بن عبد السلام ينهض دليلا آخر على أن رحاب الأزهر اتسعت لمختلف العلوم والفنون .

ثم نمضى مع الزمن سراعا حتى نلمح من بين أعلام الأزهر شخص أبي يحيى زكريا بن محمد بن محمود الانصارى ، الحافظ شيخ الاسلام ، والذى كان يراجع

السلطان وينصحه ، وقد ولد سـنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ، وتعلم فى الازهر ، ودرس فيه كثيرا من العلوم الدينية كالهندسة والميقات والجبر ، وتولى منصب قاضى القضاة ، وتوفى سنة ٩٢٦ هـ ، وتروى سيرته انه صنف فى كثير من العلوم كالفقه والتفسير والحديث واللغة والتصريف والبلاغة والمنطق والطب والجبر والمقابلة والهندسة والهيئة وغيرها . ومن كتبه :

١ ــ فتح الرحمن فى تفسير القرآن .
٢ ــ تحفة البارى على صحيح البخارى .
٣ ــ شرح الفية العراقى فى مصطلح الحديث .
٤ ــ فتح الوهاب فى شرح الآداب .
٥ ــ غاية الوصول فى الاصول .
٦ ــ شرح ايساغوص فى المنطق .
٧ ــ منهج الطلاب فى الفقه .
٨ ــ تحفة نجباء العصر فى التجويد .
٩ ــ شرح شذور الذهب فى النحو .
١٠ ــ اللؤلؤ النظيم فى روح التعلم والتعليم .

ولم أرد أن أذكر هنا اسم جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر السيوطى المولود سـنة ٨٤٩ هـ والمتوفى سنة ٩١١ هـ والذى كان اماما مفسرا حافظا مؤرخا اديبا ، لأن مؤلفاته أعظم من أن نشير اليها بكلمات عاجلة وسط هذه المسيرة ، فقد الف السيوطى مايقرب من ستمائة مؤلف فى التفسير والحديث والفتاوى والتاريخ واللغة والادب والمقامات والنحو والتراجم وغيرها ، وهذا القدر الضخم من المؤلفات يحتاج الى دراسة واسعة لا الى اشارة عابرة .

وجاء الصوفى الكبير عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى المصرى ، الذى ولد فى بلدة « قلقشندة »

بمصر سنة ٨٩٨ هـ ونشأ فى قرية «ساقية أبى شعرة» بالمنوفية واليها ينسب ، ودخل الازهر وقضى فيه سنواته ، وتعلم على يد شيخه «على الشونى» وغيره ، واتصل بالاعلام من شيوخ الازهر ، من أمثال السيوطى والانصارى واللقانى والرملى والسمنودى ، ويصور الشعرانى بعبارته جانبا من العلوم والكتب التى درسها بعد أن ترك قريته وتوجه الى القاهرة ليدرس فى الازهر ، فيقول : « ثم لما جئت الى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووى ، ثم ألفية ابن مالك ، ثم التوضيح لابن هشام ، ثم جمع الجوامع ، ثم الفية العراقى ، ثم تلخيص المفتاح ، ثم الشاطبية ، ثم قواعد ابن هشام ، وغير ذلك من المختصرات ، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ .

ثم ارتفعت الهمة الى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة ، لكونه أجمع كتاب فى مذهب الشافعى ، فحفظت منه الى باب القضاء على الغائب ، وهو فى أواخر الكتاب ، فلقينى بعض أرباب الاحوال بباب الخرق (باب الخلق) خارج باب زويلة فقال لى مكاشفا : قف على باب القضاء على الغائب ، ولا تقض على غائب بشىء .

فما قدرت بعد ذلك على حفظ شىء منه ، لكننى طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة ، وكنت اقرأ محفوظى للمتن فى الشرح ، وأنظر كل شىء توقفت فى فهمه ، حتى صار شرحه للشيخ زكريا (الانصارى) عندى نصب عينى .

ثم لقينى الشيخ أحمد البهلول رضى الله عنه ، فقال لى مكاشفا : أقبل على الاشتغال بالله ، ويكفيك من العلم ما قد تعلمته ، فشاورت فى ذلك مشايخى ،

فقالوا : لا تدخل طريق القوم الا بعد شرح محفوظاتك كلها على الاشياخ ، فاذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم » .

وانما سقت هذا النص من كلام الشعرانى لأبين أن هذا التوجيه كان له أثر كبير فى مؤلفات الشعرانى الذى توفى سنة ٩٧٣ بالقاهرة ، فقد استجاب الشعرانى لتوجيه أساتذته ، وقرأ محفوظاته على خمسين شيخا وسمع شرحها ، ثم انصرف بجل عنايته الى الدراسات الصوفية والتأليف فيها ، وترك من ورائه ما يقرب من ستين كتابا ، أغلبها فى التصوف والحكم والتوجيه الروحى ، ومنها :

١ ـ لطائف المنن .
٢ ـ مختصر تذكرة القرطبى .
٣ ـ مشارق الانوار .
٤ ـ اليواقيت والجواهر .
٥ ـ مدارك السالكين .
٦ ـ منح المنة فى التلبس بالسنة .
٧ ـ بهجة النفوس .
٨ ـ تنبيه المفترين .
٩ ـ الاجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية .
١٠ ـ البحر المورود فى المواثيق والعهود .
١١ ـ الانوار القدسية ... الخ .

وقد كانت هذه الكتب سببا فى صراع عنيف وقع بين الشعرانى وطائفة من علماء الازهر حول آرائه الصوفية ، وحديثه عن الشريعة والحقيقة ، وهذا الصراع يصلح أن يكون موضوعا لمقال مستقل عن « الشعرانى والازهر » ، ولكنا نلاحظ أن موضوع التصوف أخذ يشغل علماء الازهر فى هذه المدة ، تأييدا

او تفنيدا ، فكان هناك مثلا من أيد الشعرانى ودافع عنه ، وكان هناك من عارضه وهاجمه ، بل وافترى عليه ...

ثم جاء أول رجل تولى مشيخة الازهر ، بعد انشاء هذا المنصب ، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخراشي المالكى ، الذى ينسب الى قرية « أبو خراش » فى البحيرة ، وقد ولد بالقاهرة سنة ١٠١٠ هـ وأخذ العلوم عن طائفة من شيوخ الازهر ، وكان فقيها فاضلا ورعا ، وقد توفى بالقاهرة سنة ١١٠١ هـ ، ومن كتبه :

١ ـ الفرائد السنية فى شرح المقدمة السنوسية .
٢ ـ الشرح الكبير على متن خليل فى الفقه المالكى.
٣ ـ جزء فى الكلام على البسملة .
٤ ـ الشرح الصغير على متن خليل .

ونلاحظ أن مؤلفاته يغلب عليها الاتجاه الى الفقه المالكى ، لانه كان مالكيا ، ونستطيع أن نقول أن هذه المؤلفات كانت ـ فى الغالب ـ لا تتخطى نطاق الكتب الازهرية الدينية التى يدرسها العلماء لطلابهم فى الجامع الازهر ...

ثم جاء العالم الشاعر الشيخ عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوى الذى تولى مشيخة الازهر ايضا ، وولد سنة ١٠٩١ هـ وتعلم فى الازهر ، وبرز وتألق فى العلم والشعر ، وكان صاحب جاه ومنزلة ، ومن كتبه :

١ ـ منائح الالطاف فى مدائح الاشراف .
٢ ـ عنوان البيان .
٣ ـ شرح الصدر فى غزوة بدر .
٤ ـ ديوان شعر الشبراوى .

والظاهرة اللافتة للنظر هنا هى غلبة الشعر على أحد

اقطاب الازهر ، بل وأحد الاعلام الذين تولوا مشيخة الازهر ، مع ان الذي كان شائعا فى الازهر الى عهد قريب ، أن الازهرى الذى يشتغل بالادب أو الشعر لا يفلح فى تكوين نفسه علميا وفكريا ، ولكن يظهر أن الشيخ الشبراوى قد هدم هذا الزعم منذ أكثر من ثلاثة قرون ، ثم انتقل الازهر ـ وخاصة فى عهده الحديث ـ الى عناية واسعة بالادب والشعر ، وتألق فى سمائه عشرات وعشرات من الادباء والشعراء يحتاج الحديث عنهم الى مئات من الصفحات ...

وفى السنة التى لحق فيها الشعرانى بربه تبارك وتعالى ، وهى سنه ١١٠١ هـ ، ولد الشيخ شمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفنى ـ أو الحفناوى ـ الشافعى ، وقد ولد فى بلدة « حفنة » بالشرقية ، وتعلم فى الازهر الشريف ، وصار فقيها فى مذهب الشافعية ، وبرع فى علم العروض ، وقال الشعر أيضا على قلة ، وهو صاحب الزجل الشعبى :

« أحدتك حدوتة ، بالزيت ملتوتة حلفت ما اكلها ، حتى يجى تاجرها » ... الخ .

وقد تولى الشيخ الحفنى مشيخة الازهر كذلك ، وخلف لنا كتبا كثيرة منها :

١ ـ حاشية على شرح الاشمونى فى النحو .
٢ ـ أنفس نفائس الدرر .
٣ ـ فوائد عوائد جبرية .
٤ ـ رسالة فى التقليد (فى الحساب) .
٥ ـ حاشية على شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة .
٦ ـ حاشية على شرح العزيزى للجامع الصغير .
٧ ـ حاشية على الشنشورى فى الفرائض والمواريث .

٨ ــ الثمرة البهية فى أسماء الصحابة البدرية .
٩ ــ حاشية على شرح العضد للسعد (فى البلاغة) .
١٠ ــ حاشية على مختصر السعد فى البلاغة .

ونلاحظ هنا أن عالما تولى مشيخة الازهر ، وكان له باعه فى الدراســـــات الازهرية ، ومع ذلك كان يقول الشعر ، وكان يؤلف فى الجبر والحساب ، وكان يقول الزجل العامى كما رأينا ...

ثم نجد الشيخ أحمـــد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى ، المولود فى دمنهور سنة ١١٠١ هـ ، والذى تلقى العلوم العقلية والطبية فى الازهر ، وتولى مشيخة الازهر ، وكان مهيبا عند الامراء ، قوالا لـكلمة الحق ، آمرا بالمعروف ، وكان يعرف باسم «المذاهبى» لعلمه بالمذاهب الفقهية الاربعة ، وله تآليف كثيرة ، وقد توفى سنة ١١٩٢ هـ . ومن كتبه ما يلى :

١ ــ الفيض العميم فى معنى القرآن العظيم .
٢ ــ ايضاح المبهم من معانى السلم .
٣ ــ سبيل الرشاد الى نفع العباد .
٤ ــ حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون .
٥ ــ منتهى الارادات فى تحقيق الاستعارات .
٦ ــ القول الصريح فى علم التشريح .
٧ ــ الزهر الباسم فى علم الطلاسم .
٨ ــ طريق الاهتداء بأحكام الامة والابتداء .
٩ ــ الفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى .
١٠ ــ نهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف .
١١ ــ منهج السلوك الى نصيحة الملوك .
١٢ ــ احياء الفؤاد بمعرفة ظواهر الاعداد .
١٣ ــ عين الحياة فى استنباط المياه .
١٤ ــ الرقائق الالمعية على الرسالة الوضعية .

ونلاحظ فى مؤلفات الدمنهورى هذا التوسع الفسيح فى مختلف العلوم والفنون ، فهو لايقتصر على الموضوعات الدينيـــة واللغوية فحسب ، بل يكتب فى التشريح والحساب واستنباط المياه وشئون المجتمع وسياسة الحكم ... الخ .

ويأتى الشيخ احمد بن أحمد بن محمد السجاعى البدراوى الازهرى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ . وهو من قرية (السجاعة) بالغربية ، وهو فقيه شافعى المذهب، درس وأفتى وألف ... ومن كتبه :

١ ــ الدرر فى اعراب السور .
٢ ــ حاشية على شرح الفطر لابن هشام .
٣ ــ شرح معلقة امرىء القيس .
٤ ــ شرح لامية السموءل .
٥ ــ حاشية على شرح ابن عقيل للألفية .
٦ ــ منظومة فى الاستعارات .

ثم جاء الشيخ أبو البركات أحمد بن محمد بن أحمد العدوى المشهور بالشيخ الدردير ، الذى ولد فى بنى عدى بمحافظة أسيوط سنة ١١٢٧ هـ ، ورحل الى الازهر فتعلم فيه ، وبخاصة عن الشيخين على الصعيدى والحفنى ، وتألق نجمه ، وتصوف وأفتى ، وكان مثلا فى التعفف ، وتولى مشيخة المالكية ونظارة وقف الصعايدة ، ومشيخة رواقهم ، وكان لا يهاب سطوة المماليك ، بل يقف بجوار الشعب يقاوم مظالم الحاكمين الذين كانوا يهابونه ويعرفون مكانته الشعبية . وقد توفى الشيخ الدردير بالقاهرة سنة ١٢٠١ هـ ، ومن مؤلفاته ما يلى :

١ ــ أقرب المسالك لمذهب مالك .
٢ ــ تحفة الاخوان فى آداب أهل العرفان .

٣ ـ رسالة فى المعانى والبيان .
٤ ـ رسالة فى طريقة حفص فى القراءات .
٥ ـ رسالة فى متشابهات القرآن .

وللشيخ الدردير أشعار كثيرة أغلبها فى التصوف وعلم التوحيد ، مثل قصيدته « الخريدة السنية » وقصيدته « الخريدة البهية » .

ومن الاعلام المشهورين فى تاريخ الازهر الشيخ عبد الله بن حجازى بن ابراهيم الشرقاوى ، المولود فى بلدة « الطويلة » بالشرقية سنة ١١٥٠ هـ ، وتعلم فى الازهر ، وتولى مشيخة الازهر سنة ١٢٠٨ هـ ، وفى عهده أنشىء رواق « الشراقوة » . وكان الشيخ الشرقاوى عالما جليلا ، وزعيما سياسيا ، ومجاهدا مضحيا ، وله مواقفه المشرفة فى الدفاع عن حرية الشعب وكرامة الوطن ، وقد توفى فى القاهرة سنة ١٢٢٧ هـ . ومن مؤلفاته هذه الكتب :

١ ـ مختصر مغنى اللبيب فى النحو .
٢ ـ التحفة البهية فى طبقات الشافعية ، من سنة ٩٠٠ الى سنة ١١٢١ ـ ٣ ـ تاريخ مصر .
٤ ـ متن العقائد المشرقية وشرحها .
٥ ـ تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين .
٦ ـ حاشية على شرح التحرير .
٧ ـ شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى .
٨ ـ شرح الوصايا الكردية .
٩ ـ فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى .
١٠ ـ مختصر الشمائل مع شرحه .

ومن المشهورين فى تاريخ الازهر ، الشيخ أبو العرفان محمد بن على الصبان الشافعى النحوى ، الذى تعلم فى الازهر ، وبرع فى النحو ، وتوفى فى القاهرة سنة ١٢٠٦ هـ . ومن كتبه :

١ ــ الكافية الشافعية فى علمى العروض والقافية.
٢ ــ اتحاف أهل الاسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهله الكرام ــ ٣ ــ أرجوزة فى الفروض وشرحها .
٤ ــ حاشية على شرح الاشمونى للألفية .
٥ ــ الرسالة الكبرى فى البسملة .
٦ ــ اسعاف الراغبين .
٧ ــ حاشية على شرح الملوى للسلم .
٨ ــ تقرير على مقدمة جمع الجوامع .
٩ ــ حاشية على شرح الرسالة العضدية .
١٠ ــ علم الهيئة ــ ١١ ــ رسالة فى الاستعارات .

ثم جاء الازهرى الواسع الافق ، العميق الثقافة ، الجامع بين علم الدين وعلم الدنيا ، الشيخ حسن بن محمد بن محمود العطار المولود بالقاهرة سنة ١١٩٠ هـ أصله من المغرب ، واتصل برجال الحملة الفرنسية ، وتعلم منهم ، وتولى مشيخة الازهر سنة ١٢٤٦ هـ ، وحاول ربط الازهريين بالعلوم الحديثة والمعارف المختلفة ، وكان شعاره : « ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . وكان يجيد عمل المزاول الليلية والنهارية ، وله رسائل فى الطب والتشريح ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية ، وله أشعار رقيقة ، منها قصائد فى الغزل ، وقد توفى الشيخ العطار بالقاهرة سنة ١٢٥٠ . وله كتب كثيرة منها :

١ ــ حاشية على جمع الجوامع .
٢ ــ حاشية على مقولات الشيخ السجاعى .
٣ ــ رسالة فى كيفية العمل بالاسطرلاب ، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط .
٤ ــ رسائل فى الطب والرمل والزابرجة والتشريح .
٥ ــ رسالة فى البسملة والحمدلة .

٦ ـ انشاء الشيخ العطار .
٧ ـ حاشية شرح قواعد الاعراب .
٨ ـ حاشية الازهرية فى النحو .
٩ ـ حاشية العصام على الوضعية للايجى .
١٠ ـ شرح المنظومة فى اداب البحث .
١١ ـ شرح منظومة التشريح .
١٢ ـ شرح نزهة الشيخ داود فى الطب .
١٣ ـ حاشية شرح أشكال التأسيس فى علم الهندسة
١٤ ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .
١٥ ـ ديوان الشيخ العطار .

وجاء الازهرى العبقرى المكفوف الشيخ حسين أحمد المرصفى ، المولود فى قرية « مرصفا » بالقليوبية سنة ١٨١٥ هـ ، وأصيب بكف البصر وهو فى الثالثة من عمره ، وتعلم فى الازهر ، وكان صاحب حافظة قوية وعملية ممتازة ، وقام بالتدريس فى الازهر ، ثم تعلم اللغة الفرنسية فى ثلاثة أشهر ، وانتفع بمطالعاته فى الفرنسية ، وقام بالتدريس فى دار العلوم ومدرسة العميان وهى أول مدرسة من نوعها فى مصر ، واختير عضوا بالمجلس الاعلى للتعليم ، وكان صديقا للشاعر محمود سامى البارودى ، وكانت بينهما مراسلات ومساجلات ، وقد توفى المرصفى بالقاهرة سنة ١٢٧٠ هـ ، وقد ترجمت له ترجمة واسعة فى كتابى « فى عالم المكفوفين » بالجزء الثانى . ومن كتب المرصفى مايلى :

١ ـ الوسيلة الادبية الى العلوم العربية .
٢ ـ دليل المسترشد الى فن الانشاء .
٣ ـ رسالة الكلم الثمان .

ولا ننسى أن المرصفى كان أستاذا للشاعرين الكبيرين أحمد شوقى وحافظ ابراهيم .

ثم جاء الازهرى النابغ الجامع بين ثقافتى الشرق

والغرب : رفاعة رافع الطهطاوى ، المولود بطهطا سنة ١٢١٦ هـ ، وتعلم فى الازهر ، واستكمل تعليمه فى فرنسا ، حينما كان اماما للبعثة الموفدة من مصر فى عهد محمد على ، وكان له أثر كبير فى النهضة العلمية والفكرية ، وهو الذى أسس مدرسة الالسن ، وانشأ جريدة الوقائع ، وترجم كتبا كثيرة مؤلفة ومترجمة . وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٩٠ ، ومن كتبه :

١ ـ قلائد المفاخر فى غرائب عادات الاوائل والاواخر (مترجم) ـ ٢ ـ المعادن النافعة (مترجم) .
٣ ـ مبادىء الهندسة .
٤ ـ المرشد الامين فى تربية البنات والبنين .
٥ ـ نهاية الايجاز فى السيرة النبوية .
٦ ـ أنوار توفيق الجليل فى تاريخ مصر .
٧ ـ تعريب القانون المدنى الفرنسى .
٨ ـ بداية القدماء ـ ٩ ـ تاريخ قدماء المصريين .
١٠ ـ التعريبات الشافية لمريد الجغرافية .
١١ ـ خلاصة الابريز فى رحلة باريز .
١٢ـ جغرافية بلاد الشام ـ١٣ـ جغرافية ملطبرون .

وفى ختام هذه الجولة بين المشهورين فى تاريخ الازهر الشريف يأتى الاستاذ الامام محمد عبده ، صاحب الجهد الكبير الضخم فى احياء النهضة الادبية والفكرية فى مصر ، وقد صارت سيرته أشهر من أن تكرر هنا ، وقد توفى سنة ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م ـ ومن كتبه ما يلى :

١ ـ رسالة التوحيد ـ ٢ ـ شرح نهج البلاغة .
٣ ـ الواردات فى التوحيد على طريقة الصوفية .
٤ ـ فلسفة الاجتماع والتاريخ .

٥ ـ تفســير القرآن (تفسير المنــار) الى أواخر سورة النساء .
٦ ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى .
٧ ـ تفسير جزء عم .
٨ ـ نظام التربية والتعليم بمصر .
٩ ـ الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .
١٠ ـ شرح البصائر النصيرية فى المنطق .

وانما ختمنا مسيرتنا هــذه بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، لأن حيــاته انتهت بانتهاء القرن التاسع عشر ومبادىء القرن العشرين ، وأما أعلام الازهر فى القرن العشرين بعد الاستاذ الامام فانهم كثيرون كثيرون، ولم أحاول فى مسيرتى هــذه أن أستوعب الأشخاص ، ولو أردت لما استطعت ، فهناك غير هؤلاء المذكورين هنا كثيرون لهم مكانتهم ومؤلفاتهم ، وكان لابد من الاكتفاء بجانب منهم ...

وكم اتمنى أن توضع دائرة معــارف تحت عنوان : « أعلام الازهر الشريف » تضم تراجم لالوف الازهريين الذين تألقوا فى تاريخ الازهر خلال ألف عام ، وتحصى أعمالهم ومؤلفاتهم بقدر الامكان . ان هذه أمنية تاريخية علمية ، لو تحققت على وجهها لكانت خير تحية نقدمها الى الازهر المعمور والى أرواح هؤلاء الذين توالوا على هذا المعهد الاسلامى الاكبر خلال هذه القرون العشرة

وانى أضع هذا الاقتراح أمانة بين أيدى المسئولين عن الازهر، راجيا أن يمتد العمر بالانسان حتى تشهد عينه هذا الامل حقيقة واقعة . وعلى الله قصد السبيل ...

الأزهر كما يصوره الجبرتى

الجامع الازهر ، قلعة حصينة من قلاع الاسلام ، على كل من الحقيقة والمجاز .. وفى تاريخه الطويل صفحات ناصعة البياض فى سجل الصمود .. الصمود فى وجه العدوان المادى بمحاولة تقويضه وهدمه من حيث هو بناء شامخ وأرض طيبة يتنزل عليها من رحمات الله ما يشاء والصمود فى وجه الحرب المعلنة أو الخفية على ما يرمز له الازهر من الثبات على الدين الحق .. وان حاقت برجال الدين محن وآلام يريد الله بها أن يميز بين الخبيث والطيب ليكون للصابرين المجاهدين أجرهم ضعفين : ضعف على الطاعة والعمل على رفع كلمة الله ، وضعف على مغالبة المكابرين من حزب الشيطان ، وما خلا منهم زمان ولا مكان ، سنة الله فى أرضه ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

عرفت الامة الاسلامية للأزهر الشريف هذه المكانة ، وكسبت مصر باحتوائها له مكانة خاصة فى العالم الاسلامى .. وحرصت الامة الاسلامية على أن يظل الازهر — كما بدأ — حصن الدفاع عن العقيدة ومنارة الهداية ، لا تسبقه بقعة فى الارض الا ثلاث تشد اليها الرحال ..

وكما عرفت الامة الاسلامية لهذا الجامع مكانته ،

(*) الاستاذ الدكتور عيسى عبده

كذلك كانت الحال عند خصوم الاسلام ، فما هادنوه . ومن السذاجة أن يطمع المرء في المهادنة عن قريب أو عن بعيد ، فالحاقدون على الاسلام لا يزيدون على مر الايام الا غلوا في اثارة الحرب عليه .. معلنة أو خفية ، ظاهرة أو مطوية في ثنايا السلوك ، حتى السلوك العلمى الصادر عن علماء مشهورين (في عرف الناس وحسب.. اذ لا قيمة لأى علم لا يهدى صاحبه الى التوحيد) وفى هذه العجالة سأضرب مثلين ، وفيهما اشارة كافية...

في دوائر المعارف

أنظر الى دائرة المعارف البريطانية ، ولها من الصيت ما لا يغيب عن المثقفين .. ثم ابحث عن الازهر في كل المظان ، ابحث في كل مادة لغوية وثيقة الصلة بقلعة الاسلام : تحت كلمة معبد او مسجد أو جامع او بيت من بيوت الله . أو تحت الحروف الدالة على الازهر بالذات ، وستجد ان هذا المرجع الذى يطمئن اليه بعض الناس قد خلا من النص ومن الاشارة جميعا !..

ومن غريب الامر أن تجد هيئة التحرير في هذه الموسوعة لم تجهل مكانة « الازهرى » الزعيم السودانى الراحل ، ثم تقول : الازهرى اسماعيل .. وتذكر عن مولده ونشاطه ومكانته ما يطيب لها أن تقوله . وبهذا تنتهى مادة الازهر والازهريين ــ في عرف هيئة التحرير بدائرة المعارف البريطانية ! !

وقد يقول قائل : ان دائرة المعارف البريطانية لا تذهب في ذكر التفصيلات الى حد يسمح لها بوزن « الجامع الازهر » في التاريخ الاسلامى ، وفى العالم الاسلامى على تتابع ادوار القوة والتراجع في صفوف المسلمين ــ قد يقول قائل حسن الظن بمثل ما تقدم..

فنقول : انظر الى دائرة اخرى مختصة بالدين والملل والنحل ، وابحث عن الازهر ، بل ابحث عن الاسلام ، وستجد ذكر الاسلام وحسب فى خمس صفحات . جاء الكاتب فيها على كل ما يظنه من الاسلام ، أو من تاريخه ، أو من شئون الامة التى اختارها الله جل شأنه لحمل الامانة الى يوم البعث .. ثم وازن بين هذا التقتير الشديد (بصرف النظر مؤقتا عن سطحية المادة واخطائها) وبين الوفرة والغنى فى تفصيلات الاحداث والاحكام التى تنسب الى سيدنا موسى أو الى سيدنا عيسى عليهما السلام وانك لتجد الكلام المستفيض عن « اليهود » وعن « اليهودية » وعن « المسيحية » ثم انك واجده أيضا عن اسرائيل والصهيونية باسهاب ، بحيث تبلغ صفحات هذه البحوث مجتمعة بضع مئات .. تقابلها عن الاسلام خمس صفحات خاويات جاهلات آثمات ! !

قالوا فى لغة السياسة : ان السكوت وسيلة من وسائل الدفاع ، وهو ايضا وسيلة هدم . ولهذا حفل التاريخ بتفصيلات جمة عن حملات السكوت من النوعين وما كان اغفال الازهر من المراجع التى يقال عنها علمية الا مثلا على السلوك الحاقد على الاسلام . « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

مع الجبرتى

هذا المؤرخ العظيم « الجبرتى » عرض للازهر الشريف فى عهده ، من زاوية الاحداث التى جرت وسجلها بقلمه الرصين .. وكان الجبرتى على طريقته ، موضوعيا وحسب .. بمعنى انة يعرض الاحداث تباعا دون أن

يعقب من عنده بالرأى أو التقدير .. وهـذا أسلوب خاص من أساليب التاريخ المعروف باليوميات ، وهو أسلوب صادق أمين.. وللدارس أن يعمق النظر فيما جرى به قلم الجبرتى ، وانه ليجد بين ثنايا السطور اشارات غير معلنة ، تتكفل بها الاحداث وما بينها من ترابط وثيق ثم ان لكل حادثة دلالة ..

وقد آثرنا أن نورد النص كما انتهى الينا ثم نقف فى آخر المقال وقفة قصيرة ، لعلنا نستشف من وراء الزمان الذى انقضى على حملة الفرنسيين الى يومنا هذا بعض العظات والعبر .. وهذا فرض على المؤمنين الى يوم يبعثون .. اذ جاء فى كتاب الله جـل شـأنه فيض من النور عن القصص وما فيه من علم نافع ، قال تعالى مخاطبـا رسوله صـلى الله عليه وسـلم ــ وعلينا أن نتبع ــ قال : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » . وقال جل شأنه « تلك القرى نقص عليك من أنبـائها » وقال أيضا « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ..

يقول الجبرتى فى الجزء الثالث من الطبعة الاميرية من صفحة ٢٥ ــ ٤٧ تحت عنوان (اطـلاق المـدافع من الفرنسيين على الأزهر) :

« لما ظهرت غلبة الفرنساويين فى القرن الثالث عشر الهجرى على مصر وملكوا القلعة وغيرها ، أرسل كبيرهم الى مشـايخ الازهر مراسـلة فلم يجيبوه ، فعند ذلك ضربوا بالمـدافع على البيوت والحـارات ، وتعمدوا بالخصوص الجـامع الازهر ، وحرروا عليـه المدافع والبنـادق ، وعلى ما جاوره من الأماكن كالفورية ، والفحامين ، فضج أهل تلك الجهة . ونادوا : « يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف » .

وتتابع الرمى من القلعة وتلال البرقية حتى تزعزعت الأركان وهدمت حيطان الدور ، فركب المشايخ الى كبير

الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل فيكف عسكره عن الرمى ، فعاتبهم فى التقصير ، فاعتذروا اليــه ، فقبل عذرهم ورفــع عنهم الرمى ، وقاموا من عنده ينــادون بالأمان فى المسالك والطرقات واطمأنت القلوب .

« ثم بعد الحـــادثة السابقة ثارت فتنة بين أهــل الحسينية والعطوف ، وبين الأفرنج وتراموا ، ولم يزل الرمى بين الطائفتين حتى فرغ من الطائفة الأولى البارود ، فأثخنهم الفرنج بالرمى المتتابع .

« وبعد هجعة من الليل دخل الفرنج المدينة ، ومروا فى الأزقة والشوارع . وهدموا ما وجدوا من المتاريس وانتشروا فى الطرقات وتراســلوا رجالا وركبــانا ، ثم دخلوا الجــامع الأزهر راكبين على خيولهم ، وتفــرقوا بصحنه ومقصورته ، وقبلته ، وعاثوا بالاروقة وكسروا القناديل والسهارات ، وهشـــموا خزائن الطلبة ونهبوا أمتعتهم ودشتوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداســوها ، وجردوا كل من وجــدوه به وأخرجوه ، وأصبحوا مصطفين بباب الجامع ، وكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا . ونهبوا بعض الدور التى بالقرب من الجامع ، وخرج ســكان تلك الجهــة يهرعون للنجــاة بأنفسهم .

« وانتهكت حرمة تلك البقعة بعــد أن كانت أشرف البقــاع ، وبقى الامر كذلك يومين قتــل فيهما خلائق لا تحصى ، ونهبت أموال لا تستقصى ، فركب المشايخ بأجمعهم وذهبوا الى بيت سر عسكر الفرنساوية ، وطلبوا منه الأمان فوعدهم مع التسويف ، وطلب منهم بيان من تسبب فى اثارة الفتنة من المتعممين فغالطوه ، فقال لهم على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده فى اخراج العسكر من الجــامع الأزهر ، فأجابهم لذلك

وامر بخروجهم ، واسكن منهم نحو السبعين فى الخطة(١) كالضابطين ، ثم فحصوا عن المتهمين فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ اسماعيل البراوى ، وحبسوهم ببيت البكرى (٢) .

« ثم ركب الشيخ السادات والمشايخ الى بيت سر عسكر وتشفعوا فى المسجونين فقيل لهم لا تتعجلوا ، وبعد أيام حضر جماعة من عسكر الفرنسيس الى بيت البكرى نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين عند سر عسكر ليتحدث معهم .. فذهبوا الى بيت قائمقام بدرب الجماميز ، وهناك عروهم من ثيابهم وطلعوا بهم الى القلعة فسجنوهم الى الصباح ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق والقوهم خلف القلعة .

رفع البيارق على منارة الأزهر

« لما توجه بونابرت الى الشام بعد استيلائه على مصر استولى على مدينة العريش وغزة وخان يونس ، ورد الخبر الى مصر فعمل الفرنساوية شنكا(٣) وضربوا عدة مدافع من القلعة والازبكية وحضر عدد منهم راكبين الخيول وبعضهم مشاة وعلى بعضهم عمائم بيض وعلى جماعة برانيط ، ومعهم نفير ينفخون فيه ، وبيدهم بيارق كانت عند المسلمين بقلعة العريش الى أن وصلوا الى الأزهر واصطفوا ببابه رجالا وركبانا ، وطلبوا الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وامروه برفع تلك

(١) الخطة : مثل « الحى »
(٢) بيت البكرى بالخرنفش
(٣) الشنك : صواريخ الاعياد والمناسبات للاحتفاء أو لاظهار الفرح .

البيارق على منارات الجامع الازهر فنصبوا بيرقين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين ، وعلى منارة أخرى بيرقا ، وضربوا عدة مدافع بهجة وسرورا ، وكان ذلك ليلة عيد الفطر ، وعند الغروب ضربوا مدافع أعلاما بالعيد .

قتل المجاورين وغلق الازهر

« وفى افتتاح محرم سنة ١٢١٥ هـ وقعت حادثة عجيبة وهى أن سر عسكر الفرنساوية « كليبر » كان واقفا فى بستان داره بالأزبكية وصحبته أحد خواصه ، فدخل شخص يوهم أن له حاجة وضربه بخنجر فشق بطنه وفر هاربا ، ففتشوا عليه حتى أخرجوه من بئر فوجدوه شاميا ، فسألوه فأخلط فى كلامه فعاقبوه وحرقوا يديه بالنار ، فقال لهم لا تظلموا أهل مصر ، فأنا من جملة جماعة بعنا أنفسنا للموت واتفقنا على رؤسائكم ، فقيل له أين كنت تأوى ، فقال عند فلان وفلان برواق الشوام بالأزهر ولا يدرون حالى .

« فأحضروا الشيخ الشرقاوى (شيخ الأزهر) والعريشي وألزموهما باحضار الذين كان يأوى اليهم وهم أربعة ، ثم ركبوا الى الأزهر وصحبتهم أغوات الانكشارية وقبضوا على ثلاثة ولم يجدوا الرابع ، ثم صبروا المقتول والبسوه برنيطة ، ثم وضعوا معه الخنجر الذى قتل به وحملوه على عربة الى تل العقارب حيث القلعة التى بنوها هناك وضربوا له المدافع ، وأحضروا القاتل وخوزقوه وضربوا رقاب الثلاثة الشوام المظلومين وحرقوا جثثهم ورفعوا رءوسهم على خوازيق بجانب المخوزق ، ثم وضعوا قتيلهم فى تخشيبة ووضعوا عندها عسكرا يتناوبون ليلا ونهارا ، ثم ولوا عوضه سر عسكر يسمى (منو) كان بثغر رشيد وأظهر أنه أسلم ويسمى بعبدالله ،

وحضر مع قائمقام والاغا الى الازهر ، وشقوا فيه وفى أروقته وأرادوا نبش اماكن للتفتيش على السلاح .

« وأخـذ المجاورون فى نقل أمتعتهم واخلاء الأروقة ونقلوا كتب الوقف ، ثم أنهم كتبوا أسماء المجاورين فى قائمة وأمروهم ألا يؤووا أفاقيا مطلقا ، وأخرجوا منه الاتراك بالكلية ، وفى عصريتها توجه الشـيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى الى سر عسكر « منو » واستأذنوه فى قفل الجامع وتسميره منعا للريبة فربمـا دس فيه من يبيت به ويفصـل ما أراد ولا يمكن الاحتراس من ذلك لكثرة دخانيق الجامع واتساع زواياه ، فأذن لهم بذلك.

« وسـمروا أبوابه وكذا سمروا مدرسـة محمد بك (أبو الذهب) المقـابلة له وأخرجوا منهـا الاتراك ، واستمرت الشدة والانزعاج الى أن أخذ الفرنساوية فى الانجلاء عن الديار المصرية .

« وفى محرم سنة ١٢١٦ فتح الجامع الازهر ، وكذلك المدرسة ، وفرح النـاس فرحا شـديدا وهنأ بعضـهم بعضا ... »

عبرة الدهر ..

أية عبرة بالغة فى أحداث الحملة الفرنسية على مصر وموقفها من الأزهر الشريف ؟ .. بل أية عظات وعبر تلك التى تطاول الزمان وتعلو بصـوتها الجهير على كل مستحدث من الدعوات الى الفصل بين الدين وبين مسيرة الأمة الاسلامية نحو المكانة التى أرادها الله سبحانه لعباده المتقين ، اذ يخاطبهم بالقول الصريح : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسـول عليكم شهيدا » .

يقولون فى الامثال : « ما أشبه الليلة بالبارحة » وأن ما فعله المعتــدون بالازهر من مائة وســبعين عاما ، هو بعينه ما فعلته اسرائيل بالمســجد الاقصى من عامين ، لا جديد .

بل ان اسرائيل زادت جرأة بما عمدت من طبع آيات القرآن الكريم محرفة أو منقوصة ، فى كتب دراســية فرضتها على الاجيال الناشئة من العرب ، حيثما رزئت دار الاسلام بوجود اسرائيل ، هذا بالاضافة الى تحريف المصحف وترويج ما حرفوه .

أما اقتحام المسجد بالخيول أو بالمدرعات ، وأما قتل الابرياء وقصف بيوت الله ، فقد كان من فعل المشاة ، بقدر ما وسعهم البغى والعدوان .. ولكن أدوات العصر تفوقت بالقصف من الجو ومن الارض على المدى البعيد ، ثم زادت من وسائل الدمار ما هو معلن وما لا يزال على الكتمان .. والهدف باق على ما كان عليه : هو المسجد وما يتلى فيه من قرآن .

لقد فرح المسلمون حين أعيد فتح الازهر ، كما يقول الجبرتى فيما تقــدم من تاريخه ... ولــكن هل تنبه المسلمون الى الخطر المحدق بكل مسجد ، لا بالاقصى وحده ، ولا الازهر وحــده ؟ وهل عرف المســلمون أن مخطط اسرائيل يسير الهوينى ، ولكن فى ثبات وهدفه خيبر ؟ ..

ولقد حذرنا الله كثيرا والنــاس فى غفلة .. فاذا لم يؤمنوا بالقصص الحق « فبأى حديث بعــد الله وآياته يؤمنون » .

دار العلوم
قبس من الأزهر

من الكلمات الاثيرة عند ابناء دار العلوم تلك الكلمة الخالدة التى حفظوها عن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وهى قوله :

« ان باحثا مدققا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية ، وأين تحيا : لوجدها تموت فى كل مكان ، وتحيا فى دار العلوم » !

وقد أعظم من شأن هذه الكلمة ، أو من شأن هذه الشهادة ، منزلة صاحبها بين العلماء والحكماء ، وما عرف به من صدق الرأى ، وشجاعة القلب ، وصحة الحكم ، وسلامة التقدير .

ولنا أن نتصور ذلك العهد الذى قال فيه الاستاذ الامام هذه الكلمة ، وهو عهد فسدت فيه اللغة العربية ، وهبطت الى أدنى منازلها ، فقد اختلطت فيه فصاحة العربية ، بهجنة العامية ، وبعجمة التركية ، مع رطانات شتى من اللغات الاجنبية .

وذلك فى وقت اشتدت فيه وطأة الاستعمار ، وضراوته فى حرب اللغة العربية ، ومحاولة القضاء عليها ، اذ كان يعلم أنها فى مقدمة مقومات هذه الامة ، وأبرز مظاهر وحدتها واتصال شعوبها . وامتحنت هذه الامة بعدد من الذين ينتسبون اليها من الذين ظاهروا الاستعمار ،

(*) للاستاذ الدكتور بدوى طبانه

ومالأوا الاعداء فتنكروا لعروبتهم ، وأثروا لغة الغريب ، استعلاء على اخوانهم وبنى جلدتهم ، فأصبحوا يتشدقون بألفاظها ومصطلحاتها، احساسا بالضعة التى طبعوا عليها، والنقص الذى ركب فيهم ، ثم سنة المجتمعات المغلوبة فى تملق المغلوب للغالب ، ومحاكاة الضعيف للقوى فى سلوكه ، واصطناع أدابه ومظاهر حياته عن غير وعى أو بصيرة .

حتى لقد أصبحت القومية فى نظر هؤلاء تعصبا ، والوطنية دعوة الى الانتكاس ، والدعوة الى التحرر والاستقلال تمردا على الطاعة الواجبة لولى الامر ، من غير بحث فى أحقيته لملك البلاد ، واسترقاق العباد .. وعلى هذا القياس أصبح التمسك بحبال العقيدة أو بأهداب الفضيلة جمودا ، والحفاظ على اللغة ، والالتزام بأصولها ، وسنن أصحابها فى التعبير عن المقاصد والاغراض ، رجعية وتخلفا ، أو تقليدا وتكلفا ...

جامعة حرة للجميع

وبعد ، فما هى « دار العلوم » التى حيت فيها لغة العرب ، وكانت تموت فى كل مكان ـ كما قال الاستاذ الامام ، أو اللغة العربية التى أصبحت تحيا فى كل مكان بفضل أبناء دار العلوم ـ كما قال ذلك الدكتور السعيد مصطفى السعيد المدير الاسبق لجامعة القاهرة ؟

دار العلوم هى هذه الكلية العريقة التى تربض فى مكانها المعروف بحى « المنيرة » من أحياء مدينة القاهرة ، وقد استقرت فى هذا الموضع منذ سنة (١٩٠٠ م) بعد رحلة استمرت ثلاثين عاما بين حى « الجماميز » وحى « الناصرية » موضع المدرسة السنية الثانوية الان . وكان البدء فى القاء الدروس والمحاضرات على طلبة دار

العلوم فى « سراى الجماميز » فى اليوم الخامس عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٨ هـ (٦ من مايو سنة ١٨٧١ م) .

وعلى ذلك تكون هذه الكلية قد قضت من حيـــاتها المباركة أكثر من مائة عام ، وهى تؤدى فى صمت ووقار رسالتها الخالدة فى خدمةاللغة العربيةوأدابها والدراسات الاسلامية ، وتصل ما غبر من أمجاد هذه الامة فى ميادين المعرفة بما جـد من أصول البحث ومنــاهج التفكير فى دراسة علوم العقيدة وعلوم اللسان .

وكان انشاء دار العلوم فى ذلك الوقت المبكر رمزا الى تطلع هذه الامة الى النهضة والى تجديد المعرفة فى ربوع هذه البلاد ، اذ كانت فى مبدأ أمرها تمثل صورة الجامعة كما ارتسمت فى ذهن المصلح الكبير على مبارك الذى كان مديرا لديوان المدارس والاوقاف اذ ذاك ، وكان من أول ما عناه سوء حالة الكتب فى مساجد الاوقاف ، وهى فى عهدة الجهلة من خدمة تلك المســـاجد ، وعن طريقهم تسللت نفــائس المخطوطات الى أوربا اذ كانوا يبيعونها بأبخس الاثمان لزوار مصر من الاجانب ، ويضعون أثمانها فى جيوبهم ، بالاضافة الى ما كانوا يبيعونه من أوراقها للباعة والبقالين ليلفوا فيها سلعهم .. واستطاع على مبارك أن ينقذ من هذه النفائس ما نجا من أيدى هؤلاء الجهلة وجشعهم ، ويغرس بها نواة « المكتبة الخديوية » التى أصبحت فيما بعد « دار الكتب المصرية » واتخذ لها مكانا فى سراى درب الجماميز المجاورة لمسجد مصطفى فاضل باشا ، وانشأ الى جانبها أماكن للآلات والادوات اللازمة لدراســة العلوم الطبيعية ، ثم أنشــأ بجوارهما ردهة مدرجة « انفيتاتز » ليحتفل فيها بالامتحانات التى كانت تعقد فى كل سنة ، ويحضرها كبار رجال الدولة تشجيعا للمتعلمين .

ويعد المؤرخون دار الكتب ودار العلوم أختين أو توءمين ، فقد اقترنت نشأة كل منهما ، ويشير ذلك الاقتران الى العلاقة الوثقى بين العلم والكتاب .

فقد عز على ذلك المصلح الكبير أن تخلو هذه الردهة المدرجة من طلاب العلم بعد أيام الامتحان ، فأراد أن يعيد الى مصر مفخرة من مفاخرها التى درست ، وهى « دار الحكمة » أو « دار العلم » التى أنشأها العزيز بالله الخليفة الفاطمى ، وجعل منها مكتبة ومدرسة يقصد اليها طلاب العلم فى هذه البلاد ليجدوا فى استقبالهم نفائس الكتب وكبار الاساتذة . ولم يبق أمام على مبارك بعد انشاء دار الكتب واعداد المكان الصالح للدرس الا أن يجمع الاساتذة والمدرسين ، ويعد الطلبة الذين يتلقون عنهم العلوم والمعارف ، وقد أعانه الله على ما أراد ، وتحقق حلمه بانشاء دار الكتب و « دار العلوم » التى أطلق اسمها على ذلك المدرج منذ بدأ القاء المحاضرات به، وما زالت تحمل هذا الاسم حتى يومنا ، وأن كان هذا الاسم قد زايلها فى بعض الفترات فى الاوراق الرسمية ليصبح « قسم المعلمين العربى » مرة ، و « مدرسة المعلمين الناصرية » مرة أخرى ، ولكن الاسم الاصلى « دار العلوم » بقى على ألسنة الناس كما بقى فى قلوبهم .

وقد كان الطلبة الذين هرعوا الى مدرج «دار العلوم» فى أول عهدها يمثلون مزاجا عجيبا من طلاب العلم . وهذا يدلنا على ما كان يحس به المصريون اذ ذاك من الظمأ والشوق الى ارتياد مناهل العلم ، والسعى اليه ، واغتنام كل فرصة لتحصيله ، ولم يقتصر ذلك على طبقة من الناس دون غيرها من الطبقات .

وكانت دار العلوم اذ ذاك أشبه بالجامعة الحرة التى تفتح أبوابها لكل طارق ، فلم يكن فى قانون هذه الكلية

ما يحدد نوع الطالب الذى يتلقى العلم فيها أو سنه او نوع ثقافته او درجة هذه الثقافة ، ولم يكن فى قانونها ما يحجب أحدا من أبناء الامة عن شهود تلك المحاضرات، والافادة مما يلقيه الاساتذة فى شتى فروع الثقافة .

وقد يأخذك العجب اذا عرفت انه كانمن شهود تلك المحاضرات طائفة من أكابر العلماء ، وكبار رجال المعارف أو « ديوان المدارس » والقائمين بأمر التعليم ، وكبار موظفى الحكومة ، وفى مقدمتهم « على مبارك باشا » .. كما كان منهم طلبة من الازهر الشريف ، ومن الفرق العالية من مدرسة الهندسة « المهندسخانة » ومدرسة المساحة ومدرسة الادارة « الحقوق » .. وقد جمع بينهم حب العلم والتنافس فى طلبه والاستزادة منه ، يجلسون جنبا الى جنب ، وقد أزال طلب العلم ما بينهم من فوارق المناصب والجاه والثراء .

وكذلك اختلفت ثقافات الاساتذة كما اختلفت موضوعات محاضراتهم اختلافا بينا ، اذ كان فيها محاضرات فى الموضوعات اللغوية والادبية يلقيها كبار علماء الازهر ، كما كان فيها محاضرات فى أحدث العلوم والفنون يلقيها علماء أجانب أو علماء مصريون ثقفوا هذه العلوم والفنون فى أوربا . وقد تبع ذلك اختلاف لغات الحاضرين بين العربية الفصحى وما يقاربها واللغة الفرنسية مع ترجمة ما يلقى بها الى اللغة العربية حتى يستطيع جمهور الطلاب الافادة مما يسمعون .

وكان من أولئك الاساتذة الكبار :

الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى الذى كان يحاضر فى التفسير والحديث .

والشيخ عبد الرحمن البحراوى الذى كان يحاضر فى فقه أبى حنيفة النعمان .

والشيخ حسين المرصفي الذي كان يحاضر في علوم الادب وكان من المحاضرين الاجانب :

هنرى بروكس باشا ناظر مدرسة اللسان القديم ، وكان يحاضر فى التاريخ العام .

وفيدال باشا ناظر مدرسة الادارة والالسن ، وكان يحاضر فى فن السكك الحديدية .

وفرانس باشا المدرس بمدرسة المهندسخانة ، وكان يحاضر فى فن الابنية أو العمارة .

وجيجون بك ناظر مدرسة العمليات ، وكان يحاضر في فن الآلات . ومسيو بكتيت ، وكان يحاضر فى علوم الطبيعيات مع شرح الآلات التى استحضرها من أوربا .

وكذلك كانت هناك محاضرات باللغة العربية :

فى علم الفلك يلقيها اسماعيل الفلكى باشا ناظر مدرسة المهندسخانة . وفى علم الطبيعيات مع التجارب يلقيها منصور أحمد أفندى المدرس بالمهندسخانة .

وفى علم النبات مع استحضار النماذج يلقيها أحمد ندى بك مدرس النبات بالمدرسة الحربية ومدرسة الطب

اهداف العلم ونظام التعليم

ذلك هو النظام الفريد الذى ابتدأت به دار العلوم حياتها العلمية ، ووجودها التاريخى .

ويبدو أن على باشا مبارك رأى ان هذا اللون من التثقيف العام للكبار قد يكون نافلة من العمل ، قد قد يكون أوجب منها بالعناية وبذل الجهود معالجة الفقر الذى تعانيه الامة فى تربية ابنائها وتعليمهم ، وأحس بحاجة هؤلاء الابناء الى المهرة المختصين من المربين والمعلمين الذين ينشرون أنوار المعرفة فى ربوع البلاد ، ويتعهدون الجيل الناشىء بالتربية والتعليم والتثقيف ،

وراى ان البدء بهذه الجهود ينبغى أن يبـدأ من حيث يكون البدء ، أى من الادنى الى الاعلى .

ولذلك راى على باشا مبارك أن يغير فى هدفه ، وان يغير كذلك فى خطتــه ، فقد قرر أن تتحول قاعة المحاضرات الى كلية لاعداد المعلمين الصالحين ، فـكتب على الفور الى شـيخ الجامع الازهر اذ ذاك « الشـيخ محمد العباسي المهدى » يطلب اليه اختيار بعض العلماء الاعلام للتدريس بدار العلوم على حساب ديوان الاوقاف وانتخاب عشرة من نجباء الطلبة بالازهر لحضور الدروس العربية والشرعية بدار العلوم ، يربط لـكل طالب منهم « خمسة وعشرون قرشا فى كل شهر » اعانة لهم من ديوان الاوقاف ، ولهم الحق فى أن يحضروا ـ باختيارهم ـ الدروس الاخرى ، كما جاء فى كتاب على مبارك الى الشيخ العباسي المهدى ، ونص كلامه :

« . . . وأما الطلبة المراد تعيينهم كما سبق تحريره لسعادتكم ، فبما أن الذى يطلب منهم هو حضـور دروس العلوم العربية والشرعية ، وهـذا مقدار ساعة ونصف فى كل يوم ، والحالة هذه لا يكون فى ذلك تعطيل عن دروسهم بالازهر ولا معايشهم . وانما اذا أرادوا من تلقاء أنفسهم حضور دروس أخرى بهذا الطرف ـ أى بدار العلوم ـ كدرس الفلك أو الطبيعة مثلا فيكون ذلك باختيـارهم ورغبتهم . . كما أن كل سـائر آحاد الناس ، من أراد حضور أى درس من الدروس العامة التى صار الاعلان عنها فى الوقائع المصرية ، فلا يمنع . ومبلغ الخمسة والعشرين قرشا الذى تقرر ترتيبه لكل من العشرة المطلوبين ليس هو من قبيل الماهية ، وانما المراد منه مجرد الاعانة فقط . لا سيما والقصـد من تعيين العشرة المذكورين هو انه عند لزوم (خوجات) فى بعض المكاتب ينتخب منهم عند الاقتضاء ، وبوقت

ذلك كل من صار انتخابه منهم تقرر له الماهية اللازمة .
وظل ديوان الاوقاف ينفق على دار العلوم وطلبتها وأساتذتها وخدمتها من ميزانية « المكتبة الخديوية » حتى شهر مارس سنة ١٨٨١ م . وفيه ضمت دار العلوم الى ديوان المدارس (وزارة المعارف) ليقوم بتدبير أمورها ، ويتولى الانفاق عليها . وكان عدد المدرسين بها اذ ذاك ثمانية تتراوح مرتباتهم بين ثلاثة جنيهات وخمسة عشر جنيها ، وكان ناظرها اذ ذاك يتقاضى مرتبا شهريا قدره خمسة وعشرون جنيها . أما طلبتها فقد بلغ عددهم فى تلك السنة ٣٢ طالبا يتقاضى كل واحد منهم جنيها واحدا فى الشهر .

وكان على مبارك قد عنى عناية فائقة بتجديد المكاتب الاهلية التى كانت تقوم بتربية النشء فى مدن مصر وقراها ، وعمل على تنظيمها وتعميمها ، ورأى ان ذلك يحتاج بالضرورة الى كثير من مهرة المعلمين الذين يقومون بواجبات حسن التربية والتعليم على الوجه الاتم .. وقد لاحظ أن المشتغلين بوظيفة التعليم فى اللغة العربية والتركية ليس فيهم الكفاية لذلك ..
ولذلك تابع جهوده المخلصة فى دعم دار العلوم . والعمل على استقلالها ، فوضع الانظمة والقوانين التى حدد بها نظام الكلية ، وأهداف التعليم فيها ، ونظام القبول بها ، فقرر :

١ ــ أن يكون عدد الذين يقبلون بهذه الكلية خمسين طالبا . ٢ ــ ألا تقل سن الطالب عن العشرين سنة ، ولا تتجاوز الثلاثين . ٣ ــ يتم اختيار الطلبة المقبولين عن طريق الامتحان التحريرى والشفهى .
٤ ــ يجرى للناجحين فى الإمتحان « اختبار شخصي » للوثوق من أهليتهم ولياقتهم ..

٥ ـ يلزم الطلبة المقبولون بحضور جميع الدروس والمحاضرات المقررة ، وكانوا قبل ذلك يحضرون ساعة ونصف الساعة فى كل يوم . وكانت لهم الحرية فى حضور دروس المواد الحديثة بارادتهم .

٦ ـ يدرس لهم فى « دار العلوم » الملحقة « بالكتبخانة العامرة » ما يلزم لتكميل معلوماتهم واستعدادهم لاداء وظيفة التعليم ، وحسن التربية على الوجه المطلوب ، والاسلوب المرغوب .

٧ ـ يربط لكل طالب مدة اقامته « تحت التعليم » مائة قرش شهريا ، من ضمن المتحصل للكتبخانة من الرسوم بديوان الاوقاف .

وعند تعيين أحد من الخريجين فى وظيفة بمكتب من المكاتب «بعد تمام تعليمه ، وظهور براعته فى الامتحان» يربط له بدل المائة قرش المذكورة على الجهة التى يعين لها الماهية اللازمة على حسب الوظيفة التى ينتخب لها.

ورأى على مبارك انه بهذه الوسيلة يمكن الحصول على مافيه الكفاية من المعلمين للغة العربية واللغة التركية ، ويؤخذ منهم لجهات الاقتضاء على حسب اللزوم ، وبذلك يتقدم ويستقيم أمر العلم والتعليم » .

وكان رحمه الله ينظر الى المدرسين الذين يتولون تربية النشء وتهذيبه وتعليمه فى زمنه فيراهم فريقين : فريق من الازهر الشريف يعلمون لغة البلاد وما لابد منه من أمور الدين الحنيف ، ومعظم هؤلاء يرون أن كل علم ليس فى الكتب التى تلقوها فى الازهر الشريف ضلال وكفر ، وان الاشتغال به اشتغال بما لايجدى ، ويرون ان شركاءهم فى التدريس الذين يدرسون الجغرافية والكيمياء والطبيعة والفلك وغير ذلك من العلوم الكونية ، هم ملاحدة كفار .

اما الفريق الآخر ، وهم اخوانهم الذين زاولوا دراسة العلوم الكونية وعرفوا صحة نظرياتها بالبرهان القاطع والقياس المنطقى ، فيرون فى معلمى اللغة العربية والدين جهلا فاضحا ، وضلالا واضحا ، قد يدعو الى الشك فى الدين الذى يعتمدون عليه ، ويدعون الاضطلاع به .

وقد ادرك على مبارك تلك الهوة العميقة ، وذلك البون الشاسع بين الفريقين ، وأراد أن يتلافى ذلك الخلل ، وأن يقرب مسافة الخلف بينهما ، فعمل على تأسيس « دار العلوم » ليتلقى فيهـا طلبتها العلوم الكونية التى لا تتيسر لهم دراستها بالازهر الشريف ، حتى لا تكون غريبة عنهم ، ويزول اعتقادهم بكفر العالمين بها ، ويزدادوا نورا على نور ، وينزل الفريق الآخر عن اعتقاده الجهل فيهم .

هذا الى ما يستفيده الاولون من اساليب دراسة العلوم المختلفة وطرق القائها وتلقيها ، حتى يكون لهم ذلك نبراسا يضىء لهم سبيل التعليم ، وهاديا يهديهم طريق الصواب فى كيفية افادتهم تلاميذهم المواد التى يزاولونها .. وقد تم له بدار العلوم ما أراد (١) .

أعلام فى تاريخنا الجامعى

هذه كلمات عن النشأة الاولى لدار العلوم ، يتضح منهـا كيف كانت رسالتها تثقيفية عامة يحتشد لها الراغبون فى ألوان من الثقافات العالية من كل الطبقات لينهلوا من علم أساتذتها الكبار ، وكيف تحولت الى كلية نظامية تحرص على مستوى أساتذتها ومستوى طلبتها ، وتحدد ما يتلقون من الدروس وما يلقى عليهم

(١) من كلمة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى العيد الخمسينى لدار العلوم سنة ١٩٢٧ م . وانظر تقويم دار العلوم للمرحوم الاستاذ محمد عبد الجواد ص ١٨ .

من المحاضرات ، وتحدد مستقبلهم ودورهم فى النهوض بالوطن ، وهو القيام بتربية أبناء البلاد وتعليمهم .

ومن الطبيعى ان مهمة الخريجين فى دار العلوم لم تقتصر على تعليم تلاميذ المرحلة الاولى التى ظهرت الحاجة الملحة اليها أولا ، وانما صار خريجوها يعدون أجيال الشباب فى المرحلة الثانوية وفى دور المعلمين والمعلمات ، وما فى هذا المستوى من مدارس المرحلة المتوسطة ، ثم كان منهم خيرة الاساتذة فى المعاهد العليا والجامعات ، منذ تأسست الجامعة المصرية الاولى سنة ١٩٠٨ م ، ومنذ أصبحت جامعة رسمية سنة ١٩٢٥ م .. ومنذ تعددت الجامعات المصرية ، فيما بعد ، ولا يزالون يؤدون واجبهم الى الآن ، فقد كانوا أساتذة علوم العربية وادابها فى كليات الاداب ، واساتذة الشريعة الاسلامية فى كليات الحقوق ، وشاركوا فى ارساء دعائم الحياة الجامعية فى هذه البلاد محاضرة وتدريسا وتأليفا ، وتخرجت على أيديهم أجيال من العلماء المختصين يعترفون بفضل هؤلاء الاساتذة ، ومدى ما نهلوا من أفضالهم ، وما أفادوا من علمهم .

ومن هؤلاء الاساتذة :

محمد المهدى ، ومحمد الخضرى ، ومحمد زيد الابيانى ، وطنطاوى جوهرى ، وعبد الوهاب النجار ، وأحمد ضيف ، وعلى العنانى ، وأحمد الاسكندرى ، وحفنى ناصف ، وأحمد ابراهيم ، وأحمد أبو الفتح ، وأحمد الشايب ، ومصطفى السقا ، وعبد الوهاب حمودة ، وعلى عبد الواحد ، ومهدى علام ، وابراهيم سلامة ، وأبو العلا عفيفى ، ومحمد خلف الله ، وطه أحمد ابراهيم ، وسلطان محمد ، وابراهيم مصطفى ، وأحمد عبده خير الدين .. وكثير غيرهم .

ومن الذين لم تقتصر خدماتهم التعليمية على جامعات

مصر وحدها ، وانما تجاوزتها الى جامعات أوربا كثيرون ، وفى مقدمتهم الاساتذة الاجلاء :

عبد الرحيم أحمد الذى كان أستاذا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس .

حسن توفيق العدل : الذى كان أستاذا بالمدرسة الشرقية فى برلين ، ثم أستاذا فى جامعة كمبريدج .

عبد العزيز جاويش : الذى كان أستاذا بجامعة أكسفورد . محمد حسنين الغمراوى : الذى كان أستاذا بجامعة أكسفورد . محمدعلى مصطفى : الذى كان أستاذا بجامعة كمبريدج . محمد أحمد جاد المولى : الذى كان أستاذا بجامعة أكسبفورد . أبو العلا عفيفى : الذى كان أستاذا بجامعة كمبريدج .

منصورسليمان : الذى كان أستاذا بجامعة أكسفورد .

أحمد عبده خير الدين : الذى كان أستاذا بجامعة كمبريدج . محمد محمود جمعة : الذى كان أستاذا بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ،

مهدى علام : الذى كان أستاذا بجامعة مانشستر .

أما أبناء دار العلوم الذين شاركوا فى ارساء دعائم التعليم الجامعى فى البلاد العربية فهم أكثر من أن يحصوا ، بالاضافة الى عدد كبير يشاركون فى النهضة العلمية فى تلك البلاد مدرسين ومديرين وموجهين منذ اكثر من أربعين سنة حتى الآن فى مراحل التعليم العام .

ويذكر التاريخ الجامعى المعاصر أن ثلاثة من أبناء دار العلوم كانوا يشغلون مناصب العمادة فى كليات الآداب الثلاث بالجامعات المصرية فى وقت واحد ، فكان المرحوم الدكتور ابراهيم سلامة عميدا لآداب القاهرة ، والدكتور مهدى علام عميدا لآداب عين شمس ، والاستاذ محمد خلف الله عميدا لآداب الاسكندرية .

وفى الوقت نفسه كان الاستاذ إبراهيم اللبان عميـــدا لـكلية دار العلوم بجامعة القاهرة .

واذا كنا قد أشرنا الى شيء مما قام به أبنـاء دار العلوم فى ميدان التعليم العام والتعليم الجامعى فى مصر وفى غيرها من البلاد العربية والبـلاد الاوربيـة ، فلن تفوتنا الاشارة الى شيء من جهودهم فى الكتابة والتأليف العلمى والادبى ، وقد فاقت ما كان مقـدرا لها ، بما جددوا وابتكروا وبما ترجموا من اثار الفكر الانسـانى فى اللغة والادب ، وفى المنطق والفلسفة ، وفى التـاريخ وعلم الاجتماع ، وفى التربية وعلم النفس ، وبما حققوا من تراث العرب ، وأحيوا من دارسه ، فأعادوا العربية الى عصورها الذهبية ، وأثروا المـكتبة العربيـــة بالدراسـات الاصيـلة والبحوث النـافعة العميقـة .

واستطاعوا أن يرجعوا الى متون اللغـة ليتخيروا منهـا لـكتاباتهم ، وما يلقنونه لتلاميذهم ، فنهضوا بأساليب التعبير ، وقووا فى تلاميذهم ملـكة الانشاء والقدرة على التعبير . وعكفوا على أصـــول النحو والصرف فحلوا مشكلاتها ، وجلوا غوامضها ، وصاغوها صياغة جديدة قربتها الى أفهام التلاميذ ، وتدرجوا بها مع النمو العقلى لتلاميذهم ، وجاروا بها تنقلهم فى مراحـــل التعليم المختلفة ، وعمدوا الى كتب البلاغة فاستخرجوا زبدتها وقربوها الى الاذواق ، بما يسروا من غامضها ، وخففوا من مصطلحاتها ، وحببوا الى تلاميـذهم قراءة الادب وتذوقه ، واستخلاص ما حوى من الخصائص الفنيـة والجمالية ، وأعانوهم على نقده وتقويمه .

تجديد منهج الدرس الادبى

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر صنيع رجل من خير من خرجت دار العلوم ، ومن أبر من حملوا رسالتها فى

خدمة اللغة والادب فى صمت الحكماء ، وفى تواضع العلماء ، وفى بعد عن الجلبة والدعوى التى يصطنعها الادعياء فى هذا الزمان .

ولعل أكثر المعاصرين لا يعرفون ان دراسة التاريخ الادبى للأمة العربية على هذا النحو الذى يدرسونه به فى هذا الزمان فى المدارس والجامعات مدين بوضعه وابتكاره لرجل من أبناء دار العلوم الاوفياء ، وهو المرحوم « حسن توفيق العدل » .

فقد كان درس الادب يقوم على المنهج التقليدى المألوف فى الآثار القديمة كالذى نجده فى كتاب «الكامل» لابى العباس المبرد ، وهو منهج يقوم على الاستطراد فى رواية النصوص الادبية ، وشرح غوامضها ، وتوضيح ما حوت من الاشارات التاريخية ، والفوائد اللغوية ، والقواعد النحوية ، والنكت البلاغية ... وكان فى ذلك ما فيه من المشقة على الدارسين الذين يعز على أكثرهم تخليص الحقائق وتحديدها ، ويصعب عليهم تجميع عناصر موضوعاتها .. وعلى هذا النحو أو ما يقرب منه الف الشيخ حمزة فتح الله كتابه « المواهب الفتحية » وألف الشيخ حسين المرصفى كتابه «الوسيلة الادبية» . ولكن المرحوم حسن توفيق العدل نهج نهجا جديدا هو النهج الذى لايزال يدرس الادب على أساسه . وذلك انه عمد الى الحياة الادبية عند الامة العربية فقسمها الى فترات أو عصور زمنية حددها بكبريات الاحداث فى تاريخ هذه الامة ، وجعلها خمسة عصور تبتدىء بالعصر الجاهلى ، وتنتهى بعصر النهضة الحديثة ، ثم درس الحياة الادبية فى كل عصر مقدما لها بدراسة العوامل المؤثرة فى حياة الادب ومعرفا بأشهر اعلامه وعارضا نماذج من أدبهم المنظوم أو المنثور . وتتابعت الدراسات الادبية على هذا النحو الذى وضع

أساسه حسن توفيق ، وحذا حذوه كثير من المؤلفين ، وكان ذلك ثمرة من ثمرات عكوفه على الآداب الاوربية ومناهج دراستها فى الفترة التى قضاها فى أوربا .

تسمية المسميات الحديثة

ومما يتصل بجهود أبناء دار العلوم ونشاطهم فى خدمة اللغة العربية والنهوض بها « نادى دار العلوم » الذى أنشأوه ليكون ملتقى لهم ، ومعرضا لآرائهم الحرة فى موضوعات تتصل برسالتهم ، وقد لا تتسع لها حجرات الدروس وقاعات المحاضرات . وقد افتتح ذلك النادى فى شهر نوفمبر سنة ١٩٠٧ م ، وكان اول رئيس له هو المرحوم حفنى ناصف ، وكان اذ ذاك قاضيا بمحكمة الازبكية ، وكان ذلك النادى أشبه بمجمع لغوى . وقد قال فيه جرجى زيدان : « كانت تلقى فيه الخطب ، وأكثر بحوثه فى اللغة ومصطلحاتها . وقد وضع أعضاؤه بضعة آلاف لفظة اصطلاحية جديدة نشر بعضها فى مجلة كانت تصدر باسم النادى (١) ...

وقد عرض رجال ذلك النادى فى جملة ما عرضوا له من الموضوعات ذات الخطر فى حياة اللغة العربية لموضوع (التعريب) وقد دارت حول هذا الموضوع مناقشات علمية رائعة تدل على الوعى الصحيح، والتقدير لظروف اللغة ، ووسائل نمائها ، وقدرتها على مواجهة مطالب الحياة المتجددة . وانتهت تلك المناقشات الجادة بالقرار الاجماعى الذى أعلن نصه الآتى :

« فى الساعة العاشرة من مساء يوم الخميس ٢٠ من فبراير سنة ١٩٠٨ م . وبعد سماع ما قاله جميع الخطباء فى موضوع « تسمية المسميات الحديثة » قرر

(١) انظر « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ٨٢/٤ .

« نادى دار العلوم » ان يكون العمل على النحو الآتى :
يبحث فى اللغة العربية عن أسماء للمسميات الحديثة بأى طريقة من الطرق الجائزة لغة ، فاذا لم يتيسر ذلك ، بعد البحث الشديد ، يستعار اللفظ الاعجمى بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ، ويستعمل فى اللغة الفصحى ، بعد أن يعتمده « المجمع اللغوى » الذى سيؤلف لهذا الغرض » .
كان هذا فى فبراير سنة ١٩٠٨ م وكان هذا تفكير ابناء دار العلوم .. أما المجمع اللغوى - وكانوا يسمونه مجمع فؤاد الاول للغة العربية - فانه لم ينشأ الا بعد أكثر من عشرين سنة ، ولم ينظر فى هذا الموضوع الا فى ١٢ مارس سنة ١٩٣٤ م ، وكان قرار المجمع سنة ١٩٣٤ هو نص قرار النادى سنة ١٩٠٨ م ! !
فاذا عدونا خدمة اللغة والادب ، وخدمة التربية والتعليم التى أجاد فيها أبناء دار العلوم وأفادوا وكان لهم فيها القدح المعلى ، حتى أصبحوا علما عليها ، واذا عدونا كذلك من خرجت دار العلوم من فحول الشعراء والخطباء وأصحاب الاقلام ، ومن رجال الوطنية والاصلاح الاجتماعى ممن لا تتسع لهم هذه السطور - اذا عدونا هؤلاء وهؤلاء الفينا عددا من خريجيها يبرعون فى الثقافة القانونية ، ويصلون بجدهم واخلاصهم وكفايتهم الى أرفع مناصب القضاء الاهلى والشرعى ، ومنهم المرحومون حسن جلال المصرى (باشا) الذى كان مستشارا بمحكمة الاستئناف ، ومحمد عبد الفتاح (بك) الذى عين وكيلا للنيابة ثم قاضيا ، ومحمد صالح (باشا) الذى رأس كثيرا من المحاكم الاهلية ثم عين مستشارا بمحكمة الاستئناف ، وعبد الرحمن ابراهيم (باشا) الذى كان وكيلا لمحكمة النقض والابرام ، وحفنى ناصف (بك) ، وعبد الرحيم أحمد (بك) ومصطفى الخولى

(بك) ، وغيرهم ، بالاضافة الى أبنـائها الذين شغلوا مناصب القضاء الشرعى ، وزاولوا صـناعة المحاماة ، وفى طليعتهم النقيبان محمد عز العرب (بك) وعبد الرازق القاضى (بك) ...

هذه دار العلوم التى أسهمت بنصيب واضح فى بناء نهضة مصر ولغتها وأدبها ، وتجاوزت رسـالتها هـذه الحدود الى تلك الآفاق البعيـدة مع صعوبة المسلك ووعورة الطريق .

فقد قاست هـذه الـكلية طوال حيـاتها الوانا من الصراع العجيب ، وكانت لا تخرج ظافرة من معركة الا ابتلتها الاقدار بمعركة أخرى . وقد كتب الله لها البقاء والنصر على جميع القوى التى تصـدت لها ، فكانت بذلك آية الآيات فى مجالدة الزمن ومقارعة الخطوب ، ومن المعارك الرهيبة التى خاضتها دار العلوم :

* معركة مع الرجعية والتخلف . فقد دعا انصارهما الى مناهضة هذه الـكلية ، وهى لم تزل تستقبل حياتها العلمية بدعوى انها تعلم طلابها علوم الطبيعة والحيـاة وسائر العلوم الحديثة ، وكان تلقى هذه العلوم اذ ذاك كبيرة من الـكبائر ، اذ كانوا يعدون ذلك خروجا على الدين ، وضربا من الزندقة والالحاد . واضطر أساتذتها وطلابها للدفاع عن كيانهم بتبصير الناس بمزايا هـذه العلوم التى تعين على الايمان ، والتعرف على آيات الله .

ويدل على ذلك تلك الـكلمة التى ألقـاها الشـيخ حمزة فتح الله عنـدما وكل اليه الدرس العـام للغـة العربية ، فقال فى كلمته الافتتاحية (فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٨ م) مخاطبا دار العلوم :

« . . . انكم فى مكان تحصى فيه الاخلاق فى صكوك وأوراق ، ولا ينبغى أن يريبكم ما عسى أن يهجس بخلد البعض فى شأن هذه المدرسة ، فان فنون الطبيعيـات

لكونها انما تبحث عن الجثمانيات ، وما يعتورها من أنواع التغيرات ، فانما هي ضرب من النظر الذى أمر به الكتاب الكريم فى غير ما موضع ، ونتيجتها زيادة الايمان لمشاهدة بعض ما أودع فى الكائنات من الاسرار الالهية ، وعجائب القدرة الباهرة ، اللهم الا من تحتم عليه الشقاء ، ولم يكن فيه استعداد للخير ، فانه شقى حيث كان ، ولو فى الملأ الاعلى :

واذا الفساد عرا المزاج فانه
يجد الدواء لديه عين الداء (١)

* معركة مع الاستعمار وأعوانه الذين نظروا الى هذه الكلية نظرة توجس وحذر ، باعتبارها حصنا للعربية ، ومنارا للقومية ، ولأن أبناءها ينتشرون فى طول البلاد وعرضها ، وينشرون العلم والنور بين أبناء الامة فى جد وصدق . ومن هنا بدأ التضييق على خريجيها ، فحيل بينهم وبين المناصب الرفيعة فى وزارة المعارف . وسن « دنلوب » المستشار الانجليزى والمصرف الحقيقى لشئون التربية والتعليم سنة الفصل بين أبناء دار العلوم ونظرائهم من خريجى المعاهد الاخرى فى المناصب والدرجات، فشبت بذلك نار الفتنة بين أبناء البلد الواحد الذين يتعاونون على أداء خدمة وطنية واحدة .

ولكن هذه الخطوب كانت من أهم العوامل فى تطوير دار العلوم وتجديد نشاطها العلمى على مر الزمان ولا سلاح لها الا العمل المؤمن الجاد .

وبعد ، فهذه كلية دار العلوم التى صمدت فى وجه الخطوب وكتب الله لها الحياة والبقاء كما تعهد رسالتها بالبركة والنماء حتى أصبحت احدى مفاخر جامعة

---

(١) المواهب الفتحية ٩/١ ..

القاهرة ، وواسطة العقد بين كلياتهـا العـاملة تتابع دورها فى أداء رسالتها الخالدة .

وقد كانت ولا تزال جديرة بتحية أمير الشعراء احمد شوقي لها فى عيـد من أعيادها المـاضية سنة ١٩٢٧ بقصيدة من قصائده الجياد منها قوله مشيدا بجهودها العربية والاسلامية وبآثارها فى الحفاظ علىاللغة العربية الفصحى :

وجمعت السـعادتين فبـاتت
فيك دنيـا الصـلاح للدين خدنا
لو تسترت كنت كالـكعبة الفر
اء ذيلا من الجـلال وردنا
ان تكن للثواب والبـر دارا
أنت للحق والمراشـد مغنى
يا عكاظا حوى الشبـاب فصاحا
قرشـيين فى المجامع لسـنا
فتيـة محسنون لم يخلفوا العلـ
ـم رجاء ولا المعلم ظنـا
كلما سـار للـكهولة شـعرى
أنشـدوه فعاد أمرد لدنا

أديب من الأزهر
"مصطفى لطفى المنفلوطى"

كان امتدادا كريما لهذه السلسلة المباركة من رجالات الازهر ، الذين أسهموا بجهود ميمونة فى صنع تاريخنا الحديث ، من أمثال رفاعة الطهطاوى الذى تألق اسمه منذ فجر النهضة ، ومحمد عبده الذى حمل الراية من بعده .. ومثل الشيخين الرائدين المصلحين حرص المنفلوطى على ألا تقتصر جهوده على الميدان الثقافى وحده ، بل أبى الا أن يسهم فى الميدان السياسى والاصلاحى أيضا ، ولذا نراه قد وظف أدبه بالتزام مبكر لخدمة وطنه وترقية أمته ، أو بتعبير اشمل : للنضال من أجل شعبه ...

كانت البلاد فى تلك السنوات ترزح تحت نير الاحتلال البريطانى ، الذى جثم على صدر مصر سنة ١٨٨٢ ، والمنفلوطى صبى قد بلغ من العمر نحو خمس سنوات ، فعاش بقية صباه وكل شبابه وجل كهولته يتجرع مرارة هذا الاحتلال الكريه ..

وكان يساند الاحتلال فى تلك السنوات خديو مصر، الذى أخذ يتغير لقبه فأصبح سلطانا ثم ملكا ، ولكن حقيقته لم تتغير ، كحاكم غريب عن تلك البلاد ، كل همه أن يعيش سيدا ، وأن يؤازر من يساندون عرشه الذى تزعزعه دائما حركات الوطنيين الشرفاء .. وهكذا

(*) للاستاذ الدكتور احمد هيكل

كان هناك اتفاق مصالح بين قوى الاحتـــلال وقوى القصر ، وبخاصة بعد أن ثبت استدعاء الخديو توفيق للانجليز وضربه بهم لقوى الشـعب الممثـلة فى الثورة العرابية . وظل هذا الاتفاق يتضح حينا ويخفى حينا آخر ، ولـكنه بقى حقيقة لا يمكن انكارها لانها موجودة أبدا ..

وقد كان من الفترات التى شهدت خفاء هذا التآمر بين الاحتلال والقصر ، تلك السنوات الاولى من عهـد عباس حلمى الملقب بعباس الثانى . وذلك ان هـــذا الخديو حين جلس على العرش بعد توفيق ، أراد ان يكسب المواطنين بايهامهم أنه غير سلفه ، وأنه فى جانب الوطنيين لا فى صف المحتلين . ولتأكيد هــذا الايهام أخــذ يقرب بعض الزعماء ، كما راح يزور البــلاد ، ويبذل كثيرا من المحاولات لـكسب ثقة أبناء الشعب ، لـكنه ما لبث أن ظهر على حقيقتـــه فعــادى الحركة الوطنية ، ونفذ رغبات الاحتلال ، ووقف نهائيا فى صف أعداء الشعب ..

ثم تتابعت الاحداث ، واشـــتدت حركة المقــاومة الوطنية حتى تمثلت فى ثورة سنة ١٩١٩ ، التى قادها سعد زغلول مكملا رسالة مصطفى كامل ، الذى قاد الحركة الوطنية فى أول شبوبها عقب الاحتلال ..

وانتهت ثورة سنة ١٩١٩ ببعض المكاسب التى تعتبر خطوة على طريق العمل الوطنى ، والتى فى مقدمتها : صدور الدستور ، وافتتاح البرلـــان ، وتأليف حكومة وطنية برياسة ســعد زغلول سنة ١٩٢٤ ، وان كانت الفرحة بهذهالمـكاسب لم تطل ، نظرا لتــآمر الانجليز والقصر على كل ما ربحه الشعب من ثورته .. وهــذا التآمر لا يتسع له هــذا الحديث الذى قصــدنا من

التمهيد به مجرد تحديد للعصر الذي عاش فيه المنفلوطي وتأثر به وأسهم في النضال بأدبه فيه .. وهذا العصر الذي ينتمي اليه المنفلوطي ينتهي بهذه المرحلة من تاريخ مصر ، لان الرجل انتقل الى جوار الله سنة ١٩٢٤ ..

ولد المنفلوطي بمنفلوط ـ احدى بلدان صعيد مصر ـ سنة ١٨٧٦ ـ وحين بلغ سن التعلم تردد على الكتاب فحفظ القرآن الكريم وتعلم ما يؤهله للالتحاق بالازهر، ثم انتقل الى القاهرة ، ودخل الازهر ، وحضر دروس الشيخ محمد عبده . ولكنه اهتم بصفة خاصة بالادب ، فأخذ يقرأ روائع كتب التراث ، وجيد مراجع الادب العربي شعره ونثره ، حتى غلبه حب الادب على نفسه ، فترك الازهر بعد دراسة فيه استمرت نحو عشر سنين ..

وكان المنفلوطي قد اتجه الى الكتابة في الصحف متأثرا بأستاذه محمد عبده ، ومستفيدا من توجيهه وتشجيعه . وبرز اسمه حين أخذ يكتب في صحيفة المؤيد ، التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف منذ سنة ١٨٨٩ ، والتي كانت من كبريات الصحف الوطنية والاصلاحية ذات النزعة العربية الاسلامية ..

وفي أول عهده بالادب ، كان المنفلوطي يكتب الشعر، وكان يسهم بهذا الشعر كما يسهم بالنثر في النضال . وقد بلغت به الشجاعة أن هاجم بقصيدة من قصائده الخديو عباس الثاني ، بعد أن اتضح للمنفلوطي موقف هذا الخديو وخداعه للشعب ..

وقد وزعت هذه القصيدة في منشور يحمل اسم « الصاعقة » بمناسبة حضور الخديو الى القاهرة قادما من الاسكندرية ، بعد رحلة داخلية كانت جريدة المؤيد تعنى برصدها ووصف الاحتفالات بها . وتاريخ توزيع

هذه القصيدة فى منشور هو ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧ ، وهو اليوم التالى لعودة الخديو ، وهذه هى القصيدة :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وان طال المدى سيبيد
بعدت وثغر الناس بالبشر باسم
وعدت وحزن فى الفؤاد شديد
تمر بنا لا طرف نحوك ناظر
ولا قلب من تلك القلوب ودود
علام التهانى ؟ هل هناك مآثر
فنفرح ؟ أو سعى لديك حميد ؟
اذا لم يكن امر ففيم مواكب ؟ !
وان لم يكن نهى ففيم جنود ؟ !
تذكرنا رؤياك ايام انزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم « مقدونيا » فأصابنا
مصوب سهم بالبلاء سديد
فلما توليتم طغيتم ، وهكذا
اذا أصبح التركى وهو عميد
فكم سفكت منا دماء بريئة
وكم ضمنت تلك الدماء لحود
وكم ضم بطن البحر اشلاء جمة
تمزق أحشاء لها وكبود ! !
وكم صار شمل للبلاد مشتتا
وخرب قصر فى البلاد مشيد
وسيق عظيم القوم منا مكبلا
له تحت أثقال القيود وئيد
فما قام منكم بالعدالة طارف
ولا سار منكم بالسداد تليد

كأنى بقصر الملك أصــــبح بائدا
من الظلم ، والظلم المبين مبيد
ويندب فى اطـلاله اليوم ناعيـا
له عند ترديد الرثاء نشــــيد
اعبــاس ترجو أن تكون خليفـة
كما ود آباء ورام جـدود ؟ !
فياليت دنيــانا تزول وليتنــا
نكون ببطن الارض حين تسـود

وقـد حوكم المنفلوطى ـ وهو فى نحو العشرين ـ بسبب تلك القصيدة التى لا يقولها الا فنان فدائى . وحكم عليه بالسجن اثنى عشر شهرا . وحين استأنف الاديب الحكم ونظرت القضية من جديد ، خفف السجن الى ستة أشهر ..

تطوير النثر الحديث

وقد عانى المنفلوطى كثيرا بسبب هذه العقوبة ، وظل بعد تنفيذها مبعدا عن أى عمل حكومى ، باعتباره غير متمتع بالصلاحية للوظائف لما فى تاريخه من سابقة ! !

ولـكن مسعى كريما من الشيخ محمد عبـده أعاد الى الرجل بعد حين حقوقه الشخصية . وحين تولى سعد زغلول نظارة المعارف سنة ١٩٠٦ عين المنفلوطى فى وظيفة تتفق ومواهبه الادبية ، وهى وظيفة المحرر العربى بوزارة المعارف ..

وكان سعد يعتز بالمنفلوطى ويعرف قدره فى المجال الوطنى والادبى على السواء . ولذا نراه يتمســك به ويتصدى للمستشــار الانجليزى « دنلوب » .. حين حاول هذا الطاغية فصل المنفلوطى من وزارة المعارف ، عقوبة له على هجومه على « روزفلت » الذى كان قد

زار مصر ، وانكر ـ فى حديث له ـ حق المصريين فى الاستقلال ، فرد عليه المنفلوطى بمقال تحت عنوان « محاكمة روزفلت أمام محكمة العدل » .. وقد كان مما قاله سعد « لدنلوب » وهو يدافع عن المنفلوطى : « ان الحكومة فى حاجة الى مثل السيد مصطفى ، وليس هو فى حاجة اليها ، والوظائف قبور للأدباء ، وخير للحكومة أن يكون مثله داخلها » ..

وبلغ من اعتزاز سعد بالمنفلوطى انه كان ينقله الى حيث يعمل ، فحين عين وزيرا للحقانية سنة ١٩١٠ ، نقل المنفلوطى معه ، وأنشأ له تلك الوظيفة التى انشأها له من قبل فى وزارة المعارف ..

وحين انتخب سعد وكيلا للجمعية التشريعية سنة ١٩١٢ ، أخذ المنفلوطى ضمن هيئة الامانة . وبقى فى الجمعية التشريعية حتى تأججت الثورة ، وكتب مقالاته فى القضية المصرية سنة ١٩٢١ مدافعا عن سعد باشا ومنتصفا له من خصومه السياسيين ، وحينئذ فصله ثروت باشا من وظيفته ، ثم صودر كتابه « النظرات » الذى كان يضم مجموعة من تلك المقالات ..

وبعد نحو ستة أشهر رؤى استدراج الرجل وكسبه فى صف القصر وأعوانه ، من مناوئى الحركة الثورية أو المتاجرين بها ، فعين فى (سكرتارية) الديوان الملكى على أمل أن يكف عن الكتابة الوطنية والنضال بالكلمة الشريفة . ولكن الرجل ظل على ما كان عليه من قبل ، فأخرج من وظيفته بالديوان بعد قليل ، والحق بوظيفته بالجمعية التشريعية المعطلة . وظل فى هذه الوظيفة التى هى أشبه بالتعطل الى ان جنى الشعب بعض ثمرات ثورته ، واسندت رياسة الوزارة الى سعد زغلول ، وافتتح البرلمان ، وتولت قوى الشعب الوطنية

الحكم ، فحينئـذ عين المنفلوطى رئيس فرقة فى أمانة مجلس الشيوخ . وبقى فى هذا المنصب الى أن مات سنة ١٩٢٤ ..

وقد قام المنفلوطى بأعظم دور فى تطوير النثر العربى الحديث ، واليه يرجع تخليص هذا النثر نهائيا مما كان يتردى فيه من تفاهة وركاكة رانت عليه طيلة عصور التخلف ، وبخاصة فى العهد التركى ، الذى امتد نحو ثلاثة قرون . فقد أفاد المنفلوطى من روح الفترة التى عاشها ، ومن اتجاه الفترة السابقة على فترته ، حيث كانت هناك حركة احياء لروائع التراث العربى الذى خلفته عصور الازدهار ، وكانت تلك الحركة نتيجة لهذا الوعى العميق بالماضى العربى المجيد الذى يمكن أن يكون ركيزة لمستقبل رائع جديد ..

كذلك أفاد المنفلوطى من توجيهات أستـاذه محمد عبده ، الذى دعا باخلاص الى تخليص النثر العربى من الزخارف والصنعة ، وطالب الكتاب وبخاصـة من كانوا تلاميذه أو عاملين معه ، أن يترسلوا فيما يكتبون، وأن يتجهوا وجهة فنية جادة فيما يسطرون ..

اصالة وطابع خاص

ومن اسـتيعاب المنفلوطى لروائع التراث النثرى المترسل الذى سطره كبار الكتاب فى عصور الازدهار، ومن توجيهات الاستاذ الامام ، ومن موهبـة الرجـل واصالته .. خرج بطريقة فى الكتابة تعتبر المدرسـة الام لكل المدارس الفنية الاسلوبية فى الكتابة العربية الحديثة ..

وأهم معالم هذه المدرسة الام : البعد عن التكلف ، والنأى عن التقليد ، والقصد الى الصدق ، والاهتمام

بالصياغة ، وجمال الإيقاع ، ورعاية الجانب العاطفى ، ثم الميل الى السهولة والترسل ، وترك التعقيد والمحسنات ، فيما عدا بعض السجع المطبوع الذى يأتى بين الحين والحين للاسهام فى موسيقى الصياغة ..

وقد كانت طريقة المنفلوطى ــ برغم محافظتها واتخاذها النثر الجيد القديم مثلا أعلى ــ طريقة ابداعية فى كثير من جوانبها ، ففيها اصالة المنفلوطى وعليها طابعه ، وكل ما كتب بها موضوعات حية هى من تجارب الكاتب المرتبطة بنفسه وقومه وعصره ، فهى طريقة فى النثر أشبه بطريقة شوقى فى الشعر ، فيها محافظة من حيث اتخاذ القديم الجيد مثلا أعلى فى الصياغة ، وفيها تجديد من حيث تطوير الاديب واضافاته ، واتخاذ الاطار البيانى المحافظ وسيلة للتعبير عن مشاعره هو ، وتجاربه هو ، وعصره هو ، بحيث تتضح شخصيته كأجلى ما تكون ، وتظهر المعاصرة فى أسلوبه فلا تخطئها الا عيون المكابرين ..

وأهم آثار المنفلوطى التى تتمثل فيها طريقته : مقالاته التى جمع كثيرا منها فى كتابه «النظرات» والتى تعالج موضوعات سياسية واجتماعية وأدبية ، ثم كتاباته القصصية ، التى بعضها موضوع وبعضها معرب ، وبعضها أعمال قصيرة كتلك التى جاءت فى «العبرات» ، وبعضها أعمال طويلة مثل « الفضيلة » و «مجدولين» و « الشاعر » و « فى سبيل التاج » .. وهذه الكتابات القصصية كانت تترجم أولا بأقلام بعض المترجمين، ثم يأخذها المنفلوطى فيعيد صياغتها بطريقته مع الوان من التصرف تكاد تجعلها جديدة ..

وهكذا عرف المنفلوطى ــ بعد أن وجد طريقه ــ كناثر صاحب طريقة ، وأهمل الشعر مكتفيا بريادته لتلك

الطريقة الفنية التى عرفت به واحدث بها فى تاريخ النثر العربى وثبة كبرى ..

وكانت مقالاته وكتاباته الروائية والقصصية موضع حفاوة الجيل التالى لجيله ، ممن كانوا على أول طريق الادب أيام كان هو ذائع الصيت واضح الطريقة ، حتى لقد قرر الاستاذ الزيات ، انه هو وصاحبه طه حسين ورفيقهما زناتى ، كانوا ينتظرون مقال المنفلوطى بشوق شديد ، كما كانوا يقبلون على قراءته بشغف بالغ ..
ومن هنا راينا كلا من الكاتبين الكبيرين يأخذ وجهة أسلوبية جمالية فيما يكتب . وهما وان انفرد كل منهما بطريقة خاصة نتيجة لاصالته وثقافته ، فقد خرجا قبل كل شيء من جبة المنفلوطى الذى وجههما وجهة أسلوبية جمالية ، حتى كانا — آخر الامر — من كبار الكتاب الاسلوبيين ...

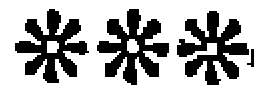
مدرسة المرحلة الاولى

وقد عيب على طريقة المنفلوطى : الاهتمام الشديد بالاسلوب ، والفقر فى الجانب الفكرى ، والمبالغة فى اصطناع الاسى واثارة العاطفة ، ثم عدم الدقة فى الاستعمال اللغوى أحيانا ، والميل الى حشد المترادفات ، والعبارات المكملة ، والكلمات المؤكدة .. وربما كان الكثير من ذلك حقا . ولكن الحق أيضا ان الكتابات التى خلفها هذا الكاتب بطريقتها الفنية ، كانت أول اتجاه أسلوبى فنى حديث ، رد الى النثر اعتباره ، وجعل ينافس الشعر ، وخرج آخر الامر أعلام الكتاب الاسلوبيين ، الذين يفخر بهم تاريخ أدبنا الحديث ، كالزيات وطه حسين وغيرهما ..

ولا يزال المنفلوطى يعيش بفنه الى اليوم ، برغم ما

طرأ على ادبنا من تطورات وما جد فيه من اتجاهات . ولا يكاد يشذ أديب ــ بعد جيل المنفلوطى ــ عن التلمذة على هذا المعلم الرائد ..

حقيقة لايكتفى أى أديب بالوقوف عند مرحلة كتابات المنفلوطى وهو يتعلم الادب ، ولكنه لا يمكن أن يتخطى تلك المرحلة دون أن يقف عندها .. فكتابات المنفلوطى ــ فى أقل تقدير ــ بمثابة مدرسة المرحلة الاولى لكل من يريد أن يتعلم فن الكتابة ، ولا بد من أن يعيش المتعلم حينا على عطائها الرائع السذاجة ، الطفلى الروح، ثم يعبر منها الى مراحل أخرى أكثر نضجا وأبعد عمقا.



وان من الوفاء لأدبنا الحديث أن نذكر رواده الذين عبدوا الطريق ، كالمنفلوطى . وان من مظاهر هذا الوفاء المسعد أن يلتفت بعض شبابنا الجامعى الواعى الى دراسة المنفلوطى والعناية بأدبه .. وفى هذا الميدان يطيب لى أن أنوه بالباحث الجاد « الدكتور محمد أبو الانوار » الذى جعل المنفلوطى وأدبه موضوع رسالته للماجستير ، والذى جمع بعد ذلك من نصوص أدبه كثيرا مما لم ينشر ، وبخاصة هذا الشعر الذى خلفه المنفلوطى متناثرا بين صحف عهده .. وقد أفدت كثيرا مما جمع هذا الباحث الدقيق ، الذى قدم الى طائفة من النصوص والحقائق بسخاء نفس يستحق أطيب الثناء ..

رحم الله المنفلوطى ، وجزاه عن لغتنا وأدبنا ووطننا وتاريخنا الحضارى الحديث أكرم الجزاء ..

شاعر من الأزهر
« حسن العطار »

لم يتح لى ان أقف بنفسى على الظواهر الادبية والفنية فى مصر عبر القرنين السابع عشر والثامن عشر، وربما النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وانما كنت أكتفى بالاحكام التى انتهى اليها الدارسون من قبلى ، وأردد أقوالهم عن شعراء هذه الفترة وأدبائها ، وكانت فى أغلبها أحكاما قاسية ، تتسم بطابع التعميم ، فالادب فى هذه الفترة أدب متخلف منحط ، والادباء والشعراء نظامون ، أسلوبهم ركيك ولغتهم رديئة وصورهم الشعرية باردة لا ماء فيها ولا رواء ... الى آخر هذه الاحكام التى ظللت أرددها ، حتى طلب الى الصديق الشاعر صالح جودت أن أكتب عن شاعر من الازهر ، واختار لى الشاعر « حسن العطار » .. وبدأت أتعرف على تاريخ الرجل وخلفيته الثقافية ، قبل أن ألج عالمه الفنى ..

عجائب وغرائب

وهالنى أن أجد تاريخ الرجل حافلا بالعجائب والغرائب ، فهو أستاذ رفاعة الطهطاوى رائد الفكر الحديث فى مصر ، وهو الذى اختاره اماما لاول بعثة أرسلها محمد على الى فرنسا ، ويحدثنا رفاعة الطهطاوى : أن أستاذه العطار هو الذى طلب اليه قبل

(*) للاستاذ عبد العزيز الدسوقى .

رحيله الى فرنسا أن يدون انطباعاته ومشاهداته فى تلك البلاد ، فسجلها فى كتابه « تخليص الابريز » ..

ويقول عنه : « كان للشيخ حسن العطار حظ فى العلوم العصرية حتى العلوم الجغرافية ، وانه وجد بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لابى الفداء ، وهوامش أخرى على أكثر كتب التاريخ وطبقات الاطباء وغيرها ، وكان يطلع على الكتب المعربة ، وله ولع شديد بسائر المعارف البشرية ، وله بعض تآليف فى الطب وغيره (١) » ..

وبدأت أتشكك فى الاحكام السابقة التى كونتها بصفة خاصة عن « حسن العطار » فرجل بمثل هذه التجارب الثقافية الواسعة لا يمكن أن يكون متخلف التفكير، ولا يمكن أن يكون أدبه بهذا الوصف الظالم الذى كنت أنعته به ..

ويبدو أننا نرتكب أكبر الاخطاء ، عندما نعزل الظواهر الادبية والفنية عن سياقها التاريخى ونحكم عليها أحكاما مطلقة مجردة ولهذا فقد تجردت من كل أحكامى السابقة وبدأت أعيش فى عالم العطار ..

حياة متعددة الجوانب

وقبل التعرف على عالمه العلمى والفنى لابد من وقفة قصيرة لنتعرف على حياته ، ويحدثنا صاحب « كنز الجوهر فى تاريخ الازهر » أنه ولد فى القاهرة عام (١١٨٠ هـ) وكان والده الشيخ محمد عطارا فقيرا له المام بالعلم ، وكان يستعين بولده حسن فى البيع والشراء ويستخدمه فى صغار شئونه ... ثم حفظ القرآن والتحق بالازهر وجد فى التحصيل على كبار المشايخ

(١) مناهج الالباب المصرية ٣٧٦ طبعة ثانية (الطهطاوى) .

كالشيخ الامير والشيخ الصبـان وغيرهما حتى بلغ من العلوم فى زمن قليل مبلغا تميز به واستحق التصـدى للتدريس لـكنه مال الى الاستكمال فاشـتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها ، ولما دخل الفرنسيون الى مصر فر الى الصعيد كما فعل بعض العلماء ، لـكنه عاد بعد ذلك واتصل بهم وتعلم من معارفهم ووقف على بعض علومهم وعلمهم اللغة العربية . ثم ارتحل فى تلك المدة الى الشام وأقام بدمشق زمنا واتصل بعلمائها وشعرائها

وقد تولى مشيخة الازهر بعد وفاة الشيخ الدمهوجى (١٢٤٦ هـ) وظل شـــيخا للأزهر حتى آخر عام (١٢٥٠ هـ) حيث انتقل الى رحاب الله ..

ويقول عنه صـــاحب « كنز الجوهر » ص ١٤٠ : « وســـــاح فى بلاد كثيرة ولم يزل مشتغلا بالافادة والاستفادة حتى عاد الى مصر بعلوم كثيرة وأقر له علماء مصر بالانفراد ... وله تآليف عديدة ، منها : حاشية على جمع الجوامع فى الاصول ، وحاشية على الازهرية فى النحو ، وحاشية على مقولات السجاعى ، وحاشية على السمرقندية ، ورسالة ، فى كيفية العمل بالاسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والسـائط ، وله رسـائل فى الطب والتشريح وغير ذلك » (١) ..

ونحن نلاحظ أن حياة الرجل كانت غنيـــة متعددة الجوانب فهذا العطار الفقير الذى كان يشتغل فى دكان والده تمكن من أن يصل الى قمة الحيـاة السياسيــة والعلمية ، فكان شيخا للأزهر وكان محمدعلى يستشيره فى الشئون العلميـــة ، وهو الذى رشـــح له « رفاعة الطهطاوى » ليكون اماما لاول بعثة علمية أرسلها الى فرنسا ..

---

(١) سليمان رصد الحنفى ـ كنز الجوهر فى تاريخ الازهر ص ١٤٠

ثم هو الى جانب تضلعه فى علوم اللغة والدين ، عالم بالطب والتشريح والصناعات الحديثة فى ذلك الزمان ، وله ولع شديد بالاطلاع على الكتب المترجمة ، ومن خلالها ألم بالحضارة الغربية والثقافة الفرنسية ، وبذلك يكون العطار من ألمع مثقفينا فى ذلك الزمان . وهو بهذا وحده جدير بأن يتبوأ منزلة رفيعة بين رواد نهضتنا ، ولكن العطار لم يقف عند هذا الحد بل كان له تصور جديدفى الثقافة والحياة ، لخصه فى قوله : « ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها» (١)

ثم يتعجب بعد ذلك كيف وصلت فرنسا الى تلك المعارف والعلوم ، ويتعجب بكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة !.. ولا شك ان هذا التصور كان يعتبر ثورة فى تلك الايام ، فالرجل يدعو الى تغيير الحياة والثقافة والحضارة ، والاستفادة من التيارات الثقافية والعلمية التى عند الامم الناهضة ..

الروح المصرية العذبة

فلا عجب أن يكون هذا الشيخ الجليل ، وهو شيخ للأزهر وامام للمسلمين ، شاعرا ، يكتب فى كل الاغراض حتى فى الحب ... ولهذا لابد من الوقوف عند تجربته الفنية طويلا ودراستها على ضوء جديد فى سياقعصرها بعيدا عن التعميمات الظالمة المسرفة ، وقد عشت فى ديوانه المطبوع عدة أيام وتمكنت من الوقوف على بعض الخصائص التى تميزه عن غيره من شعراء ذلك الزمان.

* فشعره يتمتع بتلك الروح المصرية العذبة .
* وله ولع بوصف الطبيعة بكل مظاهرها .
* ثم هو يلجأ فى بعض الاحيان الى التصوير البيانى الرشيق .

(١) على مبارك ــ الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٣٨

* وقد تخفف الى حد ما من الاعيب الصنعة .

* وقد صور شعره كثيرا من خبراته العلميـــــة ورحلاته المتعددة وبطبيعـة الحال لم يخل شـعره من الاغراض التقليدية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، ولم يصل معظم شعره الى تلك الاساليب الرائعة التى وصلت اليها مدرسة البعث ، والتى أعادت الى الشعر العربى ماءه ورواءه ، ولـكنه لم ينحـط الى المحاكاة الباردة التى وصلت بالشعر الى نوع سخيف من الحيل والاعيب الصناعة ، وفى رأيى أن العطار حاول ـ قدر طاقته الفنية ـ أن يجدد فى موضـوعات الشعر ، وأن يتمرد على السابقين ، فهو لا يريد أن يبكى « بسقط اللوى بين الدخول وحومل » كما بكى امرؤ القيس ، ولـكنه يصف رياض الشام ومنتزهاتها فيقول :

بوادى دمشق الشام جزبى أخا البسط
وعرج على باب الســـلام ولا تخط
ولا تبك ما بكى امرؤ القيس حوملا
ولا منزلا أودى بمنعرج الســـقط
فان على باب الســـلام من البها
ملابس حسن قـد حفظن من العط
هنـــالك تلقى ما يروقك منظـرا
ويسلى عن الاخوان والصحب والرهط
عرائس أشـــجار اذا الريح هزها
تميل سـكارى وهى تخطر فى مرط
كســاها الحيــا أثواب خطر فدثرت
بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

واذا كان العطار لم يتوصل الى تجديد حقيقى فى شكل القصـيدة أو مضمونها فانه قـد أحس الحاجة الملحة الى التجديد ودعا الى مخالفـة الاقدمين وعدم السير على نهجهم . وليس هذا بالشىء القليـــل .. فقد

ظلت دعوات التجديد فى الشعر العربى فى مصر حتى وقت قريب مجرد تصورات نظـرية ولم تتحقق بصورة فنية الا فى ثلاثينات هذا القرن .

رؤية شعرية متقدمة

وقد كان العطار كلفا بكتابة المطولات فى شتى الاغراض

ومن قصيدة له يمدح فيها صديقه « أبا القاسم المغربى» شيخ رواق المغاربة :

انهض فقد ولت جيوش الظلام
وأقبـــل الصبح سفير اللثام
وغنت الورق على أيكهـــا
تنبــه الشراب لشرب المدام
والزهر أضحى فى الربا ناعسا
لمـا بكت بالظـل عين الغمـام
والغصـــن قد ماس بأزهاره
لمـا غدت كالدر فى الانتظـام

كأنما الورقاء لمـــا شـــدت
تتلو علينا فضل هـــذا الامام

ولم يقتصر شعره على هذا النمط الملون ، بل كان له شعر بعيد عن الصنعة يحاول فيه أن يصـك بعض الحكم ... يقول فى تهنئة صـديق له أبعد عن نقـابة الاشراف ثم عاد اليها :

الحمـــد لله على فضـــله
قـد رجع الحق الى أهـــله
واض روض الفضـــل ذا بهجة
من بعـد ما أشـفق من محله
قد يطلب الحسناء من لم يكن
كفؤا لهـا .. للحمق فى عقـله

ومنها :

قد يتساوى اثنان فى منصب
وانما التفريق فى سبله
ويفخر المرء بأفعاله
لا بالذى قد مات من أهله
وقد يسود الشخص آباءه
ويشرف الفرع على أصله
وقد نرى فرعين من دوحة
تخالفا فى الحكم ، مع بطله
فالخل والخمر عصير وقد
باين هذا ذاك فى فعله

وفى هذه القصيدة رؤية شعرية متقدمة تنظر الى الناس من خلال أفعالهم وسلوكهم لا من خلال طبقاتهم واحسابهم وأنسابهم .

وديوان العطار حافل بتصوير الطبيعة ومباهجها ، وقد صور بركة الازبكية وما حولها من قصور وأشجار ومسرات فى قصيدة منها :

بالازبكية طابت لى مسرات
ولذ لى فى بديع الانس أوقات

حيث المياه بها والفلك سابحة
كأنها الزهر تحويها السموات
وقد أدير بها دور مشيدة
كأنها لبدور الحسن هالات
والماء حين سرى رطب النسيم به
وحل فيه من الادواح زهرات
كسابغات دروع فوقها نقط
من فضة واحمرار الورد طعنات

منارة تهتدى بها الاجيال

ثم هو بعد ذلك كله يصور نوازع قلبه وأشواق روحه

دون أن يضع في اعتباره منصبه الديني الكبير كشـيخ للأزهر ، وقد نظم أكثر من قصيدة في الغزل ومنها :

أعن المحب ثنـاك عنه وجيبـه
أم قد دعاك الى البعاد رقيبـه
هجر الـكرى لـما هجرت وواصلتـ
ـه شجونه وازداد فيه نحيبه
لم يجن ذنبـا فى هواك وانما
قد كان بالهجران منك نصيبه
أفقرته من حسن وصلك بعدما
جادت عليك دموعه ونسـيبه
أفلا رثيت لعاشـق لعبت به
أيدى المنون ونازعتـه خطـوبه
أنت النعيم له ومن عجب تعذ
به وتمرضـه وأنت طبيبـه

والذى يطرق هذه المعانى ويتذلل للحبيب كل هذا التذلل ويطلب وصاله ورحمته ، ويشكو صده وهجره دون أن يخشى قالة السوء ، أو أن يضع فى حسبانه ما يجب لامثاله من الشيوخ الاجلاء من التوقر والبعد عن الريب والظنون ، لجدير أن يكون أعجوبة الاعاجيب، وخليق أن نعاود النظر فى شعره من جديد وفى ضـوء ظروفه وتجاربه وظروف عصره ، لا أن نكتـفى بتلك الاحكام الجاهزة التى نرددها فى كل المناسبات .

وأعتقـد أن القرنين الثامن عشر والتاسـع عشر فى حاجة الى مثل هذه المعاودة المتأنية فى الدراسة والحكم .

ولـكن ـ مع ذلك ، وبعد ذلك ـ سيبقى العطـار أكبر من شعره وستظل أفكاره وآراؤه فى الثقـافة والحضارة منارة تهتدى بها الاجيال ...

الأزهر ومدارس الشعر المعاصر

ليس من شك فى ان « الازهر » اصبح من اكبر القسمات المميزة لحياتنا الثقافية والادبية والروحية ، على امتداد الارض العربية ، والعالم الإسلامى ، منذ أكثر من ألف عام .. بل لعلى لا أغلو كثيرا اذا قررت أن « الازهر » لعب دورا هاما فى تاريخ الحضارة الانسانية . ومنح التاريخ الانسانى أنضر الصفحات ، وأعطى الحياة الفكرية والروحية أعظم الرجال ..

لن استطرد الى المجالات المتعددة التى أسهم الازهر فيها اسهاما كبيرا وسأقصر هذه الدراسة على أثر الازهر فى اتجاهات الشعر بصفة عامة ومدارس الشعر المعاصر بصفة خاصة . فقد أصبح من البدهيات التى لا يمارى فيها أحد أن من بين أبناء الازهر كثيرين ممن أسهموا فى صنع نهضتنا الحديثة ، فمن بين جدرانه ومن أروقته امتلأت المدارس الحديثة والمعاهد التى أنشئت منذ مطالع القرن التاسع عشر كمدرسة الطب والهندسة والالسن ودار العلوم والقضاء الشرعى وغيرها من المعاهد التى طورت الحياة فى مصر وانتقلت بها الى ركب الحضارة الانسانية .

ومن بين أبنائه شكلت البعثات العلمية التى وصلت الشرق بالغرب وتفتحت على المعارف الحديثة وعادت

(*) للاستاذ عبد العزيز الدسوقى .

الى البلاد تغرس فيها تلك البذور التى أثمرت فيما بعد أشهى الثمرات ..

وفى مجال الزعامة العلميـــــة والقومية والسياسية والتشريعية تجد أشهر الاسماء التى تخرجت فى هـذا المعهد العتيد ..

كوكبة الشعراء الاعلام

على أن الازهر كان له دور كبير فيمــا يتعلق بالادب والثقافة وبصفة خاصة ما يتعلق بالشعر . وذلك بفضل التكوين الثقافى والاعداد العلمى الذى كان يتوافر لابنائه بصورة كبيرة فى مجال العلوم العربية . الى جانب الفقه والتفسير وبقية العلوم الشرعية .

وكانت طريقة التدريس فى ذلك المعهد ـ مهما شابها من عيوب ـ تكون العقل العربى تكوينا متينا ، وتربى فى الطــالب ملـكة مقتــدرة يستطيــع من خلالهــا أن يستوعب كل المعارف الانســانية مهما كانت . وكانت هذه الطريقة تصقل الطالب وتعوده الصــبر والمثــابرة والجلد وحسن التلقى والقدرة على التحصـــــيل والاستيعاب . وعندما كان يتاح لهذه العقول أن تتفتح على ثقافة حديثة أو تتصل بالحضارة الانسانية ، كانت تفيد أكبر الافادة ، وتؤثر بعد ذلك أكبر التأثير .

وكانت دراسة الشعر والعروض وتاريخ الادب ، من الدراسات التى احتفظ بها الازهر فى مختلف مراحله ، وكان الطلاب يلوذون بهذه العلوم فرارا من متون الفقه والاصول والمنطق وشروحها وحواشيها وتقاريرها .

وقد كان هؤلاء الطلاب يحفظون كثيرا من الشعر بكل أنواعه وفى كل عصوره ، جاهليا واســـلاميا واموىا وعباسيا ، ومن هنــا كانت تتكون لهم ملـكة النظم .

ويمكن ان نقول ان شعراء القرن التاسع عشر ــ كلهم أو معظمهم ــ كانوا من الازهر ، ولقد عشت فترة من الزمان فى تاريخ الجبرتى ، حتى أتبين ملامح هؤلاء الشعراء ، فهالنى أن أجد تلك الكوكبة الكبيرة من شعراء الازهر الاعلام ، ومهما قيل حول شعرهم الآن ، فانه كان متلائما مع المرحلة الحضارية التى كانوا يعيشون فيها . ونخطىء كل الخطأ ، لو حاسبناهم بتلك المعايير الفنية التى نقيس بها شعرنا المعاصر الآن ، فهذا ــ فوق كونه خطأ منهجيا ــ يفصل الظاهرة الفنية عن سياقها الحضارى ويتجاهل ظروفها وبيئتها ...

ومع ذلك فهناك عدد كبير من هؤلاء الشعراء يمكن أن نلتمس فى بعض أشعارهم اشعاعات نافذة تعبق بعطور القدم ، وتثير فى العقول والنفوس لذة ومتاعا .

((المارسيلييز)) بالعربية

ولن نستطيع أن نتتبع كل شعراء الازهر وآثرهم فى النهضة الادبية الحديثة ، والا تحولت هذه الدراسة الى مجرد سرد أسماء ، ويكفى أن نشير الى انهم طوروا ما نسميه الآن تجوزا ــ مدارس الشعر الحديث ــ أو بمعنى أدق ، أسهموا فى تطوير اتجاهات الشعر العربى عبر قرنين من الزمان . ولقد كانت لهم قيادة فكرية وروحية فى المجتمع العربى فى مصر ، ومن هنا كان يجىء تأثيرهم القوى فى الرأى العام .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر ، كان هؤلاء الشعراء الازهريون يستخدمون الشعر سلاحا وطنيا وقوميا ، ويكفى أن نشير الى عبد الله النديم الثائر العظيم الذى كان يستخدم الشعر والزجل والكلمة ــ بصورة عامة ــ سلاحا فى معركته التى خاضها طوال حياته المثيرة

المشعة ، حتى ثوى فى أرض الغربة ، وقبل عبد الله النديم ، ترجم رفاعة الطهطاوى « المارسلييز » نشيد الثورة الفرنسية شعرا الى العربية ، ونظم بعد ذلك عدة اناشيد وطنية وثورية .

فى هذا الوقت المبكر من الزمان ظهر من شعراء الازهر الاعلام ، الخشاب وحسن العطار (١٨٣٤) وعبد الله الشبراوى ، وعلى الدرويش (١٨٥٣) ومحمد شهاب الدين المصرى ، ومصطفى الصاوى ، وعلى أبو النصر (١٨٨٠) وعلى الليثى (١٨٩٦) ، وحسن قويدر الخليل (١٨٤٥) وعبد الهادى نجا الابيارى (١٨٨٨) وغيرهم ، وغيرهم ..

طرائف وغرائب

ومن الغريب اننا نجد فى هذه الفترة المبكرة من الزمان تحررا وجراة من هؤلاء الشعراء الاعلام من رجال الازهر ، فبعضهم وصل الى مشيخة الازهر ، وهى اكبر منصب دينى كان له سطوة كبيرة ، وتأثير جليل ، ومع ذلك وجدت لهم شعرا فى الغزل ، وبعضهم نظم ما يمكن أن نسميه الآن بشعر المجون أو الشعر المكشوف.

وقد أثار دهشتى أن أجد فى القرن الثامن عشر شاعرا من شعراء الازهر يسمى حسن البدرى (١٧١٨ م) يكتب الشعر فى مجالات مختلفة فى النقد الاجتماعى والاخلاقى الى جانب أراجيزه فى التصوف ، ثم يكتب مع هذا شعرا فى الغزل المكشوف أو بمعنى أدق يكتب « شعر المجون » ومع ذلك فقد كان هذا الرجل ورعا متصوفا كثير الانتقاد لاهل عصره وعاداتهم الفاسدة وتظاهرهم بالورع والتقوى ، وكان خفيف الظل ، بارع الفكاهة . يقول عن أدعياء التصوف :

ليتنا لم نعش الى أن رأينا
كل ذى جنة لدى الناس قطبا

ويقول عن بعض أصحاب اللحى الزائفة :

رب قصير فى الورى لحيته
طولها الله بلا فائدة !..
كأنها بعض ليالى الشتا
طويلة مظلمة باردة !..

وجهة نظر متقدمة

وهناك شاعر آخر من شعراء الازهر فى القرن الثامن عشر (١٧٧٠ م) أسمه « عبد الله سلامة الادكاوى »

وهو علم من أعلام الفكاهة والمجون ، ويحدثنا الجبرتى أن له مقامة فى المجون اسمها « المقامة القمدية » ، وفيها هزل كثير .

ولكن الذى يلفت النظر فى الشاعر (الادكاوى) انه كان واسع الافق متفتح النفس ، له وجهة نظر متقدمة فى القديم والجديد ، وكان حسه المعاصر يدفعه الى تقبل كل جيد وعدم رفض أى شىء بحجة أنه لا يلتزم الصورة القديمة وقد صاغ هذه الرؤية المتقدمة فى أبيات واضحة يقول فيها :

كن للمعاصر خير ناصر
كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدهم
كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب للأوا
ئل ، يا فتى ، أو للأواخر
من كان منهم مبدعا
فاعقد عليه من الخناصر

هـــــذه المرحلة المتقدمة يمكن أن نسميها المرحلة التقليدية على الرغم مما فيها من بعض اللمحات الذكية والنقدات الاجتماعية الواعية ، وبعض الشعراء المتقدمين ولقد امتدت هذه المرحلة فشملت مجموعة من شعراء القرن التاسع عشر وبعض شعراء القرن العشرين ومنهم عبد الله فكرى ، وعبد الرحمن قراعة ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وأحمد محمد الحملاوى ، وغيرهم .

الشعر والوحدة الوطنية

ومن هؤلاء الشـــعراء من هو فى حاجة الى دراســة خاصـــة تعرف به وتكشف أسرار فنه ، فقـــد ابتلع طوفان الزمان كثيرا من هؤلاء الشعراء ظلما وعدوانا . وكان يجب أن تظل أسماؤهم فى دائرة الضوء ، أو على الاقل تأخذ حظها من التألق والبريق .

ومن هؤلاء الشاعر الازهرى أحمد محمد الحملاوى (١٨٥٦ ــ ١٩٣٢) وهو عالم لغوى حجة وله مؤلفات ذائعة فى الصرف والبلاغة ، أخذت شهرة أكثر من اسمه منها : « زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع » ، و « شذا العرف فى فن الصرف » ..

ولــكن شهرته كشاعر عفى عليها الزمان ، على الرغم من شـــاعريته الناضجة ، وفى ديوانه المطبـــوع كثير من الشعر السياسى والقومى وشـــعر التصـــوف وشكوى الزمان، وله قصيدة يناجى فيها مصر نداء عاطفيا حارا تحس فيها بمعاصرة شديدة . يقول فيها :

يا مصر لا تقنطى فالنصر قد حانا
سبحان من أرغم الاعداء سبحانا
ولا تخافى فعين الـكل ســاهرة
فالدهر أدبنـــا جمعـــا وربانا

ولقنتنا الليالى من تصرفها
ما شان من حالة الدنيا وما زانا

وهى قصيدة طويلة حافلة بالنظرات السياسية التى تكاد تلامس همومنا المعاصرة فهو يتحدث عن الوحدة الوطنية بين أبناء الامة ، ويرفض وصاية الاعداء وحمايتهم ... يقول :

فالكل بالروح يفديها وينصرها
وان هم اختلفوا رسلا وأديانا
القلب مؤتلف والدين مختلف
لكن تراهم — أمام الام — اخوانا

ثم يقول :

فلا وربك لا نرضى حمايتهم
وان هم رفعوا للعدل ميزانا
وكيف والغدر والعدوان ديدنهم
وقد أسالوا دماء العزل خلجانا

***

وهناك شاعر آخر متين النسج قوى الديباجة هو عبد الرحمن قراعة ، وقد سبب له الشعر كثيرا من المتاعب ، فقد كتب قصيدة بعد أن ترك الشيخ المهدى مشيخة الازهر ، واصبح الشيخ الامبابى شيخا له ، يقول فى مطلعها :

خذوا حذركم فالامر قد جاء بالضد
لقد ظهر الدجال واختبأ المهدى

فنكل به الشيخ الامبابى ، وظل ينقله فترة طويلة ، وقد كتب قصيدة بعد زمان طويل يستعطف الشيخ الامبابى ، قال فيها :

أما آن أن تنسى الرباب وزينبا
وتقلع عما كان فى زمن الصبا

الم تعتبر اذ كنت أجرد أمردا
ودهم الليالى قد تركتك أشيبا

وهو استعطاف عجيب يدل على اباء الشيخ قراعة واعتداده بنفسه ...

بعد ذلك لا أبغى المضى فى استعراض أسماء الشعراء من الازهر على هذا النحو بطريقة غير منهجية ، بل لابد من تأصيل نظرى يجمع كل هذه الاسماء فيما يشبه أن يكون مدارس شعرية أو اتجاهات ... وهنا لا يمكن فصل هؤلاء الشعراء عن مدارس الشعر التى سادت فى الامة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن، وهى :

مدرسة البعث .
ومدرسة التجديد .
ومدرسة أبوللو .
وجيل الشعر الحديث أو جيل الشعر الحر .

وقد أمد الازهر كل هذه المدارس بأبرز ابنائها وروادها .

فكرة جديدة

وقبل أن أتعرف على أبناء كل مدرسة من هذه المدارس ، أحب أن اعرض فكرة جديدة اقتنعت بها بعد سياحة طويلة فى اتجاهات الثقافة العربية الحديثة وهى اننى أعتبر أبناء الازهر ودار العلوم والقضاء الشرعى أبناء ثقافة واحدة ، وفى مجال الظاهرة الادبية والفنية اعتبرهم جميعا أزهريين ، وأنا أعلم أن هذه الفكرة ستغضب بعض أشقائنا الدراعمة الذين يعتبرون أنفسهم الآن أبناء جامعة القاهرة ، ولكن فليغفروا لى هذا التصور الذى برز بصورة واضحة

أمامى وأنا أكتب هـذه الدراسـة عن شـعراء الازهر وأثرهم فى مدارس الشعر المعاصر .

والفـكرة على كل حال تستنـد الى أسس علميـة موضوعية ، فلا شك ان « دار العلوم » تلك المدرسـة العتيدة منـذ قامت فى عام ١٨٧١ كانت رافدا عميقـا أو فرعا من فروع الازهر ، والفرع الثانى هو مدرسة القضاء الشرعى التى أنشأها سـعد زغلول عندما كان وزيرا للمعارف فى عام ١٩٠٧ ، واذا مضينا فى التشبيه واعتبرنا الازهر هو النيل ، وهذين المعهدين هما فرعاه فاننى أعتقد أن هذين الفرعين اكتسبا حيوية وشـبابا جددت شباب النهر الام ...

فاذا بعدنا عن التشبيهات وعمدنا الى الحقائق وجدنا ان مدرسة دار العلوم منذ قامت تستمد تلاميـذها من الازهر وكذلك مدرسة القضاء الشرعى . بل ان الرعيل الاول من أساتذة دار العلوم كان من الازهر .

نذكر على سبيل المثال الحسين المرصفى ، ومحمد عبده ، وحسن الطويل ، وحمزة فتح الله ، وحسـونة النواوى ، وسليمان العبد ...

وكذلك أمد الازهر مدرسة القضاء الشرعى بصفوة من أبنائه الاعلام قاموا بالتدريس فيها منذ انشائها نذكر منهم : عبد المجيد سليم ، وابراهيم حمروش ، ومحمد بخيت المطيعى ، ومحمد طموم ، وحسين والى ..

حتى الجامعة المصرية منـــذ قامت فى عام ١٩٠٨ استضافت بين أساتذتها من رجال الازهر محمد المهدى، ومحمد الخضر ، والسيد بن على المرصفى ، وغيرهم .. لهذا اعتبر الشعراء الذين تخرجوا فى دارالعلوم والقضاء الشرعى شعراء أزهريين .

وعلى كل حال هناك سبب موضوعى يدعونى الى هذا

وهو ان هؤلاء تكونوا علميا وفنيا فى الازهر طوال تسع سنوات ، وأتيح لهم من الزاد الفنى والادبى قسط كبير صقل ملكاتهم الفنية ونمى مواهبهم الشعرية . وأظن أن ملامح الشاعرية تتكون وتتحدد فى تلك السن المبكرة من الشباب « حتى العشرين » وهؤلاء جميعا ظلوا فى الازهر الى ما بعد سن العشرين بقليل ، وذهبوا الى معاهدهم الجديدة ، وهم شعراء متكونون ... بطبيعة الحال تفتحوا على معارف جديدة ، وثقافات مختلفة زادتهم تفتحا ونموا . ولكن لون شاعريتهم ظل يدين لهذا التكوين الاول فى الازهر ..

وليس هناك شك فى أن هؤلاء أغنوا مدارس الشعر العربى الحديث ..

مدرسة البعث

ففى مدرسة البعث التى رادها البارودى وشوقى وحافظ ، يمكن أن نضيف محمد عبد المطلب ، وعبد الوهاب عزام ، وعلى الجارم ، ومحمود غنيم ، ومحمد الاسمر ، وعلى الجندى ، وعبد الله عفيفى ، وعبد الجواد رمضان، والباقوري، ومحمد نايل ، والبديوى، و « أبو الخشب » ، والخفاجى ، وغيرهم ، وغيرهم .

مدرسة التجديد

وأما مدرسة التجديد التى رادها العقاد وشكرى والمازنى فيمكن أن نضيف اليها العوضى الوكيل ، وأحمد مخيمر ، وعبد العزيز عتيق ، وغيرهم ..

مدرسة أبوللو

وفى جماعة أبوللو التى رادها على محمود طه ، وابو شادى ، وناجى ، والصيرفى ، وصالح جودت ، وتلألأت

مجموعة من ألمع أبناء هذه المدرسة من الازهر ودارالعلوم منهم محمود حسن اسماعيل ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وطاهر أبو فاشا ، وأحمد عبد المجيد الغزالى، والمهدى مصطفى ، وغيرهم ..

جيل الشعر الحر

وقد جاء بعد جيل أبوللو جيل جديد من الشعراء يطلقون عليه جيل الشعر الحر ...

وقد رفد الازهر ودار العلوم هذا الجيل بصفوة من أبنائه اعتبرهم أقدر شعراء هذه المدرسة الحديثة التى تتخذ من التفعيلة وحدة لبناء القصيدة وتحاول أن تدخل على القصيدة أصواتا متعددة وتفيد من أشكال فنية أخرى فى تنسيق القصيدة ، وتتخذ من الاسطورة والموروثات الشعبية رموزا تغنى القصيدة ..

هؤلاء الشعراء الذين تكونوا فى الازهر ودار العلوم وتفتحوا على هذا اللون الجديد من الشعر أو هذا النسق ، أظهروا مقدرة فنية هائلة لانهم يملكون الادوات الفنية ويمزجون فى تكوينهم العقلى والروحى أنضج ما فى التراث بأبهى ما فى الثقافة المعاصرة ، لذلك خلا ابداعهم الفنى من هذا الغموض الكثيف الذى يصل الى درجة الالغاز، ومن هذه العجمة وتلك الركاكة التى تحيل القصيدة الى ما يشبه الترجمات الركيكة ، واذا كان هذا الجيل قد أنتج موجتين متعاقبتين فان أبناء الازهر ودار العلوم قد قادوا هاتين الموجتين ، على الرغم مما يوضع فى سبيلهم من عقبات ، ومما يتربص بهم من اضطهاد جعل بعضهم يحسون أنهم « زنوج الثقافة العربية » ..

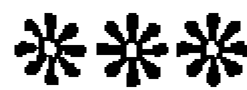
قاد الموجة الاولى عبده بدوى ، وسعد دعبيس ،

وفاروق شوشة ، وكيلانى سند ، وغيرهم ...

وقاد الموجة الثانية محمد ابراهيم أبو سنة ، وكمال عمار ، ومحمد أحمد العزب ، وأنس داود ، وغيرهم .

وأنا أعتبر عبده بدوى همزة الوصل بين جيل أبوللو وهذا الجيل الجديد بل لعله أسبق شعراء المدرسة الحديثة ـ فى مصر ـ ابداعا فى هذا اللون من الشعر بل نشر شعرا فى جريدة المصرى قبل صلاح عبد الصبور

ثم هو دائما يبحث عن آفاق جديدة يستثمر فيها هذا اللون الجديد من الشعر فمرة يكتب « أوبرات » مثل اوبرا الارض العالية ، ومرة يكتب « قصيدا سيمفونيا » يتناول فيه حياة النبى العربى عليه السلام ومرة يحيل المواقف الاسلامية والاحداث والشارات والشخصيات رموزا يستعملها برشاقة وفنية ، ولذلك آن الاوان لان نقول أن رائد هذه المدرسة الحديثة فى مصر هو عبده بدوى ، ثم هو لم يهجر عمود الشعر العربى بل يبدع فيه أيضا كثيرا من نتاجه ، وحتى وهو يبدع فى هذا اللون الجديد يقبع فى أعماقه هذا التراث العربى كله يشكل تجربته ويمنحها الاصالة والعمق .



تلك هى أهم المدارس الشعرية المعاصرة ، وهذا هو الاثر الكبير الذى أحدثه الازهر فيها ، وتلك بعض الاسماء من أبنائه التى كان لها أعمق الاثر فى تطوير شعرنا الحديث ولا يمكننى أن أتناول كل هذه الاسماء بالدراسة التفصيلية . فحسبى تلك الاشارة .

ولكن لابد من الوقوف عند شخصيتين من أكبر شعراء مدرسة البعث انسحبت عنهما الاضواء فى الاعوام الاخيرة وهما الشاعران على الجندى ، ومحمد الاسمر . فهذان الشاعران من أعذب الاوتار فى قيثارة

شعرنا المعاصر وهما شخصيتان من أعذب الشخصيات فى عالم الفن .

صاحب « ترانيم الليل »

أما الشاعر على الجندى فهو نسمة من أرق النسمات، روح عذب ونفس وديعة صافية ، وقلب يفيض بالحب والرحمة والحنان ويحتدم فى باطنه شخص مقتحم غزل يحب الجمال ولكنه يقمعه بهذا المظهر الوديع الهادىء النبيل .

ولد فى شندويل من أعمال سوهاج وحفظ القرآن ودخل الازهر ثم دخل دار العلوم وتخرج فيها وعمل مدرسا بالمدارس ثم مدرسا بدار العلوم ثم ظل يترقى حتى صار عميدا لكلية دار العلوم .

وقد أصدر ثلاثة دواوين من الشعر هى « أغاريد السحر » فى عام ١٩٤٧ ، و « ألحان الاصيل » فى عام ١٩٥٠ ، وأصدرت دار المعارف فى عام ١٩٦٤ ديوانه الثالث « ترانيم الليل » .

وشعره رصين جزل قوى البناء فيه كثير من الماء والرواء . يمتاز شعره كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة ديوانه الثالث : « بجزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها وقوتها . وقد تجرى السهولة المفرطة فى بعض جوانب صياغته ولكن يظل الرونق لا يفارقها وتلازمها العذوبة والسلاسة ... ويوقع الشاعر ترانيمه وألحانه على أوتار قيثارتنا الشعرية الموروثة عن الآباء والاسلاف والتى تهزنا وتروعنا بما تقدمه لنا من غذاء للعقول ، وشفاء للقلوب والنفوس » .

والشاعر مرهف النفس رقيق الشعور ثرى العواطف ظاهره كعاطفة تلوح على صفحة وجهه كل التيارات

التى تمور فى باطنه ... يتحول الى دموع لمجرد أن يرى منظرا مؤلما أو يرتطم بعقبات الحياة ، ثم هو رجل متدين شديد الاعتماد على الله ...

صورة نفسية

وقد رسم لنفسه لوحة نفسية تكاد تكون مفتاح قلبه وعقله يقول :

لكل امرىء جهر يخالف سره
وما لى من سر يخالفه جهرى ...
تطالع فى وجهى صحيفة خاطرى
وتقرأ فى عينى ما جال فى صدرى
خلقت كعيسى لا أجن ضغينة
بقلبى ولا أطوى ضلوعى على غدر

ثم هو دائم الشكوى والحزن والالم يشكو ظروف حياته . ويشكو حظه . ويتألم لشعرات بيضاء تلم برأسه ، يقول من قصيدته « بين الرأس والقلب » :

شعرات فى مفرق الرأس لاحت
كنجوم تضىء فى الديجور
تركتنى فى نضرة العمر أبكى
ذكريات الصبا بدمع غزير
وكستنى ثوب الوقار وهل أسمج
فى العين من وقار الصغير
يا لظلم الايام اذ وقفتنى
بين رأس شيخ وقلب غرير
ذاك يدعو الى الرشاد وهذا
مستهام بكل وجه نضير

أما الغزل فله فيه جولات وصولات وكلها لا تتعدى وصف تجاربه مع الفاتنات الحسان وتجاربه عادة تقف

عند النظر الابيض البرىء ، وفى شعره الفكاهى سخرية نافذة تصل الى درجة الايلام. يقول فى «بعض الثقلاء» :

ثقيل على أرواحنا ثقل الحجر
نلقبه من شؤمه « زحل البشر »
تغيب بشاشات المنى بحضوره
وتهجر أحزان النفوس اذا هجر
كأن ثلوج القطب حشو ثيابه
فان هو وافى كاد يقتلنا الخضر (١)
ترى الصحب منه مشفقين كأنما
تساورهم من قربه الحية الذكر
فان لمحوه من بعيد تغامزوا
ولاذوا سراعا بالاخاديد والحفر

وهو دائم الحنين الى ماضيه . وله قصيدة نافذة بعنوان « مغنى الصبا الاول » من أرق الشعر المعاصر وهى تجربة عميقة عاد الشاعر فيها الى حجرة كان يسكنها فى أيام التلمذة فوجدها ساحة خرابا يبابا تتناثر فيها الحجارة وأكوام الصبا فراح يناجيها فى انفعال عميق :

أمغنى الصبا والصبا أخضر
حبا فوقك العارض المطر

وعلى الرغم من أن الشاعر كتب فى كل الاغراض الشعرية بمقدرة واصالة الا أن شعره الذى رثا فيه أصدقاءه من أعمق ألوان الشعر عنده تحس فيه ذوب الدموع ونبض القلب وصدق العاطفة .

وله شعر يعبر عن تمرده وثورته على واقعه وله قصيدة بعنوان « ليتنى كنت صفيقا » يقول فيها :

---

(١) البرد

سر ثعسى وخيبتى وشـــقائى
أننى حامل محيـــا رقيقـــا

ونحن لا نوافق الشاعر بطبيعة الحال على هـــذه السخرية النافذه . ونعتبر أن هـــذه الخلال النبيلة والاخلاق الفاضلة والمنزلة العلمية الرفيعة والطبيعـة الانسانية السمحة ، كل هذه السجايا التى يتمتع بها شاعرنا الـكبير هى التى جعلت منه هذا الصرح الشامخ الذى سيخلد على الزمان .

سجل حافل بالامجاد

أما الشخصـــية الثانية التى سأقف عندها فهى شخصية الشاعر المرحوم محمد الاسمر ، وهو شـاعر من شعراء البعث الـكبار ، تمرس بالشعر فترة طويله من الزمان وهو شخص مصـــقول النفس والذوق والسمت ، مرح خفيف الظل ، بارع النكتة ، صـافى الطبع ، دمث الاخلاق ولد فى دميـاط وتعلم فى الازهر واشتغل فى مكتبة الازهر ، وظل لهذا متفرغا للشعر. وقد أصدر ديوانه الـكبير بعنوان « ديوان الاسمر » فى عام ١٩٥١ فى نحو ٦٦٠ صفحة وضع فيهـا عصارة قلبه وذوب نفسه ونبض وجدانه .

وقد وصف الشيخ مصـــطفى عبد الرازق شعره بقوله : « لشعرك تأثير فى نفسى أحسبه يفوق ما يفعل الشعر، ذلك إنه فيض نفس أحبها . وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا فى أسلوب سهل قيسرى فى الارواح ويفجر العواطف خلالها تفجيرا » .

والحق ان ذلك السحر الشجى الذى نشعر به ونحن نعيش مع تجارب الاسمر الشعرية ثمرة من ثمار موهبته

الـكبيرة التى امتزجت بأدواته التعبيرية والتصـويرية وأخرجت لنا هـذا الفيض الشعرى العميق . وديوان الشاعر سـجل حافل لحياة الامة العربية بأمجادها السياسية والاجتماعية . وتصـوير لمعالم الحياة فيهـا ووصف لمظاهر الطبيعة . ثم فيه الـكثير من الاخوانيات والمداعبات التى تنم عن نفس مرحة وذوق رفيع ، ولكنه كان يعبر أحيانا عن تجاربه الذاتية واحساسـه الحاد بالحياة فيجىء شعره فلسفيا نابضا بالمرارة والالم، يقول فى قصيدة له بعنوان « أسير » :

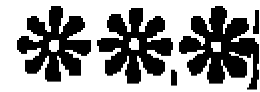
أنا كالطـير أسـير
واقع بين الشبـاك
طـال ما بين جناحى
وحبـالى من عراك



ويكاد يكون من أوائل الشعراء الذين صوروا مأساة الحرب العالمية الثانية أدق تصـوير فى مجموعة من القصائد الحارة . فكتب « قبل الحرب العالمية » وكتب عندما قامت الحرب وكتب عن المخابىء « وليالى الغارات الجوية » ويقول فى هذه القصيدة الاخيرة :

وناعبة فى الليـل يسرى نعيبها
تحذر شر الطـائرات وتنـذر
نهضنـا لها متيقظين وعلمت
اخا القوم فيما علمت كيف يسهر
ونطفىء أو نخفى المصابيح نتقى
عواقب بعض النور والنجم ينظر
ولو ناله ما نالنا لم تلح له
مصابيح مثل الروض وهو منور
وبات كما بتنا على شر حالة
نعانى ظلام الليـل والليـل أعكر

وقد خص فلسطين بباب كبير من ديوانه ، وفي شعره الروحي تتجلى قدرته الشعرية وطاقته الفنية .



وقد كتب الشاعر في مقدمة ديوانه تجربته وهو يبدع قصائده في دقة تفيد الباحث يقول : « واني في أول نظمي للقصيدة أجدني مسوقا الى نظمها بشعور خفي ليس فيه ما يرهق أعصابي ، ثم يأخذني التيار الجارف فيربد وجهي ، واظل ذابل البصر ، غائبا بعض الغياب عما حولي . وفي هذه الحالة اذا نمت كان نومي متقطعا اغفو الاغفاءة ثم أقوم ناهضا الى القلم والقرطاس ، لان معنى من المعاني تمت صياغته بيتا من الابيات وانه ليخيل الى أن مخي في أول عمل القصيدة ، انما هو « ساعة » أملؤها . وهو بعد ذلك يؤدي عمله بنفسه . ولا سلطان لي عليه « كما تؤدي الساعة عملها » .

وفي هذه اللمحات مفاتيح نفسية كثيرة يمكن من خلالها أن نقوم بدراسة الشاعر وتجربته الشعرية على ضوء من التحليل النفسي .

الفنانون والأزهـر

قد يبدو فى عنوان هذا المقال بعض الغرابة أو بعض المبالغة . فما هى الصـلة بين الفن والفنـانين ، وبين الازهر المعمور ؟ !

ولـكن دعنى أقل لك شيئا تحت هـذا العنوان ، فلعلك تجد فى آخر الامر أن الفن المصرى ينتسب الى الازهر نوعا من الانتسـاب لا غرابة فيه ، وان لبث الازهر طوال عمره المديد جامعة لعلوم الدين واللغـة والادب وحدها ، واتخذ الفن طريقا مستقلا خاصا .

وحديثنا كله فى هـذه الصـفحات مقصور على فن الغناء ، وأهل هذا الفن فى عصر يمتد أكثر من مائة عام ، وكلهم انتسب الى الازهر بالتعلم فيه أو التعلم منه ، أو الاقتباس مما يبعثه خارج جدرانه من النور على سائر الناس .

والغناء ــ كما نعرف ــ يخصه العرب بالحب الشديد منذ الزمان الاول ، وقد ارتبطت أصوله وقواعده منذ ألوف السنين بالشعر العربى ، بل حتي بالكلمة العربية المفردة ، فضلا عن التفعيلة فىالشعر، وفضلا عن بحوره المتكاملة التفعيلات والاوزان ..

وتفعيلات الشعر العربى فى صميمها ، هى ايقـاعات ميلودية « مفردة » قائمة على سلم الغنـاء العربى أو

(*) الاستاذ كمال النجمى

الموسيقى العربية . ولو تمردت هـذه التفعيلات على الايقاع العربي لخرجت تماما من الاوزان العروضيـة العربية القائمة على الصـوت العربى ، وعلى أجزائه الدقيقة التى يسميها سادتنا الموسيقيون « ثلاثة أرباع الصوت » .. ويسمونها أحيـانا ـ للاختصار ـ ربع الصوت ..

والـكلمة العربيـة المفردة كذلك لا تحيد عن هـذه القاعدة ، فان اشتقاق المفردات العربية أساسه التوزين الصوتى فى سلم الموسيقى العربيـة .. وبهذا تختلف اللغة العربية ـ اذ تقوم على الاشتقاق ـ عن اللغـات الاوربية القائمة على النحت ويختلف شعرها عن شعرها ، وغناؤها عن غنائها ..

ومهما قيل عن تطوير الموسـيقى العربية ، فان الحقيقة الثابتة هى أن الـكلمة العربية ايقاع .. وبحر الشعر ايقـاع .. والوزن اللغوى والوزن العروضى مرتبطان أوثق الارتباط بالوزن الموسيقى ..

وهذا الامتزاج الحميم بين الغناء والشعر ، متصـل من قديم بأسباب أصيلة عميقة فى تاريخ الانسـان العربى ، فلا سبيل الى التفريق بينهما ، الا اذا هجر الانسان العربى لغته وتكلم باللسان الرومى .. مثلا !

وهذا هو السر فى أن فن الغناء العربى قد تطور فى عهده الذهبى ـ أيام العباسـيين ـ وازدهر واستبحر على أيدى موسيقيين ومطربين كانوا ينظمون الشعر أو يتذوقونه تذوقا صحيحا كاسحاق الموصـلى وأبيـه ، وابراهيم بن المهدى وابن جامع ومخارق وغيرهم ..

الشيخ محمد شهاب

ولـما أخذت الامة العربية تنهض وتسترد شخصيتها

بعد حملة نابليون على مصر فى آخر القرن الثامن عشر، مست النهضة العربية الغناء والشعر معا . وحمل لواء هذه النهضة فى الغناء والشعر جماعة من النوابغ انتسبوا الى الازهر درجات متفاوتة من الانتساب ..

وظهر فى هذه الفترة فنان موسيقى ـ وشاعر أيضا ـ لا ينساه الموسيقيون العرب ولا ينسون فضله فى احياء التراث العربى العريق فى الغناء ، وهو الشيخ محمد شهاب الدين الذى ظل يبحث وينقب فى الموشحات الاندلسية التى أوشكت أن تندثر حتى جمع منها مئات مختلفة المقامات والايقاعات ، دونها فى كتابه المعروف باسم « سفينة شهاب » وقد اطلع على هذا الكتاب وتعلم منه جميع فنانى الغناء العربى الرواد فى السنوات المائة الماضية ..

تلاميذ شهاب

وفوق « سفينة شهاب » عبر تلاميذه ومريدوه بحر الغناء البدائى الذى كان قد حل فى عصور التدهور القومى السالفة محل الغناء العربى الحضارى بعد اندثاره على يد هولاكو عند تدميره بغداد ، ثم اندثار ما تبقى منه عند سقوط غرناطة فى أيدى القشتاليين فى آخر القرن الخامس عشر وانطواء صفحة العرب فى الاندلس ..

وأقبل جماعة من خريجى الازهر او ممن حضروا بعض دروس الازهر ، أو أخذوا عن الازهريين بعض العلم ، فأكثروا من تأليف القصائد والازجال وتلحينها وانشادها .. وكان هؤلاء الطليعة التى أعادت الغناء العربى الى أسلوبه الحضارى الاول ، بعد أن طغت عليه الاغانى الغجرية والعثمانية والفارسية وغيرها مئات

السنين وأوشكت مقاماته وايقاعاته وأساليبه أن تضيع لولا ما بقى منهـــا فيما استخدمه الفنون الشعبيون والفلكلوريون المجهولون فى أغانى الافراح والاناشيد الحزينة فى الحقول أو فى الاعمال الحرفية بالمدن ، أو فى انشاد قصص أبى زيد الهلالى وما اليها ..

وهكذا كان لهؤلاء المشـــايخ ذوى الفطرة الفنية الحساسة النابغة أكبر الاثر فى رد الغنـاء العربى فى أسلوبه الكلاسيكى أو الحضارى الذى كاد يندثر .. وارتبط عملهم العظيم فى هذا المجال بالنهضة الشاملة فى الشخصية القومية للأمة .. وكان فضل هؤلاء الفنانين المشايخ على الغناء ، قريب الشبه بفضل محمود سامى البارودى على الشعر .. وتحرر الغناء العربى من آثار عصور التدهور القومى التى عبثت بكل تراث عربى ، فنى أو أدبى ..

ولا يثير دهشتنا الآن ارتباط نهضة الغنـاء العربى بنهضة الشعر العربى ، فى زمن واحد ، فان الغناء ــ كما أسلفنا ــ هو قرين الشعر عندنا نحن العرب . كما لا يثير دهشتنا أن المشـايخ هم الذين أنهضوا الغنـاء وأنهضوا الشعر معا ، فان المشائخ كانوا خلاصة مثقفى الامة الغيورين على تراثها القومى .. واذا تذكرنا اليوم أساتذة البارودى فى الشعر والادب ، قلنا ــ بلا حرج ولا مغالاة ــ أن البـارودى « المطربش » كان شـيخا بتخرجه فى الادب والشعر على أيدى الازهريين وكتبهم .

الحامولى وشيوخه

واذا استقصينا ماصنعه الفنانون المنتسبون بثقافتهم الى الازهر ، فى مجال نظم الاغنية وتلحينها وغنائها ، فضلا عن تلحين القطع الموسيقية من بشارف ودواليب

وسماعيات ولونجات وتحميلات ، لما اتسعت لنا هذه الصفحات. فلعلنا نقنع باستعراض سريع ولكنه شامل بقدر الامكان لهؤلاء الفنانين وأعمالهم .

وقد نبلغ هدفنا هذا اذا بدأنا بأكبر مطرب عرفه العصر الذى بلغ فيه الفنانون المنتسبون بثقافتهم أو زيهم الى الازهر ، قمة فى النضج الفنى ما زالت تثير اعجابنا كلما سمعنا ما تنشده فرقة الموسيقى العربية من تراث هؤلاء الفنانين الموهوبين ..

كان عبده الحامولى أكبر مطربى ذلك العصر الذهبى - منذ مائة عام تقريبا - ولم يكن أزهريا بنشأته ولكنه اكتسب علمه ورهافة حسه من الازهريين ، وغنى أشعارهم وألحانهم ، فنظم له أغانيه عدد من المشايخ ، من بينهم الشيخان على الليثى وعلى أبو النصر - وكانا من أشهر أهل زمانهما - والشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى مصر حينذاك ، والشيخان محمد الدرويش وأحمد وهبة وكانا من أشهر مؤلفى الاغانى ..

وألف الاغانى ولحنها لعبده الحامولى شيوخ آخرون، مع ان الحامولى نفسه كان من أكبر الملحنين ، لان الفن كان مرتبطا بأولئك الفنانين الدين انتزعوا بأعمالهم الفنية الكبيرة احترام مجتمعهم ، فانضم اليهم فى التأليف للحامولى ، اثنان من أشهر باشوات العصر وهما محمود سامى البارودى واسماعيل صبرى ..

الشيخ المسلوب

وممن لحنوا للحامولى الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب الذى كان فى عصره من أعظم الملحنين .. وقد تعلم فى الازهر ثم اشتغل منشدا فى الموالد ، ولما نضجت موهبته اتجه الى الغناء والتلحين ، وبرع فى

تلحين التواشيح حتى قيل أن أحدا من الملحنين لم يبلغ مستوى الاندلسيين فى تلحين التوشيح كما بلغه الشيخ محمد المسلوب ..

واشهر ما بقى لنا من تواشيح الشيخ المسلوب ، توشيح « لما بدا يتثنى » الذى يعتبر مثالا فى دقة الصنعة وحلاوتها وسهولتها وامتناعها.. وقد جمع هذا التوشيح صورا كثيرة للموسيقى والغناء العربى ، ويتمثل فى صيغته أو « فورمته » أرقى مابلغته الموسيقى الاوربية ، وهى صيغة « الروندو » .. ويتفق تكوينه الفنى مع الموسيقى العربية فى الوقت نفسه اتفاقا سليما ، وتتمثل فى نغماته وايقاعاته مقدرة الشيخ المسلوب الفائقة ، حتى لقد ذهب بعض من هالتهم دقة وحلاوة هذا التوشيح الى القول بأنه من التواشيح الاندلسية القديمة لا من تلحين الشيخ المسلوب .. ولكن « الادوار » التى لحنها الشيخ المسلوب لا تقل روعة عن تواشيحه ، فهل كانت هذه الادوار أيضا من تلحين الاندلسيين ؟ !

الشيخ المنيلاوى ورفاقه

وكثر بعد انقضاء أيام الحامولى أهل الفن من ذوى النسب القريب الى الازهر أو النسب البعيد ، فكان من بينهم مطربون وملحنون وعازفون على العود والقانون والناى ..

ووثب الى قمة فن الغناء الشيخ يوسف المنيلاوى ذو النشأة الازهرية ، وقد غنى من الحان الحامولى كما غنى من الحان الشيخ المسلوب والمشايخ الآخرين..

واستفاد الشيخ المنيلاوى من غناء الالحان الكثيرة المتقنة التى خلفها الملحن الكبير محمد عثمان ـ توفى

سنة ١٩٠٠ - لمطربى بدايات القرن العشرين ، حتى نسبت بعض هذه الالحان الى المنيلاوى ، ولكن المنيلاوى كان حريصا دائما على أن ينسب هـــذه الالحان الى صاحبها رحمه الله .. وهكذا كانت أخلاق ذلك الرعيل من الفنانين الاصلاء ..

وعرف عصر المنيلاوى كثيرا من المغنين والملحنين والعازفين البارعين ، كالشيخ سيد الصفتى ، والشيخ محمد الشنتورى ، والشيخ خليل محرم ، والشيخ على القصبجى - والد الملحن الكبير محمد القصبجى - والشيخ أحمد ادريس .. وبدأ « الافندية » يتكاثرون بين المشايخ ، فكان أشهر المطربين الافندية عبد الحى حلمى ، ومحمد أفندى سالم العجوز الذى لم يكن أفنديا الا بالطربوش على رأسه . أما زيه فكان أزهريا .. وقد عاش الشيخ العجوز أو العجوز أفندى الى سن المائة أو فوقها بعشر سنوات - كما يقال - ولبث طوال هذا العمر المديد يغنى !

الشيخ سلامة

وفى ظل هؤلاء الفنانين الموهوبين نشأ شيخ آخر ملأ صيته الآفاق هو الشيخ سلامة حجازى الذى استبدل بالزى الازهرى زى الافندية ولكنه ظل يحمل لقب « الشيخ » الى آخر حياته ، وبعد حياته ، لان نشأته كانت دينية .. وكان مؤذنا فى شبابه .. فلما احترف الغناء أحدث فيه انقلابا ، لانه لم يكتف بالغناء فى الافراح والحفلات الخاصة ، بل أنشأ مسرحا غنائيا ، ونقل الغناء من الصالونات والسرادقات الى المسرح ..

ولم يكن مسرحه فى الحقيقة مسرحا غنائيا بالمعنى الفنى الذى نعرفه الآن ، بل كان مجرد اتجاه الى المسرح

الغنائي من ناحية الشكل ، وبقيت الحانه المسرحية على الوضع الفني القديم : مجموعة من الادوار والاغاني ، وكان يغني على المسرح كل ما يطلبه منه المتفرجون بغض النظر عن سياق المسرحية وقصتها ، فاذا طلبوا ـ مثلا ـ ليالي ومواويل ، قطع التمثيل وغنى لهم ما طلبوه حتى يكتفوا ، ثم يعود الى ما قطعه من مسرحيته وحكايتها ..

الشيخ سكر والشيخ على

وبرغم ظهور « المسرح الغنائي » في ذلك العهد ، فان المشايخ استمروا في مذهبهم الغنائي ..

بعضهم ، كالشيخ اسماعيل سكر استمر في طريقة «الانشاد» في الموالد ، وقد تتلمذ على يديه «مطربون» استفادوا من طريقته المحكمة في الانشاد ، كما تتلمذ على يديه ملحنون كان من أبرعهم وألمعهم الشيخ زكريا أحمد ..

واذا كان الشيخ اسماعيل سكر هو امام المنشدين في عصره ، فان الشيخ درويش الحريري كان أستاذ الملحنين والمطربين، وقد تتلمذ على يديه كثير من الاصوات الرجالية والنسائية ، وله « تركة » لا يستهان بها من الالحان ، ولكن دوره الحقيقي كان دور الاستاذ لمطربي وملحني عصره ..

ويمكن اعتبار الشيخ على محمود امتدادا للشيخ اسماعيل سكر في الانشاد ، ولكن الشيخ على محمود، غنى أيضا واعتبره معاصروه مغنيا وملحنا لا مجرد منشد أو « موالدى » بارع كسلفه الشيخ سكر ..

ومن يستمع الآن الى قصيدة « يا نسيم الصبا تحمل سلامى » التى سجلها الشيخ على محمود على اسطوانة

قبل أربعين عاما ـ وهى تمثل مذهبه الفنى خير تمثيل ـ يجد أن الشيخ علىمحمود قد خطا الىالغناء خطوة ، ولكنه لم يقطع صلته بالانشاد كما كان معروفا عند الشيخ اسماعيل سكر ..

وعلى يد الشيخ على تتلمذ الكثيرون من مطربى وملحنى العشرينات والثلاثينات ، بل تتلمذ عليه أيضا محمد عبد الوهاب الذى أصبح زعيم التجديد فى الغناء العربى الحديث ، وقطع كل صلة بفن الانشاد القديم .

وفى عصر الشيخ على كان الشيخ أمين حسنين أو «حسانين» يحاول أن يجارى المطربين أكثر مما يجارى المنشدين .. وتكاد بعض الاسطوانات الباقية لنا من الشيخ أمين حسنين توهمنا بأنه كان من المطربين « الافندية » لنزوعه الى « التجديد » فى بعض أغانيه نزوعا شديد الوضوح .. ويبدو أن السبب فى ذلك ان عبد الوهاب كان قد سيطر على الاسماع بطريقته الجديدة ، وكان لابد لمن يريد أن يعيش فى أسماع الناس ، من مجاراة هذه الطريقة بما فى وسعه !..

ومع ذلك ، بقيت طريقة الشيخ علىمحمود فىالانشاد الى اليوم عند المخضرمين أمثال الشيخ محمد الفيومى الذى يغنى لنا الى اليوم أو ينشد بطريقة الشيخ على ، ويكاد أحيانا لا يخرج عنها قيد أنملة ، فتذكرنا جودة أدائه وحلاوة صوته بما كان فى سالف الاوان من شيخه النابغة الموهوب ..

الشيخ أبو العلا

وللشيخ أبوالعلا محمد صفحة خاصة فى الغناء العربى خلال نهضته المعاصرة ، لانه كان أستاذ كوكب الشرق أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية ..

ومن المصادفات العجيبة أن قصيدة « وحقك أنت المنى والطلب » التى لحنها وغناها الشيخ أبو العلا ناسجا فيها على منوال عبده الحامولى ، هى من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوى الذى كان شيخا للأزهر فترة من القرن الثامن عشر ، وكانت له قصائد وتواشيح غناها مطربو عصره ..

وبعد أن غنت أم كلثوم هذه القصيدة وغيرها من ألحان الشيخ أبوالعلا محمد ، اتجه الشيخ الى التدقيق فى أقامة التوافق بين الكلام والالحان ، فأخرج تحفته الرائعة : « أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا » .. غنتها أم كلثوم منذ أربعين سنة فكانت من أجمل الالحان التى تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء .. فقد وضع الشيخ أبو العلا الكلام واللحن فى وعاء واحد ، وأتاح للصوت أن يستعرض كل قوته وجماله واقتداره .. وعلى هذه الصورة الرائعة كان الغناء العربى الاصيل فيما حدثنا به أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه «الاغانى» .

وأسهم الشيخ أبو العلا — من خلال صوت أم كلثوم — فى تخليص الغناء العربى نهائيا من العجمة العثمانية والفارسية والغجرية التى عبثت بحناجر المطربين والمطربات فى مصر والبلاد العربية مئات السنين ..

ولم تكن هذه الوثبة الفنية فى الغناء العربى مستمدة من الغناء الاوربى ، بل كانت قائمة على انبعاث الطريقة العربية الحضارية فى الغناء .. وكان صوت أم كلثوم من أهم العوامل التى جعلت نجاح هذه الوثبة مؤكدا ولا جدال فيه ..

الشيخ سيد درويش

ولا داعى بطبيعة الحال للافاضة فى الحديث عن

الشيخ سيد درويش ، فان الكلام عنه يتجدد عودا على بدء بلا انتهاء .. حسبنا أن نقول عنه فى هذه الصفحات انه لم يدخل الازهر ، ولكنه تعلم فى الكتاتيب التى كانت تعد تلاميذها للالتحاق بالازهر .. وارتدى العمامة والقفطان وعاش الى أخريات حيـــاته شيخا بالاسم والمظهر ، ولم يتطربش ويتفرنج فى ثيابه الا فى السنوات القلائل الاخيرة من حياته القصيرة الحافلة ..

كان الشيخ سيد درويش موهوبا بكل معنى الكلمة ، فاستوعب فى عمره القصير تراث الفناء ، وصنع مئات من الادوار والتواشيح والطقاطيق والمونولوجات مازالت تحير سامعيها بدقة صنعها وجمال تركيبها ، وقد أتم سيد درويش أكثر هــذه الاعمال الفنية العظيمة التى توجها بألحانه المسرحية ، وهو دون الثلاثين من عمره ، ولما مات قبل أن يبلغ الثانية والثلاثين ، كانت غزارة انتاجه تلحينا وغناء قد ساوت بينه ، من حيث الكم ، وبين من عاشوا الى ما بعد الستين من ملحنى عصره ، وتفوق على الكثيرين منهم بموهبته غير العـــادية وابتكاراته ..

ولم يكن سيد درويش بلا أساتذة كما يتصور بعض محبيه ومريديه ، لانه علم نفسه بالاستماع الى ألحان كبار الملحنين ، كما استفاد من الشيخ على ابراهيم ضارب الدف ، أو « الرق » الذى كان حجة فى الادوار والموشحات ، بصيرا بالايقاعات والمقامات ، فألحقه سيد درويش بفرقته وتلقن منه كل ما استطاع أن يتلقنه ، وأضافه الى محصوله القديم من ملحنى مصر والشام ..

وممن يذكر فى مجال العلم بالادوار والتواشيـــح والايقاعات والمقامات الشيخ محمود صبح الذى عاش الى بداية الاربعينات وكان فضلا عن كونه حجة فى العلم

بالالحان صاحب صوت من أوسع الاصوات مساحة ..

الشيخان زكريا والقصبجى

بقى شيخان هما : زكريا أحمد ومحمد القصبجى.. كلاهما لبس العمامة والقفطان ، ونشأ فى الازهر أو على مقربة من الازهر ، ثم تحول الى الفن وبرع فيه ووهب له حياته ..

لم يتح لزكريا أحمد أن يمضى فى دراسته الازهرية الا قليلا ، ثم انضم الى بطانات المنشدين ، ودخل فى فرقة الشيخ اسماعيل سكر ، وتعلم منه الكثير ، ثم تتلمذ على يد الشيخ الحريرى.. واشتغل زكريا بالغناء والانشاد والتلحين وهو بعد شيخ لم يتحول الى زى الافندية ، ولما تحول الى هذا الزى لم يفارقه لقب « الشيخ » فعاش الى آخر حياته يحمله سعيدا به فخورا ..

والشيخ زكريا الذى توفى منذ سنوات قلائل ، كان بقية الرعيل الاول الذى جدد الغناء العربى والموسيقى العربية ، وكان فى ألحانه أمة وحده ، لا ينازعه طريقته أحد ..

عاش زكريا أحمد فى عصر التجديد العاصف الذى قاده عبد الوهاب وملحنو جيله ، ولكنه لم يتزحزح عن طريقته ، فلحن بها لام كلثوم وأصوات أخرى كثيرة ، وكان وسط ذلك التيار العاصف من التجديد ممثلا لفن التلحين العربى فى اصالته ..

أما الشيخ محمد القصبجى الذى خلع العمامة والجبة ليدخل فى زمرة الملحنين الافندية ، وهو بعد شاب صغير ، فقد كان ميله الى التجديد فى الغناء العربى واضحا ، بل كان من أوائل دعاة التجديد ، ويعتبر

مونولوج « ان كنت أسامح » الذى لحنه لام كلثوم قبل أربعين عاما أعلى صيحة للتجديد الفنائى فى ذلك العهد.

وبعد أن نجح هـــذا اللحن نجاحا هائلا ، واصل القصبجى النسج على منواله فى التجديد ، فلحن لأم كلثوم مجموعة كبيرة من أجمل أغانيها ، انتهت بأغنية « رق الحبيب » التى لحنها سـنة ١٩٤٦ ثم توقفت قريحته ـ رحمه الله ـ عن التلحين على هذا المستوى الرفيع الذى عرف به خلال أكثر من عشرين عاما لحن خلالها لام كلثوم ومنيرة المهدية وفتحية أحمـد وليلى مراد وأصوات أخرى كثيرة ..

بقى أن نقول ان هؤلاء الفنانين الكبار الذين انتسبوا الى الازهر تمكنوا من اعادة « تعريب » الفناء العربى ، فان العجمة الطويلة التى رانت على الامة العربيـة فى ماضيها ، اقتضت حملتين من حملات « التعريب» .. احداهما فى الفناء ، والاخرى فى الشعر والادب والثقافة. وقد تمت الحملتان معا بفضـل الازهريين ، والفنـانين الذين كانوا فى الاصل من أبناء الازهر أو من القريبين الى الازهر وأبنائه .. وما زلنا نسمع منهم الشيخين النقشبندى وسيد مكاوى ..

وقد ذكرنا فى هـــذا العرض السريع كثيرا من هؤلاء الفنانين الرواد ، ولـكن هناك أسماء غابت عنا أو لم نتذكرها .. حسبهم أن أعمالهم الفنية قد دخلت تاريخ بلادهم وشاركت فى انهاض فن عريق من فنون الامة العربية

"الأزهـــــر"
قلعـة الوطنية المصريـة

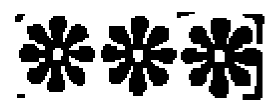
من أبرز مميزات الحركة الوطنية المصرية التى نبتت فى نهاية القرن التاسع عشر واشـــتد ساعدها مع مطلع القرن العشرين ، انها كانت لجميع أبنـــاء الشعب على اختــلاف طبقـــاتهم ، وأديانهم ومعتقداتهم .. وكانت تعتمد على كل فئـــات الشعب المسلم ، والمسيحى ، الشاب ، والــكهل ، الفنى ، والفقير ، العـــامل ، والصانع ، التاجر ، والزارع ، الطالب والموظف ... وكانت قيادات هذه الحركة كما كانت جماهيرها تؤمن ايمانا صادقا بأن الدين لله ، والوطن للجميع ..

بذل الاستعمار البريطانى الــكثير من الجهد والمال، والنفوذ للايقاع بين أبناء الوطن الواحد تنفيـــذا لمبدئه الاستعمارى الاساسى « فرق تسد » فلم يستطع .. حيث لم تمكنه جماهير الشعب من تحقيق مخططاته ، لقد كانت جماهير الشعب تؤمن بصدق احساســها ، ودقة مشاعرها ، وعمق وعيها ، أن الاستعمار لا يبغى من وراء التفرقة بين أبناء الوطن الواحد الا استمرار سيطرته ، واحتلاله ، واستغلاله لمصر ولشعب مصر.. وكانت هـــذه الجماهير ـ بما فطرت عليه من وطنيـــة صادقة وايمان خالص ـ تعتقد انه لا نجاح لاية حركة وطنية الا بوحدة وقوة وتماسك الجبهة الداخلية ..

(*) للاستاذ صبرى ابو المجد

ومرة ، لاحت للاحتلال فرصة ذهبية للايقاع بين المسلمين والمسيحيين عندما اغتال ابراهيم ناصف الورداني — من شباب الحزب الوطني — في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٠ من فبراير ١٩١٠ بطرس غالي باشا ناظر النظار ، واعترف الورداني فور تسليم نفسه لرجال البوليس ، كما جاء في محضر التحقيق الذي نشرته صحيفة « الجريدة » التي كان يصدرها وقتئذ الاستاذ أحمد لطفي السيد ، انه اغتال بطرس باشا غالي « لانه وقع اتفاقية السودان عام ١٨٩٩ التي اشركت بريطانيا في حكم السودان ، ولانه رأس المحكمة المخصوصة التي حاكمت أبناء دنشواي ، ولانه أعاد قانون المطبوعات الذي كمم الصحافة وقضى على حريتها ، ولانه عاكس الجمعية العمومية التي كانت تنظر مشروع امتياز قناة السويس الذي كان يؤيده بطرس باشا ، ولانه يحارب الوطنية المصرية » .

ولان القاتل مسلم ، ولان القتيل قبطي ، فقد استغل الاستعمار البريطاني الفرصة للايقاع بين عنصري الشعب ، وأقام مؤتمرا طائفيا لخلق الثغرة الطائفية في مصر ، ولكن هذا المؤتمر فشل ، وأقام المصريون مؤتمرا آخر باسم « المؤتمر المصري » كتب له التوفيق ، فقد راح المستنيرون من أبناء البلاد من المسيحيين والمسلمين ، يبذلون كل جهد ممكن لحماية الجبهة الداخلية ، وتفويت الفرصة على العدو المحتل ..



وكان ممن اشتركوا في تلك الحملة المستنيرة الاستاذ نصيف المنقبادي الذي كتب خطابا تاريخيا الى رئيس تحرير جريدة الاكلير الفرنسية يقول فيه : اسمح لي بصفتي مصريا أن أقرر بعض نقاط تتعلق بمقتل بطرس

باشا غالى رئيس الوزارة المصرية · ليس من اختصاصى تقدير عمل ابراهيم الوردانى ولكنى أريد من صميم فؤادى أن أبدد التهم التى أشاعها الانجليز فى العالم فقد اتهموه بأنه « مختل الشعور » ، « قليل الذكاء » ، وانه « أطاع داعى التعصب بقتله بطرس غالى المسيحى الذى يقولون انه كان حرا ووطنيـــــا » ، أنا أعرف الوردانى شخصيا وهو فتى شديد الذكاء كثير المعارف ، ملء صدره الوطنية الحرة ، وليس رجلا متعصبا ولم يقدم على عمله الا بداعى الوطنية المتحمسة بعد أن ضاق صدره كما ضاقت صدورنا جميعا بالسياسة الانجليزية التى كان بطرس باشا ينفذها باجتهاد . . وأنا بصفتى قبطيا ، أعنى مصريا مسيحيا ، أصرح بأن حركتنا هى حركة وطنية مجردة ترمى الى الترقى والحرية ، وما تهمة التعصب الا من الاشاعات التى يشيعها الانجليز لتبرير المظالم التى يرتكبونها فى مصر . .

وتفشل المؤامرات البريطانية وتبقى الوحدة الوطنية سليمة قوية ، ويعمل المسيحيون الى جانب المسلمين فى الاحزاب ، والمنظمات الوطنية جنبا الى جنب ... وعندما تعلن بريطانيا الحرب على القوى الوطنيـــة اثر قيام الحرب العالمية الاولى يكون المعتقلون المسلمون الى جانب اخوانهم المسيحيين وتكون منـــافى « مالطـة » و «سيشــل» وغيرهما للمسلمين المصريين وللمسيحيين المصريين فى وقت واحد . .

وتقوم ثورة ١٩١٩ ويشترك فيهـــا المصريون جميعا تحت شعار « وحدة الهلال والصليب ». ويوجه أحـــد قادة الانجليز فى مصر اللوم الى نجل بطرس باشا غالى قائلا : « كيف تضع يدك فى يد من قتلوا والدك ؟ » . فيرد قائلا: « أضع يدى فى يد من قتلوا والدى ، ولكنى

لا أضع يدى فى يد من قتلوا وطنى ! »

الازهر قلعة الوطنية المصرية

لقد كانت ثورة ١٩١٩ مختمرة فى قلوب المصريين وأفئدتهم لما لاقوه من الاحتلال البريطانى وخاصة فى سنوات الحرب العالمية الاولى ، فلم تكد تنتهى تلك الحرب حتى بدأت الطلائع الوطنية المصرية تتأهب للمطالبة بحقوق البلاد ، ولم تكد السلطات البريطانية تعتقل بعض قادة الحركة الوطنية وعلى رأسهم سعد زغلول ، حتى هب الشعب على بكرة أبيه – دون تنظيم أو ترتيب مسبق – يعلن الثورة على الاحتلال ..

ومنذ ٩ مارس ، بداية الثورة ، والازهر حصن الثورة الحصين ، نقطة الانطلاق ، اليه تتجه جماهير الشعب ، وفى حرمه يلتقون ، ومن فوق منبره يستمعون الى خطباء الثورة وهم يحرضون الشعب على الثورة ضد الاحتلال ... فى اليوم الثانى من أيام الثورة – ١٠ مارس – أذاع الطلبة المنشور التالى : « غدا الثلاثاء ستتحرك المظاهرة السلمية الكبرى فى الساعة العاشرة صباحا من الازهر الشريف مارة بالاحياء الوطنية تتقدمها الموسيقى برياسة حسب الله والاعلام حتى تكون الساعة الثانية عشرة تماما أمام قصر العينى ، وهناك ينضم اليها فريق من المحامين والاطباء والعلماء والمعلمين والموظفين وطلبة المدارس العالية الذين يسرهم أن يكونوا مثالا عاليا للشعب .. »

ومنذ الفجر – فجر اليوم التالى لاذاعة هذا المنشور ، كانت جماهير الشعب تزحف الى الازهر ، وكان العلماء وطلاب الازهر يستقبلون الجماهير ويجلسونهم فى أماكنهم فى نظام رائع ومن فوق منبر الازهر كان خطباء الثورة

يلقون خطبهم النارية ، التى تحرض الشعب على الثورة ... وكان من بين هؤلاء الخطباء : الشيخ مصطفى القاياتى ، والشيخ على سرور الزنكلونى ، والشيخ محمود أبو العيون ، والشيخ عبد ربه مفتاح ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، والشيخ عبد الباقى سرور ، وكلهم من علماء الازهر ... ثم القمص مرقس سرجيوس ، والقمص بولس غبريال ، ومحمد أبو شادى بك ، ومحمد كامل حسين ، ومحمد لطفى المسلمى ، ويوسف الجندى ، وابراهيم عبد الهادى ، وحسن يس ، ومحمد يوسف ، ومحمود عبد السلام ، ومحمد شكرى ، ومحمد عبد المجيد بدر ، ومحمد أمين صدقى ، وزكى مبارك ، ومحجوب ثابت ، وأمين الخولى ، وأحمد أمين وغيرهم وغيرهم من شباب الازهر والمعاهد العليا ، والمدارس الثانوية ..

ويصبح الازهر ، كما يقول أستاذنا عبد الرحمن الرافعى طيب الله ثراه ، مكانا عاما للخطابة ، وهو المكان الفسيح الذى لم تستطع السلطة العسكرية اقتحامه ومنع الاجتماعات فيه ويرجع ذلك الى مكانته ومنزلته الدينية ، فكان ذلك ميدانا تبارى فيه الخطباء من كل الطبقات ، وقد ظهرت فيه شخصيات برزت بمواهبها الخطابية ..

سرجيوس يخطب فى الازهر

ووقف مرة علي منبر الازهر القمص سرجيوس بملابسه الكهنوتية ـ وكان أول كاهن قبطى يعتلى منبر الازهر ـ وبدأ يخطب بلهجة حماسية رائعة أثارت انتباه الحاضرين ، وقال : « كنت أسير يوما فى شارع كلوت بك فوجدت أطفالا يلعبون أمام منزلهم فتحدثت

معهم حديثا قالوا لى بعده : « ان أمنا فى المنزل وهناك بعض الجنود يعتدون عليهـــــا ، فعجبت لامرهم ، وسألتهم : « كيف ذلك ؟ .. » قالوا : وماذا نفعل؟.. فصعدت الى المنزل فوجدت امرأة يعتدى عليها جنود انجليز ... أتدرون من هؤلاء الاطفال ومن هى هــذه الام ؟ .. فقال الجمهور : « لا... » وقال سرجيوس : « هم فئة الموظفين ، والام هى مصر » ! .. عندئذ ثار الموظفون المصريون ، فقال لهم : « اذن اظهروا شعوركم حيال أمكم مصر » ...

وكان أن قرر الموظفـــون الاضراب احتجاجا على السياسة الاستعمارية البريطانية ، وكان الموظفون فى بداية الثورة قـد اكتفوا بتوقيع عرائض الاحتجاج على اعتقال سعد وصحبه ، ورفعهـا الى السلطان ، وكان استمرارهم فى عملهم رغم الغليان الشعبى مثار دهشــة بالغة ... وكانت بريطانيا تبذل مع الموظفين محاولات معينة لضمهم الى صفوفها ، غير أن كل تلك المحاولات قد باءت بالفشل ، فقرر الموظفون الاضراب فى ٢ ابريل لمدة ثلاثة أيام ، غير ان اندفاع الحركة الشعبية وشمولها لـكل جماهير الشعب قد مدت فى أجل ذلك الاضراب ثلاثة وعشرين يوما ...

ويروى القمص سرجيوس قصــة ذهابه الى الازهر للاشتراك فى ثورة ١٩١٩ فيقول : « عنـــدما كنت بالسودان أنشأت مجلتى « المنــارة المصرية » وجعلت منها متنفسا لآرائى التقدميــة ، وكانت هى والخطب والعظات التى ألقيها مثار اعجاب شديد ، ونقد أشد. وفى ذات يوم استدعانى مستر مور مدير الخرطوم وقال لى : « ان الحاكم العام للسودان يطلب اليك أن ترحل فى خلال أربع وعشرين ساعة » . فقلت له : « أنا لست

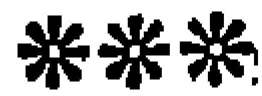
فى لندن حتى يأمرنى الحاكم العام بمغادرة البلاد فى أربع وعشرين ساعة . أنا هنا فى بلادى وليرحل هو اذا شاء » . فقال : « لا تحرجنى يا سرجيوس ونفذ الامر » . فقلت : « ان الطريقة التى تستطيع بها تنفيذ الامر ، هى أن تضع القيود فى يدى ، وتخرجنى من بلادى فى الجنوب قسراً حتى أشهد العالم على استبدادكم » ... وعمد الرجل الى الملاينة فقلت له : « اننى أريد أن أعرف السبب أولا » ... فقال لى : « لو قلت لك السبب هل تعطينى كلمة شرف تعد فيها بمغادرة البلاد ؟.. » ولما وافقت قال لى : « انت بطبعك تنزع الى الحرية ، ونحن نحكم هذه البلاد بالسيف ولهذا فان طبيعتك لا تلائمنا ، وسوف نتعبك وتتعبنا » !..

وعدت الى مصر فى سنة ١٩١٥ وقبعت فى بلدتى جرجا ، وظللت بعيداً عن القاهرة حتى شب أولادى ، فأردت أن ألحقهم بالمدارس واضطررت للسفر الى العاصمة واخترت لمقامى مسكنا فى حى الفجالة .

وظلت حياتى موزعة بين الدراسة والوعظ والعبادة حتى أحد أيام ١٩١٩ وكنت قابعا فى بيتى عندما سمعت ضجيجا وصخبا فى الشارع ولما تبينته وجدته مظاهرة من الشباب تهتف « يحيا سعد ، يحيا الاستقلال » ولما سألت عن السبب قيل لى ان المستعمرين قد اعتقلوا سعد زغلول الذى يطالب بالاستقلال التام ، وهنا تدفقت الدماء حارة الى رأسى وكأنما براكين الدنيا كلها قد تفجرت فى نفسى ، فأسرعت الى الشارع وانضممت الى المتظاهرين حتى انتهت بنا المظاهرة الى الازهر ، وكان فى تلك الفترة حصن الثورة الحصين وألقيت فيه عصا الترحال .

وظللت قرابة ثلاثة أشهر ألقى فيه كل يوم ما لايقل عن خمس خطب فى المواطنين بعد انقضـــــاء الصلوات الخمس . وكنت قبــل أن أتهيــأ للخطابة اذكر كلمات الانجليزى الذى طردنى من السودان وأقول لنفسى : « من يكره الحرية أكرهه ، ومن يحاربها أحاربه » .

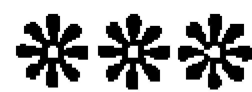
ولم أترك شــارعا أو مسجدا أو كنيسة الا خطبت فيها داعيا لتعبئة الشعور ضد أعداء البــلاد . وحينما احتاج الوفد للمال صحبت فتح الله بركات فى جولة بين القرى والضياع وكنت أظل اخطب فى أهلها حتى أحس ان المستمعين قد وصلوا الى مرحلة التضحية بأموالهم ، فأشير الى فتح الله ، وكان يحمل حقيبة كبيرة كحقيبــة القومسيونجية ، فيفتحها أمام المستمعين واذا هى تمتلىء فى لحظات .



وذات يوم كنا فى ميدان الاوبرا وكان أكثر من عشرين ألفا قد وقفوا صامتين كأن على رءوسهم الطير يستعدون للاستماع الى خطابى وصــعدت على أكتاف طالبين ، وفى وسط هذا الصمت الرهيب بدأت خطابى قائلا : « اهتفوا معى : يحيا الانجليز » وبهت الجمع الحاشد لهول المفاجأة ، وعدت أقول : « لن اخطب حتى تهتفوا يحيا الانجليز ، فهتفوا ... واستطردت قائلا : يحيا الانجليز الذين استطاعوا بظلمهم واستبدادهم ، وفجرهم أن يجعلوا منا هذه الـكتلة الموحدة المقدسة الملتهبة» . وصفق الجميع تصفيقا يصم الآذان ...

ومرة أخرى ... هكذا يمضى القمص سرجيوس فى ذكرياته عن ثورة ١٩١٩ فيقول : « كنت فى السرادق الضخم الذى أقيم لسعد زغلول ــ تكريما له بعد عودته من المنفى ــ وكان زعيم الوفد فى أوج عظمته ومجده ،

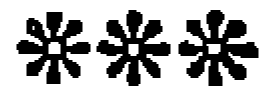
واخذت الجماهير تنادي : « سرجيوس سرجيوس سرجيوس » ووقف سعد رحمه الله قائلا : « فليسمعنا خطيب الثورة كلمته » ... وصمت الجميع ، ووقفت أخطب فقلت : « والله انك لمجنون يا سعد » وبهت الجميع ، ولكنني استطردت قائلا : « والله انك لمجنون يا سعد اذ تقوم على دولة عظمى خرجت منتصرة من حرب عظمى وتملك كل شيء ولا تملك أنت شيئا ثم تنتصر عليها » ! .. وفى كل مقطع من خطبتى كنت اكرر « والله انك لمجنون يا سعد » وفى نهاية الخطاب قام سعد من مكانه واحتضنني قائلا : « مجنون والله يا سرجيوس » !.. وضجت الجماهير بالهتاف والتصفيق ..



وذات يوم استدعانى كين بويز ، مدير الامن العام ، وقال لى : « أنت عدونا الاكبر » وبت ليلتى فى ثكنات قصر النيل نزيل غرفة جمعت فى أحشائها كل أنواع البعوض والبق والبراغيث والفيران ، وفى الصباح اقتادونى الى أحد المعتقلات فى رفح ، وكان يزاملنى فيه النقراشى ، والقاياتى ، وأبو شادى ، والخولى ، وغيرهم ، وغيرهم ..

وهناك عكفت على قراءة القرآن ودراسة كتب التفسير ، كما قرأت للرازى والنسفى والبيضاوى وتفسير الجلالين ، والملل والنحل وغيرها ، وذات يوم كنا نقف مع ضابط المعتقل فقال : « ان المصريين المتوحشين قد قتلوا جنديين بريطانيين اليوم ، ورد عليه احد المعتقلين قائلا : « هذا أمر مؤسف » . فاندفعت أنا قائلا : « ان قتل جنديين بريطانيين يعد وحشية ، وقتل الصبيان والغلمان المصريين وحصدهم

بالمدافع الرشاشة لانهم يطالبون بالاستقلال هل هو فى نظركم مدنية ؟ ! » وحقـد على الضـابط الانجليزى ، ولذلك ظللت فى المعتقل حتى أغلقته وجئت بمفاتيحه الى القاهرة وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ ، ثم صدر قرار بنفيى من القاهرة الى بلدتى جرجا ، ولـكن نسيم باشا وزير الداخلية وقتئـذ رفض تنفيذ أمر النفى وقال : « كيف أنفى رجلا وصلتنى ستة زكائب احتجاجات من أجله من المسلمين والاقباط ؟ .. »



ومن مذكرات القمص سرجيوس عن ثورة ١٩١٩ ، ان ضابطا بريطانيا قال له : « لقد صبرنا عليك أربعين يوما وأنت تخطب ضدنا فى الازهر » ، وأجاب سرجيوس قائلا : « اذا كنت أنت لم تحتملنى فى بلادى ٤٠ يوما ، فكيف احتملناكم نحن ... فى بلادنا أربعين عاما ؟ ! » ومما يذكر أن الـكثير من أبنـاء الشعب كانوا يطلقون على سرجيوس لقب خطيب الثورة ، ولقب « خطيب الازهر » .

مكتبة الأزهر

منارة العلوم الإسلامية والإنسانية

مكتبة الازهر من أشهر المكتبات فى العالم ، يعرفها الباحثون والعلماء من الشرقيين والغربيين على السواء احتفظت على طول العصور بقيمتها التاريخية لانها ضمت بين دفتيها نفائس الكتب ونوادر المخطوطات ، ففيها ما ليس فى مكتبات الاستانة والقيروان وبغداد ، وفيها من الادب النادر والتاريخ القيم ، وكتب الشريعة من مختلف أنواعها .. التفسير وغريب الحديث والحكمة والفلسفة ، وكتب السياسة الرشيدة ، وهى زاخرة بما تحويه من انتاج أفكار العلماء المسلمين الذين ضربوا بسهم وافر فى المعرفة والثقافة الاسلامية ، يسير طالب العلم بين جوانبها فيحار فيما جمعته تلك المكتبة من أندر المخطوطات التى لم تتوفر لغيرها من المكتبات ، ورغم تعرض هذه المكتبة للسرقات المتكررة ، وبيع كتبها ومخطوطاتها بأبخس الاثمان ، الا أنها ما زالت تحتفظ بكنوزها الوافرة ونوادرها القيمة ..

ولو رجعنا الى الوراء قليلا لوجدنا ان الاسلام عنى قديما بتكوين المكتبات ، وممن عنى بذلك أهل مصر ، ومن أشهر مكتباتهم القديمة مكتبة الاسكندرية التى أسسها بطليموس الاول فى القرن الثامن قبل الميلاد . ويقال أن عدد الكتب بهذه المكتبة قد وصل الى أربعمائة ألف مجلد .

(*) للاستاذ عاطف مصطفى

وأول من أنشأ مكتبة فى العصر الاسلامى هو خالد ابن يزيد الاموى فى دمشق ، وبأمره ترجمت كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية الى العربية ، كما أسس هارون الرشيد مكتبة ببغداد جمع فيها ماوجده من الكتب النفيسة ، ثم وسعها المامون وسماها « بيت الحكمة » واهتم بها من حيث ترتيب خزائنها وتبويب فهارسها تسهيلا لمحبى القراءة والاطلاع واهتم المأمون بمراسلة الملوك فى شأن الكتب ، وكان يضع فى شروط معاهداتهم تقديم الكتب له باللغات التى اشتهرت فى ذلك الوقت . وقد اسند الإشراف عليها الى كبار العلماء والادباء ، وممن تولى شئونها الاديب المشهور سهل بن هارون .

كما انتشرت المكتبات العامة فى بغداد والشام والاندلس ومصر . واهتم الحكام فى كل بلد اسلامى بانشاء المكتبات وصل الى حد المنافسة فى اقتناء الكتب وتقريب الادباء الى مجالسهم والاهتمام بأمورهم وقد بلغ عدد المكتبات فى غرناطة وحدها سبعين مكتبة.

وقد اقتدى الفاطميون بمصر بخلفاء بغداد والاندلس فى انشاء المكتبات والاهتمام بها وتنشيط الحركة العلمية ، فأنشأوا مكتبة « خزانة الكتب » ومكتبة « دار الحكمة » ومكتبة « الجامع الازهر » ، ونالت المكتبات فى ذلك الوقت اهتماما شديدا من العزيز بالله ، فكان يجرى الارزاق على العلماء والاطباء ، ويهتم بكل ما من شأنه رفع الثقافة وزيادة المعرفة بين أهل مصر

صراع من أجل البقاء

ليست المكتبة الازهرية الموجودة الآن هى مكتبة الازهر القديمة التى اشار اليها المؤرخون فى كتبهم ،

وانما هي مكتبة حديثة قامت على أطلال المكتبة القديمة ، فقد قال ابن ميسر فى كتابه « أخبـــار مصر » سنة ٥١٧ هـ : « انه قد أسند الى داعى الدعاة أبى الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الازهر مع خزانة الكتب»
وقد ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٥) « ان الحاكم أمر بنقل نصف الـكتب التى كانت بدار الحكمة الى الجامع الازهر ، والباقى الى مسجده ، ومسجد المقس » ويتضـح من هـذا أن مكتبة الازهر كانت تضم أكثر من خمسين ألف كتاب .

وقد وزعت معظم كتب مكتبـة الازهر على الاروقة التى بلغ عددها زهاء الثلاثين رواقا وزاوية ، واشهرهـا رواق الشوام والمغاربة والاتراك ، والشراقوة والاروام ، وآخرها الذى أنشىء قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل وهو الرواق العباسى ، وذلك لاطلاع الطلبـة عليهـا ، وخصص منهم من يقوم على هذه الـكتب وحفظها .

ولـكن اتضح أن كثيرا من نفائس الـكتب التى كانت مودعة بمكتبات الاروقة تسرب الى أيدى علمـاء أوربا ومكتباتها الشهيرة وذلك عن طريق سـماسرة الـكتب الذين استغلوا الجهل والضعف الخلقى فى نفوس بعض القائمين على هـذه المـكتبات فى بعض الفترات . والى جانب تسرب الـكتب وبيعها بأبخس الاثمان ، فقـد أهمل البعض وترك فى سراديب طعاما سائغا للحشرات وتكومت فوقه الاتربة ، فتلفت أوراقهـا ، وبليت ، ومزقت وقطعت جلودها ، وكاد لا يوجـد منهـا كتاب سليم الا ما ندر . كما ان الفرنسيين حينما اقتحمـوا الازهر أثناء الحملة الفرنسية على مصر نهبوا كثيرا من هذه الكتب التى ما يزال البعض منهـا بمكتبـة باريس

ولقد كان تعرض كتب الاروقة للضياع والتسرب الى

أيدي المتربصـــين بها ممن يعرفون أقدارها والذين تخصصوا في الحصول عليها وارسالها الى أوربا ، هو الذى أوحى للشيخ محمد عبده بفكرة انشاءمكتبةالازهر بعد أن راعه أن هذه الـكنوز العلمية مبعثرة لا يهتم بها أحد .وكان ذلك ضمن برنامجه الاصلاحى للازهر والذى أخذه على عاتقه ، وقد تقدم الشيخ محمد عبده بفكرته هذه الى مجلس ادارة الازهر ، فنالت الفـكرة القبول من أعضائه وبخاصـة الشيخ حسـونة النواوى شيخ الجامع الازهر فى ذلك الوقت والـذى وهب مكتبته الخاصة لهـذا المشروع الجليل دون تردد ليقتـدى به الآخرون . واجتمع مجلس ادارة الازهر لدراسة هـذا المشروع وما لبث أن وافق عليه ، واختار المكان المناسب لعمل مكتبة الازهر . وكتب لديوان الاوقاف الذى كان يتولى الاشراف على شئون الازهر لاعداد تنفيذ هـذه الفكرة ، وتم تنفيذها فعلا فى أول المحرم سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٧ م) .. وقد لاقى الامام محمد عبده كثيرا من الصعاب فى اقناع القائمين على الاروقة بفـائدة مكتبة الازهر ، وضرورة تنفيذها حفاظا للتراث الاسلامى من الضياع ، وتجميعه فى مكان واحد ليكون أكثر فائدة ، وأعم نفعا لطلاب الازهر من كل بلاد العالم الاسلامى .

ولم يكتف محمد عبده فى تكوين المـكتبة بما جمع من مكتبات الاروقة بل دعا الاغنياء والعلماء فى المشاركة فى تكوينها مستعينا فى ذلك بمدى حبهم له ومكانته عندهم فاستجاب البعض لذلك وعلى رأسهم الشيخ حسـونة النواوى ، وورثة سليمان باشا أباظة .

مكتبة مبعثرة

ومكتبة الازهر ليست ـ كما يتبـادر الى الذهن ـ

مكانا محدد المعالم تستطيع أن تجد فيه بغيتك من قاعات مجهزة للقراءة ، كافية الاضاءة ، لـكنها تشمل أماكن كثيرة ، فهى تشغل أربعة أمكنة متفرقة داخل الجامع الازهر ، وهى المدرسة الاقبغاوية والمدرسة الطبرسية، ورواق الاحناف ، والرواق العباسى .

والمدرسة الاقبغاوية على يسار الداخـل الى الازهر من بابه الغربى الـكبير ، وقد أنشأها الامير أقبغا عبـد الواحد على نظم المدارس الاسلامية فى ذلك الوقت . وفى المدرسة الاقبغاوية توجد المـكتبة العـامة بجميـع فنونها التى تبلغ اثنين وستين فنا .

أما المدرسة الطبرسية فهى على يمين الداخـل الى الازهر من بابه الغربى ، وقد أنشأها علاء الدين طبرس نقيب الجيوش المصرية ، وأتم بناءها سنة ٧٠٩ هـ .

وقد شغلت المـكتبة أولا المدرسة الاقبغاوية ، وعندما ضاقت بالـكتب ضمت اليها المدرسـة الطبرسية حتى تستوعب الـكتب الـكثيرة والمخطوطـات التى أمكن تجميعها بعد جهود شاقة بناء على اهتمام الشيخ محمد عبده بجمع التراث والاحتفاظ به لـكل طالب علم .

ومن أجمل ما تراه العين بمكتبة الازهر تلك المكتبات الخاصة الملحقة بها والتى أهداها أصـحابها الى راغبى العلم بالازهر ، وهذه المـكتبات موضوعة فى أماكن خاصة داخل المـكتبة العامة ، ومن هذه المـكتبات الفرعية :

مكتبة سليمان باشا أباظة ، مكتبة الشيخ محمـد بخيت المطيعى ، مكتبة الشيخ الانبابى ، مكتبة الشيخ حسونة النواوى ، ومكتبة الشيخ محمـد حسنين البولاقى ... الخ .

وبقيت مكتبات المغاربة والاتراك والشـوام بأروقتها تحت اشراف أمنـاء يحافظون على ما تحويه من نوادر

المخطوطات وبخاصة مكتبة رواق المغاربة التى يوجد بها كثير من المخطوطات النادرة والكتب القيمة .

ربع مليون كتاب

ومكتبة الازهر بها ربع مليون كتاب ومخطوط وتشمل اثنين وستين فنا ، وهى ثانى مكتبة فى مصر بعد دار الكتب ، ويوجد بها أكبر مجموعة فى العالم من التراث العربى الاسلامى منها مخطوطات ثمينة لا توجد فى أية مكتبة سواها برغم السرقات والاهمال الذى لحق بها حقبا طويلة من الزمن ، وبعض هذه المخطوطات بخط مؤلفيها الكبار ، ولو طبعت هذه المخطوطات وتداولها الباحثون لغيروا رأيهم فى كثير من مفكرى العرب والاسلام ، ولعرفوا قدرهم فيما توصلوا اليه بثاقب علمهم ، وغزير انتاجهم لشتى النظريات فى الطب والفلك والرياضيات .

وليس أدل على ذلك من الاجهزة العلمية الفريدة الموجودة بمكتبة الازهر ومنها أجهزة الرصد الفلكية والتى تدلُ على التفاعل العميق بين الازهر ومجالات العلم المختلفة والتى تبلورت الآن بالازهر فى مراحل تطويره كخطوة على طريق طويل من الاستجابات لتطورات الحياة . وهذا الربط يتم عن طريق الكليات الحديثة بالازهر ، كالطب والصيدلة والهندسة ، بالاضافة الى تطوير المناهج بالكليات الاصيلة كاللغة العربية وأصول الدين والشريعة ...

كنوز بمكتبة الازهر

وتضم المكتبة نوادر الكتب والمخطوطات فى كثير من

الفنون من العسير أن نجدها فى أى مكتبة أخرى ، ذلك لان مكتبة الازهر ورثت خلاصة الثقافة الاسلامية فى الشرق ممثلة فى مؤلفات علماء الجامع الازهر بصفة خاصة وعلماء الاسلام بصفة عامة ، فالازهر قبلة العلماء ، وصفوة النابهين من المسلمين لاكثر من ألف عام مضت . وكان ولا يزال مصدرا من مصادر الثقافة الاسلامية الرشيدة لراغبى العلم من كل بلاد العالم .

وفى المكتبة بعض مؤلفات السيوطى بخطه ، وبعض مؤلفات ابن حجر ، وبها جزء من القاموس بخط مؤلفه الفيروزبادى ، وبها نسخة ينقصها جزء من شرح ابن بطال على البخارى ولا تعرف هناك نسخة أخرى فى جميع مكتبات العالم غيرها ، وبها مخطوطات ترجع الى نحو من ألف سنة مثل كتاب غريب الحديث لابن سلام، وكتاب البعث لابن داود السجستاني ، ومن الكتب النادرة فيها كتاب رسوم دار الخلافة الذى نشر أخيرا محققا لاهميته .

وأهم ما يلفت نظرك بالمكتبة المصاحف المختلفة الاحجام والتى كتبت بماء الذهب ، ومنها المصحف ذو الحجم الضخم الذى وقفه أقبغا صاحب المدرسة عام ٧٤٠ هجرية ، ومصحف شريف فى تسع عشرة ورقة مهدى الى المكتبة من عباس حلمى ، ومصحف بالخط الكوفى مكتوب على رق الغزال يرجع تاريخه الى أوائل القرن الرابع الهجرى .

ويوجد أيضا صندوق صغير غاية فى الروعة ودقة الصنع به « ربعة قرآن » وهو باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهذا الصندوق من أندر روائع الفن الاسلامى الباقية حتى الآن .

هذا بالاضافة الى مجموعات نادرة من المخطوطات

فى علوم اللغة والتاريخ والفلك وبعضــــها يحتوى على « حواشى » بخط المؤلف نفسه .
والى جانب هذه الـكنوز الموجودة بمكتبة الازهر ، تمتاز المكتبة بوفرة فى العلوم الدينية والعربية ، وذلك لصلة المكتبة بالازهر ، وصبغته الدينية ، ولانها تكونت فى الغالب من مكتبات العلماء الذين تنبــع ثقافاتهم من معين دينى عربى .

تطوير المكتبة

وفى الآونة الاخيرة كان للمكتبة الازهرية حظ كبير من النشاط العلمى ، ولزيادة الـكتب وكثرتها ضم اليهـا الرواق العباسى ، لـكى تستوعب أكبر عدد من الكتب وكذلك محاولة انجاز فهرس المكتبة والذى طبع منه حتى الآن سبعة أجزاء والثامن تحت الطبع ، وقد تميز هذا الفهرس باستيفاء البيانات عن موضوعات الـكتب مع ذكر مواليد المؤلفين ووفياتهم ، وقد عنى بالمخطوطات عناية خاصة ، ولا سيما ما يتعلق بالناحية العلميــة ، والفنية ، وذلك ببيان ما عليها من سماعات واجازات وتصحيحات وما فيها من نقوش وزخارف تمثل روح العصر .
ولا يفوتنا أن نشير الى أن العنـاية بتصنيف واعادة ابراز الـكتب المجهولة فى القرن التاســع عشر وأوائل القرن العشرين من شأنها أن تلقى ضوءا على الـكثير من التيارات الفكرية التقدمية التى تشــيع لها الازهر فى فترات الاحتلال وفى عهود التخلف العثمـــانى . وكان الازهر مليئا بأصحاب النزعات والافكار التجـــديدية والتى اهتم بعضهم بالعلم فى حد ذاته فألفوا أهم المراجع فى أبواب العلوم والمنطق والتفسير ، واهتم بعضهم الآخر

بجوانب التجديد الاجتماعى . ان مكتبة الازهر بكل ما تحويه من هذه الكنوز ، وهذا التراث العلمى الفريد الذى يحتاج الى مراجع كثيرة لحصره ، ونقله الى محبى التراث العربى والاسلامى ، لتحتاج الى تغيير جذرى فى كل شىء ، وبأسرع ما يكون ، ولا بد لوزارة الاوقاف وشئون الازهر بأن تسرع بانشاء مبنى يتناسب وهذا التراث الاسلامى العريق ، وتجند كل القوى المحبة للعلم ، والتى لها الملم بتراث تلك المكتبة فتضاعف من مجموعه ، حتى تحفظ تلك الدرة الثمينة التى تعد تاجا على جبين مصر والشرق العربى .

والحفاظ على مكتبة الازهر وما بها من كنوز ما هو الا نوع من التدعيم للمكتبة الاسلامية فى شتى بقاع العالم الاسلامى ، حتى يتزود المسلم بكل فنون المعرفة من نتاج سلفه الصالح والذى يملأ خزائن كبيرة للكتب الفريدة المتنوعة فى كل علم وفن .

المـرأة فى الأزهـر

تطور الازهر فى وثبتــه الاخيرة على صـورة تبشر بالامل الـكبير .. بعد أن ظلت أبوابه موصــدة أمام دخول المرأة الى رحابه زمنا طويلا مع أن تاريخ الاسلام حافل بأسماء نساء كثيرات قمن بأدوار رائعة فى المجتمع الاســلامى من دعوة وارشاد وأدب وشـعر ، ورواية حديث ، وبطولات قومية. وقد تنبهت الدول الحضارية الى أهمية المرأة فى نشر الدعوة الدينية ، ففتحت لهـا المدارس كما زودت بها الارساليات التابعة لها فى الدول المختلفة ...

وفى التطور الجديد للأزهر الشريف عام ١٩٦٢ فـكر المسئولون فى انشـاء كليـة اسلامية للبنـات ، يعتمد منهجها على دراسات اسلامية انسانية تهدف فى صميمها أولا الى تهذيب الفرد وربطه بالمجتمع العام والخاص ، وتوقظ فيه الوجدان المؤمن .

ولقد مرت مراحل التحاق الفتـاة بالازهر بأدوار عديدة .. ففى الوقت الذى لم تكن الفتاة المصرية تفكر فيه فى دخول الازهر ، فكرت فتيات مسلمات من بلاد مختلفة فى دخول الازهر ، وجاءت ثلاث فتيات من بلاد الملايو الى القاهرة عام ١٩٥٠ للالتحاق بالازهر الشريف ، ولـكن رفض طلبهن بحجة أن اللائحة لا تبيح ذلك ..

(*) للاستاذ عاطف مصطفى

ولقد كان الشيخ المراغى رحمه الله من مشجعى فكرة دخول الفتاة الازهر ، كما كان المغفور له عبد العزيز جاويش من أنصار الفكرة ، وكان ينادى فى خطبه ومحادثاته بوجوب انشاء فرق فى المعاهد الدينية لتعليم المرأة الدين والعربية ووسائلهما .

***

وكلية البنات الاسلامية هى النواة لانشاء جامعة للبنات ، وقد زاد الاقبال على هذه الكلية بصورة واضحة كنتيجة للدور الواضح الذى تقوم به ، والسمعة الطيبة التى تتمتع بها .

وتجمع الفتاة فى دراستها بكلية البنات الاسلامية بين علوم الدين والدنيا التى تدرس لها فى كل سنوات الدراسة ، وهى الدراسات الاسلامية الانسانية والتدبير المنزلى ، والفنون الطرزية ، الى جانب علوم التخصص فى الهندسة والطب والاجتماع وباقى فروع العلم ، وبذلك ستصبح خريجة هذه الكلية أما صالحة وعاملة منتجة فى نفس الوقت ، ونظرا لما لهذه التجربة الفريدة فى نوعها من أهمية بالنسبة للمرأة المعاصرة ، فقد كان لابد لنا من لقاء مع المهتمين بهذه التجربة .. لنلقى ضوءا على أبعادها وصولا الى دور الازهر البارز من حيث تطويره وانطلاقه الى أبعاد جادة خلاقة .

ويبدأ لقاؤنا بالدكتورة زينب راشد عميدة الكلية سألتها : على ضوء تجربتك بالنسبة للحياة الجامعية ،

ما أوجه الاختلاف بين الفتاة الجامعية الازهرية

وزميلتها فى الكليات الاخرى ؟ ..

فأجابت : هو الاختلاف بين التعليم المنفصل والتعليم المختلط ، كل من النوعين له مزاياه الواضحة فالتعليم

المنفصل الذى أدى الى انشاء كليات خاصة بتعليم البنات ، تجربة تبنتها أكثر الدول تمدينا وتقدما منذ اهتمامها بحركة التعليم ، ومنها الدول الاوربية العريقة مثل فرنسا وانجلترا ، ومن الدول الاحدث الولايات المتحدة الامريكية .

وهناك أمثلة متعددة فى العالم الحضارى الذى قطع شوطا بعيدا فى ميادين التقدم العلمى والتربوى . وفى هذا أكبر دليل على ان تعليم البنت وتثقيفها فى معاهد أو كليات خاصة بها ، ليس دليلا على التخلف ، وقد أخذت مصر بهذا فى عصرها الحديث وسياستها التقدمية فأنشأت كلية مستقلة للبنات فى جامعة عين شمس .

ومن مزايا هذا النوع من التعليم أن الفتاة تستطيع فى حرية مطلقة أن توجه الاسئلة وتتاح لها الاستزادة من العلم دون حرج وبخاصة فى بعض المواد ، كالفقه ، والشريعة ، والطب . والى جانب ذلك لا يجوز أن نغفل ما للعامل الدينى من أثر فى تكوين الشخصية ولا سيما فى العصر الحاضر ، الذى نفتقد فيه القيم الدينية والروحية والاخلاقية ، ثم ان جامعة الازهر جامعة دينية قبل كل شىء ، قامت منذ أكثر من ألف عام لتربية الناشئين على أساس من العقيدة الدينية والتمسك بالقيم الاخلاقية والروحية لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم الاسلامى كله ، وهذه الرسالة ترجمت فى صورة مناهج فى العلوم الاسلامية تدرس لجميع طالبات كلية البنات ، مهما كان تخصص الطالبة منهن ، فطالبة الطب ، وطالبة العلوم والطبيعة ، وطالبة اللغات الاجنبية ، مثل طالبة الدراسات العربية والاسلامية ، تحظى بنصيب فى التربية الاسلامية من شريعة وفقه وتفسير وحديث ، وحفظ الآيات الله الكريمة وأقول بصراحة أن التحاق الفتاة بجامعة الازهر يعتبر فكرة

رائدة بالنسبة للفتاة المسلمة بصفة خاصة ، وللأسرة المسلمة بصفة عامة ، وان تزويد الفتاة المسلمة بهذه الثقافة الاسلامية الواعية بطريقة علمية ، يعود بفوائد عظيمة على المجتمعات الاسلامية ، لانه اهتمام بنصف المجتمع الذى كان مهملا .

ويفكر القائمون على أمر هذه الكلية فى انشاء فرع جديد تتخصص فيه الفتاة بالاقتصاد المنزلى والريفى حتى يكون لخريجاتها فى هذا التخصص الاثر الفعال فى توجيه الاسر المسلمة فى قلب الريف المصرى .

* هل نجحت تجربة الفتاة فى الازهر؟ وما مدى نجاحها؟

ـ الاجابة عن هذا السؤال تقتضينا أن ننبه الى أن هذه التجربة لم تبدأ الا منذ أعوام قلائل ، ولست أحب أن أفيض فى مدى نجاحها فى غير تحفظ ، فبشائرها قد بدت واضحة على الرغم مما قام فى سبيل النهوض بهذه الكلية من عقبات لا أقول أنها خاصة بمثل هذه التجربة ، ولكنها عقبات تقوم فى سبيل كل تجربة جديدة .

وبحسبى أن أشير الى ما يتعلق فيها بالبيئة ووسائل الاعلام ، فمن المفروض أن طالبة الازهر تحترم الكلية التى تنتمى اليها ، وتتمشى فى سلوكها ومظهرها مع التقاليد الاسلامية العريقة ، ولكن بعض الطالبات لا يتبعن هذه التقاليد ، وهذا يتنافى تماما مع الحكمة التى من أجلها أنشئت هذه الكلية ، ومما لا شك فيه ان هذا يرجع الى قصور تفكيرهن والى عدم اسهام المنزل فى التعاون مع الكلية لتوجيههن التوجيه السليم وتحقيق الهدف الذى تسعى اليه الجامعة . وقد قامت الكلية بمحاولات عديدة لتصحيح هذا الوضع ، منها

انهـا اشترطت فى بادىء الامر زيا معينا ، ورغبـة فى التشجيع على محافظة طالبة الازهر على مظهرها اللائق، كانت وزارة الاوقاف تسهم بما يزيد على نصف تكاليف كل من الزيين الشتوى والصيفى للطالبة .

ولما ازداد عدد الطالبـات ، وتعذر وجود الـكميات اللازمة من الخامات لصنع هذا الزى وتوقفت الوزارة عن الاسهام فى تكاليف الزى ، تهاونت الطالبات أولا فى شرائه ، ثم امتنعن بعد ذلك عن ارتدائه .

ورأت الـكلية عنـدئذ أن تكتفى بفرض مواصـفات معينة لملابس الطالبات ، وأعلنت ذلك أكثر من مرة فى الـكلية ، واستعانت بموظفات رعاية الشـبـاب من المشرفات الاجتماعيات والمشرفات الرياضيات على ضبط العملية ، مما ترتبت عليه مشـاكل عديدة ، وفشلت هـذه المحـاولة ، فطلبت الـكلية الى مجلس الجامعة صراحة أن تضمن شروط القبول بالـكلية شرط ارتداء زى معين ، وبعد المناقشة رؤى أن هذا الموضوع لا يمكن ادراجه ضمن شروط القبول ، واكتفى بتوصية خاصة بارتداء طالبة جامعة الازهر ، زيا مناسبا .

ومما يعيد الطمأنينة الى القلوب أن السيـد الدكتور وزير الاوقاف وشئون الازهر قد أبدى اهتماما بالغـا بمسألة زى الطالبات ، وتم الاتفاق على أن تعود وزارة الاوقاف مرة أخرى الى تمويل مشروع الزى المناسب الخاص بطالبات الـكلية .

ولا يفوتنى أن أذكر أن من مظاهر نجاح تجربة الفتاة فى جامعة الازهر أن الـكلية تبينت عند اتصـال بعض أولياء أمور الطالبات بها فى المناسبات المختلفة أن بناتهن قد بدأت تظهر فى سلوكهن آثار التربية والتوجيه الدينى الاسلامى ، مما جعلهن ينصحن ذويهن وجيرانهن بارتداء

الملابس المناسبة وتأدية الصلاة فى مواعيدها ، وهذه ارهاصات تبشر بالخير ، ومثل ذلك ما ينتهى الى علمى من الاقطار الاسلامية الاخرى التى تدرس بناتها فى الكلية الاسلامية .

* ما الذى تتمنينه لنجاح التجربة على اطلاقها ؟..

ـ هناك أمور نرجو أن ننجح فى تحقيقها ليتم لنا ما ينبغى لهذه التجربة من نجاح :

١ ـ تعميم معاهد الفتيات الثانوية والاعدادية بالاعداد الكافية التى تصب فى الكلية فيسهل عمل الجامعة اذ تجد فيهن المثل الطيب الذى يستطيع تفهم الجو الاسلامى والتمشى مع تقاليده .

٢ ـ أن تتيح الكلية للفتاة ممارسة حياتها الدينية بكل الوسائل الممكنة وذلك ببناء مسجد أو ايجاد مكان متسع لاداء فريضة الصلاة للنساء ، وان الكلية لتأمل فى أن يكون للطالبات فى أقرب وقت مسجد خاص بهن ، فيه من الوعاظ ما يمكن الفتاة من أداء واجباتها الدينية على النحو الكامل .

٣ ـ تفهم القائمين بالامر فى وسائل الاعلام لطبيعة رسالة جامعة الازهر والمعاونة فى تحقيق أهدافها .

وأمنيتى أن يعيش الطالبات كلهن فى دار واحدة كما يعيش الطلاب فى المعاهد العسكرية ، فهى حياة قوامها النظام الكامل القائم على احترام القوانين الروحية والمبادىء السامية والاخلاق الكريمة يغذيها الايمان الصادق بكل ذلك .

***

وسئل الدكتور احمد ابراهيم الشعراوى وكيل الكلية :

* هل يعتبر دخول الفتاة جامعة الازهر تجربة جديدة

ـ الازهر صورة للمدرسة الاسلامية الاصيلة ، ولان الله كتب له أن يعيش هذا العمر الطويل ، فقد أصبح النموذج الحى الباقى لهذه المدرسة منذ عهـد البعثة النبوية الشريفة الى الآن .. والدين الاسلامى كرم المرأة وأعطاها حقوقا لم تحصل عليها المرأة عموما قبله . من ذلك اعطاؤها الحق فى تلقى العلم وتشجيعها عليه .

وقد كانت النساء فى عهـد الرسول صلى الله عليه وسلم يشاركن الرجال فى تلقى العلم عنه ، حتى لقد خصص لهن يوما لذلك . ومنذ عصر الرسول الى الآن والمرأة المسـلمة تشارك فى تلقى المعرفة وتلقينها . والصحابيات اللاتى نقل المسـلمون عنهن أصـول الدين كثيرات ، ومن الامثلة البارزة على ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها ، التى قال الرسـول عليه صـلاة الله وسلامه : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وتسجل لنا صفحات التاريخ أن بعض السـيدات وصلن فى العصور الاسلامية المختلفة الى نفس المستوى العلمى للرجـال فى التخصصـات الدقيقة ، كوصـول بعضهن الى درجة الافتـاء ، من هؤلاء ، فاطمة بنت الامام الـكاشانى صاحب كتاب « البـدائع فى الفقه الحنفى» . فقدكانت تشارك والدها فى اصـدار الفتاوى فى المسائل التى يستفتى فيها وتوقع عنه ، وبعد أن تزوجت انضم زوجهـا الى اللجنة المـكونة من والدها ومنها ، فأصبحت ثلاثية ، تصدر عنها الفتاوى ممهورة بتوقيع الثلاثة .

أما الازهر فقـد ظلت أبوابه مفتوحة لطالبات العلم منذ انشائه، ولم توصد الا بعد الحملة الفرنسية. واذن، فدخول الفتـاة المسلمة جامعـة الازهر ليس بالتجربة

الغريبة على الازهر ، بل هو استئناف لتقليد اسلامى قديم ، درج الازهر عليه ، ودرج المجتمع الاسلامى عليه منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

* هل نجحت فتـــــاة الازهر الحديثة فى تحقيق الاهداف المرجوة منها ؟ ..

ـ انه لا ينتظر لاى عمل فى مجال التربية والتعليم أن يبدأ بنجاح مائة فى المائة ، وهذا شيء يعرفه المشتغلون فى ميادين التعليم المختلفة . ومع ذلك فمقدار النجاح الذى حققته الفتاة الحديثة فى جامعة الازهر مرض ، بل وفوق ما كان منتظراً ، ونحن على الطريق نعمـل بدون ملل ولا يأس للاصلاح ، وتجنب الاخطاء ، والاخذ بيد فتاة جامعة الازهر حتى تصل الى المستوى الرفيع الذى نرضاه لها .

والمتتبع لتطور نمو كلية البنات الاسلامية يدرك لاول وهلة التضاعف السريع لاعداد الطالبات بها ، فقد بدأت الكلية عند افتتاحها منذ حوالى عشر سنوات بحوالى ثلاثمائة طالبة ، وبلغ عدد طالباتها الآن أربعة آلاف منهن فتيات من احدى وعشرين جنسية .

وانا نرجو أن تسمح ظروف الكلية باستيعاب أكبر عدد من الفتيـات المسـلمات اللاتى يرغبن فى الالتحاق بالكلية من جميع الاقطار الاسلامية وبخاصـة حينما تتحول كلية البنات الى جامعة للبنات ، وتحويل أقسامها الى كليات .

***

وسئلت الدكتورة أميرة على توفيق المدرسة بالكلية :

* ما الذى تضيفه فتاة الازهر الجديدة الى المجتمع؟

ـ لا تقتصر رسالة جامعة الازهر على العلم وحده ،

انما رسالتها الاولى هى الدين ، فهى جامعة تعد الفتاة العالمة المؤمنة ، الفتاة التى تواجه مشكلات العصر الحاضر مسلحة بالعلم بجانب العقيدة والايمان ، الفتاة التى تعيد الى المجتمع الاسلامى ما افتقده فى الآونة الاخيرة من الاسس والمبادىء الاخلاقية الاسلامية الصحيحة .

وانا نعقد آمالا كبارا على أن تكون فتاة الازهر من العوامل الفعالة فى نشر مبادىء الاخلاق الكريمة ، وأسس الدين الحنيف فى تعاملها مع أفراد المجتمع ، طبيبة ، ومهندسة ، وكيميائية ، ومربية ، وزوجة واما قبل كل شيء .

* باستثناء دراسة المواد الاسلامية فى كلية البنات الاسلامية ، هل تختلف الدراسة فيها عن غيرها من الجامعات ؟ ..

ــ الواقع أن الدراسة العلمية فى كلية البنات تدرس فيها التخصصات المختلفة تماما كما تدرس فى غيرها من الجامعات فى جمهورية مصر العربية ، عدا تدريس المواد الاسلامية لجميع التخصصات لا للمتخصصات فى الدراسات الاسلامية فقط ، غير أن جامعة الازهر تتميز ببعض الامور ، فطالبات قسم التجارة مثلا هن الوحيدات بين طالبات التجارة فى الجامعات المصرية اللاتى يدرسن الآلة الكاتبة والاختزال ويتدربن عليها ضمن مواد تخصصهن وقسم اللغات والترجمة الفورية فضلا عن انه لا نظير له فى الجامعات الاخرى ، فانه أنشىء به معملان للصوتيات للتدريب على اللغات الاجنبية واللغة العربية .

هذا من حيث المناهج الدراسية ، أما من حيث رسالة فتاة الازهر واتجاه الدراسة فيها ، فانى أرى أن فتاة

جامعة الازهر هي التي يجب أن تحمل امانة احياء الحضارة العربية والثقافة الاسلامية ، والتعريف بها ونشرها ، باعتبارها الحضارة التى ظلت نبراسا يهتدى به العالم طوال العصور الوسطى .. أو العصور المظلمة كما يسميها بعض المؤرخين ، فواجب فتاة الازهر التى تتخصص فى الطب مثلا ، أن تبدأ بدراسة طب العرب الذى ظل يدرس فى بعض جامعات أوربا حتى أواخر القرن السابع عشر ، وواجب فتاة الازهر التى تتخصص فى العلوم الاسلامية أن توضح كيف ان أحكام الشريعة الاسلامية هى الاسس التى أخذت منها القوانين الوضعية ، وان التساهل فى أحكام الشريعة الاسلامية عن طريق القوانين الوضعية يعتبر من أهم الاسباب فيما انتشر فى المجتمع العربى الاسلامى من عيوب .

وواجب فتاة الازهر التى تتخصص فى العلوم الادبية احياء التراث الادبى بدراسته وتحقيق مخطوطاته ونشره وشرحه ونقده ودراسة النابهين من أدبائنا وعلمائنا وانتاجهم باعتبارهم جزءا من ثروتنا الادبية والقومية ، وهكذا . وهدف الدراسة فى الازهر يجب أن يؤخذ من احياء الحضارة والثقافة العربية الاسلامية منطلقا لدراسة ما تطورت اليه العلوم المختلفة وما توصل اليه العلم الحديث ، ثم الاسهام فى هذا التطور بما يستطاع .

* ما الاقتراحات التى ترين أنها تساعد على تحقيق ما يرجى لفتاة الجامعة الازهرية ؟ ..

ـ هناك اقتراحات كثيرة أعتقد أن أهمها :

١ ـ استكمال مبانى الجامعة فى أسرع وقت ممكن حتى تستطيع الكلية أن تؤدى واجبها على الوجه المرضى .

٢ ـ انشاء مدينة جامعية تستوعب أكبر عدد من فتيات الجامعة ، يمارسن الحياة الاسلامية ويتعلمن السلوك الاسلامى الصحيح تحت اشراف عناصر تربوية حكيمة ذات مستوى علمى غال ، تصلح لان تكون قدوة للطالبات فى هذه السن ، وليس هذا بغريب ، ففى أغلب الجامعات المشهورة فى أوربا يتولى الاشراف على المدن الجامعية أساتذة من الجامعة .

٣ ـ العمل على اعداد الملاعب الخاصة التى تستطيع طالبة جامعة الازهر أن تمارس فيها أنواع الرياضة المختلفة ، لما فى الرياضة من أثر فى تكوين الروح الرياضية والخلق الرياضى الحق .

٤ ـ انشاء مركز لانواع النشاط المختلفة يخصص له وقت معين فى جدول الدراسة بالكلية حتى يمتص نشاط الطالبات ، وتتفتح مواهبهن ، وتبرز القوى الابداعية فيهن .

٥ ـ اتخاذ الخطوات اللازمة والمقنعة لظهور طالبة الازهر بالمظهر الذى يتناسب مع ما لجامعة الازهر من مركز دينى .

٦ ـ انشاء مدينة لطالبات البعوث الاسلامية على غرار مدينة الطلاب للبعوث الاسلامية حتى تتمكن البنات المسلمات فى أنحاء الوطن العربى من الالتحاق بالجامعة ، ولا تعوقهن الصعاب والمتاعب التى تصادف الفتاة الغريبة فى مدينة كبيرة مثل القاهرة ، وان الاهتمام بالفتاة المسلمة فى البلاد الاسلامية اهتمام بهذه الشعوب نفسها .

٧ ـ أن تأخذ كلية البنات وضعها الطبيعى فهى وان سميت كلية فانها فى الواقع جامعة بمعنى الكلمة ، ووضع الامور فى نصابها يساعد على تحقيق الاهداف .

شقيقات الأزهـــر

من أقدم وأشـــهر الجامعات الاســـلامية فى العالم ، جامعتا القيروان والزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى المغرب ، وواحدة فى الهند هى جامعة عليكره .. وكلها شقيقات للأزهر ، وان اختلفت الاعمار ! ..

لم يقصر الاسلام رسالة المسجد على الصلاة ، بل جعله مقام ذكر ، وموطن تلاوة ، ومعهد علم وثقافة... وأول مسجد فى العالم بناه النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، يوم هاجر الى المدينة وكان مخصصا للفريضة ، ومدرسة يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم ودنيـــاهم ، واقتدى الخلف بالسلف : فبعد الصلاة فى المسجد تعقد الحلقات لدراسة علوم الدين والدنيـــا ، وتدرس اللغة والنحو والصرف والادب وسائر العلوم .

وفضل علوم الاسلام والعرب على العالم لا ينكر .. وحلقات الدرس فى المساجد ــ كما يقول الدكتور بدوى عبد اللطيف مدير جامعة الازهر ــ هى النظام الجامعى الحق ، لانه يجمع بين الاســـــتاذ وطلابه فى جو من البساطة ... وهكذا فان الجامع الاســـلامى ، جامعة بأحدث ما تحمله الـكلمة من معنى ! ..

أقدم جامعة

دخل العرب تونس سنة ٦٧٠ ميـــلادية ، وأنشـــأوا

(*) للاستاذ محمد حسن

مدينة القيروان ، وفى السـنة التالية ـ أى بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام بنحو ٣٨ سنة ـ بنى القائد العربى عقبة بن نافع مسجده الجامع هناك ليؤمه طلاب العلم من المشرق والمغرب . وقد أنشىء بالقيروان معهد لدراسة الطب والرياضة والصيدلة ، وأطلق على المعهد اسم « بيت الحكمة » ، وقام أساتذته بنشر العلوم فى حوض البحر الابيض وأوربا ، وأصبحت مدينة القيروان هى عاصمة المسلمين فى افريقيا .

وفى العصر العثمانى لم يكن يسـمح لغير المسـلمين بدخول القيروان : مدينـة الاربعمائة مسـجد بمآذنها وقبابها ، غير أن المسجد الجامع هدم وأعيد بناؤه خمس مرات ـ حيث تبـادل البربر والرومان الاغارة على تونس ـ والبناء الحالى يرجع الى عهد الاغالبة فى القرن الثالث الهجرى .

وفى سنة ٧٣٢ ميلادية ، اثر فتوحات عبد الله بن الحبحاب وعبد الرحمن الغافقى ، بنى الحبحاب جامع الزيتونة من الرخام المجلوب من أنقاض مدينة قرطاجنة المشهورة ، غير ان تونس كانت فى ذلك الوقت لا تزال عرضة للغزو الخارجى بعد أن فقدت أسطولها الضخم الذى كان يسيطر على شواطىء غربى البحر الابيض ، لذلك كانت تحيط بالجامع اربع قلاع هى فى الواقع احد الحصون الالف المنيعة المنتشرة على سـاحل البحر الابيض من طنجة الى الاسكندرية .

ولقد ظل جامع الزيتونة حصنـا : على منبره تلقى خطب الجهاد الوطنى من عهد عبد الله بن الحبحاب الى عهد الحركة الوطنية ، ومنه تخرج المظاهرات الوطنية ضد قوات الاحتلال ... وحتى بعد الاستقلال ، كان الرئيس بورقيبة يلقى من منبره خطبة فى جهاد النفس

والمحافظة على مكاسب الاستقلال .

يقول الدكتور صلاح العقاد فى كتابه « المغرب العربى : دراسات تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة» : ان مصادر الحركة القومية التونسية ترد فى الغالب الى أصول اسلامية بحتة ، وتتمثل فى المراكز الاسلامية العريقة فى تونس ، وعلى رأسها جامع الزيتونة ... واحد أبناء هذه المدرسة الدينية ، وهو الشيخ محمد السنوسى ، كان أول من قدم عريضة مطالبا بالدستور، كما تخرج فى هذه الجامعة الشيخ المكى بن عزوز، الذى كان له الفضل فى تخريج الجيل الاول من المناضلين التونسيين ، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز الثعالبى، وكان ابن عزوز يسير على نهج سلفه الوزير خير الدين ، الذى كان له الفضل فى نشأة طبقة المجددين حين أسس مدرسة الصادقية سنة ١٨٧٥ لتدريس العلوم الحديثة فى اطار عربى اسلامى . وفى هذه المدرسة تخرج رواد الحركة الوطنية من أمثال بشير صفر، وعلى باش‌حمبه ، ولقد كان مثقفو الزيتونة هم الذين أنشأوا حزب التقدم ، الذى تطور بعد ذلك الى حزب تونس الفتاة ــ على غرار حزب تركيا الفتاة ــ ثم حزب الدستور ، فالحزب الدستورى الجديد ، الذى يرأسه الحبيب بورقيبة ، رئيس الجمهورية الحالى .

وحين زار الرحالة المصرى محمد ثابت جامع الزيتونة فى الاربعينات ، قال : « رأيت الطلبة منكبين على المطالعة والدرس فى أركان المسجد ، فهو منهل للعلوم الاسلامية على طريقة الازهر عندنا ، ويتلقى فيه العلم زهاء ٣٠٠٠ طالب ، وللغرباء فروع ــ أروقة ــ يأوون اليها ، ويخصص لكل طالب أو اثنين غرفة ، ويزيد عدد تلك الفروع على العشرين . وتلحق بالمسجد مكتبة قيمة

حوت اثنى عشر ألف مجلد ... وللتونسيين اهتمام بمعاونة المنشآت العلمية ، يقفون عليها كثيرا من أموالهم فى سخاء كبير » .

ولفهم التطور العلمى لجامعة الزيتونة ، لابد من المامة سريعة بالمذاهب الدينية فى تونس : جلب جند الشام المذهب الاوزاعى الى تونس والمغرب والاندلس ، وبعد وفاة الاوزاعي صارت تونس على المذهب المالكى الذى انتشر من القيروان الى بقية المغرب والصحراء والاندلس وجزر البحر الابيض . وفى فترة تالية ساد المذهب الحنفى ، وكان أسد بن الفرات ـ فاتح صقلية ـ يدرس هذا المذهب بجامع القيروان ، ولكن الشعب كان مالكيا ، وكان سحنون يدرس المذهب المالكى أيضا فى جامع القيروان . أما البربر الضاربون فى الجبال والصحارى والجزر فمعظمهم على مذهب عبد الله بن الاباض . ومع ان المذاهب ظهرت فى تونس العاصمة مبكرة ، فان التعليم ظهر فى القيروان مسبقا ، ولم ينتقل الى جامع الزيتونة الا فى عهد دولة الموحدين . وكان التونسيون ، والصقليون المهاجرون وأشهرهم آل صقلى فى الطب ـ والاندلسيون ـ وأشهرهم ابن عصفور وابن القصار فى النحو ، والقلعاوى والابلي والواديashi فى العلوم ـ هم الذين يقومون بالتدريس ـ وبعد سقوط اشبيلية جاء ابن خلدون ، وابن سعيد ، وابن أبى الحسن ، والمالقى ، وابن الابار ، وغيرهم .

واستعان الموحدون فى التعليم بجامع الزيتونة أيضا ببعض الليبيين مثل أبى البركات عبد الحميد بن أبى الدنيا ، وكانت العلوم الرياضية والطبيعة والفلك والكيمياء والطب والتاريخ والجغرافيا تدرس فى جامعة الزيتونة بالاضافة الى علوم اللغة والدين . وقد ذكر

العالم الشيخ محمد مخلوف فى كتابه « شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية » طبقات الاساتذة والائمة والعلماء الذين تخرجوا فى الزيتونة ثم درسوا بها ، ومن بين هؤلاء ابن خلدون ، وابن عرفة ، وابن راشد القفصى وماغوش وغيرهم .

وتحوى جامعة الزيتونة مكتبة ضخمة ، أسسها أبو زكريا ، مؤسس الدولة الحفصية ، وأضاف اليها من جاء بعده من الخلفاء الموحدين أو من الامراء المراديين والحسينيين ، وكانت المكتبة عند تأسيسها تحوى نحو ٤٠ الف مخطوط بقى منها اليوم ٢٥ الفا ، منها الفريد والنادر والنفيس ، ومن أقدم المخطوطات تفسير ابن سلام القيروانى ، وهو مكتوب على رق الغزال بالخط الكوفى الجميل ، ويعتبر من أقدم التفاسير ــ ان لم يكن أقدمها . وفى المكتبة كتب فى السياسة والحرب والطب والتاريخ واللغة والفقه والحديث ، ولها نظام للاعارة المحلية والخارجية .

وطراز جامعة الزيتونة يكاد يكون شاملا للانماط المعمارية الاسلامية : فيه الفن المغربى من أفريقى واندلسى ومراكشى ، وفيه الفن الفاطمى والعربى والتركى ، والجامع الاول الذى بناه الحبحاب يجمع بين الفنون البيزنطية والايرانية والعربية : القلعة بيزنطية ، والصومعة المستديرة ايرانية ، والنمط العام عربى يشبه جامع الكوفة ... ومنبر الجامع يعتبر تحفة من الفن الاسلامى ، صنع سنة ٢٤٩ هجرية على نمط منبر القيروان ، وهو فى مقصورة الى يمين المحراب ، يخرج منها على سكة حين استعماله ثم يعاد بعد ذلك الى مكانه .

وحول جامعة الزيتونة ، أسواق بديعة تتعلق بمهام

الجامعة : سوق الكتبيين ـ باعة الكتب ـ وسوق السفارين ـ المجلدين ـ وسوق الشهود العدول ـ المأذونين ـ الذين يستحضرون الى داخل الجامع لكتابة العقود التى تبرم بعد أداء الفرائض للبيع والشراء والايجار والزواج ، وسوق الفضة التى تصنع فيها المباخر والمجامر و « المرشات » والمراوح التى يتقى بها المجتمعون داخل المسجد حر الصيف ... هذا فضلا عن سوق العطارين، وسوق الطيبيين ـ وهم باعة العطور والبخور ... تماما مثل أسواق العطارين والصاغة والغورية وغيرها ، التى تحيط بالجامع الازهر فى القاهرة .

مهاجرو القيروان بنوا جامعة القرويين

فى القرن الثامن الميلادى هاجر أكثر من ثلاثة آلاف من أهالى القيروان ، هربا من قظائع الرومان والبربر فى بلادهم ، وبالقرب من مدينة فاس استوطنوا « عدوة القيروانيين » التى بسطت فيما بعد الى « عدوة القرويين » . من هؤلاء المهاجرين كانت السيدة فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهرى القيروانى ، وحين توفى والدها ترك لها ثروة طائلة ، انفقتها كلها فى بناء جامع القرويين سنة ٨٠٢ ، على نمط جامع القيروان فى بلادها، وتحول الجامع بعد ذلك الى جامعة للدراسات الاسلامية، وقد ظلت فاطمة الفهرية صائمة ، محتسبة الى الله ، حتى تم بناء المسجد ، فصلت فيه شكرا ... وفى نفس الوقت قامت أختها مريم بعمل مماثل فى جامع الاندلس.

ولم يبق جامع القرويين على حاله ، فقد زاد فيه احمد بن أبى بكر الزناتى عامل عبد الرحمن الناصر ، فبنى الصومعة الموجودة الان وازال القديمة سنة ٣٤٥

هجرية ، ومن بعده زاد المنصور بن أبى عامر الحاجب فيه ، ثم وسعه على بن يوسف اللمتونى من دولة المرابطين . وفعل مثله ملوك دولة الموحدين وبنو مرين ، فقد أنشأ السلطان أبو عنان فارس المرينى حول القرويين عدة مدارس ، وأسس مكتبة ، وقام يوسف بن تاشفين بتأسيس مدرسة الصابرين ، وبنى السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الخالق مدرسة العطارين ، وشيد أبو عنان مدرسة البوعنانية . وكل هذه المدارس تابعة لجامعة القرويين .

وفى رحاب هذه الجامعة بدأت الدراسات الاولية فى اللغة العربية والدين والشريعة ، وذاع صيتها ، فتوافد عليها العلماء من كل قطر ، وفى فاس اليوم لا تزال عائلات كثيرة تحمل أسماء تنتسب الى البلاد التى جاءت منها مثل عائلات التونسى والجزائرى والمصرى والعراقى واليمنى ... وكان من أثر نجاح الجامعة أن أصبحت منارة العلم فى العالم الاسلامى ، واشتهرت مدينة فاس حتى أصبح المثل يقول : « يكاد العلم ينفجر من حيطان فاس » .

ولقد سطرت هذه الجامعة العريقة صفحات مشرقة فى تاريخ القرويين ، فمنها انبعثت الانطلاقة الاولى سنة ١٩٣٠ لمقاومة « الظهير البربرى » الذى أراد به المستعمر فصل البربر عن مسلمى المغرب . ومنها خرجت الحركات الوطنية ضد الاستعمار الفرنسى ، وكان خريجوها هم رواد الوطنية فى المغرب . ولقد اهتم علماء القرويين ، بالاضافة الى ذلك ، بكل العلوم والفنون : كانوا يخصصون مجالسهم داخل المسجد للعلوم الاسلامية وعلوم اللغة ، ويخصصون المدارس المحيطة بالجامع للرياضيات والطب والتاريخ والموسيقى ... وبعض العلوم كانوا يدرسونها

فى بيوتهم كعادة بعض جامعات أوروبا الان مثل جامعة « ليدن » فى هولندا .

وقد بقيت هذه الجامعة نشطة طيلة تاريخها ، وظلت منارة العلم التى تحدت الاحداث السياسية التى مرت بها ، خصوصا ضغط الاستعمار الفرنسي لطمس معالم العروبة والدين فى المغرب ، وبقيت كعبة طالبى العلم فى الشرق والغرب ، وجاءها (سلفستر) الثانى طالبا العلم ، ومنها نقل الاعداد العربية الى أوروبا ، ولا تزال تستخدم للان .

وفى عام ١٩٣١ عين الملك محمد الخامس مجلسا أعلى للاشراف على جامعة القرويين ، فقام بتطوير برامجها لتلائم روح العصر الحديث ، فقسمت الدراسة فيها الى ثلاثة أقسام يمنح الطالب فى نهايتها شهادة العالمية ، وفى عام ١٩٥٧ أدخلت العلوم الحديثةكالتاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلسفة الاسلامية واللغات الاجنبية . ويسمى نظامها الان « التعليم الاصلى » . ولعل أهم ما فى هذا التغيير هو تعريب الدراسة كلها ، مما جعل جامعة القرويين تحتفظ بمكانتها القديمة كمصدر لاشعاع الروح الاسلامية العربية .

وللقرويين دور فعال فى تعليم المرأة ... حيث كانت فىالبداية تتلقى علوم القرويين وهى فى دارها وتحضر بعض المحافل التى يعقد فيها الفقهاء مجالسهم، واستمر اتصال القرويين بالوسط النسوى حتى عصر النهضة الحديثة ، حين نادى الملك محمد الخامس من فوق منبر القرويين بوجوب تعليم الفتاة كالفتى تماما ، فقال : « لا رقى لشعب نصفه أشل » ، ففتحت الجامعة أبوابها للنساء ، وفى عام ١٩٤٧ فتحت الجامعة

معهداً للفتيات .

وكانت الجامعة فى بداية عهـدها تعتمـد على كتب الفقهاء والعلماء الخاصة : كان الطلبة ينسخون منهـا دروسهم ، ثم أنشأ السلطان أبو عنان فارس المرينى مكتبة القرويين وأودعها كثيرا من الـكتب تحتوى على « علوم الابدان والاديان واللسان والاذهان » ... ولقد نمت هـذه المـكتبة حتى أصـبحت اليوم من أضـخم المـكتبات ، فهى تضم أكثر من ١٠ آلاف مخطوط فى جميع انواع المعرفة ، ففيها كتب فى الرياضة ، والطب ، والفلك ، والهندسة ، وعلم الجبر ، والحساب ، وعلوم الفلسفة ، واللغة ، ومن هـــذه المخطوطات ما كتبه أصحابها بخط يدهم كـكتاب « الاوقات » لمحمد بن كومرت الذى اختصر كتاب الموطأ ، وكتاب «الطهـارة» وهو مكتوب على رق الغزال ، وكتاب « العبر » لابن خلدون مذيل بتوقيعه ، وكتاب « سير ابن اسحاق » فى القرن الخامس الهجرى ، وهى نسخة فريدة فى العالم ، وكتاب « الرجم والحدود » لعلى يوسف بن تاشفين ، ومنظومة «الطب» لابى بكر بن الطفيل ، وتضم ٧٧٠٠ بيت من الشعر ... هذا فضلا عن كتاب «سير ابراهيم ابن الفزارى» على رق الغزال، وهو من أقدم مخطوطات المـكتبة ، ومخطوطة مرسومة بالبيـان والتحصيل فى الفقه المالـكى للفقيه ابن رشد ، قيل انه استخدم فى كتابته ٣٦٠ غزالا ! ..

وبالمغرب جامعة دينية أخرى هى «جامعة بن يوسف» بمدينة مراكش، تضم عدة آلاف من الطلبة والطالبات ، وقد طورت مناهجها بعد الاستقلال ، لتقبل المرأة ، فضلا عن تعليم اللغات الاجنبية وباقى العلوم الحديثة.

من جامعة عليجره تخرج علماء الشرق الاقصى

دخل الاسلام الهند فى القرن الثامن الميلادى على يد الفاتح العربى محمد بن القاسم ، فى عهد الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك ، وفى القرن الثالث عشر قامت دولة المماليك على يد السلطان قطب الدين ايبك ، وفى مستهل القرن السادس عشر قامت الدولة المغولية على يد ظهير الدين بابر ، وفى بداية القرن الثامن عشر بدأت الامبراطورية المغولية تضمحل وتتفكك ، فبدأ الاستعمار البريطانى يدخل الهند على يد « شركة الهند الشرقية » وفى منتصف القرن التاسع عشر ثار الهنود على الشركة ، فتم قمع الثورة ، وحكم الاستعمار البريطانى بشكل سافر ، وقاطع المسلمون المستعمر تماما حتى أصابهم التلف والجهل ...

وفى هذه الظروف المؤلمة برز من بين صفوف المسلمين شيخ تجرع بنفسه مرارة الحرمان والخذلان بعد أن دالت دولة المسلمين فى الهند ، هو السيد أحمد خان ، وأدرك الشيخ أن المقاطعة والسلبية لن تؤدى بالمسلمين الا الى مزيد من التلف ، فنادى بتعليم المسلمين حتى يمكنهم أن يلحقوا بمجدهم القديم . وفى عام ١٨٧٧ أنشأ كلية اسلامية فى عليجره تدرس العلوم الاسلامية بالاضافة الى العلوم الحديثة . . وتوفى السيد أحمد خان عام ١٨٩٩ ، ولكنه خلف رجالا مثل هالى ، وغفر الملك ، وشبلى ومحسن الملك حملوا رسالته . بعض هؤلاء الرجال ، مع آخرين ، أسسوا «المؤتمر الاسلامى» فى مطلع القرن العشرين . وفى عام ١٩١٣ أصبح القائد الاعظم محمد على جناح عضوا فى المؤتمر الاسلامى ، وفى عام ١٩٣٠ عقد المؤتمر الاسلامى فى مدينة الله آباد

برئاسة الشاعر محمد اقبال ، وفى هـذا المؤتمر نادى اقبال بدولة للمسلمين ، وقام القائد الاعظم محمد على جناح بالجهاد فى سبيل الفكرة حتى ولدت جمهورية باكستان الاسلامية ..

غير أن جامعة عليجره الاسلامية بقيت فى مقاطعة أوتار براديش بالهند ، ومضت تنتعش حتى ذاع صيتها فى جميع أنحاء العالم ، بفضل اثنين من أبرز أساتذتها ، هما الاستاذ البريطانى سير والتر رايلى، والعلامة شبلى النعمانى ، المؤرخ الهندى ومؤسس ندوة العلماء بمدينة لكناءو ، والذى كان له الفضل فى رفعها الى درجة جامعة ، بعد نداء للاكتتاب تبناه زعيم طائفة الاسماعيلية الراحل اغا خان ، وتم جمع أكثر من ٣٠ مليون روبية.

وفى سنة ١٩٢٠ تحولت الكلية الصغيرة الى ما هو معروف الآن باسم « الجامعة الاسلامية بعليجره » ، أقدم الجامعات التى أسستها الامة الاسلامية فى الهند، وأكثرها صيتا وشهرة ، فقد أسهمت هذه الجامعة فى تثقيف الشباب المسلم وصوغه فى قالب جديد ، ومعظم زعماء المسلمين فى ماضى الهند القريب ، وأغلب العلماء الذين برزوا فى مختلف العلوم العصرية ونالوا شهرة دولية إما من خريجى هذه الجامعة وإما ممن كانت لهم علاقة بها .

وقد أقيمت الجامعة على نمط جامعتى أكسفورد وكمبردج البريطانيتين، مع تعديل بسيط لتلائم الظروف والاوضاع الهندية . وفى عام ١٩٢٥ احتفلت الجامعة بمرور نصف قرن على انشائها ، ودعى المسلمون الى اكتتاب جديد لاقامة كلية للهندسة ، وأقسام للطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والنبات ، بالاضافة الى تعزيز قسم الجغرافيا . وفى عام ١٩٤٤ أعيد تنظيم اقسام

الجامعة بحيث تمارس مختلف الكليات نشاطها برئاسات مستقلة ، ولتشجيع العلاج أنشأت الجامعة ـ بمعونة حكومة الولاية ـ معهدا لتدريس الطب اليونانى والجراحة . وكانت الجامعة تحاول اقامة كلية للطب الحديث ، فتحققت هذه الامنية فى عام ١٩٦٢، وأصبح قسم الطب فى الجامعة متكاملا بمستشفياته وصيدلياته ومبانيه .

ولم تكن بالجامعة كلية خاصة للبنات ، فتحولت مدرسة البنات الملحقة بالجامعة الى كلية تؤهل لدرجة الليسانس ، أما الماجستير والدكتوراه فتدرسها البنات فى الجامعة مع زملائهن من الطلاب ، وللطالبات مدينة جامعية منفصلة تسكنها الطالبات مراعاة لاصول الاسلام وتعاليمه ولوائح الجامعة ، مع التزام الحجاب المشروع وعدم الاختلاط بالطلبة الا فى قاعات المحاضرات ، وفى المناسبات الرسمية .

وكانت الجامعة ، منذ انشائها ، جامعة داخلية ، لان تربية الشباب على خطوط معينة وأصول خاصة وأغراض محددة ، لن تتحقق الا فى جو الجامعة ، لذلك أقيمت مدينة جامعية رحبة للطلبة .

والجامعة تضم اليوم سبع كليات ، هى الكلية الدينية وتتألف من قسم للعلوم الدينية على مذهب أهل السنة وقسم للعلوم الدينية على مذهب الشيعة... وكليات : الآداب ، والعلوم ، والهندسة ، والطب ، والحقوق ، والتجارة .

وللجامعة مكتب نشط للخريجين ، يسهل لهم الالتحاق بالوظائف ويرعاهم ويخلق منهم أسرة مترابطة حتى بعد مغادرتهم للجامعة ...

فهرس

صفحة

كتاب الهلال القادم :

أشعار وشعراء من المهجـــــر

بقلم
محمد عبد الغنى حسن

يصدر ٥ فبراير ١٩٧٣ ـ الثمن ١٠ قروش

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

هذا الكتاب ، هو القصة الكاملة لاعظم جامعة اسلامية في العالم ، نصدره بمناسبة مرور الف سنة على اقامة أول صلاة جامعة في رحابها المبارك ..

ويختلف هذا الكتاب في طبيعته عن سائر « كتب الهلال » في أنه ليس بقلم كاتب واحد ، وانما أسهمت فيه مجموعة من ألمع الكتاب في المجالات المختلفة التي يلم بها الازهر ، لان الازهر لم يكن على طول تاريخه مجرد مسجد للصلاة ، ولا مجرد معهد للعلم ، وانما كان دائما مصدر الاشعاع للحركات الفكرية التي أثرت أبلغ تأثير في حركات الادب والشعر والسياسة والاجتماع ، لا في مصر وحدها ، بل في الامة الاسلامية من مشرقها الى مغربها ، ومن شمالها الى جنوبها .

ذلك ان الازهر ليس ملكا لمصر وحدها ، بل هو ملك لله جل جلاله ، ورجاله سدنة لكتاب الله ، بكل ما في هذا الكتاب من بيان وحكمة وتاريخ وتشريع وتنوير .

ولاتزال أروقته مفتوحة للقادمين عليه من كل فج عميق ، بلا تفرقة بينهم لجنس أو لون ، لان الاسلام ينكر هذه التفرقة ، ولا يجعل لمسلم فضلا على مسلم ، ولا لعربي فضلا على أعجمي ، ولا لابيض فضلا على احمر أو أسود ، الا بالتقوى .

ولقد لبست الجامعة الازهرية لباس الدين قرونا طويلة ، حتى وثبت وثبة العلم في هذا العصر ، فلم يجمد الازهر ، ولم يغلق أبوابهـــا دونه ، ولكنه تطور وفتح أبوابه للعلم الحديث على جميع مصاريعها دون أن يخلع لباس الدين ، لانه لا تناقض بين العلم والدين ، اذ هما قرينان ، وما العلم الصحيح الا سبيل للايمان .

وهذه هي رسالة الازهر في عهد العلم والايمان .

١٠ قروش